نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني

المتوفى سنة ١٠٤١هـ

شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له

الدكتورة مريم قاسم طويل
أستاذة اللغة الإسبانية والتاريخ الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الدكتور يوسف علي طويل
أستاذ الأدب الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الجزء الرابع

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني

المتوفى سنة ١٠٤١هـ

شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له

الدكتورة مريم قاسم طويل
أستاذة اللغة الإسبانية والتاريخ الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الدكتور يوسف علي طويل
أستاذ الأدب الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الجزء الرابع

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار الكتب العلمية

Dar al-Kotob al-Ilmiyah

بيروت - رمل الظريف - شارع البحتري - ص.ب.: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت
هاتف و فاكس: (١_٩٦١) ٦٠٢١٣٣ _ ٨٦٨٠٥١ _ ٣٦٦١٣٥ _ ٣٦٤٣٩٨

Beirut, Ramel al-Zarif, Bohtory St. - P.O.Box : 11-9424 Beirut
Tel. & Fax : (961-1) 602133 - 868051 - 366135 - 364398

Beirut - lebanon بيروت _ لبنان



الباب السادس

في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق، المهتدين في قصدهم إليها بنور الهداية المضيء المُشْرق، والأكابر الذين حَلوا بحلولهم فيها الجِيدَ منها والمَفْرِق[1]، والمفتخرين برؤية قُطْرها المونق، على المُشْئِم والمُعْرِق[2].

اِعْلَمْ أنَّ الداخلين للأندلس من المشرق قوم كثيرون لا تُحْصَرُ الأعيان منهم، فضلاً عن غيرهم، ومنهم من اتّخذها وطنًا، وصيّرها سَكَنا، إلى أن وافته مَنِيَّتُه، ومنهم من عاد إلى المشرق بعد أن قُضيت بالأندلس أُمْنِيَّتُه.

١ ـ فمن الداخلين إلى الأندلس المُنَيذر الذي يقال إنه صحابي رأى رسول اللّه ﷺ.

قال ابن الأبار في التكملة[3]: المنيذر الإفريقي، له صحبة، وسكن[4] إفريقية، ودخل الأندلس فيما ذكره عبد الملك بن حبيب، قاله أبو محمد الرشاطي، ولم يذكره أحد غيره وروى عنه عبد الرحمن الحُبُليُّ[5]، انتهى.

وأنكر غير واحد دخولَ أحد من الصحابة الأندلس.

وذكر بعضُ الحفّاظ المنيذر المذكور، وقال: إنه المنيذر اليماني، وذكر الحِجَاري أنه

(١) المَفْرِقُ: وسطُ الرأس وهو الموضع الذي يُفْرَقُ فيه الشعرُ. مختار الصحاح (فرق).

(٢) المُشْئِمُ: المتّجه إلى الشام. المُعْرِقُ: المتّجه نحو العراق.

(٣) التكملة (ص ٧٣١).

(٤) في التكملة: «وكان يسكن».

(٥) هو عبد اللّه بن يزيد المعافري الحبليُّ؛ كان رجلاً صالحًا، بعثه عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية ليفقّه أهلها، وتوفي بها سنة ١٠٠ هـ. تاريخ علماء الأندلس (ص ٣٦٨) ورياض النفوس (جـ ١ ص ٦٤). وسيترجم له المقري في هذا الجزء من نفح الطيب رقم ٥.

من الصحابة رضوان اللّه تعالى عليهم، وأنه دخل الأندلس مع موسى بن نُصَير غازيًا، وقال ابن بَشْكُوال: يقال فيه المنيذر لكونه من أحداث الصحابة رضي اللّه تعالى عنهم، وقد حكى ذلك الرازي، وذكره ابن عبد البرّ في كتاب «الاستيعاب في الصحابة»[١] وسمّاه بالمنيذر الإفريقي، وقال ابن بَشْكُوال: إن ابن عبد البرّ روى عنه حديثًا سمعه من رسول اللّه ﷺ، وذكره أبو علي بن السكن في كتاب الصحابة وقال: روي عنه حديث واحد، وأرجو أن يكون صحيحًا، وذكره ابن قانع في معجم الصحابة له، وذكره البخاري في تاريخه الكبير إذ قال: أبو المنيذر صاحب رسول اللّه ﷺ، وكان قد حدّث بإفريقية عن رسول اللّه ﷺ، قال: «مَنْ قال رضيتُ باللّه ربًا، وبالإسلام دِينًا، وبمحمّد ﷺ نبيًا، فأنا الزعيم[٢] لآخذنَّ بيده فأدخله الجنّة» كذا ذكره البخاري بالكنية، وهذا الحديث هو الذي رَوَوه عنه لا يُعْرَفُ له غيره، وذكره أبو جعفر أحمد بن رشدين[٣] في كتاب «مسند الصحابة» له، فقال: المنيذر اليماني إمّا مِنْ مَذْحِج أو غيرها، وذكر الحديث سواء، وقد أشرْنا فيما سبق إلى المنيذر هذا[٤].

٢ ـ ومن التابعين الداخلين الأندلس أميرُها موسى بن نُصَير، وقد سبق من الكلام عليه ما فيه كفاية[٥].

٣ ـ ومن التابعين الداخلين الأندلس حنش الصنعاني[٦].

وفي كتاب ابن بَشْكُوال قال ابن وضاح: حنش لقب له، واسمه حسين بن عبد اللّه، وكنيته أبو علي، ويقال: أبو رشدين، قال ابن بَشْكُوال: وهو من صنعاء الشام. وذكره أبو سعيد بن يونس في تاريخ أهل مصر وإفريقية والأندلس، فقال: إنه كان مع علي بن أبي طالب، رضي اللّه تعالى عنه، وغزا المغرب مع رفيقه رُوَيفع بن ثابت، وغزا الأندلس مع موسى بن نُصَير، وكان فيمن ثار مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان، فأُتي به عبد

---

(١) انظر الاستيعاب في أسماء الأصحاب (ص ١٤٨٥).

(٢) الزعيم: الكفيل. مختار الصحاح (زعم).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «رشد».

(٤) انظر الجزء الأول من نفح الطيب.

(٥) الحديث عن موسى بن نصير في الجزء الأول من نفح الطيب.

(٦) ترجمة حنش الصنعاني في تاريخ علماء الأندلس (ص ٢٣٠) وجذوة المقتبس (ص ٢٠١) وبغية الملتمس (ص ٢٧٨) ورياض النفوس (جـ ١ ص ٧٨) وتهذيب ابن عساكر (جـ ٥ ص ٧) ومعالم الإيمان (جـ ١ ص ١٤٤).

الملك في وَثاق فعفا عنه، وكان أوّل من ولي عُشُور إفريقية في الإسلام، وتوفي بإفريقية سنة مائة.

وذكر ابن يونس عن حنش أنه كان إذا فرغ من عشائه وحوائجه وأراد الصلاة من الليل أَوقَدَ المصباح، وقرّب المصحف وإناء فيه ماء، فإذا وجد النُّعاس استنشق الماء، وإذا تعايا[1] في آية نظر في المصحف، وإذا جاء سائل يستطعم لم يزل يصيح بأهله «أطعموا السائل» حتى يطعم.

قال ابن حبيب: دخل الأندلس من التابعين حنش بن عبد اللّه الصنعاني، وهو الذي أشرف على قُرْطُبة من الفجّ[2] المسمَّى بفج المائدة، وأذّنَ، وذلك في غير وقت الأذان، فقال له أصحابه في ذلك، فقال: إن هذه الدعوة لا تنقطع من هذه البقعة إلا أن تقوم الساعة، هكذا ذكره غير واحد، وقد كشف الغيب خلاف ذلك، فلعلّ الرواية موضوعة أو مؤولة، واللّه تعالى أعلم.

وذكره ابن عساكر في تاريخه، وطوّل ترجمته، وقال: إنّ صنعاء المنسوب إليها قرية من قرى الشام، وليست صنعاء اليمن، وقد قيل: إنه لم يَرْوِ عن حنش الشاميون، وإنما روى عنه المصريون، وحدّث حنش عن عبد اللّه بن عباس أنه قال له: إنِ استطعْتَ أنْ تلقى اللّه تعالى وسيفُك حليته حديد فافعل. وكان عبد الملك بن مروان حين غزا المغرب مع معاوية بن حُدَيج[3] نزل عليه بإفريقية سنة خمسين، فحفظ له ذلك، فعفا عنه حين أُتي به في وَثَاق حين ثار مع ابن الزبير، وسُئِل أبو زُرْعَة عن حنش فقال: ثقة، ولم يذكر ابن عساكر أن حنشًا لَقَبٌ له، وأن اسمه حسين، بل اقتصر على اسمه حنش، ولعلّه الصواب، لا ما قاله ابن وضاح، واللّه تعالى أعلم.

وفي تاريخ ابن الفرضي أبي الوليد أنّ حنشًا كان بسَرَقُسْطة، وأنه الذي أسّس جامعها، وبها مات، وقبره بها معروف عند باب اليهود بغربي المدينة.

وفي تاريخ ابن بَشْكُوال أنه أخذ أيضًا قبلة جامع إلبيرة، وعدّل وزن قبلة جامع قرطبة الذي هو فخر الأندلس.

---

(١) تعايا في الآية: عجز في ضبطها. مختار الصحاح (عيي).
(٢) الفجّ: الطريق الواسع بين الجبلين، والجمع فجاج. مختار الصحاح (فجج).
(٣) في طبعة بولاق: «خديج» بالخاء المعجمة.

٤ ـ ومن التابعين[١] الداخلين للأندلس أبو عبد اللَّه علي بن رباح، اللخمي[٢].

ذكر ابن يونس في تاريخ مصر أنه ولد سنة خمس عشرة عام اليَرْمُوك، وكان أعور ذهبت عينه يوم ذات السَّواري في البحر مع عبد اللَّه بن سعد[٣] سنة أربع وثلاثين، وكان يفد لليمانية من أهل مصر على عبد الملك بن مروان، وكانت له من عبد العزيز بن مروان منزلة، وهو الذي زَفَّ أمّ البنين بنتَ عبد العزيز إلى الوليد بن عبد الملك، ثم عنت[٤] عليه عبد العزيز فأغزاه إفريقية، فلم يزل بإفريقية إلى أن توفي بها، ويقال: كانت وفاته سنة أربع عشرة ومائة. قال ابن بَشْكوال: أهل مصر يقولون: عَلي بن رَبَاح، بفتح العين، وأما أهل العراق فعُلَيّ، بضم العين، وقد سبق هذا الكلام عن ابن معين في الباب الثاني[٥]. وقال: وقال ابنه موسى بن علي: من قال لي موسى بن عُلَيّ بالتصغير لم أجعله في حلّ.

٥ ـ ومن التابعين الداخلين أبو عبد الرحمن عبد اللَّه بن يزيد الْمَعَافري الْحُبُليُّ[٦].

قال ابن بَشْكوال: إنه يروي عن أبي أيوب الأنصاري وعبد اللَّه بن عمرو[٧]، رضي اللَّه تعالى عنهم وغيرهم، ورويَ عنه جماعة. وذكر البخاري في تاريخه الكبير أنه يُعَدُّ في المصريين، وذكر ابن يونس في تاريخ المغرب أنه توفي بإفريقية سنة مائة، وكان رجلاً صالحًا فاضلاً، رحمه اللَّه تعالى! ويذكر أهلُ قرطبة أنه توفي بقُرطُبة، وأنه دفن بقبليِّها، وقبرُه مشهورٌ يُتَبَرَّكُ به، واللَّه تعالى أعلم بحقيقة الأمر في ذلك.

٦ ـ ومن الداخلين من التابعين حِبَّان بن أبي جبلة[٨].

ذكر ابن بَشْكوال أنه مولى قريش، ويكنى أبا النضر، وذكره أبو العرب محمد بن تميم في تاريخ إفريقية، وقال: حدّثني فرات بن محمد أن عمر بن عبد العزيز أرسل عشرة

---

(١) في طبعة دار صادر: «ومن الداخلين من التابعين...».

(٢) ترجمة علي بن رباح اللخمي في تاريخ علماء الأندلس (ص ٥٢٦) ورياض النفوس (جـ ١ ص ٧٧).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «سعيد».

(٤) عَنَتَ عليه: شدَّد عليه وأكرهه على أن يلزم ما يصعب عليه أداؤه. لسان العرب (عنت).

(٥) الباب الثاني من الجزء الأول!.

(٦) مرَّ التعريف بأبي عبد الرحمن عبد اللَّه بن يزيد المعافري الحبليّ والإشارة إلى مصادر ترجمته في هذا الجزء (ص ٣) في ترجمة المنيذر الإفريقي.

(٧) في طبعة عبد الحميد: «عمر».

(٨) ترجمة حِبّان بن أبي جبلة في تاريخ علماء الأندلس (ص ٢٢٥) ورياض النفوس (جـ ١ ص ٧٣) وتهذيب التهذيب (جـ ١ ص ١٦٢) ومعالم الإيمان (جـ ١ ص ١٥٨).

من التابعين يُفَقِّهُون أهلَ إفريقية منهم حِبَّان بن أبي جبلة، روى عن عمرو بن العاص وعبد الله بن عباس وابن عمر، رضي الله تعالى عنهم! ويقال: توفي بإفريقية سنة اثنتين وعشرين ومائة، وقيل: سنة خمس وعشرين ومائة. وذكر ابن الفَرَضي أنه غزا مع موسى بن نُصَير حين افتتح الأندلس حتى انتهى إلى حصن من حصونها يقال له قَرْقَشُونة فتوفي به. قال[1]: وقال لنا أبو محمد الثغري: بين قَرْقَشُونة وبَرْشِلُونة مسافة خمسة وعشرين ميلاً، وفيها الكنيسة المعظَّمة عندهم المسمّاة شنت مرية، ذكر أنَّ فيها سبع سوارٍ فضّة خالصة لم ير الراؤون مثلها لا يحزم الإنسان بذراعيه واحدة منها مع طول مفرط، هكذا نقله ابن سعيد عَمَّنْ ذكر، والله تعالى أعلم.

٧ - ومن الداخلين من التابعين فيما ذُكِر: المغيرة بن أبي بردة نشيط بن كنانة العذري[2].

روى عن أبي هريرة، رضي الله تعالى عنه، ويروي عنه مالك في موطّئه، وذكره البخاري في تاريخه الكبير، وفي كتاب الحافظ ابن بَشْكوال أنه دخل الأندلس مع موسى بن نُصَير فكان موسى بن نصير يخرجه على العساكر.

٨ - ومن التابعين حَيوَة بن رجاء التميمي[3].

ذكر ابنُ حبيب أنه دخل الأندلس مع موسى بن نُصَير وأصحابه، وأنه من جملة التابعين، رضي الله تعالى عنهم! قاله ابن بشكوال في مجموعه المترجم بـ «التنبيه والتعيين، لمن دخل الأندلس من التابعين».

قال ابن الأبار: وقد سمعته[4] من أبي الخطاب بن واجب، وسمعه هو منه، انتهى.

وقال ابن الأبار في موضع آخر ما صورته: رجاء بن حَيوَة مذكور في الذين دخلوا الأندلس من التابعين، وفي ذلك عندي نظر، وما أراه يصحُ، والله تعالى أعلم، انتهى.

فانظر هذا فإنه سمّاه رجاء[5] بن حيوة، وذلك السابق حيوة بن رجاء، فالله سبحانه أعلم بحقيقة الأمر في ذلك.

---

(١) هذا النص غير وارد في تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي.
(٢) ترجمة المغيرة بن أبي بردة العذري في رياض النفوس (ج ١ ص ٨٠).
(٣) ترجمة حيوة بن رجاء التميمي في التكملة (ص ٢٨٢).
(٤) هاء الضمير في «سمعته» تعود إلى كتاب ابن بشكوال المذكور.
(٥) ترجمة رجاء بن حيوة في التكملة (ص ٣٢٢).

٩ ـ ومنهم عياض بن عقبة الفهري.

ومن خيار التابعين، ذكره ابنُ حبيب في الأربعة الذين حضروا غنائم الأندلس، ولم يُغِلُّوا[١].

١٠ ـ ومنهم عبد الله بن شِمَاسة الفهري.

ذكر ابن بشكوال أنه مضري، وأن البخاري ذكره في تاريخه.

١١ ـ ومنهم عبد الجبار بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري.

جدُّه عبد الرحمن أحد العشرة[٢] رضي الله تعالى عنهم، وهو مِمَّنْ ذكره ابن بشكوال في الأربعة من التابعين الذين لم يُغِلُّوا.

١٢ ـ ومنهم منصور بن حزامة[٣] فيما يذكر.

قال ابن بشكوال: قرأت في كتاب روايات الشيخ أبي عبد الله بن عابد[٤] الراوية رحمه الله تعالى قال: ومِمَّنْ دخل الأندلس من المعمَّرين ما وجدت بخطِّ المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمن الناصر، رضي الله تعالى عنه في بعض كتبه المختزنة أنه قال: طرأ علينا رجل أسود من ناحية السودان في سنة تسع وعشرين وثلثمائة، فذكر أنه منصور بن حزامة[٥] مولى رسول الله ﷺ، وكان يزعم أنه أدرك أيام عثمان بن عفان، رضي الله تعالى عنه، وأنه كان مراهقًا، وكان مع عائشة، رضي الله تعالى عنها، يوم الجمل، وأنه شهد صِفِّينَ، وأن حزامة[٥] أعتقه رسول الله ﷺ، وخرج عن الأندلس في سنة ثلاثين وثلثمائة إلى المغرب، انتهى.

قلت: هذا كلُّه لا أصل له، ويرحم الله تعالى حافظ الإسلام ابن حجر حيث كتب على هذا الكلام ما صورته: هذا هَذَيان لا أصل له، ولا يغترّ به، وكذلك ترجمة أشج العرب اتّفق الحفّاظ على كذبه، انتهى.

قلت: وما هو إلاّ من نمط عكراش، والله تعالى يحفظنا من سماع الأباطيل بمنّه.

---

(١) غلّ: أخذ شيئًا لنفسه خفية قبل أن تقسم الغنائم. لسان العرب (غلل).

(٢) العشرة: أي العشرة المبشرين بالجنة.

(٣) في طبعة عبد الحميد: «خزامة» بالخاء المعجمة.

(٤) في الطبعة نفسها: «عائد».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «خزامة» بالخاء المعجمة.

ومن هذه الأكاذيب ما يذكرون عن أبي الحسن علي بن عثمان بن خطاب، وأنه يُعْرف بأبي الدنيا، وأنه كان مُعَمَّرًا مشهورًا بصحبة علي بن أبي طالب، كرّم اللّه وجهه، وأنه رأى جماعة من كبار الصحابة، رضي اللّه تعالى عنهم، ووصفهم بصفاتهم، وأنه رأى عائشة، رضي اللّه تعالى عنها، فيما زعم، وقدم قُرْطُبة على المستنصر الحكم بن الناصر وهو ولي عهد، وسأله أبو بكر ابن القُوطِية عن مَغَازي علي وكتبها عنه، وقد ذكره ابنُ بَشْكُوال وغيره في كتبهم وتواريخهم، فقد ذكر الثقات العارفون بالفنّ أنه كذّاب دجّال مائن[1] جاهل، فإيّاك والاغترار بمثل ذلك مِمَّا يوجد في كتب كثير من المؤرّخين بالمشرق والأندلس، ولا يلتفت إلى قول تميم بن محمد التميمي: إنه كان إذ لقيه ابن ثلثمائة سنة وخمس سنين، قال تميم: واتّصلت بنا وفاته ببلده في نحو سنة عشرين وثلثمائة، وبالجملة فلا أصل له، وإنما ذكرناه للتنبيه عليه.

وقد عرفت بما ذكرناه التابعين الداخلين الأندلس، على أن التحقيق أنهم لم يبلغوا ذلك العدد، وإنما هم نحو خمسة أو أربعة كما ألمعْنا به في غير هذا الموضع[2]، واللّه تعالى أعلم.

١٣ ـ ومن الداخلين إلى الأندلس مُغِيث فاتح قرطبة.

وقد تقدّم[3] بعض الكلام عليه، وذكر ابن حيان والحِجَاري أنه رومي، زاد الحِجَاري: وليس بروميٍ على الحقيقة، وتصحيح نسبه أنه مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جبلة بن الأيهم الغساني، سُبِي من الروم بالمشرق وهو صغير، فأدّبه عبد الملك بن مروان مع ولده الوليد، وأنجب في الولادة، وصار منه بنو مغيث الذين نجبوا في قرطبة، وسادوا وعظم بيتهم، وتفرّعت دَوحَتهم، وكان منهم عبد الرحمن بن مُغيث حاجب عبد الرحمن بن معاوية صاحب الأندلس وغيره. ونشأ مغيث بدمشق، ودخل الأندلس مع طارق فاتحها، وجاز على ما في طريقها من البلاد إلى الشام، وقدّمه طارق لفتح قُرْطُبة ففتحها ووقع بينه وبين طارق ثم وقع بينه وبين موسى بن نُصَير سيّد طارق فرحل معهما إلى دمشق ثم عاد ظافرًا عليهما إلى الأندلس، وأَنْسَلَ[4] بقرطبة البيت المذكور، وفي «المسهب» أنه

---

(١) المائن: الكاذب. مختار الصحاح (مين).

(٢) تقدّم ذلك في الجزء الأول.

(٣) تقدّم في الجزء الأول.

(٤) أَنْسَلَ: وَلَدَ وصار ذا نسب. لسان العرب (نسل).

فتح قرطبة في شوال سنة ٩٢، ثم فتح الكنيسة التي تحصَّنَ بها ملك قرطبة بعد حصار ثلاثة أشهر في محرم سنة ٩٣، ولم يذكر له مولدًا ولا وفاة.

وذكر الحِجَاري أنه تأدّب بدمشق مع بني عبد الملك فأفصح بالعربية، وصار يقول من الشعر والنثر ما يجوز كَتْبُه، وتدرّب على الركوب، وأخذ نفسه بالإقدام في مضايق الحروب، حتى تخرّج في ذلك تخرُّجًا أهَّلَه للتقدّم على الجيش الذي فتح قرطبة، وكان مشهورًا بحسن الرأي والكَيد، وقد قدَّمْنا كيفية فتحه قرطبة وأسره ملكها الذي لم يؤسَرْ من ملوك الأندلس غيره؛ لأن منهم مَنْ عقد على نفسه أمانًا، ومنهم من فَرَّ إلى جليقية.

وذكر الحِجَاري أنه لَمَّا حصل بيده ملك قرطبة وحريمه رأى فيهنَّ جارية كأنها بينهنَّ بَدْرٌ بين نجومٍ، وهي تكثر التعرّض له بجمالها، فوكّل بها مَنْ عرض عليها العذاب إن لم تُقِرَّ بما عزمت عليه في شأن مغيث، وأنه قد فطن من كثرة تعرّضها له بحسنها لما أضمرته من المكر في شأنه، فأقرّت أنها أكثرت التعرّض لتقع بقلبه، إذ حُسْنُها فَتَّان، وقد أعدّت له خرقة مسمومة لتمسح بها ذَكَرَهُ عند وقاعها، فحمد اللّه تعالى على ما ألهمه إليه من مكرها، وقال: لو كانت نفس هذه الجارية في صدر أبيها ما أخذت قرطبة من ليلة. وذكر أن سليمان ابن عبد الملك، لَمَّا أصغى إلى طارق في شأن سيّده موسى بن نصير فعذّبه واستصفى أمواله، أراد أن يصرف سلطان الأندلس إلى طارق، وكان مغيث قد تغيّر عليه، فاستشار سليمان مغيثًا في تولية طارق، وقال له: كيف أمره بالأندلس؟ فقال: لو أَمَرَ أهلَها بالصلاة إلى أي قبلة شاءها لتبعوه ولم يروا أنهم كفروا، فعملت هذه المكيدة في نفس سليمان، وبَدَا له في ولايته، فلقيه بعد ذلك طارق، فقال له: ليتك وصفت أهل الأندلس بعصياني، ولم تضمر في الطاعة ما أضمرت، فقال مغيث: ليتك تركت لي العِلْج[1] فتركت لك الأندلس، وكان طارق قد أراد أن يأخذ منه ملكِ قُرْطُبة الذي حصل في يده، فلم يمكنه منه، فأغرى به سيّده موسى بن نُصَير، وقال له: يرجع إلى دمشق وفي يده عظيم من عظماء الأندلس، وليس في أيدينا مثله، فأي فضل يكون لنا عليه؟ فطلبه منه، فامتنع من تسليمه. قال ابن حيان: فهجم موسى على العلج وانتزعه من مغيث، فقيل له: إن سرت به معك حيًّا ادعاه مغيث والعِلْج لا ينكر، ولكن اضرب عنقه، ففعل، فاضطغنها عليه مغيث، وبالغ في أذيّته عند سليمان.

---

(١) العِلْجُ: الواحد من كُفّار العجم، والجمع عُلُوجٌ. مختار الصحاح (علج).

وذكر الحِجَاري في «المسهب» أنَّ لمغيث من الشعر ما يجوز كتبه، فمن ذلك شعر خاطب به موسى بن نصير ومولاه طارقًا ويكفي منه هنا قوله: [الوافر]

أعَـنْـتُـكُـمُ ولـكـنْ مـا وَفَـيـتُـمْ فـسـوف أعيثُ في غربٍ وشرقِ

وعنوان طبقته في النثر أنَّ موسى بن نُصَير قال له وقد عارضه بكلام في محفل من الناس: كُفَّ لسانك، فقال: لساني كالمفصل، ما أكفُّه إلاَّ حيث يقتل. وأضافه ابن حَيَّان والحِجَاري إلى ولاء الوليد بن عبد الملك، وهو الذي وجّهه إلى الأندلس غازيًا ففتح قرطبة، ثم عاد إلى المشرق، فأعاده الوليد رسولاً عنه إلى موسى بن نُصَير يستحثّه على القدوم عليه، فوفد معه، فوجدوا الوليد قد مات، فخدم بعده سليمان بن عبد الملك.

١٤ ـ ١٥ ـ ومن الداخلين أيوب بن حبيب اللخمي[١].

ذكر ابن حيان أنه ابن أخت موسى بن نُصَير، وأنَّ أهل إشبِيلِيَةَ قدّموه على سلطان الأندلس بعد قتل عبد العزيز بن موسى، واتّفقوا في أيامه على تحويل السلطان من إشبيليةَ إلى قُرْطُبة، فدخل إليها بهم، وكان قيامه بأمرهم ستة أشهر، وقيل: إن الذي نقل السلطنة من إشبيلية إلى قرطبة الحرُّ بن عبد الرحمن الثقفي. قال الرازي: قدم الحرُّ واليًا على الأندلس في ذي الحجّة سنة سبع وتسعين ومعه أربعمائة رجل من وجوه إفريقية، فمنهم أول طوالع الأندلس المعدودين، وقال ابن بَشْكُوال: كانت مدة الحرّ سنتين وثمانية أشهر، وكانت ولايته بعد قيام أيوب بن حبيب اللخمي.

١٦ ـ ٢٦ ـ ومن الداخلين السَّمْحُ بن مالك الخولاني.

ولي الأندلس بعد الحرّ بن عبد الرحمن السابق. قال ابن حيان[٢]: ولاّه عمر بن عبد العزيز، وأوصاه أن يُخَمِّس من أرض الأندلس ما كان عَنْوَة[٣]، ويكتب إليه بصفتها وأنهارها وبحارها، قال: وكان من رأيه أن ينقل المسلمين عنها لانقطاعهم وبُعْدِهم عن أهل كلمتهم، قالوا: وليت اللّه تعالى أبقاه حتى يفعل، فإنّ مصيرهم مع الكفار إلى بَوَار[٤] إلاَّ أن يستنقذهم اللّه تعالى برحمته.

---

(١) أخبار أيوب بن حبيب اللخمي في أخبار مجموعة (ص ٢٨ وما بعدها).

(٢) نصّ ابن حيان في أخبار مجموعة (ص ٣٠) وتاريخ افتتاح الأندلس (ص ٣٨) والبيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٦).

(٣) ما كان عنوة: أي ما فُتح حربًا.

(٤) البَوارُ، بالفتح: الهلاك. لسان العرب (بور).

وذكر ابن حيان أن قدوم السَّمْح كان في رمضان سنة مائة، وأنه الذي بنى قنطرة قُرْطُبة بعدما استأذن عمر بن عبد العزيز، رحمه الله تعالى! وكانت دار سلطانه قُرْطبة.

قال ابن بشكوال: استشهد بأرض الفرنجة يوم التروية سنة اثنتين ومائة.

قال ابن حيان: كانت ولايته سنتين وثمانية أشهر، وذكر أنه قُتل في الوقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البَلاط[١]، وكانت جنود الإفرنجة قد تكاثرت عليه فأحاطت بالمسلمين، فلم يَنْجُ من المسلمين أحد.

قال ابن حيان: فيقال: إن الأذان يُسْمع بذلك الموضع إلى الآن.

وقَدَّمَ أهل الأندلس على أنفسهم بعده عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي.

وذكر ابن بَشْكُوال أنه من التابعين الذين دخلوا الأندلس، وأنه يروي عن عبد الله بن عمر، رضي الله تعالى عنهما! قال: وكانت ولايته للأندلس في حدود العشر ومائة من قبل عبيدة بن عبد الرحمن القَيسي صاحب إفريقية، واستشهد في قتال العدوّ بالأندلس سنة خمس عشرة، انتهى.

وفيه مخالفة لما سبق أنه ولي بعد السمح، وأن السمح قتل سنة ١٠٢، وهذا يقول تولّى سنة ١١٠، فأين ذا من ذاك؟ والله تعالى أعلم.

ووصفه الْحُمَيدِي[٢] بحسن السيرة والعدل في قسمة الغنائم. وذكر الحِجَاري أنه ولي الأندلس مرتين، وربما يجاب بهذا عن الإشكال الذي قدّمناه قريبًا[٣]، ويضعفه أن ابن حيان قال: دخل الأندلس حين وليها الولاية الثانية مِنْ قِبَلِ ابن الحبحاب في صفر سنة ثلاث عشرة ومائة، وغزا الإفرنج فكانت له فيهم وقائع جمّة إلى أن استشهد، وأُصيب عسكرُه في

---

(١) يروي صاحب أخبار مجموعة (ص ٣١) أن بشرًا عزل السمح بن مالك وولّى مكانه عنبسة بن سحيم الكلبي. ومن المعروف أن السمح واصل تقدمه وراء جبال البرتات حتى شارف طولوشة Tolosa، وهناك دارت معركة بينه وبين دوق طولوشة أسفرت عن مقتله.

(٢) انظر جذوة المقتبس (ص ٢٧٤) وبغية الملتمس (ص ٣٦٥).

(٣) قول الحجاري يُزيل الإشكال حقًّا؛ لأنّ عبد الرحمن الغافقي ولي أمر الأندلس بعد مقتل السمح بن مالك الخولاني، من قبل الجند سنة ١٠٢هـ، ريثما يأتي والٍ جديد. ولـمّا وصل عنبسة بن سحيم الكلبي أخذ عنبسة الولاية من يد الغافقي، ثم عاد الغافقي إلى ولاية الأندلس ثانية في حدود سنة ١١٢ هـ. وهذا يتعارض وقول ابن بشكوال إنه تولّى الأندلس في حدود سنة ١١٠ هـ. وفي جذوة المقتبس أنه ولي الأندلس في حدود العشر ومائة.

شهر رمضان سنة ١١٤، في موضع يُعْرَفُ ببلاط الشهداء.

قال ابن بَشْكُوال: وتُعْرف غزوته هذه بغزوة البَلاَط، وقد تقدّم مثل هذا في غزوة السَّمْح، فكانت ولايته سنة وثمانية أشهر، وفي رواية سنتين وثمانية أشهر، وقيل غير ذلك، وكان سرير سلطانه حضرة قُرْطبة.

وولي الأندلس بعده[١] عَنْبَسة بن سُحَيم الكلبي، وذكر ابن حيان أنه قدم على الأندلس واليًا من قبل يزيد بن أبي مسلم، كاتب الحجاج، حين كان صاحب إفريقية، وكان قدومه الأندلس في صفر سنة ١٠٣، فتأخّر بقدومه عبد الرحمن المتقدّم الذكر. قال ابن بَشْكُوال: فاستقامت به الأندلس، وضبط أمرها، وغزا بنفسه إلى أرض الإفرنجة وتوفي في شعبان سنة ١٠٧، فكانت ولايته أربعة أعوام وأربعة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر. وذكر ابن حيان أنه في أيامه قام بجليقية عِلْجٌ خبيثٌ يُدْعى بلاي[٢]، فعاب على العلوج طول الفرار، وأذكى[٣] قرائحهم حتى سما بهم إلى طلب الثأر، ودافع عن أرضه، ومن وقته أخذ نصارى الأندلس في مدافعة المسلمين عَمَّا بقي بأيديهم من أرضهم والحماية عن حريمهم، وقد كانوا لا يطمعون في ذلك، وقيل: إنه لم يبق بأرض جليقية قرية فما فوقها لم تُفْتح إلاّ الصخرة التي لاذ بها هذا العِلْجُ ومات أصحابُه جوعًا إلى أن بقي في مقدار ثلاثين رجلاً ونحو عشر نسوة، وما لهم عيش إلاّ من عسل النحل في جباح[٤] معهم في خروق الصخرة، وما زالوا ممتنعين بوعرها إلى أن أعيا المسلمين أمرهم، واحتقروهم، وقالوا: ثلاثون عِلْجًا ما عسى أن يجيء منهم؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك في القوّة والكثرة والاستيلاء ما لا خفاء به.

وملك بعده أذفونش جدّ عظماء الملوك المشهورين بهذه السِّمة.

قال ابن سعيد: فآل احتقار تلك الصخرة ومن احتوت عليه إلى أن ملك عقبُ مَنْ كان فيها المدنَ العظيمة، حتى إنَّ حضرة قُرْطُبة في يدهم الآن، جبرها اللّه تعالى! وهي كانت سرير السلطنة لعنبسة. ا هـ.

---

(١) يريد: بعد الولاية الأولى لعبد الرحمن الغافقي.

(٢) أخبار بلاي في أخبار مجموعة (ص ٣٤، ٦١) والبيان المغرب (جـ ٢ ص ٢٩). وسيعود المقري إلى ذكره في الجزء السادس من نفح الطيب

(٣) أذكى قرائحهم: أجّجها. لسان العرب (ذكا).

(٤) هكذا في أخبار مجموعة (ص ٣٤)، والمقصود بها خلايا النحل، الواحدة (جبح). ملحق المعاجم العربية لدوزي (جبح).

قال ابن حيان والحِجَاري: إنه لَمَّا استشهد عنبسة قدّم أهلُ الأندلس عليهم عُذْرة[١] ابن عبد اللَّه الفِهْرِي. ولم يعدَّه ابن بشكوال في سلاطين الأندلس، بل[٢] قال: ثم تتابعت ولاة الأندلس مُرْسَلين من قبل صاحب إفريقية: أولهم يحيى بن سلمة، وذكر الحِجَاري أن عذرة كان مِن صلحائهم وفرسانهم، وصار لعقبِه نباهة، وولده هشام بن عذرة هو الذي استولى على طُلَيطلة قصبة الأندلس، وفي عقبه بوادي آش من مملكة غَرْنَاطة نَبَاهة وأدب، قال ابن سعيد: وهم إلى الآن ذوو بيت مؤصَّل، ومجد مؤثَّل، وكان سرير سلطنة عذرة قرطبة.

وولي بعده يحيى بن سلمة الكلبي؛ قال ابن بَشْكوال: أنفذه إلى الأندلس بشر بن صفوان الكلبي والي إفريقية إذ استدعى منه أهلها واليًا بعد مقتل أميرهم عنبسة، فقدمها في شوال سنة سبع ومائة، وأقام عليها سنة وستة أشهر لم يَغْزُ فيها بنفسه غزوة، ونحوه لابن حيان، وكان سريره قُرْطُبة.

وتولَّى بعده عثمان بن أبي نِسْعَةَ الخَثْعَمِي، وذكر ابن بشكوال: أنه قدم عليها واليًا من قِبَلِ عبيدة بن عبد الرحمن السلمي، صاحب إفريقية، في شعبان سنة عشر ومائة، ثم عُزل سريعًا بعد خمسة أشهر، وكان سرير سلطانه بقرطبة.

وولي بعده حذيفة بن الأحوص القيسي، قال ابن بشكوال: وأتى إليها واليًا مِنْ قِبل عبيدة المذكور، على اختلاف فيه وفي ابن أبي نِسْعَةَ أيهما تولَّى قبل صاحبه، وكان قدوم حُذَيفة في ربيع الأول سنة عشر ومائة، وعُزل عنها سريعًا أيضًا، وقيل: إنَّ ولايته استتمَّتْ سنة، وكان بقرطبة.

وولي بعده الأندلس الهيثم بن عُديّ[٣] الكلابي؛ قال ابن بَشْكُوال: ولاَّهُ عبيدة المذكور فوافى الأندلس في المحرم سنة إحدى عشرة ومائة، وقيل: إنه ولي سنتين وأيامًا، وقد قيل: أربعة أشهر، وكان بقرطبة.

وولي بعده محمد بن عبد اللَّه الأشجعي؛ قال ابن بشكوال: قدّمه الناسُ عليهم، وكان فاضلاً فصلَّى بهم شهرين.

---

(١) في طبعة ليدن: «عزرة».
(٢) كلمة «بل» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٣) في طبعة عبد الحميد: «عبيد».

قال: ثم قدم عليهم واليًا عبد الرحمن بن عبد اللّه الغافقي الذي تقدّمت ترجمته، وذكرت ولايته الأولى للأندلس، وَلِيَها مِنْ قِبَل عبيد اللّه بن الحبحاب، صاحب إفريقية إلى أن استشهد كما تقدّم.

وولي الأندلس بعده عبد الملك بن قَطَن الفهري، وذكر الحجاري أنَّ من نسله بني القاسم أصحاب البونت وبني الجدّ أعيان إشبيلية. قال ابن بشكوال: قدم الأندلس في شهر رمضان سنة أربع عشرة ومائة فكانت مدّة ولايته عامين، وقيل: أربع سنين، ثم عُزل عنها ذميمًا في شهر رمضان سنة ست عشرة ومائة، قال: وكان ظَلُومًا في سيرته، جائرًا في حكومته، وغزا أرض البشكنس فأوقع بهم. وذكر ابن بشْكُوال أنه لَمَّا عزل وولي عقبة بن الحجاج وَثَبَ ابن قَطَن عليه فخلعه، لا أدري أقتله أم أخرجه، وملك الأندلس بقية إحدى وعشرين ومائة إلى أن رحل بلج بن بشر بأهل الشام إلى الأندلس، فغلبه عليها، وقتل عبد الملك بن قَطَن، وصُلب في ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين ومائة بعد ولاية بلج بعشرة أشهر، وصُلب بصحراء رَبَض[1] قُرْطُبة بعُدْوَة النهر حيال رأس القنطرة، وصلبوا عن يمينه خنزيرًا وعن يساره كلبًا، وأقام شِلْوه[2] على جذعه إلى أن سرقه مواليه بالليل وغَيَّبوه، فكان المكان بعد ذلك يُعْرف بـمَصْلَب ابن قطن. فلمّا ولي ابن عمّه يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري استأذنه ابنه أمية بن عبد الملك، وبنى فيه مسجدًا نُسب إليه، فقيل: مسجد أمية، وانقطع عنه اسم المَصْلَب، وكان سنُّ عبد الملك عند مقتله نحو التسعين، وذكر ابن بشكوال أن عقبة بن الحجاج السلولي ولاّه عبيد اللّه بن الحبحاب صاحب إفريقية الأندلس ودخلها سنة سبع عشرة ومائة، وقيل: في السنة التي قبلها، فأقام بها سنين محمود السيرة، مثابرًا على الجهاد، مفتتحًا للبلاد، حتى بلغ سكنى المسلمين أربونة، وصار رباطهم على نهر رودنة[3]، فأقام عقبة بالأندلس سنة إحدى وعشرين ومائة، وكان قد اتّخذ بأقصى ثغر الأندلس الأعلى مدينة يقال لها أربونة كان ينزلها للجهاد، وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام ويُبَيِّن له عيوب دينه، فأسلم على يده ألفا رجل، وكانت ولايته خمس سنين وشهرين. قال الرازي: فثار أهل الأندلس بعقبة، فخلعوه في صفر سنة ثلاث

---

(١) ربض المدينة: ما حولها، أو ناحيتها وضاحيتها. لسان العرب (ربض).

(٢) الشِّلْوُ، بكسر الشين وسكون اللام: العضو من أعضاء الجسم، والجمع أشلاء، والمراد هنا الجثّة. لسان العرب (شلو).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «ردونة». وفي نزهة المشتاق (ص ٧٤٠): «رودنو»، وهو نهر الرون.

وعشرين في خلافة هشام بن عبد الملك، وولّوا على أنفسهم عبد الملك بن قَطَن، وهي ولايته الثانية، فكانت ولاية عقبة الأندلس ستة أعوام وأربعة أشهر، وتوفي في صفر سنة ١٢٣، وسريره قرطبة.

٢٧ ـ ٣١ ـ ومن الداخلين إلى الأندلس بلج بن بشر بن عياض القشيري.

قال ابن حيان: لَمَّا انتهى إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ما كان من أمر خوارج البربر بالمغرب الأقصى والأندلس وخَلْعهم لطاعته وعَيثهم في الأرض شَقّ عليه فعزل عبيد اللّه بن الحبحاب عن إفريقية، وولّى عليها كلثوم بن عياض القُشَيري، ووجّه معه جيشًا كثيفًا لقتالهم، كان فيه مع ما انضاف إليه من جيوش البلاد التي صار عليها سبعون ألفًا، ومع ذلك فإنه لَمّا تلاقى مع ميسرة البربري المدّعي للخلافة هزمه ميسرة وجُرح كلثوم ولاذ بسبتة، وكان بلج ابن أخيه معه، فقامت قيامة هشام لَمَّا سمع بما جرى عليه، فوجّه لهم حنظلة بن صفوان فأوقع بالبربر وفتح اللّه تعالى على يديه. ولَمَّا اشتدّ حصار بلج وعمّه كلثوم ومن معهما من فَلّ[1] أهل الشام بِسَبْتَةَ وانقطعت عنهم الأقواتُ وبلغوا من الجهد إلى الغاية استغاثوا بإخوانهم من عرب الأندلس، فتثاقل عنهم صاحب الأندلس عبد الملك بن قَطَن لخوفه على سلطانه منهم، فلمّا شاع خبر ضرهم عند رجال العرب أشفقوا عليهم، فأغاثهم زياد بن عمرو اللخمي بمركبين مشحونين مِيرَةً[2] أمسكا من أرماقهم[3]، فلمّا بلغ ذلك عبد الملك بن قَطَن ضربه سبعمائة سوط، ثم اتّهمه بعد ذلك بتغريب[4] الجند عليه، فسَمَل عينيه[5]، ثم ضرب [عنقه، وصلبه][6] وصلب عن يساره كلبًا، واتفق في هذا الوقت أنّ برابر الأندلس لَمَّا بلغهم ما كان من ظهور برابر العُدْوة على العرب انتقضوا على عرب الأندلس، واقتدوا بما فعله إخوانهم، ونصبوا عليهم إمامًا، فكثر إيقاعهم بجيوش ابن قَطَن، واستفحل أمرهم، فخاف ابن قَطَن أن يلقى منهم ما لقي العرب ببرّ العُدْوة من إخوانهم، وبلغه أنهم قد عزموا على قصده، فلم يَرَ أجدى من الاستعداد بصعاليك عرب الشام أصحاب بلج الموتورين، فكتب لبلج وقد مات عمُّه كلثوم في ذلك الوقت، فأسرعوا إلى

---

(١) الفَلُّ، بفتح الفاء وتشديد اللام: الجماعة المنهزمون، والجمع فلول وأفلال، لسان العرب (فلل).

(٢) المِيْرة، بكسر الميم وسكون الياء: الطعامُ يمتاره الإنسانُ. مختار الصحاح (مير).

(٣) الأرماق: جمع رمق وهو بقية الروح. لسان العرب (رمق).

(٤) في طبعة دار صادر: «بتضريب».

(٥) سمل عينيه: فقأهما بحديدة محمّاة. لسان العرب (سمل).

(٦) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد.

إجابته، وكانت أمنيتهم، فأحسن إليهم، وأسبغ النعم عليهم، وشرط عليهم أن يأخذ منهم رهائن، فإذا فرغوا له من البربر جهّزهم[1] إلى إفريقية، وخرجوا له عن أندلسه، فرَضُوا بذلك، وعاهدوه عليه، فقدّم عليهم وعلى جنده ابنيه قَطَنًا وأمية، والبربر في جموع لا يحصيها غير رازقها، فاقتتلوا قتالاً صَعُبَ فيه المقام، إلى أن كانت الدائرة على البربر، فقتلتهم العرب بأقطار الأندلس حتى ألحقوا فَلّهم بالثغور، وخَفُوا عن العيون، فكَرَّ الشاميون وقد امتلأت أيديهم من الغنائم، فاشتدّت شوكتهم، وثابت همتهم[2]، وبطروا، ونَسُوا العهود، وطالبهم ابن قَطَن بالخروج عن الأندلس إلى إفريقية، فتعلّلوا عليه، وذكروا صنيعه بهم أيام انحصارهم في سَبْتَة، وقتله الرجلَ الذي أغاثهم بالميرة، فخلعوه، وقدّموا على أنفسهم أميرهم بلج بن بشر، وتبعه جند بن قَطَن، وحملوا عليه في قتل ابن قطن، فأبى فثارت اليمانية وقالوا: قد حميت لمضرك، والله لا نطيعك، فلما خاف تفرّق الكلمة أمر بابن قَطَن فأخرج إليهم وهو شيخ كبير كفَرخ نعامة قد حضر وقعة الْحَرّة مع أهل اليمامة، فجعلوا يسبّونه، ويقولون له: أفلتَّ من سيوفنا يوم الحَرّة، ثم طالبتنا بتلك التِّرة[3] فعرضتنا لأكل الكلاب والجلود وحبستنا بِسَبْتَة مَحْبِسَ الضَّنْك[4] حتى أمتنا جوعًا، فقتلوه وصلبوه كما تقدّم، وكان أمية وقَطَن ابناه عندما خُلع قد هربا، وحشدا لطلب الثأر، واجتمع عليهما العربُ الأقدمون والبربر، وصار معهم عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة ابن نافع الفهري كبير الجند، وكان في أصحاب بلج، فلمّا صنع بابن عمّه عبد الملك ما صنع فارقه، فانحاز فيمن يطلب ثأره، وانضمَّ إليهم عبدُ الرحمن بن علقمة اللخمي صاحب أربونة، وكان فارس الأندلس في وقته، فأقبلوا نحو بلج في مائة ألف أو يزيدون، وبلج قد استعدّ لهم في مقدار اثني عشر ألفًا سوى عبيد له كثيرة وأتباع من البلديين، فاقتتلوا، وصبر أهل الشام صبرا لم يصبر مثله أحد قط، وقال عبد الرحمن بن علقمة اللخمي: أَرُوني بلجًا، فوالله لأقتلنّه أو لأموتنّ دونه، فأشاروا إليه نحوه، فحمل بأهل الثغر حملة انفرج لها الشاميون، والراية في يده، فضربه عبد الرحمن ضربتين مات منهما بعد ذلك بأيام قلائل. ثم إن البلديين انهزموا بعد ذلك هزيمة قبيحة، واتبعهم الشاميون يقتلون ويأسرون، فكان

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «هزمهم». انظر ذلك في أخبار مجموعة (ص ٤٢).

(٢) ثابت همّتهم: رَجَعَتْ إليهم وصَلُحَتْ أبدانهم. مختار الصحاح (ثوب).

(٣) التِّرَةُ، بكسر التاء وفتح الراء: الثأر. لسان العرب (وتر).

(٤) الضَّنْكُ: الضّيْقُ. مختار الصحاح (ضنك).

عسكرًا منصورًا مقتولاً أميره، وكان هلاك بلج في شوال سنة أربع وعشرين ومائة، وكانت مدّته أحد عشر شهرًا، وسريره قرطبة، والعرب الشاميون الداخلون معه[1] الأندلس يُعرفون عند أهل الأندلس بالشاميين، والذين كانوا في الأندلس قبل دخوله يُشهرون بالبلديين.

ولَـمَّا هلك بلج قدّم الشاميون عليهم بالأندلس ثعلبة بن سلامة العاملي، وقد كان عندهم عهد الخليفة هشام بذلك، فسار فيهم بأحسن سيرة، ثم إن أهل الأندلس الأقدمين من العرب والبربر هَمُّوا[2] بعد الوقعة لطلب الثأر، فآل أمره معهم إلى أن حصروه بمدينة ماردَة، وهم لا يشكُّون في الظَّفَر، إلى أن حضر عيد تشاغلوا به، فأبصر ثعلبة منهم غِرَّة وانتشارًا وأشَرًا[3] بكثرة العدد والاستيلاء، فخرج عليهم في صبيحة عِيدهم وهم ذاهلون، فهزمهم هزيمة قبيحة، وأفشى فيهم القتل، وأسر منهم ألف رجل، وسبى ذرّيّتهم وعيالهم، وأقبل إلى قرطبة من سَبْيهم بعشرة آلاف أو يزيدون، حتى نزل بظاهر قرطبة يوم خميس وهو يريد أن يحمل الأسارى على السيف بعد صلاة الجمعة.

وأصبح الناسُ منتظرين لقتل الأسارى، فإذا بهم قد طلع عليهم لواء فيه موكب، فنظروا فإذا أبو الخطار قد أقبل واليًا على الأندلس، وهو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي. وذكر ابن حيان أنه قدم واليًا من قبل حنظلة بن صفوان صاحب إفريقية، والخليفة حينئذ الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، وذلك في رجب سنة خمس وعشرين ومائة، بعد عشرة أشهر وليها ثعلبة بن سلامة، قال: وكان مع فروسيته شاعرًا محسنًا، وكان في أوّل ولايته قد أظهر العدل فدانت له الأندلس، إلى أن مالت به العصبية اليمانية على المُضَرية، فهاج الفتنة العمياء، وكان سبب هذه الفتنة أن أبا الخَطَّار بلغ به التعصّبُ لليمانية أن اخْتَصَم عنده رجل من قومه مع خصم له من كنانة كان أبلج[4] حجّةً من ابن عم أبي الخطار، فمال أبو الخطار مع ابن عمّه، فأقبل الكناني إلى الصُّميل بن حاتم الكلابي أحد سادات مضر، فشكا له حَيْفَ أبي الخطار، وكان أبيًا للضيم، حاميًا للعشيرة، فدخل على أبي الخطار، وأمَضَّ عتابه[5]، فنَجَهه[6] أبو الخطار، وأغلظ له، فردّ الصميل عليه، فأمر به

(١) في طبعة دار صادر: «معه إلى الأندلس».
(٢) في الطبعة نفسها: «سَمَوْا».
(٣) الغِرّة، بكسر الغين وتشديد الراء: الغفلة. الأَشَرُ، بالفتح: البَطَرُ. مختار الصحاح (غرر) و (أشر).
(٤) أبلج حجّة: أَظْهَرُ وأَبْيَنُ وأقوى. لسان العرب (بلج).
(٥) أمضّ عتابه: اشتدّ فيه. لسان العرب (مضض).
(٦) نَجَهَهُ: ردّه ردًّا قبيحًا. لسان العرب (نجه).

أبو الخطار، فأقيم ودُعَّ قَفَاه[1] حتى مالت عمامته، فلمّا خرج قال له بعض مَنْ على الباب: أبا جوشن، ما بال عمامتك مائلة؟ فقال: إن كان لي قوم فسيقيمونها. وأقبل إلى داره، فاجتمع إليه قومُه حين بلغهم ذلك ممتعضين، فباتوا عنده، فلمّا أظلم الليلُ قال: ما رأيكم فيما حدث عليَّ فإنه مَنُوط بكم؟ فقالوا: أخبرنا بما تريد، فإنَّ رأيَنَا تبعُ رأيك، فقال: أريد والله إخراج هذا الأعرابي من هذا السلطان على ما خَيَّلَتْ، وأنا خارج لذلك عن قرطبة، فإنه ما يمكنني ما أريد إلاَّ بالخروج، فإلى أين ترون أقصد؟ فقالوا: اذهب حيث شئت، ولا تأت أبا عطاء القيسي، فإنه لا يواليك على أمر ينفعك، وكان أبو عطاء هذا سيّدًا مُطَاعًا يسكن بإستِجَةَ، وكان مشاحنًا للصُّميل، مساميًا له في القدر، فسكَتَ عند ذكره أبو بكر بن الطفيل العبدي، وكان من أشرافهم، إلاَّ أنه كان حَدَثَ السنّ، فقال له الصميل: أَلاَ تتكلم؟ قال: أتكلّم بواحدة ما عندي غيرها، قال: وما هي؟ قال: إن عَدَوتَ[2] إتيان أبي عطاء وشتتَ أمرك به لم يتمّ أمرنا وهلكْنا، وأن أنت قصدتَه لم ينظر في شيء ممّا سلف بينكما، وحركته الحمية لك، فأجابك إلى ما تريد، فقال له الصميل: أصَبْتَ الرأي، وخرج من ليلته، وقام أبو عطاء في نُصْرته على ما قَدَّره العبدي، وعمد إلى ثوابة بن يزيد الْجُذَامي أحد أشراف اليمن وساداتهم، وكان ساكنًا بمورور وقد استفسد إليه أبو الخطار، فأجابهما في القيام والتقدّم على المُضَرية، فاجتمعوا في شذونة، وآل الأمر إلى أن هزموا أبا الخطار على وادي لُكّة وحصل أسيرًا في أيديهم، فأرادوا قتله، ثم أرجأوه، وأوثقوه وأقبلوا به إلى قرطبة، وذلك في رجب سنة ١٢٧ بعد ولاية أبي الخطار بسنتين. ولَمَّا سُجن أبو الخطار في قرطبة امتعض له عبدُ الرحمن بن حسان الكلبي، فأقبل إلى قرطبة ليلاً في ثلاثين فارسًا معهم طائفة من الرَّجَّالة، فهجموا على الحبس وأخرجوه منه، ومَضَوا به إلى غرب الأندلس، فعاد في طلب سلطانه، ودبَّ في يَمَانيته حتى اجتمع له عسكر أقبل بهم إلى قرطبة، فخرج إليه ثوابة ومعه الصُّميل، فقام رجل من المضرية ليلاً فصاح بأعلى صوته: يا معشر اليمن، ما لكم تتعرّضون إلى الحرب وتَرِدُون المنايا عن أبي الخطار؟ أليس قد قدرنا عليه لو أردنا قتله لفعلنا، لكنّنا مَنَنَّا وعفونا وجعلنا الأمير منكم، أفلا تفكرون في أمركم، فلو أن الأمير من غيركم عُذِرْتُم، ولا والله لا نقول هذا رهبةً منكم

(١) دُعّ قفاه: ضُرب، لسان العرب (دعع).
(٢) عَدَوْتَ: جاوزْتَ. مختار الصحاح (عدا).

ولا خوفًا لحربكم، ولكن تحرّجًا من الدماء ورغبة في عاقبة[1] العامّة، فتسامع الناس به، وقالوا: صدق، فتداعَوا للرحيل ليلاً، فما أصبحوا إلاّ على أميال. قال الرازي: ركب أبو الخطار البحرَ من ناحية تُونُس في المحرم سنة ١٢٥، وفي كتاب أبي الوليد بن الفرضي: كان أبو الخطار أعرابيًا عصبيًا، أفرط في التعصّب لليمانيين، وتحامل على مُضَر، وأسخط قيسا، فثار به زعيمُهم الصُميل، فخلعه، ونصب مكانه ثوابة، وهاج بين الفريقين الحروب المشهورة، وخُلع أبو الخطار بعد أربع سنين وتسعة أشهر، وذلك سنة ١٢٨، وآل أمره إلى أن قتله الصُمَيل.

وولي الأندلس ثوابة بن سلامة الجذامي؛ قال ابن بَشْكُوَال: لَمَّا اتفقوا عليه خاطبوا بذلك عبد الرحمن بن حبيب، صاحب القيروان، فكتب إليه بعهد الأندلس، وذلك سلخ رجب سنة ١٢٧، فضبط البلد، وقام بأمره كلّه الصُمَيل واجتمع عليه أهل الأندلس، وأقام واليًا سنة أو نحوها، ثم هلك، وفي كتاب ابن الفَرَضي أنه ولي سنتين.

ثم ولي الأندلس يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفِهْري، وجدُّه عقبة بن نافع صاحب إفريقية وباني القيروان المجاب الدعوة صاحب الغزوات والآثار الحميدة، ولهذا البيت في السلطنة بإفريقية والأندلس نَبَاهة. وذكر الرازي أنَّ مولده بالقيروان، ودخل أبوه الأندلس من إفريقية مع حبيب بن أبي عبيدة الفهري عند افتتاحهم، ثم عاد إلى إفريقية، وهرب عنه ابنه يوسف هذا من إفريقية إلى الأندلس مُغَاضبًا له، فهوي الأندلس[2]، واستوطنها فساد بها. قال الرازي: كان يوسف يوم ولي الأندلس ابن سبع وخمسين سنة، وأقامه أهل الأندلس بعد أميرهم ثوابة، وقد مكثوا بغير والٍ أربعَةَ أشهر، فاجتمعوا عليه بإشارة الصُمَيل من أجل أنه قُرَشي رضي به الحيان، فرفعوا الحرب، ومالوا إلى الطاعة، فدانت له الأندلس تسع سنين وتسعة أشهر، وقال ابن حيان: قدّمه أهلُ الأندلس في ربيع الآخر سنة ١٢٩، واستبدَّ بالأندلس دون ولاية أحد له غير من بالأندلس، وحكى ابن حيان أنه أنشد قول حُرَقَة بنت النعمان بن المنذر يوم خلعه بالأمان من سلطانه ودخوله عسكر عبد الرحمن الداخل المرواني[3]: [الطويل]

فبينا نَسُوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنَا إذا نحن فيهمْ سُوقَةٌ نَتَنَصَّفُ[4]

---

(١) في طبعة دار صادر: «عافية».

(٢) هَوِيَ الأندلسَ: أحبّها. مختار الصحاح (هوا).

(٣) سيرد هذا البيت ضمن بيتين في الجزء السادس.

(٤) السُّوقَةُ: الرعية من الناس. تَتَنَصَّفُ: نطلب الإنصاف. لسان العرب (سوق) و (نصف).

قال ابن حيان: لَمَّا سمع أبو الخطار بتقديمه حرّك يمانيته، فأجابوا دعوته، فأدّى ذلك إلى وقعة شَقُنْدة بين اليمانية والمُضَرية فيقال: إنه لم يَكُ بالمشرق ولا بالمغرب حرب أصدق منها جِلادًا ولا أصبر رجالاً، طال صبر بعضهم على بعض، إلى أن فني السلاح، وتجاذبوا بالشعور، وتلاطموا بالأيدي، وكَلَّ[1] بعضهم عن بعض، وثابت للصميل غِرَّة في اليمانية في بعض الأيام، فأمر بتحريك أهل الصناعات بأسواق قرطبة، فخرجوا في نحو أربعمائة رجل من أنجادهم[2] بما حضرهم من السكاكين والعِصِيّ ليس فيهم حامل رمح ولا سيف إلاّ قليلاً، فرماهم على اليمانية وهم على غفلة، وما فيهم من يبسط يد[3] القتال، ولا ينهض لدفاع، فانهزمت اليمانية ووضعت المُضَرية السيفَ فيهم، فأبادوا منهم خلقًا، واختفى أبو الخطار تحت سرير رحى، فقُبض عليه وجيءَ به إلى الصميل، فضُرب عنقه، وقد ذكرنا خبر انخلاع يوسف عن سلطانه في ترجمة عبد الرحمن الداخل، وهو آخر سلاطين الأندلس الذين وَلُوها من غير موارثة، حتى جاءت الدولة المروانية.

وذكر ابن حيان أنَّ القائم بدولة يوسف والمستولي عليها الصُّمَيل بن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن الكلابي، وجدّه شمر هو قاتل الحسين، رضي الله تعالى عنه! وكان شمر قد فَرّ من المختار بولده من الكوفة إلى الشام، فلمَّا خرج كلثوم بن عياض للمغرب كان الصُّميل فيمن خرج معه، ودخل الأندلس في طالعة بلج، وكان شجاعًا جوادًا جسورًا على قلب الدول، فبلغ ما بلغ، وآل أمره إلى أن قتله عبدُ الرحمن الداخل المرواني في سجن قرطبة مخنوقًا.

وذكر ابن حيان أنه كان مِمَّن ثار على يوسف الفهري عبد الرحمن بن علقمة اللخمي فارس الأندلس، ووالي ثغر أربونة، وكان ذا بأس شديد ووجاهة عظيمة، فبينما هو في تدبير غزو يوسف إذ اغتاله أصحابه وأقبلوا برأسه إليه.

ثم ثار عليه بعد ذلك بمدينة باجة عروة بن الوليد في أهل الذمَّة وغيرهم، فملك إشبيلية، وكثر جمعه، إلى أن خرج له يوسف فقتله، وثار عليه بالجزيرة الخضراء عامر العبدري، فخرج له، وأنزله على أمان في سكنى قرطبة، ثم ضرب عنقه بعد ذلك.

---

(١) كَلَّ: عجز وضعف. لسان العرب (كلل).

(٢) الأنجاد: جمع نجد وهو الشجاع. لسان العرب (نجد).

(٣) في طبعة دار صادر: «يدًا لقتال».

وقيل: إنّ أول من خرج على يوسف عمرو بن يزيد الأزرق في إشبيلية فظفر به فقتله، وثار عليه في كورة سَرَقُسطة الحباب الزهري إلى أن ظفر به يوسف فقتله، ثم جاءته الداهية العظمى بدخول عبد الرحمن بن معاوية المرواني إلى الأندلس وسَعْيه في إفساد سلطانه، فتمّ له ما أراده، والله تعالى أعلم.

٣٢ ـ ومن الداخلين من المشرق إلى الأندلس ملكها عبد الرحمن بن معاوية ابن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان، المعروف بالداخل[١].

وذلك أنه لَمَّا أصاب دولتهم ما أصاب، واستولى بنو العباس على ما كان بأيديهم، واستقرَّ قَدَمُهم في الخلافة، فرَّ عبدُ الرحمن إلى الأندلس، فنال بها ملكًا أَورَثَهُ عَقِبَهُ حِقْبَةً من الدهر.

قال ابن حيان في «المقتبس»: إنه لَمَّا وقع الاختلال في دولة بني أمية والطلب عليهم، فَرَّ عبدُ الرحمن، ولم يزل في فِرَاره منتقلاً بأهله وولده إلى أن حلَّ بقرية على الفرات ذات شجر وغِياض[٢]، يريد المغرب، لما حصل في خاطره من بُشْرى مَسْلمة[٣]، فممّا حكي عنه أنه قال: إني لجالس يومًا في تلك القرية في ظلمة بيت تواريتُ فيه لرَمَد كان بي، وابني سليمان بكر ولدي يلعب قدّامي، وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها، إذ دخل الصبيّ من باب البيت فازعًا باكيًا فأهوى إلى حِجْرِي، فجعلت أدفعه لما كان بي ويأبى إلاّ التعلق، وهو دَهِشٌ يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع، فخرجت لأنظر، فإذا بالرَّوع[٤] قد نزل بالقرية، ونظرت فإذا بالرايات السود[٥] عليها مُنحطة، وأخ لي حَدَث السنّ كان معي يشتدُّ[٦] هاربًا ويقول لي: النجاء يا أخي، فهذه رايات المسوِّدة، فضربت

---

(١) أخبار عبد الرحمن الداخل في تاريخ افتتاح الأندلس (ص ٤٧) وأخبار مجموعة (ص ٤٩) وجذوة المقتبس (ص ٨) وبغية الملتمس (ص ١٢) والبيان المغرب (جـ ٢ ص ٤٠) والحلة السيراء (جـ ١ ص ٣٥).

(٢) الغِياض: جمع غَيْضة وهي مجتمع الشجر في مغيض الماء. لسان العرب (غيض).

(٣) هو مسلمة بن عبد الملك كما سيأتي بعد قليل. وقد روى في أخبار مجموعة (ص ٥٣) أن مسلمة كان يرى أن دولة بني أمية بالمشرق قد آذنت بالزوال وأنه سيظهر في الأندلس من سيخلفهم وهو عبد الرحمن الداخل.

(٤) الرَّوْعُ: الفزع. مختار الصحاح (روع).

(٥) الرايات السود: هي رايات بني العباس، بينما كانت رايات الأمويين بالأندلس بيضاء.

(٦) يشتدُّ هاربًا: يسرع في جريه.

بيدي على دنانير تناولتها، ونجوت بنفسي والصبي أخي معي، وأعلمت أخواتي بمتوجَّهي[1] ومكان مقصدي، وأمرتهنّ أن يلحقنني ومولاي بَدْر معهنّ، وخرجت فكمنت في موضع ناء عن القرية، فما كان إلاَّ ساعة حتى أقبلت الخيل، فأحاطت بالدار، فلم تجد أثرًا، ومضيتُ، ولحقني بدر، فأتيت رجلاً مِنْ مَعارفي بشَطِّ الفُرَات، فأمرْتُه أن يبتاع لي دوابَّ وما يصلح لسفري، فدلّ عليّ عبدُ سوء له العاملَ، فما راعنا إلاَّ جَلَبة الخيل تحفزنا فاشتددْنا في الهرب، فسبقْناها إلى الفُرَات، فرمينا فيه بأنفسنا، والخيل تُنادينا من الشط: ارْجعا لا بأس عليكما، فسبحْتُ حاثًّا لنفسي وكنت أُحْسِنُ السبح، وسبح الغلام أَخي، فلمَّا قطعْنا نصف الفرات قَصَّر أخي ودُهش، فالتفتُّ إليه لأقوِّيَ من قلبه، وإذا هو قد أصغى إليهم وهم يخدعونه عن نفسه، فناديْتُه: تُقْتَلُ يا أخي، إليَّ، إليَّ، فلم يسمعني، وإذا هو قد اغتر بأمانهم، وخشي الغَرَقَ، فاستعجل الانقلاب نحوهم، وقطعْتُ أنا الفرات، وبعضهم قد هَمَّ بالتجرّد للسباحة في أثري، فاستكَفَّه أصحابه عن ذلك، فتركوني، ثم قدَّموا الصبيَّ أخي الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتملت فيه ثُكلاً ملأني مخافة، ومضيت إلى وجهي أحسب أني طائر وأنا ساع على قدميَّ، فلجأت إلى غَيضَة آشِبَة[2]، فتواريت فيها حتى انقطع الطلب، ثم خرجت أؤمّ المغربَ حتى وصلت إلى إفريقية.

قال ابن حيان: وسار حتى[3] إفريقية وقد ألحقتْ به أختُه شقيقتُه أمُّ الأصبغ مولاه بدرًا، ومولاه سالمًا، ومعهما دنانير للنفقة، وقطعة من جوهر، فنزل بإفريقية وقد سبقه إليها جماعة من فَلِّ بني أمية، وكان عند واليها عبد الرحمن بن حبيب الفهري يهودي حدثاني صحب مَسْلمة بن عبد الملك، وكان يتكهّن له ويخبره بتغلّب القرشي المرواني الذي هو من أبناء ملوك القوم، واسمه عبد الرحمن، وهو ذو ضفيرتين يملك الأندلس ويُورِثها عقبه، فاتّخذ الفهري عند ذلك ضفيرتين أرسلهما رجاء أنْ تناله الرواية، فلمّا جيء بعبد الرحمن ونظر إلى ضفيرتيه قال لليهودي: ويحك! هذا هو، وأنا قاتله، فقال له اليهودي: إنك إنْ قتلته فما هو به، وإن غَلبت على تركه إنه لهو. وثقل فَلُّ بني أمية على ابن حبيب صاحب

(١) المُتَوَجَّهُ: المكان الذي أتوجَّهُ إليه، وهو اسم مكان من الفعل: تَوَجَّه. لسان العرب (وجه).

(٢) الغَيْضَةُ: الأجمة وهي مغيض ماء يجتمع فينبت فيه الشجر، والجمع غياض وأغياض. آشبة: كثيرة الشجر الملتفّ. لسان العرب (غيض) و (أشب).

(٣) في طبعه دار صادر: «حتى أتى إفريقية».

إفريقية، فطرد كثيرًا منهم مخافة، وتَجَنَّى على ابنين للوليد بن يزيد كانا قد استجارا به، فقتلهما، وأخذ مالاً كان مع إسماعيل بن أبان بن عبد العزيز بن مروان، وغلبه على أخته فتزوّجها بكرهه، وطلب عبد الرحمن فاستخفى، انتهىٰ.

وذكر ابنُ عبد الحكم أن عبد الرحمن الداخل أقام ببَرْقة مستخفيًا خمس سنين، وآل أمره في سفره إلى أن استجار ببني رُسْتم ملوك تيهرت من المغرب الأوسط، وتقلّب في قبائل البربر إلى أن استقرَّ على البحر عند قوم من زَنَانة، وأخذ في تجهيز بدر مولاه إلى العبور للأندلس لموالي بني أمية وشيعتهم بها، وكانت الموالي المروانية المدوّنة بالأندلس في ذلك الأوان ما بين الأربعمائة والخمسمائة، ولهم جمرة[1]، وكانت رياستهم إلى شخصين: أبي عثمان عبيد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد، وهما من موالي عثمان، رضي الله تعالى عنه! وكانا يتوليان لواء بني أمية يَعْتقبان حَمْله ورياسة جند الشام النازلين بكورة إلبيرة، فعبر بدر مولى عبد الرحمن إلى أبي عثمان بكتاب عبد الرحمن يذكِّره فيه أياديَ سَلَفه من بني أمية وسَبَبَه بهم ويعرفه مكانه من السلطان وسَعْيه لنيله، إذ كان الأمر لجدِّه هشام فهو حقيق بوراثته، ويسأله القيام بشأنه وملاقاة مَنْ يثق به من الموالي الأموية وغيرهم، ويتلطّف في إدخاله إلى الأندلس ليُبْلِيَ عذرًا في الظهور عليها، ويَعِدُه بإعلاء الدرجة، ولطف المنزلة، ويأمره أن يستعين في ذلك بمن يأمنه، ويرجو قيامه معه، ويأخذ فيه مع اليمانية ذوي الْحَنَق[2] على المضرية لما بين الحيين من التِّرَات[3]، فمشى أبو عثمان لما دعاه إليه، وبانت له فيه طَمَاعية، وكان عند ورود بدر قد تجهّز إلى ثغر سَرَقُسْطة لنصرة صاحبها الصُّمَيل بن حاتم وَجْهِ دولة يوسف بن عبد الرحمن، صاحب الأندلس، فقال لصهره عبد الله بن خالد المذكور: لو كنّا ذاكرْنا الصُّميل خبَر بَدْرٍ وما جاء به لنختبر ما عنده في موافقتنا، وكانا على ثقة في أنه لا يظهر على سرّهما أحدًا لمروءته وأَنَفَته، فقال له: إن نحن فعلْنا لم نأمن من أن تدركه الغَيرة على سلطان يوسف لِمَا هو عليه من شَرَف القدر وجلالة المنزلة فيتوقّع سقوط رياسته فلا يساعدنا، قال أبو عثمان: فنمسح إذًا على أمره، ونذكر له أنه قصد لإرادة الإيواء والأمان وطلب أخماس جدِّه هشام لدينا ليتعيّش بها، لا يريد غير ذلك، فاتّفقا على هذا، فلمّا ودَّعا الصُّميل خَلَوَا به في ذلك، وقد ظهر لهما

---

(١) الجمرة: كلُّ قبيلة انضم أفرادها فصاروا يدًا واحدة ولم يحالفوا غيرهم. محيط المحيط (جمر).

(٢) الحَنَقُ، بالفتح: الغيظ. مختار الصحاح (حنق).

(٣) التِّرات: جمع تِرة وهي الثأر. لسان العرب (وتر).

منه حقد على صاحبه يوسف في إبطائه عن إمداده لما حاربه الحباب الزهري بكورة سَرَقُسْطة، فقال لهما: أنا معكما فيما تحبّان، فاكتبا إليه أن يعبر، فإذا حضر سألنا يوسف أن ينزله في جواره وأن يحسن له، ويزوّجه بابنته، فإن فعل وإلاَّ ضربْنَا صَلْعته بأسيافنا، وصرفْنا الأمر عنه إليه، فشكراه، وقبّلا يده، ثم ودّعاه، وأقام بطُلَيْطلة وقد ولاّه يوسف عليها وعزله عن الثغر، وانصرفا إلى وطنهما بإلبيرة، وقد كانا لقيا من كان معهما في العسكر مِن وُجوه الناس وثقاتهم، فطارحاهم أمر ابن معاوية، ثم دسَّا في الكُوَر إلى ثقاتهما بمثل ذلك، فدبَّ أمره فيهم دبيب النار في الجمر، وكانت سنة خلف بالأندلس بعد خروج من المجاعة التي دامت بالناس.

وفي رواية أنَّ الصُميل لاَنَ لهما في أن يطلب الأمر عبد الرحمن الداخل لنفسه ثم دَبَّر ذلك لما انصرفا، فتراجع فيه، فردّهما، وقال: إني روّيت في الأمر الذي أردته معكما فوجدْتُ الفتى الذي دعوتماني إليه من قوم لو بال أحدُهم بهذه الجزيرة غرقْنا نحن وأنتم في بَوله، وهذا رجل نتحكّم عليه، ونميل على جوانبه، ولا يسعنا بدل منه، ووالله لو بلغتما بيوتكما ثم بدا لي فيما فارقتكما عليه لرأيت أن لا أقصِّر حتى ألقاكما لئلاً أغركما من نفسي، فإني أُعلمكما أنَّ أوّلَ سيف يُسَلُّ عليه سيفي، فبارك الله لكما في رأيكما، فقالا له: ما لنا رأي إلاَّ رأيك، ولا مَذْهَبَ[1] لنا عنك. ثم انصرفا عنه على أن يعينهما في أمره إن طلب غير السلطان، وانفصلا عنه إلى إلبيرة عازمين على التصميم في أمره، وَيئِسا من مضر وربيعة، ورَجَعا إلى اليمانية، وأخذا في تَهْييج أحقاد أهل اليمن على مُضَرَ، فوجداهم قوماً قد وَغِرَت[2] صدورهم عليهم، يتمنّون شيئًا يجدون به السبيل إلى إدراك ثأرهم، واغتنما بُعْدَ يوسف صاحب الأندلس في الثغر، وغيبة الصُميل، فابتاعا مركبًا ووجَّها فيه أحد عشر رجلاً منهم مع بَدْر الرسول، وفيهم تمام بن علقمة وغيره، وكان عبد الرحمن قد وجَّه خاتمه إلى مواليه، فكتبوا تحت ختمه إلى من يرجونه في طلب الأمر، فبثّوا من ذلك في الجهام ما دبَّ به أمرُهم، ولَـمَّا وجّه أبو عثمان المركب المذكور مع شيعته ألفوه بشَطّ مغيلة من بلاد البربر، وهو يصلِّي، وكان قد اشتدَّ قَلَقُهُ وانتظاره لبدر رسوله، فبشّره بدر بتمكّن الأمر، وخرج إليه تمام مكثرًا لتبشيرِهِ، فقال له عبد الرحمن: ما اسمك؟ قال: تمام، قال: وما كنيتك؟ قال: أبو غالب، فقال: الله أكبر! الآنَ تـمَّ أمرنا وغلبنا بحَوْل الله

---

(١) لا مذهب لنا عنك: أي لا نحيد عن رأيك ولا نبعد عنه. لسان العرب (ذهب).

(٢) وَغِرَتْ صدورُهُم عليهم: امتلأت حقدًا عليهم. لسان العرب (وغر).

تعالى وقوته، وأدنى منزلة أبي غالب لما ملك، ولم يزل حاجبَه حتى مات عبدُ الرحمن.

وبادر عبدُ الرحمن بالدخول إلى المركب، فلمَّا هَمَّ بذلك أقبل البربر فتعرّضوا دونه، ففُرقتْ فيهم من مال كان مع تمام صِلاَتٌ[1] على أقدارهم، حتى لم يَبْقَ أحدٌ حتى أرضاه، فلمَّا صار عبد الرحمن بداخل المركب أقبل عاتٍ منهم لم يكن أخذ شيئًا فتعلَّق بحَبْل الهودج يَعْقل المركب، فحوّل رجل اسمه شاكر يده بالسيف، فقطع يدَ البربري، وأعانتهم الريح على التوجّه بمركبهم، حتى حَلُّوا بساحل إلبيرة في جهة المُنَكَّب، وذلك في ربيع الآخر سنة ١٣٨، فأقبل إليه نقيباه أبو عثمان وصهره أبو خالد، فنقلاه إلى قرية طرش[2] منزل أبي عثمان، فجاءه يوسف بن بخت، وانثالت[3] عليه الأموية، وجاءه جدران[4] بن عمرو المذحجي من أهل مالَقَة، فكان بعد ذلك قاضيه في العساكر، وجاءه أبو عبدة حسان ابن مالك الكلبي من إشبيليَةَ فاستوزره، وانثال عليه الناس انثيالاً، فقوي أمره مع الساعات فضلاً عن الأيام، وأمدّه اللّٰه تعالى بقوّة عالية، فكان دخوله قرطبة بعد ذلك بسبعة أشهر.

وكان خبر دخوله للأندلس قد صادف صاحبها يوسفَ الفهري بالثغر، وقد قبض على الحباب الزهري الثائر بسَرَقُسْطة، وعلى عامر العبدري الثائر معه، فبينما هو بوادي الرمل بمقربة من طُلَيْطلة وقد ضُرب عنق عامر العبدري وابن عامر برأي الصُّميل إذ جاءه قبل أن يدخل رِوَاقه رسول يركض من عند ولده عبد الرحمن بن يوسف من قرطبة يُعْلمه بأمر عبد الرحمن ونزوله بساحل جند دمشق، واجتماع الموالي المروانية إليه، وتشوف[5] الناس لأمره، فانتشر الخبر في العسكر لوقته، وشَمِتَ الناسُ بيوسف لقتله القرشيين عامرًا وابنه، وخَتْره بعَهْدهما[6]، فسارع عدد كثير إلى البدار لعبد الرحمن الداخل، وتنادوا بشِعَارهم، وقوّضوا عن عسكره.

واتّفق أنْ جادت السماء بوابل[7] لا عَهْدَ بمثله لما شاء اللّٰه تعالى من التضييق على

---

(١) الصِّلات: جمع صلة وهي الأعطية. لسان العرب (وصل).

(٢) طُرُش، بالإسبانية Torrox: قرية على الساحل الشرقي، وتعدُّ اليوم في مديرية مالقة. واكتفى ياقوت في معجم البلدان (جـ ٤ ص ٢٩) بالقول: طرش ناحية بالأندلس تشتمل على ولاية وقرى.

(٣) انثالت: وفدت بكثرة. محيط المحيط (ثال).

(٤) في طبعة دار صادر وفي البيان المغرب (جـ ٢ ص ٤٦): «جدار». وفي أخبار مجموعة (ص ٧٢): «جُداد».

(٥) تشوّفوا: تطلّعوا. لسان العرب (شوف).

(٦) خَتَرَ بعهده: نقضه. لسان العرب (ختر).

(٧) الوابل: المطر الشديد. مختار الصحاح (وبل).

يوسف، فأصبح وليس في عسكره سوى غِلْمانه وخاصّته وقوم الصُميل قيس وأتباعه، فأقبل إلى طُلَيطلة وقال للصُميل: ما الرأي؟ فقال: بادرهُ الساعة قبل أن يغلظ أمره، فإنّي لست آمَنُ عليك هؤلاء اليمانيةَ لحَنَقهم علينا، فقال له يوسف: أتقول ذلك؟ ومع مَنْ نسير إليه وأنت ترى الناس قد ذهبوا عنا؟ وقد أنفضنا من المال، وأنضينا الظهر، ونَهَكَتْنا[1] المجاعة في سفرتنا هذه، ولكن نسير إلى قُرطُبة، فنستأنف الاستعداد له، بعد أن ننظر في أمره ويتبيّن لنا خبره، فلعلّه دون ما كتب إلينا. فقال الصميل: الرأيُ ما أشرْتُ به عليك، وليس غيره، وسوف تتبيّن غلطك فيما تنكبه، ومضوا إلى قرطبة. وسار عبد الرحمن الداخل إلى إشبيلية، وتلقّاه رئيسُ عربها أبو الصباح بن يحيىٰ اليَحْصُبي، واجتمع الرأي على أن يقصدوا به دار الإمارة قرطبة، فلمّا نزلوا بطشانة[2] قالوا: كيف نسير بأمير لا لواء له ولا عَلَم نهتدي إليه؟ فجاءوا بقَنَاة وعمامة ليعقدوها عليه، فكرهوا أن يُمِيلوا القناة لتعقد تَطَيُّرًا فأقاموها بين زيتونتين متجاورتين، فصعد رجل فَرْعَ إحداهما فعقد اللواء والقناة قائمة، كما سيأتي، وحكي أنَّ فرقدًا العالم صاحب الحدثانَ مَرَّ بذلك الموضع، فنظر إلى الزيتونتين، فقال: سَيُعْقَد بين هاتين الزيتونتين لواء لأمير لا يثور عليه لواء إلاّ كسره، فكان ذلك اللواء يسعد به هو وولَدُه من بعده، ولَمَّا أقبل إلى قرطبة خرج له يوسف، وكانت المجاعة توالت قبل ذلك ست سنين فأورثت أهل الأندلس ضعفًا، ولم يكن عيش عامّة الناس بالعسكر ما عدا أهل الطاقة مذ خرجوا من إشبيلية إلاّ الفول الأخضر الذي يجدونه في طريقهم، وكان الزمان زمان ربيع، فسمّي ذلك العام عام الخلف، وكان نهر قرطبة حائلاً، فسار يوسف من قرطبة وأقبل ابن معاوية على بَرّ إشبيلية والنهر بينهما، فلمّا رأى يوسفُ تصميمَ عبد الرحمن إلى قرطبة رَجَعَ مع النهر مُحَاذيًا له، فتسايرا والنهرُ حاجزٌ بينهما، إلى أن حلَّ يوسفُ بصحراء المُصارة[3] غربي قرطبة، وعبد الرحمن في مقابلته، وتراسلا في الصلح، وقد أمر يوسف بذبح الجُزُر[4]، وتقدم بعمل الأطعمة، وابن معاوية آخذ في خلاف ذلك قد أعدّ للحرب عُدّتها، واستكمل أُهْبَتَها، وسهر الليلَ كلّه على نظام أمره، كما سنذكره،

---

(١) أنفضنا من المال: لم يبق معنا منه شيء. أنضينا الظهرَ: أتْعَبْنا الدوابَ التي تحملنا وأنهكناها. نهكتنا المجاعةُ: أجهدتنا. لسان العرب (نفض) و (نضا) و (نهك).

(٢) طشانة: بالإسبانية Tocina، وهي من أقاليم إشبيلية، نصوص عن الأندلس (ص ١٧٧).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «الصادرة».

(٤) الجُزُرُ، بالضمّ: جمع جَزُوْر وهو البعير أو هو الخاصّ بالجزر فقط، والجَزْرُ هو الذبح. لسان العرب (جزر).

ثم انهزم أهل قرطبة، وظفر عبد الرحمن الداخل، ونُصِر نصرًا لا كفَاءَ له[1]، وانهزم الصُّميل، وفَرَّ إلى شوذر[2] من كورة جَيَّان، وفَرَّ يوسف إلى جهة ماردة.

وذكر أن أبا الصَّبَّاح رئيس اليمانية قال لهم عند هزيمة يوسف: يا معشر يمن، هل لكم إلى فتحين في يوم؟ قد فرغنا من يوسف وصُميل، فلنقتل هذا الفتى المِقْدَامة[3] ابنَ معاوية، فيصير الأمر لنا، نقدم رَجُلاً منّا، ونحل عنه[4] المضرية، فلم يجبه أحد لذلك، وبلغ الخبر عبد الرحمن فأسَرَّها في نفسه إلى أن اغتاله بعد عام، فقتله.

ولَـمَّا انقضتِ الهزيمة أقام ابن معاوية بظاهر قرطبة ثلاثة أيام، حتى أخرج عيال يوسف من القصر، وعَفَّ، وأحسن السيرة، ولَمَّا حصل بدار الإمارة، وحلَّ محلَّ يوسف، لم يستقرَّ به قرار من إفلات يوسف والصُّميل، فخرج في إثر عدوه واستخلف على قرطبة القائم بأمره أبا عثمان، واستكتب كاتب يوسف أمية بن زياد، واستنام إليه إذ كان من موالي بني أمية، ونهض في طلب يوسف، فوقع يوسف على خبره، فخالفه إلى قرطبة، ودخل القصر، وتحصَّن أبو عثمان خليفة عبد الرحمن بصومعة الجامع فاستنزله بالأمان، ولم يزل عنده إلى أن عقد الصلح بينه وبين ابن معاوية، وكان عقد الصلح المشتمل عليه وعلى وزيره الصُّميل في صفر سنة ١٣٩، وشارطه على أن يخلِّي بينه وبين أمواله حيثما كانت، وأن يسكن بلاط الحر ـ منزله[5] بشرقي قرطبة ـ على أن يختلف كلَّ يوم إلى ابن معاوية ويُرِيَه وجهه، وأعطاه رهينة على ذلك ابنَه أبا الأسود محمد بن يوسف، زيادةً على ابنه عبد الرحمن الذي أسره ابنُ معاوية يوم الوقعة، ورجع العسكران وقد اختلطا إلى قرطبة.

وذكر ابن حيان أن يوسف بن عبد الرحمن نكث[6] سنة ١٤١، فهرب من قرطبة، وسعى بالفساد في الأرض، وقد كانت الحال اضطربت به في قرطبة، ودسَّ له قوم قاموا عليه في أملاكه، زعموا أنه غصبهم إياها، فدفع معهم إلى الحكام، فأعنتوه، وحُمل عنه في التألم بذلك كلام رفع إلى ابن معاوية أصاب أعداء يوسف به السبيل إلى السعاية به

---

(١) لا كفاء له: لا شبيه له. لسان العرب (كفأ).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «شوزر».

(٣) المِقْدامة: الرجل الكثير الإقدام على العدوّ. مختار الصحاح (قدم).

(٤) في طبعة دار صادر: «عنه هذه المضرية».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «منزلة».

(٦) أي نكث العهدَ، أي نقضه. مختار الصحاح (نكث).

والتخويف منه، فاشتدَّ تَوَحُّشه، فخرج إلى جهة ماردة، واجتمع إليه عشرون ألفًا من أهل الشتات، فغلظ أمره، وحدّثته نفسه بلقاء ابن معاوية، فخرج نحوه من ماردة، وخرج ابن معاوية من قرطبة، فبينما ابنُ معاوية في حِصْن المدوَّر مستعدٌ[1]، إذ التقى بيوسف عبد الملك بن عمر بن مروان صاحب إشبيلية، فكانت بينهما حرب شديدة انكشف عنها يوسف بعد بلاء عظيم منهزمًا، واسْتَحَرَّ القتل[2] في أصحابه، فهلك منهم خلق كثير، وسار يوسف لناحية طُلَيْطلة، فلقيه في قرية من قُرَاها عبد الله بن عمرو الأنصاري، فلمَّا عرفه قال لمن معه: هذا الفهري يفرُّ، قد ضاقت عليه الأرض، وقَتْلُهُ الراحةُ له، والراحةُ منه. فقتله، واحتزَّ رأسه، وقدم به إلى عبد الرحمن، فلمّا قرب وأُوْذن[3] عبد الرحمن به أمره أن يتوقّف به دون جسر قرطبة، وأمر بقتل ولده عبد الرحمن المحبوس عنده، وضمَّ إلى رأسِهِ رأسَهُ، ووضعا على قناتين مُشَهَّرَين إلى باب القصر. وكان عبد الرحمن لَمَّا فرَّ يوسف قد سجن وزيره الصُّميل لأنه قال له: أين توجه؟ فقال: لا أعلم، فقال: ما كان ليخرج حتى يعلمك، ومع ذلك فإنَّ ولدك معه، وأكّد عليه في أن يحضره، فقال: لو أنه تحت قدمي هذه ما رفعْتها لك عنه، فاصنعْ ما شئت، فحينئذ أمر به للحبس وسَجَنَ معه ولدي يوسف أبا الأسود محمدًا المعروف بعد بالأعمى وعبد الرحمن، فتهيّأ لهما الهرب من نقب، فأمَّا أبو الأسود فنجا سالمًا، واضطرب في الأرض يبغي الفساد إلى أن هلك حَتْفَ أنفه[4]، وأمَّا عبد الرحمن فأثقله اللحم فانبهر[5]، فردَّ إلى الحبس، حتى قُتل كما تقدّم، وأنف الصميلُ من الهرب، فأقام بمكانه، فلمَّا قُتل يوسف أدخَلَ ابنُ مُعَاوية على الصُّميل مَنْ خَنَقَه، فأصبح ميتًا، فدخل عليه مشيخة المضرية في السجن، فوجدوه ميتًا، وبين يديه كأس ونُقْل[6]، كأنه بغت على شرابه، فقالوا: والله إنَّا لنعلم يا أبا جوشن أنك ما شربتها ولكن سُقيتها.

ومِمَّا ظهر مِنْ بطش الأمير عبد الرحمن بن معاوية وصَرَامته فَتْكُه بإحدى[7] دعائم

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «مستعدًا».

(٢) استحرَّ القتلُ فيهم: كثر واشتدَّ. لسان العرب (حرر).

(٣) أُوْذِنَ به: أُعلم به وأُخبر. لسان العرب (أذن).

(٤) هلك حتف أنفه: مات من غير قتل ولا ضرب. مختار الصحاح (حتف).

(٥) انبهر: انقطع نَفَسُهُ من الإعياء. لسان العرب (بهر).

(٦) النُّقْلُ، بضم النون وسكون القاف: ما يُتَنَقَّلُ به على الشراب. مختار الصحاح (نقل).

(٧) في طبعة عبد الحميد: «بأحد».

دولته رئيس اليمانية أبي الصباح بن يحيى[1]، وكان قد ولاّه إشبيلية وفي نفسه منه ما أوجب فتكه به.

ومن ذلك النوع حكايته مع العلاء بن مغيث اليحصبي، إذ ثار بباجة، وكان قد وصل من إفريقية على أن يُظْهر الرايات السود بالأندلس، فدخل في ناس قليلين، فأرسى بناحية باجة، ودعا أهلها ومن حولهم، فاستجاب له خلق كثير، إلى أن لقيه عبد الرحمن بجهة إشبيلية فهزمه، وجيء به وبأعلام أصحابه، فقطع يديه ورجليه، ثم ضرب عنقه وأعناقهم، وأمر فَقُرِّطَتِ الصِّكاك[2] في آذانهم بأسمائهم، وأُودعت جوالقًا محصنًا، ومعها اللواء الأسود، وأنفذ بالجوالق تاجرًا مِنْ ثقاته، وأمره أن يضعه بمكّة أيام الموسم، ففعل، ووافق أبا جعفر المنصور قد حجَّ، فوضعه على باب سُرَادقه، فلمّا كشفه ونظر إليه سُقِطَ في يده، واستدعى عبد الرحمن وقال: عرضنا هذا البائس ـ يعني العلاء ـ للحتفِ، ما في هذا الشيطان مطمع، فالحمد لله الذي صيّر هذا البحر بيننا وبينه.

ولَـمَّا أوقع عبد الرحمن باليمانية الذين خرجوا في طلب ثأر رئيسهم أبي الصباح اليحصبي وأكثر القتل فيهم، استوحش من العرب قاطبة، وعلم أنهم على دَغَل[3] وحقد، فانحرف عنهم إلى اتّخاذ المماليك، فوضع يده في الابتياع، فابتاع موالي الناس بكل ناحية، واعتضد[4] أيضًا بالبرابر، ووجّه عنهم إلى برّ العُدْوة فأحسن لمن وفد عليه إحسانًا رغَّب مَنْ خلفه في المتابعة. قال ابن حيان: واستكثر منهم ومن العبيد، فاتّخذ أربعين ألف رجل، صار بهم غالبًا على أهل الأندلس من العرب، فاستقامتْ مملكته وتوطّدت.

وقال ابن حيان[5]: كان عبد الرحمن راجحَ[6] الحلم، فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئًا من العجز، سريع النهضة، متّصل الحركة، لا يُخْلِد إلى راحة، ولا يسكن إلى دَعَة، ولا يَكِلُ الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه،

---

(١) في طبعة دار صادر: «أبي الصباح يحيى».

(٢) الصِّكاك: جمع صَكّ وهو كتاب، فارسي معرّب. وقُرِّطَت الصِّكاكُ في آذانهم: أي كُتب اسم كل واحد منهم في ورقة علّقت في أذنه كأنها القُرْط. مختار الصحاح (صكك) و (قرط).

(٣) الدَّغَلُ، بالفتح: الفساد. مختار الصحاح (دغل).

(٤) اعتضد بالبرابر: استعان بهم. مختار الصحاح (عضد).

(٥) نص ابن حيان في ذكر بلاد الأندلس (الورقة ٩١).

(٦) في ذكر بلاد الأندلس: «راجح العقل، راسخ العلم، واسع الحلم..».

شجاعًا، مقدامًا، بعيد الْغَور، شديد الحدّة، قليل الطمأنينة، بليغًا، مُفَوَّهًا، شاعرًا، محسنًا، سَمْحًا، سخيًا، طلق اللسان، وكان يلبس البياض ويعتمُّ به ويؤثره، وكان قد أُعْطِي هيبة من وليّه وعدوّه، وكان يحضر الجنائز، ويصلّي عليها، ويصلّي بالناس إذا كان حاضرًا الجُمَع والأعياد، ويخطب على المنبر، ويعود المرضى، ويكثر مباشرة الناس والمشي بينهم، إلى أن حضر في يوم جنازة فتصدّى له في منصرفه عنها رجل متظلّم عامي وَقَاح ذو عارضة فقال له: أصلح اللّه الأمير! إنَّ قاضيك ظلمني، وأنا أستجيرك من الظلم، فقال له: تُنْصف إن صدقت، فمدَّ الرجل يده إلى عنانه وقال: أيها الأمير، أسألك باللّه لما برحت من مكانك حتى تأمر قاضيك بإنصافي فإنه معك، فوجم الأمير والتفت إلى مَنْ حوله من حَشَمه، فرآهم قليلاً، ودعا بالقاضي، وأمر بإنصافه، فلمّا عاد إلى قصره كلّمه بعضُ رجاله مِمَّنْ كان يكره خروجه وابتذاله فيما جرى، فقال له: إنَّ هذا الخروج الكثير - أبقى اللّه تعالى الأمير! - لا يَجْمُلُ بالسلطان العزيز، وإنَّ عيون العامّة تخلق تجلته، ولا تؤمن بَوَادرهم عليه، فليس الناس كما عهدوا، فترك من يومئذ شهود الجنائز وحضور المحافل، ووكّل بذلك ولده هشامًا.

ومن نظم عبد الرحمن الداخل ما كتب به إلى أخته بالشام[1]: [الخفيف]

أيها الراكبُ المُيَمِّمُ أرضي ... أَقْرِ مِنِّي بعضَ السلام لبعضي
إنَّ جسمي كما تراهُ بأرضٍ ... وفؤادي ومالكيه بأرضِ
قُدِّرَ البَينُ بَينَنا فافْتَرَقْنا ... وطَوَى البَينُ عن جفونيَ غُمضي
قد قضى الدهرُ بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يَقْضي

وكتب إلى بعض مَنْ وفد عليه من قومه لَمَّا سأله الزيادة في رزقه، واستقلّ ما قابله به وذكّره بحقّه بهذه الأبيات[2]: [مخلع البسيط]

شتّانَ مَنْ قامَ ذا امتعاضٍ ... مُنْتَضِيَ الشَّفرتَين نَصْلا[3]

---

(١) الأبيات في الحلة السيراء (جـ ١ ص ٣٦) وجذوة المقتبس (ص ٩) وبغية الملتمس (ص ١٣) وذكر بلاد الأندلس (الورقة ٩١) والبيان المغرب (جـ ٢ ص ٦٠). وسترد في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ٤٦) باختلاف يسير عمّا هنا.

(٢) الأبيات في الحلة السيراء (جـ ١ ص ٣٩) والبيان المغرب (جـ ٢ ص ٥٩) وذكر بلاد الأندلس (الورقة ٩٧).

(٣) سيرد بعض هذه الأبيات في هذا الجزء من نفح الطيب (٣٦- ٣٧) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

فـجـاب قَـفـرًا وشـقَّ بـحـرًا مُـسَـامـيًـا لُـجَّـةً ومَـحْـلا
دَبَّـرَ مـلـكًـا وشـادَ عِـزًّا[1] ومِـنْـبـرًا لـلـخـطـاب فَـصْـلا
وجَـنَّـدَ الـجُـنْـدَ حـيـن أودى ومَـصَّـر الـمـصـرَ حـيـن أجـلـى
ثـم دَعَـا أهْـلَـهُ إلَـيْـه[2] حـيـث انـتـأوا أنْ هَـلُـمَّ أهـلا
فـجـاء هـذا طـريـد جـوعٍ شـديـدَ رَوْعٍ يـخـافُ قـتـلا[3]
فـنـال أمـنًـا ونـال شِـبْـعًـا ونـال مـالاً ونـال أهـلا[4]
ألـم يـكـن حَـقُّ ذا عـلـى ذا أعـظـمَ مِـنْ مـنـعـمٍ ومَـولَـى

وحكى ابن حيان أن عبد الرحمن لَمَّا أذعن له يوسف صاحب الأندلس واستقرَّ ملكه استحضر الوفود إلى قرطبة، فانثالوا عليه، ووالى القعود[5] لهم في قصره عدّة أيام في مجالس يكلّم فيها رؤساءهم ووجوههم بكلامٍ سَرَّهم وطيَّبَ نفوسهم، مع أنه كساهم وأطعمهم ووَصَلهم، فانصرفوا عنه محبورين مغتبطين، يتدارسون كلامه، ويتهافتون بشكره، ويتهانَون بنعمة اللّه تعالى عليهم فيه. وفي بعض مجالسهم هذه مَثَلَ بين يديه رجل من جند قنسرين يستجديه فقال له: يا ابن الخلائف الراشدين، والسادة الأكرمين، إليك فرزْتُ، وبك عُذْتُ، من زمن ظلوم، ودهر غَشُوم، قلّل المال، وكثر العيال، وشعث الحال، فصيّر إلى نَدَاك المآل، وأنت ولي الحمد والمجد، والمرجوّ للرِّفْد، فقال له عبد الرحمن مسرعًا: قد سمعْنا مقالتك، وقضيْنا حاجتك، وأمرنا بعونك على دهرك، على كرهنا لسوء مقامك، فلا تعودَنَّ ولا سواك لمثله من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة والإلحاف في الطَّلِبة، وإذا ألَمَّ بك خطب أو حَزَبَك أمر فارفَعْه إلينا في رقعة لا تعدوك، كيما نسترَ عليك خَلَّتَك[6]،

---

(١) رواية صدر هذا البيت في الحلة السيراء هي:

فـشـاد مـجـدًا وبَـزَّ مـلـكـا

(٢) في الحلة السيراء: «أهله جميعًا».

(٣) رواية عجز البيت في الحلة السيراء هي:

شـريـدَ سـيـفٍ أبـاد قـتـلا

(٤) رواية عجز البيت في الحلة السيراء هي:

وحـاز مـالاً وضَـمَّ شـمـلا

(٥) والى القعودَ: تابعه وداوم عليه. لسان العرب (ولي).

(٦) الخَلَّةُ، بالفتح: الحاجة والفقر. مختار الصحاح (خلل).

ونكفَّ شماتَ العدوّ عنك، بعد رفعك لها إلى مالكك ومالكنا عزَّ وجهه بإخلاف[1] الدعاء وصدق النيّة، وأمر له بجائزة حسنة، وخرج الناس يتعجّبون منه من حسن منطقه وبراعة أدبه، وكفَّ فيما بَعْدُ ذوو[2] الحاجات عن مقابلته بها شفَاهًا في مجلسه.

قال ابن حيان: ووقّع إلى سليمان بن يقظان الأعرابي على كتاب منه سلك به سبيل الخداع: أمّا بَعْدُ، فَدَعْني من معاريض المعاذير، والتعسّف عن جادة الطريق، لِتَمُدَّنّ يدًا إلى الطاعة، والاعتصام بحبل الجماعة، أو لأَزْوِيَنَّ بنانها عن رصف المعصية، نكالاً بما قدمت يداك، وما اللّه بظلاّم للعبيد.

وفي «المسهب» أن عبد الرحمن كان من البلاغة بالمكان العالي، الذي يرتَدُّ عنه أكثر بني مروان حسيرًا.

وقد جرى بينه وبين مولاه بَدْر ما لا يجب إهماله، وذلك أنه لَمَّا سعى بدر في تكميل دولته من ابتدائها إلى استقرارها صحبه عُجْب وامتنان كادا يَرِدَان به حِياضَ المنيّة، فأوّل ما بدأ به أن قال: بِعْنَا أنفسنا وخاطرنا بها في شأن مَنْ هانت عليه لَمَّا بلغ أقصى أمله. وقال وقد أمره بالخروج إلى غَزَاة: إنما تعبْنا أوّلاً لنستريح آخراً، وما أرانا إلاَّ في أشدّ مِمَّا كُنّا، وأطال أمثالَ هذه الأقوال، وأكثر الاستراحة في جانبه، فهجره وأعرض عنه، فزاد كلامه، وكتب له رقعة منها: أما كان جزائي في قطع البحر، وجَوْب القَفْر، والإقدام على تشتيت نظام مملكة وإقامة أخرى غير الهجر، الذي أهانني في عيون أكفائي، وأشمت بي أعدائي، وأضعف أمري ونهيي عند من يلوذ بي، وبَتَر مطامع من كان يكرمني ويحفدني[3] على الطمع والرجاء، وأظن أعداءنا بني العباس لو حَصَلْتُ بأيديهم ما بلغوا بي أكثر من هذا، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون. فلمّا وقف عبد الرحمن على رقعته اشتدّ غيظه عليه، فوقّع عليها: «وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك، وسوء خطابك، ودناءة أدبك، ولئيم معتقدك، والعجب أنك متى أردت أن تبني لنفسك عندنا متاتا[4] أتيت بما يهدم كل متات مشيّد مِمّا تمن به، مِمّا قد أضجر الأسماع تكراره، وقدحت في النفوس إعادته، مِمّا استخزنا اللّهَ

(١) في طبعة دار صادر: «بإخلاص».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «ذوي».
(٣) يحفدني: يخدمني. محيط المحيط (حفد).
(٤) المتاتُ: الصلة، والتوسل بقرابة وغيرها. لسان العرب (متت).

تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك، وزدنا في هجرك وإبعادك، وهِضْنَا[1] جناح إدلالك، فلعلّ ذلك يقمع منك[2] ويردعك حتى نبلغ منك ما نريد إن شاء الله تعالى، فنحن أولى بتأديبك من كل أحد، إذ شَرُّك مكتوب في مثالبنا، وخيرك معدود في مناقبنا». فلمّا ورد هذا الجواب على بدر سُقِط في يده، وسلم للقضاء، وعلم أنه لا ينفع فيه قول، ووجّه عبد الرحمن من استأصل ماله، وألزمه داره، وهتك حرمته، وقصّ جناح جاهه، وصيّره أهون من قعيس على عمّته، ومع هذا فلم ينته بدر عن الإكثار من مخاطبة مولاه، تارةً يستلينه، وتارة يذكره، وتارة ينفث مصدورًا بخطّ قلمه ما يلقيه عليه بلسانه، غير مفكر فيما يؤول إليه، إلى أن كتب له: قد طال هجري، وتضاعف همّي وفكري، وأشدُّ ما عليَّ كوني سليبًا من مالي، فعسى أن تأمر لي بإطلاق مالي وأتّحِدَ به في معزل لا أشتغل بسلطان، ولا أدخل في شيء من أموره ما عشت، فوقّع له: إن لك من الذنوب المترادفة ما لو سُلب معها روحك لكان بعض ما استوجبته، ولا سبيل إلى ردّ مالك، فإنّ تَرْكَكَ بمَعْزل في بُلَهْنية[3] الرفاهية وسعة ذات اليد والتخلّي من شغل السلطان أشبه بالنعمة منه بالنقمة، فايأس من ذلك، فإن اليأس مُريح. فسكت لَمّا وقف على هذه الإجابة مدّة إلى أن أتى عيد فاشتدّ به حزنه لما رأى من حاجة مَنْ يلوذ به وهمهم بما يفرح به الناس، فكتب إليه في ذلك رقعة منها: «وقد أتى هذا العيد الذي خالفت فيه أكثر من أساء إليك وسعى في خراب دولتك، مِمَّنْ عفوت عنه، فَتَبَنَّكَ النعمة[4] في ذَرَاك، واقتعد ذِرْوَةَ العزِّ، وأنا على ضدٍّ مِنْ هذا سليبًا من النعمة، مُطَّرَحًا حضيض[5] الهوان، أيأس مِمّا يكون، وأقرع السنّ على ما كان». فلمّا وقف على هذه الرقعة أمر بنفيه عن قرطبة إلى أقصى الثغر، وكتب له على ظهر رقعته: «لتعلمْ أنك لم تزل بمقتك، حتى ثقلت على العين طلعتك، ثم زدت إلى أنْ ثقل على السمع كلامُك، ثم زدت إلى أنْ ثقل على النفس جوارُك، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر فبالله إلاّ ما أقصرت، ولا يبلغ بك زائد المقت إلى أن تضيق[6] معي الدنيا، ورأيتك تشكو لفلان وتتألّم من فلان، وما تَقَوّلوه عليك، وما لك عدوّ أكبر من لسانك،

(١) هِضْنا جنْحَ إدلالك: كسرْناه. محيط المحيط (هيض).

(٢) يقمع منك: يقهرك ويذلّك. مختار الصحاح (قمع).

(٣) البُلَهْنِيَةُ: الرخاء وسَعَةُ العيش. محيط المحيط (بلهن).

(٤) تَبَنَّكَ النعم: تمكّن منها. محيط المحيط (بنك).

(٥) في طبعة دار صادر: «في حضيض...».

(٦) في طبعة دار صادر: «تضيق بك معي».

فما طاح بك غيره، فاقطعه قبل أن يقطعك».

ولَـمَّا فتح الداخل سَرَقُسْطة، وحصل في يدهِ ثائرها الحسين الأنصاري، وشُدخت[1] رؤوس وجوهها بالعَمَد، وانتهى نصره فيها إلى غاية أمله، أقبل خواصُّه يهنّئونه، فجرى بينهم أحد من لا يؤبه به من الجند، فهنّأه بصوت عال، فقال: واللّه لولا أن هذا اليوم يوم أسبغ عليَّ فيه النعمة من هو فوقي فأوجب عليَّ ذلك أن أُنعم فيه على من هو دوني لأصلينك ما تعرضت له من سوء النكال، من تكون حتى تُقبل مهنّئًا رافعًا صوتك غير متلجلج ولا متهيّب لمكان الإمارة ولا عارف بقيمتها حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك؟ وإنَّ جهلك ليحملك على العود لمثلها، فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة، فقال: ولعلّ فتوحات الأمير يقترن اتصالُها باتّصال جَهْلي وذنوبي، فتشفع لي متى أتيت بمثل هذه الزلة، لا أعدمنيه اللّه تعالى، فتهلّل وجه الأمير، وقال: ليس هذا باعتذار جاهل، ثم قال: نَبِّهونا على أنفسكم، إذا لم تجدوا من ينبّهنا عليها، ورفع مرتبته، وزاد في عطائه.

ولَـمَّا أنحى[2] أصحابه على أصحاب الفِهْرِي بالقتل يوم هزيمتهم على قرطبة قال: لا تستأصلوا شأفة[3] أعداء ترجون صداقتهم، واسْتَبْقُوهم لأشدَّ عداوةً منهم، يشير إلى استبقائهم لِيُسْتعان بهم على أعداء الدين.

ولَـمَّا اشتدَّ الكرب بين يديه يوم حربه مع الفهري، ورأى شدّة مقاساة أصحابه، قال: هذا اليوم هو أُسُّ ما يُبْنى عليه، إمَّا ذلّ الدهر وإمَّا عِزُّ الدهر، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون تربحوا بها بقيّة أعماركم فيما تشتهون.

ولَـمَّا خرج من البحر أول قدومه على الأندلس أتوه بخمر، فقال: إني محتاج لِـمَا يزيد في عقلي، لا لما ينقصه، فعرفوا بذلك قدره، ثم أُهْديت إليه جارية جميلة فنظر إليها وقال: إن هذه من القلب والعين بمكان، وإنْ أنا اشتغلْتُ عنها بهمّتي فيما أطلبه ظلمْتُها، وإن اشتغلت بها عَمَّا أطلبه ظلمْتُ همتي، ولا حاجة لي بها الآن، ورَدَّها على صاحبها.

ولَـمَّا استقامت له الدولة بلغه عن بعض من أعانه أنه قال: لولا أنا ما توصّل لهذا

---

(١) شُدِخَتِ الرؤوسُ: قُطعت. لسان العرب (شدخ).

(٢) أنحى عليهم بالقتل: أكثر عليهم القتل. لسان العرب (نحا).

(٣) الشأفة: القرحة تخرج في أسفل القَدَم فتُكْوَى فتذهب؛ يقال في المثل «استأصل اللّهُ شأفَتَهُ» أي أذهبه اللّهُ كما أذهب تلك القرحة بالكيّ. مختار الصحاح (شأف).

الملك، ولكان منه أبعد من العَيُوق[1]، وأن آخر قال: سعده أعانه، لا عقله وتدبيره، فحركه ذلك إلى أن قال: [الكامل]

لا يُلْفَ مُمْتَنٌّ علينا قاتلٌ لولاي ما ملك الأنامَ الداخلُ
سعدي وحزمي والمُهَنَّدُ والقَنَا ومَقادرٌ بلغتْ وحالٌ حائلُ
إنَّ الملوك مع الزمان كواكب نجمٌ يُطالعنا ونجمٌ آفلُ
والحزم كلُّ الحزم أن لا يغفلوا أيروم تدبيرَ البرية غافلُ؟
ويقول قومٌ سَعْدُه لا عقلُه خيرُ السعادة ما حماها العاقلُ
أبني أميّةَ قد جَبَرْنَا صَدْعكم بالغرب رغمًا والسعودُ قبائل
ما دامَ مِنْ نسلي إمامٌ قائمٌ فالملك فيكمْ ثابتٌ متواصل

وحكى ابن حيان أن جماعة من القادمين عليه مِنْ قِبَلِ الشام حدّثوه يومًا في بعض مجالسهم عنده ما كان من الغَمْر بن يزيد بن عبد الملك أيام محنتهم، وكلامه لعبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس الساطي بهم، وقد حضروا رِوَاقه وفيه وجوه المسوّدة من دعاة القوم وشيعتهم رادًّا على عبد الله فيما أراقه من دماء بني أمية، وثلبهم[2] والبراءة منهم، فلم تردعه هيبته وعصف ريحه واحتفال جمعه عن معارضته والردّ عليه بتفضيله لأهل بيته والذبّ عنهم، وأنه جاء في ذلك بكلام غاظ عبد الله وأغصّه بريقه، وعاجل الغمر بالحَتْف، فمضى وخلف في الناس ما خلف من تلك المعارضة في ذلك المقام، وكثر القوم في تعظيم ذلك، فكأنّ الأمير عبد الرحمن احتقر ذلك الذي كان من الغَمْر في جنب ما كان منه في الذهاب بنفسه عن الإذعان لعدوّهم، والأنَف من طاعتهم، والسعي في اقتطاع قطعة من مملكة الإسلام عنه، وقام عن مجلسه، فصاغ هذه الأبيات بديهةً[3]: [مخلع البسيط]

شتّان مَنْ قامَ ذا امتعاض فمرَّ ما قال واضمحلا[4]
ومَنْ غَدَا مُصْلِتًا لعزمٍ مجرِّدًا للعُداةِ نَصْلا

(١) العَيُوق: نجم في السماء. محيط المحيط (عوق).
(٢) في طبعة عبد الحميد: «وسلبهم».
(٣) مرّ بعض هذه الأبيات في هذا الجزء (ص ٣٢) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٤) رواية عجز البيت في طبعة دار صادر هي:

فشال ما قلْ واضمحلاّ

فجابَ قَفْرًا وشَقَّ بحرًا ... ولم يكنْ في الأنام كَلّا[1]
فشاد مُلْكًا وشاد عِزًّا ... ومنبرًا للخطاب فَصْلا
وجَنَّد الجُنْدَ حين أودى ... ومَصَّرَ المِصْرَ حين أجلى
ثم دعا أهْلَه جميعًا ... حيث انتأوا أنْ هلمّ أهلا

وله غير ذلك من الشعر، وسيأتي بعضه مِمًّا يقارب هذه الطبقة.

وأول ناصر لعبد الرحمن سائر معه في الخمول والاستخفاء مولاه المتقدّم الذكر، سعى في سلطانه شرقًا وغربًا وبرًّا وبحرًا، فلمًّا كمل له الأمر سلبه من كل نعمة، وسجنه، ثم أقصاه إلى أقصى الثغر، حتى مات وحالُه أسوأ حال، واللّه تعالى أعلم بالسرائر، فلعلّ له عذرًا ويلومه من يسمع مبدأه ومآله.

ورأس الجماعة الذين توجّه إليهم بدر في القيام بسلطانه أبو عثمان، ولَمَّا توطّدتْ دولةُ الداخل استغنى عنه وعن أمثاله، فأراد أبو عثمان أن يشغل خاطره، وينظر في شيء يحتاج به إليه، فجعل ابن[2] أخيه يثور عليه في حصن من حصون إلبيرة، فوجّه عبد الرحمن مَنْ قبض عليه وضرب عنقه، ثم أخذ أبو عثمان مع ابن أخي الداخل، وزَيّن له القيام عليه، فسُعِي لعبد الرحمن بابن أخيه قبل أن يتمّ أمره، فضرب عنقه وأعناق الذين دبّروا معه، وقيل له: إن أبا عثمان كان معه، وهو الذي ضمن له تمام الأمر، فقال: هو أبو سلمة[3] هذه الدولة، فلا يتحدّث الناس عنه بما تحدّثوا عن بني العباس في شأن أبي سلمة، لكن سأعتبه عتبًا أشدّ من القتل، وجعل يوعده[4]، ورجع[5] له إلى ما كان عليه في الظاهر.

وكان صاحبه الثاني في المؤازرة والقيام بالدولة صهره عبد اللّه بن خالد، وكان قد

---

(١) الكَلُّ، بفتح الكاف وتشديد اللام: الذي أصابه الإعياء. مختار الصحاح (كلل).

(٢) في طبعة دار صادر: «ابن أخته».

(٣) يشير هنا إلى أبي سلمة حفص بن سليمان الخلاّل الملقّب بـ «وزير آل محمد». وهو أول من لقّب بالوزارة في الإسلام. كان أول وزير لأول خليفة عباسي هو أبو العباس السفاح. وقد تخلّص منه أبو العباس السفاح حتى تمهّدت دولته، وقيل لأنه توهّم فيه الميل لآل عليّ، فسلّط عليه أبا مسلم الخراساني. وفيات الأعيان (جـ ٢ ص ١٩٥) والبداية والنهاية (جـ ١٠ ص ٥٥).

(٤) يوعده: يتهدّده. لسان العرب (وعد).

(٥) في طبعة دار صادر: «ثم رجع».

ضمن لأبي الصباح رئيس اليمانية عن الداخل أشياء لم يَفِ بها الداخل، وقتل أبا الصباح، فانعزل عبد الله وأقسم لا يشتغل بشغل سلطان حياته، فمات منفردًا عن السلطان.

وكان ثالثهما في النصرة والاختصاص تَمّام بن علقمة، وهو الذي عَبَر البحر إليه وبشّره باستحكام أمره، فقتل هشام بن عبد الرحمن وَلَدَ تمام المذكور، وكذلك فعل بولد أبي عثمان المتقدّم الذكر. قال ابن حيان: فذاقا من ثُكْلِ ولديهما على يدي أعزِّ الناس عليهما ما أراهما أنَّ أحدًا لا يقدر أن ينظر في تحسين عاقبته.

وإذا تتبّع الأمر في الذين يقومون في قيام دولة كان مآلهم مع من يظهرونه هذا المآل وأصعب.

وذكر أن أول حُجّاب الداخل تمام بن علقمة مولاه ذو العمر الطويل، ثم يوسف بن بخت الفارسي، مولى عبد الملك بن مروان، وله بقرطبة عَقِبٌ نابه، ثم عبد الكريم بن مهران من ولد الحارث بن أبي شمر الغساني، ثم عبد الرحمن بن مغيث بن الحارث بن حويرث بن جبلة بن الأيهم الغساني، وأبوه مغيث فاتح قرطبة، الذي تقدمت ترجمته، ثم منصور الخصِيُّ، وكان أول خصيٍّ استحجبه ابن مروان بالأندلس، ولم يزل حاجبه إلى أن توفي الداخل.

ولم يكن للداخل من يطلق[1] عليه سِمَة وزير، لكنه عيّن أشياخًا للمشاورة والمؤازرة، أولهم أبو عثمان المتقدّم الذكر، وعبد الله بن خالد السابق الذكر، وأبو عبدة صاحب إشبيلية، وشُهَيْد بن عيسى بن شهيد مولى معاوية بن مروان بن الحكم، وكان من سَبْي البرابر، وقيل: إنه رومي، وبنو شُهَيد الفضلاء من نسله، وعبد السلام بن بسيل الرومي مولى عبد الله بن معاوية، ولولده نباهة عظيمة في الوزارة وغيرها، وثعلبة بن عبيد ابن النظام الجُذامي[2] صاحب سَرَقُسْطة لعبد الرحمن، وعاصم بن مسلم الثقفي من كبار شيعته وأول من خاض النهر وهو عريان يوم الوقعة بقرطبة، ولعقبِه في الدولة نباهة.

وأول من كتب له عند خلوص الأمر له واحتلاله بقرطبة كبير نُقَبائه أبو عثمان وصاحبه عبد الله بن خالد المتقدّما الذكر، ثم لزم كتابته أمية بن يزيد مولى معاوية بن مروان، وكان في عديد من يشاوره أيضًا ويفضل أمره وآراءه، وكان يكتب قبله ليوسف الفهري، وقيل:

---

(١) في طبعة دار صادر: «ينطلق».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «الجذمي».

إنه مِمَّنْ اتّهم في ممالأة اليزيدي في إفساد دولة عبد الرحمن، فاتفق أن مات قبل قتل اليزيدي واطلاع عبد الرحمن على الأمر.

وذكر ابن زيدون أن الداخل ألفى على قضاء الجماعة بقرطبة يحيىٰ بن يزيد اليحصبي، فأقرّه حينًا، ثم ولّى بعده أبا عمرو معاوية بن صالح الحمصي، ثم عمر بن شراحيل، ثم عبد الرحمن بن طريف، وكان جدار بن عمرو يقضي في العساكر.

وكان الداخل يرتاح، لَمَّا استقرّ سلطانه بالأندلس، إلى أن يَفِدَ عليه فَلُّ بيته بني مروان، حتى يشاهدوا ما أنعم اللّه تعالى عليه، وتظهر يده عليهم[1]، فوفد عليه من بني هشام بن عبد الملك أخوه الوليد بن معاوية وابن عمّه عبد السلام بن يزيد بن هشام. قال ابن حيان: وفي سنة ١٦٣ قَتَلَ الداخلُ عبدَ السلام بن يزيد بن هشام المعروف باليزيدي، وقتل معه من الوافدين عليه عبيد الله بن أبان بن معاوية بن هشام [المعروف باليزيدي][2]، وهو ابن أخي الداخل، وكانا[3] تحت تدبير يُبْرِمانه في طلب الأمر، فَوَشَى بهما مولى لعبيد اللّه بن أبان، وكان قد ساعدهما على ما هَمَّا به من الخلاف أبو عثمان كبير الدولة، فلم ينلْه ما نالهما.

وذكر الحِجَاري أن الداخل كَان يقول: أعظم ما أنعم اللّه تعالى به عليَّ بَعْدَ تمكّني من هذا الأمر القدرةُ على إيواء من يَصِل إليَّ مِنْ أقاربي، والتوسّع في الإحسان إليهم، وكبري في أعينهم وأسماعهم ونفوسهم بما منحني اللّه تعالى من هذا السلطان الذي لا مِنَّةَ علي فيه لأحد غيره.

وذكر ابن حزم أنه كان فيمن وفد عليه ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية، فسعى في طلب الأمر لنفسه، فقتله سنة ١٦٧، وقتل معه من أصحابه هُذَيل بن الصُّميل بن حاتم، ونفى أخاه الوليد بن معاوية والد المغيرة المذكور إلى العُدْوة بماله وولده وأهله.

وفي «المسهب» حدّث بعضُ موالي عبد الرحمن الخاصّين به أنه دخل على الداخل إثر قتله ابنَ أخيه المغيرة المذكور، وهو مُطْرِق شديد الغمّ، فرفع رأسه إليَّ وقال: ما عجبي إلاّ من هؤلاء القوم، سَعَيْنا فيما يضجعهم في مهاد الأمن والنعمة[4]، وخاطرنا فيه

---

(١) تظهر يدُه عليهم: أي يجزل لهم العطاء وينعم عليهم. لسان العرب (ظهر).

(٢) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر.

(٣) في طبعة عبد الحميد: «وكان».

(٤) سَعَيْنا فيما يضجعهم في مهاد الأمن: أي مَهَّدْنا لهم الأمر ومكّنّاهم من الاستقرار وأوصلْناهم إلى النعمة.

بحياتنا، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا، ويسّر اللّه تعالى أسبابه، أقبلوا علينا بالسيوف، ولـمَّا أويناهم وشاركناهم فيما أفردنا اللّه تعالى به حتى أمنوا ودَرَّت عليهم أخلافُ النعم هَزُّوا أعطافهم، وشمخوا بآنافهم، وسموا إلى العظمى، فنازعونا فيما منحنا اللّه تعالى، فخذلهم اللّه بكفرهم النعم إذ أطلعنا على عَوراتهم، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا، وأدَّى ذلك إلى أن ساء ظنّنا في البريء منهم، وساء أيضًا ظنّه فينا، وصار يتوقّع من تغيرنا عليه ما نتوقّع نحن منه، وإن أشدّ على ما عليّ في ذلك أخي والد هذا المخذول، فكيف تطيب لي نفس بمجاورته بعد قتل ولده وقطع رحمه؟! أم كيف يجتمع بصري مع بصره؟ اخْرُجْ له الساعة فاعتذرْ إليه، وهذه خمسة آلاف دينار ادفعْها إليه، واعزم عليه في الخروج عني من هذه الجزيرة إلى حيث شاء من بَرّ العُدْوة.

قال: فلمَّا وصلْتُ إلى أخيه فوجدتّه أشبه بالأموات منه بالأحياء، فآنسته وعرفته، ودفعت له المال، وأبلغته الكلام، فتأوّه وقال: إن المشؤوم لا يكون بليغًا في الشؤم حتى يكون على نفسه وعلى سواه، وهذا الولد العاق الذي سعى في حَتْفه قد سرى ما سعى فيه إلى رَجُل طَلَبَ العافية، وقنع بكِسْر بيت في كَنَف من يحمل عنه معرّة الزمان وكَلّه[1]، ولا حول ولا قوة إلاّ باللّه، لا مردّ لما حكم به وقضاه، ثم ذكر أنه أخذ في الحركة إلى بَرّ العُدْوة.

قال: ورجعت إلى الأمير فأعلمته بقوله، فقال: إنه نطق بالحق، ولكن لا يخدعني بهذا القول عَمَّا في نفسه، واللّه لو قدر أن يشرب من دمي ما عَفَّ عنه لحظة، فالحمد للّه الذي أظهرنا عليهم بما نويناه فيهم، وأذلّهم بما نووه فينا.

واعلَم أنه دخل الأندلس أيام الداخل من بني مروان وغيرهم من بني أمية جماعة كثيرون سرد أسماءَهم غير واحد من المؤرخين، وذكر أعقابهم بالأندلس، ومنهم جزيّ بن عبد العزيز أخو عمر بن عبد العزيز، وسيأتي قريبًا.

وقد ثار على عبد الرحمن الداخل من أعيان الغرب وغيرهم جماعة كثيرون ظفّره اللّه تعالى بهم، وقد سبق ذكر بعضهم، ومنهم الدعي[2] الفاطمي البربري بشَنْت مرية فأعيا الداخل أمره، وطال شرّه سنين متوالية، إلى أن فتك به بعض أصحابه فقتله.

---

(١) معرّة الزمان وكَلّه: أراد شدّته وقساوته.
(٢) في طبعة ليدن: «الداعي».

ومنهم حَيوة بن ملابس الحضرمي رئيس إشبيلية، وعبد الغفار بن حميد اليحصبي رئيس لَبْلَة، وعمرو بن طالوت رئيس باجَةَ، اجتمعوا وتوجّهوا نحو قرطبة يطلبون دم رئيس اليمانية أبي الصباح، فقُتِلوا في هزيمة عظيمة، وقيل: نجوا بالفرار، فأمَّنهم الداخل.

وفي سنة ١٥٧ ثار بسَرَقُسْطَة الحسينُ بن يحيىٰ بن سعد[1] بنِ عُبَادة الخزرجي، وشايعه سليمان بن يقظان الأعرابي الكلبي رأس الفتن، وآل أمرهما إلى أن فتك الحسين بسليمان، وقتل الداخلُ الحسينَ كما مرّ.

وفي سنة ١٦٣ ثار الرماحس[2] بن عبد العزيز الكناني بالجزيرة الخضراء، فتوجّه له عبد الرحمن الداخل، ففرَّ في البحر إلى المشرق.

قال ابن حيان: كان مولد عبد الرحمن الداخل سنة ١١٣، وقيل: في التي قبلها، بالعلياء من تَدْمُر، وقيل: بدير حنا من دمشق، وبها توفي أبوه معاوية في حياة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، وكان قد رشّحه للخلافة ـ وبقبر معاوية المذكور استجار الكُمَيتُ الشاعر حين أهدر هشام دمه ـ وتوفي الداخل لست بقين من ربيع الآخر سنة ١٧١، وهو ابن سبع وخمسين سنة وأربعة أشهر، وقيل: اثنتان وستون سنة، ودفن بالقصر من قرطبة، وصلَّى عليه ابنه عبد اللّٰه.

وكان منصورًا مؤيّدًا مُظَفَّرًا على أعدائه، وقد سردْنا من ذلك جملة، حتى قال بعضهم: إنّ الراية التي عُقدت له بالأندلس حين دخلها لم تُهْزَمْ قط، وإنَّ الوَهَن ما ظهر في ملك بني أمية إلاّ بعد ذهاب تلك الراية، قال أكثَرَ هذا مؤرخُ الأندلس الثَّبْتُ الثقة أبو مروان ابن حَيَّان، رحمه اللّٰه تعالى!

ولا بأس أن نُورد زيادة على ما سلف وإنْ تكرّر بعض ذلك، فنقول: قال بعض المؤرخين من أهل المغرب بعد كلام ابن حيان الذي قدّمنا ذكره، ما نصُّه[3]: كان الإمام عبد الرحمن الداخل راجحَ العقل، راسخ الحلم، واسع العلم، كثير الحزم، نافذ العزم، لم تُرفع له قطّ راية على عدوّ إلاّ هزمه، ولا بلد إلاّ فتحه، شجاعًا، مقدامًا، شديد الحذر،

---

(١) في طبعة دار صادر: «يحيىٰ بن سعيد بن سعد بن عبادة». وفي طبعة بولاق: «يحيىٰ بن سعيد بن عبادة».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «الرحامس».

(٣) تقدم في هذا الجزء (ص ٣٠ ـ ٣١) أن هذا النص لابن حيان.

قليل الطمأنينة، لا يُخْلِد إلى راحة، ولا يسكن إلى دَعَة، ولا يكل الأمر إلى غيره، كثير الكرم، عظيم السياسة، يلبس البياض، ويعتمُّ به، ويعود المرضى، ويشهد الجنائز، ويصلّي بالناس في الجُمَع والأعياد، ويخطب بنفسه، جَنَّد الأجناد، وعقد الرايات، واتّخذ الحُجَاب والكُتّاب، وبلغت جنوده مائة ألف فارس.

وملخَّصُ دخوله الأندلس أنه لَمَّا اشتدَّ الطلب على فَلِّ بني أمية بالمشرق من وارثي ملكهم بني العباس خرج مستترًا إلى مصر، فاشتدَّ الطلب على مثله، فاحتال حتى وصل بَرْقَة، ثم لم يزل متوغّلاً في سيره إلى أن بلغ المغرب الأقصى، ونزل بنفزة[١] وهم أخواله، فأقام عندهم أيامًا ثم ارتحل إلى مُغيلة بالساحل، فأرسل مولاه بدرًا بكتابه إلى مَوَاليهم بالأندلس عبيد اللّه بن عثمان وعبد اللّه بن خالد وتمام بن علقمة وغيرهم، فأجابوه واشتروا مركبًا وجهّزوه بما يحتاج إليه، وكان الذي اشتراه عبيد اللّه بن عثمان، وأركب فيه بدرًا، وأعطاه خمسمائة دينار برسم النفقة، وركب معه علقمة[٢] بن تمام بن علقمة، وبينما هو يتوضّأ لصلاة المغرب على الساحل إذ نظر إلى المركب في لـجّة البحر مقبلاً حتى أرسى أمامه، فخرج إليه بدر سابحًا، فبشّره بما تمّ له بالأندلس، وبما اجتمع عليه الأمويون والموالي، ثم خرج إليه تمام ومن معه في المركب فقال له: ما اسمك وما كنيتك؟ فقال: اسمي تمام، وكنيتي أبو غالب، فقال: تم أمرنا وغلبنا عدوّنا إن شاء الله تعالى، ثم ركبوا المركب معه فنزل بالمُنَكّب، وذلك غرة ربيع الأول سنة ١٣٨.

فلمَّا اتّصل خبر جَوَازه[٣] بالأموية أتاه عبيد اللّه بن عثمان وجماعة فتلقّوه بالإعظام والإكرام، وكان وقت العصر، فصلّى بهم العصر، وركبوا معه إلى قرية طُرُش من كور إلبيرة فنزل بها، وأتاه بها جماعة من وجوه الموالي وبعض العرب، فبايعوه وكان من أمره ما يُذْكَرُ، وقيل: إنه أقام بإلبيرة حتى كمل من معه ستمائة فارس من موالي بني أمية ووجوه العرب، فخرج من إلبيرة إلى كورة ريَّة فدخلت في جماعته ثم بايعته أهلها وأجنادها، ثم ارتحل إلى شَذونه ثم إلى مورور[٤]، ثم سار إلى إشبيليةَ.

---

(١) في طبعة بولاق: «بنفرة» بالراء المهملة.

(٢) في طبعة دار صادر: «وركب معه تمام بن علقمة..».

(٣) خبر جوازه: أي خبر اجتيازه من إفريقية إلى الأندلس.

(٤) في طبعة عبد الحميد: «مُدَوّر».

وقال بعضهم: لَمَّا أراد عبد الرحمن قصدَ قرطبة عند دخوله الأندلسَ من المشرق نزل بطشّانة، فأشاروا عليه أن يعقد له لواء، فجاءوا بعمامة وقَنَاة، فكرهوا أن يُمِيلوا القناة تطيرًا، فأقاموها بين شجرتين من الزيتون متجاورتين، وصعد رجل على فرع إحداهما فعقد اللواء والقناةُ قائمة، وتبرّك هو وولده بهذا اللواء، فكان بعد أن بَلِيَ لا تُحَلُّ منه العقدة التي عقدت أوّلاً، بل تُعْقد فوقها الألوية الجدُدُ، وهي مستكنة تحتها، ولم يزل الأمر على ذلك حتى انتهت الدولة إلى عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، وقيل: إلى ابنه محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، فاجتمع الوزراء على تجديد اللِّواء، فلمّا رأوا تحت اللواء أسمالاً خَلَقة[1] ملفوفة معقدة جهلوها فاسترذلوها، وأمروا بحلِّها ونَبْذِها، وجدّدوا غيرها، وكان جهور بن يوسف بن بخت شيخهم غائبًا، فحضر في اليوم الثاني، وطولع بالقصّة، فأنكرها أشدّ إنكار، وساءه ما فعلوه، وقال: إن جهلتم شأن تلك الأخلاق[2] فكان ينبغي أن تتوقّفوا عن نَبْذها حتى تسألوا المشايخ وتتفكّروا في أمرها، وخبرهم خبرها، فتطلّبوا تلك الأَخْلاَقَ فلم توجد، ويقال كما قال ابن حيان: إنه لم يزل يعرف الوَهَنَ في ملك بني أمية بالأندلس من ذلك اليوم، وقد كان الذي عقده أوّلاً عبد الله بن خالد من موالي بني أمية، وكان والدهُ خالد عقد لواء مروان بن الحكم جدّ عبد الرحمن الأعلى لَمَّا اجتمع عليه بنو أمية وبنو كلب بعد انقراض دولة بني حَرْب[3] على قتال الضحاك بن قيس الفِهْرِي يوم مَرْج رَاهِطٍ[4]، فانتصر على الضحاك وقتله، ولَمَّا عرف الأمير بقصة اللواء حزن أشدّ حزن، وانفتقت عليه إثْرَ ذلك الفُتُوقُ العظام، وكانوا يرون أنها جَرَتْ بسبب اللواء لأنه لم ينهزم قطّ جيش كان تحته، على ما اقتضته حكمة الله التي لا تتوصّل إليها الأفكار، وتولّى حمل هذا اللواء لعبد الرحمن الداخل أبو سليمان داود الأنصاري، ولم يزل يحمله ولده من بعده إلى أيام محمد ابن عبد الرحمن.

ولَمَّا تلاقى عبد الرحمن الداخل مع أمير الأندلس يوسف الفهري بالقرب من قُرْطبة

---

(١) الأسمال: جمع سَمَل وهو الخَلَقُ من الثياب. خَلَقَةٌ: بالية. مختار الصحاح (سمل) و (خلق).

(٢) الأخلاق: أي الثياب البالية. مختار الصحاح (خلق).

(٣) دولة بني حرب: أي دولة أبناء أبي سفيان التي ابتدأت بمعاوية وانتهت باستيلاء مروان بن الحكم على الخلافة.

(٤) كانت معركة مرج راهط بين مروان بن الحكم والضحاك بن قيس الفهري في الشام، وكان النصر فيها لمروان، وقُتل فيها الضحاك. الروض المعطاء (ص ٥٣٦ ـ ٥٣٧).

وتراسلا، فخادعه يومين آخرهما يوم عرفة من سنة ثمان وثلاثين ومائة، أظهر عبدُ الرحمن قبولَ الصلح، فبات الناسُ على ذلك ليلة العيد، وكان قد أسرَّ خلافَ ما أظهر، واستعدَّ للحرب، ولَمَّا أصبح يوم الأضحى لم يَنْشَبْ[1] أنْ غشيت الخيلُ، ووكَّلَ عبد الرحمن بخالد بن زيد، الكاتبِ رسولِ يوسف جماعةً، وأمرهم إن كانت الدائرة عليهم أن يضربوا عنقه، وإلاّ فلا، فكان خالد يقول: ما كان شيء في ذلك الوقت أحبَّ إليّ من غلبة عبد الرحمن الداخل عدوّ صاحبي، وركب عبد الرحمن جوادًا، فقالت اليمانية الذين أعانوه: هذا فتًى حديثُ السنّ تحته جواد وما نأمن أول رَدْعَةٍ[2] يردعها أن يطير منهزمًا على جواده ويدعنا، فأتى عبدَ الرحمن أحدُ مواليه فأخبره بمقالتهم، فدعا أبا الصباح، وكان له بغل أشهب يسمّيه الكوكب، فقال له: إنَّ فرسي هذا قلق تحتي، لا يمكنني من الرمي، فقدِّمْ إلي بغلك المحمود أركبه، فقدّمه، فلمَّا ركب اطمأنَّ أصحابه، وقال عبد الرحمن لأصحابه: أي يوم هذا؟ قالوا: الخميس يوم عرفة، فقال: فالأضحى غدًا يوم الجمعة، والمتزاحفان أموي وفهري، والجندان قيس ويمن، قد تقابل الأشكال جدًا، وأرجو أنه أخو يوم مَرْج راهط، فأبشروا وجِدُّوا، فذكرهم يوم مرج راهط الذي كانت فيه الوقعة بين جدّه مروان بن الحكم وبين الضحاك بن قيس الفهري، وكانت يوم جمعة ويوم أضحى، فدارت الدائرة لمروان على الضحاك، فقُتل الضحاك، وقُتل معه سبعون ألفًا من قبائل قَيْس وأحلافهم، وقيل: إنه لم يحضر مَرْج رَاهِط من قيس مع مروان غير ثلاثة نفر: عبد الرحمن ابن مسعدة الفزاري، وابن هبيرة المحاربي، وصالح الغَنَوي، وكذا لم يحضر مع عبد الرحمن الداخل يوم المصارة[3] غربي قُرْطُبَة من قيس غير ثلاثة: جابر بن العلاء بن شهاب، والحصين بن الدجن، العقيليان، وهلال بن الطفيل العبدي، وكان الظفر لعبد الرحمن، وانهزم يوسف، وصبر الصُمَيل بن حاتم بعده معذرًا وعشيرته يحفونه، فلمَّا خاف انهزامهم عنه تحوّل على بغله الأشهب معارضَةً لعبد الرحمن الداخل، فمرَّ به أبو عطاء فقال له: يا أبا جوشن، احتسبْ نفسك، فإنَّ للأشباه أشباهًا: أموي بأموي، وفِهْري بفهري، وكلبي بكلبي، ويوم أضحى بيوم أضحى، ويمني بقيسي، والله إنّي لأحسب هذا اليوم بمثل مَرْج رَاهِط سواء، فقال له الصُميل، كبرت وكبر علمك، الآن تنجلي الغمّاء، وسُحْرُكَ

(١) لم ينشب: لم يلبث. لسان العرب (نشب).

(٢) أولُ رَدْعَةٍ: أراد أول هجمة تقع بينه وبين عدوه. لسان العرب (ردع).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «الصارة».

منتفخ[1]، فانثنى أبو عطاء لوَجْهه منقلبًا، وانهزم الصُّمَيل، وملك عبد الرحمن قُرطبة.

ويوسف الفهري هو ابن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري، بَانِي القيروان، وأمير معاوية على إفريقية والمغرب، وهو مشهور.

وأما الصُّمَيل فهو ابن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن، وقيل: الصميل بن حاتم بن عمرو بن جُنْدَع بن شمر بن ذي الجوشن، كان جدُّه شمر من أشراف الكوفة وهو أحد قتلة الحسين، رضي الله تعالى عنه! ودخل الصُّميل الأندلس حين دخل كُلْثوم بن عياض المغرب غازيًا، وساد بها، وكان شاعرًا كثير السكر أمّيًا لا يكتب، ومع ذلك فانتهت إليه في زمانه رياسة العرب بالأندلس، وكان أميرها يوسف الفهري كالمغلوب معه، وكانت ولاية الفهري الأندلس سنة تسع وعشرين ومائة، فدانت له تسع سنين وتسعة أشهر، وعنه كما مرَّ انتقل سلطانها إلى بني أمية، واستفحل مُلْكهم بها إلى بعد الأربعمائة، ثم انتثر سلكهم، وباد ملكهم، كما وقع لغيرهم من الدول في القرون السالفة، سُنَّةَ اللَّه التي قد خلت في عباده.

وكانت مدة الأمراء قبل عبد الرحمن الداخل من يوم فُتحت الأندلس إلى هزيمة يوسف الفهري والصميل ستًا وأربعين سنة وشهرين وخمسة أيام؛ لأن الفتح كان حسبما تقدّم لخمس خَلَونَ من شوّال سنة اثنتين وتسعين، وهزيمة يوسف يوم الأضحى لعشر خلون من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة، واللَّه غالبٌ على أمره.

وحكي أن عبد الرحمن بن معاوية دخل يومًا على جدِّه هشام، وعندهُ أخوه مَسْلمة بن عبد الملك، وكان عبد الرحمن إذ ذاك صبيًا، فأمر هشام أن يُنَحَّى عنه، فقال له مَسْلمة: دَعْهُ يا أمير المؤمنين، وضَمَّه إليه، ثم قال: يا أمير المؤمنين، هذا صاحب بني أمية، ووزَرُهم[2] عند زوال ملكهم، فاستَوْصِ به خيراً، قال: فلم أزل أعرف مزيةً من جدي من ذلك الوقت.

وكان الداخل يقاس بأبي جعفر المنصور في عزمه وشدّته وضبط المملكة، ووافقه في أن أُمَّ كلٍّ منهما بربرية، وأنَّ كُلاً منهما قتل ابنَ أخيه، إذ قتل المنصور ابن السفاح، وقتل

---

(١) السُّحْر، بضم السين وسكون الحاء: الرئة، والجمع أسحار. وانتفاخ السُّحْر كناية عن العجب بالنَّفس. مختار الصحاح (سحر).

(٢) الوَزَرُ، بفتح الواو والزاي: الملجأ. مختار الصحاح (وزر).

عبد الرحمن ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية.

ومن شعر عبد الرحمن وقد رأى نخلة برُصَافته[١]: [الطويل]

تَبَدَّتْ لنا وَسْطَ الرصافةِ نخلةٌ   تناءتْ بأرضِ الغربِ عن بلدِ النخلِ
فقلْتُ شبيهي في التغرُّبِ والنَّوَى   وطولِ[٢] اكتئابي عن بُنَيَّ وعن أهلي
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ   فمِثْلُكِ في الإقصاء والمُنتأى مثلي
سَقَتْكِ غَوَادي المُزْنِ في المنتأى الذي   يَسُحُّ ويَسْتَمْري السِّماكَينِ بالوَبْلِ[٣]

وكان نقش خاتمه «بالله يثق عبد الرحمن، وبه يعتصم». وأشاع سنة ١٦٣ الرحيل إلى الشام لانتزاعها من بني العباس، وكاتب جماعة من أهل بيته ومواليه وشيعته، وعمل على أن يستخلف ابنه سليمان بالأندلس في طائفة، ويذهب بعامة مَنْ أطاعه، ثم أعرض عن ذلك بسبب أمر الحسين[٤] الأنصاري الذي انْتَزَى[٥] عليه بسَرَقُسْطة، فبطل ذلك العزم.

ومن شعر عبد الرحمن أيضًا قوله يتشوّق إلى معاهد الشام[٦]: [الخفيف]

أيها الراكبُ المُيَمِّمُ أرضي   اِقْرَ مِنِّي بعضَ السلام لبعضي
إنَّ جسمي كما عَلِمْتَ بأرضٍ   وفؤادي ومالكيه بأرض
قُدِّرَ البَيْنُ بيننا فافترقْنا   وطوى البَيْنُ عن جفونيَ غُمْضِي
قد قضى اللّهُ بالفراق علينا   فعسى باجتماعنا سوف يقضي

وترجمة الداخل طويلة، وقد ذُكر منها ما فيه مقنع، انتهى. واللّه تعالى الموفق للصواب.

وفي بنائه جامع قرطبة يقول بعضهم: [الطويل]

---

(١) الأبيات في الحلة السيراء (جـ ١ ص ٣٧) والبيان المغرب (جـ ٢ ص ٦٠).
(٢) في المصدرية السابقين: «وطول التنائي».
(٣) في البيان المغرب: «سقاك.. من صوبها الذي..». وفي الحلة السيراء: المزن من صوبها الذي..».
وورواية عجز البيت في طبعة عبد الحميد هي:

يصحُّ ويستمري المساكين بالوَبْلِ

(٤) في طبعة عبد الحميد: «الحسن». وقد تقدّم ذكره باسم «الحسين».
(٥) انتزى عليه: وثب عليه وثار. لسان العرب (نزا).
(٦) مرّت هذه الأبيات في هذا الجزء (ص ٣١)، وأشرنا هناك إلى المصادر التي وردت فيها.

وأَبْـرَزَ فـي ذات الإلٰـه ووَجْـهِـهِ ثمانين ألفًا مِنْ لُجَينٍ وعَسْجَدِ
وأَنْفَقَهَا في مسجدٍ زانَهُ التُّقَى وقَـرَّ بـه دِيـنُ الـنـبـي مـحـمـدِ
ترى الذهبَ الوهَّاجَ بين سموكه يـلـوحُ كَلَمْحِ البـارق المـتـوقّـدِ

٣٣ ـ ومن الوافدين على الأندلس أبو الأشعث الكلبي[١].

دخل الأندلس، وكان شيخًا مُسِنًا يروي عن أُمِّه عن عائشة، رضي اللّٰه تعالى عنها! إلاّ أنه كان مُنْذِرًا[٢] صاحب دُعَابة، وكان مختصًا بعبد الرحمن بن معاوية، وله منه مكانة لطيفة يُدِلُّ بها عليه[٣]، ولَمَّا توفي حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك ابن مروان، وكانت له من عبد الرحمن خاصّة لم تكن لأحد من أهل بيته، جعل عبد الرحمن يبكي ويجتهد في الدعاء والاستغفار لحبيب، وكان إلى جنبه أبو الأشعث هذا قائمًا، وكانت له دَالَّة عليه ودُعَابة يحتملها منه، فأقبل عند استعباره[٤] كالمخاطب للمتوفَّى علانيةً يقول: يا أبا سليمان، لقد نزلتَ بحُفْرة قلَّما يُغْني عنك فيها بكاء الخليفة عبد الرحمن بَعْرَةً[٥]، فأعرض عنه عبد الرحمن، وقد كاد التبسّم يغلبه، هكذا ذكره ابن حَيَّان، رحمه اللّٰه تعالى في «المقتبس»، ونقله عنه الحافظ ابن الأبار.

٣٤ ـ ومن الداخلين إلى الأندلس جُزَيُّ بن عبد العزيز[٦]، أخو عمر بن عبد العزيز، رضي اللّٰه تعالى عنه!

دخل الأندلس، ومات في مدّة الداخل، وكان من أولياء اللّٰه تعالى مقتفيًا سبيلَ أخيه عمر بن عبد العزيز، رحمهما اللّٰه تعالى!.

٣٥ ـ ومنهم بكر بن سَوَادة بن ثُمَامة، الجُذَامي[٧].

---

(١) ترجمة أبي الأشعث الكلبي في التكملة (ص ٢١٣). وهنا ينقل المقري عن التكملة حرفيًا.
(٢) مُنْذِرٌ: صاحب نوادر.
(٣) يُدِلُّ عليه: يجترىء عليه ثقةً منه بمحبّته. لسان العرب (دلل).
(٤) في طبعة عبد الحميد: «استقباره».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «بعده».
(٦) ترجمة جزي بن عبد العزيز في جذوة المقتبس (ص ١٩٠) وبغية الملتمس (ص ٢٦٢) وجمهرة أنساب العرب (ص ١٠٥).
(٧) ترجمة بكر بن سَوادة بن ثُمامة الجذامي في جذوة المقتبس (ص ١٧٩) وبغية الملتمس (ص ٢٤٨) ورياض النفوس (جـ ١ ص ٧٤) ومعالم الإيمان (جـ ١ ص ١٦٠).

ويكنى أبا ثمامة، وجدُّه صحابي، وكان بكر هذا فقيهاً كبيرًا من التابعين، روى عن جماعة من الصحابة كعبد اللَّه بن عمرو بن العاص وقيسي بن سعد بن عُبَادة وسَهْل بن سعد السَّاعدي وسفيان بن وَهْب الْخولاني وَحِبَّان بن سمح الصُّدائي، وقيد اسمه الدارقطني، رحمه اللَّه تعالى، حِبَّان - بكسر الحاء المهملة، وبباء معجمة بواحدة - ونقله الأمير كذلك، وهو مِمَّن وَفَد على رسول اللَّه ﷺ، وشهد فتح مصر. قال ابن يونس: ويقال فيه حِبان بالكسر، وحَبَّان بالفتح أصحّ، انتهى، وضبطه بعضهم بالياء المثناة تحت.

رجع - ومِمَّنْ روى عنه بكر من الصحابة أبو ثور الفَهْمي، وأبو عميرة المزني، وروى عن جماعة من التابعين أيضًا كسعيد بن المسيِّب وأبي سَلَمة بن عبد الرحمن وعُرْوة بن الزبير وجماعة سواهم يكثر عددهم ويطول سَرْدُهم، منهم ربيعة بن قيس الجملي(١) وأبو عبد الرحمن الحُبُلي وزياد بن نعيم الحضرمي وسفيان بن هانىء الجيشاني وسعيد بن شمر السبائي وعبد اللَّه بن المستورد بن شداد الفِهْري وعبد الرحمن بن أوس المزني وزيادة بن ثعلبة البَلَوي وشيبان بن أمية القتباني وعامر بن ذريح الحميري وعمير بن الفيض اللخمي وأبو حمزة الخولاني وعياض بن فروخ المعافري ومسلم بن مخشي المدبجي وهانىء بن معاوية الصدفي وغيرهم مِمّن اشتمل على ذكرهم التاريخان لابن عبد الحكم وابن يونس.

ومِمَّن روى عن بكر المذكور عبد اللَّه بن لَهيعة وعمرو بن الحارث وجعفر بن ربيعة وأبو زُرْعة بن عبد الحكم الإفريقي وغيرهم.

قال ابن يونس: توفي بإفريقية في خلافة هشام بن عبد الملك، وقيل: بل غرق في مَجَاز الأندلس، سنة ثمان وعشرين ومائة، قال: وجدُّه ثُمَامة من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وله بمصر حديث رواه عمرو بن الحارث.

وقال أبو بكر عبد اللَّه بن محمد القيرواني المالكي في تاريخه المسمَّى بـ «رياض النفوس» وقد ذكر بكرًا هذا: إنه كان أحد العشرة التابعين، يعني الموجَّهين إلى إفريقية من قبل عمر بن عبد العزيز في خلافته ليفقِّهوا أهلَ إفريقية ويعلّموهم أمر دينهم، قال: وأغرب بحديث عن عقبة بن عامر، لم يَرْوه غيره فيما علمت، حدّث عبد اللَّه بن لهيعة عنه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا كان رأس مائتين فلا تأمر بمعروف، ولا تَنْهَ عن مُنْكر، وعليك بخاصّة نفسك». وحكى المالكي أيضًا عن أبي سعيد بن يونس قال:

(١) في طبعة عبد الحميد: «الحملي».

كان فقيهًا مفتيًا، سكن القيروان، وكانت وفاته كما تقدَّم، وذكره الحميدي في الداخلين إلى الأندلس، ولم يذكره ابن الفرضي.

٣٦ ـ ومنهم رُزَيق بن حكيم[١]، أحد المعدودين في الداخلين إلى الأندلس، ذكره أبو الحسن بن النعمة عن أبي المطرف عبد الرحمن بن يوسف الرفاء القرطبي، وحكي أنه كتب ذلك من خطِّه، وسمّاه مع جماعة منهم حبّان بن أبي جبلة وعلي بن أبي رباح وأبو عبد الرحمن الحُبُلي وحنش بن عبد اللّه الصنعاني ومعاوية بن صالح وزيد بن الحباب العكلي، وانتهى عددهم برُزَيْق[٢] هذا سبعة، ولم يذكره ابن الفرضي ولا غيره، قاله الحافظ أبو عبد اللّه القضاعي.

٣٧ ـ ومنهم زيد بن قاصد السَّكْسكي[٣].

قال ابن الأبار: وهو تابعي، دخل الأندلس وحضر فَتْحَها، وأصله من مصر، يروي عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص، رضي اللّه تعالى عنه! وروى عنه عبد الرحمن بن زياد ابن أنعم الإفريقي، ذكره يعقوب بن سفيان، وأورد له حديثًا؛ من كتاب الحميدي[٤]، انتهى.

٣٨ ـ ومنهم زرعة بن روح الشامي[٥].

دخل الأندلس، وحَدَّث عنه ابنه مسلمة بن زرعة بحكاية عن القاضي مهاجر بن نوفل.

٣٩ ـ ومنهم محمد بن أوس بن ثابت، الأنصاري[٦].

قال ابن الأبار: تابعي، دخل الأندلس، يروي عن أبي هريرة، قرأته بخطِّ ابن

---

(١) هكذا في التكملة (ص ٣٢٤). وفي طبعة عبد الحميد: «زريق». وهنا ينقل المقري عن التكملة لابن الأبار.

(٢) في طبعة عبد الحميد: «بزريق».

(٣) ترجمة زيد بن قاصد السَّكْسكي في جذوة المقتبس (ص ٢٢١) وبغية الملتمس (ص ٢٩٥) والتكملة (ص ٣٣٠).

(٤) يريد أن يقول إنّ ابن الأبار ينقل الترجمة من كتاب جذوة المقتبس للحميدي.

(٥) ترجمة زرعة بن روح الشامي في التكملة (ص ٣٣٦).

(٦) ترجمة محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري في جذوة المقتبس (ص ٤٥) وبغية الملتمس (ص ٦٢) والتكملة (ص ٣٥٤).

حبيش، وقال أبو سعيد بن يونس مؤرّخ مصر: إنه يروي عنه الحارث بن يزيد ومحمد بن عبد الرحمن بن ثوبان، وكان غزا المغرب والأندلس مع موسى بن نُصَير، ويروي عن أبي هريرة، رضي الله عنه! وقال الحميدي: إنه كان من أهل الدين والفضل معروفًا بالفقه، ولي بحر إفريقية سنة ثلاث وتسعين، وغزا المغرب والأندلس مع موسى بن نُصَير، فيما حكاه ابن يونس صاحب تاريخ مصر، وكان على بحر تونس سنة ثنتين ومائة على ما حكاه عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم. ولَمَّا قُتل يزيد بن أبي مسلم والي إفريقية اجتمع رأيُ أهلها عليه، فولّوه أمرهم، وذلك في خلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان، إلى أن ولي بشر بن صَفْوان الكلبي إفريقية، وكان على مصر فخرج إليها واستخلف أخاه حنظلة، انتهى.

٤٠ ـ ومنهم عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم، الأموي[١].

فَرَّ من الشام خوفًا من المسوّدة، فمرَّ بمصر ومضى إلى الأندلس، وقد غلب عليها الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل، فأكرمه ونوّه به، وولاّه إشبيلية لأنه كان قُعْدد[٢] بني أمية، ثم إنه لَمَّا وجد الداخل يدعو لأبي جعفر المنصور أشار عليه بقطع اسمه من الخطبة، وذكّره بسوء صنيع بني العباس ببني أمية، فتوقّف عبد الرحمن في ذلك، فما زال به عبد الملك حتى قطع الدعاء له، وذلك أنه قال له حين امتنع من ذلك: إن لم تقطع الخطبة لهم قتلت نفسي، فقطع حينئذ عبد الرحمن الخطبة بالمنصور بعد أن خطب باسمه عشرة أشهر. ولَمَّا زحف أهل غرب الأندلس نحو قرطبة لحرب الأمير عبد الرحمن أنهض إليهم عبدَ الملك هذا، فنهض في معظم الجيش، وقدّم ابنه أمية أمامه في أكثر العساكر، فخالطهم أمية، فوجد فيهم قوّة، فخاف الفضيحة معهم، فانحاز منهزماً إلى أبيه، فلما جاءه سُقِطَ في يده، وقال له: ما حملك على أن استخففت بي وجرّأت الناس علي والعدوّ؟ إنْ كنتَ قد فررت من الموت فقد جئتَ إليه، فأمر بضرب عنقه، وجمع أهل بيته وخاصّته وقال لهم: طُرِدْنا من الشرق إلى أقصى هذا الصقع، ونُحْسَدُ على لقمة تبقي الرمَق، اكسروا جفون السيوف، فالموت أولى أو الظفر، ففعلوا وحملوا، وتقدّمهم، فهزم اليمانية وأهل إشبيلية، ولم تقم بعدها لليمانية قائمة، وقُتل بين الفريقين ثلاثون ألفاً، وجُرح عبد الملك، فأتاه عبد

(١) ترجمة عبد الملك بن عمر الأموي في الحلة السيراء (جـ ١ ص ٥٦).

(٢) كان قُعْدُدَ بني أمية: كان أقربهم أبًا إلى الجدّ الأعلى. لسان العرب (قعدد).

الرحمن وجُرْحُه يجري دمًا وسيفُه يقطرُ دمًا، وقد لصقت يده بقائم سيفه، فقَبّلَ بين عينيه، وجَزّاه خيرًا[1]، وقال له: يا ابن عمّ، قد أنكحْتُ ابني وولي عهدي هشامًا ابنتَكَ فلانةَ، وأعطيْتُها كذا وكذا، وأعطيتك كذا، ولأولادك كذا، وأقطعْتُكَ وإياهم كذا، وولّيتكم الوزارة.

ومن شعره لَمَّا نظر نخلة منفردة بإشبيلية فتذكَّر وطنه بالشام، وقال[2]: [الكامل]

يا نَخْلَ، أنتِ فريدةٌ مثلي ... في الأرض نائيةٌ عن الأهلِ
تبكي وهل تبكي مُكَمَّمَةٌ ... عَجماء لم تُجبَلْ على جَبْلي
ولَوَ أنها عَقَلَتْ إذًا لَبَكَتْ ... ماءَ الفراتِ ومَنْبِتَ النخلِ
لكنها حُرِمَتْ وأخرجني ... بُغْضي بني العباس عن أهلي

٤١ ـ ومن الداخلين من المشرق إلى الأندلس هاشم بن الحسين بن إبراهيم بن جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي اللّٰه تعالى عنهم أجمعين!

ونزل حين دخوله بلَبْلَة، وتُعْرف منازلُهم فيها بمنازل الهاشمي، وذكره أمير المؤمنين الحكم المستنصر في كتابه «أنساب الطالبيين والعلويين القادمين إلى المغرب».

٤٢ ـ ومن الداخلين إلى الأندلس عبد اللّٰه بن المغيرة، الكناني، حليف بني عبد الدار[3].

سمّاه أبو محمد الأصيلي الفقيه في الداخلين الأندلس من التابعين، حكى ذلك عنه أبو القاسم بن بَشْكُوال في مجموعه المسمَّى بـ «التنبيه والتعيين»، قال ابن الأبار: وما أراه يُتَابَع عليه، وذكره أبو سعيد بن يونس من أهل إفريقية، انتهى، وذكر أنه يروي عن سفيان ابن وهب الْخَولاَني.

٤٣ ـ ومنهم عبد اللّٰه المعمر[4] الذي طرأ على الأندلس في آخر الزمان، وكان يزعم أنه لقي بعض التابعين.

---

(١) جزّاه خيرًا: أي قال له: جزاك اللّٰهُ خيرًا.
(٢) ينسب ابن الأبار هذه الأبيات في الحلة السيراء (جـ ١ ص ٣٧) إلى عبد الرحمن الداخل، ثم يقول في (ص ٣٨): هناك ما يقوي نسبتها إلى عبد الرحمن الداخل.
(٣) ترجمة عبد اللّٰه بن المغيرة الكناني في التكملة (ص ٧٧٢).
(٤) ترجمة عبد اللّٰه المعمر في التكملة (ص ٩١٢).

قال ابن الأبار: روى عنه أبو محمد أسد الجهني، ذكر ذلك القَبَّشيُّ[1]، وفيه عندي نظر، انتهى.

٤٤ ـ ومنهم أبو عمرو عبد الرحمن بن شماسة بن ذئب، المهري[2].

روى عن أبي ذر، وقيل: عن أبي نضرة عن أبي ذر، وعائشة وعمرو بن العاص وابنه عبد الله وزيد بن ثابت وأبي نضرة[3] الغفاري وعقبة بن عامر الجهني وعوف بن مالك الأشجعي، ومُعَاوية بن حُدَيْج ومسلمة بن مخلد وأبي رهم، ذكره ابن يونس في تاريخ مصر، وسمّاه ابن بَشْكُوال في الداخلين الأندلس من التابعين، وروى ذلك عن الحُمَيدي، قاله ابن الأبار، وقال ابن يونس: وآخر من حدَّث عنه بمصر حرملة بن عمران.

٤٥ ـ ومن الداخلين إلى الأندلس من المشرق عبد الله بن سعد[4] بن عمّار بن ياسر، رضي الله تعالى عنه!.

وقد ذكره ابن حيان في مُقْتَبَسِهِ، وأخبر أن يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري كتب له أن يدافع عبد الرحمن المرواني الداخل للأندلس، وكان المذكور إذ ذاك أميرًا على اليمانية من جُنْد دمشق، وإنما رَكَنَ إليه في محاربة عبد الرحمن لِما بين بني عمّار وبني أمية من الثأر بسبب قتل عمّار بصِفِّين، وكان عمّار، رضي الله تعالى عنه، من شيعة علي، كرّم الله وجهه.

وهذا عبد الله بن سعد[5] هو جَدُّ بني سعيد أصحابِ القلعة الذين منهم عدّة رؤساء وأمراء وكُتّاب وشعراء، ومنهم صاحب «المُغْرب» وغير واحد مِمَّنْ عَرَّفْنا به في هذا الكتاب، ومن مشاهيرهم أبو بكر محمد بن سعيد بن خلف بن سعيد، صاحب أعمال غَرْنَاطة في مدة الملثَّمِين، قال: وهو القائل يفتخر[6]: [مخلع البسيط]

إن لم أكنْ للعلاء أهلاً ... بما تراه فمن يكونُ
فكلُّ ما أَبْتَغِيه دوني ... ولي على هِمَّتِي ديونُ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «القيسي».
(٢) ترجمة عبد الرحمن بن شماسة في التكملة (رقم ١٥٢٥) وفيه: «ذؤيب» بدل «ذئب».
(٣) في التكملة: «أبي بصرة».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «سعيد».
(٥) مرّت ترجمة عبد الله بن سعد في الجزء الثالث من نفح الطيب.
(٦) مرّت هذه الأبيات في الجزء الثالث من نفح الطيب.

وَمَنْ يَرُمْ ما يقلُّ عنه ... فذاك مِنْ فِعْلِهِ جنون
فَرْعٌ بأفق السماءِ سامٍ ... وأَصْلُهُ راسخٌ مكِينُ

وقوله[1]: [المجتث]

اللَّه يَعْلَمُ أنّي ... أُحِبُّ كَسْبَ المعالي
وإنّما أتوانى ... عنها لسوءِ المآل
تحتاجُ للكَدِّ والبَذْ ... لِ واصطناع الرجالِ
دَعْ كلَّ مَنْ شاء يسمو ... لها بكلِّ احتيال
فحالُهُمْ في انعكاسٍ ... بها وحاليَ حالي

وتراجمهم واسعة، وقد بُسِطت في «المسهب» و «المغرب» وغيرهما، وقد قدَّمْنا في الباب قبل هذا من أخبار بني سعيد هؤلاء ما يُثْلِج الصَّدْر فليراجع.

٤٦ ـ ومن الوافدين على الأندلس من المشرق أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد بن نصر بن إسحاق بن عمرو بن مزاحم بن غياث، التميمي، البخاري، الحافظ، نزيل مصر[2].

سمع ببُخَارى بلده من إبراهيم بن محمد بن يزداد وأخيه أحمد، وكانا يرويان معًا عن عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي وعن أبي الفضل السليماني ببِيكَنْد[3]، وأبي عبد اللّه محمد بن أحمد المعروف بغُنْجار، وأبي يعلى حمزة بن عبد العزيز المهلبي وأقرانه باليمن، وأبي القاسم تمام بن محمد الرازي بدمشق، وابن أبي كامل بأطرابلس الشام، وأبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ بمصر، وله رواية عن أبي نصر الكلاباذي، وأبي عبد اللّه الحاكم، وأبي بكر بن فُورَك المتكلّم، وأبي العباس بن الحاج الإشبيلي، وأبي القاسم علي ابن أحمد الخُزاعي، صاحب الهيثم بن كليب، وأبي الفضل العباس بن محمد الحدّاد التنيسي، وأبي الفتح محمد بن إبراهيم بن الجحدري، وأبي بكر محمد بن داود العسقلاني، وهلال الحفار وصدقة بن محمد بن مروان الدمشقي، ولقي بإفريقية العابد وليّ

---

(١) مرّت هذه الأبيات في الجزء الثالث من نفح الطيب ورواية البيت الأخير فيها بعض الاختلاف عمّا هنا.

(٢) ترجمة عبد الرحيم بن أحمد البخاري في التكملة (رقم ١٦٧١).

(٣) بيكَنْد: بلدة بين بخارى وجيحون، على مرحلة من بخارى، لها ذكر في الفتوح، واشتهرت بكثرة العلماء. معجم البلدان (جـ ١ ص ٥٣٣).

اللّه سيدي محرز بن خلف التميمي مولاهم وصَحِبَه، وقال: لقد هِبْتُه يوم لقيتُه هَيبةً لم أجدْها لأحد في نفسي من الناس، ودخل الأندلس وبلاد المغرب، وكتب بها عن شيوخها، ولم يزل يكتب إلى أن مات حتى كتب عَمَّنْ دونه، وله «رسالة الرحلة[1] وأسبابها وقول لا إلَه إلاّ اللّه وثوابها»، فسمع منه أبو عبد اللّه الرازي وذكره في مشيخته، قال الحافظ ابن الأبار: ومنها نقلت اسمه وتعرّفت دخوله الأندلس، وحدّث عنه هو وجماعة منهم أبو مروان الطبني ـ وقال: هو من الرحالين في الآفاق، أخبرني أنه يحدّث عن مئين من أهل الحديث ـ وأبو عبد اللّه الحميدي، وأبو بكر الطُّلَيْطلي[2]، وأبو عبد اللّه بن منصور الحضرمي، وأبو سعيد الرهاوي، وأبو محمد جعفر بن محمد السراج، وأبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الباقي، وأبو الحسن بن مشرف الأنماطي، وأبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي، وأبو محمد شعيب بن سبعون الطرطوشي، وأبو بكر بن نعمة العابد، وأبو الحسن علي بن الحسين الموصلي الغراف[3]، وأبو عثمان سعد بن عبد اللّه الحيدري من شيوخ السلفي، وأبو محمد عبد الكريم بن حمزة بن الخضر السلمي، وأبو إسحاق الكُلاعي من شيوخ أبي بحر الأسدي، وأبو محمد بن عتاب كتب إليه بجميع ما رواه ولم يعرف ذلك في حياته. وسمّاه أبو الوليد بن الدباغ في الطبقة العاشرة من طبقات أئمّة المحدّثين من تأليفه، مع أبي عمر بن عبد البرّ، وأبي محمد بن حزم، وأبي بكر بن ثابت الخطيب، وذكره أبو القاسم بن عساكر في تاريخه، وقال: سمع بما وراء النهر والعراق ومصر واليمن والقيروان، ثم سكن مصر، وقدم دمشق قديمًا وحدَّث بها، وسمَّى جماعة كثيرة من الرواة عنه، وحكي أنه قال: لي ببُخارى أربعة عشر ألف جزء حديث أريد أن أمضي وأجيء بها، قال: وسُئل عن مولده، فقال: في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة، قال: وتوفي بالحوراء[4] سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، رحمه اللّه تعالى ورضي عنه! انتهى.

قلت: والذي أعتقده أنه لم يدخل الأندلس من أهل المشرق أحفظُ منه للحديث، وهو ثقة عدل ليس له مجازفة، والحقُّ أبلج.

---

(١) في التكملة: «رسالة الرحمة».

(٢) في التكملة: «أبو بكر جماهر بن عبد الرحمن الطليطلي».

(٣) في المصدر نفسه: «الفراء» بدل «الغراف».

(٤) الحَوْراءُ: بفتح الحاء وسكون الواو: كورة من كور مصر القبلية في آخر حدودها من جهة الحجاز، وهي على البحر. وقيل: الحوراء مرفأ سفن مصر إلى المدينة. معجم البلدان (جـ ٢ ص ٣١٦).

٤٧ ـ ومِمَّنْ دخل الأندلس من المشرق عبدُ الجبار بن أبي سَلمة الفقيه عبد الله بن عبد الرحمن بن عَوْف، القرشي، الزهري[١].

دخل الأندلس مع موسى بن نُصَير، وكان على مَيْسَرة معسكره، ونزل بَاجَةَ ثم بَطَلْيَوسَ، ومن نسله الزُّهْريون الأشراف الذين كانوا بإشْبِيلِيةَ انتقلوا إلى سكناها قديمًا، هكذا في خبر القاضي أبي الحسين الزهري منهم عن أبي بكر بن خير وغيره، قال ابن بَشْكُوال في مجموعه المسمَّى بـ «التنبيه والتعيين، لمن دخل الأندلس من التابعين»: عبدُ الجبار بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف من التابعين، وقع ذكره في كتاب شيخنا أبي الحسن بن مغيث[٢]، انتهى.

قال ابن الأبار: ولم يزد على هذا، انتهى.

٤٨ ـ ومن الداخلين إلى الأندلس من المشرق أبو محمد عبد الوهاب بن عبد الله بن عبد الوهاب[٣].

من أهل مصر، وسكن بغداد، ويُعْرف بالطندتائي، قرية بمصر نسب إليها، روى عن أبي محمد الشارمساحي، وتفقّه به، وقدم الأندلس رسولاً بزعمه من عند الخليفة العباسي، فسكن مُرْسِية، ودرس بها، وخرج منها سنة اثنتين وأربعين وستمائة بعد أن تملّكها النصارى صلحًا، وأَسر بناحية صقلية، قال ابن الأبار: ثم بلغني أنه تخلّص ولحق ببلده، رحمه الله تعالى!.

٤٩ ـ ومنهم عبد الخالق بن إبراهيم الخطيب، يكنى أبا القاسم.

قال ابن الأبار[٤]: لا أعرف موضعه من بلاد المشرق، وكان أديبًا قويّ العارضة، مطبوع الشعر، مديد النفَس، ومن شعره من قصيدة صنعها في وقت رحلته إلى الأندلس قوله: [الطويل]

على الذلّ أو فاحْلُلْ عقالَ الركائبِ ... وللضَّيْمِ أو فاحْلُلْ صدورَ الكتائبِ[٥]

---

(١) ترجمة عبد الجبار بن أبي سلمة الزهري في التكملة (رقم ١٧٧٢).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «معيث» بالعين المهملة.

(٣) ترجمة عبد الوهاب بن عبد الله بن عبد الوهاب في التكملة (رقم ١٧٩٦).

(٤) ترجمة عبد الخالق بن إبراهيم الخطيب غير واردة في كتاب التكملة المطبوع لابن الأبار.

(٥) على الذلّ: أي: أقمْ على الذل. احلل عقال الركائب: أي: سافرْ وانتقلْ. للضَّيْم: أي: وتحمّل الضَّيْمَ.

فــإمّــا حــيــاةٌ بَــعْــدَ إدراكِ مُــنْــيَــةٍ   وإمّا مَماتٌ تحت عِزِّ القواضبِ[1]

فما العيشُ في ظِلِّ الهَوانِ بِطَيِّبٍ   وما الموتُ في سُبْلِ العَلاءِ بعائبِ

٥٠ ـ ومنهم أبو محمد عبد اللطيف بن أبي الطاهر أحمد بن محمد بن هبة اللّه، الهاشمي، الصدفي.

من أهل بغداد، يُعْرف بالنَّرسي، دخل الأندلس، وكان يزعم أنه روى عن أبي الوقت السِّجْزي وأبي الفرج[2] الجوزي وغيرهما، وله تأليف سمّاه «[3]الدّليل في الطريق، من أقاويل أهل التحقيق» ذكره أبو عبد اللّه محمد بن سعيد الطراز وضعّفه بعد ما سمع منه، أخذ عنه وسمع منه هو وأبو القاسم عبد الرحمن بن القاسم المغيلي وغيرهما، وقال: ورد علينا غَرْنَاطة قريبًا من سنة ثلاث عشرة وستمائة، وتوفي ـ عفا اللّه تعالى عنه ـ! بإشبيلية قريبًا من هذا التاريخ، وقال فيه أبو القاسم بن فرقد: عبد اللطيف بن عبد اللّه[4] الهاشمي البغدادي النرسي، منسوب إلى قرية من قرى بغداد، سمع صحيح البخاري من أبي الوقت السِّجْزي، وروى عن غيره، وله تآليف. قال ابن الأبار[5]: في التصوّف، منها تأليف في إباحة السماع، قرأت عليه أكثره، وقرأت عليه عوالي النقيب بمدينة إشبيلية بحومة القصر المبارك عام خمسة عشر وستمائة.

٥١ ـ ومنهم أبو بكر عمر بن عثمان بن محمد بن أحمد، الخراساني، الباخرزي، المالِيني[6]. يكنى أبا بكر، سمع من أبي الخير أحمد بن إسماعيل الطالقاني القزويني، وأبي يعقوب يوسف بن عمر بن أحمد الخالدي الزنجاني، وقدم الأندلس، وحدّث بصحيفتي الأشجّ وجعفر بن نسطور الرومي، وسُمِع منه بغَرْنَاطة ومُرْسِية وغيرهما من بلاد الأندلس، وحدّث عنه أبو القاسم الملاحي، وسمع منه بمَالَقة أبو جعفر بن عبد الجبار وأبو علي بن هاشم في صفر سنة ٦٠٠، ومولده في ربيع الأوّل سنة ٥٦٠، انتهى من تكملة ابن الأبّار.

---

(١) القواضب: السيوف القاطعة. لسان العرب (قضب).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «وأبي الفرج بن الجوزي».

(٣) في الطبعة نفسها: «بالدليل».

(٤) عبد اللطيف بن عبد اللّه الهاشمي البغدادي النرسي هو غير عبد اللطيف بن أبي الطاهر الصدفي صاحب الترجمة.

(٥) لم ترد ترجمة عبد اللطيف في كتاب التكملة المطبوع لابن الأبار.

(٦) ترجمة أبي بكر عمر بن عثمان الخراساني الباخرزي في التكملة (رقم ١٨٣٠)، وجاءت الترجمة هناك ناقصة كثيرًا عما أثبته المقري.

قلت: ولا يخفى على مَنْ له بصر بعلم الحديث أن الأشج وابن نسطور لا يلتفت إليهما، ويرحم اللّه تعالى السِّلَفي الحافظ إذ قال: [الطويل]

حديثُ ابن نسطورٍ وقيسٍ ويعنم ... وبعد أشجِّ الغرب ثم خراشِ
ونسخةُ دينارٍ ونسخة تِرْبِهِ[1] ... أبي هُدْبَةَ القيسيّ شبهُ فراشِ

قال ابن عات: كان الحافظ السِّلَفي إذا فرغ من إنشاد هذين البيتين ينفخ في يديه إشارة إلى أن هذه الأشياء كالريح، انتهى.

٥٢ ـ ومن الوافدين على الأندلس من أهل المشرق علي بن بُنْدَار بن إسماعيل بن موسى بن يحيىٰ بن خالد بن بَرْمَك، البرمكي، من أهل بغداد.

قدم الأندلس، تاجرًا سنة سبع وثلاثين وثلثمائة، وكان قد أخذ عن أبي الحسن عبد اللّه بن أحمد بن محمد بن المغلس الفقيه الداودي، وتَلْمَذ له، وسمع منه «الموضح» و «المنجح» من تآليفه في الفقه، وما تمَّ له من أحكام القرآن، هكذا نقله الحافظ ابن حزم عن أمير المؤمنين الحكم المستنصر باللّه المعتني بهذا الشأن، رحمه اللّه تعالى!

٥٣ ـ ومنهم أبو العلاء عبيد بن محمد بن عبيد، أبو العلاء، النيسابوري.

لقيه الحافظ أبو علي الصدفي ببغداد وأخذ عنه إذ قدمها حاجًّا، وهو يحدّث عن أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد البصروي، قال أبو علي: وأراه دخل الأندلس، ويغلب على ظنّي أنّي لقيتُه بسَرَقُسْطة، ذكر ذلك القاضي عياض في «المعجم» من تآليفه، واللّه تعالى أعلم.

٥٤ ـ ومنهم سهل بن علي بن عثمان، التاجر، النيسابوري، يكنى أبا نصر[2].

سمع جماعة من الخراسانيين وغيرهم، منهم أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي وأبو الفتح السمرقندي، وأدرك الإمام أبا المعالي الجُوَيني، وحضر مجلسه ودرسه، ولقي بعده أصحابه القُشَيري والطوسي وغيرهما، وكان شافعيَّ المذهب، ذكره عياض وقال: حدّثني بحكايات وفوائد، وأنشدني لأبي طاهر السِّلَفي، وأجازني جميع رواياته وحدّثني أنَّ وفاة أبي المعالي كانت بنيسابور سنة خمس أو أربع وسبعين وأربعمائة، وقال أبو محمد العثماني:

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «تربة».
(٢) ترجمة سهل بن علي النيسابوري في التكملة (رقم ٢٠٠٨).

أنشدني أبو نصر سهل بن علي النيسابوري الحقواني قال: أنشدنا أبو الفتح نصر بن الحسن، أنشدنا أبو العباس العذري، قال: أنشدنا أبو محمد بن حزم الحافظ لنفسه: [الطويل]

وَلَمَّا رأيتُ الشَّيبَ حَلَّ مَفَارقي ... نذيرًا بِتَرْحَالِ الشباب المُفَارِقِ
رَجَعْتُ إلى نفسي فقلْتُ لها انظري ... إلى ما أتى، هذا ابتداء الحقائقِ
دعي دَعَوَات اللَّهو قد فاتَ وقتُها ... كما قد أفات الليلَ نُورُ المشارق
دعي منزل اللَّذَّات ينزلُ أهله ... وجِدِّي لما نُدْعَى إليه وسابقي

قال عياض: توفي سهل هذا غريقًا في البحر منصرفًا إلى بلده من ألمرِيَّة، رحمه الله تعالى![1].

٥٥ - ومنهم أبو المكارم هبة الله بن الحسين، المصري[2].

كان من أهل العلم، عارفًا بالأصول، حافظًا للحديث، متيقّظًا، حسن الصورة والشَّارة، دخل الأندلس، وولي قضاء إشبيلية منها آخر شعبان سنة تسع وسبعين وخمسمائة.

قال ابن الأبار: وبه صُرِف أبو القاسم الخولاني، وأقام بها سنة، وحضر غزوة شنترين، وكان قدوم أبي المكارم هذا الأندلس خوفًا من صلاح الدين يوسف بن أيوب في قوم من شيعة العُبَيدِي ملك مصر، ووفد أيضًا معه أبو الوفاء المصري، ثم استصحبه أمير المؤمنين يعقوب المنصور معه في غزوة قفصة الثانية، وولاّه حينئذ قضاء تونس، وكان قد ولي قضاء فاس، وولي أيضًا أبو الوفاء صاحبه القضاء، وتوفي وهو مُتَولي[3] قضاء تونس سنة ست وثمانين وخمسمائة، رحمه الله تعالى!.

٥٦ - ومنهم يحيىٰ بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن عبد الله، القيسي، الدمشقي[4].

أصله من دمشق، وبها وُلد، ويُعْرف بالأصبهاني في مجلس أبي طاهر السِّلفي لدخوله إيّاها وإقامته بها أزيد من خمسة أعوام لقراءة الخلافيات، ويُكْنى أبا زكريا، وسمع بالمشرق

---

(١) زاد ابن الأبار في التكملة: سنة ٥٣١هـ.
(٢) ترجمة هبة الله بن الحسين المصري في التكملة (رقم ٢٠٢٤).
(٣) في طبعة دار صادر: «يتولّى».
(٤) ترجمة يحيى بن عبد الرحمن القيسي الدمشقي في التكملة (رقم ٢٠٧١).

أبا بكر بن ماشاذة السكري، وأبا الرشيد بن خالد البيع، وأبا الطاهر السلفي وغيرهم، وقصد المغرب بعد أداء الفريضة فلقي ببجاية أبا محمد عبد الحق الإشبيلي، وأجازه وحَضَّه على الوعظ والتذكير، فامتثل ذلك، ودخل الأندلس، وتجوّل ببلادها، واستوطن غَرْنَاطة منها، وكان فقيهًا على مذهب الشافعي، عارفًا بالأصول والتصوّف، زاهدًا، ورعًا، كثير المعروف والصدقة، يَعِظُ الناس، ويسمع الحديث، ولم يكن بالضابط فيما قاله الحافظ ابن الأبار، قال: وله كتاب «الروضة الأنيقة» من تأليفه، حدّث عنه جماعة من الجلّة، منهم أبو جعفر بن عميرة الضبي وابنا حَوط الله أبو محمد وأبو سليمان، وأبو القاسم الملاحي، وأبو العباس بن الجيار، وأبو الربيع بن سالم، وقال: أنشدني عند توديعي إيّاه بغَرْنَاطة قال: سمعت بعض المذكورين ينشد: [السريع]

يا زائرا زارَ وما زارا ... كأنه مُقْتَبِسٌ نارا[1]
مَرَّ بباب الدار مستعجلاً ... ما ضَرَّه لو دخل الدارا
نفسي فداء لك من زائرٍ ... ما زار حتى قيل قد سارا

وسمع منه أبو جعفر بن الدلال كتاب «المعالم» للخَطّابي في شرح «سنن أبي داود» بقراءة جميعه عليه.

ومولده في شوال سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وتوفي بغَرْنَاطة بعد أن سكنها يوم الاثنين سادس شوّال سنة ثمان وستمائة، قال ابن الأبار: وفي هذا اليوم بعينه كانت وفاة شيخنا أبي عبد الله بن نوح ببَلَنْسِية، رحمهما الله تعالى!.

٥٧ ـ ومن الوافدين من المشرق إلى الأندلس إسماعيل بن عبد الرحمن بن علي، القرشي[2].

مِنْ ذرّيّة عبد بن زَمْعَة أخي سَودَةَ أم المؤمنين، رضي الله تعالى عنها!.

رحل من مصر إلى الأندلس في زمن السلطان الحكم[3] المستنصر بالله أعوام الستين وثلثمائة حين ملك بنو عُبَيد مصر وأظهروا فيها معتقدهم الخبيث، فحلَّ يومئذ من الحكم المستنصر محلَّ الرحب والسعة، ولَمّا ثارت الدولة العامرية أوى إلى إشبيلية، وأوطنها

---

(١) كأنه مقتبسٌ نارًا: كناية عن السرعة.
(٢) ترجمة إسماعيل بن عبد الرحمن القرشي في جذوة المقتبس (ص ١٦٣) وبغية الملتمس (ص ٢٣٠).
(٣) في طبعتي دار صادر وعبد الحميد: «الحاكم».

دارًا، واتّخذها قَرَارًا، وبها لقيه أبو عمر بن عبد البر عَلاّمة الأندلس فدرس عليه، واقتبس مِمًا لديه، وقد ذكره في تاريخ شيوخه، ولم يزل عقبه بها إلى أن نجم منهم أبو الحسين سالم بن محمد بن سالم، وهو من رجال «الذخيرة»[1] وله نثر، كما تفتّح الزَّهر، وتدفّق البحر، ونظم كما اتّسق الدّرّ، وسَفَرت عن محاسنها الأنجمُ الغُرُّ، فمن نظمه قوله: [الطويل]

خليليّ، هل ليلى ونجدٌ كَعَهْدِنا ... فيا حَبّذا ليلى ويا حَبّذا نجدُ
عَسَى الدَّهرُ أن يقضي لنا بالتفاتةٍ ... فيا رُبَّ عهدٍ[2] قد يجدّده بُعْدُ

وله أثناء رسالة قوس[3]: [البسيط]

قوسُ العُلا وُضِعَتْ في كَفِّ باريها ... وأسهمُ الخطبِ عادتْ نَحْوَ راميها
وإنما الشمسُ لاحتْ في مطالعها ... بَلَى وأجْرَى جِيادَ الخيل مُجْرِيها

ونشأ هذا النجمُ الثاقب، والصَّيِّبُ الساكب، وقد أخذ من العلوم في غير ما فنّ، وحقّق فيه كلّ ما ظنّ، وذكره في «المسهب» و «سمط الجمان» وفضله أشهر[4]، رحمه اللَّه تعالى!.

٥٨ ـ ومنهم أبو علي القالي، صاحب الأمالي والنوادر[5].

وفد على الأندلس أيام الناصر أمير المؤمنين عبد الرحمن، فأمر ابنُه الحكمُ وكان يتصرَّفُ عن أمر أبيه كالوزير عاملَهم ابنَ رماحس أن يجيء مع أبي علي إلى قرطبة، ويتلقّاه في وفد من وجوه رعيّته ينتخبهم من بياض أهل الكورة تكرمةً لأبي علي، ففعل، وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل، فكانوا يتذاكرون الأدب في طريقهم، ويتناشدون الأشعار، إلى أن تحاوروا يومًا، وهم سائرون، أدبَ عبد الملك بن مروان ومساءلَتَه جلساءه

---

(١) لم ترد ترجمة سالم بن محمد بن سالم في كتاب الذخيرة المطبوع لابن بسام.

(٢) في طبعة دار صادر: «فيا ربّ قُرْبٍ..».

(٣) كلمة «قوس» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٤) في طبعة دار صادر: «شهير».

(٥) هو إسماعيل بن القاسم، أبو علي القالي، وترجمته في جذوة المقتبس (ص ١٦٤) وبغية الملتمس (ص ٢٣١) وتاريخ علماء الأندلس (ص ١٣٨) وفهرسة ابن خير (ص ٥١٣) ووفيات الأعيان (جـ ١ ص ٢٢٦) ومعجم البلدان (جـ ٤ ص ٢٩٩، مادة: قاليقلا) وطبقات النحويين واللغويين (ص ٢٠٢) والوافي بالوفيات (جـ ٧ ص ١٩٠) وبغية الوعاة (ص ١٩٨).

عن أفضل المناديل وإنشاده بيت عَبَدَة بن الطبيب: [البسيط]

ثُمَّتَ قُمْنا إلى جُرْدٍ مسوّمةٍ أعْرَافُهُنَّ لأيدينا مناديلُ

وكان الذاكر للحكاية الشيخ أبا علي، فأنشد الكلمة في البيت «أعرافها لأيدينا مناديل» فأنكرها ابن رفاعة الألبيري، وكان من أهل الأدب والمعرفة، وفي خلقه حَرَج وزَعَارة، فاستعاد أبا علي البيت متثبّتًا مرتين في كلتيهما أنشده «أعرافها» فلوى ابنُ رفاعة عِنانه منصرفًا وقال: مع هذا يُوْفَدُ على أمير المؤمنين وتُتَجَشّم[1] الرحلة لتعظيمه، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا تغلط الصبيان فيه؟! والله لا تبعته خُطْوة، وانصرف عن الجماعة، ونَدَبه أميره ابن رماحس أن لا يفعل، فلم يُجْد فيه حيلة، وكتب إلى الحكم يعرفه ويصف له ما جرى لابن رفاعة ويشكوه، فأجابه على ظهر كتابه: الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطىء وافد أهل العراق إلينا، وابن رفاعة أولى بالرضا عنه من السخط، فَدَعْه لشأنه، وأقدم بالرجل غير منتقص من تكرمته، فسوف يُغْليه الاختبار إن شاء الله تعالى أو يحطّه.

وبعض المؤرخين يزعم أن وفادة أبي علي القالي إنما كانت في خلافة الحكم المستنصر بالأندلس، لا في خلافة أبيه الناصر، والصواب أن وفادته في أيام الناصر؛ لِمَا ذكره غير واحد من حَضَره وعِيِّه عن الخطبة[2] يوم احتفال الناصر لرسول الإفرنج كما ألْمعنا به في غير هذا الموضع.

وفي القالي يقول شاعرُ الأندلس الرمادي[3]: [الكامل]

مَنْ حَاكِمٌ بيني وبين عذولي؟ الشجوُ شجوي والعَويلُ عويلي
في أي جارحة أصونُ مُعَذِّبي سلمتْ مِنَ التعذيب والتنكيل
إنْ قلتُ في بَصَري فثَمَّ مدامعي أو قلتُ في قلبي[4] فثَمَّ غَليلي
لكن جعلت له المسامع موضعًا وحَجَبْتُها عن عذلِ كلِّ عذولِ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «ويتجشّم».

(٢) مرّ خبرُ الخطبة في الجزء الأول من هذا الكتاب. وقد وصل أبو علي القالي إلى الأندلس سنة ٣٣٠هـ. في خلافة عبد الرحمن الناصر، وسيذكر المقري ذلك بعد قليل.

(٣) أبيات يوسف بن هارون الرمادي في يتيمة الدهر (جـ ٢ ص ٩٩) ومطمح الأنفس (ص ٧٠). وجاء البيت الأول فقط في جذوة المقتبس (ص ٣٧٠) وبغية الملتمس (ص ٤٩٣).

(٤) في يتيمة الدهر: «في كبدي».

ولَـمَّا سمع المتنبي البيت الثاني قال: يصونه في استه.

وكان الرمادي لَمَّا سمع قول المتنبي[1]: [البسيط]

كفى بجسمي نحولاً أنني رجلٌ   لولا مُخَاطَبَتي إيَّاكَ لم تَرَني

قال: أظنّه ضَرْطَة، والجزاء من جنس العمل.

وباسم أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله طرّز الشيخ أبو علي القالي كتاب «الأمالي».

وكان الحكم كريمًا، مَعْنيًا بالعلم، وهو الذي وَجَّه إلى الحافظ أبي الفرج الأصبهاني ألفَ دينار على أن يوجّهَ له نسخة من كتاب الأغاني، وألَّف أبو محمد الفِهْري كتابًا في نسب أبي علي البغدادي ورواياته ودخوله الأندلس. وحكى ابن الطيلسان عن ابن جابر أنه قرأ هذين البيتين في لوح رخام كان سقط من القبّة المبنيّة على قبر أبي علي البغدادي عند تهدّمها، وهما: [الطويل]

صِلُوا لَحْدَ قبري بالطريق ودِّعُوا[2]   فليس لمن وارى الترابُ حبيبُ
ولا تَدْفنوني بالعَرَاء فربما   بَكى أن رأى قَبْرَ الغريبِ غريبُ

واسم أبي علي إسماعيل بن القاسم بن عيذُون[3] بن هارون بن عيسى بن محمد بن سليمان، وجدُّه سليمان مولى عبد الملك بن مروان، وكان أبو علي أحفظ أهل زمانه باللغة والشعر ونحو البصريين، وأخذ الأدب عن أبي بكر بن دُرَيد الأزدي وأبي بكر بن الأنباري وابن دُرُسْتُوَيه وغيرهم، وأخذ عنه أبو بكر الزبيدي الأندلسي صاحب «مختصر العين». ولأبي علي التصانيف الحسان كـ «الأمالي» و «البارع»، وطاف البلاد، وسافر إلى بغداد سنة ٣٠٣، وأقام بالموصل لسماع الحديث من أبي يعلى الموصلي، ودخل بغداد سنة ٣٠٣. وأقام بها إلى سنة ٣٢٨، وكتب بها الحديث، ثم خرج من بغداد قاصدًا الأندلس، وسمع من البغوي وغيره.

قال ابن خَلِّكان: ودخل قرطبة لثلاث بقين من شعبان سنة ثلاثين وثلثمائة، انتهى.

---

(١) البيت في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٣).
(٢) صِلُوا لَحْدَ قبري بالطريق: أي اجعلوا قبري متّصلاً بالطريق ليراه المارّةُ.
(٣) في تاريخ علماء الأندلس: «عبدون».

وهو مِمَّا يعين[1] أنه قدم في زمن الناصر، لا في زمن ابنه الحكم كما تقدَّم، وقد صرّح بذلك الصفدي في الوافي فقال: ولما دخل المغرب قَصَد صاحب الأندلس الناصر لدين اللّه عبد الرحمن، فأكرمه، وصنّف له ولولده الحكم تصانيف وبثّ علومه هناك، انتهى.

وقال ابن خلّكان إنه استوطن قرطُبَة إلى أن توفي بها في شهر ربيع الآخر، وقيل: جمادى الأولى سنة ٣٥٦، ليلة السبت لستّ خَلَونَ من الشهر المذكور، ودفن ظاهر قرطبة، ومولده بمَنازْجِرْدَ[2] من ديار بكر سنة ٢٨٨، وقيل: سنة ٢٨٠.

وإنما قيل له «القالي» لأنه سافر إلى بغداد مع أهل قَالِيقَلا، وهي من أعمال ديار بكر.

وهو من محاسن الدنيا، رحمه اللّه تعالى!

وعيذون: بفتح العين، وسكون الياء المثناة التحتية، وضمّ الذال المعجمة.

وقال ابن خلّكان في ترجمة ابن القوطية[3]: إن أبا علي القالي لَمَّا دخل الأندلس اجتمع به، وكان يبالغ في تعظيمه، قال له الحكم بن عبد الرحمن الناصر: مَنْ أنبلُ مَنْ رأيته ببلدنا هذا في اللغة؟ فقال: محمد بن القوطية، وكان ابن القوطية مع هذه الفضائل من العُبَّاد النُّسَّاك، وكان جيّد الشعر صحيح الألفاظ حسن المطالع والمقاطع إلاَّ أنه تركه ورفضه، وقال الأديب أبو بكر بن هذيل[4]: إنه توجّه يومًا إلى ضَيعَة له بسَفْح جبل قُرْطُبة، وهي من بقاع الأرض الطيبة المُونِقة، فصادف أبا بكر بن القوطية المذكور صادرًا عنها، وكانت له أيضًا هناك ضيعة، قال: فلما رآني عَرَّجَ عليَّ، واستبشر بلقائي، فقلت مداعبًا له: [البسيط]

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «وهو مِمَّا يعين أنه يعين أنه قدم..».

(٢) جاء في معجم البلدان (جـ ٥ ص ٢٠٢): مناز جِرْد، وأهله يقولون: مناز كرد: بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم، يعدُّ في أرمينية، وأهله أرمن وروم. ويقول ابن خلكان في وفيات الأعيان (جـ ١ ص ١٤٤) إنَّ مناز جِرْد غير مناز كرد القلعة التي من أعمال خلاط.

(٣) وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٣٦٩). وانظر ترجمة أبي بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن القوطية أيضًا في تاريخ علماء الأندلس (ص ٧٤٧) وجذوة المقتبس (ص ٧٦) وبغية الملتمس (ص ١١٢) وبغية الوعاة (ص ٨٤).

(٤) هو أبو بكر يحييٰ بن هذيل، الشاعر المشهور المتوفّى سنة ٣٨٥ هـ أو ٣٨٦ هـ. وترجمته في جذوة المقتبس (ص ٣٨١) وبغية الملتمس (ص ٥٠٩). وله أشعار كثيرة في صفحات متعددة من كتاب التشبيهات للكتاني.

من أين أقبلْتَ يا مَنْ لا شبيهَ له   ومَنْ هو الشمس والدنيا له فَلَكُ

قال: فتبسّم وأجاب بسرعة: [البسيط]

مِنْ منزلٍ تُعْجِبُ النُسّاكَ خلْوَتُهُ   وفيه سِتْرٌ على الفُتّاك[1] إنْ فتكوا

فما تمالكْتُ أن قبّلْتُ يده، إذ كان شيخي، ودعوتُ له، انتهى.

وهو صاحب كتاب «الأفعال» الذي[2] فتح فيه هذا الباب، فتلاه ابن القَطّاع وله كتاب «المقصور والممدود» جمع فيه ما لا يحدّ ولا يعد، وأعجز مَنْ بعده به، وفاق من تقدّمه، رحمه الله تعالى ورضي عنه!.

ومِمَّنْ أخذ عن أبي علي القالي بالأندلس أبو بكر محمد الزبيدي صاحب كتاب «مختصر العين» وغيره، وكان الزبيدي كثيرًا ما ينشد: [السريع]

الفَقْرُ في أوطاننا غُرْبَةٌ   والمال في الغربة أوطانُ

والأرضُ شيء كلُّها واحدٌ   والناسُ إخوانٌ وجيرانُ

وترجمة الزبيدي[3] واسعة، وكان مؤدّب المؤيّد هشام، ووصفه بأنه كان في صباه في غاية الحذق والذكاء، رحمه الله تعالى!.

وكان القالي قد بحث على ابن دُرُسْتُوَيه كتاب سيبويه، ودقّق النظر، وانتصر للبصريين، وأملى شيئًا مِنْ حِفْظِهِ ككتاب «النوادر» و «الأمالي»، و «المقصور والممدود»، و «الإبل والخيل»، و «البارع في اللغة» نحو خمسة آلاف ورقة، ولم يصنّف مثله في الإحاطة والجمع، ولم يتمّ، ورتّب كتاب «المقصور والممدود» على التفعيل ومخارج الحروف من الحلق مستقصى في بابه لا يشذّ منه شيء، وكتاب «فعلت وأفعلت» وكتاب «مقاتل الفرسان» و «تفسير السبع الطوال».

---

(١) الفُتّاك: جمع فاتك وهو الجريء، وأراد به هنا اللاهي المحبّ للبطالة واللهو. لسان العرب (فتك).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «التي».

(٣) ترجمة أبي بكر محمد بن الحسن أو الحسين الزبيدي في جذوة المقتبس (ص ٤٦) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٧٦٨) وبغية الملتمس (ص ٦٦) والمغرب (جـ ١ ص ٢٥٥) ويتيمة الدهر (جـ ٢ ص ٧٠) ووفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٣٧٢) والوافي بالوفيات (جـ ٢ ص ٣٥١) وبغية الوعاة (ص ٣٤). وانظر الحركة اللغوية في الأندلس (ص ١٢٣ ـ ١٦٥) ففيه دراسة قيّمة عنه.

وكان الزبيدي إمامًا في الأدب، ولكنه عرف فضل القالي، فمال إليه، واختصّ به، واستفاد منه، وأقرّ له.

وكان الحكم المستنصر قبل ولايته الأمر وبعدها ينشط أبا علي، ويعينه على التأليف بواسع العطاء، ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام، وكانوا يسمّونه «البغدادي» لوصوله إليها من بغداد، ويقال: إنّ الناصر هو الذي استدعاه من بغداد لولائه فيهم، وفيه يقول الرمادي متخلّصًا في لاميّته السابق بعضها: [الكامل]

روضٌ تَعاهَدَهُ السحابُ كأنه ... مُتَعاهَدٌ مِنْ عهدِ إسماعيلِ
قِسْهُ إلى الأعراب تَعْلَمْ أنه ... أولى مِنَ الأعراب بالتفضيل
حازتْ قبائلُهمْ لغاتٍ فُرِّقَتْ ... فيهمْ وحاز لغاتِ كلِّ قبيل[1]
فالشرقُ خالٍ بعده وكأنما ... نزل الخرابُ بربعه المأهول
فكأنه شمسٌ بَدَتْ في غربنا ... وتَغَيَّبَتْ عن شرقهمْ بأفول[2]
يا سيدي هذا ثنائي لم أقلْ ... زورًا ولا عرّضْتُ بالتنويل
من كان يأملُ نائلاً[3] فأنا امرؤٌ ... لم أرجُ غيرَ القربِ في تأميلي

وقد تقدّمت أبيات القالي التي أجاب بها منذر بن سعيد في الباب قبل هذا، فلتراجع ثمّة، والله تعالى أعلم.

٥٩ ـ ومن الوافدين إلى الأندلس من المشرق أبو العلاء صاعد بن الحسن[4] بن عيسى البغدادي، اللغوي[5].

وأصله من الموصل، قال ابن بسام[6]: ولَمّا دخل صاعد قرطبة أيام المنصور بن أبي عامر عزم المنصور على أن يعفّي[7] به آثار أبي علي البغدادي الوافد على بني أمية، فما

---

(١) أي حاز لغات كل القبائل.
(٢) أفول الشمس: غروبها. لسان العرب (أفل).
(٣) النائل: العطاء. لسان العرب (نال).
(٤) في طبعتي دار صادر وعبد الحميد: «الحسين».
(٥) ترجمة صاعد بن الحسن البغدادي في جذوة المقتبس (ص ٢٤٠) وبغية الملتمس (ص ٣١٩) والصلة (ص ٣٧١) والذخيرة (ق ٤ ص ٨) ووفيات الأعيان (جـ ٢ ص ٤٨٨) وبغية الوعاة (ص ٢٦٧).
(٦) النقل عن الذخيرة (ص ٩).
(٧) في طبعة عبد الحميد: «يقفي».

وجد عنده ما يرتضيه، وأعرض عنه أهلُ العلم، وقدحوا في علمه وعقله ودينه، ولم يأخذوا عنه شيئًا لقلّة الثقة به، وكان ألّف كتابًا سمّاه كتاب «الفصوص» فَدَحَضُوه ورفضوه ونبذوه في النهر، ومن شعره قوله: [الكامل]

ومهفهفٍ أبهى مِنَ القمرِ قَهَرَ الفؤادَ بفاتنِ النَّظَرِ
خالستُهُ تُفَّاحَ وَجْنتِهِ فأخذتُها منه على غَرَرِ
فأخافني قومٌ فقلتُ لهم: لا قَطْعَ في ثَمَرٍ ولا كَثَرٍ[1]

والكَثَرُ: الجُمَّارُ، وهذا اقتباس من الحديث.

وقال الحميدي[2]: سمعتُ أبا محمد بن حزم الحافظ يقول: سمعت أبا العلاء صاعدًا يُنْشد بين يدي المظفر عبد الملك بن أبي عامر من قصيدة يهنيه فيها بعيد الفطر سنة ٣٩٦: [الوافر]

حسبْتُ المُنْعِمِيْنَ على البرايا فألقيتُ اسمَهُ صَدْرَ الحسابِ
وما قدّمته إلاّ كأنّي أُقَدِّمُ تاليًا أُمَّ الكتابِ

وذكر الحميدي أن عبد الله بن ماكان[3] الشاعر تناول نرجسة فركبها في وردة ثم قال لصاعد ولأبي عامر بن شُهَيد: صِفاها، فأُفحما، ولم يتَّجه لهما القول، فبينما هم على ذلك إذ دخل الزهيري[4] صاحب أبي العلاء وتلميذه، وكان شاعرًا أديبًا أمّيًا لا يقرأ، فلمّا استقرّ به المجلس أخبر بما هم فيه، فجعل يضحك ويقول[5]: [السريع]

ما للأديبين قَدَ أَعْيَتْهُما مليحةٌ مِنْ مُلَحِ الجَنَّهْ
نرجسةٌ في وَرْدَةٍ رُكِّبَتْ كَمُقْلَةٍ تطرفُ في وَجْنَهْ

انتهى.

---

(١) الكَثَرُ، بفتح الكاف والثاء: جُمّار النخل وهو شحم النخل الذي يكون في وسط النخلة، وفي الحديث الشريف: «لا قطع في ثمر ولا كَثَر». لسان العرب (كثر).

(٢) النص والشعر في جذوة المقتبس (ص ٢٤١).

(٣) ترجم الحميدي في جذوة المقتبس (ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨) لرجل اسمه «أبو عبد الله بن فاكان» وقال إنه أديب شاعر، له منازعات مع صاعد البغدادي.

(٤) في جذوة المقتبس (ص ٤٠٨): «الزبيري»، وقد وردت حكاية ابن فاكان هذه في ترجمة رجل أسماه الحميدي: «الزبيري» وليس «الزهيري» وقال: إن الزبيري صاحب أبي العلاء صاعد بن الحسن اللغوي.

(٥) سيرد هذان البيتان في الجزء الخامس منسوبين إلى الدميري.

ومن غريب ما جرى[1] لصاعد أن المنصور جلس يومًا وعنده أعيان مملكته ودولته من أهل العلم كالزبيدي والعاصمي وابن العريف وغيرهم، فقال لهم المنصور: هذا الرجل الوافد علينا يزعم أنه متقدّم في هذه العلوم، وأحب أن يمتحن، فوجّه إليه، فلمّا مثل بين يديه والمجلسُ قد احتفل خجل فرفع المنصور محلّه وأقبل عليه، وسأله عن أبي سعيد السيرافي، فزعم أنه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه، فبادره العاصمي بالسؤال عن مسألة من الكتاب، فلم يحضره جوابها، واعتذر بأن النحو ليس جُلَّ بضاعته، فقال له الزبيدي: فما تحسن أيُّها الشيخ؟ فقال: حفظ الغريب، قال: فما وزن أولق[2]، فضحك صاعد، وقال: أمثلي يُسْألُ عن هذا؟ إنما يُسأل عنه صِبْيَانُ المكتب، قال الزبيدي: قد سألناك، ولا نشكّ أنك تجهله، فتغيّر لونُه، وقال: أفعل وزنه، فقال الزبيدي: صاحبكم مُمَخْرق[3]، فقال له صاعد، إخال الشيخ صناعته الأبنية، فقال له: أجل، فقال صاعد: وبضاعتي أنا حفظ الأشعار، ورواية الأخبار، وفكّ المعمّى، وعلم الموسيقى، فقال: فناظره ابن العريف، فظهر عليه صاعد، وجعل لا يجري في المجلس كلمة إلاّ أنشد عليها شعرًا شاهدًا، وأتى بحكاية تجانسها[4]، فأعجب المنصور، ثم أراه كتاب «النوادر» لأبي علي القالي، فقال: إن أراد المنصور أمليت على كُتّاب دولته[5] كتابًا أرفع منه وأجلّ لا أورد فيه خبرًا مِمَّا أورده أبو علي، فأذن له المنصور في ذلك، وجلس بجامع مدينة الزاهرة يُمْلي[6] كتابه المترجم بـ «الفصوص»، فلمّا أكمله تتبعه[7] أدباء الوقت، فلم تمرَّ فيه كلمة صحيحة عندهم، ولا خبر ثبت لديهم، وسألوا المنصور في تجليد كراريس بياض تزال جدتها، حتى توهّم القدم، وترجم عليه كتاب «النكت» تأليف أبي الغوث الصنعاني، فترامى إليه صاعد حين رآه، وجعل يقبله، وقال: إي واللّه، قرأته بالبلد الفلاني على الشيخ أبي فلان، فأخذه المنصور من يده خوفًا أن يفتحه، وقال له: إن كنت قد قرأته كما تزعم، فعلامَ يحتوي؟ فقال:

---

(١) القصة في الذخيرة (ق ٤ ص ١٤ ـ ١٦). وفي رواية المقري إيجاز لما حكاه ابن بسام.

(٢) الأَوْلَقُ، بفتح الهمزة وسكون الواو: على وزن فَوْعَل، والوَلْق: الاستمرار في الكذب. لسان العرب (ولق).

(٣) ممخرق: مموّه، كاذب. لسان العرب (مخرق).

(٤) في طبعة دار صادر: «يجانسُها».

(٥) في الذخيرة (ص ١٥): «أمليْتُ على مُقَيِّدي خِدْمَتِهِ وكُتّاب دولته..».

(٦) في طبعة عبد الحميد: «على».

(٧) تتبّعه أدباء الوقت: لاحقوه بالنقد.

وأبيك لقد بَعُد عهدي به، ولا أحفظ الآن منه شيئًا، ولكنه يحتوي على لغة منثورة لا يشوبها شعر ولا خبر، فقال له المنصور: أبْعَدَ اللّه مثلك! فما رأيت أكذب منك، وأمر بإخراجه، وأن يُقْذف كتاب «الفصوص» في النهر، فقال فيه بعض الشعراء: [السريع]

قد غاص في النهر[1] كتاب الفُصُوص وهكذا كلُّ ثقيلٍ يَغُوصْ

فأجابه صاعد: [السريع]

عادَ إلى مَعْدِنِهِ، إنما تُوجَدُ في قعر البحار الفُصُوصْ[2]

قال ابن بسام[3]: وما أظنُّ أحدًا يجترىء على مثل هذا، وإنما صاعد اشترط أن لا يأتي إلاَّ بالغريب غير المشهور، وأعانهم على نفسه بما كان يَتَنَفَّق به[4] من الكذب.

وحكى ابن خلكان[5] أن المنصور أثابه على كتاب «الفصوص» بخمسة آلاف دينار!

ومن أعجب[6] ما جرى له أنه كان بين يدي المنصور، فأُحضرت إليه وردة في غير وقتها لم يستتمّ فتح ورقها، فقال فيها صاعد مرتجلاً: [المتقارب]

أتتكَ أبا عامرٍ وَرْدَةٌ يُذَكِّرُكَ المِسْكُ أنفاسَهَا
كعذراءَ أبْصَرَها مُبْصِرٌ فغطَّتْ بأكمامِها راسَهَا

فَسُرَّ بذلك المنصور، وكان ابن العريف حاضرًا، فحسده، وجرى إلى مُنَاقضته، وقال لابن أبي عامر: هذان البيتان لغيره، وقد أنشدنيهما بعضُ البغداديين لنفسه بمصر[7]، وهما عندي على ظهر كتاب بخطّه، فقال له المنصور: أرِنيه، فخرج ابنُ العريف، وركب وحرّك دابته حتى أتى مجلسَ ابنِ بدر، وكان أحسن أهل زمانه بديهة، فوصف له ما جرى، فقال هذه الأبيات ودسّ فيها بيتَي صاعد[8]: [المتقارب]

---

(١) في الذخيرة (ص ١٦): «في البحر».
(٢) في وفيات الأعيان (جـ ٢ ص ٤٨٩): «عاد إلى عنصره إنما يخرج من قعر..».
(٣) النقل لا يزال مستمرًا عن الذخيرة (ق ٤ ص ١٦) ولكن باختصار.
(٤) يتنفّق به: يروّج به. لسان العرب (نفق).
(٥) وفيات الأعيان (جـ ٢ ص ٤٨٩).
(٦) النقل هنا عن الذخيرة (ق ٤ ص ١٧) والبيتان في الذخيرة دون تغيير عمّا هنا.
(٧) في طبعة دار صادر: «بمصر لنفسه».
(٨) الأبيات في الذخيرة (ق ٤ ص ١٧).

عَشَوْتُ إلى قَصْرِ عَبَّاسةٍ وقد جَدَّل النومُ حُرّاسَها[1]
فألفيتُها وهي في خِدْرِها وقد صَرَعَ السكرُ أُناسَها
فقالت: أسارٍ على هَجْعةٍ؟ فقلتُ: بَلَى، فَرَمَتْ كاسَها
ومَدَّتْ يَدَيها إلى وَرْدَةٍ يحاكي لكَ الطِّيبُ أنفاسَها
كعذراءَ أَبْصَرَها مُبْصِرٌ فَغَطَّتْ بأكمامِها راسَها
وقالت: خَفِ اللّه لا تَفْضَحَنْـ ـنَ في ابنةِ عمِّك عَبّاسَها
فولَّيتُ عنها على غفلةٍ[2] وما خُنْتُ ناسي ولا ناسَها

فطار[3] ابن العريف بها، وعَلَّقها على ظهر كتاب بخطّ مصريّ ومداد أشقر، ودخل بها على المنصور، فلمّا رآها اشتدَّ غيظُه على صاعد، وقال للحاضرين: غدًا أمتحنه، فإنْ فضحه الامتحان أخرجته من البلاد، ولم يبق في موضع لي عليه سلطان، فلمَّا أصبح وَجَّه إليه فأُحْضِر، وأحضر جميع الندماء، فدخل بهم إلى مجلس محفل قد أَعَدَّ فيه طبقًا عظيمًا فيه سقائف مصنوعة من جميع النواوير، ووُضع على السقائف لُعَبٌ من ياسمين في شكل الجواري، وتحت السقائف بركة ماء، قد أُلْقي فيها اللآلىءُ مثل الحصباء، وفي البركة حيّة تسبح، فلمّا دخل صاعد ورأى الطبق قال له المنصور: إنَّ هذا يوم إمَّا أن تسعد فيه معنا، وإمَّا أن تشقى بالضدّ عندنا؛ لأنه قد زعم قومٌ أنَّ كلَّ ما تأتي به دعوى، وقد وقفت من ذلك على حقيقة، وهذا طبق ما توهَّمْتُ أنه حضر بين يدي ملك قبلي شكله، فَصِفْه بجميع ما فيه، وعَبَّر بعضٌ عن هذه القصة بقوله: أمر فعبىء له طبق فيه أزهار ورياحين وياسمين وبركة ماء حصباؤها اللؤلؤ، وكان في البركة حيّة تسبح، وأحضرها صاعد، فلمَّا شاهد ذلك قال له المنصور: إنَّ هؤلاء يذكرون أن كلَّ ما تأتي به دعوى لا صحّة لها، وهذا طبق ما ظننْتُ أنه عُمل لملك مثله، فإنْ وصفته بجميع ما فيه علمت صحّة ما تذكره، فقال صاعد بديهة[4]: [الطويل]

أبا عامرٍ، هل غيرُ جَدْوَاكَ واكفُ؟[5] وهل غيرُ مَنْ عاداكَ في الأرض خائفُ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «غَدَوْتُ إلى قصر...». وجَدَّلَ النومُ حُرّاسَها: ألقاهم نُوَّمًا صَرْعى. لسان العرب (جدل).
(٢) في الذخيرة: «على عفّة».
(٣) النص في الذخيرة (ق ٤ ص ١٧ ـ ١٩) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٤) الأبيات في الذخيرة (ق ٤ ص ١٨).
(٥) الجَدْوَى: العطاء. الواكف: الهاطل. لسان العرب (جدا) و (وكف).

يَسُوقُ إليكَ الدهرُ كلَّ غريبةٍ وأعجبُ ما يلقاه عندكَ واصِفُ
وشائعُ نَورٍ صاغَها هامِرُ الحَيَا على حافَتَيها عَبْقَرٌ ورفارِف
ولَمَّا تناهى الحُسْنُ فيها تقابلتْ عليها بأنواعِ الملاهي الوصائف
كمثلِ الظِّباء المُسْتَكِنَّةِ كُنَّسًا تُظَلِّلُها بالياسمين السقائفُ
وأعجبُ منها أنهنَّ نواظِرٌ إلى بِرْكَةٍ ضُمَّتْ إليها الطرائف[1]
حصاها اللآلي سابحٌ في عُبابها مِنَ الرُّقْشِ مَسْمومُ الثعابينِ[2] زاحِفُ
ترى ما تراه[3] العَينُ في جَنَبَاتها مِنَ الوَحْشِ حتى بينهنَّ السلاحف

فاسْتُغربت له يومئذٍ تلك البديهة في مثل ذلك الموضع، وكتبها المنصور بخطِّه، وكان إلى ناحيته من تلك السقائف سفينة فيها جارية من النوّار تجذف بمجاذيف من ذهب لم يَرَها صاعد، فقال له المنصور: أحسنت، إلاَّ أنك أغفلت ذكر المركب والجارية، فقال للوقت:

وأعجبُ منها غادةٌ في سفينةٍ مُكَلَّلَةٌ تصبو إليها المهاتفُ[4]
إذا راعها مَوجٌ مِنَ الماء تَتَّقي بسُكّانها ما أَنْذَرَتْهُ العواصفُ
متى كانتِ الحسناءُ رُبَّانَ مركبٍ تُصَرِّفُ في يُمْنى يديه[5] المجاذف
ولم تَرَ عيني في البلادِ حديقةً تُنَقِّلُها في الراحتين الوصائف[6]
ولا غرو أنْ شاقتْ معاليكَ روضةً وشَتْهَا[7] أزاهيرُ الرُّبا والزخارفُ
فأنت امرؤٌ لو رُمْتَ نقلَ مُتَالِعٍ ورَضْوَى ذَرَتْهَا مِنْ سُطَاك نواسف[8]
إذا قلْتُ قولاً أو بدهتُ بديهةً فكِلْني[9] له إني لمجدك واصِفُ

فأمر له المنصور بألف دينار ومائة ثوب، ورتّب له في كل شهر ثلاثين دينارًا، وألحقه بالندماء.

(١) في الذخيرة: «الظرائف».
(٢) في المصدر نفسه: «مسموم اللعابين».
(٣) في المصدر نفسه: «ما تشاء العَيْنُ».
(٤) في المصدر نفسه: «المهايف».
(٥) في المصدر نفسه: «يديها».
(٦) في الذخيرة: «فلم تَرَ... المناصفُ».
(٧) في الذخيرة: «زَهَتْها».
(٨) مُتالع: جبل بناحية البحرين بين السُّوْدَة والأحساء، معجم البلدان (جـ ٥ ص ٥٢). رَضْوَى: جبل بالمدينة. المصدر نفسه (جـ ٣ ص ٥١). النواسف: جمع ناسف وهو اسم فاعل من «نسف» أي قلع، لسان العرب (نسف). وفي الذخيرة: «العواصف» بدل «نواسف».
(٩) كِلْني: فعل أمر لفعل «وكل»، أي: اتركني. لسان العرب (وكل).

قال[1]: وكان شديد البديهة في ادّعاء الباطل، قال له المنصور يومًا: ما الخنبشار؟ فقال: حشيشة يُعْقَد بها اللبن ببادية الأعراب، وفي ذلك يقول شاعرهم: [الوافر]

لقد عُقِدَتْ محبّتُها بقلبي كما عَقَدَ الحليبَ الخنبشارُ[2]

وقال[3] له يومًا، وقد قُدِّم إليه طبق فيه تمر: ما التَّمَرْكُلُ في كلام العرب؟ فقال: «يقال تَمَرْ كَلَ الرجلُ تَمَرْ كُلاً» إذا التفَّ في كسائه. وكان مع ذلك عالمًا.

قال[4]: وكان لابن أبي عامر فتى يُسمَّى فاتنًا أوحد لا نظيرَ له في علم كلام العرب، فناظر صاعدًا هذا فقطعه وظهر عليه وبكّته، فأعجب المنصور منه، فتوفي فاتن هذا سنة ٤٠٢، وبِيعَتْ في تركته كتب مضبوطة جليلة مصحّحة، وكان منقادًا لما نزل به من المُثْلَة فلم يتّخذ النساء كغيره، وكان في ذلك الزمان بقرطبة جملة من الفتيان المخانيث مِمَّن أخذ بأوفر نصيب من الأدب.

قال: ورأيت تأليفًا لرجل منهم يُعْرف بحبيب ترجمه بكتاب «الاستظهار والمغالبة، على من أنكر فضائل الصقالبة» وذكر فيه جملة من أشعارهم وأخبارهم ونوادرهم.

وقال ابن بسام وغيره[5]: ومن عجائب ما جرى لصاعد أنه أهدى إيَّلاً[6] إلى المنصور، وكتب على يد موصله: [الكامل]

يا حِرزَ كلِّ مُخَوَّفٍ وأمانَ كلِّ مُشَرَّدٍ ومُعِزَّ كلِّ مذلَّلِ

يا سلكَ كلِّ فضيلةٍ ونظامَ كلِّ جزيلةٍ وثراءَ كلِّ معيَّلِ

ومنها:

ما إن رأَتْ عيني وعلمُكَ شاهدٌ جَدْوَى علائك في مُعِمٍّ مُخْوِلِ[7]

---

(١) النص لابن بسام في الذخيرة (ق ٤ ص ٣٢).

(٢) رواية عجز البيت في طبعة دار صادر وفي الذخيرة هي:

كما عُقِدَ الحليبُ بخنبشار

(٣) النص في الذخيرة (ق ٤ ص ٣٣).

(٤) الذخيرة (ص ٣٤).

(٥) النص والشعر في الذخيرة (ص ٣٤ - ٣٥) وجذوة المقتبس (ص ٢٤٣) وبغية الملتمس (ص ٣٢٢ - ٣٢٣).

(٦) الإيّل. الوعل الذكر. لسان العرب (أيل).

(٧) في طبعة دار صادر وفي جذوة المقتبس: «شروى علائك». وفي بغية الملتمس: «شروى علائق». والمُعِمُّ: الكريم العمومة. والمُخْوِلُ: الكريم الخؤولة. لسان العرب (عمم) و (خول).

ومنها:

وأبي مؤانسُ غربتي وتحفّظي ... مِنْ صفرِ أيامي ومن مستعملي[1]
عبدٌ جذبْتَ بضَبْعه ورفعْتَ مِنْ ... مقدارِهِ أهدى إليك بإيَّلِ
سَمَّيتُهُ غَرسِيَّةً وبعثْتُهُ ... في حَبْلِهِ ليصحَّ فيه تفاؤلي
فلئن قبلْتَ فتلك أنْفَسُ مِنَّةٍ ... أهدى[2] بها ذو منحة وتطولِ
مَنَحَتْكَ غاديةُ السرور بعزّةٍ ... وحَلَلْتَ أوْجًا بالسحاب المخضِلِ[3]

فقضي في سابق علم اللّه سبحانه وتعالى أنَّ ملك الروم غَرْسِيَة[4] أُسِرَ في ذلك اليوم بعينه الذي بعث فيه بالإيَّلِ، وسمّاه باسمه على التفاؤل، انتهى.

وكان غرسية أمنع من النجم، وسبب أخذه أنه خرج يتصيّد، فلقيته خيل للمنصور من غير قصد، فأسرته وجاءته به، فكان هذا الاتفاق ممّا عظم به العجب.

ولنورد[5] من أخبار صاعد فنقول: حكي أنَّ المنصور قال بسبب هذه القضية: إنه لم يتّفق لصاعد هذا الفأل الغريب إلاَّ لحسن نيّته وسريرته، وصفاء باطنه، فرفع قدره من ذلك اليوم فوق ما كان، ورجّحه على أعدائه، وحقّ له ذلك.

وفي الزهرة الثامنة والعشرين من كتاب «الأزهار المنثورة، في الأخبار المأثورة» حُكي أنَّ صاعدًا قال[6]: جمعْتُ خِرَقَ الأكياس والصرر التي قبضْتُ فيها صِلات المنصور محمد ابن أبي عامر، فقطعْتُ لكافور الأسود غلامي منها قميصًا كالمرقعة، وبكرْتُ به معي إلى قصر المنصور، فاحْتَلْتُ في تنشيطه حتى طابت نفسه فقلت: يا مولانا لعبدك حاجة، فقال: اُذْكُرْها، قلت: وصول غلامي كافور إلى هنا، فقال: وعلى هذه الحال؟ فقلت: لا

(١) رواية البيت في جذوة المقتبس وبغية الملتمس هي:
مولاي مؤنسُ غربتي متحفّظي ... من ظفر أيامي، مُمَتِّعُ معقلي
(٢) في طبعة دار صادر: «أسدي».
(٣) رواية البيت في طبعة دار صادر وفي جذوة المقتبس هي:
صحبتك غادية السرور وجلّلت ... أرجاء ربعك بالسحاب المُخْضِلِ
وفي بغية الملتمس: «صحبتك غادية...».
(٤) هو غرسية بن شانجة، وخبر أسره في الذخيرة (ق ٤ ص ٤٥).
(٥) في طبعة دار صادر: «ولنزد».
(٦) النص في الذخيرة (ق ٤ ص ٢٦) ولكنه مختلف عمّا هنا، وفيه أن صاعدًا هو الذي لبس القميص تحت ثيابه، ثم تجرّد منها وبقي في القميص.

أقنع بسواه إلاّ بحضوره بين يديك، فقال: أَدْخِلوه، فمَثَلَ قائمًا بين يديه في مرقعته وهو كالنخلة إشرافًا، فقال: قد حضر، وإنه لباذل[1] الهيئة، فما لك أضعْتَه؟ فقلت: يا مولانا، هنالك الفائدة، اعْلَمْ يا مولاي أنك وهبْتَ لي اليوم ملء جلد كافور مالاً، فتهلّل وقال: لله درّك من شاكر مستنبط لغوامض معاني الشكر! وأمر لي بمال واسع وكسوة، وكسا كافورًا أحسن كسوة، انتهى.

ولَمّا[2] دخل صاعد دانية، وحضر مجلس الموفق مجاهد العامري أمير البلد، كان في المجلس أديب يقال له بشار، فقال للموفّق: دَعْني أعبث بصاعد، فقال له: لا تتعرّض إليه، فإنه سريع الجواب، فأبى إلاّ مُسَاءلته، وكان بشار المذكور أعمى، فقال لصاعد: يا أبا العلاء، ما الْجُرْنُفُلُ في كلام العرب؟ فعرف صاعد أنه وضع هذه الكلمة، وليس لها أصل في اللغة، فقال بعد أن أطرق ساعة: الْجُرْنُفُلُ في اللغة الذي يفعل بنساء العُمْيان ولا يتجاوزهنّ إلى غيرهنّ، وهو في ذلك كلّه يصرح ولا يكني، فخجل بشار وانكسر، وضحك مَنْ كان حاضرًا، فقال له الموفّق: قلت لك لا تفعل فلم تقبل، انتهى.

والْجُرْنُفُلُ ـ بضمّ الجيم والراء، وسكون النون، وضمّ الفاء، وبعدها لام.

ولصاعد أخبار ونوادر كثيرة غير ما تقدّم، وله مع المنصور بن أبي عامر، رحمه الله تعالى، من ذلك كثير، وبعضه ذكرناه في هذا الكتاب.

ومن حكاياته[3] أنه خرج معه يومًا إلى رياض الزاهرة، فمدَّ المنصورُ يده إلى شيء من الريحان المعروف بالتُّرُنْجان، فعبث به ورماه إلى صاعد، وأشار إليه أن يقول فيه، فارتجل: [البسيط]

لـم أَدْرِ قَـبْـلَ تُـرُنْـجـانٍ عَـبِـثْـتَ بـه

الأبيات الآتية[4].

وهذا المنصور بن أبي عامر قد تقدّمت جملة من أخباره، ومن أعجب ما وقع له ما رأيته بخزانة فاس في كتاب أَلّفه صاحبُه في الأزهار والأنوار، حكى فيه في ترجمة

---

(١) في طبعة دار صادر: «لباذ».
(٢) النص في وفيات الأعيان (جـ ٢ ص ٤٨٩) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٣) النص في الذخيرة (ق ٤ ص ٢١).
(٤) سترد هذه الأبيات في هذا الجزء (ص ٨٣).

النيلوفر[1] أن المنصور لَمَّا قَدِمَ عليه رسولُ ملك الروم الذي هو أعظم ملوكهم في ذلك الزمان ليطّلع على أحوال المسلمين وقوّتهم، فأمر المنصور أن يُغْرَس في بركة عظيمة ذات أميال نِيلُوفر[2]، ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة قناطير من الفضّة فَسُبِكَتْ قطعًا صغارًا على قدْر ما تسع النيلوفرة، ثم ملأ بها جميع النيلوفر الذي في البركة، وأرسل إلى الرومي فحضر عنده قبل الفجر في مجلسه السامي بالزاهرة بحيث يُشْرف على موضعْ البركة، فلمَّا قرب طلوع الشمس جاء ألف من الصقالبة عليهم أقبية الذهب والفِضّة ومناطق الذهب والفِضّة، وبيد خمسمائةِ أطباقُ ذهبٍ، وبيد خمسمائة أطباق فضة، فتعجّب الرسول من حسن صورهم وجميل شَارَتهم، فلم يَدْرِ ما المراد، فحين أشرقت الشمس ظهر النيلوفر من البركة، وبادروا لأخذ الذهب والفِضّة من النيلوفر، وكانوا يجعلون الذهبَ في أطباق الفِضّة والفِضّةَ في أطباق الذهب، حتى التقطوا جميع ما فيها، وجاءوا به فوضعوه بين يدي المنصور، حتى صار كومًا بين يديه، فتعجّب النصراني من ذلك، وأعظمه، وطلب المهادنة من المسلمين، وذهب مسرعًا إلى مُرْسِله، وقال له: لا تُعَادِ هؤلاء القوم، فإني رأيت الأرض تخدمهم بكنوزها، انتهى.

وهذه القضية من الغرائب، وإنَّها لَحِيلَةٌ عجيبةٌ في إظهار عِزِّ الإسلام وأهله.

وكان المنصور بن أبي عامر آيَة اللَّه سبحانه في السعد ونصرة الإسلام، قال ابن بسام نقلاً عن ابن حيان[3]: إنه لَمَّا انتهت خلافة بني مروان بالأندلس إلى الحَكَم تاسع الأئمة، وكان مع فضله قد استهواه حبُّ الولد، حتى خالف الحزم في توريثه المُلْكَ بعده في سنّ الصبا، دون مشيخة الإخوة وفِتْيان العشيرة، ومَنْ كان ينهض بالأمر ويستقلّ بالملك. قال ابن بسام: وكان يقال «لا يزال ملك بني أمية بالأندلس في إقبال ودوام ما توارَثَه الأبناءُ عن الآباء، فإذا انتقل إلى الإخوة وتوارثوه فيما بينهم أدبر وانصرم». ولعلَّ الحَكَم لَحَظَ ذلك، فلمَّا مات الحكم أخفى جؤذر وفائق فَتَيَاه ذلك، وعَزَمَا على صرف البيعة إلى أخيه المغيرة، وكان فائق قد قال له: إن هذا لا يَتِمُّ لنا إلاَّ بقتل جعفرٍ المُصْحفي، فقال له جؤذر: ونستفتحُ أَمْرَنا بسَفْكِ دم شيخ مولانا[4]؟ فقال له: هو واللَّه ما أقول لك، ثم بَعَثَا

---

(١) النَّيلوفر، بكسر النون وسكون الياء: نوع من الرياحين ينبت في المياه الراكدة، له أصل كالجزر، وساق أملس. محيط المحيط (نيلوفر).

(٢) في طبعة دار صادر: «نيلوفر على ما تسع، ثم أمر..».

(٣) النص في الذخيرة (ص ٥٧ ـ ٦٠) وقد نقله المقري بتصرّف.

(٤) في الذخيرة (ص ٥٨): «شيخ دولة مولانا».

إلى المصحفي ونَعَيا إليه الحَكَم، وعرّفاه رأيهما في المغيرة، فقال لهما المصحفي: وهل أنا إلاّ تَبَعٌ لكما، وأنتما صاحبا القصر، ومدبّرا الأمر؟! فشرعا في تدبير ما عزما عليه، وخرج المصحفي وجمع أجناده وقوّاده ونعى إليهم الحَكَم، وعَرَّفهم مقصود جؤذر وفائق في المغيرة، وقال: إنْ بقينا على ابن مولانا كانت الدولة[1] لنا، وإن بدلنا استبدلنا[2]، فقالوا: الرأي رأيك، فبادر المصحفي بإنفاذ محمد بن أبي عامر مع طائفة من الجند إلى دار المغيرة لقتله، فوافاه ولا خبر عنده، فنعى إليه الحكم أخاه، فجزع، وعرَّفه جلوسَ ابنه هشام في الخلافة، فقال: أنا سامع مطيع، فكتب إلى المصحفي بحاله، وما هو عليه من الاستجابة، فأجابه المصحفي بالقبض عليه، وإلاّ وَجَّه غيره ليقتله، فقتله خنقًا. فلمّا قتل المغيرة واستوثق الأمر لهشام بن الحكم افتتح المصحفي أمره بالتواضع والسياسة واطّراح الكبر ومساواة الوزراء في الفرش، وكان ذلك من أوّل ما اسْتُحْسِن منه، وتوفّر على الاستئثار بالأعمال والاحتجان[3] للأموال، وعارضه محمد بن أبي عامر، فتًى ماجدٌ أخذ معه بطرفي نقيض بالبخل جودًا وبالاستبداد أثرةً، وتملّك قلوبَ الرجال إلى أن تحرّكت همّته للمشاركة في التدبير بحقّ الوزارة، وقوي على أمره بنظره في الوكالة، وخدمته للسيدة صُبْح أُمُ هشام، وكانت حاله عند جميع الخدم أفضل الأحوال بتصدّيه لمواقع الإرادة، ومبالغته في تأدية لطيف الخدمة، فأخرجت[4] له أم هشام الخليفة إلى الحاجب جعفر المصحفي بأن لا ينفرد عنه برأي، وكان غير متخيّل منه سكونًا إلى ثقته، فامتثل الأمر وأطلعه على سرّه، وبالغ في برّه، وبالغ محمد بن أبي عامر في مخادعته والنصح له، فوصل المصحفي يده بيده، واستراح إلى كفايته، وابن أبي عامر يمكر به، ويُضَرِّب عليه، ويغري به الحُرَّة[5]، ويناقضه في أكثر ما يعامل به الناس، ويقضي حوائجهم، ولم يزل على ما هذه سبيله إلى أن انحلّ أمرُ المصحفي، وهَوَى نجمه، وتفرّد محمد بن أبي عامر بالأمر، ومنع أصحاب الحَكَم وأجلاهم وأهلكهم وشرّدهم وشتّتهم وصادرهم[6]، وأقام من صنائعهم مَنِ استغنى به عنهم، وصادر الصقالبة، وأهلكهم، وأبادهم في أسرع مدّة.

---

(١) كانت الدولة لنا: أي كانت الغلبة لنا.
(٢) في طبعة دار صادر: «استبدل بنا».
(٣) احتجان المال: احتواؤه. لسان العرب (حجن).
(٤) في طبعة دار صادر: «فأخرجْنَ له أمر هشام..».
(٥) الحُرَّة: هي صبح. وفي الذخيرة (ص ٦٠): «ويُضَرِّب بين حسدته... ويناقضه..».
(٦) صادرهم: أي صادر أموالهم وأملاكهم.

قال ابن حيان[1]: وجاشت النصرانيةُ بموت الحَكَم، وخرجوا على أهل الثغور فوصلوا إلى باب قرطبة[2]، ولم يجدوا عند جعفر المصحفي غَنَاء ولا نصرة، وكان مِمَّا أتى عليه[3] أنْ أَمَرَ أهلَ قلعة رباح بقطع سَدِّ نهرهم، لما تخيله من أنَّ في ذلك النجاة من العدوّ، ولم تقع[4] حيلته لأكثر منه، مع وفور الجيوش وجموم الأموال، وكان ذلك من سَقَطَات جعفر، فأنف محمد بن أبي عامر من هذه الدَّنِيَّة، وأشار على جعفر بتبديد[5] الجيش بالجهاد، وخوّفه سُوْء العاقبة في تَرْكِهِ، وأجمع الوزراء على ذلك، إلاَّ مَنْ شَذَّ منهم، واختار ابن أبي عامر الرجال، وتجهّز للغَزَاة، واستصحب مائة ألف دينار، ونفذ[6] بالجيش، ودخل على الثغر الْجَوْفي[7]، ونازل حصن الحامة[8]، ودخل الرَّبَض، وغنم وقَفَلَ فوصل الحضرة بالسبي بعد اثنين وخمسين يومًا، فعظُمَ السرورُ به، وخلصت قلوبُ الأجناد له، واستهلكوا في طاعته لِمَا رأوه من كَرَمِهِ.

ومن أخبار كرمه[9] ما حكاه محمد بن أفلح غلام الحكم قال: دُفِعْتُ إلى ما لا أُطيقه من نفقة في عُرْس ابنة لي، ولم يبق معي سوى لِجام مُحَلًّى، ولَمَّا ضاقت بي الأسباب قصدته بدار الضَّرْبِ حين كان صاحبها، والدراهم بين يديه موضوعة مطبوعة، فأعلمْتُه ما جئْتُ له، فابتهج بما سمعه منّي، وأعطاني من تلك الدراهم وزن اللجام بحديده وسُيُوره، فملأ حجري، وكنت غير مصدق بما جرى لعظمه، وعملت العرس، وفَضَلت لي فضلة كثيرة، وأحبَّه قلبي حتى لو حملني على خلع طاعة مولاي الحكم لَفَعَلْتُ، وكان ذلك في أيام الحكم قبل أن يقتعد ابن أبي عامر الذِّرْوَةَ.

وقال غير واحد: إنه صنع يومئذ قصرًا من فِضّة لصُبْح أُمّ هشام، وحمله على رؤوس الرجال، فجلب حُبَّها بذلك، وقامت بأمره عند سيِّدها الحكم، وحدَّث الحكم خواصّه

(١) ما يزال النقل مستمرًا عن الذخيرة (ص ٦٢).
(٢) في الذخيرة: «فجاء صُرّاخهم إلى باب قرطبة فلم يجدوا. .».
(٣) في المصدر نفسه: «وكان مما غُرِّب به لجبنه وعظيم أَفَنِهِ أن أمر. .».
(٤) في طبعة دار صادر وفي الذخيرة: «ولم تتّسع حيلته. .».
(٥) في طبعة دار صادر وفي الذخيرة: «بتجريد الجيش. .».
(٦) في الذخيرة: «فنفر بالجيش. .».
(٧) في طبعة دار صادر وفي الذخيرة: «الجوفي إلى جليقية».
(٨) في طبعة عبد الحميد: «الحافة».
(٩) لا يزال النقل مستمرًا عن الذخيرة (ص ٦٢ ـ ٦٣) ولكن بتصرف.

بذلك، وقال: إنَّ هذا الفتى قد جلب عقول حرمنا بما يُتحِفُهُنَّ[1] به، قالوا: وكان الحكم لشدّة نظره في علم الحدثان يتخيّل في ابن أبي عامر أنه المذكور في الحدثان، ويقول لأصحابه: أما تنظرون إلى صُفْرة كَفَّيه؟ ويقول في بعض الأحيان: لو كانت به شَجَّة[2] لقلت إنه هو بلا شكّ، فقضى اللّه أنّ تلك الشَّجّة حصلت للمنصور يوم ضربه غالب بعد موت الحكم بمدّة.

قال ابن حيان[3]: وكان بين المصحفي وغالبِ صاحبِ مدينة سالم وشيخ الموالي وفارسِ الأندلس عداوة عظيمة، ومباينة شديدة، ومقاطعة مستحكمة، وأعجز المصحفي أمره، وضعف عن مُبَاراته، وشكا ذلك إلى الوزراء، فأشاروا عليه بملاطفته واستصلاحه، وشعر بذلك ابن أبي عامر، فأقبل على خدمته، وتجرّد لإتمام إرادته، ولم يزل على ذلك حتى خرج الأمر بأن ينهض غالب إلى تقدمة جيش الثغر، وخرج ابن أبي عامر إلى غزوته الثانية، واجتمع به، وتعاقدا على الإيقاع بالمصحفي، وقَفَلَ ابن أبي عامر[4] ظافرًا غانمًا، وبَعُدَ صيتُه، فخرج أمر الخليفة هشام بصَرْف المصحفي عن المدينة، وكانت في يده يومئذ، وخلع على ابن أبي عامر ولا خبر عند المصحفي، وملك ابن أبي عامر الباب بولايته للشرطة، وأخذ عن[5] المصحفي وجوه الحيلة، وخَلاّه وليس بيده من الأمر إلاّ أقلّه، وكان ذلك بإعانة غالب له، وضبط المدينة ضبطًا أنسى به أهل الحضرة مَنْ سَلَفَ من الكُفَاة[6] أُولي[7] السياسة، وانهمك ابن أبي عامر في صحبة غالب، ففطن المصحفي لتدبير ابن أبي عامر عليه، فكاتب غالبًا يستصلحه، وخطب أسماء بنته لابنه عثمان، فأجابه غالب لذلك، وكادت المصاهرة تتمُّ له، وبلغ ابنَ أبي عامر الأمرُ، فقامت قيامته، وكاتب غالبًا يخوّفه الحيلة، ويهيج حقوده، وألقى عليه أهل الدار وكاتبوه فصرفوه عن ذلك، ورجع غالب إلى ابن أبي عامر، فأنكحه البنت المذكورة، وتمَّ له العقد في محرم سنة سبع وستين وثلثمائة، فأدخل السلطان تلك الابنة إلى قصره، وجهّزها إلى محمد بن أبي عامر من قبله، فظهر

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «يتحفهم».
(٢) الشَّجَّة: الجرح في الرأس. لسان العرب (شجج).
(٣) النص في الذخيرة (ق ٤ ص ٦٣ - ٦٧) وقد نقله المقري بتصرف.
(٤) في طبعة عبد الحميد: «ابن عامر».
(٥) في طبعة دار صادر: «على».
(٦) الكُفاة: جمع كافٍ وهو الذي يقوم بالأمر بكفاءة ولا يحتاج إلى مساعدة. لسان العرب (كفي).
(٧) في طبعة عبد الحميد: «وتولّى».

أمره وعَزّ[1] جانبه، وكثر رجاله، وصار جعفر المصحفي بالنسبة إليه كلا شيء، واستقدم السلطان غالبًا، وقلّده الحجابة شركة مع جعفر المصحفي، ودخل ابن أبي عامر على ابنته ليلة النيروز، وكانت أعظم ليلة عرس في الأندلس، وأيقن المصحفي بالنكبة وكَفَّ عن اعتراض ابن أبي عامر في شيء من التدبير، وابنُ أبي عامر يساتره[2] ولا يظاهره، وانفضّ عنه الناس، وأقبلوا على ابن أبي عامر إلى أن صار المصحفي يغدو إلى قصر قرطبة ويروح وهو وحده، وليس بيده من الحجابة سوى اسمها، وعوقب المصحفي بإعانته على ولاية هشام، وقتل المغيرة. ثم سخط السلطان على المصحفي وأولاده وأهله وأسبابه وأصحابه، وطولبوا بالأموال، وأُخِذُوا برفع الحساب لما تصرّفوا فيه، وتوصّل ابن أبي عامر بذلك إلى اجتثاث أصولهم وفروعهم، وكان هشام ابن أخي المصحفي قد توصّل إلى أن سرق من رؤوس النصارى التي كانت تحمل بين يدي ابن أبي عامر في الغَزَاة الثالثة لِيَقْدُمَ بها على الحضرة، وغاظه ذلك منه، فبادره بالقتل في المطبق قبل عمّه جعفر المصحفي، فما[3] استقصى ابن أبي عامر مال جعفر حتى باع داره بالرصافة، وكانت من أعظم قصور قرطبة، واستمرّت النكبة عليه سنين[4]، مرّة يُحْتبس ومرّة يُتْرك ومرة يُقَرُّ بالحضرة ومرّة ينفر عنها، ولا براح له من المطالبة بالمال، ولم يزل على هذا الحكم حتى استصفي، ولم يبق فيه محتمل، واعْتُقل في المُطْبِقِ بالزهراء إلى أن هلك، وأُخْرج إلى أهله ميتًا، وذكر أنه سَمَّه في ماء شربه، قال محمد بن إسماعيل: سِرْتُ مع محمد بن مسلمة إلى الزهراء لنسلّم جسد جعفر بن عثمان إلى أهله بأمر المنصور، وسِرْنا إلى منزله فكان مغطًى بخَلَق[5] كساء لبعض البوّابين ألقاه على سريره، وغُسِل على فردة باب اختلع من ناحية الدار، وأُخرج وما حضر أحد جنازته سوى إمام مسجدِه المستدعى للصلاة عليه ومن حضر من ولده، فعجبْتُ من الزمان، انتهى.

وما أحسن عبارة المطمح عن هذه القضية إذ قال[6]: قال محمد بن إسماعيل كاتب المنصور: سِرْتُ بأمره لتسليم جسد جعفر إلى أهله وولدِه، والحضور على إنزاله في

---

(١) عَزَّ جانبُه: قوي. مختار الصحاح (عزز).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «يسايره».

(٣) في طبعة دار صادر: «فلمّا».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «ستين». والمعروف أن المصحفي عُذّب وذلّ مدة خمس سنين.

(٥) الخَلَقُ، بالفتح: البالي. لسان العرب (خلق).

(٦) النص في مطمح الأنفس (ص ٦) والذخيرة (ق ٤ ص ٦٦ - ٦٧).

مَلْحَده، فنظرته ولا أثر فيه، وليس عليه شيء يُوَاريه، غير كساء خَلَقٍ لبعض البوّابين، فدعا له محمد بن مسلمة بغاسل فغسله والله على فَرْدَة باب اقتطع من جانب الدار، وأنا أعتبر من تصرّف الأقدار، وخرجْنا بنعشه إلى قبره وما معنا سوى إمام مسجده المستدعى للصلاة عليه، وما تجاسر أحدٌ مِنّا للنظر إليه، وإن لي في شأنه لخبرًا ما سَمِع بمثله طالبُ وَعْظٍ، ولا وقع في سمع ولا تصوّر في لحظ، وقفت له في طريقه من قَصْره، أيام نَهْيه وأمره، أروم أن أناوله قِصَّة، كانت به مختصّة، فوالله ما تمكَّنتُ من الدنوِّ منه بحيلة لكَثَافة موكبه، وكثرة مَنْ خَفَّ به، وأَخَذَ الناسُ السِّكك عليه وأفواهَ الطرق داعين، ومازِيْن بين يديه وساعين، حتى ناولت قِصّتي بعضَ كُتّابه الذين نَصَبَهم جناحَيْ موكبه لأخذ القِصَص، فانصرفْتُ وفي نفسي ما فيها من الشَّرَقِ بحاله والغَصَصَ، فلم تطل المدّة حتى غضب عليه المنصور واعتقله، ونقله معه في الغزوات واحتمله[1]، واتّفق أن نزلْتُ بجليقية إلى جانب خبائه في ليلة نَهَى فيها المنصورُ عن وقود النيران لِيُخْفَى على العدوّ أثرُه، ولا ينكشف إليه خبره، فرأيت والله عثمان ولده يسقيه[2] دقيقًا قد خلطه بماء يقيم به أَوَدَه[3]، ويمسك بسببه رَمَقه، بضعف حال وعدم زاد، وهو يقول[4]: [الطويل]

تعاطيت صرف الحادثات فلم أزلْ … أراها تُوَفِّي عند موعدها الحُرّا[5]

فللّه أيامٌ مَضَتْ بسبيلها[6] … فإنّيَ لا أنسى لها أبدًا ذِكْرا

تجافَتْ بها عَنّا الحوادثُ برهةً … وأَبْدَتْ لنا منها الطّلاقةَ والبِشْرَا

لياليَ ما يدري الزمانُ مكانها … ولا نَظَرَتْ منها حوادثُهُ شَزْرَا[7]

وما هذه الأيامُ إلاّ سحائبٌ … على كلِّ أرضٍ[8] تُمْطِرُ الخيرَ والشَّرّا

انتهى[9].

---

(١) في مطمح الأنفس: «وحمله».

(٢) في طبعة دار صادر وفي مطمح الأنفس: «يُسَفِّهُ».

(٣) الأَوَدُ، بالفتح: الاعوجاج. محيط المحيط (أود).

(٤) الأبيات في مطمح الأنفس والحلة السيراء (جـ١ ص ٢٦٥).

(٥) في المطمح: «تأمّلت صرف الحادثات..». وفي الحلة السيراء «تأمّلت... تُوافى عند مقصدها الحُرّا».

(٦) في الحلة السيراء: «السبيلها».

(٧) في طبعة دار صادر: «مكاننا» بدل «مكانها». وفي الحلة السيراء: «ليالي لم يَدْرِ الزمانُ مكاننا..». ونظرت شَزْرًا: نظرت بمؤخّر عينها غاضبة. مختار الصحاح (شزر).

(٨) في الحلة السيراء: «على كل حال..».

(٩) كلمة: «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

وأما غالب الناصري فإنه حضر مع ابن أبي عامر في بعض الغزوات، وصعدا إلى بعض القلاع، لينظرا في أمرها، فجرتْ مُحَاورة بين ابن أبي عامر وغالب، فسبَّه غالب وقال له: يا كلب، أنت الذي أفسدتَ الدولة، وخَرَّبْتَ القلاع، وتحكَّمْتَ في الدولة، وسَلَّ سيفه فضربه، وكان بعض الناس حبس يده، فلم تتمّ الضربة وشَجَّه، فألقى ابن أبي عامر نفسه من رأس القلعة خوفًا من أن يُجْهز عليه، فقضى اللّه تعالى أنه وجد شيئًا في الهواء[1] منعه من الهلاك، فاحتمله أصحابه وعالجوه حتى بريء، ولحق غالب بالنصارى، فجيَّش بهم[2]، وقابله ابن أبي عامر بمن معه من جيوش الإسلام، فحكمت الأقدار بهلاك غالب، وتمّ لابن أبي عامر ما جدّ له، وتخلّصت دولته من الشوائب.

قالوا[3]: ولَمَّا وقعت وحشة بين ابن أبي عامر والمؤيّد، وكان سببها تضريب الحساد فيما بينهما، وعلم أنه ما دُهِي إلاَّ من جانب حاشية القصر، فرّقهم ومزّقهم، ولم يدع فيه منهم إلاَّ من وثق به أو عجز عنه، ثم ذُكِر له أن الحرم قد انبسطت أيديهنّ في الأموال المختزنة بالقصر، وما كانت السيدة صُبْح أخت رائق تفعله من إخراج الأموال عندما حدث من تغيرها على ابن أبي عامر، وأنها أخرجتْ في بعض الأيام مائة كوز مختومة على أعناق الخدم الصقالبة فيها الذهب والفِضّة، ومَوَّهَتْ ذلك كلّه بالمُرّي[4] والشهد وغيره والأصباغ المتّخذة بقصر الخلافة، وكتبتْ على رؤوس الكيزان أسماء ذلك. ومَرَّتْ على صاحب المدينة، فما شكّ في أنه ليس فيها إلاَّ ما هو عليها، وكان مبلغ ما حملت فيها من الذهب ثمانين ألف دينار، فأحضر ابن أبي عامر جماعة وأعلمهم أن الخليفة مشغول عن حفظ الأموال بانهماكه في العبادة، وأنَّ في إضاعتها آفة على المسلمين، وأشار بنقلها إلى حيث يؤمن عليها فيه، فحمل منها خمسة آلاف ألفِ دينار عن قيمة ورق وسبعمائة ألف دينار، وكانت صُبْح قد دافعت عَمَّا بالقصر من الأموال، ولم تمكّن من إخراجها، فاجتمع ابن أبي عامر بالخليفة هشام، واعترف له بالفضل والغَناء في حفظ قواعد الدولة، فخرِسَتْ ألسنةُ العدا[5] والحَسَدة، وعلم المنصور ما في نفوس الناس لظهور هشام ورؤيتهم له، إذ

---

(١) في طبعة دار صادر: «في الهوى».

(٢) جَيَّش بهم: جمع منهم الجيوش. مختار الصحاح (جيش).

(٣) عاد المقري للنقل عن الذخيرة (ق ٤ ص ٧١ ـ ٧٥) بتصرف واختصار.

(٤) المُرّي، بتشديد الراء: مستحضر يستعمل في صنع الأطعمة، وقيل: هو مركب يصنع من الدقيق والملح والعسل والتمر. ملحق المعاجم العربية لدوزي (مري).

(٥) في طبعة دار صادر: «الأعداء».

كان منهم مَنْ لم يَرَهُ قطّ، فأبرزه للناس وركب الركبة المشهورة، واجتمع لذلك من الخلق ما لا يُحصى، وكانت عليه الطويلة[(١)] والقضيبُ في يده زيّ الخلافة، والمنصور يسايره. ثم خرج المنصور لآخر غزواته، وقد مرض المرضَ الذي مات فيه، وواصل شَنَّ الغارات، وقويتْ عليه العلّة، فاتخذ له سرير خشب ووُطِّيء[(٢)] عليه ما يقعد عليه، وجعلت عليه ستارة، وكان يُحمَل على أعناق الرجال والعساكرُ تحفُّ به، وكان هَجَرَ الأطباءَ في تلك العلّة لاختلافهم فيها، وأيقن بالموت، وكان يقول: إنَّ زماني[(٣)] يشتمل على عشرين ألف مُرْتَزِق ما أصبح فيهم أسوأ حالة مني - ولعلّه يعني مَنْ حضر تلك الغَزَاة، وإلاّ فعساكر الأندلس ذلك الزمانَ أكثَرُ من ذلك العدد - واشتغل ذهنه بأمر قرطبة وهو في مدينة سالم، فلمّا أيقن بالوفاة أوصى ابنَه عبد الملك وجماعتَه وخلا بولدِه وكان يكرّر وصايته[(٤)]، وكلّما أراد أن ينصرف يردّه، وعبدُ الملك يبكي، وهو ينكر عليه بكاءه ويقول: وهذا من أول العَجْز، وأمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر.

وخرج عبد الملك إلى قرطبة ومعه القاضي أبو ذكوان[(٥)]، فدخلها أول شوّال، وسكّن الإرجاف[(٦)] بموت والده، وعرَّف الخليفة كيف تركه.

ووجد المنصور خِفَّة فأحضر جماعة بين يديه، وهو كالخَيَال لا يُبِين[(٧)] الكلام، وأكثر كلامه بالإشارة كالمسلِّم المودع، وخرجوا من عنده، فكان آخر العهد به ومات لثلاثٍ بَقِينَ من شهر رمضان، وأوصى أن يُدْفن حيث يُقْبَض، فدُفن في قصره بمدينة سالم. واضطرب العسكر، وتلوّم[(٨)] ولدُه أيامًا، وفارقه بعض العسكر إلى هشام، وقفَل هو إلى قرطبة فيمن بقي معه، ولبس فتيانُ المنصور المُسُوحَ والأكسية بعد الوشي والحِبَر والخزّ.

---

(١) الطويلة: أي القلنسوة.

(٢) وُطِّيء عليه: مُهّد له. لسان العرب (وطأ).

(٣) في طبعة دار صادر: «زمامي».

(٤) في الطبعة نفسها: «وصاته».

(٥) في الذخيرة (ص ٧٥): «ابن ذكوان».

(٦) الإرجاف: كثرة الحديث والخوض في الأخبار. لسان العرب (رجف).

(٧) لا يُبِيْنُ الكلامَ: لا يوضحه، أي لا يُفْهم عنه. مختار الصحاح (بين).

(٨) تَلَوَّمَ: انتظر وتمكّث. مختار الصحاح (لوم).

وقام ولده عبد الملك المظفر بالأمر، وأجراه هشام الخليفة على عادة أبيه، وخلع عليه، وكتب له السجلّ بولاية الحجابة، وكان الفتيان قد اضطربوا فقوَّم المائلَ، وأصلح الفاسدَ، وجرتِ الأمورُ على السداد، وانشرحتِ الصدورُ بما شرع فيه من عمارة البلاد، فكان أسعد مولود ولد في الأندلس.

ولْنُمْسِكْ عنانَ القلمِ في أمر ابن أبي عامر، فقد قدَّمْنا في محلّه جملةً من أحواله، وما ذكرناه هنا وإن كان محلّه ما سبق وبعضه قد تكرّر معه فهو لا يخلو من فوائد زوائد، والله تعالى ولي التوفيق.

رجع إلى أخبار صاعد اللغوي البغدادي:

وحكي[1] أنه دخل على المنصور يوم عيد، وعليه ثياب جُدُد وخُفٌّ جديد، فمشى على حافة البركة لازدحام الحاضرين في الصف، فزلق فسقط في الماء، فضحك المنصور، وأمر بإخراجه، وقد كاد البرد أن يأتي عليه، فخلع عليه، وأدنى مجلسه، وقال له: هل حضرك شيء؟ فقال: [الكامل]

شيئانِ كانا في الزمانِ عجيبة ... ضَرْطُ ابنِ وَهْبٍ ثم وقعةُ صاعدِ[2]

فاستبرد ما أتى به أبو مروان الكاتب الجزيري، فقال: هلاّ قلت[3]: [المتقارب]

سُرُوري بغُرَّتِكَ المُشْرِقَهْ ... ودِيمَةِ راحَتِكَ المُغْدِقَهْ
ثَنانيَ نشوانَ حتى[4] غَرِقْـ ... ـتُ في لُجّة البِركةِ المُطْبِقهْ
لئن ظَلَّ عبدُكَ فيها الغريقَ ... فجُودُكَ مِنْ قبلِها أغرقَهْ[5]

فقال له المنصور: للّه درُّك يا أبا مروان! قِسْناك بأهل بغداد[6] ففضلتهم، فبمن نقيسك بعد؟ انتهى.

---

(١) في طبعة دار صادر: «حكي». والحكاية في الذخيرة (ص ٣٥) والمغرب (جـ ١ ص ٣٢٢) وينقل المقري بتصرف.

(٢) في الذخيرة: «غريبة ضَرْطُ.. ثم زَلْقَةُ صاعدٍ».

(٣) الأبيات في الذخيرة (ص ٣٦).

(٤) في الذخيرة: «حتى هَوَيْتُ».

(٥) في المصدر نفسه: «من قبل ذا أَغْرَقَهْ».

(٦) في المصدر نفسه: «بأهل العراق».

وقال في الذخيرة في ترجمة صاعد[1]: وفد على المنصور نجمًا من المشرق غرّب، ولسانًا عن العرب أغرب[2]، وأراد المنصور أن يُعفّي[3] به آثار أبي علي القالي فألفى سَيفه كَهَاما[4]، وسحابه جَهَاما، من رجل يتكلّم بملء فيه، ولا يوثق بكلّ ما يذره ولا ما يأتيه، انتهى باختصار.

وأصل صاعد من ديار الموصل، وقال ارتجالاً وقد عبث المنصور بترنجان[5]: [البسيط]

لم أَدرِ قَبْلَ تُرُنْجَانٍ عَبِثْتَ به ... أنّ الزُمُرّدَ أغصانٌ وأوراقُ[6]

مِنْ طِيبِهِ سَرَقَ الأترجُّ نَكْهَتَه ... يا قومُ حتى من الأشجار سُرّاقُ

كأنما الحاجبُ[7] المنصورُ علّمه ... فِعْلَ الجميلِ فطابتْ منه أخلاق

وقدّمه الحجاري بقوله[8]: [البسيط]

كأنَّ إبريقَنا والراحُ في فمه ... طَيرٌ تناولَ ياقُوتًا بمنقارِ

وقبله: [البسيط]

وقهوةٍ من فمِ الإبريقِ صافيةٍ ... كدَمْعِ مفجوعةٍ بالإلف مِغْبَارِ

وقال في بدائع البدائه[9]: دخل صاعد اللغوي على بعض أصحابه في مجلس شراب، فملأ الساقي قدحًا من إبريق، فبقيت على فم الإبريق نقطة من الراح قد تكوّنت ولم تقطر، فاقترح عليه الحاضرون وصف ذلك فقال: [البسيط]

وقهوةٍ من فمِ الإبريقِ ساكبةٍ

البيتين.

(1) النص في الذخيرة (ص ٨ - ٩) وبدائع البدائه (جـ ٢ ص ٣١).
(2) في الذخيرة: «أغرب».
(3) في طبعة عبد الحميد: «يقفي».
(4) السَّيْفُ الكَهَامُ: غير القاطع. لسان العرب (كهم).
(5) الأبيات في الذخيرة (ص ٢١) والبيان المغرب (جـ ٣ ص ١٩).
(6) في الذخيرة: «قضبان وأوراق». وفي البيان المغرب: «علمت به أنّ الزمرّد قضبان وأوراق».
(7) في البيان المغرب: «الحاجب الميمون».
(8) هذا البيت والبيت الذي يليه في الذخيرة (ص ٢٥).
(9) بدائع البدائه (جـ ٢ ص ٣٢).

ثم قال بعدهما: وإنما هدم[1] صاعد قول الشريف أبي البركات علي بن الحسين العلوي[2]: [السريع]

كأنَّ ريحَ الروضِ لَمَّا أتتْ ... فَتَّتْ علينا مِسْكَ عَطّارِ
كأنما إبريقُنا طائرٌ ... يَحْمِلُ ياقوتًا بمنقارِ

انتهى.

ومن نظم صاعد: [المنسرح]

قلتُ له والرقيبُ يُعْجِلُهُ ... مودِّعًا للفراق: أين أنا
فَمَدَّ كَفًّا إلى ترائبه ... وقال: سِرْ وادعًا فأنتَ هنا

وقال صاعد، لَمَّا أمر المنصور بن أبي عامر بمعارضة قصيدة لأبي نواس: [مجزوء الكامل]

إنِّي لأستحيي عُلا ... كَ من ارتجال القول فيهِ
مَنْ ليس يُدْرَكُ بالروِيـ ... ـيَةِ كيف يُدْرَكُ بالبَدِيهِ

وقال حاشد البغدادي في صاعد اللغوي، وكان صاعد ينشدهما ويبكي ويقول: ما هُجِيتُ بشيء أشدّ عليَّ منهما: [الكامل]

اِقْبَلْ هُدِيتَ أبا العلاء نصيحتي ... بقبولها وبواجب الشكرِ
لا تَهْجُوَنَّ أَسَنَّ منك فربما ... تهجو أباكَ وأنتَ لا تدري

نعوذ بالله من لسان الشعراء، وأنواع البلاء، بجاه نبيّنا محمد ﷺ.

ومن نظم صاعد قوله[3]: [الوافر]

بَعَثْتُ إليكَ مِنْ خِيريِّ روضٍ ... مخرّمة كأوراق العقيقِ[4]
تُوَكَّلُ بالغروب[5] عن التصابي ... وتصطادُ الخليعَ من الطريقِ

---

(١) في طبعة دار صادر: «اهتدم».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «اللغوي». والبيتان في يتيمة الدهر (جـ ٤ ص ٤٢٠). والبيت الثاني في الذخيرة (ص ٢٥).
(٣) البيتان في الذخيرة (ص ٢١).
(٤) في طبعة دار صادر: «محرمة» بدل «مخرّمة». وفي الذخيرة: «من خيريّ داري محزّمة».
(٥) في الذخيرة: «بالعزوف».

وروى صاعد عن القاضي أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، وأبي علي الحسن ابن أحمد الفارسي، وأبي بكر بن مالك القطيعي، وأبي سليمان الخطابي، وغيرهم.

قال الحميدي[1]: خرج من الأندلس في الفتنة [وقصد صقلية][2]، فمات بها قريبًا من سنة عشر وأربعمائة.

وقال ابن حزم[3]: توفي بصقلية سنة سبع عشرة وأربعمائة.

وقال ابن بشكوال في حقه[4]: «إنه يُتّهم بالكذب وقلّة الصدق فيما يورده، عفا الله تعالى عنه»! وقدم الأندلس من مصر أيام المؤيد وتحكم المنصور بن أبي عامر في حدود سنة ٣٨٠، فأكرمه المنصور، وزاد في الإحسان إليه، والإفضال عليه، وكان عالمًا باللغة والآداب والأخبار، سريع الجواب، حسن الشعر، طيّب المعاشرة، فَكِهَ المجالسة.

وقال بعضهم[5]: دخل صاعد على المنصور وعنده كتاب ورد عليه من عامل له في بعض الجهات اسمه مَيدُمان[6] بن يزيد يذكر فيه القلب والتزْبيل[7]، وهما عندهم اسم[8] الأرض قبل زراعتها، فقال له: يا أبا العلاء، قال: لبيك يا مولانا، فقال: هل رأيت أو وصل إليك من الكتب القوالبة والروالبة لميدمان[6] بن يزيد؟، قال: إي والله ببغداد في نسخة لأبي بكر بن دريد بخطّه[9] ككراع النمل، في جوانبها [علامات الوضّاع][10]، فقال له: أما تستحيي أبا العلاءِ من هذا الكذب؟ هذا كتاب عاملي ببلد كذا واسمه كذا يذكر فيه كذا، فجعل يحلف له أنه ما كذب، ولكنه أمْرٌ وافق. ومات عن سِنٍّ عالية، رحمه الله تعالى!.

---

(١) جذوة المقتبس (ص ٢٤٤). وانظر أيضًا بغية الملتمس (ص ٣٢٣).

(٢) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد.

(٣) ورد هذا في الصلة (ص ٣٧٢).

(٤) ما بين شولتين في الصلة (ص ٣٧٢).

(٥) النص في جذوة المقتبس (ص ٢٤١ ـ ٢٤٢) وبغية الملتمس (ص ٣٢١).

(٦) في طبعة دار صادر: «مبرمان». وفي بغية الملتمس: «مبربان بن بُرَيْد».

(٧) في طبعة دار صادر: «والتنزيل».

(٨) في جذوة المقتبس: «وهما عندهم من معاناة الأرض..».

(٩) في طبعة دار صادر: «بخطّ».

(١٠) ما بين قوسين زيادة من جذوة المقتبس وبغية الملتمس.

٦٠ ـ ومن الوافدين على الأندلس من المشرق الشيخ تاج الدين بن حمويه السرخسي[١].

ولد سنة ٥٧٢[٢]، وقد ذكر في رحلته عجائب شاهدها بالمغرب ومشايخ لقيهم، فمنهم الحافظ أبو محمد عبد اللّه بن سليمان بن داود بن حَوط اللّه الأنصاري، قال: سمعت عليه سنة سبع وتسعين وخمسمائة الحديثَ وشيئًا من تصانيف المغاربة، وروى لنا عن الحافظ أبي إسحٰق إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم بن قرقول، وولي ابن حَوط اللّه المذكور قضاء غرناطة، وأدرك ابن بشكوال وابن حبيش وابن حميد المرسي النحوي وأبا زيد[٣] السهيلي صاحب الروض وغيرهم. ومن الشيوخ الذين لقيهم السرخسي المذكور بالمغرب الفقيه ابن أبي تميم قال: وأنشدني[٤]: [مجزوء الكامل]

اِسْمَعْ أُخَيَّ نَصِيحَتِي ... والنُّصْحُ من مَحْضِ الديانَهْ
لا تَقْرَبَنَّ إلى الشَّها ... دةِ والوساطةِ والأمانَهْ
تَسْلَمْ مِنَ اَنْ تُعْزَى لزو ... رٍ أو فُضُولٍ أو خيانَهْ

وذكر أنه أدرك الشيخ الولي العارف باللّه سيدي أبا العباس أحمد بن جعفر الخزرجي السبتي، صاحب الحالات والكرامات الظاهرة والطريقة الغريبة والأحوال العجيبة، قال: أدركْتُه بمراكش سنة أربع وتسعين وخمسمائة وقد ناهز الثمانين، ومهما حصل عنده مالٌ فَرَّقَه في الحال، وتركْتُه في سنة ثمانٍ وتسعين حيًّا يُرْزَق، انتهى.

ووليُّ اللّه السبتي قد ذكرت في غير هذا الموضع بعض أحواله، فلتراجع في الباب الثامن من ترجمة لسان الدين بن الخطيب، ومحلُّه مقصودٌ لقضاء الحاجات، وقد زرْتُه مرارًا عديدة سنة ١٠١٠.

وقال لسان الدين في «نُفَاضة الجراب»: كتبت عن السلطان الغني باللّه محمد بن يوسف بن نصر، ونحن بفاس، يخاطب الضريح المقصود، والمنهل المورود، والمرعى المنتَجَع، والخِوان الذي يكفي الغَرْثَى[٥]، ويمرّض المرضى، ويَقُوت الزَّمْنَى[٦] ويتعدّاهم

---

(١) هو أبو أحمد عبد اللّه بن عمر بن محمد بن حمويه؛ شيخ الشيوخ، عارف بالترسّل والتاريخ والهندسة والطب. توفي سنة ٦٤٢ هـ. شذرات الذهب (جـ ٥ ص ٢١٤) ومرآة الزمان (ص ٧٤٨).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «٥٧٣». (٣) في طبعة عبد الحميد: «يزيد».

(٤) سترد هذه الأبيات في هذا الجزء (ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥).

(٥) الخِوان، بكسر الخاء: الذي يؤكل عليه، أي المائدة. والغَرْثَى: جمع غَرْثان وهو الجوعان. مختار الصحاح (خون) و (غرث).

(٦) الزَّمْنَى: جمع زَمِن وهو المصاب بمرض مزمن. لسان العرب (زمن).

إلى أهل الجِدَة زعموا والغنى، قبر ولي الله سيدي أبي العباس السبتي نفعنا الله به، وجبر حالنا، وأعاد علينا النعم، ودفع عنّا النقم: [الخفيف]

يـا ولـيَّ الإلـه أنـتَ جَـوَادٌ   وقَـصَـدْنَـا إلـى حِـمـاك الـمـنـيـعِ
رَاعَنَا الدهرُ بالخطوبِ فجئنا   نرتجي مِنْ عُلاك حُسْنَ الصَّنِيعِ
فـمـدَدْنَـا لـك الأكُـفَّ نـرجِّـي   عَودةَ العِزِّ تحت شَمْلٍ جميعِ
قد جَعَلْنَا وسيلةً تُرْبَكَ الزا   كي وزُلْفَى[1] إلى العليمِ السميعِ
كم غريبٍ أَسْرَى[2] إليك فوافى   بِـرِضَـا عـاجـلٍ وخَـيْـرٍ سـريـعِ

يا وليَّ الله الذي جعل جاهه سببًا لقضاء الحاجات، ورفع الأزمات، وتصريفه باقيًا بعد الممات، وصَدَّقَ نقولَ الحكايات ظهورُ الآيات[3]، نفعني الله بنيّتي في بركة تربك! وأظهر عليَّ أثر توسّلي بك إلى الله ربّك! مُزِّقَ شملي، وفُرق بيني وبين أهلي، وتُعدّي عليّ، وصُرِفت وجوه المكايد إليَّ، حتى أُخرجت من وطني وبلدي، ومالي وولدي، ومحلّ جهادي، وحَقِّي الذي صار لي طوعًا عن آبائي وأجدادي، عن بيعة لم يَحُلَّ عقدتَهَا الدينُ، ولا ثبوتُ جَرْحة تَشِينُ، وأنا قد قرعت بابَ الله سبحانه بتأميلك، فالتمسْ لي قبوله بقبولك، ورُدَّني إلى وطني على أفضل حال، وأظهر عليَّ كرامَتَكَ التي تُشَدُّ إليها ظهور الرِّحال، فقد جعلْتُ وسيلتي إليك رسول الحقّ، إلى جميع الخلق، والسلام عليك أيها الوليُّ الكريم، الذي يأمن به الخائف وينتصف الغريم، ورحمة الله، انتهى.

رجع - والسرخسي المذكور قال في حقّه بعض الأئمّة: إنه الشيخ الإمام، شيخ الشيوخ، تاج الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن علي بن محمد بن حمويه، له رحلة مغربية، انتهى.

وهو من بيت كبير، وقال البدري في[4] حقّه ما صورته: تاج الدين، شيخ الشيوخ بدمشق، أحد الفضلاء المؤرّخين المصنّفين، له كتاب في ثماني[5] مجلّدات ذكر فيه أصول

---

(١) الزُّلْفَى: القُرْبة والمنزلة. مختار الصحاح (زلف).
(٢) أَسْرَى: سار ليلاً. مختار الصحاح (سرا).
(٣) الآيات: هنا بمعنى الكرامات. لسان العرب (أوى).
(٤) في طبعة دار صادر: «وقال البدري في تاريخه في حقّه..».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «ثمان».

الأشياء، وله «السياسة الملوكية» صنّفها للملك الكامل محمد، وغير ذلك، وسمع الحديث، وحفظ القرآن، وكان قد بلغ الثمانين، وقيل: لم يبلغها، وقد سافر إلى بلاد المغرب سنة ثلاث وتسعين، واتّصل بمراكش، عند ملكها المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، فأقام هنالك إلى سنة ستمائة، وقدم مصر، وولي مشيخة الشيوخ بعد أخيه صدر الدين ابن حمويه، انتهى.

وقال غيره: إنه كان فاضلاً متواضعًا نزهًا حسن الاعتقاد، قال أبو المظفر: كان يحضر مجالسي، وأنشدني يومًا: [البسيط]

لم أَلْقَ مستكبرًا إلاّ تَحَوَّل لي ... عند اللقاء له الكبرُ الذي فيهِ
ولا حَلاَ لي من الدنيا ولَذَّتها ... إلاّ مقابلتي للتِّيه بالتِّيه

وقال السرخسي المذكور في رحلته: إني وإن كنت خراساني الطينة، لكنّي شامي المدينة، وإن كانت العمومة من المشرق، فإن الخؤولة من المغرب، فَحَدَث باعث يدعو إلى الحركات والأسفار، ومشاهدة الغرائب في النواحي والأقطار، وذلك في حال رَيْعَان الشباب الذي تَعْضده عزائم النفوس بنَشاطها، والجوارح بخفّة حركاتها وانبساطها، فخرجْتُ سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة إلى زيارة البيت المقدس وتجديد العهد ببركاته، واغتنام الأجر في حلول بقاعه ومَزَاراته، ثم سرْتُ منه إلى الديار المصرية، وهي آهلة بكلّ ما تتجمّل به البلاد وتزدهي، وينتهي وصف الواصف لشؤونها ولا تنتهي، ثم دخلْتُ الغربَ من الإسكندرية في البحر ودخلْتُ مدينة مراكش أيام السيد الإمام أمير المؤمنين أبي يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، فاتّصلْتُ بخدمته، والذي عَلِمْتُ من حاله أنه كان يُجيد حفظ القرآن، ويحفظ متون الأحاديث ويُتْقِنها، ويتكلّم في الفقه كلامًا بليغًا، وكان فقهاء الوقت يرجعون إليه في الفتاوى، وله فتاوى مجموعة حسبما أدّى إليه اجتهادُه، وكان الفقهاء ينسبونه إلى مذهب الظاهر، وقد شرحْتُ أحوال سيرته، وما جرى في أيام دولته، في كتاب التاريخ المسمّى «عطف الذيل». وقد صنّف كتابًا جمع فيه متون أحاديث صحاح تتعلّق بها العبادات سمّاه «الترغيب». وتهدّده ملك الإفرنج ألْفُنْشُ في كتابه فمزّقه، وقال لرسوله ﴿ارْجِعْ إليهمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بجنودٍ لا قِبَلَ لهمْ بها ولَنُخْرِجَنَّهُمْ منها أَذِلَّةً وهُمْ صاغرونَ﴾[1] إن شاء الله تعالى، ثم قال للكاتب: اكْتُبْ على هذه القطعة، يعني من

(١) سورة النمل ٢٧، الآية: ٣٧.

كتابه الذي مزّقه: الجواب ما ترى لا ما تسمع[1]: [الطويل]

فلا كُتْبَ إلاَّ المَشْرَفِيَّةُ والقَنَا ... ولا رُسْلُ إلاَّ الخَمِيسُ العَرَمْرَمُ

ومن شعره أبيات كتب بها إلى العرب، وهي: [البسيط]

يا أيها الراكب المُزْجِي مَطِيَّتَهُ ... على عُذَافرةٍ تَشقَى بها الأكَمُ[2]
بَلِّغْ سُلَيمَى على بُعْد الديار بها ... بَيني وبَينَكُمُ الرحمنُ والرَّحِمُ
يا قومنا لا تَشُبُّوا الحربَ إنْ خمدتْ ... واستمسكوا بعُرَى الإيمان واعتصموا
كم جَرَّبَ الحربَ مَنْ قد كان قبلكُمُ ... من القرونِ فبادتْ دونها الأمَمُ
حاشى الأعاربَ أن ترضى بمنقصةٍ ... يا ليتَ شعريَ هل تَرَآهُمْ علموا
يقودهمْ أرمنيٌّ لا خَلاقَ له ... كأنه بينهمْ مِنْ جهلهمْ عَلَمُ

يعني بالأرمني قرقوش[3] مملوك بني أيوب، الذي كان ذهب إلى بلاد الغرب الأدنى، وأوقد النار الحربية من طرابلس إلى تونس مع ابن غانية اللَّمْتُوني، وحديثه مشهور[4]، وتمام الأبيات:

اللَّهُ يعلمُ أني ما دعوتكُمُ ... دُعاءَ ذي قوةٍ يومًا فينتقمُ
ولا لحاجةٍ لأمرٍ يُستعانُ به ... من الأمور وهذا الخلقُ قد علموا
لكن لأجزي رسولَ اللَّه عن نَسَبٍ ... يُنْمَى إليه وتُرْعَى تلكُمُ الذِّمَمُ
فإن أتيتمْ فَحَبْلُ الوَصْلِ متصلٌ ... وإنْ أبيتمْ فعند السيفِ نحتكمُ

ثم قال السرخسي: ويبلغني أنّ قومًا من الغرباء قصدوه، ومعهم حيوانات مُعَلَّمة منها أسد وغراب، أما الأسد فيقصده من دون أهل المجلس، ويربض[5] بين يديه، وربما أَوْمأ

---

(١) هذا الجواب في الحلل الموشية (ص ٢٧) وأحكام صنعة الكلام (ص ١٦٤)، وقد نسب فيهما إلى يوسف بن تاشفين المرابطي. والبيت للمتنبي وهو في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٣٠٩) ورواية صدره فيه هي:

ولا كُتْبَ إلاَّ المَشْرَفِيَّةُ عِنْدَهُ

(٢) المُزجي مَطِيَّتَهُ: الذي يسوقها. العُذافرة: الناقة الشديدة القوية. الأكَمُ: جمع أَكَمَة وهي التلّ. لسان العرب (زجا) و (عذفر) و (أكم).

(٣) في طبعة دار صادر: «قراقوش».

(٤) أخبار قرقوش وعلي بن إسحٰق المعروف بابن غانية في الكامل في التاريخ (جـ ١١ ص ٥٠٧، ٥٢٠) وتاريخ ابن خلدون (م ٦ ص ٤٥).

(٥) يربض: يجثم. لسان العرب (ربض).

بالسجود ومدَّ ذراعيه، وأمّا الغراب فكان يقول: النصر والتمكين لسيدنا أمير المؤمنين، وفي ذلك يقول بعضُ الشعراء: [الرمل]

أنِسَ الشبلُ ابتهاجًا بالأسدْ ورأى شِبْهَ أبيهِ فقَصَدْ
أنطق الخالِقُ مخلوقاتِهِ شهدوا والكلُّ بالحقّ شهدْ
أنّكَ الخِيرَةُ مِنْ صفوته بعد ما طال على الناس الأَمَدْ

فأعطاهم وكساهم، وأحسن حباهم.

وبلغني أنَّ قومًا أتوه بفيل من بلاد السودان هديّة، فأمر لهم بصلة، ولم يقبله منهم، وقال: نحن لا نريد أن نكون أصحاب الفيل[1].

وقال لي يومًا: كيف ترى هذه البلاد؟ وأين هي من بلادك الشامية؟ فقلت: يا سيدنا، بلادكم حسنة أنيقة مجملة مكملة، وفيها عيب واحد، فقال: ما هو؟ فقلت: إنها تُنْسي الأوطان، فتبسّم وظهر لي إعجابه بالجواب، وأمر لي من غد بزيادة رتبة وإحسان.

وحدّثني بعض عمّالهم أنه فرّق على الجُنْد والأمراء والفقراء في عيد سنة أربع وتسعين ثلاثة وسبعين ألف شاة من ضأن ومعز.

ودَرَج[2] إلى رحمة اللّه تعالى سنة خمس وتسعين وخمسمائة، وكان قد استخلف ولده محمدًا وقرّر الأمر له، انتهى.

قلت: بهذا وأمثاله تعلم فساد ما زعمه غير واحد أنَّ يعقوب المنصور هذا تخلّى عن الملك، وفرّ زاهدًا فيه إلى المشرق، وأنه دفن بالبقاع؛ لأن هذه مقالة عاميّة لا يثبتها علماء المغرب، وسبب هذه المقالة تولّع العامّة به، فكذبوا في موته، وقالوا: إنه ترك الملك، وحكوا ما شاع إلى الآن وذاع مِمّا ليس له أصل. ويرحم اللّه تعالى الإمام العلامة القاضي الشريف الغَرْنَاطي شارح الخزرجية، إذ قال في شرح مقصورة حازم عند ذكره وقعة الأرك ما معناه[3]: إن بعض الناس يزعمون أنَّ المنصور ترك الملك وذهب إلى المشرق، وهذا

---

(١) أي لا يريد أن يكون ممن تنطبق عليه الآية الكريمة: ﴿ألم يجعلْ كَيْدَهُمْ في تضليلٍ وأَرْسَلَ عليهمْ طيرًا أبابيلَ ترميهمْ بحجارةٍ من سِجِّيلٍ فجعلهمْ كَعَصْفٍ مأكول﴾. سورة الفيل ١٠٥، الآيات ٢، ٣، ٤، ٥.

(٢) دَرَجَ: مات. مختار الصحاح (درج).

(٣) نصُّ الشريف الغرناطي في كتابه: رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة (جـ ٢ ص ١٥٥).

كلام لا يَصِحّ، ولا أصل له. انتهى. وقال في «المغرب»: كان أبوه يوسف قد استوزره في حياته، وتخرّج[1] بين يديه، وتمرّس، وهزم الفرنج الهزيمة الفظيعة، وتولّع بالعلم حتى نفى التقليد وحرق كتب المذاهب، وقَتَلَ على السكر، انتهى.

وحكى لسان الدين الوزير ابن الخطيب في شرح كتابه «رقم الحُلَل، في نظم الدوَل» أنَّ المنصور طلب من بعض أعيان دولته رجلين لتأديب ولده يكون أحدهما بَرًّا في عمله[2]، والآخر بحرًا في علمه، فجاءه بشخصين زعم أنهما على وَفْقِ مقترح المنصور، فلمَّا اختبرهما لم يجدهما كما وصف، فكتب إلى الآتي بهما ﴿ظَهَرَ الفَسادُ في البَرِّ والبَحْرِ﴾[3] انتهى. وناهيك بهذا دلالَةً على قوّة فطنته ومعرفته، رحمه الله تعالى.

رجع إلى أخبار السرخسي:

وقال في رحلته لَمَّا ذكر السيد أبا الربيع سليمان بن عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي[4]، وكان في تلك المدة يلي مدينة سجلماسة وأعمالها؛ اجتمعْتُ به حين قدم إلى مراكش بعد وفاة المنصور يعقوب لمبايعة ولده محمد، فرأيتُه شيخًا بهيَّ المنظر، حسن المخبر، فصيح العبارة باللغتين العربية والبربرية. ومن كلامه في جواب رسالة إلى ملك السودان بغانة[5] ينكر عليه تعويق التجار قوله: نحن نتجاور بالإحسان، وإن تخالفْنا في الأديان، ونتّفق على السيرة المرضية، ونتألّف على الرفق بالرعية[6]، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة، والجور لا تعانيه إلاّ النفوس الشريرة الجاهلة، وقد بلغنا احتباسُ مساكين التجار ومنعهم من التصرّف فيما هم بصدده، وتردّد الجلاَّبة إلى البلد مفيد لسكانها، ومعين على التمكّن من استيطانها، ولو شئْنا لاحتبسْنا مَنْ في جهاتنا من أهل تلك الناحية، لكنّا لا نتصوب فعله، ولا ينبغي لنا أن ننهى عن خلق ونأتي مثله، والسلام.

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «وخرج».

(٢) أي أن يكون ثابتًا في عمله ثبوت البَرّ.

(٣) سورة الروم ٣٠، الآية: ٤١.

(٤) أبو الربيع الموحدي من مفاخر بني عبد المؤمن؛ ولي بجاية، وكان قديرًا على النظم، حافظًا للآداب، وله ديوان شعر. توفي سنة ٦٠٤ هـ. الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة (ص ١٣١ - ١٣٤).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «الغانة».

(٦) في الطبعة نفسها: «على الرعيّة».

ووَقّع إلى عامل له كثرت الشكاوى منه: قد كثرت فيك الأقوال، وإغضائي عنك رجاء أن تتيقّظ فتتصلح الحال، وفي مُبادرتي إلى ظهور الإنكار عليك نسبة إلى شرّ الاختيار وعدم الاختبار، فاحذرْ فإنك على شَفَا جُرُفٍ هار.

ومن شعره المشهور قصيدة يمدح فيها ابن عمه المنصور يعقوب[1]: [الكامل]

هَبَّتْ بنصركُمُ الرياحُ الأربعُ ... وجَرَتْ بسعدكُمُ النجومُ الطُّلَّعُ
واسْتَبْشَرَ الفَلَكُ الأثيرُ تيقّنًا ... أنَّ الأمورَ إلى مرادك ترجعُ
وأمدَّكَ الرحمنُ بالفتح الذي ... ملأ البسيطةَ نورُهُ المتشعشع
لم لا وأنت بَذَلْتَ في مَرْضاته ... نفساً تُفَدِّيها الخَلائقُ أجمع
ومَضَيتَ في نصر الإله مُصَمِّمًا ... بعزيمةٍ كالسيف بل هي أقطَعُ
للّه جيشك والصوارم تُنْتَضَى ... والخيلُ تجري والأسنّةُ تَلْمَعُ
مِنْ كلِّ مَنْ تقوى الإله سِلاَحُه ... ما إن له غيرُ التوكّلِ مَفْزَعُ
لا يُسْلِمُونَ إلى النوازل جارَهُمْ ... يومًا إذا أضحى الجوارُ يُضَيَّعُ

ومنها يصف انهزام العدوّ:

إنْ ظنّ أنَّ فراره مُنْجٍ له ... فبجهله قد ظنَّ ما لا ينفع
أين المفرُّ ولا فرارَ لهاربٍ ... والأرض تُنْشَرُ في يديك وتجمعُ
أخليفةَ اللّه الرضا هُنِّيتَهُ ... فتحٌ يُمَدُّ بما[2] سواه ويُشْفَعُ
فلقد كَسَوتَ الدِّين عِزًّا شامخًا ... ولبسْتَ منه أنتَ ما لا يُخْلَعُ
هيهاتَ سِرُّ اللّه أُودِعَ فيكُمُ ... واللّهُ يُعْطي مَنْ يشاء ويَمْنَعُ
لكُمُ الهدى لا يَدَّعيه سواكُمُ ... ومَنِ ادّعاه يقول ما لا يُسْمَعُ
إنْ قيل مَنْ خيرُ الخلائقِ كلِّها ... فإليك يا يعقوبُ تومي[3] الإصبع
إن كنتَ تتلو السابقينَ فإنما ... أنت المُقَدَّمُ والخلائقُ تُبَّعُ[4]
خُذْها، أمير المؤمنين، مَدِيحَةً ... من قلبِ صدقٍ لم يَشِنْهُ تَصَنُّعُ

(١) الأبيات في ديوان أبي الربيع الموحدي (ص ٢٠).
(٢) في الديوان: «يمدّ بمثله».
(٣) تومي: أصلها: «تومىء» بالهمز.
(٤) تُبَّع: جمع تابع. لسان العرب (تبع).

واسْلَمْ، أميرَ المؤمنين، لأُمَّةٍ أنتَ المَلاذُ لها وأنت المفزع
فالمدحُ مني في عُلاك طبيعةٌ والمدحُ من غيري إليك تَطَبُّعُ
وعليك يا عَلَمَ الهداةِ تحيّةٌ يفنى الزمانُ وعَرْفُهَا يَتَضَوَّعُ

قال لي الفقيه أبو عبد الله محمد القسطلاني: دخلت إلى السيد أبي الربيع بقصر سجلماسة، وبين يديه أنطاع عليها رؤوس الخوارج الذين قطعوا الطريق على السفار بين سجلماسة وغانة، وهو ينكت الأرض بقضيب من الأبنوس، ويقول: [الطويل]

ولا غَرْوَ أنْ كانت رؤوس عداتِهِ جوابًا إذا كان السيوفَ رسائِلُهْ

ومات بعد الستمائة، رحمه الله تعالى! انتهى.

وقال لَمَّا هجره أمير المؤمنين يعقوب المنصور، ووافق ذلك أن وَفَدَ على حضرة الخلافة مراكش جمعٌ من العرب والغُزّ[1] من بلاد المشرق، ونزلوا بتمرتاسقت ظاهر مراكش، واستأذنوا في وقت الدخول، فكتب إلى المنصور[2]: [الكامل]

يا كَعْبَةَ الجُودِ التي حَجَّتْ لها عَرَبُ الشآم وغُزُّها والدَّيْلَمُ
طُوبَى لمن أمسى يطوفُ بها غدًا ويحلُّ بالبيتِ الحرامِ ويُحْرِمُ[3]
ومن العجائبِ أنْ يفوزَ بنظرةٍ مَنْ بالشآم ومَنْ بمكةَ يُحْرِمُ

فعفا عنه، وأحسن إليه، وأمره بالدخول بهم، والتقدّم عليهم.

وقال في «المغرب» في حقّ السيد أبي الربيع المذكور، ما ملخصه[4]: لم يكن في بني عبد المؤمن مثله في هذا الشأن الذي نحن بصدده، وكان تقدّم على مملكتي سجلماسة وبجاية، وكان كاتبًا شاعرًا أديبًا ماهرًا، وشعره مدوّن، وله ألغاز، وهو القائل في جارية اسمها ألوف[5]: [الطويل]

---

(١) الغُزّ، بضم الغين وتشديد الزاي: فريق من الجيش، معظم عناصره من الأتراك، كان يلتفّ حول شرف الدين قراقوش، وقد وردوا المغرب حوالى سنة ٥٨٢ هـ أو التي بعدها، فأكرمهم الخليفة المنصور الموحدي وجعل لهم جامكية شهرية لا تختلّ. المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص ٣٦٥ - ٣٦٧).
(٢) الأبيات في ديوان أبي الربيع الموحدي (ص ١٤٤) والغصون اليانعة (ص ١٣٢).
(٣) في الغصون اليانعة: «يلوذ بها غدًا ويطوف بالبيت العتيق..».
(٤) هذا النص غير وارد في المغرب المطبوع.
(٥) البيتان في الديوان (ص ١١٧) والغصون اليانعة (ص ١٣٤).

خليلَّي، قولا أين قلبي ومَنْ به   وكيف بَقاءُ المرءِ مِنْ بَعْدِ قَلْبِهِ
ولو شِئْتُما إسمَ الذي قد هَوِيتُهُ   لَصَحَّفْتُما أمري لكمْ بَعْدَ قلبِهِ[1]

وله الأبيات المشهورة التي منها[2]: [الطويل]

أقول لركبٍ أدْلَجُوا بسُحَيرَةٍ   قِفُوا ساعةً حتى أزورَ رِكابَهَا
وأملأ عيني مِنْ محاسنِ وجهها   وأشكو إليها أَنْ أطالتْ عِتابها
فإن هي جادت بالوصال وأنعمتْ   وإلاَّ فحسبي أَنْ رأيتُ قِبَابَهَا

وقال يخاطب ابن عمّه يعقوب المنصور[3]: [الكامل]

فلأملأنَّ الخافقين بذكرِكُمْ   ما دمت حَيًّا ناظمًا ومُرَسِّلاَ
ولأبذلَنْ نصحي لكمْ جَهْدِي وذا   جَهْدُ المُقِلِّ وما عسى أن أفعلا
ولأَخْلِصَنَّ لك الدعاء، وما أنا   أهلٌ له، ولعلّه أن يُقْبَلاَ

وله مختصر كتاب «الأغاني» انتهى.

رجع - وذكر السرخسي أيضًا في رحلته السيّد أبا الحسن علي بن عمر ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن، وقال في حقّه: إنه كان من أهل الأدب والطرب، ولي بجاية مدّة، ثم عُزل عنها لإهماله وإغفاله وانهماكه في ملاذّه، أنشدني محمد بن سعيد المهدوي[4] كاتبه قال: كتب الأمير أبو الحسن إلى أمير المؤمنين يعقوب يمدحه ويستزيده، ويطلب منه ما يقضي به ديونه: [المتقارب]

وجُوهُ الأماني بكمْ مُسْفِرَهْ   وضاحكةٌ ليَ مُسْتَبْشِرَهْ
ولي أملٌ فيكُمُ صادقٌ   قريبٌ عسى الله أن يوسِرَهْ[5]
عليَّ ديونٌ وتصحيفها   وعندكُمُ الجُودُ والمغفرَهْ

يعني ذنوب.

---

(١) أمري: أي فعل الأمر «قولا» في البيت الأول، وقلبه هو: «ألوق»، وتصحيفه هو «ألوف» وهو اسم من يُحبُّها. ورواية البيت في الغصون اليانعة هي:
فإن شِئْتما إظهارَ سِرّ كَتَمْتُهُ   فقد بان في أمري لكم بعد قَلْبِهِ
(٢) الأبيات في الديوان (ص ٤٩) والغصون اليانعة (ص ١٣٤).
(٣) الديوان (ص ٣٩).
(٤) في طبعة عبد الحميد: «المهدي».
(٥) في طبعة دار صادر: «عسى الله قد يَسَّرَهُ».

وحدّثني الشيخ أبو الحسن بن فشتال الكاتب وقد أنشدته: [الكامل]

أَوحَشْتَني ولو اطّلَعْتَ على الذي لك في ضميري لم تكنْ لي موحشا

فقال: أنشدته هذا البيت في مجلس السيد أبي الحسن، فقال لي ولمن حضر: هل تعرفون لهذا البيت ثانيًا؟ فما فينا من عرفه، فأنشدنا: [الكامل]

أترى رُشِيتَ على اطِّراح مودّتي ولقد عَهِدْتُك ليس تثنِيكَ الرُّشَا[1]

أوحشتني - البيت، انتهى.

وقال في «المغرب» في حقّ السيّد المذكور، ما ملخَّصُه: كان هذا السيد أبو الحسن قد ولي مملكة تلمسان وبجاية، وله حكايات في الجود برمكية[2]، ونفس عالية زكية، كتب إليه السيد أبو الربيع يوم جمعة[3]: [مجزوء الرجز]

اليومُ يومُ الجمعةْ يومُ سرورٍ وَدَعَةْ
وشَمْلُنَا مفترقٌ فهل ترى أنْ نَجْمَعَهْ

فأجابه بقوله: [مجزوء الرجز]

اليومُ يومُ الجمعةْ وربُّنا قد رَفَعَهْ
والشربُ فيه بدعةٌ فهل ترى أن نَدَعَهْ

قال: ولفظة «السيد» في المَغْرِب بذلك العصر لا تطلق إلاّ على بني عبد المؤمن بن علي، انتهى.

رجع - قال السرخسي، وقد ذكر في الرحلة المذكورة السيد أبا محمد عبد اللّه صاحب فاس: وله من أبيات في الفخر وقد انتحلها غيره: [الطويل]

ألستُ ابنَ مَنْ تخشى الليالي انتقامَهُمْ وترجو نَدَاهُمْ غادياتُ السحائبِ
يخطّون بالخَطّيِّ في حَومةِ الوغى سطورَ المنايا في نحور المقانبِ[4]

---

(١) الرُّشَا: جمع رِشْوة، بكسر الراء وضمّها. مختار الصحاح (رشا).

(٢) برمكية: نسبة إلى البرامكة، وقد اشتهروا بالجُوْد والكرم.

(٣) ديوان أبي الربيع الموحدي (ص ١٣٧).

(٤) الخَطّيّ: الرمح المصنوع في الخطّ. المقانب: جمع مقنب وهو الجماعة من الجيش. لسان العرب (خطط) و (قنب).

كـتـابًـا بـأطـراف الـعـوالـي ونِـقْـسُـهُ   دمُ القلبِ مشكولاً بنضح الترائب[1]
ومـا كـنـتُ أدري قـبـلـهـمْ أنَّ معشرًا   أقـامـوا كـتـابًـا مـن نـفـوسِ الـكـتـائـبِ

وأنشدني المقدم الأمير أبو زيد بن بكيت قال: أنشدني بعض السادة من بني عبد المؤمن: [السريع]

فـديـتُ مَـنْ أصـبـحـتُ فـي أسْـرِهِ   ولـيـس لـي مـن حـكـمـه فـادي
إنْ حَـلَّ يـومًـا واديًـا كـان لـي   جـنّـةَ عَـدْنٍ ذلـك الـوادي

ثم ذكر، رحمه الله تعالى، جملة من علماء الأندلس والمغرب لقيهم في هذه الرحلة.

ومن نظم السرخسي المذكور قوله رحمه الله تعالى: [السريع]

يا ساهرَ الـمُـقْـلَـةِ لا عَنْ كَرَى   غَفَلْتَ عن هَجْعِي وأوصابي[2]
لو لم يكنْ وَجْهُكَ لي قِبْلَةً   ما أصبح الـحـاجـبُ مـحـرابـي

وكان متفنّنًا في العلوم، وهو عمُّ الأمراء الوزراء الرؤساء فخر الدين وإخوته، ومن مصنّفاته «المسالك والممالك» و «عطف الذيل» في التاريخ، وله أمالٍ وتخاريج. وقدّمه المنصور صاحب المغرب على جماعة. وتوفي رحمه الله تعالى بدمشق، ودفن في مقابر الصوفية عند المنيبع. وكان عالي الهمة، شريف النفس، قليل الطمع، لا يلتفت إلى أحد رغبة في دُنْيَاه، لا من أهله ولا من غيرهم، وذكره صاحب «المرآة» وغيره، وترجمته واسعة، رحمه الله تعالى!

٦١ ـ ومن الوافدين على الأندلس ظفر البغدادي[3].

سكن قرطبة، وكان من رؤساء الورّاقين المعروفين بالضبط وحسن الخطّ كعباس بن عمر الصقلي ويوسف البلوطي وطبقتهما، واستخدمه الحكم المستنصر بالله في الوِراقة، لما عُلم من شدّة اعتناء الحكم بجمع الكتب واقتنائها. وقد أشار ابن حيان في كتاب

---

(١) العوالي: الرماح، واحدتها عالية. النِّقْس، بكسر النون وسكون القاف: الذي يُكْتَبُ به. الترائب: موضع القلادة من الصدر، واحدتها تريبة. لسان العرب (علا) و (نقس) و (ترب).
(٢) الهَجْعُ: النوم. الأوصاب: جمع وَصَب وهو الوجع. لسان العرب (هجع) و (وصب).
(٣) ترجمة ظفر البغدادي في التكملة (ص ٣٤٦).

«المقتبس[1]» إلى ظفر هذا، رحمه الله تعالى!

٦٢ ـ ومنهم الرازي، وهو محمد بن موسى بن بشير بن جناد بن لقيط، الكناني، الرازي[2].

والدُ أبي بكر [أحمد بن][3] محمد صاحب التاريخ، غلب عليه اسم بلده، وكان يفد من المشرق على ملوك بني مروان تاجرًا، وكان مع ذلك متفننًا[4] في العلوم، وهلك مُنْصَرَفه من الوفادة على الأمير المنذر بن محمد بإلبيرة، في شهر ربيع الآخر سنة ٢٧٣، ذكره ابن حيان في «المقتبس[5]».

٦٣ ـ ومنهم الوزير أبو الفضل محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان، التميمي، الدارمي، البغدادي[6].

سمع من أبي طاهر محمد بن عبد الرحمن المخلِّص[7] وغيره، وخرج من بغداد رسولاً عن أمير المؤمنين القائم بأمر الله العباسي، رضي الله تعالى عنه، إلى صاحب إفريقية المعزّ بن باديس، واجتمع مع أبي العلاء المعري بالمعرّة، وأنشده قصيدة لامية يمدح بها صاحب حلب، فقبّل عينيه، وقال له: لله أنت من ناظم! وخرج من إفريقية من أجل فتنة العرب، وخَيَّم عند المأمون بن ذي النون بطُلَيطلة[8]، وله فيه أمداح كثيرة، ومن فرائد شعره قوله[9]: [المنسرح]

يا ليلُ، ألاَّ[10] انجَليتَ عن فَلَقِ ... طُلْتَ ولا صبَر لي على الأرَقِ

---

(١) لم يرد اسم ظفر البغدادي في المقتبس بتحقيق مكي، الذي يدور حول الحكم المستنصر من سنة ٣٦٠ هـ حتى سنة ٣٦٤ هـ.

(٢) ترجمة محمد بن موسى الرازي في التكملة (ص ٦٧٠).

(٣) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد.

(٤) في طبعة دار صادر: «متقنًا». وفي التكملة: «مفتنًا».

(٥) المقتبس بتحقيق مكي (ص ٢٦٥ ـ ٢٦٨).

(٦) ترجمة أبي الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي في جذوة المقتبس (ص ٧٣) وبغية الملتمس (ص ١٠٨) والذخيرة (ق ٤ ص ٨٧) والوافي بالوفيات (جـ ٤ ص ٦٧).

(٧) وَهِمَ الحميدي فظنَّ أن «المخلص» اسم كتاب، فقال في الجذوة: «سمع من أبي طاهر محمد بن عبد الرحمن المخلص جزأين..».

(٨) كان دخوله طليطلة يوم الجمعة لثلاث بقين لجمادى الأولى سنة أربع وخمسين وأربعمائة. الذخيرة (ص ٨٩ ـ ٩٠).

(٩) الأبيات في الذخيرة (ص ٩٦) وسرور النفس بمدارس الحواس الخمس (ص ٢٩).

(١٠) في المصدرين السابقين: «هلاَّ انجليت..».

جَفَتْ لحاظي التغميضَ فيك فما تُطْبِق أجفانَهَا على الحدق[1]
كأنني[2] صورةٌ مُمَثَّلَةٌ ناظرُهَا الدَّهْرَ غيرُ مُنْطَبِقِ

وقال[3]: [السريع]

يزرعُ[4] وردًا ناضرًا ناظري في وَجْنَةٍ كالقمر الطالعِ
أُمْنَعُ أن أقطفَ أزهارَهُ في سُنَّةِ المتبوعِ والتابعِ
فلِمْ منعتُم شَفَتِي قَطْفَهَا والشرع[5] أنَّ الزرعَ للزارعِ

هكذا نسبها له غير واحد كابن سعيد وابن كتيلة، وبعضهم ينسبها للقاضي عبد الوهّاب.

قلت: وقد أجاب عنها بعض المغاربة بقوله: [السريع]

سَلَّمْتُ أنَّ الحكمَ ما قلتُمْ وهو الذي نُصَّ عن الشارعِ
فكيف تبغي شَفَةٌ قَطْفَهُ وغيرُها المدعوُّ بالزارعِ

ورده شيخ شُيُوخ شيوخنا الإمام الحافظ أبو عبد اللّٰه التَّنَسي ثم التلمساني بقوله: [السريع]

في ذا الذي قد قلتُمُ مَبْحَثٌ إذ فيه إيهامٌ على السامعِ
سلَّمْتُمُ الحكمَ له مطلقًا وغَيرُ ذا نُصَّ عن الشارعِ

يعني أنه يلزم على قول المجيب أن يباح له النظر مطلقًا، والشرع خلافه.

وأجاب بعض الحنفية بقوله: [السريع]

لأنَّ أهلَ الحبِّ في حكمنا عبيدنا في شرعنا الواسعِ
والعبدُ لا مِلْكَ له عندنا فحقُّهُ للسَّيِّدِ المانِعِ

---

(١) رواية البيت في الذخيرة هي:
جَفَتْ جفوني الآماقَ فيك فما تُسْبَلُ أشفارُها على الحدقِ
(٢) في سرور النفس: «كأنها».
(٣) البيتان الأول والثالث في الذخيرة (ص ٩٦).
(٤) في الذخيرة: «يَغْرِسُ وردًا...».
(٥) في طبعة دار صادر وفي الذخيرة: «والحكم أنَّ...».

وهو جواب حسن لا بأس به.

ورأيت جوابًا لبعض المغاربة على غير رَوِيَّة، وهو: [السريع]

قل لأبي الفضلِ الوزيرِ الذي   باهى به مَغْرِبَنا الشرقُ
غَرَسْتَ ظلْمًا وأردتَ الجَنَى   وما لِعِرْقِ ظالمٍ حقُّ

قلت: وهذا مِمّا يُعَيِّن أنَّ الأبيات لأبي الفضل الدارمي المذكور في الذخيرة، لا للقاضي عبد الوهّاب، واللّه تعالى أعلم.

ومن شعر الوزير المذكور قوله: [المنسرح]

بين كريمين منزلٌ واسعٌ   وَالوُدُّ حَالٌ تُقَرِّبُ الشاسعْ
والبيتُ إنْ ضاقَ عن ثمانيةٍ   متّسعٌ بالودادِ للتاسعْ

وولد، رحمه اللّه تعالى، سنة ثمان وثمانين وثلثمائة، وهو من بيت علم وأدب. قال الحميدي: أخبرني بذلك أبو عمر[1] رزق اللّه بن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث، وتوفي بطليطلة سنة أربع وخمسين وأربعمائة. وقال ابن حيان: توفي ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمس وخمسين وأربعمائة، في كَنَف المأمون يحيىٰ بن ذي النون، وذكر أنه كان يُتَّهم بالكذب، فاللّه تعالى أعلم بحقيقة الأمر.

وقال ابن ظافر في كتابه «بدائع البدائه» ما نصُّه[2]: حضر أبو الفضل الدارمي البغدادي مجلس المعزّ بن باديس، وبالمجلس ساقٍ وسيم قد مَسَّكَ عذاره وورَّدَ[3] خديه، وعجزت الراح أن تفعل في الندامى فعلَ عينيه، فأمره المعزّ بوصفه، فقال بديهًا[4]: [الكامل]

ومُعَذَّرٍ نَقَشَ الجمالُ[5] بِمِسْكِهِ   خَدًّا له بدم القلوب مُضَرَّجا
لَمّا تيقَّن أنَّ سيف جفونه   مِنْ نَرْجِسٍ جعل العذارَ بنفسجا[6]

---

(١) في جذوة المقتبس (ص ٧٣): «أبو محمد رزق اللّه..».

(٢) بدائع البدائه (جـ ٢ ص ٤٠). وانظر أيضًا الذخيرة (ص ٩٥).

(٣) في طبعة دار صادر: «وَرَّدَ..».

(٤) البيتان في بدائع البدائه والذخيرة. وقد وردا في وفيات الأعيان (جـ ١ ص ١١٠) منسوبين إلى ابن عبد ربه أو إلى أبي طاهر الكاتب أو إلى أبي الفضل البغدادي.

(٥) في وفيات الأعيان: «العذارُ بمسكه..».

(٦) في المصدر نفسه: «أن عَضْبَ جفونه... النجادَ بنفسجا». وفي الذخيرة: «النجادَ بنفسجا».

وقوله في جارية تبخّرت بالندّ[1]: [الطويل]

ومَخطوطةِ المتنينِ[2] مَهضُومَةِ الحشا   مُنَعَّمَةِ الأردافِ تَدْمَى مِنَ اللَّمْسِ
إذا ما دُخَان النَّدِّ من جَيبها عَلاَ   على وجهها أبصرْتَ غَيمًا على شمسِ[3]

وقوله[4]: [الكامل]

لأغْرِزَنَّ بمهجتي في حبِّه   غَرَزًا يُطِيلُ مع الخطوبِ خطابي[5]
ولَئِنْ تَعَزَّزَ إنَّ عندي ذِلَّةً   تَستَعطِفُ الأعداء للأحبابِ[6]

وقوله[7]: [المتقارب]

دَعَتْنيَ عيناك نحو الصبا   دُعَاءً يكرِّرُ[8] في كل ساعةْ
ولولا[9] وحَقِّكَ عُذْرُ المَشِيبِ   لَقُلْتُ لعينيك سَمْعًا وطاعةْ

وقد تمثّل بهذين البيتين لسان الدين بن الخطيب في خُطْبة تأليفه المسمّى «روضة التعريف، بالحب الشريف».

وقال أبو الفضل الدارمي المذكور أيضًا[10]: [البسيط]

سطا الفراقُ عليهمْ غَفْلَةً فَغَدَوا   من جَوره فِرَقًا من شدّة الفَرَقِ
فسِرْتُ شَرْقًا وأشواقي مُغَرِّبةٌ   يا بُعْدَ ما نزحتْ عن[11] طُرْقهمْ طُرُقي
لولا تداركُ دمعي يومَ كاظمةٍ   لأحرقَ الركبَ ما أبديتُ من حُرَقِ
يا سارقَ القلب جَهْرًا غير مُكْترثٍ   أمِنْتَ في الحبِّ أن تُعْدَى[12] على السَّرَقِ

---

(١) البيتان في الذخيرة (ص ٩٦) وشرح مقامات الحريري (جـ ٢ ص ٨٧).
(٢) محطوطة المتنين: ممدودتهما.
(٣) في الذخيرة: «على الشمس».
(٤) البيتان ضمن أربعة أبيات في الذخيرة (ص ٩٦).
(٥) في طبعة عبد الحميد: «ولأغرزن. . . غرزًا يطيل. .».
(٦) في الذخيرة: «الأحبابَ للأحبابِ».
(٧) البيتان في الذخيرة (ص ٩٨) منسوبين إلى مجهول.
(٨) في الذخيرة: «تَكَرَّرَ».
(٩) في المصدر نفسه: «فلولا».
(١٠) الأبيات في الذخيرة (ص ١٠٩ ـ ١١٠).
(١١) في الذخيرة: «من».
(١٢) في الذخيرة: «مَنْ بعدي على السَّرَقِ».

أَرْمُق بعين الرضا تُنعِشْ بعاطفةٍ قبل المنيّة ما أبقيْتَ[1] من رَمَقِي
لم يبق مني سوى لفظٍ يبوحُ بما ألقى، فيا عجبًا للفظ كيف بقي
صِلْنِي إذا شئتَ أو فاهجرْ علانيةً فكلُّ ذلك محمولٌ على الحدق

وقال[2]: [الطويل]

تذكَّرَ نجدًا والحِمَى فبكى وجدا وقال: سقى اللّهُ الحِمَى وسقى نَجْدا
وحَيَّتْهُ أنفاسُ الخُزَامَى عشيّةً فهاجتْ إلى الوجدِ القديم به وجدا
فأظهرَ سُلْوَانًا وأضمرَ لوعةً إذا طُفِئَتْ نيرانُها وَقَدَتْ وَقْدَا
ولو أنه أعطى الصبابة حُكْمَها لأبدى الذي أخفى وأخفى الذي أَبْدَى

وقال أيضًا[3]: [مجزوء الرمل]

قلتُ للمُلْقِي على الخدَّين مِنْ وَرْدٍ خِمَارا
أَسْبَلَ الصُّدْغُ على خدِّكَ من مِسْكٍ عِذارا
أم أعانَ الليلَ حتَّى قهرَ الليلُ النهارا
قال: مَيدَانٌ جرى الحُسْـ ـنُ عليه فاستدارا
ركضتْ فيه عيونٌ فأثارتْهُ غُبارا

وقال[4]: [السريع]

وكاتبٍ أهديتُ نفسي له فَهْيَ من السوء فِدا نَفْسِهِ
فلستُ أدري بَعْدَ ما حَلَّ بي بمسكِهِ أتلفُ أم نِقْسِهِ
سَلَّطَ خَدَّيه على مُهْجتي فاستأصَلَتْهَا[5] وَهْيَ من غَرْسِهِ

وقال[6]: [السريع]

وشادنٍ أسرفَ في صدِّهِ وزادَ في التِّيه على عَبْدِهِ

---

(١) في الذخيرة: «ما أوهيت».
(٢) الأبيات في الذخيرة (ص ١٠٢).
(٣) الأبيات في الذخيرة (ص ١٠١).
(٤) الأبيات في الذخيرة (ص ١٠٠).
(٥) في الذخيرة: «فاستأصلاها».
(٦) الأبيات في الذخيرة (ص ١٠٠).

الحسنُ قد بثَّ على خدِّه بنفسجًا يزهو[1] على وَرْدِهِ
رأيتُه يكتبُ في طِرْسه خَطًّا يباري[2] الدُّرَّ مِنْ عِقْده
فَخِلْتُ ما قد خطَّه كَفُّه للحُسْنِ قد خُطَّ على خدِّه

وقال[3]: [المجتث]

إني عشقتُ صغيرًا قد دَبَّ فيه الجمالُ
وكاد يُفْشي[4] حديث الـ فُضُولِ منه الدَّلالُ
لو مَرَّ في طُرُقِ الهَجْـ ـر لاعتراه ضلالُ
يريك بَدْرًا منيرًا[5] في الحسن وَهْوَ هِلالُ

وقال[6]: [السريع]

ظبيٌ إذا حَرَّكَ أصداغَهُ لم يلتفت خَلْقٌ إلى العِطْرِ
غَنَّى بشعري مُنْشِدًا ليتني الـ ـلفظُ الذي أَوْدَعْتُهُ[7] شعري
فكلّما كَرَّرَ إنشادَهُ قَبَّلْتُه فيه ولم يَدْرِ

وقال[8]: [الطويل]

أينفعُ قولي إنني لا أُحِبُّه ودمعي بما يُمْليه وجديَ يكتبُ
إذا قلتُ للواشينَ لستُ بعاشقٍ يقولُ لهم فيضُ المدامع يكذبُ

وقال: [الطويل]

وهبنيَ قد أنكرْتُ حُبَّكَ جملةً وآليتُ أني لا أروم مَحَطَّها
فمن أين لي في الحُبِّ جَرْحُ شهادةٍ سقاميَ أملاها ودَمْعيَ خَطَّها

(١) في الذخيرة: «يرنو إلى..».
(٢) في المصدر نفسه: «يضاهي الدّرّ في عِقْدِهِ».
(٣) الأبيات في الذخيرة (ص ٩٩).
(٤) في طبعة عبد الحميد: «يغشى».
(٥) في الذخيرة: «بدرًا تمامًا..».
(٦) الأبيات في الذخيرة (ص ١٠٢ ـ ١٠٣).
(٧) في طبعة عبد الحميد: «أودعه».
(٨) البيتان في الذخيرة (ص ٩٥).

وقـال[1]: [الخفيف]

أنا أخشى إنْ دامَ ذا الهجرُ أنْ يُنْـ شِـطَ مِـنْ حُـبِّـه عِـقَـالَ وثـاقـي
فـأُرِيـحَ الـفـؤادَ مِـمّـا اعـتـراه وأرُدَّ الـهـوى عـلـى الـعُـشّـاقِ

وقـال[2]: [الطويل]

كلانا لَعَمْرِي ذائبانِ[3] من الهوى فنارُكِ مِنْ جَمْرٍ وناريَ من هَجْرِ
فأنتِ[4] على ما قد تُقاسين مِنْ أذًى فَصَدْرُكِ في نارٍ وناريَ في صَدْري

وقـال[5]: [المتقارب]

ومنْ عَجَبِ[6] العشقِ أنَّ القتيلَ يـحـنُّ ويـصـبـو إلى الـقـاتِـلِ

وقـال[7]: [الوافر]

ألـم أجعلْ مُثَارَ النَّقْعِ بَحْرًا عـلى أنَّ الـجـيـادَ له سَـفِـيـنُ

وقـال[8]: [البسيط]

أصبحتُ أحلبُ تيسًا لا مدَرَّ له والتَّيسُ مَنْ ظَنَّ أنَّ التيسَ محلوبُ

وأما الحكيم أبو محمد المصري[9] وهو القائل[10]: [الطويل]

رَعَى اللَّهُ دهرًا قد نَعِمْنا بطيبه لياليه من شمسِ الكُؤوسِ أصائلُ
ونرجِسُنَا دُرٌّ على التِّبْرِ جامدٌ وخمرتُنَا تِبْرٌ على الدُّرِّ سائلُ[11]

---

(١) البيتان في الذخيرة (ص ١٠٤).
(٢) البيتان في الذخيرة (ص ١٠٥).
(٣) في الذخيرة: «ذو بيانٍ».
(٤) في المصدر نفسه: «وأنت».
(٥) البيت في الذخيرة (ص ١٠٤).
(٦) في طبعة ليدن: «ومن أعجب..».
(٧) البيت في الذخيرة (ص ١١٧).
(٨) البيت في الذخيرة (ص ١١٨).
(٩) هو أبو محمد عبد اللّه بن خليفة القرطبي، المعروف بالمصري لطول إقامته بمصر، وترجمته في الذخيرة (ق ٤ ص ٣٤٢) والمغرب (جـ ١ ص ١٢٨) وقلائد العقيان (ص ٧).
(١٠) البيتان في الذخيرة (ق ٤ ص ٣٥٣).
(١١) في الذخيرة: «ونَرْجِسُها... وقهوتها تِبْرٌ..».

فقد ترجمه في «الذخيرة» فليراجع، فإن الذخيرة غريبة في البلاد المشرقية. وقد كان عندي بالمغرب من هذا النوع ما أستعين به، فخلفته هنالك، والله تعالى يلم الشمل. وقد ذكر فيها أنه مغربي سافر إلى مصر، فقيل له «المصري» لذلك، فليُعْلَم، والله تعالى أعلم.

٦٤ ـ ومن الوافدين على الأندلس أشهب بن العضد الخراساني.

قال ابن سعيد: أنشدنا لَـمّا وفد على ابن هود في إشبيلية قصيدةَ ابن النبيه[١]: [الكامل]

طابَ الصَّبُوح لنا فهاكَ وهاتِ[٢]

وادعاها، وفيها:

في روضةٍ غَنَّا تخالُ طُيورَهَا وغصونَهَا همزًا على أَلِفَاتِ

ولم أجد هذا البيت في قصيدة ابن النبيه، انتهى.

٦٥ ـ ومن الوافدين على الأندلس من المشرق أبو الحسن البغدادي الفُكَيك[٣].

وهو مذكور في الذخيرة، وكان حلو الجواب، مليح التندر، يُضْحك من حضر، ولا يضحك هو إذا ندّر، وكان قصيرًا دميمًا.

قال: ورأيته يومًا وقد لبس ثوبًا[٤] أحمر على بياض، وفي رأسه طرطور أخضر، عمَّم عليه عمّة لازوردية، وهو بين يدي المعتمد بن عباد ينشد شعرًا قال فيه[٥]: [المتقارب]

وأنتَ سليمانُ في مُلْكِهِ وبين يديكَ أنا الهُدْهُدُ

وأنشد له في المعتمد[٦]: [الطويل]

---

(١) هو كمال الدين علي بن محمد بن الحسن بن النبيه المصري، الأديب الشاعر البارع، المتوفَّى بنصيبين سنة ٦١٦ هـ. فوات الوفيات (جـ ٣ ص ٦٦).

(٢) البيت الكامل هو:

طاب الصبوحُ لنا فهاك وهاتِ واشرب هنيئًا يا أخا اللّذّاتِ

ديوان ابن النبيه (ص ١٢٣) وفوات الوفيات (جـ ٣ ص ٧٠).

(٣) ترجمة أبي الحسن الفكيك البغدادي في الذخيرة (ق ٤ ص ٣٦٨).

(٤) في طبعة دار صادر وفي الذخيرة (ص ٣٦٨): «لبس طاقًا أحمر..».

(٥) البيت في الذخيرة (ص ٣٦٨).

(٦) الأبيات في الذخيرة (ص ٣٦٩).

أبا القاسمِ المَلْكَ المعظَّمَ قَدْرُهُ   سواك مِنَ الأملاكِ ليس يُعَظَّمُ
لقد أصبحَتْ حمصٌ بِعَدْلِكَ جنّةً   وقد أُبعِدَتْ عن ساكنيها جهنَّمُ
ولي في مُحَيَّاكَ الربيع وإنني[1]   أُزَخْرِفُ أعلامَ الثناءِ وأَرْقُمُ
وأنفقْتُ ما أعطيتني ثقةً بما   أؤمّلُ فالدينارُ عنديَ درهمُ
وقلبي إلى بغدادَ يَصْبُو وإنني   لِنَشْرِ صَباها دائمًا أتنسَّمُ

وقال[2]: [الطويل]

وذرًى[3] على ربعِ العقيقِ دموعَهُ   عقيقًا ففيها تَوأَمٌ وفريدُ
شَهِدْتُ وما تُغْني شهادةُ عاشقٍ   بأنَّ قتيلَ الغانياتِ شهيدُ

ومنها:

إذا قابلوه قَبَّلُوا تُرْبَ أرضِهِ   وهُمْ لِغُلاهُ رُكَّعٌ وسُجُودُ
وقد هَزَّ منه اللَّهُ للمُلْكِ صارمًا   تُقامُ بحدَّي شَفْرَتَيهِ حدودُ

وقال[4]: [الطويل]

لأية حالٍ حَالَ عن سِنَةِ الكَرَى[5]   ولم أُصْغِ يومًا في هواه إلى العذلِ

ومنها:

كأنَّ بقاءَ الطَّلِّ فوق جفونها[6]   دموعُ التصابي حِزْنَ في الأعين النُّجلِ

ومنها:

تملَّكْتَ رقِّي بالعوارف[7] مُنْعِمًا   وأغنيتَنِي بالجود عن كلِّ ذي فَضْلِ

---

(١) رواية صدر البيت في طبعة دار صادر هي:

ولي بمحياك الربيع عامًا وأشهرًا

وروايته في الذخيرة هي:

ولي بمحماك الربيع عامٌ وأشهرٌ

(٢) هذان البيتان والبيتان اللذان بعدهما في الذخيرة (ص ٣٧٢).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «وروًى».

(٤) هذا البيت والبيتان اللذان بعدهما في الذخيرة (ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣).

(٥) في الذخيرة: «عن سُنَّةِ العدل». وحال: تحوّل من حال إلى حال. لسان العرب (حال).

(٦) رواية صدر البيت في الذخيرة هي:

كأنَّ عليل الطَّلِّ فوق عيونها

(٧) العوارف: جمع عارفة وهي المعروف. لسان العرب (عرف).

وأنسيتني أرضَ العراق ودجلةً ... ورَبْعِيَ حتى ما أحنُّ إلى أهلي

وقال في المقتدر بن هود: [المتقارب]

لِعِزِّكَ ذَلَّتْ ملوكُ البشر ... وعفَّرتَ تيجانَهُمْ في العَفَرْ[1]
وأصبحتَ أخْطَرَهُمْ بالقَنَا ... وأركبَهُمْ لجوادِ الخَطَرْ
سهرْتَ وناموا على المأثُرَاتِ[2] ... فما لهمُ في المعالي أثر
وجَلّيتَ في حيث صَلّى الملوكُ ... فكلٌّ بذَيلِ العلا[3] قد عَثَرْ

ومنها:

وأنتمْ ملوكٌ إذا شاجَرُوا ... أظَلَّتْهُمُ مِنْ قناهُمْ شَجَرْ

وقال فيه من قصيدة: [البسيط]

غَنَّى حُسامُكَ في أرجاء قرطبةٍ ... صوتًا أبادَ العِدَى والليلُ معتكرُ
حيثُ الدماءُ مُدَامٌ والقَنَا زَهَرٌ ... والقومُ صَرْعَى بكأس الحَتْفِ قد سكروا

وكان مشهورًا بالهجاء، وله في نقيب بغداد وكانت في عنقه غُدَّة: [الكامل]

بَلَغَ الأمانةَ فهي في حُلْقومه ... لا تَرْتَقي صُعُدًا ولا تَتَنَزَّلُ

وقال في ناصر الدولة بن حمدان: [الكامل]

ولئن غلطْتُ بأنْ مَدَحتُكَ طالبًا ... جَدْوَاكَ مَعْ علمي بأنك باخِلُ
فالدولةُ الغرّاء قد غلطَتْ بأنْ ... سَمَّتْكَ ناصرَها وأنت الخاذلُ
إنْ تَمَّ أمرك مَعْ يدٍ لك أصبحتْ ... شلاّءَ فالأمثالُ شيء باطلُ

ومما ينسب إليه، وقيل لغيره: [الكامل]

ووعدتَني وَعْدًا حَسِبْتُكَ صادقًا ... فجعلتُ مِنْ طَمَعي أجيء وأذهبُ
فإذا جُمِعْتُ أنا وأنت بمجلسٍ ... قالوا مسيلمةٌ وهذا أشْعَبُ[4]

---

(١) عفَّره في التراب: مرّغه، والعَفَرُ: التراب. مختار الصحاح (عفر).
(٢) المأثرات: المكارم المتوارثة. لسان العرب (أثر).
(٣) في طبعة دار صادر: «المنى».
(٤) في طبعة دار صادر: «فإذا اجتمعتُ..». ومسيلمة هو مسيلمة الكذاب الذي ادّعى النبوّة زمن النبي ﷺ، وقتل في حروب الردّة. وأشعب: مضرب المثل في الطمع. لسان العرب (سلم) و (شعب).

٦٦ ـ ومنهم إبراهيم بن سليمان الشامي.

دخل الأندلس من المشرق في أخريات أيام الحكم شاديًا للشعر، وهو من موالي بني أمية، ولم ينفق على الحكم، وتحرّك في أيام ولده الأمير عبد الرحمن فنفق عليه، ووصله، ثم في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن، وكان أدرك بالمشرق كبار المحدَثِينَ كأبي نواس وأبي العتاهية.

ومن شعره ما كتب به إلى الأمير عبد الرحمن: [الكامل]

يا مَنْ تعالى مِنْ أميَّةَ في الذُّرَى ... قِدَمًا فأصبحَ عاليَ الأركانِ
إنَّ الغمامَ غياثُهُ في وقته ... والغَيثُ مِنْ كَفَّيكَ كلَّ أوانِ
فالغَيثُ قد عَمَّ البلادَ وأهلَها ... وظمئتُ بينهمُ فَبُلَّ لساني

وله في الأمير عبد الرحمن بن الحكم: [الطويل]

ومِنْ عَبْدِ شمسٍ بالمغاربِ عصبةٌ ... فأسْعَدَها الرحمنُ حيثُ أَحَلَّها
دَحَا تحتها مهدًا مِنَ العِزِّ آمنا ... ومَدَّ جناحًا فوقها فأظَلَّهَا

٦٧ ـ ومنهم أبو بكر بن الأزرق، وهو محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّٰه بن حامد بن موسى بن العباس بن محمد بن يزيد، وهو الحصني، ابن محمد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان.

من أهل مصر، خرج من مصر سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة، وصار إلى القيروان، وامْتُحِنَ بها مع الشيعة، وأقام محبوسًا بالمهدية، ثم أُطلق ووصل الأندلس سنة تسع وأربعين، فأحسن إليه المستنصر باللّٰه الحكم، وكان أديبًا حكيمًا، سمع من خاله أبي بكر أحمد بن مسعود الزهري، وولد سنة تسع عشرة وثلثمائة بمصر، وتوفي بقرطبة في ذي القعدة سنة خمس وثمانين وثلثمائة، رحمه اللّٰه تعالى!

٦٨ ـ ومن الوافدين[1] على الأندلس من المشرق رئيس المغنين أبو الحسن علي بن نافع، الملقب بزرياب[2]، مولى أمير المؤمنين المهدي العباسي.

---

(١) في طبعة دار صادر: «ومن الواردين...».
(٢) توفي زرياب سنة ٢٣٨ هـ قبل وفاة الأمير عد الرحمن الثاني بأربعين يومًا. وترجمته في المقتبس بتحقيق مكي (ص ٨٧، ٩٠، ٢١٩). وقد تقدم الحديث عنه في الجزء الأول من نفح الطيب والجزء الثالث.

قال في «المقتبس»: زرياب لقبٌ غلب عليه ببلاده من أجل سواد لونه، مع فصاحة لسانه، وحلاوة شمائله، شُبِّهَ بطائر أسود غَرِد عندهم، وكان شاعرًا مطبوعًا، وكان ابنه أحمد قد غلب عليه الشعر أيضًا، وكان من خبره في الوصول إلى الأندلس أنه كان تلميذًا لإسحٰق الموصلي ببغداد، فتلقَّف من أغانيه استراقًا، وهُدِي من فهم الصناعة وصدق العقل مع طيب الصوت وصورة الطبع إلى ما فاق به إسحٰق وإسحٰق لا يشعر بما فُتح عليه، إلى أنْ جرى للرشيد مع إسحٰق خبره المشهور في الاقتراح عليه بمغنّ غريب مجيد للصنعة، لم يشتهر مكانه إليه، فذكر له تلميذه هذا، وقال: إنه مولى لكم، وسمعت له نزعات حسنة، ونغمات رائقة، ملتاطَة بالنفسِ[1]، إذا أنا وَقَفْتُه على ما استغرب منها وهو من اختراعي واستنباط فكري، وأَحْدَسُ[2] أن يكون له شأن، فقال الرشيد: هذا طَلِبَتِي، فأحْضرنيه لعل حاجتي عنده، فأحضره، فلمّا كلّمه الرشيد أعرب عن نفسه بأحسن منطق وأوجز خطاب، وسأله عن معرفته بالغناء، فقال: نعم أُحسن منه ما يحسنه الناس، وأكثَرُ ما أحسنه لا يحسنونه، مِمّا لا يحسن إلاَّ عندك ولا يُدَّخر إلاَّ لك، فإنْ أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك، فأمر بإحضار عود أستاذه إسحٰق، فلما أُدني إليه وقف عن تناوله، وقال: لي عود نَحَتُّه بيدي، وأرهفْتُه بإحكامي، ولا أرتضي غيره، وهو بالباب، فليأذن لي أمير المؤمنين في استدعائه، فأمر بإدخاله إليه، فلمّا تأمّله الرشيد وكان شبيهًا بالعود الذي دفعه قال له: ما منعك أن تستعمل عود أستاذك؟ فقال: إن كان مولاي يرغب في غناء أستاذي غنيتهُ بعوده، وإن كان يرغب في غنائي فلا بدَّ لي من عودي، فقال له: ما أراهما إلاَّ واحدًا، فقال: صدقت يا مولاي، ولا يؤدِّي النظر غير ذلك، ولكن عودي وإن كان في قدر جسم عوده ومن جنس خشبه فهو يقع من وزنه في الثلث أو نحوه، وأوتاري من حرير لم يغزل بماءٍ سخن يكسبها أناثة ورخاوة، وبَمُّها ومَثْلَثُها اتّخذْتُهما من مُصْرانِ شبلِ أسدٍ، فلها في الترنّم والصفاءِ والجَهَارة والحدّة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها، فاستبرع الرشيد وصفه وأمره بالغناء، فجس، ثم اندفع فغنّاه: [البسيط]

يا أيها المَلِكُ الميمونُ طائِرُهُ ... هارونُ راحَ إليك الناسُ وابتكروا

---

(١) ملتاطة بالنفس: لاصقة بها. لسان العرب (لطا).

(٢) في طبعة دار صادر: «أحدس». وحدس: ظنّ. لسان العرب (حدس).

فأتَمَّ النوبة، وطار الرشيد طربًا، وقال لإسحٰق: واللّٰه لولا أني أعلم من صدقك لي على كتمانه إيّاك لما عنده وتصديقه لك من أنك لم تسمعه قبل لأنزلت بك العقوبة لتركك إعلامي بشأنه، فخذْه إليك واعتَنِ بشأنه، حتى أفرغ له، فإن لي فيه نظرًا، فسُقِط في يد إسحٰق[1]، وهاج به من دار الحسد ما غَلَبَ على صبره[2]، فخلا بزرياب وقال: يا علي، إنَّ الحسد أقدم الأدواء وأدواها[3]، والدنيا فتّانة، والشركة في الصناعة عداوة، ولا[4] حيلة في حَسْمها، وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من إجادتك وعلوّ طبقتك، وقصدت منفعتك فإذا أنا قد أتيت نفسي من مأمنها بإدنائك، وعن قليل تسقط منزلتي، وترتقي أنت فوقي، وهذا ما لا أُصاحبك عليه ولو أنك ولدي، ولولا رعيي لذمّة تربيتك لما قدمت شيئًا على أن أُذْهِبَ نفسك، يكون في ذلك ما كان، فتخيَّرْ في ثنتين لا بدَّ لك منهما: إمّا أن تذهب عني في الأرض العريضة لا أسمع لك خبرًا بعد أن تعطيني على ذلك الأيمان الموثقة، وأنهضك لذلك بما أردْتَ من مال وغيره، وإمّا أنْ تقيم على كرهي ورغمي مستهدفًا إليَّ، فخذِ الآن حذرك مني فلست واللّٰه أُبقي عليك، ولا أدع اغتيالك باذلاً في ذلك بدني ومالي، فاقْضِ قضاءك. فخرج زرياب لوقته، وعلم قدرته على ما قال، واختار الفرار قدامه، فأعانه إسحٰق على ذلك سريعًا، ورَاشَ جناحَهُ[5]، فرحل عنه، ومضى يبغي مغرب الشمس، واستراح قلب إسحٰق منه.

وتذكّره الرشيد بعد فراغه من شغل كان منغمسًا فيه، فأمر إسحٰق بحضوره، فقال: ومَنْ لي به يا أمير المؤمنين؟ ذاك غلام مجنون يزعم أن الجنّ تكلّمه وتطارحه ما يُزْهَى به من غنائه، فما يرى في الدنيا من يَعْدِله، وما هو إلاّ أن أبطأتْ عليه جائزة أمير المؤمنين وترك استعادته، فقدّر التقصير به، والتهوين بصناعته، فرحل مغاضبًا ذاهبًا على وجهه مستخفيًا عنّي، وقد صنع اللّٰه تعالى في ذلك لأمير المؤمنين، فإنه كان به لَمَم[6] يغشاه ويفرط خبطه، فيفزع من رآه، فسكن الرشيد إلى قول إسحٰق، وقال: على ما كان به فقد فاتنا منه سرور كثير.

---

(١) سُقط في يده: زلّ وأخطأ وندم وتحيّر. محيط المحيط (سقط)

(٢) في طبعة دار صادر: «ما غلب صَبْرَهُ..».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «وأدوؤها».

(٤) في طبعة دار صادر: «لا حيلة».

(٥) راشَ جناحَه: قوّاه وشدّ ساعده. لسان العرب (راش).

(٦) اللَّمَمُ: طرف من الجنون أو جنون خفيف. محيط المحيط (لمم).

ومضى زرياب إلى المغرب، فنُسِيَ بالمشرق خبرُه، إذ لم يكن اسمه شهر هنالك شهرتَه بالصقع الذي قطنه، ونزعت إليه نفسه، وسَمَتْ به همّتُه، فأمّ أمير الأندلس الحكم المباين لمواليه، وخاطبه، وذكر له نزاعه إليه، واختياره إياه، ويعلمه بمكانه من الصناعة التي ينتحلها، ويسأله الإذن في الوصول إليه، فَسُرَّ الحكمُ بكتابه وأظهر له من الرغبة فيه والتّطلّع إليه وإجمال الموعد ما تمنّاه، فسار زرياب نحوه بعياله وولده، وركب بحرَ الزُّقَاق إلى الجزيرة الخضراء، فلم يزل بها حتى توالت عليه الأخبار بوفاة الحكم، فهمَّ بالرجوع إلى العدْوَة، فكان معه منصور اليهودي المغني رسول الحكم إليه، فثَنَاه عن ذلك ورغّبه في قصد القائم مقام الحكم، وهو عبد الرحمن ولده، وكتب إليه بخبر زرياب، فجاءه كتاب عبد الرحمن يذكر تطلّعه إليه، والسرور بقدومه عليه، وكتب إلى عُمّاله على البلاد أنْ يحسنوا إليه، ويوصلوه إلى قرطبة، وأمر خصيًّا من أكابر خصيانه أنْ يتلقّاه ببغال ذكور وإناث وآلات حسنة، فدخل هو وأهله البلد ليلاً صيانة للحُرَم، وأنزله في دار من أحسن الدور، وحمل إليها جميع ما يُحتاج إليه، وخَلَعَ عليه، وبعد ثلاثة أيام استدعاه، وكتب له في كل شهر بمائتي دينار راتبًا، وأن يُجْرَى على بنيه الذين قدموا معه ـ وكانوا أربعة: عبد الرحمن، وجعفر، وعبيد اللّه، ويحيىٰ ـ عشرون دينارًا لكلِّ واحدٍ منهم كلَّ شهر، وأن يُجْرَى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار، منها لكلِّ عيد ألفُ دينار، ولكلِّ مهرجان ونوروز خمسمائة دينار، وأن يُقْطع له من الطعام العام ثلثمائة مدي ثلثاها شعير وثلثها قمح، وأقطعه من الدُّوْر والمستغلاّت بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوَّم بأربعين ألف دينار. فلمّا قضى له سؤله وأنجز موعوده وعلم أن قد أرضاه وملك نفسه استدعاه، فبدأ بمجالسته على النبيذ وسماع غنائه، فما هو إلاّ أن سمعه فاستهوله واطّرح كل غناء سواه، وأحبّه حبًا شديدًا، وقدّمه على جميع المغنين، وكان لَمّا خلا به أكرمه غاية الإكرام، وأدنى منزلته، وبسط أمله، وذاكره في أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء، فحرّك منه بَحْرًا زَخَر عليه مدُّه[1]، فأُعْجب الأميرُ به، وراقه ما أورده، وحضر وقتُ الطعام فشرّفه بالأكل معه هو وأكابر ولده، ثم أمر كاتبه بأن يعقد له صكًا بما ذكرْناه آنفًا، ولَمّا ملك قلبه واستولى عليه حبّه، فتح له بابًا خاصًا يستدعيه منه متى أراده.

وذكر أنّ زريابًا ادّعى أنّ الجن كانت تعلّمه كلَّ ليلة ما بين نوبة إلى صوت واحد،

---

(١) زَخَرَ مَدُّه: امتدّ جدًا وارتفع. والمَدُّ: ارتفاع ماء البحر. لسان العرب (زخر) و (مدد).

كان يَهُبُّ من نومه سريعًا فيدعو بجاريتيه غزلان وهنيدة، فتأخذان[1] عودهما، ويأخذ هو عوده، فيطارحهما ليلته، ثم يكتب[2] الشعر، ثم يعود عجلاً إلى مضجعه، وكذلك يحكى عن إبراهيم الموصلي في لحنه البديع المعروف بالماخوري أنَّ الجن طارحته إياه، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك.

وزاد زرياب بالأندلس في أوتار عوده وترًا خامسًا اختراعًا منه، إذ لم يزل العودُ ذا أربعة أوتار على الصنعة القديمة التي قوبلت بها الطبائع الأربع، فزاد عليها وترًا خامسًا أحمرَ متوسّطًا، فاكتسب به عوده ألطَفَ معنى وأكمل فائدة. وذلك أن الزير[3] صُبِغ أصفر اللون، وجُعل في العود بمنزلة الصفراء من الجسد، وصُبِّغ الوتر الثاني بعده أحمر، وهو من العود مكان الدم من الجسد، وهو في الغلظ ضعف الزير، ولذلك سمي مثنى، وصُبِّغ الوتر الرابع أسود، وجُعل من العود مكان السوداء من الجسد، وسمِّي البمّ، وهو أعلى أوتار العود، وهو ضعف المثلث الذي عُطل من الصبغ وتُرك أبيض اللون، وهو من العود بمنزلة البلغم من الجسد، وجُعل ضعف المثنى في الغلظ، ولذلك سمّي المثلث، فهذه الأربعة من الأوتار مقابلة للطبائع الأربع تقضي طبائعها بالاعتدال، فالبم حارّ يابس يقابل المثنى وهو حار رطب وعليه تسويته، والزير حار يابس يقابل المثلث وهو حار رطب، قوبل كل طبع بضدّه حتى اعتدل واستوى كاستواء الجسم بأخلاطه، إلاَّ أنه عطل من النفس، والنفس مقرونة بالدم، فأضاف زرياب من أجل ذلك إلى الوتر الأوسط الدموي هذا الوتر الخامس الأحمر الذي اخترعه بالأندلس، ووضعه تحت المثلث وفوق المثنى، فكمل في عوده قوى الطبائع الأربع، وقام الخامس المزيد مقام النفس في الجسد.

وهو الذي اخترع بالأندلس مضراب العود من قوادم النَّسْر، مُعْتاضًا به من مرهف الخشب، فأبرع في ذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخفّته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه.

وكان زرياب عالـمًا بالنجوم وقسمة الأقاليم السبعة، واختلاف طبائعها وأهويتها وتشعّب بحارها، وتصنيف بلادها، وسكّانها، مع ما سنح له من فكّ كتاب الموسيقى، مع حفظه لعشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها، وهذا العدد من الألحان غاية ما ذكره

(١) في طبعة عبد الحميد: «فيأخذان».
(٢) في الطبعة نفسها: «ويكتب».
(٣) الزير، والبَمّ، والمثنى، والمثلث: أسماء لأوتار العود.

بطليموس واضع هذه العلوم ومؤلّفها.

وكان زرياب قد جمع إلى خصاله هذه الاشتراك في كثير من ضروب الظرف وفنون الأدب، ولطف المعاشرة، وحوى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية ما لم يُجِدْه أحد من أهل صناعته، حتى اتّخذه ملوك أهل الأندلس وخواصّهم قدوة فيما سنّه لهم من آدابه، واستحسنه من أطعمته، فصار إلى آخر أيام أهل الأندلس منسوبًا إليه معلومًا به.

فمن ذلك أنه دخل إلى الأندلس وجميع من فيها من رجل أو امرأة يرسل جُمَّته[1] مفروقًا وسط الجبين عامًّا للصدغين والحاجبين، فلمّا عاين ذوو التحصيل تحذيفه هو وولده ونساؤه لشعورهم، وتقصيرها دون جباههم، وتسويتها مع حواجبهم، وتدويرها إلى آذانهم، وإسدالها إلى أصداغهم - حسبما عليه اليوم الخدم الخصية والجواري - هوت إليه أفئدتهم، واستحسنوه.

ومِمّا سنّه لهم استعمال المرتك المتّخذ من المرداسنج لطرد ريح الصنان من مغابنهم[2]، ولا شيء يقوم مقامه، وكانت ملوكُ الأندلس تستعمل قبله ذرور الورد وزهر الريحان وما شاكل ذلك من ذوات القبض والبرد، فكانوا لا تسلم ثيابهم من وَضَر[3]، فدلّهم على تصعيدها بالملح، وتبييض لونها، فلما جرّبوه أحمدوه جِدًّا.

وهو أول من اجتنى بقلة الهليون المسمّاة بلسانهم الإسفراج[4]، ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله.

ومِمّا اخترعوه من الطبيخ اللون المسمى عندهم بالتفايا[5]، وهو مصطنع بماء الكزبرة الرطبة محلّى بالسنبوسق والكباب، ويليه عندهم لون التقلية المنسوبة إلى زرياب.

ومِمّا أخذه عنه الناس بالأندلس تفضيله آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفِضّة،

---

(١) الجُمَّة، بضم الجيم وتشديد الميم المفتوحة: ما تدلّى من شعر الرأس إلى المنكبين، أو مجتمع شعر مقدم الرأس، والجمع جمم وجمام. لسان العرب (جمم).

(٢) المغابن: جمع مَغْبِن وهو كل مكان يكثر فيه العَرَقُ من الجسد كالإبط. لسان العرب (غبن).

(٣) الوَضَرُ، بالفتح: الوسخ. لسان العرب (وضر).

(٤) الإسفراج: يقابله بالإسبانية Espárrago وهو الهليون. قاموس ف. كورينطي.

(٥) التفايا: من بسائط الأطعمة، وهي أنواع، منها التفايا البيضاء وتحضّر من لحم الضأن الفتي السمين. كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين (ص ٨٥ - ٨٨، ١١٨ - ١١٩).

وإيثاره فرش أنطاع الأديم[1] الليّنة الناعمة على ملاحف الكتّان، واختياره سُفر الأديم لتقديم الطعام فيها على الموائد الخشبية إذ الوضر يزول عن الأدِيم بأقلّ مسحَة، ولبسه كلّ صنف من الثياب في زمانه الذي يليق به، فإنه رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وجعلهم للملوّن من يوم مهرجان أهل البلد المسمّى عندهم بالعَنْصَرَة الكائن في ست بقين من شهر يونيه الشمسي من شهورهم الرومية، فيلبسونه إلى أول شهر أكتوبر الشمسي منها ثلاثة أشهر متوالية ويلبسون بقية السنة الثياب الملوّنة، ورأى أن يلبسوا في الفصل الذي بين الحرّ والبرد المسمّى عندهم الربيع من مصبغهم جباب الخزّ والملحم والمحرّر والدَّرَاريع[2] التي لا بطائن لها لقربها من لطف ثياب البياض الظهائر التي ينتقلون إليها لخفتها وشبهها بالمحاشي، ثياب العامة، وكذا رأى أن يلبسوا في آخر الصيف وعند أول الخريف المحاشي المَرَوية والثياب المصمتة وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ذوات الحشو والبطائن الكثيفة، وذلك عند قَرْس[3] البرد في الغدوات، إلى أن يقوى البرد فينتقلوا[4] إلى أثخن منها من الملونات، ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا إلى صنوف الفراء.

واستمرّ بالأندلس أنَّ كلَّ من افتتح الغناء فيبدأ بالنشيد أول شَدْوِه بأي نَقْرٍ كان، ويأتي أثره بالبسيط، ويختم بالمحركات والأهزاج تبعًا لمراسم زرياب.

وكان إذا تناول الإلقاء على تلميذ يعلّمه أمره بالقعود على الوساد المدوّر المعروف بالمسورة، وأن يشدّ صوته جدًا إذا كان قويَّ الصوت، فإن كان لَيِّنَهُ أمره أن يشدّ على بطنه عمامة، فإنّ ذلك مِمّا يقوّي الصوت، ولا يجد متّسعًا في الجوف عند الخروج على الفَمِ، فإنْ كان ألصَّ الأضراس[5] لا يقدر على أن يفتح فاه، أو كانت عادته زمّ أسنانه عند النطق، رَاضَه[6] بأن يُدْخل في فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع يبيتها في فمه ليالي حتى ينفرج فَكّاه، وكان إذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أَمَرَه أن يصيح بأقوى صوته: يا حَجّام، أو يصيح: آه، ويمدُّ بها صوته، فإنْ سمع صوته بهما صافيًا نديًا

---

(١) الأنطاع: جمع نِطع وهو بساط من الأديم، والأديم: الجلد. لسان العرب (نطع) و (أدم).
(٢) الدراريع: جمع دُرّاعة وهي جُبّة مشقوقة المقدّم ولا تكون إلاّ من صوف. محيط المحيط (درع).
(٣) في طبعة عبد الحميد: «قرص».
(٤) في الطبعة نفسها: «فينتقلون».
(٥) ألصُّ الأضراس: متقارب الأضراس. لسان العرب (لصص).
(٦) راضة: روّضه ومرّنه. لسان العرب (روض).

قويًا مؤدّيًا لا يعتريه غُنَّة ولا حبسة ولا ضيق نَفَس عرف أن سوف ينجب[1]، وأشار بتعليمه، وإنْ وجده خلاف ذلك أبعده.

وكان له من ذكور الولد ثمانية: عبد الرحمن، وعبيد الله، ويحيىٰ، وجعفر، ومحمد، وقاسم، وأحمد، وحسن. ومن الإناث ثنتان: علية، وحمدونة. وكلّهم غَنّى، ومارس الصناعة، واختلفت بهم الطبقة، فكان أعلاهم عبيد الله، ويتلوه عبد الرحمن، لكنه ابتلي من فرط التِّيه وشدّة الزهو وكثرة العُجْب بغنائه والذهاب بنفسه بما لم يكن له شبه فيه، وقلّما يسلم مجلس حضوره من كدر يحدثه، ولا يزال يجترىء على الملوك، ويستخفُّ بالعظماء، ولقد حمله سخفه على أن حضر يومًا مجلس بعض الأكابر الأعاظم في أنس قد طاب به سروره، وكان صاحب قَنَص تغلب عليه لذّته، فاستدعى بازيًا كان كَلِفًا به كثير التذكّر له، فجعل يمسح أعطافه ويُعَدِّل قَوَادمه، ويرتاح لنشاطه، فسأله عبد الرحمن أن يَهَبه له، فاستحيا من ردّه، وأعطاه إياه مع ضَنِّه به، فدفعه عبد الرحمن إلى غلامه ليعجل به إلى منزله، وأسرَّ إليه فيه بِسِرّ لم يطلع عليه، فمضى لشأنه، ولم يلبث أن جاءه بطيفورية مُغَطاة مكرمة بطابع مختوم عليها من فِضّة، فإذا به لون مصوصٍ[2] قد اتّخذ من البازي بعد ذبحه على ما حده لأهله، وذهب إلى الانتقال إليه[3] في شرابه، وقال لصاحب المجلس: شاركني في نَقْلي هذا فإنه شريف المركّب[4] بديع الصنعة، فلمّا رآه الرجل أنكر صفته، وعاب لحمه، وسأله عنه، فقال: هو البازي الذي كنت تعظم قدره، ولا تصبر عنه وقد صيّرته إلى ما ترى، فغضب صاحب المنزل حتى ربا في أثوابه، وفارقه حلمه، وقال له: قد كان واللّه أيها الكلب السفيه على ما قدرته وما اقتديت فيه إلاّ بكبار الناس المؤثرين لمثله، وما أسعفتك به إلاّ معظمًا من قدرك ما صَغَّرْتَ من قدري، وأظهرت من هَوَان السنة عليك باستحلالك لسباع الطير المنهيّ عنها، ولا أدع واللّه الآن تأديبَكَ إذ أهملك أبوك معلّم الناس المروءة، ودعا له بالسَّوط، وأمر بنزع قَلَنْسُوته، وساط[5] هامته مائة سوط، فاستحسن جميع الناس فعله به وأبدوا الشّماتة به.

---

(١) ينجب: يصير نجيًا. لسان العرب (نجب).

(٢) لعلَّ الصواب: «فإذا به لون مخصوص».

(٣) في طبعة دار صادر: «الانتقال عليه».

(٤) المركّب: التركيب.

(٥) ساطه: ضربه بالسوط. لسان العرب (سوط).

وكان محمد منهم مؤنثًا، وكان قاسم أحذقهم غناء مع تجويده، وتزوّج الوزير هاشم[1] بن عبد العزيز حمدونة.

وذكر عبادة الشاعر أن أول من دخل الأندلس من المغنين علون وزرقون، دخلا في أيام الحكم بن هشام، فنفقا عليه، وكانا محسنين، لكنْ غناؤهما ذهب لغلبة غناء زرياب عليه.

وقال عبد الرحمن بن الشمر منجم الأمير عبد الرحمن ونديمه في زرياب: [الخفيف]

يا عليُّ بنَ نافعٍ يا عليُّ   أنت أنت المهذَّبُ اللَّوذَعِيُّ
أنت في الأصل حين يُسْأل عنه   هاشميٌّ وفي الهوى عَبْشَمِي[2]

وقال ابن سعيد: وأنشد لزرياب والدي في معجمه: [مجزوء الكامل]

عُلِّقْتُها ريحَانَةً   هيفاءَ عاطرةً نضيرهْ
بين السمينةِ والهزيـ   ـلة والطويلة والقصيرهْ
للهِ أيامٌ لنا   سلفتْ على دَير المطيرهْ
لا عَيبَ فيها للمتيـ   ـيَم غير أنْ كانت يسيرهْ

انتهى[3].

وكان لزرياب جارية اسمها مُتعَة، أدَّبها وعلّمها أحسن أغانيه حتى شبّت، وكانت رائعة الجمال، وتصرّفت بين يدي الأمير عبد الرحمن بن الحكم تغنّيه مرّة وتسقيه أخرى، فلمّا فطنت لإعجابه بها أبدتْ له دلائل الرغبة، فأبى إلاّ التستّر، فغنّته بهذه الأبيات، وهي لها في ظنّ بعض الحفّاظ: [المجتث]

يا مَنْ يُغَطِّي هواه   من ذا يُغَطِّي النهارا
قد كنتُ أملكُ قلبي   حتى عَلِقْتُ فطارا
يا ويلتا أتراهُ   لي كان، أو مستعارا
يا بأبي قُرَشيٌّ   خلعْتُ فيه العِذَارَا

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «هشام».

(٢) عبشميّ: نسبة إلى عبد شمس.

(٣) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

فلما انكشف لزرياب أمرُها أهداها إليه، فحظيت عنده.

وكانت حمدونة بنت زرياب متقدّمة في أهل بيتها، محسنة لصناعتها، متقدّمة على أختها علية، وهي زوجة الوزير هاشم[1] بن عبد العزيز كما مرَّ، وطال عمر علية بعد أختها حمدونة، ولم يبق من أهل بيتها غيرها، فافتقر الناس إليها، وحملوا عنها.

وكانت مصابيح جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قِلْهِيْل أخذت عن زرياب الغناء، وكانت غاية في الإحسان والنبل وطيب الصوت، وفيها يقول ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وكتب به إلى مولاها[2]: [البسيط]

يا من يَضِنُّ بصوتِ الطائرِ الغَرِدِ ... ما كنتُ أحسبُ هذا الضَّنَّ مِنْ أحدِ

لو أنَّ أسماعَ أهلِ الأرضِ قاطبةً ... أصغتْ إلى الصوت لم ينقصْ ولم يزدِ

من أبيات، فخرج حافيًا لَمَّا وقف على ذلك، وأدخله إلى مجلسه، وتمتّع من سماعها، رحم اللّه تعالى الجميع!.

وقال علويه: كنت مع المأمون لَمَّا قدم الشام، فدخلْنا دمشق، وجعلْنا نطوف فيها على أماكن[3] بني أمية، فدخلنا قَصْرًا مفروشًا بالرخام الأخضر، وفيه بركة يدخلها الماء ويخرج منها فيسقي بستانًا، وفي القصر من الأطيار، ما يغني صوته عن العود والمزمار، فاستحسن المأمون ما رأى، وعزم على الصَّبوح[4]، فدعا بالطعام فأكلْنا وشربْنا، ثم قال لي: غَنِّ بأطيب صوت وأطربه، فلم يمرَّ على خاطري غير هذا الصوت: [المنسرح]

لو كان حولي بنو أميةَ لم ... ينطقْ رجالٌ أراهُمُ نطقوا

فنظر إليَّ مغضبًا، وقال: عليك لعنة اللّه وعلى بني أمية! فعلمت أني قد أخطأت، فجعلت أعتذر من هَفْوَتي، وقلت: يا أمير المؤمنين، أتلومني أن أذكر مواليَّ بني أمية، وهذا زرياب مولاك عندهم بالأندلس، يركب في أكثر من مائة مملوك وفي ملكه ثلثمائة ألف دينار دون الضياع، وإني عندكم أموت جوعًا، وفي الحكاية طول واختلاف، ومحلّ الحاجة منها ما يتعلّق بزرياب، رحم اللّه تعالى الجميع!.

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «هشام».

(٢) البيتان في ديوان ابن عبد ربه (ص ٥١) والمطرب (ص ١٥١ ـ ١٥٢) وجذوة المقتبس (ص ١٠٢).

(٣) في طبعة دار صادر: «على قصور».

(٤) الصَّبُوح: خمرة الصباح. لسان العرب (صبح).

وذكرها الرقيق في كتاب «معاقرة الشراب» على غير هذا الوجه، ونصُّه: وركب المأمون يومًا من دمشق يريد جبل الثلج، فمرَّ ببركة عظيمة من برك بني أمية، وعلى جانبها أربع سروات، وكان الماء يدخل سَيْحًا(1)، فاستحسن المأمون الموضع، ودعا بالطعام والشراب، وذكر بني أمية، فوضع منهم وتَنَقَّصَهُمْ، فأخذ علويه العود واندفع يغني: [الطويل]

أرى أسرتي في كلِّ يوم وليلةٍ يَرُوحُ بهمْ داعي المنون ويغتدي
أولئك قومٌ بَعْدَ عزّ وثروةٍ تفانَوا فإلاَّ أذرفِ العَينَ أَكْمَدِ(2)

فضرب المأمون بكأسه الأرض، وقال لعلويه: يا ابن الفاعلة، لم يكن لك وقت تذكر مواليك فيه إلاَّ هذا الوقت؟ فقال: مولاكم زرياب عند مواليَّ بالأندلس يركب في مائة غلام، وأنا عندكم بهذه الحالة، فغضب عليه نحو شهر، ثم رضي عنه، انتهى.

ونحوه لابن الرقيق(3) في كتابه «قطب السرور» وقال في آخر الحكاية: وأنا عندكم أموت من الجوع، ثم قال: وزرياب مولى المهدي، ووصل إلى بني أمية بالأندلس فعلت حاله، حتى كان كما قال علويه، انتهى.

ولَمَّا غنَّى زرياب بقوله(4): [الطويل]

ولو لم يَشُقْنِي الظاعنون لَشَاقنِي حَمامٌ تداعتْ في الديار وُقُوعُ
تداعين فاستبكينَ مَنْ كان ذا هوى نوائحُ ما تجري لهنَّ دموع

ذَيَّلَهَا عباس بن فرناس يمدح بعض الرؤساء بديهة فقال: [الطويل]

شددتُ بمحمودٍ يَدًا حين خانها زمانٌ لأسبابِ الرجاء قَطُوعُ
بَنَى لِمَسَاعي الجود والمجدِ قبلةً إليها جميع الأجودين ركوعُ

وكان محمود جوادًا، فقال له: يا أبا القاسم، أعَزُّ ما يحضرني من مالي القُبَّة، يعني قبة قامت عليه بخمسمائة دينار، وهي لك بما فيها مع كسوتي هذه، ونكون في ضيافتك

---

(1) سَيْحًا: أي جاريًا على وجه الأرض. لسان العرب (سيح).
(2) فإلاَّ: فإنْ لا. أَكْمَدُ: أحزن حزنًا شديدًا. لسان العرب (كمد).
(3) تقدم في الصفحة السابقة: «الرقيق».
(4) في طبعة ليدن: «ولمّا غنّى ابن زرياب..». والبيتان لذي الرمة في ديوانه (ص ٣٥٢) وسيردان في الجزء السابع من نفح الطيب ببعض الاختلاف عمّا هنا.

بقية يومنا، ودعا بكسوة فلبسها، ودفع إليه الكسوة.

٦٩ ـ ومن الوافدين من المشرق الأمير شعبان بن كوجبا[١].

من غُزّ الموصل، وفد على أمير المؤمنين يعقوب المنصور ملك الموحّدين، ورفع له أمداحًا جليلة، وقدّمه على إمارة مدينة بسطة من الأندلس.

قال أبو عمران بن سعيد: أنشدني لنفسه: [الطويل]

يقولون إنَّ العدل في الناس ظاهرٌ ... ولم أَرَ شيئًا منه سرًّا ولا جَهْرا
ولكنْ رأيت الناسَ غالبُ أمرهمْ ... إذا ما جَنَى زيدٌ أقادوا[٢] به عمرا
وإلاَّ فما بالُ النِّطاسِيِّ كلّما ... شكوتُ له يُمْنَى يَدِي فَصَدَ اليُسْرَى[٣]

٧٠ ـ ومن الوافدين من المشرق على الأندلس أبو اليَسَر إبراهيم بن أحمد الشيباني[٤].

من أهل بغداد، وسكن القيروان، ويُعْرف بالرياضي، وكان له سماع ببغداد من جِلَّة المحدّثين والفقهاء والنحويين، لقي الجاحظ والمبرد وثعلبًا وابن قتيبة، ولقي من الشعراء أبا تمام والبحتري ودِعْبِلاً وابن الجَهْم، ومن الكُتّاب سعيد بن حُمَيد وسليمان بن وهب وأحمد بن أبي طاهر وغيرهم، وهو الذي أدخل إفريقية رسائل المحدَثِينَ وأشعارهم وطرائف أخبارهم، وكان عالمًا أديبًا، ومرسّلاً بليغًا، ضاربًا في كل علم وأدب، سمع وكتب بيده أكثر كتبه، مع براعة خطّه وحُسْن وِرَاقته.

وحكي أنه كتب على كبره كتاب سيبويه كلّه بقلم واحد، ما زال يَبْريه حتى قَصُر، فأدخله في قلم آخر، وكتب به حتى فني بتمام الكتاب.

وله تآليف: منها «القيط المرجان»[٥] وهو أكبر من «عيون الأخبار»[٦] وكتاب «سراج

---

(١) في طبعة بولاق: «كوجيا».

(٢) أقاد: أقام القود، والقَوَد: العقاب والقصاص. لسان العرب (قود).

(٣) النِّطاسي، بكسر النون: المتطبّب. فَصَد: شقّ عرقه لإخراج الدم منه. لسان العرب (نطس) و (فصد).

(٤) ترجمة أبي اليَسَر إبراهيم بن أحمد الشيباني في التكملة (ص ١٧٣) وفي البيان المغرب (جـ ١ ص ١٦٢) وفيه: «إبراهيم بن محمد».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «لقط».

(٦) عيون الأخبار لابن قتيبة، وقد قمنا بتحقيقه، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.

الهدى» في القرآن ومشكله وإعرابه ومعانيه، و «المرصعة» و «المدبجة».

وجال في البلاد شرقًا وغربًا من خُرَاسان إلى الأندلس، وقد ذكر ذلك في أشعار له.

وكان أديب الأخلاق، نزيه النفس، كتب لأمير إفريقية إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، ثم لابنه أبي العباس عبد الله، وكان أيام زيادة الله بن عبد الله آخر ملوك الأغالبة على بيت الحكمة، وتوفي بالقيروان سنة ثمان وتسعين ومائتين في أوّل ولاية عبيد الله الشيعي، وهو ابن خمس وسبعين سنة.

ومِمَّنْ أَلَمَّ بذكره المؤرخ الأديب أبو إسحٰق إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق.

وقال عريب بن سعد في حقّه: إنه كان أديبًا شاعرًا مرسِّلاً حسن التأليف، وقدم الأندلس على الإمام محمد بن عبد الرحمن، وذكر له معه قصّة ذكرها ابن الأبّار في كتابه «إفادة الوفادة» وحكي أنّ له مسندًا في الحديث، وكتابًا في القرآن سمّاه «سراج الهدى» والرسالة الوحيدة[1]، والمؤنسة، وقطب الأدب، وغير ذلك من الأوضاع.

قال: وكتب لبني الأغلب حتى انصرمت أيامهم، ثم كتب لعبيد الله حتى مات.

ومن الرواة عنه أبو سعيد عثمان بن سعيد[2] الصيقل مولى زيادة الله بن الأغلب، وأسند إليه الحافظ ابن الأبار رواية شعر أبي تمام بأنْ قال: قرأت شعر حبيب على أبي الربيع بن سالم، وقرأت جملة منه على غيره، وناولني جميعه وحدّثني به عن أبي عبد الله ابن زرقون عن الخَولاني عن أبي القاسم حاتم بن محمد عن أبي غالب تمام بن غالب بن عمر اللغوي عن أبيه أبي تمام عن أبي سعيد المذكور، يعني ابن الصيقل، عن أبي اليسر عن حبيب، وهو إسناد غريب، انتهى.

٧١ ـ ومنهم أبو إسحٰق إبراهيم بن خلف بن منصور، الغساني، الدمشقي، المعروف بالسنهوري[3].

وسنهور: من بلاد مصر، روى عن أبي القاسم بن عساكر وأبي اليمن الكندي وأبي المعالي الفراوي وأبي الطاهر الخشوعي وغيرهم.

---

(١) في البيان المغرب (جـ ١ ص ١٦٣): «الرسالة الوحيدة المؤنسة»، أي بدون واو العطف، على أنها رسالة واحدة.

(٢) في طبعة ليدن: «سعد».

(٣) ترجمة إبراهيم بن خلف بن منصور السنهوري في التكملة (ص ١٧٦).

قال أبو العباس النباتي: قدم علينا - يعني إشبيلية - سنة ثلاث وستمائة، وسمّى جماعة من شيوخه، وحكي أنه كان يروي موطّأ أبي مصعب وصحيح مسلم بعلوّ.

وقال أبو سليمان بن حَوط اللّه: أجازني وابني محمدًا جميعَ ما رواه عن شيوخه الذين منهم أبو الفخر فناخسرو بن فيروز الشيرازي، وذكر أنَّ روايته بنزول؛ لأنه لم يرحل إلاّ بعد وفاة الشيوخ المشاهير بهذا الشأن.

وقال أبو الحسن بن القطان، وسمّاه في شيوخه: قدم علينا تونس سنة اثنتين وستمائة، واستجزته لابني حسن فأجازه وإياي، قال: وانصرف من تونس إلى المغرب، ثم الأندلس، وقدم علينا بعد ذلك مراكش مُفْلتًا من الأسر، فظهر في حديثه عن نفسه تجازف واضطراب وكذب زَهَّد فيه، وأثر ذلك انصرف إلى المشرق راجعًا، وقد كان إذا أجاز ابني كتب بخطّه جملة من أسانيده وسمّى كتبًا منها الموطأ والصحيحان وغير ذلك، قال: وقد تبرأت من عُهْدة جميعه لما أثبتُّ من حاله، وحدّثني أبو القاسم بن أبي كرامة صاحبنا بتونس أنَّ السنهوري هذا لَمَّا انصرف إلى مصر امتُحن بملكها الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب لأجل مُعَاداته أبا الخطاب بن الجُمَيِّل، فضُرِب بالسياط، وطِيف به على جمل مبالغة في إهانته، انتهى.

وقال بعض المؤرخين في حقّه، ما نصُّه: الشيخ المحدّث الرحالة إبراهيم السنهوري صاحب الرحلة إلى البلاد، دخل الأندلس كما ذكره ابن النجار وغيره، وهو الذي ذكر لمشايخ الأندلس وعلمائها أنَّ الشيخ أبا الخطاب بن دَحية[1] يدَّعي أنه قرأ على جماعة من شيوخ الأندلس القدماء، فأنكروا ذلك وأبطلوه وقالوا: لم يَلْقَ هؤلاء ولا أدركهم، وإنما اشتغل بالطلب أخيرًا، وليس نسبه بصحيح فيما يقوله، ودَحْية لم يُعْقب، فكتب السنهوري محضرًا وأخذ خطوطهم فيه بذلك، وقدم به ديار مصر، فعلم أبو الخطاب بن دَحية بذلك، فاشتكى إلى السلطان منه، وقال: هذا يأخذ عرضي ويؤذيني، فأمر السلطان بالقبض عليه، فقُبض وضُرب بالسِّياط وأُشهر على حمار، وأُخرج من ديار مصر، وأخذ ابن دَحية المحضَرَ وحرقه، ولم يزل ابن دحية على قربٍ من السلطان إلى حين وفاته، وبنى له دارًا للحديث، وهي الكاملية ببين القصرين، فلم يزل يحدّث بها إلى أن مات.

---

(١) هو عمر بن حسن بن دحية الأندلسي البلنسي الداني المتوفّى سنة ٦٣٣هـ، وصاحب كتاب «المطرب من أشعار أهل المغرب». وقد مرّت ترجمته والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثاني.

وقد ذكرنا في ترجمة ابن دَحية من هذا الكتاب شيئًا من أحواله، وأنَّ الناس فيه معتقد ومنتقد، وهكذا جرت العادة خصوصًا في حقّ الغريب المنتسب للعلم: [الوافر]

وعند اللّه تجتمع الخصومُ

ومِمَّن كان عليه لا له أبو المحاسن محمد بن نصر المعروف بابن عنين فإنه قال فيه[1]: [السريع]

دِحْيَةُ لم يُعْقِبْ فَلِمْ تعتزي إليه بالبُهْتان والإفكِ
ما صَحَّ عند الناس شيءٌ سوى أنك مِنْ كَلْبٍ بلا شكِّ

هكذا ذكره ابن النجار، وأطال في الوقيعة في أبي الخطاب بن دَحْيَة.

وقال الذهبي: قرأت بخطّ الضياء عندما ذكر ابن دحية أنه قال: لقيته بأصبهان، ولم أسمع منه[2] شيئًا، وأخبرني إبراهيم السنهوري بأصبهان أنه دخل المغرب، وأنّ مشايخه كتبوا له جَرْحَه وتضعيفه، وقد رأيت أنا منه غير شيء مِمّا يدلّ على ذلك، وبسببه بنى السلطان الملك الكامل دار الحديث بالقاهرة وجعله شيخها، وقد سمع منه الإمام أبو عمرو ابن الصلاح الموطأ سنة نيّف وستمائة، وأخبره به عن جماعة منهم أبو عبد اللّه بن زرقون.

وقال ابن واصل: كان أبو الخطاب ـ مع فرط معرفته بالحديث، وحفظه الكثير منه ـ متّهمًا بالمجازفة في النقل، وبلغ ذلك الملك الكامل، فأمره أن يعلّق شيئًا على كتاب «الشّهاب»، فعلّق كتابًا تكلّم فيه على أحاديثه وأسانيده، فلمّا وقف الملك الكامل على ذلك قال له بعد أيام: قد ضاع مني ذلك الكتاب، فعَلِّقْ لي مثله، ففعل، فجاء في الثاني مناقضة للأول، فعلم الملك الكامل صحة ما قيل عنه، ونزلت مرتبته عنده، وعزله عن دار الحديث أخيرًا، وولّى أخاه أبا عمرو عثمان.

وقال ابن نقطة: كان أبو الخطاب موصوفًا بالمعرفة والفضل، ولم يره، إلاّ أنه كان يدّعي أشياء لا حقيقة لها؛ ذكر لي أبو القاسم بن عبد السلام ـ وكان ثقة ـ قال: نزل عندنا ابن دَحْيَة فقال: إني أحفظ صحيح مسلم والترمذي، فأخذت خمسة أحاديث من الترمذي ومثلها من المسند ومثلها من الموضوعات، فجعلتها في جزء، ثم عرضت عليه حديثًا من

(١) البيتان في ديوان ابن عنين (ص ٢٢٠).
(٢) في طبعة عبد الحميد: «منها».

الترمذي فقال: ليس بصحيح، وآخر فقال: لا أعرفه، ولم يعرف منها شيئًا، فأفسد نفسه بذلك.

وقال سبط ابن الجوزي[١]: إنه كان يتزيّد[٢] في كلامه، ويثلب[٣] المسلمين، ويقع فيهم، فترك الناس الرواية عنه وكذّبوه، وقد كان الملك الكامل مقبلاً عليه، فلمّا انكشف له شأنه أخذ منه دار الحديث وأهانه.

وقال العِمَاد بن كثير: قد تكلّم الناسُ فيه بأنواع من الكلام، ونسبه بعضهم إلى وَضْع حديث في قصر[٤] صلاة المغرب، وكنتُ أودُّ أن أقف على إسناده ليعلم كيف رجاله، وقد أجمع العلماء ـ كما ذكره ابن المنذر وغيره ـ على أنّ صلاة المغرب لا تقصر، واتّفق أنه وصل في جمادى الأولى سنة ٦١٦ إلى غزة، فخرج كلُّ من في غزة بالأسلحة والعصي والحجارة إلى الموضع الذي هو فيه، وضربوه ضربًا شديدًا بعد أن انهزم مَنْ كان معه، انتهى.

وقدّمنا في ترجمته توثيق جماعة له، فربُّك أعلمُ بحاله.

٧٢ ـ ومنهم عبد الله بن محمد بن آدم، القارىء، الخراساني[٥].

رحل من خراسان إلى الأندلس، يكنى أبا محمد، ذكره أبو عمرو المقرىء، وقال: سمعته يقرأ مرات كثيرة، فكان من أحسنَ الناس صوتًا، ولم تكن له معرفة بالقراءة ولا دراية بالأداء، انتهى.

٧٣ ـ ومنهم عبد الرحمن بن داود بن علي، الواعظ[٦].

من أهل مصر، يُعْرف بالزبزاري، يكنى أبا البركات وأبا القاسم، ويلقّب زكي الدين. قدم على الأندلس، وتجوّل في بلادها واعظًا ومذكرًا، وسمع منه الناس بقرطبة وإشبيلية ومُرْسِية وبَلَنْسِية سنة ٦٠٨.

---

(١) النص في مرآة الزمان في تاريخ الأعيان (ص ٦٩٨).
(٢) يتزيّد في كلامه: يزيد في أثنائه من عنده ويكذب فيه. لسان العرب (زيد).
(٣) يثلب المسلمين: ينقصهم ويعيبهم. لسان العرب (ثلب).
(٤) قصر الصلاة: رخصه للمسلمين في السفر أن يصلّوا ركعتين بدلاً من أربع.
(٥) ترجمة عبد الله بن محمد بن آدم الخراساني في التكملة (ص ٩١٣).
(٦) ترجمة عبد الرحمن بن داود بن علي في التكملة (رقم ١٦٥٥).

قال ابن الأبار: وسمعت وعظه إذ ذاك بالمسجد الجامع من بَلَنْسِية، وادّعى الرواية عن أبي الوقت السِّجْزِي والسِّلَفي وأبي الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي وأبي محمد[1] المبارك بن الطباخ وأبي الفضل محمد بن يوسف الغزنوي وشهدة الكاتبة بنت الإبري[2]، زعم أنه قرأ عليها صحيح البخاري، وجماعة بالمشرق والأندلس لم يَلْقَهم ولم يسمع منهم، وربما حدَّث بواسطةٍ[3] عن بعضهم، وأكثرهم مجهولون، وقفت على ذلك في فهرست روايته، فزهد أكثر السامعين منه، واطَّرَحُوا الرواية عنه[4]، ومنهم أبو العباس النباتي وأبو عبد الله بن أبي البقاء، وجمع أربعين حديثًا مسلسلة سمّاها باللآلىء المفصلة، حدّث فيها عن ابن بَشْكُوال وابن غالب الشراط وغيرهما من الأندلسيين الذين لم يلْقَهم ولا أجازوا له، أخذها عنه ابن الطَّيلسان وغيره، وكان ـ مع هذا ـ فقيهًا على مذهب الشافعي، رضي الله تعالى عنه! فصيحًا، مشاركًا في فنون من العلم، سمح الله تعالى له! انتهى.

ولا بأس أن نذكر جملة من النساء القادمات من المشرق على الأندلس، ثم نعود أيضاً إلى ذكر أعلام الرجال، فنقول:

٧٤ ـ من النساء الداخلات الأندلس من المشرق عابدة المدنية، أم ولد حبيب ابن الوليد المرواني، المعروف بدحون.

وكانت جارية سوداء، من رقيق المدينة، حالكة اللون، غير أنها تروي عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة وغيره من علماء المدينة، حتى قال بعض الحفاظ: إنها تروي عشرة آلاف حديث.

وقال ابن الأبار: إنها تسند حديثًا كثيرًا، وهي أم ولده بشر بن حبيب، والذي وهبها لدحون في رحلته إلى الحجّ هو محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان، فقدم بها الأندلس، وقد أُعجب بعلمها وفهمها، واتّخذها لفراشه، رحم الله تعالى الجميع!.

٧٥ ـ ومنهن فَضْل المدنية.

وكانت حاذقة بالغناء، كاملة الخصال، وأصلها لإحدى بنات هارون الرشيد، ونشأت

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «ابن المبارك».

(٢) في الطبعة نفسها: «الأبري».

(٣) حدّث بواسطة: أي كان بينه وبين الذي يحدّث عنه راوٍ آخر كتم اسمه ولم يذكره.

(٤) اطّرحوا الرواية عنه: تركوها ولم يرووا عنه.

وتعلّمت ببغداد، ودرجت من هناك إلى المدينة المشرّفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام! فازدادت ثَمَّ طبقتُهَا في الغناء، واشتريت هنالك للأمير عبد الرحمن صاحب الأندلس مع صاحبتها علم المدنية، وصواحب غيرها إليهنّ تُنسب دار المدنيات بالقصر، وكان يؤثرهنّ لجودة غنائهنّ ونَصَاعة ظرفهنّ ورقّة أدبهنّ، وتضاف إليهن جارية [يقال لها][1] قلم، وهي ثالثة فضل وعلم في الحظْوة عند الأمير المذكور، وكانت أندلسية الأصل، رومية من سبي البشكنس، وحُملت صبيّة إلى المشرق، فوقعت بمدينة النبي ﷺ، وتعلّمت هنالك الغناء فحذقته، وكانت أديبة، ذاكرة، حسنة الخطّ[2]، راوية للشعر، حافظة للأخبار، عالمة بضروب الآداب[3].

٧٦ ـ ومن النساء الداخلات إلى الأندلس من المشرق قمر جارية إبراهيم بن حجاج اللخمي، صاحب إشبيلية.

وكانت من أهل الفصاحة والبيان، والمعرفة بصَوْغ الألحان، وجُلبت إليه من بغداد، وجمعت أدبًا وظَرْفًا، وروايةً وحفظًا، مع فهم بارع، وجمال رائع، وكانت تقول الشعر بفضل أدبها، ولها في مولاها تمدحه: [الكامل]

ما في المغارب مِنْ كريم يُرْتَجَى ... إلاَّ حليفُ الجودِ إبراهيمُ
إنّي حَلَلْتُ لديه منزلَ نعمةٍ ... كلُّ المنازل ما عداه ذميمُ

وأنشد لها السالمي لمّا ذكرها عدّة أشعار: منها قولها تتشوّق إلى بغداد: [الكامل]

آهًا على بغدادها وعراقها ... وظبائها والسحر في أحداقِها
ومجالها عند الفرات بأوجه ... تبدو أَهِلَّتُهَا على أطواقها
متبخترات في النعيم كأنما ... خُلِقَ الهوى العُذْرِيّ من أخلاقها
نفس الفداء لها فأيُّ محاسن ... في الدهر تُشْرِقُ مِنْ سَنَا إشراقها

٧٧ ـ ومنهن الجارية العجفاء[4].

---

(١) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد.
(٢) في طبعة عبد الحميد: «الحظّ».
(٣) ترجمة قمر جارية إبراهيم بن حجاج في التكملة (رقم ٢١١٤).
(٤) الخبر الذي أورده الأرقمي عن العجفاء في الأغاني (جـ ٢٤ ص ١١٢ ـ ١١٤) في ترجمة أبي صخر الهذلي، وفيه بعض الاختلاف عما هنا.

قال الأرقمي[١] : قال لي أبو السائب[٢]، وكان من أهل الفضل والنُسك: هل لك في أحسن الناس غناءً؟ فجئنا إلى دار مسلم بن يحيىٰ مولى بني زُهْرة، فأذن لنا فدخلْنا بيتًا عرضه اثنا عشر ذراعًا في مثلها، وطوله في السماء ستة عشر ذراعًا، وفي البيت نُمْرُقتان قد ذهب عنهما اللُّحمة وبقي السَّدى، وقد حُشِيتا بالليف، وكرسيّان قد تفكّكا من قدمهما، ثم اطلعت علينا عجفاء كَلْفاء، عليها [قَرْقَل][٣] هَرَويٌّ أصفرُ غسيلٌ[٤]، وكأنَّ وَرْكَيها في خيطٍ من رسحها[٥]، فقلت لأبي السائب: بأبي أنت! ما هذه فقال: اسكتْ، فتناولتْ عودًا فغنّت[٦]: [الكامل]

بِيَدِ الذي شَغَفَ الفؤادَ بكمْ ... تفريجُ ما ألقى مِنَ الهمِّ[٧]
فاستيقني أنْ قد كَلِفْتُ بكم ... ثم افعلي ما شئت عن علم
قد كان صَرْمٌ في الممات لنا ... فعجلت قبل الموت بالصرم

قال: فتحسّنت في عيني، وبدا ما أذهَبَ الكَلَفَ عنها، وزحف أبو السائب وزحفت معه، ثم تغنّت[٨]: [الكامل]

برح الخفاء فأيّما بك تَكْتُمُ ... ولسوف يظهرُ ما تسرُّ[٩] فَيُعْلَمُ
مِمّا تضمّنَ مِنْ عَزِيزٍ[١٠] قلْبُهُ ... يا قلبُ إنك بالحِسان لَمُغْرَمُ
يا ليت أنك يا حسامُ بأرضنا ... تُلْقي المراسيَ طائعًا وتُخَيِّمُ
فتذوقَ لذةَ عَيْشِنا ونعيمَه ... ونكون إخوانًا[١١] فماذا تنقم

---

(١) هو غرير بن طلحة الأرقمي كما في الأغاني.
(٢) هو أبو السائب المخزومي كما في الأغاني.
(٣) ما بين قوسين إضافة من الأغاني. والقَرْقَلُ: قميص للنساء أو ثوب لا كُمّ له، والجمع قراقل. محيط المحيط (قرقل).
(٤) الغسيل: المغسول. لسان العرب (غسل).
(٥) في طبعة عبد الحميد: «وسخها». والرَّسح: قلة لحم العجز والفخذين. لسان العرب (رسح).
(٦) البيت الأول في الأغاني (جـ ٢٤ ص ١١٣).
(٧) في الأغاني: «فرج الذي ألقى..».
(٨) الأبيات في الأغاني (جـ ٢٤ ص ١١٣).
(٩) في الأغاني: «ما يُسَرُّ».
(١٠) في طبعة دار صادر وفي الأغاني: «من عُزَيْزَةٍ».
(١١) في الأغاني: «أجوارًا».

فقال أبو السائب: إنْ نَقِمَ[1] هذا فأعضَّه اللّه تعالى بكذا وكذا من أبيه، ولا يكني، فزحفْتُ مع أبي السائب حتى فارقنا النمرقتين، وَرَبَتِ العجفاءُ في عيني كما يربو السويق بماء مُزْنَة، ثم غنّت[2]: [المنسرح]

يا طُولَ ليلي أُعالجُ السَّقَما   إذْ حلَّ كلُّ الأحبّة الحَرَما[3]

ما كنت أخشى فراقكُمْ أبدًا   فاليوم أمسى فراقُكُمْ عَزَما[4]

فألقيت طيلساني، وأخذت شاذكونة[5] فوضعتها على رأسي، وصحتُ كما يصاح على اللوبيا بالمدينة، وقام أبو السائب فتناول ربعة[6] في البيت فيها قوارير ودهن، فوضعها على رأسه، وصاح صاحب الجارية وكان ألثغ: قوانيني، يعني قواريري، فاصطكّت القوارير وتكسّرت، وسال الدهن على رأس أبي السائب وصدره، وقال للعجفاء: لقد هِجْتِ لي داء قديمًا، ثم وضع الربعة. وكنا نختلف إليها حتى بعث عبد الرحمن بن معاوية صاحب الأندلس فابتيعت له العجفاء، وحُملت إليه.

٧٨ ـ ومن القادمين على الأندلس من المشرق الشيخ عبد القاهر بن محمد بن عبد الرحمن، الموصلي.

قال أبو حيان: قدم علينا رسولاً من ملك مصر إلى ملك الأندلس، فسمعت منه بألْمَرِية، انتهى.

٧٩ ـ ومنهم أحمد بن الحسن بن الحارث بن عمرو بن جرير بن إبراهيم بن مالك، المعروف بالأشتر، بن الحارث، النخعي[7].

يكنى أبا جعفر، دخل الأندلس في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن، وأصله من الكوفة، وكان يروي أحاديث عظيمة العدد، ذكر ذلك الرازي، وحكي أنّ الأمير محمدًا روى عنه منها، وأنزله برِيَّة.

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «إنْ يقم».

(٢) البيتان في الأغاني (ص ١١٤).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «أدخل كلُّ..». وفي الأغاني: «إذ حَلَّ دون الأحبّة..».

(٤) في الأغاني: «.. فراق بينكم فاليوم أضحى..».

(٥) الشاذكُونة: الفراش الذي يُنام عليه، وثياب غلاظ مضرّبة تعمل باليمن، فارسية. محيط المحيط (شذكن).

(٦) الربعة: الجونة للعطار. لسان العرب (ربع).

(٧) ترجمة أحمد بن الحسن الأشتر في التكملة (ص ١٢٦).

٨٠ - ومنهم أحمد بن أبي عبد الرحمن، واسمه يزيد بن أحمد بن أبي[1] عبد الرحمن، القرشي، الزهري، من ولد عبد الرحمن بن عَوف[2].

من أهل مصر، وفد على الناصر بقرطبة، وكان دخوله إليها في محرم سنة ٣٤٣، فأكرم الناصر مَثْواه وكان فقيه أهل مصر، ذكره ابن حيان.

٨١ - ومنهم أبو الطاهر إسماعيل بن الإسكندراني[3].

لقي ببلده أبا طاهر السِّلَفي، وسمع منه، ودرس عليه كتاب «الاصطلاح» للسمعاني، وقدم الأندلس، ودخل مُرْسِية تاجرًا، وكان فقيهًا على مذهب الشافعي، وأنشد عن السلفي[4] قوله: [مجزوء الرمل]

أنا من أهل الحديـ ... ـث وهُمْ خيرُ فِئَة
عشت تسعين وأرْ ... جو أن أعيشَ لمائه

فعاش كما تمنَّى، رحمه الله تعالى!.

٨٢ - ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن إسماعيل بن بشر، الأنطاكي، الإمام، أبو الحسن، التميمي[5].

نزيل الأندلس ومُقْرِئها ومسندها، أخذ القراءة عرضًا وسماعًا عن إبراهيم بن عبد الرزاق ومحمد بن الأخرم وأحمد بن يعقوب التائب وأحمد بن محمد بن خشيش ومحمد ابن جعفر بن بيان، وصنف قراءة وَرْش، قرأ عليه جماعة: منهم أبو الفرج الهيثم الصباغ وإبراهيم بن مبشر المقرىء وطائفة آخرون من قراء الأندلس، وسمع منه عبد الله بن أحمد ابن مُعَاذ الداراني.

قال أبو الوليد بن الفرضي[6]: أدخل الأنطاكي الأندلُسَ علمًا جمًّا، وكان بصيرًا

---

(١) كلمة «أبي» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

(٢) ترجمة أحمد بن أبي عبد الرحمن في التكملة (ص ١٢٧).

(٣) ترجمة أبي الطاهر إسماعيل بن الإسكندراني في التكملة (ص ١٩٠).

(٤) في طبعة بولاق: «على السلفي».

(٥) ترجمة علي بن محمد الأنطاكي في تاريخ علماء الأندلس (ص ٥٣٦) وغاية النهاية في طبقات القراء (جـ ١ ص ٥٦٤).

(٦) النص في تاريخ علماء الأندلس، وفي روايته بعض الاختلاف عمّا هنا.

بالعربية والحساب، وله حظٌّ من الفقه، قرأ الناسُ عليه، وسمعت أنا منه، وكان إمامًا[1] في القراءات، لا يتقدّمه أحد في معرفتها في وقته، وكان مولده بأنطاكية سنة ٢٩٩، ومات بقرطبة في ربيع الأول سنة ٣٧٧، رحمه الله تعالى!

٨٣ - ومنهم عمر بن مودود بن عمر، الفارسي، البخاري، يكنى أبا البركات[2] وهو من أبناء الملوك، وانتقل إلى المغرب، فدخل الأندلس، ونزل مالَقَة في حدود ثلاثين وستمائة، ودخل إشبيلية، وكانت له رواية بالمشرق.

قال ابن الأبار: أجاز لي ما رواهُ، ولم يُسَمِّ أحدًا من شيوخه، وبلغني أنه سمع صحيح البخاري بالدامَغان[3] على أبي عبد الله محمد بن محمود، وكانت إجازته لي سنة ٦٣١، وعاش بعد ذلك، وتوفي بمراكش بعد الأربعين وستمائة[4]، وحدّث بالأندلس، وأخذ عنه الناس، وكان من أهل التصوّف والتحقّق بعلم الكلام، رحمه الله تعالى!.

٨٤ - ومنهم الشريف الأجلّ الرحالة الشيخ نجم الدين بن مهذّب الدين.

وكنت لا أتحقّق من أي البلاد هو من المشرق، ثم إني علمت أنه من بغداد إذ وقفت على كتابين كتبهما في شأن العناية به الأديبُ العلامة أبو المطرف أحمد بن عبد الله ابن عميرة المخزومي: أحدهما لأبي العلاء حسان، والثاني للكاتب أبي الحسن العَنْسي، وهو الذي يُفْهم منه أنه من بغداد.

ونصُّ الأول: [الكامل]

يا ابن الوصيِّ، إذا حملْتَ وصيّتي ... أوجَبْتَ حقًّا للحقوقِ يُضَافُ
وتحيّتي كلُّ التحايا دونها ... وكذاك دونَ رسولِها الأشرافُ
أحْسِنْ بأن تَلْقَى ابنَ حَسَّان بها ... مهتزّةً لورودها الأعطافُ
كالروضِ باكرهُ الندى فَلِعَرْفِها ... يا ابنَ النبيِّ على النديِّ[5] مَطَافُ
وعُلاكَ إنَّ أبا العلا ومكانه ... يُلْفَى به الإسعادُ والإسعاف

---

(١) في طبعة دار صادر: «رأسًا في القراءات».
(٢) ترجمة عمر بن مودود الفارسي في التكملة (رقم ٢٢٥٢) وصلة الصلة (ص ٧٤).
(٣) دامَغان: بلد كبير بين الريّ ونيسابور، وهو قصبة قومس. معجم البلدان (جـ ٢ ص ٤٣٣).
(٤) في صلة الصلة: سنة ٦٣٩.
(٥) النديّ: النادي. لسان العرب (ندي).

وأَحَقُّ مَنْ عرف الكرامُ بوصفهم   مَنْ جُمِّعتْ منهمْ له أوصاف

هذه يا سيدي، تحية تجب لها إجابة وَحِيَّة[1]، وتصلح بها هَشَاشة وأريحية، أودعتها بطن هذه العُجَالة، وبعثتها مع صَدْر من أبناء الرسالة، ولله درّه من راضِع دَرِّ النبوّة، متواضع مع شرف الأبوّة، نازعْتُه طرق[2] الأشعار، وأطراف الأخبار، فوجدته[3] بحرًا حَصَاه الدّرُّ النفيس، وروضًا يَجْنِي منه أطايبَ السمر الجليسُ، ويُنْعَتُ بنجم الدين وهو كنَعْته نجم يضيء سناه، ويحلُّ بيتًا من الشرف ربُّه بَنَاه، وقد جاب الفضاء العريض، ورأى القصور الحمر والبيض، وورد الحَجُون، بعد ما شرب من ماء جيحون، وزار مشاهد الحرمين، ثم سار في أرض الهرمين، وفارق إفريقية لهذا الأفق مختارًا، وعَبَر إلى الأندلس فأطال بها اعتبارًا، وتشوّق إلى حضرة الأنوار المُفَاضة، والنعم السابغة الفضفاضة، وجعل قصدها بحَجَّة سفره طَوَاف الإفاضة، وهمّه أنْ يشاهد سَنَاها العلوي، ويبصر ما يحقر عنده المرئي والمروي، وهي غاية يقول للأمل: عليها أطلت حَومي، وجنّة يتلو الداخل لها ﴿يا لَيت قومي﴾[4] وسيدي هو منها باب على الفتح بُني، وجنابٌ عنانُ الأملِ إليه ثُني، وقَصَده من هذا الشريف أجلُّ قاصد، وأظَلَّته سماء المجد بجمال المشتري وظرف عُطَارد، ومتى نعتْناه فالخبر ليس كالعِيَان، ومتى شبّهناه فالتمويه بالشبه عقوق العقيان، ومن يفضح قريحته بأن يقول لها صِفِيه، لكن يعرف عن نفسه بما ليس في وسع واصفيه، ويقتضي من عزيمة برّه ما لا سَعَة للمترخص فيه، إن شاء اللّه تعالى، وهو يديم عُلاَكم، ويحرس مجدكم وسناكم، بمنّه، والسلام الكريم، الطيب العميم، يخصّكم به معظِّمُ مجدكم، المعتدّ بذخيرة ودّكم، المحافظ على كريم عهدكم، ابن عميرة، ورحمة اللّه تعالى وبركاته، في الرابع والعشرين لربيع الآخر من سنة ٦٣٩ انتهى.

ونصُّ الثاني: [المنسرح]

هل لك يا سيدي أبا الحسنِ   فيمن له كلُّ شاهدٍ حسنِ
في الشرف المنتقى له قدمٌ   أثبتها بالوصيّ والحَسَنِ

---

(١) وَحِيَّةٌ: سريعة. لسان العرب (وحي).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «طرف».

(٣) في طبعة دار صادر: «فوجدت».

(٤) يشير إلى قول اللّه تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ الجَنَّةَ قال يا ليتَ قومي يعلمونَ بما غَفَرَ لي ربِّي وجعلني من المُكْرَمِينَ﴾. سورة يس ٣٦، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

أيها الأخ الذي مَلّكته قيادي، وأسكنته فؤادي، عهدي بك تَعْتَام[1] الآداب النقية، وتشتاق اللطائف المشرقية، وتنصف فترى أنّ في سيلنا جُفَاء، وفي مغربنا جَفَاء، وأنّ المحاسن نَبْتُ أرضٍ ما بها وُلدنا، وزرعُ وادٍ ليس مِمّا عَهِدْنا، وأنا في هذا أشايعك وأُتابعك، وأُناضل من ينازلك وينازعك، وقد أتانا اللّه تعالى بحجّة تقطع الحجج، وتُسكت المهج، وهو الشريف الأجلُّ، السيد المبارك نجم الدين بن مهذب الدين نجل الذرية المختارة، ونجم الدرية السيارة، جَرَى مع زَعْزع ونسيم، ورَتَع في جميم وهشيم[2]، وشاهَدَ عجائبَ كل إقليم، وشرّق إلى مطلع ابن جَلاَ[3]، وغرّب حتى نزل بشاطىء سَلاَ، وقد توجّه الآن إلى حضرة الإمامة الرشيدية أيّدها اللّه تعالى لينتهي من أصابع العدّ إلى العُقْدة، ويحصل من مَخْض[4] الحقيقة على الزُّبدة، وقد علم أنه ما كلُّ الخُطَب كخطبة المنبر، ولا جميعُ الأيام مثل يوم الحجّ الأكبر، وأدبه يا سيدي من نِسْبَة أفقه، بل على شكل حسبه وخلقه، فإذا رأيته شهدت بأنّ الشرق قد أتحف إفريقية ببغداذه، بل رمانا بجملة أفلاذِه، والحظّ فيما يجب من بره وتأنيسه، إنما هو في الحقيقة لجليسه، فيا غبطة من يسبق لجواره، ويقبس من أنواره، وأنت لا محالة تفهمه فهمي، وتشيم من شيمه عارضًا بَرِيّ القلوب الهيم يَهْمي، وتضرب في الأخذ من فوائده وقلائده بسهم وددت أنه سهمي، والسلام، انتهى.

٨٥ ـ ومنهم تقي الدين محمد ابن الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد بن الغَرْس[5]، الحنفي، المصري.

قال الوادي آشي فيه: إنه من أعيان مصر، قال: وسألته هل يقع بين أهل مصر تنازع في تفضيل بعض المذاهب على بعض؟ فأجابني بأنّ هذا لا يقع عندهم بين أهل الرسوخ في العلم، وذوي المعرفة والفهم، وإنما يصدر هذا بين الناشئين قال: وللحنفية الظهور عليهم حين يقولون لهم: لنا عليكم اليد الطولى في الخبز، لكونه بمصر يطبخ في الفرن بأرواث

---

(١) تعتام: تختار. محيط المحيط (عام).
(٢) الجميم: ما غطّى الأرض من النبات. الهشيم: النبت اليابس المتكسّر. لسان العرب (جمم) و (هشم).
(٣) ابن جلا: الصبح وقيل هو القمر، وقيل هو اسم رجل بعينه. محيط المحيط (جلا).
(٤) في طبعة ليدن: «محض» بالحاء المهملة.
(٥) في الطبعة نفسها: «الفرس».

الدواب، وكذلك تسخين الحمام، فإنّ المالكية وغيرهم بمصر يقلّدون الحنفية في ذلك، قال: وسألته، حفظه اللّه تعالى: هل للوباء بمصر وقتٌ معلوم؟ فقال لي: جرت العادة عندهم بقدر اللّه تعالى وسرّه في خليقته أنّ كلّ سنة أولها ثاء مثلثة[1] يكون فيها الوباء، واللّه تعالى أعلم، وأنّ هذا مُتَعَارَفٌ عندهم، هكذا قال لي، وعِيبَ ما يقع من بعض النقاد بتونس وما يصدر عنهم بكثرةٍ من إلقائهم الأسئلة العويصة في أصول الدين وغيرها على مَنْ يرد عليهم قصدًا في تعجيزِه وتعنيته، ثم قال: إنّ من المنقول عن الإمام أبي حنيفة، رحمه اللّه تعالى، أنّ من حُفظت عنه تسع[2] وتسعون خصلة تقتضي الكفر وواحدة تقتضي الإيمان أنّ الواحدة المقتضية للإيمان تغلب وتبقى حرمتها عليه، انتهى.

وقد ذكرنا في الباب الأول من هذا القسم حكاية البصري المغنّي القادم من المشرق من البصرة على عبد الوهاب الحاجب بإفريقية في دولة بني المعز بن باديس، وسَرَدْنَا دخوله عليه في مجلس أُنسه، وما اتّفق في ذلك له معه، وأنه وصف له بلاد الأندلس وحسنها وطيبها، فارتحل المغني إليها، ومات بها، حسبما لخّصْناه من كلام الكاتب ابن الرقيق الأديب المؤرخ في كتابه «قطب السرور» ولولا أنه لم يُسَمِّ المغني المذكور لجعلْنا له ترجمة في هذا الباب، إذ هو به أليق، والأمر في ذلك سَهْل، واللّه تعالى الموفّق للصواب.

٨٦ ـ ومنهم الولي الصالح العارف باللّه سيدي يوسف الدمشقي، رضي اللّه تعالى عنه!

وهو كما قال ابن داود من كبار الأولياء، شاذلي الطريقة، قدم من المشرق إلى الأندلس، وكان يأتي مدينة وادي آش الكَرَّةَ بعد الكرّة لزيارة معارِفَ له بها، وكان من الذين أخفاهم اللّه، لا يعرف به إلاّ من تعرف له، أعاد اللّه تعالى علينا من بركاته!.

قال العلامة ابن داود: وحدّثني مولاي والدي، رضي اللّه تعالى عنه، من لفظه بتلمسان أَمّنها اللّهُ تعالى يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأوّل الشريف[3] سنة ٨٩٥، قال: دخل عليَّ سنةَ شهرُ رمضان المعظّم في زمان ولايتي الخطابة والإمامة بالعراص من خارج وادي آش، أعادها اللّه تعالى! فقعدت أوّل ليلة منه منفردًا بالمسجد

---

(١) أي سنة ثنتين، وثلاث، وثمانٍ، وثنتا عشرة، وثلاث عشرة، وثماني عشرة، وهكذا.

(٢) في طبعة عبد الحميد: «تسعة».

(٣) كلمة «الشريف» ساقطة من طبعة دار صادر.

الأعظم من الرباط المذكور بين العشاءين، وفكّرْتُ في ذكرٍ أتّخذه في هذا الشهر المبارك يكون جامعًا بين الدنيا والآخرة، فأجمعت على مطالعة «حِلْية» النواوي لَعَلِّي أقف على ما أختاره لذلك، فلمّا أصبحت دخلت إلى المدينة، ولم أكن أطلعتُ على فكرتي أحدًا، فلقيني الحاج الأستاذ أبو عبد اللّه بن خلف، رحمه اللّه تعالى، في الطريق، فقال لي: سيدي يوسف الدمشقي يسلّم عليك ويقول لك: الذكر الذي تعمر به هذا الشهر الفاضل: «اللّهمَّ ارزُقْني الزهد في الدنيا، ونَوِّرْ قلبي بنور معرفتك» قال[1] والدي، رضي اللّه تعالى عنه: وكان هذا سبب تعرّفي له، ولقائي إياه، وكنت قبل ذلك منكرًا عليه لكثرة الدعاوى في هذا الطريق، نفع اللّه تعالى به! انتهى.

ولنجعل هذه الترجمة آخر هذا الباب، تبرّكًا بهذا الولي الصالح، نفعنا اللّه تعالى ببركاته! مع علمي بأنّ الوافدين من المشرق على الأندلس كثيرون جدًا، إلاّ أنّ عدم المادة التي أستعين بها في هذه البلاد تبين عذري، ولو اجتمعت على كتبي المخلّفة بالمغرب لأتيت في ذلك وغيره بما يشفي ويكفي: [البسيط]

وفي الإشارة ما يُغْنِي عن الكَلِمِ

---

(١) في طبعة دار صادر: «قال لي والدي..».

الباب السابع

في نبذة مِمّا منَّ اللّهُ تعالى به على أهل الأندلس مِنْ توقُّد الأذهان، وبذلهم في اكتساب المعارف والمعالي ما عَزَّ وهان، وحَوْزهم في ميدان البراعة، من قصب اليراعة، خَصْل الرهان، وجملة من أجوبتهم، الدالّة على لَوذَعيتهم، وأوصافهم المؤذنة بألمعيتهم، وغير ذلك من أحوالهم التي لها على فضلهم أوضح برهان.

اعلمْ أنَّ فضل أهل الأندلس ظاهر، كما أنَّ حُسْن بلادهم باهر، ولذلك ذكر ابنُ غالب في «فرحة الأنفس» لَمّا أثنى على الأندلس وأهلها أن بَطْلَيمُوسَ جعل لهم - من أجل ولاية الزُّهَرَة لبلادهم - حُسْنَ الهمّة في الملبس والمطعم، والنظافة والطهارة، والحب للهو والغناء، وتوليد اللحون، ومن أجل ولاية عُطَارد حُسْنَ التدبير، والحرص على طلب العلم، وحبَّ الحكمة والفلسفة والعدل والإنصاف.

وذكر ابنُ غالب أيضًا ما خُصُّوا به من تدبير المشتري والمريخ.

وانتقد عليه بعضُهم بأنَّ أقاليم الأندلس الرابع والخامس والسادس في ساحلها الشمالي، والسابع في جزائر المجوس، وللإقليم الرابع الشمس، وللخامس الزُّهَرَة، وللسادس عُطَارد، وللسابع القمر، والمشتري للإقليم الثاني، والمريخ للثالث، ولا مَدْخَل لهما في الأندلس، انتهى.

ثم قال صاحب الفرحة: وأهلُ الأندلس عرب في الأنساب، والعِزّة، والأَنَفَة، وعُلُوّ الهمم، وفصاحة الألسُن، وطيب النفوس، وإباء الضيم، وقلّة احتمال الذلّ، والسماحة بما في أيديهم، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنيّة، هِنْدِيُّون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبّهم

فيها وضبطهم لها وروايتهم، بغداديون في نظافتهم وظَرْفهم[1]، ورقّة أخلاقهم ونباهتهم، وذكائهم، وحسن نظرهم، وجَودة قرائحهم، ولطافة أذهانهم، وحِدَّة أفكارهم، ونفوذ خَوَاطرهم، يونانيون في استنباطهم للمياه، ومُعَاناتهم لضروب الغراسات، واختيارهم لأجناس الفواكه، وتدبيرهم لتركيب الشجر، وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر، فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة، ومنهم ابن بصال صاحب «كتاب الفلاحة» الذي شهدت له التجربة بفضله، وهم أصبر الناس على مُطَاولة التعب في تجويد الأعمال ومُقاساة النَّصَب[2] في تحسين الصنائع، أحذق الناس بالفُرُوسية، وأبصرهم بالطعن والضرب.

وعَدَّ، رحمه اللّه تعالى، من فضائلهم اختراعَهم للخطوط المخصوصة بهم، قال: وكان خطّهم أولاً مشرقيًا، انتهى.

قال ابن سعيد: أمّا أصول الخطّ المشرقي وما تجد له في القلب واللحظ من القبول فمسَلّمٌ له، لكن خطّ الأندلس الذي رأيتُه في مصاحف ابن غطوس الذي كان بشرق الأندلس وغيره من الخطوط المنسوبة عندهم له حسن فائق، ورونق آخذ بالعقل، وترتيب يشهد لصاحبه بكثرة الصبر والتجويد، انتهى.

ونَحْوُ صدرِ كلام ابن غالب السابق مذكورٌ في رسالة لابن حزم، وقال فيها: إنَّ أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العملية، وإحكام المِهَن الصورية، تُرْكِيّون في مُعَاناة الحروب، ومعالجات[3] آلاتها، والنظر في مهماتها، انتهى.

وعَدَّ ابنُ غالب من فضائلهم اختراعَهم للموشّحات التي قد استحسنها أهل المشرق وصاروا ينزعون منزعها، وأمّا نظمهم ونثرهم فلا يخفى على مَنْ وقف عليهما علوّ طبقاتهم.

ثم قال ابن غالب: ولَمّا نَفَذَ قضاءُ اللّه تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة المُبِيرة[4] تفرّقوا ببلاد المغرب الأقصى من بَرِّ العُدْوة مع بلاد إفريقية، فأمّا أهل البادية فمالوا في البوادي إلى ما اعتادوه، وداخلوا أهْلَها، وشاركوهم

(١) في طبعة دار صادر: «في ظرفهم ونظافتهم».
(٢) النَّصَبُ، بالفتح: التعب، لسان العرب (نصب).
(٣) في طبعة دار صادر: «ومعالجة».
(٤) المُبِيرة: المهلكة؛ يقال: بار الرجل يبورُ إذا هلك. محيط المحيط (بار).

فيها، فاستنبطوا[1] المياه، وغَرَسوا الأشجار، وأحدثوا الأرحِيّ[2] الطاحنة بالماء وغير ذلك، وعلّموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها، فشرفت بلادهم، وصلحت أمورهم، وكثرت مُسْتَغَلاّتهم، وعمّتهم الخيرات، فهم أشبه الناس باليونانيين فيما ذكرت ولأنّ اليونانيين سكنوا الأندلس فورثوا عنهم ذلك، وأمّا أهل الحواضر فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها، فأما أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكُتّاب والعمّال وجُبَاة الأموال والمستعملون في أمور المملكة، ولا يُسْتعمل بلدي ما وجد أندلسي، وأما أهل الصنائع فإنهم فاقوا أهل البلاد، وقطعوا معاشهم، وأخملوا[3] أعمالهم، وصيّروهم أتباعًا لهم، ومتصرّفين بين أيديهم، ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة، وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد ما يُميلون به النفوسَ إليهم، ويصير الذكر لهم، قال: ولا يدفع هذا عنهم إلاّ جاهل أو مبطل، انتهى.

وقال ابن سعيد، لَمّا ذكر جملة من محاسن الأندلسيين: يعلم اللّه تعالى أني ما أقصد إلاّ إنصاف المنصفين الذين لا يميل بهم التعصّب، ولا يجمح بهم الهوى، ولكن الحق أَحَقُّ أنْ يُتّبع، فلعلَّ مُطّلعًا يقف على ما ذكره ابن غالب: فيقول: هذا[4] الرجل تعصّب لأهل بلده، ثم يغمس التابع له والراضي بنقل قوله في هذه الصبغة ويحمله على ذلك بعده عن الأرضين: [الطويل]

ولو أبْصَرُوَا لَيلَى أقَرُّوا بحسنها   وقالوا بأني في الثناء مُقَصِّرُ

ويكفي في الإنصاف أن أقول: إنَّ حضرة مراكش هي بغداد المغرب، وهي أعظم ما في بَرّ العُدْوَة، وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة وبساتينها إنما ظهرت في مدة بني عبد المؤمن، وكانوا يجلبون لها صناع الأندلس من جزيرتهم، وذلك مشهور معلوم إلى الآن. ومدينة تونس بإفريقية قد انتقلت إليها السعادة التي كانت في مراكش بسلطان إفريقية الآن أبي زكريا يحيىٰ بن أبي محمد بن أبي حَفْص، فصار فيها من المباني والبساتين والكروم ما شابهت به بلاد الأندلس وعرفاء صناعه من الأندلس وتماثيله التي يبنى عليها، وإن كان أعرف خلق اللّه باختراع محاسن هذا الشأن، فإنما أكثرها من أوضاع الأندلسيين، وله من

---

(١) استنبطوا المياه: استخرجوها. مختار الصحاح (نبط).

(٢) الأرحِيُّ: جمع رَحَى وهي الطاحون. لسان العرب (رحى).

(٣) في طبعة بولاق: «وأجملوا».

(٤) في طبعة دار صادر: «تعصّب هذا الرجل لأهل...».

خاطره تنبيهات وزيادة ظَهَرَ حسن موقعها، ووجوهُ صنائع دولته لا تكاد تجدهم إلاّ من الأندلس فصحّ قول ابن غالب، انتهى.

قال الحميدي: أُنشد بحضرة بعض ملوك الأندلس قطعة لبعض أهل المشرق، وهي: [الطويل]

وماذا عليهمُ لو أجابوا[١] فسلّموا وقد علموا أني المَشُوقُ المتيَّمُ
سَرَوا ونجومُ الليلِ زُهْرٌ طوالعٌ على أنّهمْ بالليل للناس أنجمُ
وأخفَوْا على تلك المطايا مسيرهم فَنَمَّ عليهم[٢] في الظلام التبسُّمُ

فأفرط بعض الحاضرين في استحسانها، وقال: هذا ما لا يقدر أندلسي على مثله، وبالحضرة أبو بكر[٣] يحيىٰ بن هذيل، فقال بديهًا: [الطويل]

عرفت بعَرْفِ الريح أين تيمّموا وأين استقلّ الظاعنون وخَيَّموا
خليليَّ، رُدَّاني إلى جانب الحمى فلستُ إلى غير الحمى أتيمَّمُ
أَبِيتُ سميرَ الفرقدين كأنما وِسادي قَتادٌ أو ضَجيعيَ أَرْقَمُ[٤]
وأَحْوَرَ وَسْنانِ الجفونِ كأنه قضيبٌ من الريحان لَدْنٌ مُنَعَّمُ
نظرتُ إلى أجفانه وإلى الهوى فأيقنْتُ أني لستُ منهنَّ أَسْلَمُ
كما أنَّ إبراهيم أوّلَ نظرةٍ رأى في الدرَاري أنه سوف يَسْقَمُ[٥]

ومن كلام ابن بسام صاحب «الذخيرة» في جزيرة الأندلس[٦]: أشراف عرب المشرق افتتحوها، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها، فبقي النسل فيها بكلِّ إقليم، على عرق كريم، فلا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر، وشاعر قاهر.

وذكر أن أبا علي البغدادي، صاحب الأمالي، الوافدَ على الأندلس في زمان بني

---

(١) في طبعة ليدن: «لو أثابوا».
(٢) في طبعة دار صادر: «عليها».
(٣) في طبعة ليدن: «أبو بكر بن يحيىٰ».
(٤) القَتاد، بالفتح: شجر صلب له شوك كالإبر. الأرقم: أخبث الحيّات. محيط المحيط (قتد) و (رقم).
(٥) يشير هنا إلى ما حكاه الله تعالى عن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿فنظرَ نظرةً في النجوم، فقال إني سقيمٌ﴾. (سورة الصافّات ٣٧، الآيتان ٨٨ و ٨٩). والدراريّ في عجز البيت بمعنى النجوم.
(٦) بعض هذا النص في الذخيرة (ق ١ ص ١٤ ـ ١٥، من المقدمة).

مروان قال: لَمَّا وصلت القيروان وأنا أعتبر مَنْ أمرُّ به من أهل الأمصار فأجدهم درجاتٍ في العبارات[1] وقلّة الفهم، بحسب تَفاوُتِهِم في مَواضعهم منها بالقُرْب والبُعْد، كأنّ منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم مُحَاصَّةً ومُقايسة. قال أبو علي: فقلْتُ إنْ نَقَصَ أهلُ الأندلس عن مقادير مَنْ رأيتُ في أفهامهم بقدْر نُقْصان هؤلاءِ عَمَّنْ قَبْلَهُمْ فسأحتاج إلى تَرْجُمَان، في هذه الأوطان[2]. قال ابن بسام: فبلغني أنه كان يَصِلُ كلامَهُ هذا بالتعجُّب من أهل هذا الأفق الأندلسي في ذكائهم، ويتغطّى عنهم عند المباحثة والمفاتشة[3]، ويقول لهم: إنّ علمي علمُ رواية، وليس بعلم[4] دراية، فخذوا عنّي ما نقلت، فلم آلُ لكم أنْ صحّحت. هذا مع إقرار الجميع له يومئذ بسَعَة العلم وكثرة الروايات، والأخذ عن الثقات، انتهى.

ومن كلام الحِجَارِيّ في «المسهب»:

الأندلس عِرَاقُ المغربِ عزَّةَ أنساب، ورقّةَ آداب، واشتغالاً بفنون العلوم[5]، وافتنانًا في المنثور والمنظوم، لم تضق لهم في ذلك ساحة، ولا قصرت عنه راحة، فما مُرَّ فيها بمصرٍ إلاّ وفيه نجوم وبدور وشموس، وهم أشعر الناس فيما كثره اللّه تعالى في بلادهم، وجعله نُصْبَ أعينهم من الأشجار والأنهار والطيور والكؤوس، لا ينازعهم أحد في هذا الشأن، وابنُ خَفَاجة سابقهم في هذا المِضْمَار الحائز فيه قصب الرهان. وأمّا إذا هَبَّ نسيم، ودار كأس في كف ظَبْي رخيم، ورجَّع بَمٌّ وزير، وصفّق للماء خَرير، أو رَقَّتْ العشيّة، وخلعت السحبُ أبرادَهَا[6] الفضية والذهبية، أو تبسَّم عن شعاعٍ ثغرُ نهر، أو ترقرق بطَلّ جَفْنُ زهر، أو خَفَق بارق، أو وصل طيف طارق، أو وعد حبيب فزار من الظلماء تحت جناح، وبات مع مَنْ يَهْوَاه كالماء والراح، إلى أن وَدَّع حين أقبل رائدُ الصباح، أو أزهرت دوحة السماء بزُهْرِ كواكبها، أو قوّضت عند فيض نهر الصباح بيض مضاربها، فأولئك هم السابقون السابقون، الذين لا يُجَارَوْنَ ولا يُلْحقون، وليسوا

---

(١) في الذخيرة (ص ١٥): «في الغباوة».
(٢) في المصدر نفسه: «بهذه الأوطان».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «والمناقشة».
(٤) في الطبعة نفسها: «وليس علم..».
(٥) في طبعة ليدن: «العلم».
(٦) الأبراد: جمع بُرْد وهو ثوب مخطّط يلتحف به. لسان العرب (برد).

بالمقصِّرين في الوصف إذا تقعقعت السلاح، وسالت خُلجَانُ الصَّوارم بين قُضْبان الرماح، وبَنَتِ الحربُ من العَجَاج سماء، وأطلعتْ شبهَ النجوم أسِنَّةَ وأجرتْ شبهَ الشَّفَق دماء، وبالجملة فإنهم في جميع الأوصاف والتخيّلات أئمة، ومَنْ وقَف على أشعارهم في هذا الشأن فَضَّلهم فيه على أصناف الأمّة، وقد أعانتهم على الشعر أنسابُهم العربية، وبقاعهم النَّضرَة وهممهم الأبيّة. ولشطار الأندلس من النوادر والتنكيتات، والتركيبات وأنواع المضحكات، ما تملأ الدواوينَ كثرتُه، وتُضحك الثكلى وتُسَلِّي المسلوبَ قصتُه، مِمّا لو سمعه الجاحظ لم يعظم عنده ما حكى وما ركّب، ولا استغرب أحَدٌ ما أورده ولا تعجّب، إلاَّ أنَّ مؤلِّفي هذا الأفق طمحت هممهم عن التصنيف في هذا الشأن فكاد يمرُّ ضياعًا، فقمت محتسبًا بالظرف[1] فتداركته جامعًا فيه ما أمسى شَعَاعا[2]، انتهى. قلْتُ[3]: وقد رأيت أنْ أذكر رسالة أبي محمد بن حزم[4] الحافظ التي ذكر فيها بعض فضائل علماء الأندلس؛ لاشتمالها على ما نحن بصدده. وذلك أنه كتب أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد بن الرَّبيب التميمي القيرواني، إلى أبي المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن ابن حزمٍ يذكر تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم وسير ملوكهم، ما صورته:

كتبْتُ يا سيدي، وأجلَّ عُدَدي، كتب اللّه تعالى لك السعادة، وأدام لك العِزَّ والسيادة، سائلاً مسترشدًا، وباحثًا مستخبرًا، وذلك أني فكرت في بلادكم إذ كانت قَرَارة كلِّ فضل، ومَنْهَل كلِّ خير ونُبْل[5]، ومصدر كلِّ طُرْفة، ومورد كلِّ تحفة، وغاية آمال الراغبين، ونهاية أماني الطالبين، إنْ بارت تجارةٌ فإليها تُجلَب، وإنْ كسَدَت بضاعةٌ ففيها تنفق، مع كثرة علمائها، ووفور أدبائها[6]، وجَلالة ملوكها، ومحبّتهم في العلم وأهلِهِ، يُعَظِّمون من عَظَّمه علمُه، ويرفعون من رفعه أدبه، وكذلك سيرتهم في رجال الحرب: يقدمون من قدمته شجاعته، وعظمت في الحروب نكايته، فشجّع الجبان، وأقدم الهَيَّبان، ونَبَهَ الخامل، وعلم الجاهل، ونطق الْعَييّ، وشَعَر البَكِي، واستنسر البُغاث، وتَثَعْبَن

(١) في طبعة دار صادر: «للظرف».
(٢) شَعاعًا، بفتح الشين والعين: متفرّقًا؛ يقال: ذهب القومُ شَعاعًا: أي متفرّقين. محيط المحيط (شعع).
(٣) كلمة «قلت» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٤) اسم هذه الرسالة في فهرسة ابن خير (ص ٢٧٦): «رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها».
(٥) في طبعة دار صادر: «كل خير، ومقصد كل طُرْفة. . .».
(٦) في طبعة ليدن: «آدابها».

الحُفّات[1]، فتنافس الناس في العلوم، وكثر الحذاق بجميع[2] الفنون، ثم هم مع ذلك في[3] غاية التقصير ونهاية التفريط، من أجل أنّ عُلَماء الأمصار دوّنوا فضائل أمصارهم، وخلّدوا في الكتب مآثر بُلْدَانهم، وأخبار الملوك والأمراء، والكُتّاب والوزراء، والقضاة والعلماء، فأبقوا لهم ذكرًا في الغابرين يتجدّد على مرّ الليالي والأيام، ولِسانَ صدقٍ في الآخرين، يتأكّد مع تصرّف الأعوام، وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم كلُّ امرىء منهم قائم في ظلّه لا يبرح، وراتب[4] على كعبه لا يتزحزح، يخاف إن صَنَّف، أنْ يُعَنَّف، وإنْ ألّف أنْ يُخَالَف، ولا يؤالَف، أو تخطفه الطّير أو تَهْوِي به الريح في مكان سحيق، لم يُتعب أحد منهم نفسًا في جمع فضائل أهل بلدِه، ولم يستعمل خاطره في مَفَاخر ملوكه، ولا بلّ قلمًا بمناقب كُتّابه ووزرائه، ولا سوّد قرطاسًا بمحاسن قُضَاته وعلمائه، على أنه لو أطلق ما عَقَل الإغفالُ من لسانه، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه، لوجد للقول مَسَاغًا، ولم تضق عليه المسالك، ولم تخرج به المذاهب، ولا اشتبهت عليه المصادر والموارد.

ولكنّ هَمّ أحدهم أن يطلب شَأْوَ مَنْ تقدّمه من العلماء ليحوز[5] قصبات السبق، ويفوز بقِدْح ابن مُقْبل، ويأخذ بكَظْم دغفل، ويصير شَجًا في حلق أبي العَمَيْثَل، فإذا أدرك بغيته، واخترمته مَنِيّته، دفن معه أدبه وعلمه، فمات ذكره، وانقطع خبره، ومَنْ قدّمنا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم احتيالَ الأكياس[6]، فألّفوا دواوين بقي لهم بها ذكر مُجَدَّدٌ طولَ الأبد.

فإن قلت: إنه كان مثل ذلك من علمائنا، وألّفوا كتبًا لكنها لم تصل إلينا، فهذه دعوى لم يَصْحَبْها تحقيق؛ لأنه ليس بيننا وبينكم غير رَوحة راكب، أو رحلة قارب، لو نَفَث من بلدكم مصدور، لأسمع من ببلدنا في القبور، فضلاً عَمَّنْ في الدُّور والقصور، وتَلَقَّوْا قوله بالقبول كما تلقّوا ديوان أحمد بن عبد ربه الذي سمّاه بالعقد، على أنه يلحقه فيه بعضُ اللوم، لا سيما إذ لم يجعل فضائل بلده واسِطَةَ عقده، ومناقب ملوكه يتيمة سلكه،

---

(١) تَثَعْبَنَ: أخذ هيئة الثُّعبان. والحُفّات: حيَّةٌ أعظم من الحِفْث، والحِفْثُ: الحيّة العظيمة. محيط المحيط (حفث).

(٢) في طبعة دار صادر: «في جميع..».

(٣) في الطبعة نفسها: «على غاية..».

(٤) راتبٌ: ثابتٌ. لسان العرب (رتب).

(٥) في طبعة ليدن: «ليحرز».

(٦) الأكياس. جمع كَيِّس وهو الفطن الذكيّ. لسان العرب (كيس).

أكثر الحزّ وأخطأ المفصل، وأطال الهزَّ لسَيْفٍ غير مِقْصَل[1]، وقعد به ما قعد بأصحابه من ترك ما يعنيهم، وإغفال ما يهمهم.

فأرْشِدْ أخاك أرشدك اللَّه! واهْدِه هداك اللَّه! إن كانت عندك في ذلك الجليّة، وبيدك فصْلُ القضية، والسلام عليك ورحمة اللَّه وبركاته.

فكتب الوزير الحافظُ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، عند وقوفه على هذه الرسالة، ما نصُّه:

الحمد للَّه ربِّ العالمين، وصلَّى اللَّه على سيّدنا محمد عبده ورسوله، وعلى أصحابه الأكرمين، وأزواجه أمّهات المؤمنين، وذرّيّته الفاضلين الطيّبين.

أَمَّا بعد يا أخي يا أبا بكر[2]، سلام عليك سلام أخٍ مشوقٍ طالتْ بينه وبينك الأميالُ والفراسخ، وكثرت الأيامُ والليالي، ثم لقيك في حال سفر ونُقْلة، فوادَّك في خلال جَولة ورحلة، فلم يَقْضِ من مجاورتك[3] أرَبًا، ولا بلغ في محاورتك[4] مطلبًا، وإنِّي لَمَّا احتللت بك، وجالت يدي في مكنون كتبك، ومضمون دواوينك، لمحت عيني في تضاعيفها دَرْجًا، فتأمّلته، فإذا فيه خطاب لبعض الكُتّاب من مصاقبينا في الدار أهل إفريقية، ثم مِمَّنْ ضمّته حاضرةُ قَيْرُوَانهم، إلى رجل أندلسي لم يعيّنْه باسمه، ولا ذكره بنسبه، يذكر له فيها أنَّ علماء بلدنا بالأندلس ـ وإن كانوا على الذُّرْوَة العليا من التمكن بأفانين العلوم، وفي الغاية القُصْوَى من التحكُّم على وجوه المعارف ـ فإنَّ هممهم قد قصرت عن تخليد مآثر بلدهم، ومكارم ملوكهم، ومحاسن فقهائهم، ومناقبِ قُضَاتهم، ومفاخِرِ كُتَّابهم، وفضائل علمائهم، ثم تَعَدّى ذلك إلى أن أخلى أرباب العلوم منّا من أن يكون لهم تأليف يُحْيي ذكرهم، ويُبْقي علمهم، بل قطع على أنّ كلَّ واحدٍ منهم قد مات فدفن علمه معه، وحقّق ظنّه في ذلك، واستدلّ على صحّته عند نفسه بأنَّ شيئًا من هذه التآليف لو كان منّا موجودًا لكان إليهم منقولاً، وعندهم ظاهرًا، لقرب المزار، وكثرة السُّفَّار، وتردُّدِهم إليهم،

---

(١) السيفُ المِقْصَلُ: القاطع البتّار. لسان العرب (قصل).

(٢) ترجم له الحميدي في جذوة المقتبس (ص ٤٤) فقال: «محمد بن إسحٰق المهلبي أبو بكر الإسحاقي الوزير، من أهل الأدب والفضل، وهو الذي خاطبه أبو محمد علي بن أحمد برسالته في فضل الأندلس». والترجمة نفسها في بغية الملتمس (ص ٦١).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «محاورتك»، بالحاء المهملة.

(٤) في الطبعة نفسها: «مجاورتك» بالجيم المعجمة.

وتكرّرهم علينا. ثم لَمّا ضَمَّنا المجلسُ الحافل بأصناف الآداب، والمشهد الآهل بأنواع العلوم، والقصر المعمور بأنواع الفضائل، والمنزل المحفوف بكل لطيفة وسيعة من دقيق المعاني وجليل المعالي، قَرَارَة المجد ومحلّ السؤدد، ومحطُّ رحال الخائفين، ومُلْقَى عصا التَّسْيار عند الرئيس الأجلّ الشريف قديمُه وحسبُه، الرفيع حديثُه ومكتسبُه، الذي أجله عن كل خطّة يشركه فيها من لا توازي قومتُه نومته، ولا ينال حُضْرُهُ هُوَيْنَاه[1]، وأربأ[2] به عن كلّ مرتبة يلحقه فيها مَنْ لا يسمو إلى المكارم سموّه، ولا يدنو من المعالي دنوّه، ولا يعلو في حميد الخلال علوّه، بل أكْتفِي من مدحه باسمه المشهور، وأجتزي[3] من الإطالة في تقريظه بمنتماه المذكور، فحسبي بذينك العَلمين دليلاً على سَعْيه المشكور، وفضله المشهور، أبي عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن قاسم صاحب البونت[4] أطال اللّه بقاءه! وأدام اعتلاءه! ولا عَطّل الحامدين من تحليهم بحُلاَه! ولا أخلى الأيام من تزينها بعلاه! فرأيته أعزّه اللّهُ تعالى حريصًا على أن يجاوب هذا المخاطِب، وراغبًا في أن يبين له ما لعلّه قد رآه فنسي أو بعد عنه فخفي، فتناولت الجوابَ المذكور بعد أن بلغني أن ذلك المخاطِبَ قد مات، رحمنا اللّه تعالى وإياه! فَلَمْ يكن لقصده بالجواب معنى، وقد صارت المقابر له مَغْنى، فلسنا بمُسْمِعين مَنْ في القبور، فصرفت عِنَانَ الخطاب إليك، إذ مِنْ قبلِكَ صرْتُ إلى الكتاب المجاوَبِ عنه، ومن لدنك وصلت إلى الرسالة المعارضة، وفي وصول كتابي على هذه الهيئة حيثما وصل كفاية لمن غاب عنه من أخبار تآليف أهل بلدنا مثل ما غاب عن هذا الباحث الأول، وللّه الأمر من قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ، وإن كنت في إخباري إياك بما أرسمه في كتابي هذا كمهدٍ إلى البُرْكَان نار الْحبَاحب[5]، وباني صُوَى[6] في مَهْيَع القَصْد اللاحب، فإنك وإنْ كنت المقصود والمواجَه، فإنما المراد من أهل تلك الناحية مَنْ نأى عنه

(١) الحُضْرُ: شدّة العَدْو. الهُوَيْنا: التُّؤَدَةُ والرفق، تصغير الهُوْنَى. محيط المحيط (حضر) و (هون).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «وأربى».

(٣) اجْتَزَى به: اكتفى. محيط المحيط (جزى).

(٤) كتب ابن حزم هذه الرسالة بطلب من يمن الدولة أبي عبد اللّه محمد بن عبد اللّه الفهري، صاحب البونت. التكملة (ص ٣٨٨). والبونت، بالإسبانية Alpuente: وهي من أعمال بلنسية، وقد استقلّ فيها بعد الفتنة البربرية عبد اللّه بن قاسم الفِهْري، المتوفّى سنة ٤٢١ هـ، وخلفه ابنه يُمْن الدولة محمد ابن عبد اللّه. وظلّ يحكمها حتى سنة ٤٣٤هـ. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٠٨).

(٥) نار الحُباحب: نار يضرب بها المثل في الضعف. والحُباحب: ذباب يطير بالليل له شعاع في ذنبه كالسراج. محيط المحيط (حبحب).

(٦) الصُّوَى: جمع صُوَّة وهي حجر يكون علامة في الطريق. محيط المحيط (صوو).

علم ما استجلبه السائل الماضي، وما توفيقي إلاَّ باللّه سبحانه.

فأما مآثر بلدنا فقد ألّف في ذلك أحمد بن محمد الرازي[1] التاريخي كتبًا جمّة: منها كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها، وأمّهات مدنها وأجنادها الستّة، وخواصّ كلّ بلد منها، وما فيه مِمّا ليس في غيره، وهو كتاب مريح مليح، وأنا أقول: لو لم يكن لأندلسنا إلاّ ما رسول اللّه ﷺ بَشَّر به ووصف أسلافنا المجاهدين فيه بصفات الملوك على الأسرّة في الحديث الذي رَوَيناه من طريق أبي حمزة أنَس بن مالك أنَّ خالته أم حرام بنت ملحان زوج أبي الوليد عُبَادة بن الصامت، رضي اللّه تعالى عنه وعنهم أجمعين، حدّثته عن النبي ﷺ، أنه أخبرها بذلك[2]، لكفى شرفًا بذلك يَسُرُّ عاجله، ويغبط آجله.

فإنْ قال قائل: لعلّه صلوات اللّه تعالى عليه إنما عَنَى بذلك الحديث أهلَ صقلية وإقريطش، وما الدليلُ على ما ادّعيته من أنه ﷺ عنى الأندلس حتمًا؟ ومثلُ هذا من التأويل لا يتساهل فيه ذُو وَرَع دون برهان واضح، وبيان لائح، لا يحتمل التوجيه، ولا يقبل التجريح.

فالجواب ـ وباللّه التوفيق ـ أنه ﷺ، قد أوتي جوامعَ الكلم، وفصل الخطاب، وأُمِرَ بالبيان لما أوحي إليه، وقد أخبر في ذلك الحديث المتّصل سنده بالعدول عن العدول بطائفتين من أمّته يركبون ثَبَجَ[3] البحر غزاة واحدة بعد واحدة، فسألته أم حرام أن يدعو ربّه تعالى أن يجعلها منهم، فأخبرها ﷺ وخبرُه الحقّ بأنها من الأولين، وهذا من أعلام[4] نبوّته ﷺ، وهو إخباره بالشيء قبل كونه[5]، وصحّ البرهانُ على رسالته بذلك، وكانت من الغزاة إلى قبرس، وخَرَّتْ عن بغلتها هناك، فتوفيت، رحمها اللّه تعالى! وهي أول غَزَاة ركب فيها المسلمون البحر، فثبت يقينًا أنّ الغُزَاة إلى قبرس هم الأولون الذين بَشَّر بهم النبي ﷺ،

---

(١) مرّت ترجمة أبي بكر أحمد بن محمد بن موسى الرازي والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.

(٢) ورد في صحيح مسلم (جـ ٢ ص ١٠٤) أن رسول اللّه ﷺ، نام ثم استيقظ وهو يضحك، فقالت له أم ملحان: ما الذي يضحكك يا رسول اللّه؟ قال: ناسٌ من أمّتي عرضوا عليَّ غزاة في سبيل اللّه يركبون ثبج هذا البحر ملوكًا على الأسرّة. ثم نام مرة أخرى، وفعل كفعله الأول، فلمّا قالت له أم ملحان: ادع اللّه أن يجعلني منهم، قال: أنت من الأولين.

(٣) ثبج البحر: وسطه. لسان العرب (ثبج).

(٤) أعلام نبوّته: دلائل نبوّته.

(٥) قبل كونه: قبل حدوثه.

وكانت أم حرام منهم كما أخبر، صَلواتُ اللّه تعالى وسلامه عليه، ولا سبيل أن يُظَنّ به وقد أوتي ما أوتي من البلاغة والبيان أنه يذكر طائفتين قد سمَّى إحداهما أولىٰ إلاّ والتالية لها ثانية، فهذا من بابِ الإضافة وتركيب العدد، وهذا مقتضى[1] طبيعة صناعة المنطق، إذ لا تكون الأولى أولى إلاّ لثانيةٍ، ولا الثانية ثانية إلاّ لأولى، فلا سبيل إلى ذكر ثالث إلاّ بعد ثانٍ ضرورة، وهو ﷺ إنما ذكر طائفتين، وبَشّر بفئتين، وسمَّى إحداهما الأولين، فاقتضى ذلك بالقضاء الصدق آخرين، والآخر من الأول هو الثاني الذي أخبر ﷺ أنه خير القرون بعد قرنه، وأولى القرون بكل فضل بشهادة رسول اللّه ﷺ بأنه خير من كلّ قرن بعده، ثم رُكِبَ البحرُ بعد ذلك أيامَ سليمان بن عبد الملك إلى القسطنطينية، وكان الأمير بها في تلك السفن هُبَيرة الفزاري، وأمّا صقلية فإنها فُتِحَتْ صدر أيام الأغالبة سنة ٢١٢، أيام قاد إليها السفُنَ غازيًا أسدُ بن الفرات القاضي صاحب أبي يوسف رحمه اللّه تعالى، وبها مات، وأما إقريطش فإنها فُتحت بعد الثلاث والمائتين[2] افتتحها أبو حفص عمر بن شعيب المعروف بابن الغليظ[3]، من أهل قرية بطروج من عمل فَحْص البَلُّوط المجاور لقرطبة من بلاد الأندلس، وكان من فلِّ الرَّبَضِيين، وتداولها بنوه بعده إلى أن كان آخرهم عبد العزيز بن شعيب الذي غنمها في أيام أرمانوس بن قسطنطين ملك الروم سنة ٣٥٠[4]، وكان أكثر المفتتحين لها أهل الأندلس.

وأما في قسم الأقاليم فإن قُرْطُبة مسقَطَ رؤوسنا، ومَعَقّ[5] تمائمنا، مع سُرَّ من رأى[6] في إقليم واحد، فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه إقليمنا، وإن كانت الأنوار لا تأتينا إلاّ مغربة عن مطالعها على الجزء المعمور، وذلك عند المحسنين للأحكام التي تدلّ عليها الكواكب ناقص من قُوَى دلائلها، فلها من ذلك على كلّ حال حظّ يفوق حظّ أكثر البلاد،

---

(١) في طبعة دار صادر: «يقتضي».

(٢) في معجم البلدان (جـ ١ ص ٢٣٦، مادة أقريطش): فتحت بعد ٢٥٠ هـ على يد عمرو بن شعيب المعروف بابن الغليظ. وفي جذوة المقتبس (ص ٣٠١) وبغية الملتمس (ص ٤٠٧) في ترجمة عمر بن شعيب المعروف بالغليظ البلوطي أن عمر بن شعيب هذا افتتح جزيرة إقريطش بعد الثلاثين ومائتين.

(٣) ترجمة أبي حفص عمر بن شعيب في جذوة المقتبس (ص ٣٠١) وبغية الملتمس (ص ٤٠٧).

(٤) في معجم البلدان أن أرمانوس بن قسطنطين فتحها عنوة بالحرب والجوع في نصف المحرم سنة ٣٥٠ هـ، فقتل ونهب وسبى وأخذ صاحبها عبد العزيز بن شعيب وبني عمه إلى القسطنطينية.

(٥) مَعَقُّ التمائم: أي موضع قطعها، دلالة على تجاوز سنّ الطفولة؛ التمائم: جمع تميمة وهي خرزات كان الأعراب يعلقونها على أولادهم يتقون بها العين. محيط المحيط (تمم).

(٦) سرّ من رأى: هي سامراء، وهي مدينة بين بغداد وتكريت. معجم البلدان (جـ ٣ ص ١٧٣).

بارتفاع أحد النَّيِّرَيْن بها تسعين درجة، وذلك من أدلّة التمكّن في العلوم والنفاذ فيها عند من ذكرنا، وقد صدق ذلك الخبر، وأبانته التجربة، فكان أهلها من التمكّن في علوم القراءات والروايات وحفظ كثير من الفقه والبَصَر بالنحو والشعر واللغة والخبر (والطب والحساب والنجوم بمكانٍ رَحْبِ الفِناء، واسع العَطَن، متنائي الأقطار، فسيح المجال، والذي نعاه علينا الكاتبُ المذكور لو كان كما ذكر لكنّا فيه شركاء لأكثر أمّهات الحواضر، وجلائل البلاد، ومُتّسعات الأعمال، فهذه القيروان بلد المخاطِبِ لنا، ما أذكر أني رأيت في أخبارها تأليفًا غير «المعرب، عن أخبار المغرب» وحاشا تآليف[(١)] محمد بن يوسف الوراق[(٢)]، فإنه ألّف للمستنصر رحمه الله تعالى في «مسالك إفريقية وممالكها» ديوانًا ضخمًا، وفي أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم كتبًا جمّة، وكذلك ألّف أيضًا في أخبار تيهرت ووهران وتنس[(٣)] وسجلماسة ونكور والبصرة[(٤)] وغيرها تآليف[(١)] حسانًا، ومحمد هذا أندلسي الأصل والفرع، آباؤه من وادي الحِجَارة، ومَدْفَنه بقرطبة، وهجرته إليها، وإن كانت نشأته بالقَيرَوان.

ولا بُدَّ من إقامة الدليل على ما أشرْتُ إليه هنا إذ مرادُنا أن نأتي منه بالمطلوب[(٥)] فيما يستأنف إنْ شاء اللّه تعالى، وذلك أنّ جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقين، دون محاشاة أحد، بل قد تيقَّنَّا إجماعهم على ذلك، متّفقون على أنْ ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقرَّ بها ولم يرحل عنها رحيلَ تركٍ لسكناها إلى أن مات، فإن ذكروا الكوفيين من الصحابة، رضي اللّه تعالى عنهم، صَدَّروا بعلي وابن مسعود وحُذَيفة، رضي اللّه تعالى عنهم، وإنما سكن عليّ الكوفَةَ خمسة أعوام وأشهرًا، وقد بقي ٥٨ عامًا وأشهرًا بمكة والمدينة شرّفهما اللّه تعالى. وكذلك أيضًا أكثر أعمار من ذكرنا، وإن ذكروا البصريين بدأوا بعِمْرَان بن حُصَين وأنس بن مالك وهشام بن عامر وأبي بكرة، وهؤلاء مواليدهم وعامة زمن أكثرهم وأكثرُ مقامهم بالحجاز وتهامة والطائف، وجمهرة أعمارهم خَلَتْ[(٦)] هنالك،

---

(١) في طبعة دار صادر: «تواليف».

(٢) هو أبو عبد اللّه محمد بن يوسف الوراق، وترجمته في جذوة المقتبس (ص ٩٧) وبغية الملتمس (ص ١٤١) والوافي بالوفيات (جـ ٥ ص ٢٥١).

(٣) هكذا في المصادر التي ترجمت له، وفي طبعة عبد الحميد: «وتونس».

(٤) أراد بصرة المغرب، وهي بين طنجة وفاس، وتعرف ببصرة الكتان. الروض المعطار (ص ١٠٨).

(٥) في طبعة دار صادر: «بالمطلب».

(٦) في طبعة عبد الحميد: «حلت» بالحاء المهملة.

وإن ذكروا الشاميين نوّهوا بِعُبَادة بن الصامت وأبي الدرداء وأبي عُبَيدةَ بن الجراح ومُعَاذ ومعاوية، والأمرُ في هؤلاء كالأمر فيمن قبلهم، وكذلك في المصريين عَمْرو بن العاص وخارجة بن حُذَافة العَدَوي، وفي المكيّين عبد اللّه بن عباس وعبد اللّه بن الزبير، والحكم في هؤلاء كالحكم فيمن قصصْنا، فَمَنْ هاجر إلينا من سائر البلاد، فنحن أحقُّ به، وهو مِنّا بحكم جميع أولي الأمر منّا الذين إجماعُهم فرض اتباعه، وخلافه محرم اقترافه، ومن هاجر منّا إلى غيرنا فلا حَظّ لنا فيه، والمكان الذي اختاره أسعدُ به، فكما لا نَدَع إسماعيلَ بن القاسم[1] فكذلك لا ننازع في محمد بن هانىء سوانا، والعدلُ أولى ما حُرِص عليه، والنصف أفضل ما دُعي إليه، بعد التفصيل الذي ليس هذا موضعه، وعلى ما ذكرنا من الأنصاف تراضى الكلّ.

وهذه بغداد حاضرةُ الدنيا ومَعْدِن كل فضيلة، والمحلّة التي سبق أهلُها إلى حَمْل ألوية المعارف، والتدقيق في تصريف العلوم، ورقّة الأخلاق والنباهة والذكاء وحدّة الأفكار ونَفَاذ الخواطر، وهذه البصرة وهي عين المعمور في كل ما ذكرنا، وما أعلم في أخبار بغداد تأليفًا غير كتاب أحمد بن أبي طاهر[2]، وأما سائر التواريخ التي ألّفها أهلُها فلم يخصُّوا بلدتهم بها دون سائر البلاد، ولا أعلم في أخبار البصرة غير كتاب عمر بن شبة[3]، وكتاب لرجل من واد الربيع بن زياد المنسوب إلى أبي سفيان في خطط البصرة وقطائعها، وكتابين لرجلين من أهلها يسمّى أحدهما عبد القاهَر كريزي النسب وَصَفَاها وذكرا[4] أسواقها ومحالها وشوارعها، ولا أعلم في أخبار الكوفة غير كتاب عمر بن شبة، وأمّا الجبال وخُرَاسان وطبرستان وجُرْجان وكرْمَان وسِجِسْتان[5] والسِّند وأرمينية وأذربيجان وتلك الممالك الكثيرة الضخمة فلا أعلم في شيء منها تأليفًا قصد به أخبار ملوك تلك النواحي، وعلمائها وشعرائها وأطبائها، ولقد تاقت النفوس إلى أن يتّصل بها تأليف في أخبار فقهاء بغداد، وما علمناه عُلم، على أنهم العلية الرؤساء، والأكابر العظماء، ولو كان في شيء من

---

(١) إسماعيل بن القاسم هنا هو أبو علي القالي، وقد عدّه أندلسيًا لأنه هاجر إلى الأندلس وأقام فيها حتى وفاته. وقد مرّت ترجمته والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.

(٢) هو أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر، المتوفّى سنة ٢٨٠ هـ. وترجمته في معجم الأدباء (جـ ١ ص ١٥٢).

(٣) ترجمة عمر بن شبة في معجم الأدباء (جـ ٦ ص ٤٨١) وبغية الوعاة (ص ٣٦١).

(٤) في طبعة دار صادر: «النسب في صفاتها وذكر أسواقها».

(٥) في الطبعة نفسها: «وسجستان والريّ والسِّند..».

ذلك تأليف لكان الحكم في الأغلب أن يبلغنا كما بلغ سائر تآليفهم، وكما بلغنا كتاب حمزة ابن الحسن الأصبهاني في أخبار أصبهان، وكتاب الموصلي[1] وغيره في أخبار مصر، وكما بلغنا سائر تآليفهم[2] في أنحاء العلوم، وقد بلغنا تأليف القاضي أبي العباس محمد بن عبدون القيرواني[3] في الشروط، واعتراضه على الشافعي رحمه الله تعالى، وكذلك بلغنا ردّ القاضي أحمد بن طالب التميمي[4] على أبي حنيفة وتشيعه على الشافعي، وكتب ابن عبدوس[5] ومحمد بن سحنون وغير ذلك من خوامل تآليفهم[6] دون مشهورها.

وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر «أزهد الناس في عالِم أهلُه»، وقرأت في الإنجيل أنّ عيسى، عليه السلام قال: «لا يفقد النبيّ حرمته إلاّ في بلده» وقد تيقنّا ذلك بما لقي النبيّ ﷺ، من قريش - وهم أوفر الناس أحلامًا، وأصحّهم عقولاً، وأشدّهم تثبّتًا، مع ما خُصُّوا به من سكناهم أفضَلَ البِقَاع، وتغذيتهم بأكرم المياه - حتى خصّ اللّه تعالى الأوسَ والخزرج[7] بالفضيلة التي أبانهم[8] بها عن جميع الناس، واللّه يؤتي فضله من يشاء؛ ولا سيما أندلسنا فإنها خصّت من حسد أهلِها للعالِم الظاهر فيهم الماهر منهم، واستقلالهم كثيرَ ما يأتي به، واستهجانهم حسناتِهِ، وتتبّعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدّة حياته، بأضعاف ما في سائر البلاد، إنْ أجاد قالوا: سارق مغير ومنتحل مدّع، وإنْ توسّط قالوا: غثّ بارد وضعيف ساقط، وإن باكر الحيازة لقصب السَّبْق قالوا: متى كان هذا؟ ومتى تعلّم؟ وفي أي زمان قرأ؟ ولأمّه الهَبَل! وبعد ذلك إنْ ولجت به الأقدار أحد طريقين إمّا شُفُوفًا بائنًا يعليه على نظرائه أو سلوكًا في غير السبيل التي عهدوها

---

(١) نميل إلى أن يكون: «المصري».

(٢) في طبعة دار صادر: «تواليفهم».

(٣) أبو العباس محمد بن عبدون القيرواني تولّى القضاء في القيروان نحو ثلاثين شهرًا فعزله عنه إبراهيم بن الأغلب، وكان حافظًا لمذهب أبي حنيفة. علماء إفريقية (ص ٢٤١، ٣٠٧).

(٤) في علماء إفريقية (ص ٢٥٧، ٢٩٧): عبد اللّه بن أحمد بن طالب، وكان له كتب لا بأس بها، يردّ فيها على الشافعي.

(٥) في علماء إفريقية (ص ١٨٢): محمد وإسحٰق ابنا إبراهيم بن عبدوس، وكان الأول منهما حافظًا لمذهب مالك.

(٦) في طبعة ليدن: «حواصل تأليفهم».

(٧) الأوس والخزرج: هم أهل المدينة المنورة، وقد هاجر إليهم النبي محمد ﷺ، فنصروه ودعوا عندئذ بالأنصار.

(٨) أبانهم: ميّزهم وأظهرهم.

فهنالك حَمِيَ الوطيسُ على البائس، وصار غَرَضًا للأقوال، وهَدَفًا للمطالب، ونصبًا للتسبّب إليه، ونهبًا للألسنة، وعُرْضَة للتطرق إلى عرضه، وربما نُحل ما لم يَقُل، وطُوِّق ما لم يتقلّد، وأُلحق به ما لم يَفُه به ولا اعتقده قلبه، وبالْحَرَى وهو السابق المبرِّز إن لم يتعلّق من السلطان بحظّ أن يسلم من المَتَالف وينجو من المخالف، فإن تعرّض لتأليف غُمز ولمز، وتُعَرِّض وهمز، واشتطّ عليه، وعظم يسيرُ خَطْبه، واستشنع هين سَقَطه، وذهبت محاسنه، وسُترتْ فضائله، وهُتف ونودي بما أغفل، فتنكسر[1] لذلك همّته، وتكلُّ نفسه، وتبرد حميّته، وهكذا عندنا نصيب من ابتدأ يحوك شعرًا، أو يعمل بعمل رياسة[2]، فإنه لا يُفْلت من هذه الحبائل، ولا يتخلّص من هذه النُّصُبِ إلاّ الناهض الفائت والمطفّف المستولي على الأمد.

وعلى ذلك فقد جمع ما ظنّه الظانّ غير مجموع، وأُلِّفَتْ عندنا تآليف في غاية الحسن، لنا خَطَرَ السبق في بعضها: فمنها كتاب «الهداية» لعيسى بن دينار[3]، وهي أرفع كتب جمعت في معناها على مذهب مالك وابن القاسم، وأجمعها للمعاني الفقهيَّة على المذهب، فمنها كتاب الصلاة وكتاب البيوع وكتاب الجدار في الأقضية وكتاب النكاح والطلاق، ومن الكتب المالكية التي أُلّفت بالأندلس كتاب القطنيّ مالك بن علي[4]، وهو رجل قرشي من بني فهر، لقي أصحاب مالك وأصحاب أصحابه، وهو كتاب حسن فيه غرائب ومستحسنات من الرسائل المولدات، ومنها كتاب أبي إسحاق [يحيىٰ بن][5] إبراهيم

---

(١) في طبعة دار صادر: «فتنكس».

(٢) في الطبعة نفسها: «أو يعمل رسالة، فإنه..».

(٣) هو عيسى بن دينار بن واقد الغافقي الطليطلي؛ كان إمامًا في الفقه على مذهب مالك بن أنس، توفي سنة ٢١٢ هـ. ترجمته في جذوة المقتبس (ص ٢٩٨) وبغية الملتمس (ص ٤٠٢) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٥٥٦).

(٤) هو مالك بن علي بن مالك بن فِهْر بن مالك القرشي القرطبي الزاهد، من أهل قرطبة. له مختصر في الفقه على مذهب مالك بن أنس. توفي سنة ٢٦٨. ترجمته في تاريخ علماء الأندلس (ص ٦٢٧) وجذوة المقتبس (ص ٣٤٦) وبغية الملتمس (ص ٤٦٣). وفي المصدر الأخير أنه توفي بعد سنة ٢٦٨ هـ.

(٥) ما بين قوسين زيادة من جذوة المقتبس (ص ١٥٧) في ترجمة إبراهيم بن مزين؛ إذ يقول الحميدي: «ولا نعلم لإبراهيم بن مزين رواية ولا تفقهًا، ولعله أراد يحيىٰ بن إبراهيم بن مزين». وترجمة يحيىٰ ابن إبراهيم بن مزين في جذوة المقتبس (ص ٣٧٣) وبغية الملتمس (ص ٤٩٧) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٩٠١). وفي المصدرين الأولين أنه توفي سنة ٢٦٠ هـ، وفي المصدر الأخير أن وفاته سنة ٢٥٩ هـ.

ابن مزين في تفسير الموطإ والكتب المستقصية[1] لمعاني الموطإ وتوصيل مقطوعاته من تآليف ابن مزين أيضًا، وكتابه في رجال الموطإ وما لمالك عن كلّ واحد منهم من الآثار في مُوَطَّئه.

وفي تفسير القرآن كتاب أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد[2] فهو الكتاب الذي أَقْطَعُ قطعًا لا أستثني فيه أنه لم يؤلَّفْ في الإسلام تفسير مثله، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره.

ومنها في الحديث مصنّفه الكبير الذي رتّبه على أسماء الصحابة، رضي اللّه تعالى عنهم! فروى فيه عن ألف وثلثمائة صاحب ونيّف، ثم رتّب حديث كلّ صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام، فهو مصنّف ومسند، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث وجودة شيوخه، فإنه روى عن مائتي رجل وأربعة وثمانين رجلاً ليس فيهم عشرة ضعفاء، وسائرهم أعلام مشاهير. ومنها مصنّفه في فضل الصحابة والتابعين ومَنْ دونهم، الذي أرْبى فيه على مصنّف أبي بكر بن أبي شيبة ومصنّف عبد الرزاق بن همام ومصنّف سعيد بن منصور وغيرها، وانتظم علمًا عظيمًا لم يقع في شيء من هذه، فصارت تآليف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام، لا نظير لها، وكان متخيّرًا لا يقلّد أحدًا، وكان ذا خاصّة من أحمد بن حنبل رضي اللّه تعالى عنه!.

ومنها في أحكام القرآن كتاب ابن أمية الحجاري[3]، وكان شافعي المذهب بصيرًا بالكلام على اختياره، وكتاب القاضي أبي الحكم منذر بن سعيد، وكان داودي المذهب قويًا على الانتصار له، وكلاهما في أحكام القرآن غاية، ولمنذر مصنّفات منها كتاب «الإبانة، عن حقائق أصول الديانة».

ومنها في الحديث مصنّف أبي محمد قاسم بن أصبغ بن يوسف بن ناصح[4]، ومصنّف محمد بن عبد الملك بن أيمن[5]، وهما مصنّفان رفيعان احتويا من صحيح

---

(١) في تاريخ علماء الأندلس: من مؤلفاته كتاب استقصى فيه علل الموطإ، سماه كتاب «المستقصية».

(٢) مرت ترجمة بقي بن مخلد والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثاني.

(٣) النقل هنا عن جذوة المقتبس (ص ٤٠٤) ولكن الاسم هناك هو «ابن آمنة الحجاري».

(٤) ترجمة قاسم بن أصبغ في جذوة المقتبس (ص ٣٣٠) وبغية الملتمس (ص ٤٤٧).

(٥) هو أبو عبد اللّه محمد بن عبد الملك بن أيمن بن فرج، صنّف «السُّنَن» وهو مصنّف رفيع يحتوي من صحيح الحديث وغريبه ما ليس في كثير من المصنّفات. مات سنة ٣٣٠ هـ. جذوة المقتبس (ص ٦٧) وبغية الملتمس (ص ١٠٢).

الحديث وغريبه على ما ليس في كثير من المصنّفات. ولقاسم بن أصبغ هذا تآليف حسان جدًا، منها أحكام القرآن على أبواب كتاب إسماعيل[1] وكلامه، ومنها كتاب «المجتبى، على أبواب كتاب ابن الجارود المنتقى» وهو خير منه وأنقى حديثًا وأعلى سندًا وأكثر فائدة، ومنها كتاب في فضائل قريش وكِنانة[2]، وكتابه في الناسخ والمنسوخ، وكتاب غرائب حديث مالك بن أنس مِمّا ليس في الموطأ. ومنها كتاب «التمهيد» لصاحبنا أبي عمر يوسف ابن عبد البر، وهو الآن بَعْدُ في[3] الحياة لم يبلغ سنّ الشيخوخة، وهو كتاب لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلاً فكيف أحسن منه، ومنها كتاب «الاستذكار» وهو اختصار التمهيد المذكور، ولصاحبنا أبي عمر بن عبد البر المذكور كتبٌ لا مثيل لها: منها كتابه المسمّى بالكافي في الفقه على مذهب مالك وأصحابه خمسة عشر كتابًا[4] اقتصر فيه على ما بالمفتي الحاجة إليه وبوّبه وقرّبه فصار مغنيًا عن التصنيفات الطوال في معناه، ومنها كتابه في الصحابة[5] ليس لأحد من المُتقدّمين مثله على كثرة ما صنّفوا في ذلك، ومنها كتاب «الاكتفاء، في قراءة نافع وأبي عمرو بن العلاء، والحجّة لكلّ واحد منهما» ومنها كتاب «بهجة المجالس، وأنس المجالس، مِمّا يجري في المذاكرات، من غرر الأبيات ونوادر الحكايات»، ومنها كتاب «جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته».

ومنها كتاب شيخنا القاضي أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن الفرضي في المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال، ولم يبلغ عبد الغني الحافظ البصري في ذلك إلاّ كتابين، وبلغ أبو الوليد رحمه الله تعالى نحو الثلاثين، لا أعلم مثله في فنّه البتّة، ومنها تاريخ أحمد ابن سعيد[6]، ما وضع في الرجال أحد مثله إلاّ ما بلغنا من تاريخ محمد بن موسى العقيلي

---

(١) في جذوة المقتبس وبغية الملتمس: إسماعيل بن إسحٰق القاضي.

(٢) لم يرد لهذا الكتاب ذكر في المصدرين السابقين.

(٣) توفي يوسف بن عبد البر سنة ٤٦٠ هـ بشاطبة. وقد مرت ترجمته والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثاني.

(٤) في جذوة المقتبس (ص ٣٦٨) وبغية الملتمس (ص ٤٩٠): ستة عشر جزءًا.

(٥) في المصدرين السابقين أن كتابه في الصحابة هو كتاب «الاستيعاب في أسماء المذكورين في الروايات والسير والمصنّفات من الصحابة».

(٦) هو أبو عمر أحمد بن سعيد بن حزم بن يونس الصدفي؛ من أهل قرطبة، عني بالآثار والسنن وجمع الحديث. صنّف تاريخًا في المحدّثين بلغ فيه الغاية. توفي سنة ٣٥٠ هـ. تاريخ علماء الأندلس (ص ٩٦) وجذوة المقتبس (ص ١٢٥) وبغية الملتمس (ص ١٨١).

البغدادي، ولم أره، وأحمد بن سعيد هو المتقدّم في[1] التأليف القائم في ذلك، ومنها كتب محمد بن[2] يحيىٰ بن مفرج القاضي، وهي كثيرة؛ منها أسفار سبعة جمع فيها فقه الحسن البصري، وكتب كثيرة جمع فيها فقه الزهري.

ومما يتعلّق بذلك شرح الحديث لقاسم بن ثابت السرقسطي[3]، فما شآه[4] أبو عبيد إلاّ بتقدّم العصر فقط.

ومنها في الفقه «الواضحة»[5] والمالكيون لا تمانع بينهم في فضلها واستحسانهم إيّاها، ومنها «المستخرجة من الأسمعة» وهي المعروفة بالعُتْبية[6]، ولها عند أهل إفريقية القدر العالي والطيران الحثيث، والكتاب الذي جمعه أبو عمر أحد بن عبد الملك بن هشام الإشبيلي المعروف بابن المكوي[7]، والقرشي أبو مروان المعيطي[8] في جمع أقاويل مالك كلّها على نحو الكتاب «الباهر» الذي جمع فيه القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن الحدّاد البصري أقاويل الشافعي كلّها، ومنها كتاب «المنتخب» الذي ألّفه القاضي محمد بن يحيىٰ

---

(١) في طبعة دار صادر: «المتقدم إلى. . .».

(٢) ترجم له الحميدي في جذوة المقتبس (ص ٤٠) باسم «محمد بن أحمد بن يحيىٰ بن مفرّج القاضي». وترجم له الضبي في بغية الملتمس (ص ٤٩) باسم «محمد بن يحيىٰ بن مفرج»، وقال الاثنان إنه صنّف كتبًا في فقه الحديث وفي فقه التابعين. توفي سنة ٣٨٠ هـ.

(٣) في طبعة عبد الحميد: «العامر بن خلف السرقسطي»، وقد ترجم الحميدي في جذوة المقتبس (ص ٣٣١ ـ ٣٣٢) لقاسم بن ثابت السرقسطي فقال: «مؤلف كتاب «غريب الحديث»، رواه عنه ابنه ثابت، وله فيه زيادات، وهو كتاب حسن مشهور، ذكره أبو محمد علي بن أحمد وأثنى عليه وقال: ما شاء أبو عبيد إلاّ بتقدم العصر». وترجمة قاسم أيضًا في بغية الملتمس (ص ٤٤٨).

(٤) شآه: فاقه.

(٥) كتاب «الواضحة» لعبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون السلمي؛ وهو كتاب كبير في الحديث والمسائل على أبواب الفقه. توفي عبد الملك سنة ٢٣٨ هـ. وقد مرّت ترجمته والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.

(٦) كتب «العُتْبية» للفقيه الأندلسي محمد بن أحمد بن عبد العزيز ابن عُتْبة، المعروف بالعُتْبي، وهي مستخرجة من الأسمعة المسموعة من مالك بن أنس. توفي العتبي سنة ٢٥٥ هـ. وقد مرّت ترجمته والإشارة إلى مصدار ترجمته في الجزء الثاني.

(٧) ترجمة الفقيه أحمد بن عبد الملك بن هاشم، المعروف بابن المكوي، الإشبيلي في جذوة المقتبس (ص ١٣٢) والصلة (ص ٥٣) ووفاته في المصدر الأخير سنة ٤٠١ هـ.

(٨) المعيطي: هو الفقيه أبو بكر محمد بن عبيد الله القرشي المعيطي، حسبما جاء في الصلة (ص ٥٤). وفي جذوة المقتبس (ص ١٣٢): أبو مروان.

ابن عمر بن لبابة[1] ، وما رأيت لمالكي قطّ كتابًا أنبل منه في جمع روايات المذهب وشرح مستغلقها وتفريع وجوهها، وتآليف قاسم بن محمد، المعروف بصاحب الوثائق[2]، وكلُّها حسن في معناه، وكان شافعيّ المذهب نظارًا جاريًا في ميدان البغداديين.

ومنها في اللغة الكتاب «البارع» الذي ألّفه إسماعيل بن القاسم[3]، يحتوي على لغة العرب، وكتابه في «المقصور والممدود والمهموز» لم يؤلّف مثله في بابه، وكتاب «الأفعال» لمحمد بن عمر بن عبد العزيز، المعروف بابن القوطية[4]، بزيادات ابن طريف[5] مولى العبديين[6] فلم يوضع في فنّه مثله، وكتاب جمعه أبو غالب تمام بن غالب المعروف بابن التياني[7] في اللغة لم يؤلَّف مثلُه اختصارًا وإكثارًا وثقة نقل، وهو أظنّ في الحياة بعد.

وههنا قصة[8] لا ينبغي أن تخلو رسالتنا منها، وهي أن أبا الوليد عبد اللّه بن محمد ابن عبد اللّه المعروف بابن الفرضي، حدّثني أنّ أبا الجيش مجاهدًا صاحبَ الجزائر ودانية وجَّه إلى أبي غالب أيام غلبته على مُرْسِية، وأبو غالب ساكنٌ بها، ألفَ دينار أندلسية على أن يزيد في ترجمة الكتاب المذكور «مِمّا ألّفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد» فردَّ الدنانير وأبى من ذلك، ولم يفتح في هذا بابًا البتّة، وقال: واللّه لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلْتُ ولا استجزْتُ الكذب؛ لأني لم أجمعه له خاصّة بل لكلِّ طالب، فأعجب لهمة

---

(١) محمد بن يحيىٰ بن عمر بن لبابة فقيه أندلسي مقدّم، مات بالإسكندرية سنة ٣٣٠ هـ، وقيل: ٣٣١ هـ. جذوة المقتبس (ص ٩٨) وبغية الملتمس (ص ١٤٤).

(٢) هو قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيّار، المعروف بصاحب الوثائق وهو أشهر به، ويقال له البيّاني. من تواليفه كتاب «الإيضاح في الردّ على المقلدين». توفي سنة ٢٧٨ هـ. جذوة المقتبس (ص ٣٢٩) وبغية الملتمس (ص ٤٤٦).

(٣) إسماعيل بن القاسم البغدادي هو أبو علي القالي، وقد مرّت ترجمته والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.

(٤) مرّت ترجمة ابن القوطية والإشارة إلى مصادر ترجمته في هذا الجزء (ص ٦٣).

(٥) ابن طريف مولى العبديين ونحوي مشهور، زاد في كتاب «الأفعال» لمحمد بن عمر بن القوطية زيادات استفيدت منه وأخذت عنه. ذكره ابن حزم، جذوة المقتبس (ص ٤٠٦) وبغية الملتمس (ص ٥٣٨).

(٦) هكذا في جذوة المقتبس وبغية الملتمس. وفي طبعة عبد الحميد: «العبيديين».

(٧) أبو غالب تمام بن غالب، المعروف بابن التياني من أهل مرسية، كان إمامًا في اللغة، وله كتاب مشهور جمعه في اللغة لا مثيل له. توفي سنة ٣٢١ هـ. جذوة المقتبس (ص ١٨٣) وبغية الملتمس (ص ٢٥٢) وبغية الوعاة (ص ٢٠٩). وفي المصدر الأخير أن وفاته سنة ٤٣٣ هـ.

(٨) قصته هذه مع أبي الجيش مجاهد العامري في المصادر السابقة. وسترد بعد قليل (ص ١٦٧).

هذا الرئيس وعلوّها، وأعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها.

ومنها كتاب أحمد بن أبان بن سيد[1] في اللغة المعروف بكتاب «العالم» نحو مائة سفر على الأجناس في غاية الإيعاب، بدأ بالفلك وختم بالذرة. وكتاب «النوادر»[2] لأبي علي إسماعيل بن القاسم، وهو مبارٍ لكتاب «الكامل» لأبي العباس المبرد، ولعمري لئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحوًا وخبرًا فإنّ كتاب أبي علي لأكثر[3] لغة وشعرًا، وكتاب «الفصوص» لصاعد بن الحسن الربَعي، وهو جارٍ في مضمار الكتابين المذكورين.

ومن الأنحاء تفسير الجرفي[4] لكتاب الكسائي، حسن في معناه، وكتاب ابن سيد[5] في ذلك المنبوز بـ «العالم والمتعلّم» وشرح له لكتاب الأخفش.

ومما ألّف في الشعر كتاب عبادة بن ماء السماء في «أخبار شعراء الأندلس» كتاب حسن، وكتاب «الحدائق» لأبي عمر أحمد بن فرج، عارض به كتاب الزهرة لأبي محمد بن داود رحمه اللّه تعالى، إلاَّ أنَّ أبا بكر إنما أدخل مائة باب في كل باب مائة بيت، وأبو عمر أورد مائتي باب في كل باب مائة بيت ليس منها باب تكرّر اسمه لأبي بكر، ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئًا، وأحسن الاختيار ما شاء وأجاد، فبلغ الغاية، وأتى الكتابُ فردًا في معناه، ومنها كتاب «التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» جمعه أبو الحسن علي بن محمد ابن أبي الحسن الكاتب، وهو حيٌّ بعد[6].

ومـمّا يتعلّق بذلك شرح أبي القاسم إبراهيم بن محمد بن الإِفليلي لشعر المتنبي، وهو حسن جدًا.

---

(١) أحمد بن أبان بن سِيِّد إمام في اللغة العربية، وصاحب الشرطة بقرطبة، يكنى أبا القاسم، وتوفي سنة ٣٨٢ هـ. الصلة (ص ٣٤) وجذوة المقتبس (ص ١١٨، ٤٠٥) وبغية الملتمس (ص ١٧٠، ٥٣٨) وبغية الوعاة (ص ١٢٦).

(٢) هو الكتاب المعروف بـ «الأمالي في لغة العرب»، وهو مطبوع.

(٣) في طبعة دار صادر: «أكثر».

(٤) الجُرْفي نحوي مشهور، له كتاب شرح فيه كتاب الكسائي في النحو. جذوة المقتبس (ص ٤٠٨) وبغية الملتمس (ص ٥٤٠).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «ابن سيده»، وهو خطأ، لأن الكتابين المذكورين «العالم والمتعلم» والكتاب الذي شرح فيه كتاب الأخفش، هما لابن سيد وذكرهما الحميدي والضبي في ترجمة ابن سيد.

(٦) ترجمة أبي الحسن علي بن محمد بن أبي الحسن الكاتب في جذوة المقتبس (ص ٣٠٨) وبغية الملتمس (ص ٤١٣). وكتاب «التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» لأبي عبد اللّه محمد بن الكتاني الطبيب، وهو مطبوع.

ومن الأخبار تواريخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي[١] في أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم، وذلك كثير جدًا، وكتاب له في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها، على نحو ما بدأ به ابنُ أبي طاهر[٢] في أخبار بغداد وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها. وتواريخ متفرّقة رأيت منها: أخبار عمر بن حفصون القائم بريّة ووقائعه وسيره وحروبه، وتاريخ آخر في أخبار عبد الرحمن بن مروان الجليقي القائم بالجوف[٣]، وفي أخبار بني[٤] قسي والتُّجِيبيين وبني الطوَيل بالثغر[٥]، فقد رأيت من ذلك كتبًا مصنّفة في غاية الحسن، وكتاب مجزأ في أجزاء كثيرة في أخبار رَيَّة وحصونها وحروبها وفقهائها وشعرائها تأليف إسحٰق بن سلمة بن إسحٰق الليثي[٦]، وكتاب محمد بن الحارث الخشني في «أخبار القُضَاة بقرطبة وسائر بلاد الأندلس»[٧]، وكتاب في أخبار الفقهاء بها، وكتاب لأحمد بن محمد بن موسى في «أنساب مشاهير أهل الأندلس» في خمسة أسفار ضخمة من أحسن كتاب في الأنساب وأوسعها، وكتاب قاسم بن أصبغ في «الأنساب» في غاية الحسن والإيعاب والإيجاز، وكتابه في «فضائل بني أمية»، وكان من الثقة والجلالة بحيث اشتهر أمره، وانتشر ذكره، ومنها كتب مؤلفة في أصحاب المعاقل والأجناد الستة بالأندلس، ومنها كتب كثيرة جُمعت فيها أخبار شعراء الأندلس للمستنصر رحمه اللّه تعالى، رأيت منها «أخبار شعراء إلبيرة» في نحو عشرة أجزاء، ومنها كتاب «الطوالع» في أنساب أهل الأندلس، ومنها كتاب «التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس» تأليف أبي مروان بن حَيَّان[٨] نحو عشرة أسفار من أجلّ كتاب أُلِّف في هذا المعنى، وهو في الحياة بَعْدُ لم يتجاوز الاكتهال، وكتاب «المآثر العامرية» لحسين بن عاصم[٩] في سير ابن أبي عامر وأخباره،

---

(١) ترجمة الرازي في جذوة المقتبس (ص ١٠٤) وبغية الملتمس (ص ١٥١) والنص هنا في المصدرين المذكورين وقد مرّت ترجمته في الجزء الأول

(٢) في المصدرين السابقين: «أحمد بن أبي طاهر».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «بالحوف» بالحاء. والجوف عند أهل الأندلس يعني الشمال.

(٤) في طبعة عبد الحميد: «بني قيس».

(٥) في الطبعة نفسها: «والثغر، وقد رأيت. .».

(٦) ترجمة إسحٰق بن سلمة في جذوة المقتبس (ص ١٦٩) وبغية الملتمس (ص ٢٣٦) وفيهما: «إسحٰق بن سلمة بن إسحٰق القيني» بدل «الليثي».

(٧) في طبعة دار صادر: «وسائر الأندلس». وكتاب الخشني مطبوع واسمه هو «قضاة قرطبة».

(٨) أبو مروان حيان بن خلف بن حيان مؤرخ قرطبي كبير، له مؤلفات كثيرة، أشهرها «المقتبس» و «المتين». توفي سنة ٤٦٩ هـ. الصلة (ص ٢٤٧) والذخيرة (ق ١ ص ٥٧٣).

(٩) ترجمة حسين بن عاصم وما ورد عنه هنا في جذوة المقتبس (ص ١٩٣) وبغية الملتمس (ص ٢٦٧).

وكتاب الأقشتين[١] محمد بن عاصم النحوي في «طبقات الكُتّاب بالأندلس»، وكتاب سكن ابن سعيد[٢] في ذلك، وكتاب أحمد بن فرج في «المنتزين والقائمين بالأندلس وأخبارهم»، وكتاب «أخبار أطباء الأندلس» لسليمان بن جلجل[٣].

وأما الطب فكتب الوزير يحيىٰ بن إسحٰق[٤] وهي كتب حسان رفيعة، وكتب محمد ابن الحسن المذحِجِيّ أستاذنا رحمه اللّٰه تعالى! وهو المعروف بابن الكتاني[٥] وهي كتب رفيعة حسان، وكتب التصريف لأبي القاسم خلف بن عياش الزهراوي[٦]، وقد أدركْناه وشاهدْناه، ولئن قلْنا إنه لم يؤلّف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لَنَصْدُقَنَّ، وكتب ابن الهيثم[٧] في الخواصّ والسموم والعقاقير من أجلّ الكتب وأنفعها.

وأما الفلسفة فإني رأيت فيها رسائل مجموعة وعيونًا مؤلفة لسعيد بن فتحون السّرَقسْطي المعروف بالحمار[٨] دالّة على تمكّنه من هذه الصناعة، وأما رسائل أستاذنا أبي عبد اللّٰه محمد بن الحسن المذحِجِيّ في ذلك فمشهورة متداولة وتامّة الحسن فائقة الجودة عظيمة المنفعة.

وأما العدد والهندسة فلم يُقْسَمْ لنا في هذا العلم نفاذ، ولا تحقّقْنا به، فلسْنا نثق بأنفسنا في تمييز المحسن من المقصّر في المؤلفين فيه من أهل بلدنا إلاّ أني سمعت مَنْ أثق

---

(١) ترجم الحميدي لمحمد بن عاصم في جذوة المقتبس (ص ٧٩) وقال إنه نحوي مشهور ذكره ابن حزم، دون أن يذكر كلمة «الأقشتين». ثم ترجم لمحمد بن موسى بن هاشم، وقال: هو نحوي يعرف بالأقشتين. وهكذا ورد في بغية الملتمس (ص ١١٧) و (ص ١٢٧).

(٢) ترجمة سكن بن سعيد في جذوة المقتبس (ص ٢٣٦) وبغية الملتمس (ص ٣١٥).

(٣) كتاب ابن جلجل مطبوع بعنوان: «طبقات الأطباء والحكماء» في مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥. وترجمة ابن جلجل في عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٤٩٣).

(٤) ترجمة يحيىٰ بن إسحٰق في طبقات الأطباء والحكماء (ص ١٠٠) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٤٨٨) وجذوة المقتبس (ص ٣٧٤) وبغية الملتمس (ص ٤٩٨).

(٥) ترجمة ابن الكتاني في عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٤٩١) وجذوة المقتبس (ص ٤٩) وبغية الملتمس (ص ٦٧) وقد تقدم أنه هو صاحب كتاب «التشبيهات».

(٦) ترجمته في عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٥٠١) وجذوة المقتبس (ص ٢٠٨) وبغية الملتمس (ص ٢٨٦) وفيها جميعًا: «خلف بن عباس» بدل «عياش».

(٧) هو عبد الرحمن بن إسحٰق بن الهيثم، من أعيان أطباء الأندلس، ومن أهل قرطبة. ترجمته في عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٤٩٣) وجذوة المقتبس (ص ٤٠٧) وبغية الملتمس (ص ٥٤٠).

(٨) ترجمة سعيد بن فتحون السرقسطي في جذوة المقتبس (ص ٢٣٣) وبغية الملتمس (ص ٣١١) وبغية الوعاة (ص ٢٥٦) والذيل والتكملة (جـ ٤ ص ٤٠).

بعقله ودينه من أهل العلم مِمَّنْ اتُّفق على رسوخه فيه يقول: إنه لم يؤلّف في الأزياج مثل زيج مسلمة[١] وزيج ابن السمح[٢]، وهما من أهل بلدنا، وكذلك كتاب «المساحة المجهولة»[٣] لأحمد بن نصر فما تقدّم إلى مثله في معناه.

وإنما ذكرنا التآليف المستحقّة للذكر، والتي تدخل تحت الأقسام السبعة التي لا يؤلّف عاقل عالم إلاّ في أحدها، وهي إمّا شيء يخترعه لم يُسْبق إليه[٤]، أو شيء ناقص يتمّه، أو شيء مستغلق يشرحه، أو شيء طويل يختصره دون أن يخلَّ بشيء من معانيه، أو شيء متفرّق يجمعه، أو شيء مختلط يرتّبه، أو شيء أخطأ فيه صاحبه[٥] يصلحه.

وأما التآليف[٦] المقصّرة عن مراتب غيرها فلم نلتفت إلى ذكرها، وهي عندنا من تأليف أهل بلدنا أكثر من أن نحيط بعلمها.

وأما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم، ولا اختلفت فيها النحل، فقلَّ لذلك تصرّفهم في هذا الباب، فهي على كل حال غير عَرِيَّةٍ عنه، وقد كان فيهم قوم يذهبون إلى الاعتزال، نظار على أصوله، ولهم فيه تآليف[٧]: منهم خليل بن إسحٰق، ويحيىٰ بن السمينة، والحاجب موسى بن حدير[٨] وأخوه الوزير صاحب المظالم أحمد، وكان داعية إلى الاعتزال لا يستتر بذلك. ولنا على مذهبنا الذي تخيّرْناه من مذاهب أصحاب[٩] الحديث كتاب في هذا المعنى، وهو وإن كان صغير الجرم قليل عدد الورق يزيد على المائتين زيادة يسيرة فعظيم الفائدة لأنّا أسقطْنا فيه المَشَاغب كلّها، وأضربْنا عن التطويل جملة، واقتصرْنا على البراهين المنتخبة من المقدّمات الصحاح الراجعة إلى شهادة

---

(١) المراد أبا القاسم مسلمة بن أحمد، المعروف بالمجريطي، إمام الرياضيين بالأندلس في وقته، توفي سنة ٣٩٨ هـ. عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٤٨٢) وطبقات الأمم (ص ٧٨).

(٢) هو أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمح، المهندس الغرناطي، كان محققًا لعلم العدد والهندسة، توفي سنة ٤٢٦ هـ. عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٤٨٣) وطبقات الأمم (ص ٧٩).

(٣) كتاب «المساحة المجهولة» ساقطة من طبعة بولاق.

(٤) في طبعة دار صادر: «وهي إمّا شيء لم يُسْبَقْ إليه يخترعه...».

(٥) في الطبعة نفسها: «مؤلفه يصلحه».

(٦) في الطبعة نفسها: «وأما التواليف».

(٧) في طبعة دار صادر: «تواليف».

(٨) ترجمة موسى بن محمد بن حدير في جذوة المقتبس (ص ٣٣٧) وبغية الملتمس (ص ٤٥٥).

(٩) في طبعة ليدن: «من مذاهب أهل الحديث».

الحِسّ وبديهة العقل لها بالصحة. ولنا فيما تحقَّقْنا به تآليف جمّة[1]، منها ما قد تمّ، ومنها ما شارف التمام، ومنها ما قد مضى منه صدر ويعين اللّه تعالى على باقيه، لم نقصد به قصدَ مُبَاهاة فنذكرها، ولا أردْنا السمعة فنسمِّيها، والمراد بها ربّنا جلّ وجهه، وهو وليّ العَون فيها، والمليُّ بالمجازاة عليها، وما كان للّه تعالى فسيبدو، وحسبنا اللّه ونعم الوكيل.

وبلدنا هذا ـ على بعده من ينبوع العلم، ونأيه من محلّة العلماء ـ فقد ذكرْنا من تآليف أهله ما إنْ طُلب مثلها بفارس والأهواز وديار مضر وديار ربيعة واليمن والشام أعوز وجودُ ذلك على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها.

ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جَعْوَنة بن الصمّة الكلابي[2] في الشعر لم نُبَاهِ به إلاّ جريرًا والفرزدق، لكونه في عصرهما، ولو أنصف لاستشهد بشعره، فهو جارٍ على مذهب الأوائل، لا على طريقة المحدثين، وإذا سمَّينا بقي بن مخلد لم نسابق به إلاّ محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري وسليمان بن الأشعث السجستاني وأحمد ابن شعيب النسائي. وإذا ذكرنا قاسم[3] بن محمد لم نُباه به إلاّ القفّال ومحمد بن عقيل الفريابي، وهو شريكهما في صحبة المزني أبي[4] إبراهيم والتلمذ له[5]، وإذا نعتْنا عبد اللّه ابن قاسم بن هلال ومنذر بن سعيد لم نجار بهما إلا أبا الحسن بن المفلس والخلال والديباجي ورُوَيْم بن أحمد. وقد شاركهم عبد اللّه في أبي سليمان وصحبته، وإذا أشرْنا إلى محمد بن عمر بن لبابة[6] وعمِّه محمد بن عيسى وفضل بن سلمة لم نناطح بهم إلاّ

---

(١) في الطبعة نفسها: «تآليف جملة».

(٢) أبو الأجرب جَعْوَنة بن الصِّمَّة الكلابي من قدماء شعراء الأندلس. وترجمته في جذوة المقتبس (ص ١٨٩) وبغية الملتمس (ص ٢٦١) وفيه: «جعونة بن الصهة». والمغرب (جـ ١ ص ١٣١). والنص هنا في الجذوة والبغية.

(٣) هو قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيّار البيّاني، توفي سنة ٢٧٨ هـ. جذوة المقتبس (ص ٣٢٩) وبغية الملتمس (ص ٤٤٦). والنص هنا ثابت في المصدرين المذكورين.

(٤) في طبعة بولاق: «المزني بن إبراهيم».

(٥) في طبعة دار صادر: «والتلمذة له».

(٦) هو أبو عبد اللّه محمد بن عمر بن لبابة، فقيه أندلسي، توفي سنة ٣١٤ هـ. ترجمته في جذوة المقتبس (ص ٧٦) وبغية الملتمس (ص ١١٢) وهذا النص عن ابن لبابة في المصدرين المذكورين.

محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ومحمد بن سحنون ومحمد بن عبدوس، وإذا صرحْنا بذكر محمد بن يحيىٰ الرباحي[1] وأبي عبد الله محمد بن عاصم لم يقصّرا عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد.

ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلاّ أحمد بن محمد بن دراج القَسْطَلّي[2] لما تأخّر عن شأو بشار بن برد وحبيب والمتنبي، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب[3]، وأحمد بن عبد الملك بن مروان[4]، وأغلب بن شعيب[5]، ومحمد بن شخيص[6]، وأحمد ابن فرج[7]، وعبد الملك بن سعيد المرادي[8]، وكلٌّ هؤلاء فحلٌ يُهَاب جانبه، وحصان ممسوح الغرّة.

ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شُهَيد[9] صديقنا وصاحبنا، وهو حيٌّ بَعْدُ لم يبلغ سنّ الاكتهال، وله من التصرّف في وجوه البلاغة وشِعابها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركب من لساني عمرو وسهل[10] ومحمد بن عبد الله بن مسرة في طريقه التي سلك فيها،

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «الرياحي» بالياء. والرباحي: نسبه إلى قلعة رباح. وأصل محمد بن يحيىٰ بن عبد السلام الرباحي من جيان، وهو نحوي مشهور، توفي سنة ٣٥٨ هـ. جذوة المقتبس (ص ٩٨) وبغية الملتمس (ص ١٤٤) والوافي بالوفيات (جـ ٢ ص ٣٧٢) وبغية الوعاة (ص ١١٣) وطبقات النحويين واللغويين (ص ٣٣٥).

(٢) مرّت ترجمة ابن دراج القسطلي والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثاني.

(٣) هو جعفر بن عثمان المصحفي، وقد مرّت ترجمته والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.

(٤) أحمد بن عبد الملك بن مروان أديب شاعر ذكره ابن حزم في المتقدمين من الشعراء. جذوة المقتبس (ص ١٣٢) وبغية الملتمس (ص ١٩٠).

(٥) أغلب بن شعيب الجياني شاعر مقدّم، سكن قرطبة وكان من شعراء عبد الرحمن الناصر. جذوة المقتبس (ص ١٧٤) وبغية الملتمس (ص ٢٤٢).

(٦) هو أبو عبد الله محمد بن مطرف بن شخيص؛ كان من أهل الأدب المشهورين، ومن أعيان الشعر المقدمين، مات قبل الأربعمائة. جذوة المقتبس (ص ٩١) وبغية الملتمس (ص ١٢٩) والمغرب (جـ ١ ص ٢٠٨) ويتيمة الدهر (جـ ٢ ص ٢٢).

(٧) هو أبو عمر أحمد بن فرج الجياني، وقد مرّت ترجمته والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثاني

(٨) مرّت ترجمة عبد الملك بن سعيد المرادي في الجزء الأول.

(٩) مرّت ترجمة أحمد بن عبد الملك بن شهيد والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.

(١٠) يريد عمرو بن بحر الجاحظ، وسهل بن هارون.

وإنْ كنّا لا نرضى مذهبه، في جماعة يكثر تعدادهم.

وقد انتهى ما اقتضاه خطاب الكاتب رحمه اللّٰه تعالى من البيان، ولم نتزيد فيما رغب فيه إلاّ ما دعت الضرورة إلى ذكره لتعلّقه بجوابه، والحمد للّٰه الموفق لعلمه، والهادي إلى الشريعة المزلفة منه والموصلة، وصلّى اللّٰه على محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه وسلّم، وشرّف وكرّم، انتهت الرسالة.

وكتب الحافظ ابن حجر على هامش قوله فيها «وإنما سكن على الكوفة خمسة أعوام وأشهرًا» ما نصُّه: صوابه أربعة أعوام، انتهى.

وقال ابن سعيد، بعد ذكره هذه الرسالة ما صورته: رأيتُ أن أذيِّلَ ما ذكره الوزيرُ الحافظ أبو محمد بن حزم من مفاخر أهل الأندلس بما حضرني واللّٰه تعالى ولي الإِعانة.

أما القرآن فمن أجلِّ ما صنّف في تفسيره كتاب «الهداية، إلى بلوغ النهاية» في نحو عشرة أسفار، صنّفه الإمام العالم الزاهد أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي[1]، وله كتاب «تفسير إعراب القرآن»، وعدَّ ابن غالب في كتاب «فرحة الأنفس» تآليف مكّي المذكور، فبلغ بها ٧٧ تأليفًا، وكانت وفاته سنة ٤٣٧، ولأبي محمد بن عطية الغَرْناطي[2] في تفسير القرآن الكتاب الكبير الذي اشتهر وطار في الغرب والشرق، وصاحبه من فضلاء المائة السادسة.

وأما القراءات فلمكي المذكور فيها كتاب «التبصرة» وكتابُ «التيسير» لأبي عمرو الداني[3] مشهورٌ في أيدي الناس.

وأما الحديث فكان بعصرنا في المائة السابعة الإمام أبو الحسن علي بن القطان القرطبي[4] الساكن بحضرة مراكش، وله في تفسير غريبه[5] وفي رجاله مصنّفات، وإليه

(١) مكي بن أبي طالب اسمه حموش بن محمد بن مختار القيسي، يكنى أبا محمد، وأصله من القيروان، وسكن قرطبة. توفي سنة ٤٣٧ هـ. الصلة (ص ٩١٠) وغاية النهاية في طبقات القراء (جـ ٢ ص ٣٠٧).

(٢) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، من أهل غرناطة، وقد مرت ترجمته والإشارة إلى مصادر الترجمة في الجزء الثاني.

(٣) هو أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد الداني الأموي، وقد مرت ترجمته والإشارة إلى مصادر الترجمة في الجزء الثاني.

(٤) ترجمة علي بن القطان القرطبي في التكملة (رقم ١٩٢٠) وصلة الصلة (ص ١٣١).

(٥) في طبعة دار صادر: «غرائبه».

كانت النهاية والإشارة في عصرنا، وسمعت أنه كان اشتغل بجمع أمهات كتب الحديث المشهورة، وحذف المكرّر، وكتاب رُزَيْن بن عمار الأندلسي[1] في جمع ما يتضمّنه كتاب مسلم والبخاري والموطأ والسنن والنسائي والترمذي كتاب جليل مشهور في أيدي الناس بالمشرق والمغرب، وكتاب «الأحكام» لأبي محمد عبد الحق الإشبيلي مشهور متداول القراءة، وهي أحكام كبرى، وأحكام صغرى، قيل: ووسطى، وكتاب «الجمع بين الصحيحين» للحميدي مشهور.

وأما الفقه فالكتاب المعتمد عليه الآن الذي ينطلق عليه اسم الكتاب عند المالكية حتى بالإسكندرية فكتاب «التهذيب» للبراذعي السرقسطي[2]، وكتاب «النهاية»[3] لأبي الوليد بن رشد، كتاب جليل معظم معتمد عليه عند المالكية، وكذلك كتاب «المنتقى» للباجي.

وأما أصول الدين وأصول الفقه فللإمام أبي بكر ابن العربي الإشبيلي من ذلك ما منه كتاب «العواصم والقواصم» المشهور بأيدي الناس، وله تصانيف[4] غير هذا، ولأبي الوليد ابن رشد في أصول الفقه ما منه «مختصر المستصفى».

وأما التواريخ فكتاب ابن حيان الكبير المعروف «بالمتين» في نحو ستين مجلّدة وإنما ذكر ابن حزم كتاب «المقتبس» وهو في عشر مجلّدات، والمتين يذكر فيه أخبار عصره، ويمعن فيها مِمّا شاهده، ومنه ينقل صاحب الذخيرة، وقد ذَيل عليه أبو الحجاج البَيَّاسي أحد معاصرينا، وهو الآن بإفريقية في حضرتها تونس عند سلطانها تحت إحسانه الغمر، وكتاب المظفر بن الأفطس ملك بَطَلْيَوسَ المعروف «بالمظفري» نحو كتاب «المتين» في الكبر، وفيه تاريخ على السنين، وفنون آداب كثيرة، وتاريخ ابن صاحب الصلاة في الدولة اللمتونية، وذكر ابن غالب أن ابن الصيرفي[5] الغرناطي له كتاب في أخبار دولة لمتونة، وأن

---

(١) رزين بن عمار العَبْدري الأندلسي من أهل سرقسطة، يكنى أبا الحسن، كان عالـمًا بالحديث وله فيه تآليف حسان. توفي سنة ٥٢٤ هـ. الصلة (ص ٢٩٦).

(٢) هو خلف بن أبي القاسم الأزدي البراذعي، من أهل قيروان، ارتحل إلى صقلية وألف فيها كتابه «تهذيب المدونة» وفرغ منه سنة ٣٧٢ هـ. وهكذا يبدو أنه ليس من سرقسطة، وقد يكون من سرقوسة بصقلية. الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب (ص ١١٢).

(٣) هو كتاب «نهاية المجتهد» في الفقه. عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٥٣٢) في ترجمة ابن رشد.

(٤) في طبعة دار صادر: «وله تآليف».

(٥) هو أبو بكر يحيىٰ بن الصيرفي المؤرخ الغرناطي، له تاريخ قصره على الدولة اللمتونية، وكان من شعرائها. توفي سنة ٥٥٧ هـ. المغرب (جـ ٢ ص ١١٨) والتكملة (ص ٧٢٣).

أبا الحسن السالمي له كتاب «في أخبار الفتنة الثانية بالأندلس»، بدأ من سنة ٥٣٩، ورتّبه على السنين وبلغ به سنة ٥٤٧، وأبو القاسم خلف بن بشكوال له كتاب في «تاريخ أصحاب الأندلس» من فتحها إلى زمانه، وأضاف إلى ذلك من أخبار قرطبة وغيرها ما جاء في خاطره[1]، وله كتاب «الصلة» في تاريخ العلماء، وللحميدي قبله «جذوة المقتبس» وقد ذيّل كتاب الصلة في عصرنا هذا أبو عبد الله بن الأبّار البَلَنسي صاحب كتاب سلطان إفريقية[2].

وذكر ابنُ غالب أنّ الفقيه أبا جعفر بن عبد الحق الخزرجي القرطبي له كتاب كبير بدأ فيه من بدء الخليقة إلى أن انتهى في أخبار الأندلس إلى دولة عبد المؤمن، قال: وفارقته سنة ٥٦٥، وأبو محمد بن حزم صاحب الرسالة المتقدّمة الذكر له كتب جمّة في التواريخ، مثل كتاب «نقط العروس، في تواريخ الخلفاء» وقد صنّف أبو الوليد بن زيدون كتاب «التبيين في خلفاء بني أمية بالأندلس» على منزع كتاب «التعيين في خلفاء المشرق» للمسعودي.

وللقاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد الطليطلي كتاب «التعريف، بأخبار علماء الأمم من العرب والعجم» وكتاب «جامع أخبار الأمم». وأبو عُمَر بن عبد البر له كتاب «القصد والأمم، في معرفة أخبار العرب والعجم». وعريب بن سعد[3] القرطبي له كتاب «اختصار تاريخ الطبري» قد سعد باغتباط الناس به، وأضاف إليه تاريخ إفريقية والأندلس، ولأحمد ابن سعيد بن محمد بن عبد الله بن أبي الفياض[4] كتاب «العبر» وكتاب أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي[5] في أخبار النحويين واللغويين بالمشرق والأندلس»، وكتاب القاضي أبي الوليد بن الفَرَضي في «أخبار العلماء والشعراء» وما يتعلّق بذلك، وليحيىٰ بن حكم الغَزَال[6] تاريخ ألّفه كلّه منظومًا، كما صنع أيضًا بعده أبو طالب المتنبي من جزيرة شُقْر في التاريخ الذي أورد منه صاحب الذخيرة ما أورد[7]، وكتاب «الذخيرة» لابن بسام في جزيرة

---

(١) في طبعة ليدن: «الخاطره».

(٢) في طبعة دار صادر: «البلنسي كاتب سلطان إفريقية».

(٣) في طبعة بولاق: «سعيد القرطبي».

(٤) كلمة «أبي» ساقطة من طبعة عبد الحميد، وأصل أحمد بن سعيد بن محمد بن أبي الفياض من إستجة، وسكن ألمرية، ويكنى أبا بكر. له تأليف في الخبر والتاريخ. توفي سنة ٤٥٩ هـ. الصلة (ص ١٠٧).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «أبي بكر الحسين بن محمد الزبيدي». وقد مرّ التعريف بالزبيدي والإشارة إلى مصادر ترجمته في هذا الجزء (ص ٦٤).

(٦) مرّ التعريف بيحيىٰ الغزال والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.

(٧) ترجمة أبي طالب عبد الجبار المتنبي في الذخيرة (ق ١ ص ٩١٦) والمغرب (جـ ٢ ص ٣٧١).

الأندلس ليس هذا مكان الإطناب في تفصيلها وهي كالذيل على حدائق ابن فرج، وفي عصرها صنّف الفتح كتاب «القلائد» وهو مملوء بلاغة، والمحاكمة بين الكتابين ذكرت بمكان آخر، ولصاحب القلائد كتاب «المطمح» وهو ثلاث نسخ: كبرى، ووسطى، وصغرى، يذكر فيها من الذين ذكرهم في القلائد ومن غيرهم الذين كانوا قبل عصرهم، وكتاب «سمط الجمان، وسقط المرجان»(١) لأبي عمرو ابن الإمام بعد الكتابين المذكورين، ذكر مَنْ أَخَلاً بتوفيته حقّه من الفضلاء، واستدرك من أدركه بعصره في بقية المائة السادسة، وذيّل عليه ـ وإن كان ذيلاً قصيرًا ـ أبو بحر صفوان بن إدريس المُرْسي بكتاب «زاد المسافر» ذكر فيه جماعة مِمَّنْ أدرك المائة السابعة، وكتاب أبي محمد عبد اللّه بن إبراهيم الحِجَاري المسمى بـ «المُسْهِب، في فضائل المغرب» صنّفه بعد «الذخيرة» و «القلائد» من أوّل ما عمرت الأندلس إلى عصره، وخرج فيه عن مقصد الكتابين إلى ذكر البلاد وخواصّها مِمّا يختصّ بعلم الجغرافيا، وخلطهُ بالتاريخ وتفنّن الأدب على ما هو مذكور في غير هذا المكان، ولم يصنّف في الأندلس مثل كتابه، ولذلك فضّله المصنّف له عبد الملك بن سعيد، وذيّل عليه، ثم ذيّل على ذلك أبناه أحمد ومحمد ثم موسى بن محمد ثم علي بن موسى كاتب هذه النسخة ومكمّل كتاب «فلك الأدب(٢)، المحيط بحلى لسان العرب» المحتوي على كتابي «المشرق، في حلى المشرق» و «المغرب، في حلى المغرب»؛ فيكفي الأندلس في هذا الشأن تصنيف هذا الكتاب بين ستة أشخاص في ١١٥ سنة آخرها سنة ٦٤٥، وقد احتوى على جميع ما يذاكر به ويحاضر بحلاه من فنون الأدب المختارة على جَهْد الطاقة في شرق وغرب على النوع الذي هو مذكور في غير هذا الموضع، ومن أغفلت التنبيه على عصره، وغير ذلك من المصنّفين المتقدّمي الذكر، فيطلب الملتمس منهم في مكانه المنسوب إليه كابن بسام في شَنْتَرين، والفتح في إشبيلية، وابن الإمام في إستِجَة، والحِجَاري في وادي الحجارة.

وأمّا ما جاء منثورًا من فنون الأدب فكتاب «سراج الأدب» لأبي عبد اللّه بن أبي الخصال(٣) الشقوري رئيس كتّاب الأندلس، صنّفه على منزع كتاب «النوادر» لأبي علي، و «زهر الآداب» للحُصْري، وكتاب «واجب الأدب» لوالدي موسى بن محمد بن سعيد،

---

(١) في طبعة ليدن: «وسقيط المرجان».

(٢) في الطبعة نفسها: «فلك الأرب».

(٣) مرّ التعريف بابن أبي الخصال والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.

واسمه يُغْني عن المراد به، وكتاب «اللآلىء» لأبي عبيد البكري على كتاب «الأمالي» لأبي علي البغدادي مفيد في الأدب، وكذلك كتاب «الاقتضاب، في شرح أدب الكُتّاب» لأبي محمد بن السيِّد البَطَلْيَوْسي، وأما شرح «سقط الزند» له فهو الغاية، ويكفي ذكره عند أرباب هذا الشأن وثناؤهم عليه، وشروح أبي الحجّاج الأعلم لشعر المتنبي والحماسة وغير ذلك مشهورة.

وأما[1] النحو فلأهل الأندلس من الشروح على «الجمل» ما يطول ذكره، فمنها شرح ابن خروف، ومنها شرح الرُّنْدي، ومنها شرح شيخنا أبي الحسن بن عصفور الإشبيلي، وإليه انتهت علوم النحو، وعليه الإحالة الآن من المشرق والمغرب، وقد أتيت له من إفريقية بكتاب «المقرب» في النحو فتُلقِّي باليمين من كل جهة، وطار بجناح الاغتباط، ولشيخنا أبي علي الشلوبين كتاب «التوطئة» على الجزولية وهو مشهور، ولابن السِّيد وابن الطراوة والسُّهَيلي من التقييدات في النحو ما هو مشهور عند أصحاب هذا الشأن معتمد عليه، ولأبي الحسن بن خروف شرح مشهور على كتاب سيبويه.

وأما[2] علم الجغرافيا فيكفي في ذلك كتاب «المسالك والممالك» لأبي عبيد البكري الأونبي وكتاب «معجم ما استعجم من البقاع والأماكن»، وفي كتاب «المسهب» للحجَاري في هذا الشأن وتذييلنا عليه في هذا الكتاب الجامع ما جمع زبد الأولين والآخرين في ذلك.

وأما[3] الموسيقى فكتاب أبي بكر بن باجة الغَرْنَاطي في ذلك فيه كفاية وهو في المغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي بالمشرق، وإليه تنسب الألحان المطربة بالأندلس التي عليها الاعتماد، وليحيىٰ الخُذوج[4] المرسي كتاب «الأغاني الأندلسية» على منزع «الأغاني» لأبي الفرج، وهو مِمَّنْ أدرك المائة السابعة.

وأما[5] الطب فالمشهور بأيدي الناس الآن في المغرب، وقد سار أيضًا في المشرق

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «وأما كتب النحو..».

(٢) في الطبعة نفسها: «وأما كتب علم الجغرافيا».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «وأما كتب علم الموسيقى».

(٤) في أصول النفح: «الخُدُجّ»، والتصويب عن برنامج شيوخ الرعيني (ص ١٦٤) وقد ترجم له الرعيني في المصدر المذكور فقال: هو أبو زكريا يحيىٰ بن إبراهيم الأصبحي الحكيم.

(٥) في طبعة عبد الحميد: «وأما كتب الطب».

لنبله، كتابُ «التيسير»[١] لعبد الملك بن أبي العلاء بن زُهْر، وله كتاب «الأغذية»[٢] أيضًا مشهور مغتبط به في المغرب والمشرق، ولأبي العباس بن الرومية الإشبيلي[٣] من علماء عصرنا بهذا الشأن كتاب في الأدوية المفردة، وقد جمع أبو محمد المالَقِي[٤] الساكن الآن بقاهرة مصر كتابًا في هذا الشأن حشر عليه ما سمع به فقدر عليه من تصانيف الأدوية المفردة ككتاب الغافقي وكتاب الزهراوي وكتاب الشريف الإدريسي الصقلي وغيرها وضبطه على حروف المعجم، وهو النهاية في مقصده.

وأما[٥] الفلسفة فإمامها في عصرنا أبو الوليد بن رُشْد القُرْطُبي، وله فيها تصانيف جَحَدها لَمّا رأى انحرافَ منصور بني عبد المؤمن عن هذا العلم، وسجنه بسببها، وكذلك ابن حبيب[٦] الذي قتله المأمون بن المنصور المذكور على هذا العلم بإشبيلية، وهو علم ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه إظهاره، فلذلك تخفى تصانيفه.

وأما[٧] التنجيم فلابن زيد الأسقف القرطبي فيه تصانيف، وكان مختصًا بالمستنصر ابن الناصر المرواني، وله ألّف كتاب «تفصيل الأزمان، ومصالح الأبدان» وفيه من ذكر منازل القمر، وما يتعلّق بذلك ما يستحسن مقصده وتقريبه، وكان مطرف الإشبيلي في عصرنا قد اشتغل بالتصنيف في هذا الشأن، إلاّ أنّ أهل بلده كانوا ينسبونه إلى الزندقة[٨] بسبب اعتكافه على هذا الشأن فكان لا يُظْهر شيئًا مما يصنّف.

ثم قال ابن سعيد: أخبرني والدي قال: كنت يومًا في مجلس صاحب سَبْتة أبي يحيىٰ ابن أبي زكريا صهر ناصر بني عبد المؤمن، فجرى بين أبي الوليد الشَّقَنْدي وبين أبي يحيىٰ ابن المعلم الطنجي نزاع في التفضيل بين البَرَّين، فقال الشقندي: لولا الأندلس لم يُذْكر بَرُّ العُدْوة، ولا سارتْ عنه فضيلة، ولولا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم، فقال الأمير أبو

---

(١) اسمه كتاب «التيسير في المداواة والتدبير»، وقد ألفه ابن زهر للقاضي أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد. عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٥٢١) في ترجمة أبي مروان بن أبي العلاء بن زهر.

(٢) ألّف كتاب الأغذية لأبي محمد عبد المؤمن بن علي الموحدي. المصدر السابق.

(٣) مرّ التعريف بابن الرومية والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثالث.

(٤) المراد ابن البيطار صاحب كتاب «المفردات»، وقد مرت ترجمته (رقم ٣٠٤).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «وأما كتب الفلسفة».

(٦) هو ابن حبيب القصري الفيلسوف، وترجمته في المغرب (جـ ١ ص ٢٩٦).

(٧) في طبعة عبد الحميد: «وأما كتب التنجيم».

(٨) في طبعة دار صادر: «للزندقة».

يحيىٰ: أتريد أن تقول كون أهل بَرّنا عربًا وأهل برّكم بربر؟ فقال: حاش لله! فقال الأمير: والله ما أردتَ غير هذا، فظهر في وجهه أنه أراد ذلك، فقال ابن المعلم: أتقول هذا وما الملك والفضل إلاَّ من بَرّ العُدْوة، فقال الأمير: الرأي عندي أن يعمل كل واحد منكما رسالة في تفضيل بَرّه، فالكلام هنا يطول ويمرّ ضياعًا، وأرجو إذا أخليتما له فكركما يصدر عنكما ما يحسن تخليده، ففعلا ذلك.

فكانت رسالة الشَقندي، الحمد لله الذي جعل لمن يفخر بالأندلس[١] أن يتكلّم ملء فيه، ويطنب ما شاء فلا يجد من يعترض عليه ولا من يَثْنيه، إذ لا يقال للنهار: يا مظلم، ولا لوجه النعيم: يا قبيح[٢]: [البسيط]

وقد وَجَدْتَ مكان القَوْلِ ذا سَعَةٍ ... فإنْ وَجَدْتَ لسانًا قائلاً فَقُلِ

أحمده على أن جعلني مِمَّنْ أنشأته، وحباني بأن كنت مِمَّنْ أظهرته، فامتدّ في الفخر باعي، وأعانني على الفضل[٣] كرمُ طباعي، وأُصلّي على سيّدنا محمد نبيّه الكريم، وعلى آله وصحبه الأكرمين[٤]، وأُسَلِّم تسليمًا.

أمَّا بَعْدُ؛ فإنه حرّك منّي ساكنًا، وملأ مني فارغًا، فخرجت عن سجيتي في الإغضاء، مكرهًا إلى الحميّة والإباء، منازعٌ[٥] في فضل الأندلس أراد أن يخرق الإجماع، ويأتي بما لم تقبله[٦] النواظر والأسماع، إذ مَنْ رأى ومن سمع لا يجوز عنده ذلك، ولا يُضِلّه من تاهَ في تلك المسالك، رام أن يفضل بَرّ العُدْوة على بَرّ الأندلس فَرَام أن يفضل على اليمين اليسار، ويقول: الليل أضوأ من النهار، فيا عجبا كيف قابَلَ العوالي بالزِّجاج[٧]، وصادم الصَّفاة بالزُّجاج، فيا من نفخ في غير ضَرَم، ورام صَيْدَ البُزَاة بالرخَم، وكيف تتكثر بما جعله الله قليلاً، وتتعزّز بما حكم الله أن يكون ذليلاً؟ ما هذه المباهتة التي لا تجوز؟!

---

(١) في طبعة دار صادر: «بجزيرة الأندلس».
(٢) تقدّم هذا البيت في الجزء الأول.
(٣) في طبعة دار صادر: «على الفضائل».
(٤) في طبعة ليدن: «وصحبه الطاهرين».
(٥) «منازعٌ» بالرفع لأنه فاعل «حَرّك».
(٦) في طبعة دار صادر: «لا تقبله».
(٧) العوالي: جمع عالية وهي أعلى القناة من الرمح. الزّجاج: جمع زجّ وهو الحديدة التي في أسفل الرمح. لسان العرب (علا) و (زجج).

وكيف تبدي أمام الفتاة العجوز؟ سَلِ العيونَ إلى وجه مَنْ تميل؟ واستخبر الأسماع إلى حديث من تُصْغي(١)؟ : [الطويل]

لشتَّان ما بين اليزيدين في الندى ... يزيدِ سُلَيمٍ والأغرِّ بن حاتمِ

اقن حيَاءَكَ أيها المغرَدُ(٢) بالنحيب، المتزيّنُ بالخَلَف المتحبِّبُ إلى الغواني بالمشيب الخضيب، أين عَزَب عقلك؟ وكيف نكص على عقبِه فهمُك ولبُّك؟ أبلغت العصبية من قلبك، أن تطمس على نُوْرَيْ بصرك ولُبِّك؟ أما قولك «الملوك منّا» فقد كان الملوك مِنّا أيضًا، وما نحن إلاّ كما قال الشاعر: [المتقارب]

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ... ويومٌ نُسَاءُ ويومٌ نُسَرُّ

إن كان الآن كرسيُّ جميع بلاد المغرب عندكم بخلافة بني عبد المؤمن - أدامها اللّه تعالى! - فقد كان عندنا بخلافة القرشيين الذين يقول فيهم(٣) مشرقيهم: [الطويل]

وإنّيَ مِنْ قومٍ كرامٍ أعزّةٍ ... لأقدامهمْ صِيْغَتْ رؤوسُ المنابرِ
خلائفُ في الإسلامِ في الشِّرْك قادةٌ ... بهمْ وإليهمْ فَخْرُ كلِّ مفاخر

ويقول مغربيهم(٤): [الطويل]

ألسنا بني مروانَ كيف تَبَدَّلَتْ ... بنا الحالُ أو دارتْ علينا الدوائرُ
إذا وُلِدَ المولودُ مِنّا تَهَلَّلَتْ ... له الأرضُ واهتزَّتْ إليه المنابرُ(٥)

وقد نشأ في مدّتهم من الفضلاء والشعراء ما اشتهر في الآفاق، وصار أثبتَ في(٦) صحائف الأيام، من الأطواق في أعناق الحمام(٧): [الطويل]

---

(١) البيت لربيعة الرَّقّي، وقد ورد في الأغاني (جـ ١٦ ص ٢٧٢).
(٢) في طبعة ليدن: «أيها المفرد».
(٣) كلمة «فيهم» ساقطة من طبعة دار صادر.
(٤) البيتان لمحمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر. وعلّق عليهما ابن الأبار بقوله: «وقد أنشد أبو منصور الثعالبي في «اليتيمة» من تأليفه هذا الشعر ونسبه إلى الحكم المستنصر باللّه، وزعم أن ذلك من قصيدة كتب بها إلى صاحب مصر يفتخر. وهذا من أغلاط أبي منصور وأوهامه الفاحشة..». الحلة السيراء (جـ ١ ص ٢٠٩ - ٢١٠). وسيرد هذان البيتان في الجزء الخامس من نفح الطيب.
وهما أيضًا في المغرب (جـ ١ ص ١٩٠) ويتيمة الدهر (جـ ١ ص ٢٩٤).
(٥) في الحلة السيراء: «المنائر».
(٦) في طبعة ليدن: «على».
(٧) مرَّ هذا البيت في الجزء الثالث ببعض الاختلاف عمّا هنا.

وسار مسيرَ الشمس في كل بَلْدَةٍ   وهَبَّ هبوبَ الريح في البَرّ والبحرِ

ولم تزل ملوكهم في الاتساق كما قيل: [البسيط]

إنَّ الخلافة فيكُمْ لم تزل نَسَقًا   كالعِقْدِ منظومةٌ فيه فرائدُهُ

إلى أنْ حكم اللّه بنثر سلكهم، وذَهَابِ مُلْكهم، فذهبوا وذهبت أخبارهم، ودَرَسوا ودرست آثارهم: [البسيط]

جمالَ ذي الأرض كانوا في الحياة وهمْ   بَعْدَ المماتِ جَمَالُ الكُتْبِ والسِّيَرِ

فكم مكرمة أنالوها، وكم عثرة أقالوها[1]: [الرجز]

وإنّما المرءُ حديثٌ بَعْدَهُ   فكنْ حديثًا حسنًا لمن وعى

وكان مِنْ حَسَنات مَلِكهم المنصور بن أبي عامر، وما أدراك الذي بلغ في بلاد النصارى غازيًا إلى البحر الأخضر، ولم يترك أسيرًا في بلادهم من المسلمين، ولم يبرح في جيش الهرقل وعزمة الإسكندر، ولَمَّا قضى نَحْبَهُ كُتِبَ على قبره[2]: [الكامل]

آثارُهُ تُنبيكَ عن أوصافِهِ   حتى كأنك بالعِيان تَراهُ

تاللّه لا يأتي الزمانُ بمثلِهِ   أبدًا ولا يَحْمي الثغورَ سِواهُ

وقد قيل فيه من الأمداح، وأُلِّف له من الكتب، ما سمعْتَ وعلمْتَ، حتى قُصد من بغداد، وعمَّ خيرُه وشرُّه أقاصي البلاد، ولَمّا ثار بعد انتثار[3] هذا النظام ملوكُ الطوائف وتفرّقوا في البلاد، وكان في تفرّقهم اجتماعٌ على النعم لفضلاء العباد، إذ نَفَّقُوا سوق العلوم، وتبارَوا في المَثوبة على المنثور والمنظوم، فما كان أعظمَ مباهاتهم إلاّ قولُ: العالم الفلاني عند الملك الفلاني، والشاعر الفلاني مختصٌّ بالملك الفلاني، وليس منهم إلاّ مَنْ بذل وُسْعَه في المكارم، ونبهتِ الأمداحُ من مآثره ما ليس طولَ الدهرِ بنائم، وقد سمعْتَ ما كان من الفتيان العامريّة مجاهد ومُنْذر وخيران، وسمعْتَ عن الملوك العربية: بنو عباد وبنو صُمادح وبنو الأفطس وبنو ذي النون وبنو هود، كلٌّ منهم قد خُلِّد فيه من الأمداح، ما لو

---

(1) البيت لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، وسيرد في الجزء التاسع. وهو من علماء اللغة والأدب، وكانت وفاته ببغداد سنة ٣٢١هـ. وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٣٢٣).

(2) تقدم هذان البيتان في الجزء الأول وجاء هناك: «أخباره» بدل «أوصافه».

(3) في طبعة بولاق: «بعد انتشار»، وهو تصحيف.

مُدح به الليلُ لصار أضوأ من الصباح، ولم تزل الشعراءُ تتهادى بينهم تهاديَ النَّوَاسم بين الرِّياض، وتفتك في أموالهم فتكة البَرَّاض[1]، حتى إنّ أحد شعرائهم بلغ به ما رآه من منافستهم في أمداحه أنْ حلف أنْ لا يمدح أحدًا منهم بقصيدة إلاَّ بمائة دينار، وأنَّ المعتضد ابن عباد على ما اشتهر من سَطْوته وإفراط هيبته كَلَّفه أن يمدحه بقصيدة فأبى حتى يعطيه ما شَرَطه في قَسَمه، ومن أعظم ما يُحْكى من المكارم التي لم نسمع لها أختًا أنَّ أبا غالب اللغوي[2] ألّف كتابًا، فبذل له مجاهد العامري ملك دانية ألفَ دينار ومركوبًا وكُسًا على أن يجعل الكتاب باسمه، فلم يقبل ذلك أبو غالب، وقال: كتاب ألَّفته لينتفع به الناس، وأُخَلِّد فيه همّتي، أجعل في صدره اسمَ غيري، وأصرف الفخرَ له، لا أفعلُ ذلك، فلمّا بلغ هذا مجاهدًا استحسن أَنَفَتَهُ وهمّته، وأضعفَ له العطاء، وقال: هو في حِلٍ من أن يذكرني فيه، لا نصدُّه عن غرضه. وإن كان كلُّ ملوك الأندلس المعروفين بملوك الطوائف قد تنازعوا في مُلاَءة الحُضْر[3]، فإني أخصّ منهم بني عباد، كما قال اللَّه تعالى: ﴿فاكهةٌ ونخلٌ ورمانٌ﴾[4] فإنَّ الأيام لم تزل بهم كأعياد، وكان لهم من الحنو على الأدب، ما لم يقُمْ به بنو حمدان في حلب، وكانوا هم وبنوهم ووزراؤهم صدورًا في بلاغتي النظم والنثر، مشاركين في فنون العلم، وآثارُهم مذكورة، وأخبارُهم مشهورة، وقد خَلَّدوا من المكارم التامّة، ما هو متردّد في ألسن الخاصّة والعامّة، وباللَّه إلاَّ سَمَّيتَ لي بمَنْ تفخَرُون قبل هذه الدعوة المهدية، أبسقوت[5] الحاجب؟ أم بصالح البرغواطي[6]؟ أم بيوسف ابن تاشفين الذي لولا توسّط ابن عباد لشعراء الأندلس في مدحه ما أجروا له ذكرًا، ولا رفعوا لملكه قدرًا؟ وبعدما ذكروه بوساطة المعتمد بن عباد فإنَّ المعتمد قال له، وقد أنشدوه: أيعلم أمير المسلمين ما قالوه؟ قال: لا أعلم ولكنهم يطلبون الخبز، ولَمَّا انصرف عن المعتمد إلى حضرة ملكه

---

(١) البَرّاض: الذي يَتْلفُ مالَه. لسان العرب (برض).

(٢) هذه الحكاية مع مجاهد العامري تقدمت في هذا الجزء (ص ١٥١).

(٣) الحُضْر: ارتفاع الفرس في عَدْوه. لسان العرب (حضر). وقد اتكأ هنا على قول الخنساء تمدح أباها وأخاها: [الكامل]

جاري أباه فأقبلا وهما ... يتعاوران ملاءة الحُضُرِ

(٤) سورة الرحمن ٥٥، الآية ٦٨.

(٥) هو سقوت البرغواطي المتغلّب على مدينة سبتة، وقد أخذها منه يوسف بن تاشفين المرابطي. نبذ تاريخية في أخبار البربر (ص ٥٤ وما بعدها).

(٦) هو صالح بن طريف البرغواطي، انتحل دعوى النبوّة سنة ١٢٧ هـ. توفي سنة ١٧٥ هـ. الأعلام (جـ ٣ ص ١٩٢) ومصادر حاشيته.

كتب له المعتمد رسالة فيها[1]: [البسيط]

بنتمْ وبِنَّا فما ابتلّتْ جوانحُنا ... شوقًا إليكُمْ ولا جَفَّتْ مآقينا
حالت لفقدكُمُ أيامُنَا فَغَدَتْ ... سُودًا وكانتْ بكمْ بِيضًا ليالينا

فلمّا قرىء عليه هذان البيتان قال للقارىء: يطلب مِنّا جواريَ سُودًا وبِيْضًا، قال: لا يا مولانا، ما أراد إلاّ أنّ ليله كان بقرب أمير المسلمين نهارًا؛ لأنّ ليالي السرور بِيْض، فعاد نهاره ببعده ليلاً لأنّ أيام الحزن ليالٍ سُود، فقال: واللّه جيد، اُكْتُبْ له في جوابه: إنّ دموعنا تجري عليه، ورؤوسنا توجعنا من بعده، فليت العباس بن الأحنف قد عاش حتى يتعلم من هذا الفاضل رقة الشوق: [الطويل]

ولا تُنْكِرَنْ مهما رأيت مقدّمًا ... على حُمُرٍ بَغْلاً فثمَّ تناسُبُ

فاسكتوا، فلولا هذه الدولة، لَمَا كان لكم على الناس صولة: [الوافر]

وإنَّ الوردَ يُقْطَفُ من قَتَاد ... وإنَّ النار تُقْبَسُ من رمادِ

وإنك إنْ تعرّضْتَ للمفاضلة بالعلماء فأخبرني: هل لكم في الفقه مثل عبد الملك بن حبيب الذي يُعْمَلُ بأقواله إلى الآن، ومثل أبي الوليد الباجي، ومثل أبي بكر بن العربي، ومثل أبي الوليد بن رشد الأكبر، ومثل أبي الوليد بن رشد الأصغر؟ وهو ابن ابن الأكبر، نجوم الإسلام، ومصابيح شريعة محمد عليه السلام، وهل لكم في الحفظ مثل أبي محمد ابن حزم الذي زهد في الوزارة والمال ومَالَ إلى رتبة العلم، ورآها فوق كل رتبة، وقال وقد احترقت[2] كتبه[3]: [الطويل]

دَعُونِيَ مِنْ إحراقِ رَقّ وكاَغِدٍ[4] ... وقولوا بعلم كي يَرَى الناسُ مَنْ يَدْري
فإن تحرقوا القرطاسَ لا تحرقوا الذي ... تَضَمَّنَهُ القرطاسُ، إذ[5] هو في صدري

ومثل أبي عمر بن عبد البر صاحب «الاستيعاب»[6] و «التمهيد» ومثل أبي بكر بن

---

(١) البيتان في ديوان ابن زيدون (ص ١٠) ضمن قصيدة من ٥١ بيتًا. وسيردان في هذا الجزء (ص ٢٤٤) ضمن قصيدة من ٤٩ بيتًا. وسيرد البيت الأول في الجزء الخامس.

(٢) في طبعة دار صادر: «أُخرِقَتْ».

(٣) البيتان في الذخيرة (ق ١ ص ١٧١)، وقد تقدما في الجزء الثاني.

(٤) الرَّقّ، بفتح الراء: جلد كان يستعمل للكتابة. الكاغد: القرطاس. لسان العرب (رقق) و (كغد).

(٥) في الذخيرة: «بل هو في صدري».

(٦) في طبعة دار صادر: «الاستذكار»، واسم الكتاب هو: «الاستيعاب في أسماء الأصحاب» وقد طبع =

الجد حافظ الأندلس في هذه الدولة، وهل لكم في حُفَّاظ اللغة كابن سيده صاحب كتاب «المحكم» وكتاب «السماء والعالم»[1] الذي إنْ أعمى اللّه بصره فما أعمى بصيرته، وهل لكم في النحو مثل أبي محمد بن السِّيد وتصانيفه؟ ومثل ابن الطراوة، ومثل أبي علي الشلوبين الذي بين أظهرنا الآن، وقد سار في المغارب والمشارق ذكره، وهل لكم في علوم اللحون والفلسفة كابن باجة. وهل لكم في علم النجوم[2] والهندسة والفلسفة ملك كالمقتدر بن هُود صاحب سَرَقُسْطَةَ، فإنه كان في ذلك آية؟ وهل لكم في الطب مثل ابن طُفَيل صاحب رسالة «حي بن يقظان» المقدم في علم الفلسفة، ومثل بني زُهْر أبي العلاء ثم ابنه عبد الملك ثم ابنه أبي بكر ثلاثة على نَسَق؟ وهل لكم في علم التاريخ كابن حَيَّان صاحب «المتين» و «المقتبس»؟ وهل عندكم في رؤساء علم الأدب مثل أبي عُمَر بن عبد ربه صاحب «العقد»؟ وهل لكم في الاعتناء بتخليد مآثر فضلاء إقليمه والاجتهاد في حشد محاسنهم مثل ابن بَسَّام صاحب «الذخيرة»؟ وهَبْ أنه كان يكون لكم مثله فما تصنع الكَيِّسة في البيت الفارغ؟ وهل لكم في بلاغة النثر كالفتح بن عُبَيْد اللّه الذي إنْ مَدَحَ رفع، وإنْ ذمَّ وضع، وقد ظهر له من ذلك في كتاب «القلائد» ما هو أعدل شاهد، ومثل ابن أبي الخصال في ترسُّله[3]، ومثل أبي الحسن سَهْل بن مالك الذي بين أظهرنا الآن في خطبه، وهل لكم في الشعر ملك مثل المعتمد بن عباد في قوله[4]: [الطويل]

وليـلٍ بسُدِّ النـهر أُنْسًا قَطَعْتُهُ ... بذاتِ سِوَارٍ مثلِ منعطفِ النـهرِ
نَضَتْ بُرْدَها عن غصنِ بانٍ منعمٍ ... فيا حُسْنَ ما انشقّ الكمامُ عن الزهرِ

وقوله في أبيه[5]: [البسيط]

سَمَيدَعٌ يَهِبُ الآلافَ مبتدئا ... وبعد ذلك يُلْفَى وَهْوَ يعتذرُ[6]
له يَدٌ كلُّ جبّارٍ يُقَبِّلُها ... لولا نَداها لَقُلْنا إنها الحَجَرُ

= على هامش كتاب «الإصابة في تمييز الصحابة»، بدار الفكر ببيروت.

(١) في طبعة عبد الحميد: «السماء العالم».
(٢) في طبعة دار صادر: «في علم النجوم والفلسفة والهندسة».
(٣) في طبعة دار صادر: «في ترسيلهُ».
(٤) البيتان في ديوان المعتمد بن عباد (ص ١٢) وقلائد العقيان (ص ٦).
(٥) البيتان في ديوان المعتمد بن عباد (ص ٣٧ ـ ٣٨).
(٦) في طبعة ليدن: «وهو معتذرُ».

ومثل ابنه الراضي في قوله[1]: [البسيط]

مَرُّوا بنا أُصُلاً من غير ميعادِ فأوقدوا نارَ قلبي[2] أيَّ إيقادِ
لا غَرْوَ أنْ زاد في وَجْدي مرورهُمُ فرؤية الماء تُذْكي غُلَّةَ الصادي

وهل لكم ملك ألّف في فنون الأدب[3] كتابًا في نحو مائة مجلّدة مثل المظفر بن الأفطس ملك بَطَلْيَوسَ ولم تشغله الحروبُ ولا المملكة عن همّة الأدب؟ وهل لكم من الوزراء مثل ابن عمار في قصيدته التي سارت أشرد من مثل، وأحبّ إلى الأسماع من لقاء حبيب وصل؟ التي منها[4]: [الكامل]

أثمَرْتَ رُمْحَكَ من رؤوس ملوكهمْ لَمّا رأيْتَ الغُصْنَ يُعْشَقُ مُثْمِرَا
وصَبَغْتَ دِرْعَك من دماءِ كُمَاتهمْ لَمّا رأيْتَ الحُسْنَ يُلْبَسُ أحْمَرَا

ومثل ابن زيدون في قصيدته التي لم يُقَلْ مع طولها في التشبيب[5] أرقّ منها، وهي التي يقول فيها: [البسيط]

كأننا لم نَبِتْ والوصلُ ثالثُنا والسعدُ قد غَضَّ من أجفانِ واشينا
سِرّانِ في خاطر الظَّلْمَاءِ يكتمنا حتى يكاد لسانُ الصبح يُفْشِينَا

وهل لكم من الشعراء مثل ابن وَهْبُون في بديهته بين يدي المعتمد بن عباد وإصابته الغرضَ حين استحسن المعتمد قول المتنبي[6]: [الطويل]

إذا ظفرتْ منكَ المَطِيُّ بنظرةٍ أثابَ بها مُعْيِي المطيِّ ورَازِمَهْ

فارتجل[7]: [الطويل]

لَئِنْ جادَ شِعْرُ ابنِ الحسينِ فإنما تُجِيْدُ العَطَايا، واللُّهَا تَفْتَحُ اللَّهَا[8]

---

(١) هو يزيد بن محمد الراضي، وترجمته وشعره في الحلة السيراء (جـ ٢ ص ٧١).
(٢) في الحلة السيراء: «نار شوقي». وسيردان في الجزء السادس من نفح الطيب.
(٣) في طبعة دار صادر: «الآداب».
(٤) تقدمت قصيدة ابن عمار في الجزء الثاني.
(٥) في طبعة دار صادر: «في النسيب».
(٦) البيت لم يرد في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب. وسيرد في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ٢٠٦).
(٧) سيرد هذان البيتان في هذا الجزء (ص ٢٠٦) دون تغيير عمّا هنا.
(٨) اللُّها، بضم اللام: جمع لهوة وهي أفضل العطاء. اللَّها، بفتح اللام: اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم. لسان العرب (لها).

تَنَبَّأ عُجْبًا بالقريض ولو دَرَى بأنك تَروي شِعْرَهُ لَتَألّهَا

وهل لكم مثل شاعر الأندلس ابن دَرّاج الذي قال فيه الثعالبي «هو بالصقع الأندلسي كالمتنبي بصقع الشام[1]» الذي إنْ مدح الملوك قال مثل قوله[2]: [الطويل]

ألم تعلمي أنَّ الثواء هو التَّوَى وأنَّ بيوتَ العاجزين قبورُ
وأنَّ خطيراتِ المهالكِ ضُمَّنٌ لراكِبِها أنَّ الجزاءَ خَطير
تُخَوِّفُني طولَ السِّفار وإنه بتقبيل كفِّ العامريِّ جدير
مُجيرُ الهُدى والدينِ من كلِّ مُلْحِدٍ وليس عليه للضلال مُجيرُ
تلاقتْ عليه من تميمٍ ويَعْرُبٍ شموسٌ تلاقت في العُلا وبُدُورُ
هُمُ يَستقلّون الحياةَ لراغبٍ ويستصغرون الخَطْبَ وهو كبيرُ
ولَمّا توافَوا للسَّلامِ ورُفِّعَتْ عن الشمس في أُفُق الشروق سُتور
وقد قام من زُرْقِ الأسِنَّة دونها صفوفٌ ومن بِيض السيوفِ سطور
رأوْا طاعَةَ[3] الرحمن كيف اعتزازُها وآياتِ صُنْعِ اللّهِ كيف تُنير
وكيف استوى بالبر والبحر مجلسٌ وقامَ بِعِبْءِ الراسياتِ سرير
فجاءوا عِجالاً[4] والقلوبُ خوافقٌ وولَّوا بِطاءً والنواظرُ صُورُ
يقولون والإجلالُ يُخرِسُ ألْسُنًا وحازتْ عيونٌ مِلأَها وصدورُ
لقد حاط أعلامَ الهُدَى بك حائطٌ وقَدَّرَ فيكَ المَكْرُماتِ قديرُ

وأنا أُقسم بما حازته هذه الأبيات، من غرائب الآيات، لو سمع هذا المدح سيد بني حَمْدان[5] لسَلاَ به عن مدح شاعره الذي ساد كل شاعر، ورأى أن هذه الطريقة أولى بمدح الملوك من كل ما تفنّن فيه كل ناظم وناثر.

[وإنْ ذكر الغربة عن الأوطان، ومكابدة نوائب الزمان، قال][6]: [الكامل]

---

(١) يتيمة الدهر (جـ ٢ ص ١٠٣).
(٢) الأبيات في ديوان ابن دراج القسطلي (ص ٢٩٨ - ٣٠٢) وفي روايتها هناك بعض اختلاف عما هنا.
(٣) هكذا في الديوان، وفي طبعة دار صادر: «ساعة الرحمن».
(٤) هكذا في الديوان، وفي طبعة عبد الحميد: «عجالى».
(٥) سيد بني حمدان هو سيف الدولة الحمداني، ملك حلب وممدوح المتنبي.
(٦) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد، والأبيات في ديوان ابن دراج القسطلي (ص ١١٠، ١١٢). والبيتان الأخيران في المغرب (جـ ٢ ص ٦١).

قالتْ وقد مَزَجَ الفراقُ[1] مدامعًا   بـمـدامـعٍ وتـرائـبًـا بـتـرائـبِ
أتـفـرُّقٌ حـتـى بـمـنـزلِ غُـرْبَـةٍ؟   كـم نـحـن لـلأيـام نُـهْـبَـةُ نـاهِـبِ
ولئن جنيتُ عليك تَرْحَةَ راحلٍ   فأنـا الـزعـيـمُ لـهـا بِفَـرْحَـةِ آيـبِ
هـل أبـصـرتْ عـيـنـاكِ بَـدْرًا طـالـعًـا   فـي الأُفْـقِ إلاَّ مـن هـلالٍ غـاربِ

وإنْ شَبَّه قال[2]: [الكامل]

كمعاقلٍ[3] مِنْ سوسنٍ قد شَيَّدَتْ   أيدي الربيعِ بناءها فوق القُضُبْ
شُـرُفَـاتـهـا مـن فِـضَّـةٍ وحُـمَـاتُـهَـا   حولَ الأميرِ لهمْ سيوفٌ من ذَهَبْ

وهل من شعرائكم مَنْ تعرَّض لذكر العفّة فاستنبط ما يسحر به السحر، ويطيب به الزهر، وهو أبو عمر بن فرج في قوله[4]: [الوافر]

وطائعةِ الوصالِ عَفَفْتُ[5] عنها   ومـا الـشـيـطـانُ فـيـهـا بـالـمُـطـاعِ
بَدَتْ في الليل سافرةً فباتَتْ   ديـاجـي الـلـيـلِ سـافـرةَ الـقِـنـاعِ
ومـا مِـنْ لَـحْـظَـةٍ إلاَّ وفـيـهـا   إلى فِتَنِ القلوبِ لها دواعي
فملَّكْتُ النُّهى جَمَحَاتِ[6] شوقي   لأُجْرِيَ في العفافِ على طباعي
وبِتُّ بها مَبيتَ السَّقْبِ يَظْمَا   فيمنعه الكِعَامُ مِنَ الرضاع[7]
كـذا الـروضُ مـا فـيـه لـمـثـلـي   سـوى نَـظَـرٍ وشَـمّ مِـنْ مَـتـاعِ
ولـسـتُ مِـنَ الـسـوائـمِ مُـهْـمَـلاتٍ   فـأتّـخـذَ الـريـاضَ مِـنَ الـمـراعـي

وهل بلغ أحد من مُشَبِّهي شعرائكم أن يقول مثل قول أبي جعفر اللمائي[8]: [الرمل]

---

(١) في الديوان: «مزج الوداع».
(٢) ديوان ابن دراج القسطلي (ص ٣٦).
(٣) في الديوان: «المعاقل».
(٤) مرّ التعريف بأبي عمر أحمد بن محمد بن فرج الجياني والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثاني. والأبيات في جذوة المقتبس (ص ١٠٥) وبغية الملتمس (ص ١٥٢-١٥٣) والمغرب (جـ ٢ ص ٥٦)، وسترد في هذا الجزء (ص ٣٩١- ٣٩٢) عدا البيت الخامس. وسترد كلها في الجزء الخامس ببعض الاختلاف عما هنا.
(٥) في الجذوة والبغية: «عَدَوْتُ عنها».
(٦) في المغرب: «حُجّاب شوقي».
(٧) السَّقْبُ: ولد الناقة ساعة ولادته. الكِعامُ: حبل يشدُّ به فم الجمل فيمنعه من الأكل، لسان العرب (سقب) و (كعم).
(٨) هو أحمد بن أيوب، أديب شاعر وكاتب جليل، توفي سنة ٤٦٥ هـ. الذيل والتكملة (جـ ١ ص ٧٣) =

عارضٌ أقبلَ في جنحِ الدُّجا   يتهادَى كتهادي ذي الوَجَى[1]
بددت ريحُ الصَّبَا لؤلؤهُ   فانبرى يُوْقِدُ عنها سُرُجا[2]

ومثل قول أبي حَفْص بن بُرْد[3]: [المديد]

وكأنَّ الليلَ حين لوى   ذاهبًا[4] والصبحُ قد لاحا
كِلَّةٌ سوداءُ أَحْرَقَها[5]   عامِدٌ أسرجَ مِصْباحا

وهل منكم مَنْ وصف ما تُحدثه الخمرة من الحُمْرَة على الوَجْنة بمثل قول الشريف الطليق[6]: [الرمل]

أصبحتْ شمسًا وفُوْهُ مَغْربًا   ويَدُ الساقي المُحَيي مَشْرِقا
وإذا ما غربتْ في فمه   تركت في الخَدِّ منه شَفَقا

بمثل هذا الشعر فليطلق اللسان، ويفخر كل إنسان[7].

وهل منكم من عمد إلى قول امرىء القيس[8]: [الطويل]

سَمَوتُ إليها بعد ما نامَ أهلُها   سُمُوَّ حَبَاب الماءِ حالاً على حالِ

فاختلسه اختلاسَ النسيم لنفحة الأزهار، واستلبه بلطفِ استلابَ الشمس لرُضَاب طَلِّ الأسحار، فلطفه تلطيفًا يمتزج بالأرواح، ويُغْني في الارتياح عن شرب الراح، وهو ابن شُهَيد في قوله[9]: [المتقارب]

= وجذوة المقتبس (ص ٣٩٤) وبغية الملتمس (ص ٥٢٠) والذخيرة (ق ١ ص ٦١٧) والمغرب (جـ ١ ص ٤٤٦). ولم يرد البيتان في هذه المصادر، ووردا في الذخيرة (ق ١ ص ٥١٧ منسوبين إلى ابن برد.

(١) ذو الوَجَى: الذي حفيت قدمه أو رقَّت. لسان العرب (وجا).

(٢) في الذخيرة: «أتلفتْ ريحُ. . . فانحنى يُوقد عنها السُّرُجا».

(٣) البيتان في الذخيرة (ق ١ ص ٥١٩).

(٤) في الذخيرة: «هاربًا».

(٥) في المصدر نفسه: «حَرَّقَها».

(٦) البيتان في يتيمة الدهر (جـ ٢ ص ٦١) والحلة السيراء (جـ ١ ص ٢٢٣) والمغرب (جـ ١ ص ١٩٢) والمرقصات والمطربات (ص ٧٦) والذخيرة (ق ١ ص ٥٦٥).

(٧) في طبع ليدن: «ويفخر على كل إنسان».

(٨) البيت في ديوان امرىء القيس (ص ٣١) ، الذخيرة (ق ١ ص ٢٨٦).

(٩) الأبيات في ديوان ابن شهيد الأندلسي (ص ٨٥) والذخيرة (ق ١ ص ٢٨٧) ببعض الاختلاف عما هنا.

وَلَـمَّـا تَـمَـلَّأَ مِـنْ سُـكْـرِهِ ... ونامَ ونامتْ عيونُ الحَرَسْ[1]
دَنَـوْتُ إلـيـه عـلـى رِقْـبَـةٍ ... دنوَّ رفيقٍ دَرَى ما التمسْ
أدبُّ إلـيـه دبـيـبَ الـكـرى ... وأسمو إليه سُمُوَّ النَّفَسْ
أُقَـبِّـلُ مـنـه بـيـاضَ الـطُّـلَـى ... وأرشفُ منه سواد اللَّعَسْ
فَـبِـتُّ بـه لـيـلـتـي نـاعـمًـا ... إلى أن تبسّم ثغرُ الغَلَسْ

وقد تناول هذا المعنى ابن أبي ربيعة على عظم قدره وتقدّمه فعارض الصَّهيل بالنُّهاق، وقابل العَذْب بالزُّعَاق، فقال وليته سكت[2]: [الطويل]

وَنَفَّضَتْ عنّي العين أقبلْتُ مِشْيَةَ الـ ... حُبَابِ ورُكني خيفةَ القوم أَزْوَرُ

وأنا أقسم لو زار جملٌ محبوبة له لكان ألطف في الزيارة من هذا الأزور الركن المنفض للعيون، لكنه إنْ أساء هنا فقد أحسن في قوله[3]: [السريع]

قالتْ لقد أعييتَنا حجّةً ... فأت إذا ما هَجَعَ الساهرُ
واسْقُطْ علينا كسقوط الندى ... ليلةَ لا ناهٍ ولا زاجرُ

ولله درُّ محمد بن سَفَر[4] أحد شعرائنا المتأخّرين عصرًا، المتقدّمين قدرًا، حيث نقل السعي إلى محبوبته فقال وليته لم يزل يقول مثل هذا، فبمثله ينبغي أن يتكلّم، ومثله يليق أن يدوّن: [الطويل]

وواعدْتُها والشمسُ تجنح للنوى ... بِزَوْرَتها شمسًا وبَدْرُ الدجى يَسْري
فجاءت كما يمشي سَنَا الصبح في الدجى ... وطورًا كما مَرَّ النسيمُ على النهر
فعطّرت الآفاق حولي فأشعرت ... بمقدمها والعَرْف يُشْعِرُ بالزهر

---

(١) في طبعة ليدن: «عيون العسس».

(٢) البيت في ديوان عمر بن أبي ربيعة (ص ١٢٣) من قصيدة «أمن آل نعم»، وروايته في الديوان هي:
وَنَفَّضْتُ عنّي النوم، أَقبَلْتُ مِشْيَةَ الـ ... حُباب، وركني، خِشْيَةَ القومِ، أزوَرُ

(٣) لم يرد هذان البيتان في ديوان عمر بن أبي ربيعة، ووردا في فوات الوفيات (جـ ٢ ص ٢٧٢) لوضاح اليمن، وهما في الذخيرة (ق ١ ص ٢٨٨) لأبي دَهْبل الجمحي. والرواية فيهما جاءت ببعض الاختلاف عما هنا.

(٤) هو أبو عبد الله وقيل أبو الحسين محمد بن سفر أو صفر، كان بإشبيلية، وهو من ناحية ألمرية. المغرب (جـ ٢ ص ٢١٢) والمقتضب من كتاب تحفة الكلام (ص ١٥٤) والوافي بالوفيات (جـ ٣ ص ١١٤).

فتابعت بالتقبيل آثار سعيها كما يتقصّى قارئٌ أحرُفَ السطر
فبِتُّ بها والليلُ قد نام والهوى تنبّه بين الغصن والحِقْفِ والبدر
أُعانِقُها طورًا وأَلْثِمُ تارةً إلى أن دَعَتْنا للنوى رايةُ الفجر
ففضَّتْ عقودًا للتعانق بَيْنَنا فيا ليلةَ القَدْرِ اتركي ساعة النفر

وهل منكم من قُيِّدَ بالإحسان فأطلق لسانه الشكر، فقال وهو ابن اللَّبَّانة[1]: [الطويل]

بنفسي[2] وأهلي جيرةٌ ما استعنتُهُمْ على الدهرِ إلاَّ وانثنيتُ مُعَانَا
أراشوا جناحي ثم بَلُّوهُ بالندى فلم أستطعْ من أرضِهِمْ طَيَرَانَا

ومن يقول وقد قَطَع عنه ممدوحُه ما كان يعتاده منه من الإحسان، فقابل ذلك بقطع مدحه له، فبلغه أنه عتبه على ذلك، وهو ابن وَضَّاح[3]: [الكامل]

هل كنت إلاّ طائرًا بثنائكُمْ في دَوْحِ مجدكُمُ أقومُ وأقعدُ
إنْ تسلبوني ريشكُمْ وتقلَّصوا عنِّي ظلالكُمُ فكيف أغَرِّدُ

وهل منكم شاعر رأى الناسَ قد ضَجُّوا من سماع تشبيه الثغر بالأقاح، وتشبيه الزهر بالنجوم، وتشبيه الخدود بالشقائق، فتلطّف لذلك في أن يأتي به في منزع يصيِّرُ خَلْقه في الأسماع جديدًا، وكَليلَه في الأفكار حَديدًا، فأغرب أحسن إغراب، وأعرب عن فهمه بحسن تخيّله أنبل إعراب، وهو ابن الزقاق[4]: [المنسرح]

وأغْيَدٍ طافَ بالكؤوسِ ضُحًى وحَثَّها[5] والصباحُ قد وَضَحا
والروضُ أهدى لنا شقائِقَهُ وآسُهُ العنبريُّ قد نَفَحا
قلنا: وأين الأقاحُ؟ قال لنا: أَودَعْتُهُ ثَغْرَ مَنْ سَقَى القَدَحا
فظلَّ ساقي المُدام يجحدُ ما قال فلمَّا تبسَّمَ افْتَضَحا

وقال[6]: [الوافر]

---

(١) البيتان في المرقصات والمطربات (ص ٨٦).
(٢) في المصدر نفسه: «بروحي وأهلي...».
(٣) هو ابن وضّاح المرسي، والبيتان في المصدر السابق (ص ٨٧).
(٤) الأبيات في ديوان ابن الزقاق البلنسي (ص ١٢٤).
(٥) في الديوان: «فَحَثَّها».
(٦) الأبيات في الديوان (ص ١٩٧).

أدِيرَاهَا على الروض المُنَدَّى وحكمُ[1] الصبح في الظّلماء ماضي
وكأسُ الراحِ[2] تنظرُ عن حَبَابٍ ينوبُ لنا عن الحَدَقِ المِراض
وما غربتْ نجومُ الأُفُقِ لكنْ نُقِلْنَ من السماء إلى الرياضِ

وقال[3]: [الخفيف]

ورياضٍ من الشقائقِ أَضْحَتْ يَتَهادَى بها نسيمُ الرياحِ
زُرْتُها والغمامُ يَجْلِدُ منها زهراتٍ تَرُوقُ لونَ الراحِ
قلت ما ذَنْبُها؟ فقال مُجِيبًا سَرَقَتْ حُمْرَةَ الخدودِ الملاحِ

فانظر كيف زاحم بهذا الاختيال المخترعين؟ وكيف سابق بهذا اللفظ[4] المبتدعين؟

وهل منكم من برع في أوصاف الرياض والمياه وما يتعلّق بذلك فانتهى إلى غاية[5] السباق، وفضح كل من طمع بعده في اللحاق، وهو أبو إسحٰق بن خفاجة القائل[6]: [الكامل]

وعشيِّ أُنسٍ أضجعتني[7] نَشْوَةٌ فيها يُمَهِّدُ مضجعي ويُدَمِّثُ
خَلَعَتْ عليَّ بها الأراكةُ ظِلَّها والغُصْنُ يُصْغي والحمامُ يحدّثُ
والشمسُ تجنحُ للغروبِ مريضةً والرعدُ يَرْقِي والغمامةُ تَنْفُثُ

والقائل[8]: [الكامل]

للّهِ نهرٌ سالَ في بَطْحاءِ أَشْهَى ورودًا مِنْ لَمَى الحَسْناءِ
مُتَعَطِّفٌ مثلَ السِّوارِ كأنه والزهرُ يَكْنُفُهُ مَجَرُّ سماء
قد رَقَّ حتى ظُنَّ قُرْصًا مُفْرَغًا من فِضَّةٍ في بُرْدَةٍ خضراء

---

(١) في الديوان: «فحكم».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «الريح».
(٣) الأبيات في الديوان (ص ١٢٥)، وسترد في هذا الجزء (ص ٣١٨) وفي الجزء الخامس .
(٤) كلمة «اللفظ» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٥) في طبعة دار صادر: «راية السباق».
(٦) الأبيات في ديوان ابن خفاجة (ص ٦٢) وفي روايتها بعض اختلاف عما هنا.
(٧) هكذا في الديوان، وفي طبعة دار صادر: «أضجعتنا».
(٨) الأبيات في الديوان (ص ١١).

وغدتْ تَحُفُّ به الغصونُ كأنها هُدْبٌ تحفُّ[1] بمُقْلةٍ زرقاء
ولَطالما عاطيتُ فيه مُدامةً صفراءَ تَخضِبُ أيديَ النُدماء
والريحُ تَعْبَثُ بالغصونِ وقد جَرَى ذَهَبُ الأصيلِ على لُجَينِ الماءِ

والقائل[2]: [الكامل]

حُثَّ[3] المُدامةَ والنسيمُ عليلُ والظِّلُّ خَفّاقُ الرِّواقِ ظليلُ
والروضُ مهتزُّ المعاطفِ نعمةً نَشوانُ تعطفه الصَّبا فيميلُ[4]
رَيّان فَضّضه الندى ثم انجلى عنه فَذَهَّبَ صَفْحَتَيْهِ أصيلُ

والقائل[5]: [الكامل]

أذِنَ الغَمامُ بديمَةٍ وعُقَارِ فامْزُجْ لُجَينًا منهما بنُضَارِ
وارْبَعْ على حُكمِ الربيع بأجْرَعٍ هَزِجِ الندامى مُفْصِحِ الأطيار[6]
متقسّم الألحاظِ بين محاسنٍ من ردف رابيةٍ وخَصْر قرار[7]
نثرتْ بِحِجْرِ الروض فيه يَدُ الصَّبَا دُرَرَ الندى ودراهمَ الأنوار
وهفتْ بتغريدٍ هنالك أيكةٌ خفّاقةٌ بمَهَبِّ ريح عَرَارِ
هَزَّتْ له أعطافَها ولربما خلعتْ عليه مُلاءَةَ النوّار[8]

والقائل[9]: [المنسرح]

سَقْيًا لها مِنْ بِطاحِ خَزٍّ ودَوْحِ نَهْرٍ بها مُطِلٍّ[10]

---

(١) في الديوان: «يَحُفُّ».
(٢) الأبيات في الديوان (ص ٢٠٦).
(٣) في الديوان: «احْسُ المدامة».
(٤) في الديوان: «فالروض مهتزٌّ.. نَعْمَةً.. يَعطفه..».
(٥) ديوان ابن خفاجة (ص ١١٧).
(٦) رواية عجز البيت في الديوان هي:

هَزِجِ الندى من مُفْصِحِ الأطيارِ

(٧) هذا البيت غير وارد في الديوان.
(٨) كذلك لم يرد هذا البيت في الديوان.
(٩) البيتان في الديوان (ص ٢٠٢). وقد تقدما في الجزء الأول وجاء هناك «زهر» بدل «نهر».
(١٠) في الديوان: «بطاح أُنْس ودوح حُسْنٍ..».

إذ[1] لا ترى غيرَ وَجهِ شمسٍ أطَلَّ فيه عِذارُ ظِلّ

والقائل[2]: [الكامل]

نهرٌ كما سال اللُّمى سلسَالُ وصَبًا بليلٌ ذيلُها مكسالُ
ومَهَبُّ نَفْحَةِ روضةٍ مطلولةٍ في جانبيها للنسيم مجال
غازلَتُها والأقحوانةُ مَبْسِمٌ والآسُ صُدْغٌ والبنفسجُ خالُ

والقائل[3]: [الطويل]

وساقٍ كَحيلِ اللحظِ في شَأوِ حُسْنِهِ جِماحٌ وبالصبرِ الجميل جِرَانُ
ترى للصِّبا نارًا بخدَّيْه لم يَثُرْ لها من سَوَادَي عارضيه دُخانُ
سقاها وقد لاحَ الهلالُ عشيةً كما اعوجَّ في درع الكَمِيِّ سِنانُ
عُقارًا نماها الكَرْمُ فهي كريمةٌ ولم تَزْنِ بابنِ المُزْن فهي حَصَانُ[4]
وقد جال من جَون الغمامةِ أدهمٌ له البرقُ سَوطٌ والشَمالُ عنانُ
وضَمَّخ رَدْعُ[5] الشمس نحر حديقة عليه من الطلِّ السقيط جُمَانُ
ونَمَّتْ بأسرار الرياضِ خَمِيلَةٌ لها النَّورُ ثغرٌ والنسيمُ لسان

والقائل في وصف فرس ولم يخرج عن طريقته[6]: [السريع]

وأشقرٍ تُضرَمُ منه الوغى بِشُعْلَةٍ من شُعَلِ الباسِ
مِنْ جُلَّنارٍ ناضرٍ لونُه وأُذْنُه من وَرَق الآس
يطلعُ للغرّة في شقرةٍ حَبَابةً تضحكُ في كاسِ

وهل منكم من يقول مُنادمًا لنديمه وقد باكر رَوضًا بمحبوب وكأس، فألفاه قد غطّى

---

(١) في الديوان: «فما ترى..».
(٢) الأبيات في الديوان (ص ١٩٨) باختلاف يسير عمّا هنا، وسترد في هذا الجزء(ص ٣٠٨).
(٣) الديوان (ص ٢٦٣) ببعض الاختلاف عما هنا. وسترد في هذا الجزء (ص ٣٠٨) ببعض الاختلاف أيضًا عما هنا.
(٤) حَصَان، بالفتح: العفيفة الطاهرة. لسان العرب (حصن).
(٥) في طبعة عبد الحميد: «درع». والرَّدْعُ: الطِّيب.
(٦) الأبيات في ديوان ابن خفاجة (ص ١٤٩) ببعض الاختلاف عما هنا. وسترد في هذا الجزء (ص ٣٠٨ـ ٣٠٩).

محاسنه ضباب، فخاف أن يكسل نديمه عن الوصول إذا رأى ذلك، وهو أبو الحسن بنُ بسّام[1]: [الوافر]

أَلاَ بادرْ فما ثانٍ سوى ما   عَهِدْتَ الكأس والبدر التمامُ
ولا تكسلْ برؤيته ضبابًا   تَغَصُّ[2] به الحديقةُ والمدام
فإنَّ الروضَ ملتثمٌ إلى أن   توافِيَهُ فينحطَّ اللثام

وهل منكم مَنْ تَغزَّل في غلام حائك بمثل قول الرصافي[3]: [البسيط]

قالوا وقد أكثروا في حُبِّه عَذَلي   لو لم تهمْ بِمُذالِ القَدْرِ مُبْتَذَلِ
فقلتُ لو كان أمري في الصَّبابة لي   لاخترْتُ ذاك ولكنْ ليس ذلك لي
عُلِّقْتُه حَبَبِيَّ الثغرِ عاطِرَهُ   حُلْوَ اللَّمَى ساحرَ الأجفانِ والمُقَلِ
غُزَيِّلٌ لم تزلْ في الغَزْل جائلةً   بنانُه جَوَلاَنَ الفكرِ في الغَزَلِ
جذلانَ تلعبُ بالمِحْواك أنملُهُ   على السَّدى لعبَ الأيام بالأملِ
ضَمًّا بكفَّيهِ أو فحصًا بأخمصه   تخبُّطَ الظبي في أشراك مُحْتبلِ[4]

ومثل قوله في تغلّب مسكة الظلام على خلوق الأصيل[5]: [الرمل]

وعَشِيّ رائقٍ منظرُهُ   قد قَطَعْناه على صَرْفِ الشَّمُولِ
وكأنَّ الشمسَ في أثنائه   ألصقتْ بالأرض خدًّا للنزولِ
والصَّبَا ترفعُ أذيالَ الرُّبا   ومُحَيًّا الجَوِّ كالنهر الصقيل
حَبَّذا منزلُنا مغتبقًا   حيث لا يطرقُنا غيرُ الهديل
طائرٌ شادٍ وغصنٌ منثنٍ   والدُّجى تشربُ صهباء الأصيلِ

وهل منكم من يقول في مُوَشّح فيما يجرّه هذا المعنى:

ورداء الأصيــــلْ   تطويه كفُّ الظلامِ

---

(١) الأبيات في المرقصات والمطربات (ص ٨٧) ببعض الاختلاف عما هنا. وسيرد البيت الأول فقط في الجزء الخامس.

(٢) في طبعة ليدن: «تغصّ».

(٣) الأبيات في ديوان الرصافي البلنسي (ص ١٢١ ـ ١٢٢) ببعض الاختلاف عما هنا.

(٤) المُحْتبل: الناصب الحبالة. لسان العرب (حبل).

(٥) الأبيات في الديوان (ص ١٢٣) ببعض الاختلاف عما هنا.

وهو أبو قاسم بن الفرس[١].

وهل منكم من وصف غلامًا جميل الصورة راقصًا بمثل قول ابن خروف[٢]: [الكامل]

ومُتَنَزِّعِ[٣] الحركاتِ يلعبُ بالنُّهَى ... لبس المحاسنَ عند خلعِ لباسِهِ
متأوّدا كالغصن وسط رياضه ... متلاعبا[٤] كالظبي عند كناسه
بالعقل يلعب مدبرًا أو مقبلاً[٥] ... كالدهر يلعب كيف شاء بناسه
ويضمّ للقدمين منه رأسه ... كالسيف ضُمَّ ذبابه لرياسه

وهل منكم من وصف خالاً بأحسن من قول النشار[٦]: [الوافر]

أَلُوّامي على كَلَفي بِيَحْيَىٰ ... متى مِنْ حُبِّه أَلْقَى سَرَاحا
وبين الخَدِّ والشفتين خالٌ ... كزنجيّ أتى روضًا صَبَاحا
تَحَيَّرَ في جَنَاه فليس يدري ... أيجني الوردَ أم يجني الأقاحا

وهل منكم الذي اهتدى إلى معنى في لثم وردة الخدّ وَرَشْف رُضَاب الثغر لم يَهْتَدِ إليه أحد غيره، وهو أبو الحسن سلام بن سلام المالَقِي في قوله[٧]: [الكامل]

لَمَّا ظفرتُ بليلةٍ مِنْ وَصْلِهِ ... والصَّبُّ غيرُ الوصل لا يَشْفِيهِ
أنْضَجْتُ وردةَ خدِّه بتنفّسي ... وطفقْتُ أرشفُ ماءها مِنْ فِيهِ

---

(١) الأرجع أنّ هذا القفل من موشحة لعبد الرحيم بن الفرس الغرناطي ورد بعض منها في المغرب (جـ ٢ ص ١٢٢).

(٢) مرّ التعريف بابن خروف والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثالث. والأبيات في الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٣٩٧).

(٣) في الذيل والتكملة: «ومنوّع».

(٤) في المصدر نفسه: «متأود كالغصن عند كثيه متلاعبُ. .».

(٥) في المصدر نفسه: «مقبلاً أو مدبرًا».

(٦) هو أبو علي النشار، بلنسي ترجم له أبو بحر صفوان بن إدريس المرسي في كتابه زاد المسافر وغرة محيا الأدب المسافر (ص ٥٧) وأبياته في المصدر المذكور.

(٧) أبو الحسن سلام بن سلام أديب من إشبيلية؛ كان أديبًا كاتبًا شاعرًا، يميل إلى الزهد. له سبع مقامات مشهورة، توفي بشلب سنة ٥٤٤هـ. الذيل والتكملة (جـ ٤ ص ٤٨) والمغرب (جـ ١ ص ٤٣٤) والبيتان في المغرب دون تغيير عمّا هنا.

وهل منكم مَنْ هجا من غير النطق بإقذاع فبلغ ما لم يبلغه المقذع، وهو المخزومي في قوله[1]: [مخلع البسيط]

يَوَدُّ عيسى نزولَ عيسى عساهُ مِنْ دائِهِ يريحُ
وموضعُ الداء منه عُضْوٌ لا يرتضي مَسَّه المسيحُ

ولَمّا أقذع أتى أيضًا بأبدع، فقال: [السريع]

يا فارس الخيل ولا فارسٌ إلاَّ على مَتْنِ جوادِ الخِصَى
زِدْتَ على موسى وآياتِهِ تُفَجِّر الماءَ وتُخْفِي العَصَا

وهل منكم من مَدَح بمعنى فبلغ به النهاية من المدح، ثم نقله إلى الهجاء فبلغ به النهاية من الذمّ، وهو اليكي[2] في قوله مادحًا: [الكامل]

قومٌ لهمْ شرفُ العُلا في حِمْيَرٍ وإذا انتموا لمتونةً[3] فهمُ هُمُ
لَمّا حَوَوا أحرازَ كلِّ فضيلةٍ غَلَبَ الحياءُ عليهمُ فتلثّموا

وفي قوله هاجيًا: [الكامل]

إنَّ المرابطَ باخلٌ بنواله لكنه بعياله يتكرَّمُ
الوجه منه مُخَلَّقٌ لقبيح[4] ما يأتيه فَهْوَ مِنَ اجله يتلثّم

وهل منكم مَنْ هجا أشتر العين بمثل قول أبي العباس بن حَنون[5] الإشبيلي: [الكامل]

يا طلعةً أَبْدَتْ قبائحَ جَمَّةً فالكلُّ منها إنْ نَظَرْتَ قبيحُ

---

(١) مرّ التعريف بأبي بكر المخزومي والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول والبيتان في زاد المسافر (ص ٧٥).

(٢) هو أبو بكر يحيىٰ بن عبد الجليل بن سهل اليكي، أديب شاعر، خبيث الهجاء، لا تجيد قريحته إلاّ فيه. بغية الملتمس (ص ٥٠٣) والمغرب (جـ ٢ ص ٢٦٦) وزاد المسافر (ص ٧٧) والمطرب (ص ١٢٥). والبيتان في المغرب (ص ٢٦٨).

(٣) في المغرب: «صنهاجة».

(٤) في طبعة دار صادر: «بقبيح».

(٥) هو أبو العباس أحمد بن حنون، من بيوت إشبيلية، وقد مرّ التعريف به والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثالث. وأبياته في المغرب (جـ ١ ص ٢٤٩) وزاد المسافر (ص ٥٠). والبيتان الأخيران في المرقصات والمطربات (ص ٨٩) وفيه أنه «ابن حيون» بالياء.

أبـعـيـنِـكَ الـشَّـتْـراءِ عَـيـنٌ ثَـرَّةٌ   منها تَرَقْرَقَ دمعُها المسفوح
شُتِرَتْ فقلْنا: زورقٌ في لُجَّةٍ   مالتْ بإحدى دَفَّتَيهِ[1] الريحُ
وكأنما إنسانُها ملاّحها   قد خاف من غرقٍ فظلَّ يَمِيحُ

وهل منكم مَنْ حَضَرَ مع عدوّ له جاحدٍ لِمَا فعله معه من الخير، وأمامهما زجاجة سوداء فيها خمر، فقال له الحسود المذكور: إن كنت شاعرًا فقلْ في هذه، فقال ارتجالاً، وهو ابن مُجبر[2]: [الطويل]

سأشكو إلى النَّدْمان أَمْرَ زجاجةٍ   تَرَدَّتْ بثوبٍ حالكِ اللونِ أسْحَمِ
نصبُّ بها شمسَ المُدامة بَينَنا   فَتَغْربُ في جنحٍ من الليل مظلمِ
وتَجْحَدُ أنوارَ الحُمَيَّا بلونها   كقلب حسودٍ جاحدٍ يَدَ منعمِ

وهل منكم من قال لفاضل جمع بينه وبين فاضل، وهو أبو جعفر الذهبي[3]: [الخفيف]

أيها الفاضلُ الذي قد هداني   نحو مَنْ قد حَمِدْتُهُ باختبارِ[4]
شَكَرَ اَللَّهُ ما أتيتَ وجازا   كَ ولا زلتَ نجم هَدْيٍ لساري[5]
أيُّ برقٍ أفادَ أيَّ غَمَامٍ   وصباحٍ أَدَّى لضوءِ نَهارِ
وإذا ما غدا النسيمُ دليلي   لم يُحِلْني إلاَّ على الأزهارِ

وهل منكم أعمى قال في ذهاب بَصَره وسواد شعره، وهو التُّطِيلي[6]: [البسيط]

---

(١) في المغرب: «شِقَّتَيْهِ».
(٢) هو أبو بكر يحيىٰ بن مُجْبِر، أديب شاعر متقدم في طريقة الشعر، من بِلْش Velez Malaga، توفي بمراكش سنة ٥٨٨ هـ. بغية الملتمس (ص ٥٠٨) وزاد المسافر (ص ٩) والحلل الموشية (ص ١٠٩).
(٣) هو أبو جعفر أحمد بن عتيق بن جُرْج، المعروف بابن الذهبي، من أعيان بلنسية، عرف بالذهبي لأن أباه كان مولعًا بالكَتْب بالذهب. توفي سنة ٦٠١ هـ. المغرب (جـ ٢ ص ٣٢١) وبغية الوعاة (ص ١٤٤) والغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة (ص ٣٦) والتكملة (ص ٩٥) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٥٣٧) وفيه أنه أبو جعفر أحمد بن جريج، وأنه توفي سنة ستمائة، والأبيات في الغصون اليانعة وفي المغرب.
(٤) في الغصون اليانعة والمغرب: «باختياري».
(٥) في المغرب: «ولا زلت أيّ نجم لِسارٍ».
(٦) مرّ التعريف بالأعمى التطيلي والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول. وبيتاه في ديوانه (ص ٤٩) وسيردان في هذا الجزء (ص ٢١٢) باختلاف يسير عمّا هنا.

أَمَا اشْتَفَتْ مِنّيَ الأيامُ في وطني   حتى تُضايِقَ فيما عَنَّ مِنْ وَطَري
ولا قَضَتْ من سوادِ العينِ حاجتَها   حتى تَكُرَّ على ما طَلَّ في الشَّعَر[١]

وهل منكم الذي طار في مشارق الأرض ومغاربها قولُه، وهو أبو القاسم محمد بن هانىء الإلبيري[٢]: [الكامل]

فُتِقَتْ لكمْ ريحُ الجِلاد بعنبرٍ   وأمدّكُمْ فَلَقُ الصباحِ المُسْفِرِ
وجَنَيْتُمُ ثمرَ الوقائعِ يانِعًا   بالنصرِ مِنْ وَرَقِ الحديدِ الأخضرِ

وقد سمعت فائيته[٣] في النجوم، ولولا طولها لأنشدْتُها هنا، فإنها أحسن ما قيل في معناها.

وهل منكم من قال في الزهد مثل قول أبي وهب العباسي القرطبي[٤]: [الخفيف]

أنا في حالتي التي قد تراني   إنْ تأمّلْتَ أَحْسنُ الناسِ حالا
منزلي حيث شئتُ من مستقرّ الـ   ـأرضِ أُسْقَى من المياه زلالا
ليس لي كسوةٌ أخافُ عليها   من مغيرٍ ولن[٥] ترى ليَ مالا
أجعلُ الساعدَ اليمينَ وسادي   ثم أُثْني إذا انقلبْتُ الشمالا
ليس لي والدٌ ولا[٦] مولود   لا ولا حزت مذ عقلت عيالا
قد تلذّذْتُ حِقْبةً بأمورٍ   فتأمّلْتُها فكانت خيالا

ومثل قول أبي محمد عبد الله بن العسال الطليطلي[٧]: [مجزوء الرمل]

---

(١) في الديوان: «على ما كان في الشَّعَرِ».

(٢) مرّ التعريف بابن هانىء الأندلسي والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول. والبيتان في ديوانه (ص ١٦١) دون تغيير عما هنا.

(٣) مطلع هذه الفائية في ديوان ابن هانىء الأندلسي (ص ٢٠٧) وهو: [الطويل]

أَلَيْلَتَنا إذ أرسلتْ واردًا وَحْفَا   وبِتْنا نرى الجوزاءَ في أُذْنِها شَنْفا

(٤) هو أبو وهب عبد الرحمن العباسي القرطبي، كان منقطع القرين في الزهد والورع. توفي بقرطبة سنة ٣٤٤ هـ. المغرب (جـ ١ ص ٥٨) والتكملة (ص ٧١٨). والأبيات في المغرب ببعض الاختلاف عما هنا.

(٥) في طبعة دار صادر وفي المغرب: «ولا ترى».

(٦) في طبعة دار صادر: «ولا لي مولودٌ ولا حزتُ..».

(٧) هو أبو محمد عبد الله بن فرج بن غزلون اليحصبي، المعروف بابن العسال. من أهل طليطلة وزاهدها المشهور. شاعر مفلق. توفي سنة ٤٨٧ هـ. الصلة (ص ٤٣٥) والمغرب (جـ ٢ ص ٢١). وستأتي هذه الأبيات في هذا الجزء (ص ٢٠٠).

أُنْظُرِ الدنيا فإنْ أَبْـ ... ـصَرْتَها شيئًا يدومُ
فاغْدُ منها في أمان ... إنْ يُساعِدْكَ النعيمُ
وإذا أبصرتها منـ ... ـك على كرهٍ تهيمُ
فاسْلُ عنها واطَّرِحْها ... وارتحلْ حيث تقيم

وهل نشأ عندكم من النساء مثل وَلاّدة المَرْوَانية التي تقول مُدَاعبة للوزير ابن زيدون، وكان له غلام اسمه «علي»[1]: [السريع]

ما لابن زَيْدُونٍ على فَضْله ... يغتابني ظلمًا ولا ذَنْبَ لي
ينظرني شَزْرًا إذا جئته ... كأنما جئتُ لأخصي علي

ومثل زينب بنت زياد المؤدّب، الوادي آشية التي تقول: [الطويل]

ولَمَّا أبى الواشون إلاّ فراقَنا ... وما لَهُمْ عندي وعندكَ مِنْ ثارِ
وشَنُّوا على أسماعنا كلَّ غارةٍ ... وقَلَّ حُمَاتي عند ذاك وأنصاري
غَزَوْتُهُمْ من مقلتيك وأدمعي ... ومن نَفَسِي بالسيف والماء والنار

وأنا أختم هذه القطع المتخيّرة بقول أبي بكر بن بقي ليكون الختام مِسْكًا[2]: [الكامل]

عاطيتُهُ والليلُ يسحبُ ذَيلَهُ ... صَهْباءَ كالمِسْكِ الفتيقِ لناشقِ
وضَمَمْتُه ضَمَّ الكَمِيِّ لسيفه ... وذؤابتاه حمائلٌ في عاتقي
حتى إذا مالت به سِنَةُ الكرى ... زَحْزَحْتُه شيئًا وكان مُعَانِقِي
باعدْتُه عن أضلعٍ تشتاقُهُ ... كي لا ينامَ على وِسَادٍ خافق

ويقول القاضي أبي حفص بن عمر القرطبي[3]: [الوافر]

---

(٦) مرّ التعريف بولادة بنت المستكفي والإشارة إلى مصادر ترجمتها في الجزء الأول وسيترجم لها المقري ضمن ترجمته لشاعرات أُخَر. وسيرد هذان البيتان في الجزء الخامس باختلاف يسير عمّا هنا.

(٢) بعض هذه الأبيات في المغرب (ج ٢ ص ٢١).

(٣) هو أبو حفص عمر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر السلمي، كان فقيهًا، ولاّه المنصور الموحدي قضاء إشبيلية، ومات بها سنة ٦٠٣ هـ. الغصون اليانعة (ص ٩١) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٦١) وصلة الصلة (ص ٧٢) وزاد المسافر (ص ١٠١). والأبيات في الغصون اليانعة (ص ٩٣) وسترد في هذا الجزء (ص ٢١٢).

هُمُ نظروا لواحِظَها فهاموا وتشربُ لُبَّ[1] شاربها المُدامُ
يخافُ الناسُ مُقْلَتَها سواها أَيَذْعَرُ قَلْبَ حامِلِهِ الحُسامُ
سما طَرْفي إليها وَهْوَ باكٍ وتحت الشمس ينسكبُ الغَمَامُ
وأذكرُ قَدَّهَا فأنوحُ وَجْدًا على الأغصان تَنْتَدِبُ الحَمام
وأعقبَ بَيْنُها في الصدر غَمًّا إذا غَرَبَتْ ذُكاءُ أتى الظلام

وبقوله أيضًا[2]: [الوافر]

لها رِدْفٌ تعلَّق في لَطيفٍ وذاك الرِّدْفُ لي ولها ظَلُومُ
يُعَذِّبني إذا فَكَّرْتُ فيه ويُتْعبها إذا رامتْ تقومُ

وقد أَطَلْتُ عِنَان النظم، على أني اكتفيتُ عن الاستدلال على النهار بالصباح، فبالله إلاَّ ما أخبرتني: مَنْ شاعركم الذي تقابلونَ به شاعرًا مِمَّنْ ذكرت؟ لا أعرف لكم أشهر ذكرًا، وأضخم شعرًا، من أبي العباس الجراوي، وأولى لكم أن تجحدوا فخره، وتنسوا ذكره، فقد كفاكم ما جرى من الفضيحة عليكم في قوله من قصيدة يمدح بها خليفة: [الطويل]

إذا كان أَمْلاكُ الزمان أراقمًا فإنك فيهمْ دائمَ الدهر ثعبانُ

فما أقبح ما وقع «ثعبان» وما أضعف ما جاء «دائم الدهر» ولقد أنشدت أحد ظرفاء الأندلس هذا البيت، فقال: لا يُنْكَرُ هذا على مثل الجراوي، فسبحان من جعل[3] روحه ونسبه وشعره تتناسب في الثقالة.

وإن أردت الافتخار بالفرسان، والتفاضل بالشجعان، فمن كان قبلنا منهم في مدة المنصور بن أبي عامر ومدة ملوك الطوائف أخبارُهُم مشهورةٌ، وآثارهم مذكورة، وكفاك من أبطال عصرنا ما سمعت عن الأمير أبي عبد الله بن مَرْدَنِيش وأنه كان يدفع في مواكب النصارى[4] ويشقّها يمينًا ويسارًا منشدًا[5]: [الوافر]

---

(١) في الغصون اليانعة: «عقل شاربها».
(٢) البيتان في الغصون اليانعة (ص ٩٣) وزاد المسافر (ص ١٠١).
(٣) في طبعة دار صادر: «من جعل نسبه وروحه وشعره..».
(٤) في الطبعة نفسها: «يدفع في المواكب..».
(٥) سيأتي هذا البيت في الجزء الخامس .

أَكُرُّ على الكتيبة لا أبالي أَحَتْفِي كان فيها أم سِواها

حتى إنه دفع يومًا في موكب من النصارى فصرع وقَتل، وظهر منه ما أُعجبت به نفسه، فقال لشيخ من خواصّه، عالم بأمور الحرب مشهور بها: كيف رأيت؟ فقال له: لو رآك السلطان زاد فيما لك في بيت المال، وأعلى مرتبتك، أمن يكون رأس جيش يقدم هذا الإقدام، ويتعرّض بهلاك نفسه إلى هلاكهم[1]، فقال له: دَعْني فإني لا أموت مرتين، وإذا مُتُّ أنا فلا عاش مَنْ بعدي.

والقائد أبو عبد الله بن قادوس[2] الذي اشتهر من شجاعته ومواقعه في النصارى وحسن بلائه ما صيَّر النصارى من رُعْبه والإقرار بفضله في هذا الشأن أن يقول أحدهم لفرسه إذا سقاه فلم يُقْبِل على الماء: ما لك؟ أرأيت ابن قادوس[2] في الماء، وهذه مرتبة عظيمة[3]: [الكامل]

والفضلُ ما شَهِدَتْ به الأعداءُ

ولقد أخبرني مَنْ أثق به أنه خرج من عسكر في كتيبة مجرّدة برسم الغارة على بلاد النصارى، فوقع في جمع كبير منهم، فجهد جهده في الخلاص منهم والرجوع إلى العسكر، فجعل يقاتل مع أصحابه في حالة الفرار إلى أن كبا بأحد جنده فرسُه، وفَرَّ عنه، فناداه مستغيثًا، فقال: اصبر، ثم نظر إلى فارس من النصارى قد طرق[4] فقال: اجرِ إلى هذا النصراني، فخذْ فرسه، وركض نحوه، فأسقطه، وقال لصاحبه: اركبْ، فركب ونجا معه سالمًا.

وأمثال هذا كثير، وإنما جئت بحَصَاة من ثَبير[5].

وأمّا كَرَمُ النَّفْس وشمائل الرياسة فأنا أحكي لك حكاية تتعجّب منها، وهي مِمّا جرى في عصرنا، وذلك أن أبا بكر بن زُهْر نشأت بينه وبين الحافظ أبي بكر بن الجد عداوة

---

(١) في طبعة دار صادر: «إلى هلاك جيشه».

(٢) في الطبعة نفسها: «ابن قادس».

(٣) مرَّ هذا الشطر من الشعر في الجزء الثالث، وقد استشهد به المقري لِمَا جرى بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير.

(٤) في طبعة بولاق: «قد طرف».

(٥) ثبير، بفتح الثاء: اسم جبل، وقد أراد هنا أنه أتى بقليل من كثير.

مفرطة للاشتراك في العلم والرياسة. وكثرة المال والبلدية، فأجرى ابن زُهر يومًا ذكره في جماعة من أصحابه، وقال: لقد آذانا هذا الرجل أشدّ أذِيَّة، ولم يقصر في القول عند أمير المؤمنين وعند خواصّ الناس وعوامّهم، فقال له أحد عوامّهم: إني أذكر لك عليه عقدًا فيه مخاصمة في موضع مِمّا يعزُّ عليه من مواضعه، ومتى خاصمته في ذلك بلغت منه في النكاية أشدّ مبلغ، فخرج ابن زُهر، وأظهر الغضب الشديد، والإنكار لذلك، وقال لوكيله: أمثلي يجازي على العداوة بما يجازي به السفل والأوباش؟ وإني أجعل ابن الجد في حل من موضع الخصام، وأمر بأن يحمل له العقد، ثم قال: وإني واللّه ما أروم بذلك أن أصالحه[1]، فإنّ عداوته من حسد، وأنا أسأل اللّه تعالى أن يُديمها؛ لأنها مقترنة بدوام نعم اللّه عليّ.

وإن تعرضت إلى ذكر البلاد، وتفسير محاسنها، وما خَصَّها اللّه تعالى به مِمّا حرمه[2] على غيرها، فاسمع ما يميت الحسود كمدًا:

أما إشبيلية فمن محاسنها اعتدالُ الهواء، وحسن المباني، وتزيين الخارج والداخل، وتمكن التمصّر، حتى إنّ العامّة تقول: لو طُلب لَبَنُ الطير في إشبيلية وُجِد، ونهرها الأعظم الذي يصعد المدُّ فيه اثنين وسبعين ميلاً ثم يحسر، وفيه يقول ابن سفر[3]: [الكامل]

شَقَّ النسيمُ عليه جَيبَ قميصِهِ ... فانْسابَ من شَطَّيهِ يَطْلُبُ ثارَهُ
فتضاحكتْ وُرْقُ الحمامِ بدَوحِها[4] ... هُزُءًا فضمَّ مِنَ الحياءِ إزَارَهُ

وزيادته على الأنهار كون ضفّتيه مطرّزتين[5] بالمَنَازه والبساتين والكروم والأنْسَام[6] متّصل ذلك اتّصالاً لا يوجد على غيره.

وأخبرني شخص من الأكياس دخل مصر وقد سألته عن نيلها أنه لا تتّصل بشطّيه

---

(١) كلمة «أن» ساقطة في طبعة ليدن.
(٢) في طبعة دار صادر: «حرمها».
(٣) البيتان في المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٥٤) وقد تقدما في الجزء الأول من نفح الطيب.
(٤) في المقتضب: «بأيكها» بدل «بدوحها».
(٥) في طبعة ليدن: «مطرزة بالمنارة».
(٦) في طبعة دار صادر: «والأنشام». والأنسام: جمع نسيم. والأنشام: نوع من الشجر. لسان العرب (نسم) و (نشم).

البساتين والمنَازه اتّصالَها بنهر إشبيلية، وكذلك أخبرني شخص آخر دخل بغداد، وقد سعد هذا الوادي بكونه لا يخلو من مَسَرَّة، وأنّ جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر لا ناهٍ عن ذلك ولا منتقد، ما لم يؤدِّ السُكرُ إلى شرّ وعَرْبَدة، وقد رام مَنْ وليها من الولاة المظهرين للدين قَطْعَ ذلك، فلم يستطيعوا إزالته، وأهلُه أخفُّ الناس أرواحًا، وأطبعهم نوادر، وأحملهم لمزاح بأقبح ما يكون من السّبِّ، قد مَرَنوا على ذلك، فصار لهم دَيدَنًا حتى صار عندهم مَنْ لا يبتذل فيه ولا يتلاعن ممقوتًا ثقيلاً، وقد سمعت عن شَرَفِ إشبيلية الذي ذكره أحد الوشاحين في مُوَشحة مدح بها المعتضد بن عباد:

إشبيليا عروسٌ[1] وبَعْلُها عَبّاد وتاجها الشرف وسِلْكها الواد

أي شرف قد حاز ما شاء من الشرف إذ عمّ أقطار الأرض خيره، وسفر ما يعصر من زيتونه من الزيت حتى بلغ الإسكندرية، وتزيد قُرَاه على غيرها من القرى بانتخاب مبانيها، وتهمّم سكانها فيها داخلاً وخارجًا، إذ هي من تبييضهم لها نجوم في سماء الزيتون.

وقيل لأحد من رأى مصر والشام: أيها رأيت أحسن هذان أم إشبيلية؟ فقال بعد تفضيل إشبيلية: وشرفها غابة بلا أسد، ونهرها نِيلٌ بلا تمساح. وقد سمعت عن جبال الرحمة بخارجها، وكثرة ما فيها من التين القوطي والشعري، وهذان الصنفان أجمع المتجوّلون في أقطار الأرض أنْ ليس في غير إشبيلية مثلٌ لهما، وقد سمعت ما في هذا البلد من أصناف أدَوات الطرب كالخيال والكريج والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس والكثيرة[2] والفنار والزلامي والشقرة والنورة - وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه - والبوق[3]، وإن كان جميع هذا موجودًا في غيرها من بلاد الأندلس فإنه فيها أكثر وأوجد، وليس في بَرِّ العُدْوة من هذا شيء إلاَّ ما جُلب إليه من الأندلس، وحسبهم الدفّ وأقوال واليرا وأبو قرون ودبدبة السودان وحماقي البرابر، وأمَّا جواريها ومراكبها بَرًّا وبَحْرًا ومطابخها وفواكهها الخضراء واليابسة فأصناف أخذت من التفضيل بأوفر نصيب، وأمَّا مَبَانيها فقد سمعت عن إتقانها واهتمام أصحابها وكون أكثر ديارها لا تخلو من الماء الجاري والأشجار المتكاثفة كالنارنج والليم والليمون والزنبوع وغير ذلك، وأمَّا علماؤها في كل صنف رفيع أو وضيع جدًا أو هزلاً فأكثر من أن يُعَدُّوا، وأشهر من أن يُذْكروا، وأما ما

---

(١) في طبعة دار صادر: «عروسًا».

(٢) في طبعة ليدن: «والكثيرة والفنار».

(٣) أثبت دوزي بعض أسماء هذه الآلات الموسيقية في ملحق المعاجم العربية، وحدّد مدلولاتها.

فيها من الشعراء والوشّاحين والزجّالين فما لو قُسموا على بَرّ العُدْوَة ضاق بهم، والكل ينالون خير رؤسائها ورِفْدَهم، وما من جميع ما ذكرت في هذه البلدة الشريفة إلاّ وقَصْدي به العبارة عن فضائل جميع الأندلس، فما تخلو بلادها من ذلك، ولكن جعلت إشبيلية، بل اللّه جَعَلَها أُمّ قُرَاها، ومركز فخرها وعُلاَها، إذ هي أكبر مدنها، وأعظم أمصارها.

وأما قرطبة فكرسي المملكة في القديم، ومركز العلم ومَنَار التقى ومحلّ التعظيم والتقديم، بها استقرّت ملوك الفتح وعظماؤه، ثم الملوك المَرْوَانية، وبها كان يحيىٰ بن يحيىٰ راوية مالك، وعبد الملك بن حبيب، وقد سمعت من تعظيم أهلها للشريعة، ومنافستهم في السؤدَدِ بعلمها، وأنّ ملوكها كانوا يتواضعون لعلمائها، ويرفعون أقدارهم، ويصدرون عن آرائهم، وأنهم كانوا لا يقدّمون وزيرًا ولا مشاورًا ما لم يكن عالمًا، حتى إنّ الحكَم المستنصر لَمَّا كره له العلماءُ شربَ[1] الخمر هَمَّ بقطع شجرة العنب من الأندلس، فقيل له: فإنها تُعْصَرُ من[2] سواها، فأمسك عن ذلك[3]. وأنهم كانوا لا يقدمون أحدًا للفَتْوَى ولا لقبول الشهادة حتى يطول اختباره، وتُعْقد له مجالس المذاكرة، ويكون ذا مال في غالب الحال خوفًا من أن يميل به الفقر إلى الطمع فيما في أيدي الناس فيبيع به حقوق الدين، ولقد أُخْبِرت أن الحكم الربضي أراد تقديم شخص من الفقهاء يختصّ به للشهادة، فأخذ في ذلك مع يحيىٰ بن يحيىٰ وعبد الملك وغيرهما من أعلام العلماء، فقالوا له: هو أهل، ولكنه شديد الفقر، ومن يكون في هذه الحالة لا تأمنه على حقوق المسلمين، لا سيما وأنت تريد انتفاعه وظهوره في الدخول في المواريث والوصايا وأشباه ذلك، فسكت ولم يَرَ[4] منازعتهم، وبقي مهمومًا من كونهم لم يقبلوا قوله، فنظر إليه ولده عبد الرحمن الذي ولي الملك بعده، وعلى وجهه أثر ذلك، فقال: ما بالك يا مولاي؟ فقال: ألا ترى لهؤلاء الذين نقدمهم ونُنَوِّه عند الناس بمكانهم، حتى إذا كلفناهم ما ليس عليهم فيه شَطَط، بل ما لا يعيبهم[5]، ولا مِمّا هو يرزؤهم[6]، صَدُّونا عنه، وغلقوا أبواب

---

(١) في طبعة ليدن: «بغض الخمر».
(٢) في طبعة بولاق: «في سواها».
(٣) حكاية إمساك الحكم المستنصر عن الخمر وهمّه قطع شجرة العنب في جذوة المقتبس (ص ١٣) وبغية الملتمس (ص ١٨).
(٤) في طبعة بولاق: «ولم يردّ».
(٥) في طبعة ليدن: «ما لا يعنيهم».
(٦) في طبعة دار صادر: «ولا هو مِمّا يرزؤهم شيئًا..».

الشفاعة، وذكر له ما كان منهم، فقال: يا مولاي، أنت أولى الناس بالإنصاف، إنَّ هؤلاء ما قدمتهم أنت ولا نَوَّهتَ بهم، وإنما قدّمهم ونوّه بهم علمُهم، أوَ كُنتَ تأخذ قومًا جهالاً فتضعهم في مواضعهم؟ قال: لا، قال: فأنصفهم فيما تعبوا فيه من العلم لينالوا به لذة الدنيا وراحة الآخرة، قال: صدقت، ثم قال: وأمّا كونهم لم يَقْبلوا هذا الرجل لشدّة فقره فالعلّة في ذلك تنحسم بما يبقى لك في الصالحات ذكرًا، قال: وما هو؟ قال: تعطيه من مالك قَدْرَ ما يلحق به من الغنى ما يؤهّله لتلك المنزلة، ويزيل عنك خجل ردّهم لك، وتكون هذه مكرمة ما سبقك إليها أحد، فَتَهَلّل وجْهُ الحكم وقال: إليّ إليّ، إنها والله شِنْشِنَة عَبْشَمية[1] وإنّ الذي قال فينا لصادق: [الطويل]

وأبناءُ أملاكٍ خضارمُ سادةٌ صغيرهُمُ عند الأنام كبيرُ

ثم استدعى عبدَ الملك بن حبيب وسأله عن قدر ما يؤهّله لتلك المرتبة من الغنى، فذكر له عددًا، فأمر له به في الحين، ونَبَّهَ قدره بأنْ أعطاه من إصطبله مركوبًا، وكانت هذه أكرومة لا خفاء بعظمها: [الكامل]

يفنى الزمان وما بَنَتْهُ مُخَلَّدُ

ثم إنه إذا كان له من الغنى ما يكفُّه[2] عن أموال الناس، ومن الدين ما يصدّه عن محارم الله تعالى، ومن العلم ما لا يجهل به التصرّف في الشريعة، أباحوا له الفتوى والشهادة، وجعلوا علامة لذلك بين الناس القلانِسَ[3] والرداء.

وأهلُ قرطبة أشدُّ الناس محافظة على العمل بأصحّ الأقوال المالكية، حتى إنهم كانوا لا يُوَلُّون حاكمًا إلاّ بشرط أن لا يعدل في الحكم عن مذهب ابن القاسم.

وقال ابن سارة لَمّا دخل قرطبة [البسيط]:

الحمدُ للّه قد وافيتُ قرطبةً دارَ العلومِ وكرسيَّ السلاطينِ

وهيَ كانت مجمع جيوش الإسلام، ومنها نصر الله على عَبَدَة الصليب.

يقال: إن المنصور بن أبي عامر - حين تمّ له مُلْكُ البرّين، وتوفّرت الجيوش

(١) الشِّنْشِنةُ، بكسر الشين معًا وسكون النون الأولى وفتح النون الثانية: الخُلق والطبيعة والعادة. محيط المحيط (شنش). عبشميّة: نسبة إلى قبيلة عبد شمس.

(٢) يكفُّه: يحجبه ويمنعه. لسان العرب (كفف).

(٣) في طبعة دار صادر: «القالس».

والأموال - عَرَضَ بظاهر قرطبة خيلَه ورَجْله، وقد جمع من أقطار البلاد ما ينهض به إلى قتال العدوّ وتدويخ بلاده، فنيّف الفرسانُ على مائتي ألف، والرَّجّالة على ستمائة ألف. وبها حتى الآن من صناديد المسلمين وقوّادهم مَنْ[١] لا يَفْتُر عن محاربة، ولا يملُّ من مضاربة، مَنْ[٢] أسماؤهم بأقاصي بلاد النصارى مشهورة، وآثارهم فيها مأثورة، وقلوبهم على البعد بخوفهم معمورة.

ويحكى أن العمارة في مباني قرطبة والزاهرة والزهراء اتّصلت إلى أن كان يمشى فيها بضوء[٣] السُّرُج المتّصلة عشرة أميال، وأمّا جامعُها الأعظم فقد سمعت أنّ ثُرَيَّاته من نواقيس النصارى، وأنّ الزيادة التي زاد في بنائه ابنُ أبي عامر من ترابٍ نَقَله النصارى على رؤوسهم ممّا هُدِم من كنائس بلادهم، وقد سمعت أيضًا عن قنطرتها العظمى وكثرة أرْحِيّ واديها، يقال: إنها تُنيِّف على خمسة آلاف حجر، وقد سمعت عن كنبانيّتها[٤] وما فضّل اللّه تعالى به تربها من بركة وما ينبت فيها من القمح وطيبه، وفيها جبال الورد الذي بلغ الربع منه مرات إلى ربع درهم، وصار أصحابه يرون الفضل لمن قطف بيده ما يمنحونه منه، ونهرها إن صغر عندها عن عظمه عند إشبيلية فإنَّ لتقارب بَرَّيهِ هنالك وتقطُّع غُدُره ومُرُوجه معنى آخرَ وحلاوةً أخرى، وزيادة أُنس، وكثرة أمان من الغرق، وفي جوانبه من البساتين والمروج ما زاده نضارة وبهجة.

وأما جَيّان فإنها لبلاد الأندلس قلعة، إذ هي أكثرها زرعًا، وأصرمها أبطالاً، وأعظمها منعة، وكم رامتها عساكر النصارى عند فترات الفتن فرأوها أبعدَ من العَيّوق، وأعزَّ منالاً من بَيض الأنوق، ولا خَلَتْ من علماء ولا من شعراء، ويقال لها «جيان الحرير» لكثرة اعتناء باديتها وحاضرتها بدود الحرير.

ومِمّا يُعَدُّ في مفاخرها ما ببَيّاسَة إحدى بلادِ أعمالها من الزعفران الذي يُسَفَّرُ برًّا وبحرًا، وما في أبدة من الكروم التي كاد العنب لا يباع فيها ولا يشترى كثرة، وما كان بأبدة من أصناف الملاهي والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة، فإنهنّ أحذق خلق اللّه تعالى باللعب بالسيوف والدك، وإخراج القروى والمرابط والمتوجه.

---

(١) في طبعة بولاق: «ممن لا...».

(٢) كلمة «من» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٣) في طبعة دار صادر: «الضوء».

(٤) الكنبانية: كلمة إسبانية وهي Campaña وتعني الأرض الجرداء.

وأما غَرْنَاطة فإنها دمشق بلاد الأندلس، ومسرح الأبصار، ومطمح الأنفس، لها القَصَبة المنيعة ذات الأسوار الشامخة، والمباني الرفيعة، وقد اختصّت بكون النهر يتوزّع على ديارها وأسواقها[1] وحماماتها وأرحاها الداخلة والخارجة وبساتينها، وزانها اللّه تعالى بأنْ جعلها مرتّبة على بَسِيطها الممتدّ الذي تفرّعت فيه سبائك الأنهار بين زَبَرْجَد الأشجار، ولنسيم نَجْدِها وبهجة منظر حَورها في القلوب والأبصار، استلطافٌ يَرُوق[2] الطباع، ويحدث فيها ما شاءه الإحسان من الاختراع والابتداع، ولم تَخْلُ من أشراف أماثل، وعلماء أكابر، وشعراء أفاضل، ولو لم يكن لها إلاّ ما خَصَّها اللّه تعالى به من كونها قد نبغ فيها من الشواعر مثل نَزْهُون القلاعية وزينب بنت زياد، وقد تقدّم شعرهما، وحفصة بنت الحاج، ونَاهِيكَ في الظرف والأدب، وهل ترى أظرف منها في جوابها للحسيب[3] الوزير الناظم الناثر أبي جعفر ابن القائد الأجلّ أبي مَرْوَان بن سعيد، وذلك أنهما باتا بحور مؤمّل[4] على ما يبيت به الروض والنسيم، من طيب النفحة ونضارة النعيم، فلمّا حان الانفصال قال أبو جعفر[5]: [الطويل]

رَعَى اللَّهُ لَيلاً لم يَرُعْ بِمُذَمَّمِ ... عَشِيَّةَ وارانا بِحَورِ مُؤَمَّلِ[6]
وقد خفقتْ من نحو نجدٍ أريجةٌ ... إذا نَفَحَتْ هَبَّتْ بريّا القَرَنْفُلِ
وغَرَّد قُمْرِيٌّ على الدَّوح وانْثَنَى ... قضيبٌ من الريحان من فوق جدول
ترى الروضَ مسرورًا بما قد بدا له ... عِنَاقٌ وضَمٌّ وارتشافُ مُقَبَّلِ

وكتبه إليها بعد الافتراق، لتجاوبه على عادتها في ذلك، فكتبت له ما لا يخفى فيه قيمتها[7]: [الطويل]

---

(١) في طبعة دار صادر: «وحماماتها وأسواقها..».
(٢) في طبعة ليدن: «يرقّ».
(٣) في طبعة دار صادر: «للوزير الحسيب».
(٤) كان حور مؤمل من أجمل متنزهات غرناطة، سمّي بذلك نسبة إلى مؤمّل أحد خدام ملك غرناطة باديس بن حبوس بن زيري، ولاحتوائه على شجر الحور. الإحاطة (جـ ١ ص ١١٧) والمغرب (جـ ٢ ص ١٠٣).
(٥) سترد هذه الأبيات في الجزء الخامس ببعض الاختلاف عما هنا.
(٦) رواية عجز البيت في طبعة ليدن هي:
رعانا ووارانا بحور مؤمّلِ
(٧) سترد هذه الأبيات في الجزء الخامس وجاء هناك: «غَرْدَة» بدل «مدح» في البيت الثاني.

لَعَمْرُكَ ما سُرَّ الرياضُ بوصلنا ... ولكنّه أَبْدَى لنا الغلَّ والحَسَدْ
ولا صَفَّقَ النهرُ ارتياحًا لقربنا ... ولا صَدَحَ القُمْريُّ إلاَّ بما وجدْ
فلا تُحْسِنِ الظَّنَّ الذي أنت أهلُه ... فما هو في كلِّ المواطن بالرَّشَدْ
فما خلتُ هذا الأفق أبدى نجومه ... لأمرٍ سوى كيما تكون لنا رَصَدْ

وأما مالَقَة فإنها قد جمعت بين منظر البحر والبَرّ بالكروم المتّصلة التي لا تكاد ترى فيها فرجة لموضع غامر، والبروج التي شابهت نجوم السماء، كثْرَة عدد وبهجة ضياء، وتخلّل الوادي الزائر لها في فصلي الشتاء والربيع في سرر بطحائها، وتوشيحه لخصور أرجائها، وممّا اختصّت به من بين سائر البلاد التين الربي[1] المنسوب إليها؛ لأنَّ اسمها في القديم رية[2]، ولقد أُخبرت أنه يُبَاع في بغداد على جهة الاستطراف، وأما ما يُسفِّر منه المسلمون والنصارى في المراكب البحرية فأكثر من أن يعبر عنه بما يحصره، ولقد اجتزت بها مرّة، وأخذت على طريق الساحل من سُهَيل إلى أن بلغت إلى بليش قدر ثلاثة أيام متعجّبًا فيما حَوَتْه هذه المسافة من شجر التين، وإنَّ بعضها ليجتني جميعها الطفلُ الصغير من لزوقها بالأرض، وقد حَوَتْ ما يُتعب الجماعةَ كثرة، وتين بليش هو الذي قيل فيه لبربري: كيف رأيته؟ قال: لا تسألني عنه، وصُبَّ في حلقي بالقفة، وهو لعمر اللّه معذور؛ لأنه نعمة حُرمتْ بلاده منها، وقد خُصَّتْ بطيب الشراب الحلال والحرام، حتى سار المثل بالشراب المالقي، وقيل لأحد الخلعاء[3]، وقد أشرف على الموت: اسألْ ربّك المغفرة، فرفع يديه وقال: يا ربّ، أسألُكَ من جميع ما في الجنّة خمر مالَقَةَ وزبيبيَّ إشبيلية، وفيها تُنسج الحُللُ الموشيّة التي تجاوز أثمانُها الآلافَ ذات الصور العجيبة المنتخبة برسم الخلفاء فَمَنْ دونهم، وساحلها محطّ تجارة لمراكب المسلمين والنصارى.

وأما ألْمَريَّة فإنها البلد المشهور الذكر، العظيم القدر، الذي خُصَّ أهلُه باعتدال المزاج، ورونق الديباج، ورقّة البشرة، وحسن الوجوه والأخلاق، وكرم المعاشرة والصحبة. وساحلها أنظف السواحل وأشرحها وأملحها منظرًا، وفيها الْحَصَا الْمُلَوّن العجيب الذي يجعله رؤساء مراكش في البراريد، والرخام الصقيل الملوكي، وواديها المعروف بوادي

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «الربى». والربي: نسبة إلى مدينة ريّه Reyo.

(٢) في طبعة عبد الحميد: «ربه» بالباء.

(٣) في طبعة بولاق: «الخلفاء».

بجَانَةَ من أفرج الأودية، ضَفَّتَاه بالرياض كالعِذَارين حول الثغر، فحق أن ينشد فيها: [الكامل]

أرضٌ وَطِئتُ الدُّرَّ رَضراضًا[1] بها والتُّرْبَ مِسْكًا والرياضَ جِنانا

وفيها كان ابن ميمون القائد الذي قَهَرَ النصارى في البحر، وقطع سفرهم فيه، وضرب على بلاد الرمانية، فقتل وسبى، وملأ صدور أهلها رعبًا، حتى كان منه كما قال أشجع[2]: [الكامل]

فإذا تَنَبَّهَ رُعْتَهُ وإذا غَفَا سَلَّتْ عليه سيوفَكَ الأحلامُ

وبها كان محطّ مراكب النصارى، ومجتمع ديوانهم، ومنها كانت تُسَفَّر لسائر البلاد بضائعهم، ومنها كانوا يوسقون جميع البضائع التي تصلح لهم، وقصد بضبط ذلك بها حصْر ما يجتمع في أعشارهم، ولم يوجد لهذا الشأن مثلها، لكونها متوسطة[3] ومتسعة قائمة بالوارد والصادر، وهي أيضًا مصنع للحُلل المَوشِية النفيسة.

وأما مُرْسِيَةُ فإنها حاضرة شرق الأندلس، ولأهلها من الصَّرامة والإباء ما هو معروف مشهور، ووادِيها قسيم وادي إشبيلية، كلاهما يَنْبَع من شَقُورة وعليه من البساتين المتهدلة الأغصان، والنواعير المطربة الألحان، والأطيار المغرّدة، والأزهار المتنضدة، ما قد سمعت، وهي من أكثر البلاد فواكه وريحانًا، وأهلها أكثر الناس راحات وفرجًا لكون خارجها معينًا على ذلك بحسن منظره، وهي بلدة تجهز منها العروس التي تنتخب شورتها لا تفتقر في شيء من ذلك إلى سواها. وهي للمرية ومالَقَة في صنعة الوشي ثالثة، وقد اختصّت بالبُسُط التنتلية التي تُسفَّر لبلاد المشرق، وبالحُصْر التي تُغلَّف[4] بها الحيطان المبهجة للبصر، إلى غير ذلك مِمّا يطول ذكره، ولم تَخْلُ من علماء وشعراء وأبطال.

وأما بَلَنْسِيَةُ فإنها لكثرة بساتيها تُعْرف بمطيب الأندلس، ورُصافتها من أحسن متفرّجات الأرض، وفيها البحيرة المشهورة الكثيرة الضوء والرونق، ويقال إنه لمواجهة

---

(١) الرضراض: الحصى الرقاق في مجاري الماء. لسان العرب (رضرض).

(٢) هو أشجع بن عمرو السلمي، وكان متصلاً بالبرامكة. الشعر والشعراء (ص ٧٥٨) والأغاني (جـ ١٨ ص ٢١٩) وتاريخ بغداد (جـ ٧ ص ٤٥). والبيت من قصيدة في مدح الرشيد، وهو في الشعر والشعراء (ص ٧٥٩) والأغاني (جـ ١٨ ص ٢٢٢).

(٣) في طبعة ليدن: «موسطة».

(٤) في طبعة ليدن: «تقلف».

الشمس لتلك البحيرة يكثر ضوء بَلَنْسِيَة إذ هي موصوفة بذلك، ومِمّا خُصَّتْ به النسيج البلنسي الذي يُسَفَّرُ لأقطار المغرب، ولم تَخْلُ من علماء ولا شعراء، ولا فرسان يكابدون مضايقة[1] الأعداء، ويتجرعون فيها النعماء ممزوجة بالضرّاء، وأهلها أصلح الناس مذهبًا، وأمتنهم دينًا، وأحسنهم صحبةً، وأرفقهم بالغريب.

وأما جزيرة مَيُورْقة فمن أخصب بلاد اللّه تعالى أرجاء، وأكثرها زرعًا ورزقًا وماشيةً، وهي على انقطاعها من البلاد مستغنية عنها، يصل فاضل خيرها إلى غيرها، إذ فيها من الحضارة والتمكّن والتمصّر وعظم البادية ما يغنيها، وفيها من الفوائد ما فيها، ولها فضلاء وأبطال اقتصروا على حمايتها من الأعداء المحدقة بها: [الكامل]

مِنْ كُلِّ مَنْ جعل الحسامَ خليله ... لا يبتغي أبدًا سواه مُعِينا

هذا - زان اللّه تعالى فَضْلَك بالإنصاف، وشرّف كرمك بالاعتراف! - ما حضرني الآن في فضل جزيرة الأندلس، ولم أذكر من بلادها إلاّ ما كُلُّ بلد منها مملكة مستقلّة يليها ملوك بني عبد المؤمن على انفراد، وغيرها في حكم التبع.

وأمّا علماؤها وشعراؤها فإني لم أعرض منهم إلاّ لمن هو في الشهرة كالصباح، وفي مسير الذكر كمسير الرياح، وأنا أحكي لك حكاية جرت لي في مجلس[2] الرئيس الفقيه أبي بكر بن زُهْر، وذلك أني كنت يومًا بين يديه، فدخل علينا رجل عجميّ من فضلاء خراسان، وكان ابن زُهْر يُكْرمه، فقلت له: ما تقول في علماء الأندلس وكُتّابهم وشعرائهم؟ فقال: كَبُرْتُ، فلم أفهم مقصده، واستبردْتُ ما أتى به، وفهم مني أبو بكر بن زُهْر أني نظرته نظر المستبرد المنكر، فقال لي: أقرأت شعر المتنبي؟ قلت: نعم، وحفظت جميعه، قال: فعلى نفسك إذن فلتنكر، وخاطِرَكَ بقلّة الفهم فلتتّهم، فذكرني بقول المتنبي[3]: [الكامل]

كَبُرْتُ حَولَ ديارهِمْ لَمَّا بَدَتْ ... منها الشُموسُ وليس فيها المَشْرِقُ

فاعتذرت للخراساني، وقلت له: قد واللّه كبرت في عيني بقدر ما صَغُرَتْ نفسي عندي، حين لم أفهم نُبْلَ مقصدك، فالحمد للّه الذي أطلع من المغرب هذه الشموس،

---

(١) في طبعة دار صادر: «مصاقبة الأعداء..».

(٢) في طبعة دار صادر: «مجلس الفقيه الرئيس».

(٣) البيت في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٢٤).

وجعلها بين جميع أهله بمنزلة الرؤوس، وصلّى اللّه على سيدنا محمد نبيّه المختار من صفوة العرب، وعلى آله وصحبه، صلاةً متّصلة إلى[1] غابر الحِقب.

كملت رسالة الشَّقُنْدي. وهو أبو الوليد إسماعيل بن محمد، وشَقُنْدَة المنسوب إليها: قرية مطلّة على نهر قرطبة مجاورة لها من جهة الجنوب[2].

قال ابن سعيد[3]: وهو مِمَّنْ كان بينه وبين والدي صحبة أكيدة، ومجالسات أُنس عديدة، ومزاورات[4] تتّصل، ومحاضرات[5] لا تكاد تنفصل، وانتفعت بمجالسته، وله رسالة في تفضيل الأندلس يعارض بها[6] أبا يحيىٰ في تفضيل بَرّ العُدْوة، أورد فيها من المحاسن ما يشهد له بلطافة المنزع، وعذوبة المَشْرَع، وكان جامعًا لفنون من العلوم الحديثة والقديمة، وعني[7] بمجلس المنصور، فكانت له فيه مشاهد غير ذميمة. وولي قضاء بياسة[8] وقضاء لُورَقَة، ولم يزل محفوظ[9] الجانب، محمود المذاهب، سمعته ينشد والدي قصيدةً في المنصور وقد نهض للقاء العدوّ، منها: [البسيط]

إذا نَهَضَتْ فإنَّ السيفَ[10] منتهضُ ترمي السعودَ سهامًا والعِدَا غَرَضُ
لك البسيطةُ تطويها وتنشرها فليس في كلِّ ما تنويه معترضُ

قال: وسمعته يقول له: أنشدتُ الوزير أبا سعيد بن جامع قصيدة أوّلها[11]: [البسيط]

اسْتَوقِفِ الركبَ قد لاحتْ لك الدارُ وأسألْ بربعٍ تناءتْ عنه أقمارُ
لا خَفَّفَ اللّهُ عني بُعْدَ بينهمُ فإنني سرتُ والأحبابُ ما ساروا

---

(١) في طبعة ليدن: «على غابر».
(٢) ترجمة الشقندي في اختصار القدح المعلى (ص ١٣٨) وهنا ينقل المقري عن هذا الكتاب.
(٣) لا يزال النقل مستمرًا عن اختصار القدح.
(٤) في اختصار القدح: «ومداورات تتصل..».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «ومحاورات».
(٦) في اختصار القدح: «يعارض بها رسالة أبي يحيىٰ الطنجي..».
(٧) في المصدر نفسه: «وحسبه أن كان ممن عُيِّن بمجلس المنصور فلم تزل له بها مشاهد غير ذميمة».
(٨) بيّاسة، بالإسبانية: Baeza، وهي مدينة تبعد عن جيان عشرين ميلاً، وهي على كدية من تراب مطلة على النهر الكبير المنحدر إلى قرطبة. الروض المعطار (ص ١٢١).
(٩) في اختصار القدح: «ملحوظ الجانب».
(١٠) في المصدر نفسه: «فإنّ السّعد مُنتصرٌ».
(١١) هذان البيتان والأبيات التالية في اختصار القدح.

ومنها:

أَلاَ رعى اللّهُ ظبيًا في قبابهمُ منه لهمْ في ظلامِ الليلِ أنوارُ

وله: [الخفيف]

عَلّلاني بذكر مَنْ هِمْتُ فيه وعِدَاني عنه بما أرتجيْهِ
وإذا ما طربتُما لارتياحي فاجعلا خمرتي مُدَامَةَ فِيهِ
ليت شعري وكم أُطيلُ الأماني أيّ يومٍ في خَلْوةٍ ألتقيه[1]
وإذا ما ظفرت[2] يومًا بشكوى قال لي: أين كلُّ ما تَدّعيه
لا دموع ولا سَقام فماذا شاهدٌ عنك بالذي تدّعيه[3]
قلتُ دعني أمُتْ بدائي فإني لو بَرَاني الغرامُ لا أُبديه[4]

وقال في عُوَّده[5] لَمَّا مرض: [مجزوء الرجز]

إنـي مرضْـتُ مرضـةً أُسْقِطَ منها في يدي
فكان في الإخوان مَنْ لم أره في العُوَّدِ
فقلتُ في كُلِّهمُ قولَ امرئٍ مُقْتصد
أَيرُ الذي قد عادني في آستِ الذي لم يَعُدِ[6]

مات بإشبيلية سنة ٦٢٩ انتهى.

وقال ابن سعيد: أنشدني والدي للحافظ أبي الطاهر السِّلفي، قال: وكفى به شاهدًا، ويقوله مفتخرًا: [الطويل]

بلاد أَذَرْبِيجَانَ في الشرق عندنا كأندلسٍ بالغربِ في العلم والأدبْ
فما إنْ تكادُ الدهرَ تلقى مميزًا مِنَ أهليهما إلاّ وقد جَدَّ في الطلبْ

وحَكَى غيرُ واحد كابن الأبار أنَّ عباس بن ناصح الشاعر لَمّا توجّه من قرطبة إلى

---

(١) في اختصار القدح: «أتقيه».
(٢) في المصدر نفسه: «وإذا ما ظَهَرتُ..».
(٣) في المصدر نفسه: «بالذي تُخفيه». وهكذا أحسن لئلاً تتكرّر القافية.
(٤) في المصدر نفسه: «لا أبريه».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «عُوَّاده».
(٦) في طبعة ليدن: «في است من».

بغداد، ولقي أبا نُوَاس، قال له: أنشدني لأبي الأجرب، قال: فأنشدته، ثم قال: أنشدني لبكر الكنانيّ، فأنشدته، وهذان شاعران من الأندلس.

واعلم أننا[1] إنْ تتبَّعْنا كلام الأندلسيين وحكاياتهم الدالَّةَ على سَبْقهم طال بنا الكتاب، ولم نستوفِ المراد، فرأينا أنْ نذكر بعضًا من ذلك بحسب ما اقتضاه الحال وأبداه، ليكون عنوانًا دالاً على ما عداه: [البسيط]

يَكْفي من الحَلْيِ ما قد حَفَّ بالعُنقِ

ولنبدأ ما نسوقه من أخبار الأندلسيين وأشعارهم وحكاياتهم في الجِدِّ والهَزْل، والتولية والعزل، بقول الفقيه الزاهد أبي عمران موسى بن عمران المارتلي[2]، وكان سكن إشبيلية: [البسيط]

لا تَبْلِكِ ثَوْبَكَ إنْ أَبْلَيْتَ جِدَّتَهُ ... وابلِكِ الذي أَبْلَتِ الأيامُ من بدنِكْ
ولا تكونَنَّ مختالاً بجدّته ... فربما كان هذا الثوب من كفنِكْ[3]
ولا تَعَفْهُ إذا أَبْصَرْتَهُ دَنِسًا ... فإنما اكتَسَبَ الأوساخَ من دَرَنِكْ[4]

وقال أبو عمرو اليَحْصُبي اللوشي: [الخفيف]

شَرِّدِ النومَ عن جفونكَ وانظرْ ... حكمةً توقظُ النفوسَ النياما
فحرامٌ على امرىء لم يشاهِدْ ... حكمةَ اللّهِ أن يذوق المناما

وقال أيضًا: [الرمل]

ليس للمرء اختيارٌ في الذي ... يتمنَّى من حراكٍ وسكونْ
إنما الأمرُ لربّ واحدٍ ... إنْ يَشَأْ قال له: كُنْ فيكونْ

وقال أبو وهب القرطبي[5]: [الوافر]

---

(١) في طبعة دار صادر: «أنَّا».

(٢) أبو عمران موسى بن عمران المارتلي فقيه زاهد، من مارْتُلَه Martola المعقل المشهور على وادي آنة من عمل باجة من الأندلس. سكن إشبيلية وتوفي بها سنة ٦٠٤ هـ. الغصون اليانعة (ص ١٣٥) والمغرب (جـ ١ ص ٤٠٦) والتكملة (ص ٦٨٧) والروض المعطار (ص ٥٢١، مادة مارتلة).

(٣) رواية عجز هذا البيت في طبعة ليدن هي:

فربما كان ذاك الثوب عن كفنك

(٤) في الطبعة نفسها: «من بدنك». والدَّرَنُ: الوسخ. لسان العرب (درن).

(٥) هو أبو وهب عبد الرحمن العباسي القرطبي، وقد مرَّ التعريف به والإشارة إلى مصادر ترجمته في هذا الجزء (ص ١٨٣).

تنامُ وقد أُعِدَّ لك السهادُ   وتوقنُ بالرحيل وليس زَادُ
وتصبحُ مثل ما تمسي مضيعًا   كأنك لستَ تدري ما المرادُ
أتطمعُ أنْ تفوزَ غدًا هَنيئًا   ولم يَكُ منك في الدنيا اجتهاد
إذا فَرَّطْتَ في تقديم زرعٍ   فكيف يكونُ مِنْ عَدَمٍ حصاد

وقيل: إنَّ الأبيات السابقة التي أولها: أنا في حالتي التي - إلى آخره، وجدت في تركته بخطّه في شقف، وبعضهم ينسبها لغيره، واسم أبي وهب المذكور عبد الرحمن، وذكره ابن بَشْكُوال في الصِّلة[1]، وأثنى عليه بالزهد والانقطاع، وكان في أول أمره قد حسب عامةُ الناس أنه مختلّ العقل، فجعلوا يؤذونه ويرمونه بالحجارة، ويصيحون عليه: يا مجنون، يا أحمق، فيقول: [السريع]

يا عاذلي، أنت به جاهلٌ   دَعْني به لست بمغبونِ
أَمَا تراني أبدًا والهًا   فيه كمسحورٍ ومفتون
أحْسَنُ ما أسمع في حبِّه   وَصْفي بمختلّ ومجنونِ

وقال الخطيب أبو محمد بن برطلة: [الطويل]

بأربعةٍ أرجو نجاتي وإنها   لأكْرَمُ مذخورٍ لديَّ وأعظمُ
شهادة إخلاصي وحبِّي محمدًا   وحسن ظنوني ثم أنيَ مسلمُ

وقال ابن حبيش: [البسيط]

قالوا تَصَبَّرْ عن[2] الدنيا الدنيّةِ أو   كُنْ عَبْدَها واصطبرْ للذلّ واحتمِلِ
لا بُدَّ من أحدِ الصبرين، قلت نعمْ   الصبر عنها بعونِ اللّه أوفق لي

وقال ابن الشيخ: [الكامل]

أُطْلُبْ لنفسك فَوْزَها واصبرْ لها   نَظَرَ الشفيقِ وخَفْ عليها واتَّقِ
من ليس يرحم نفسه ويصدّها   عَمّا سيهلكها فليس بمشفقِ

وقال أبو محمد القرطبي[3]: [الطويل]

---

(١) لم أجد في كتاب الصلة المطبوع ترجمة لأبي وهب العباسي.

(٢) في طبعة ليدن: «على الدنيا».

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيىٰ بن عبد الله الأنصاري، مالقي، قرطبي الأصل، من كبار مفاخر زمانه، الذيل والتكملة (جـ ٤ ص ١٩١) والتكملة (ص ٨٧٩). والبيتان في الذيل والتكملة (ص ٢١٠) دون تغيير عمّا هنا.

لَعَمْرُكَ ما الدنيا وسرعةُ سيرها بسكانها إلاَّ طريقُ مجاز
حقيقتُها أنَّ المُقَام بغيرها ولكنهمْ قد أُولِعُوا بمجاز

وقال السميسر(١): [السريع]

للّه في الدنيا وفي أهلها مُعَمَّياتٌ قد فَكَكْناها
مِنْ بَشَرٍ، نحن فمن طَبْعِنا نُحِبُّ فيها المالَ والجاها
دَعْني من الناس ومن قولهمْ فإنما الناس أخلاَّها(٢)
لم تُقْبِلِ الدنيا على ناسكٍ إلاَّ وبالرحب تَلَقَّاها
وإنما يُعْرِضُ عن وَصْلها مَنْ صَرَفَتْ عنه مُحَيَّاها

وقال أبو القاسم بن بقي: [الطويل]

أَلاَ إنما الدنيا كَرَاحٍ عتيقةٍ أرادَ مُدِيرُوْهَا بها جَلْبَ الأُنْسِ
فلمّا أداروها أثارتْ حقودَهُمْ فعاد الذي راموا من الأُنْس بالعكسِ

وقال أبو محمد عبد اللّه بن العسال الطلَيطلي(٣): [مجزوء الرمل]

انظُرِ الدنيا فإنْ أبـ ـصَرْتها شيئاً يَدُومُ
فاغْدُ مِنها في أمانٍ إنْ يساعِدْكَ النعيمُ
وإذا أَبْصَرْتَها منـ ـكَ على كرهٍ تهيم
فاسْلُ عنها واطَّرِحْها وارتحلْ حيث تقيمُ

وقال ابن هشام القرطبي(٤): [الكامل]

وأبي المدامة لا(٥) أريدُ بشربها صَلَفَ الرقيعِ ولا انهماكَ اللاهي

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «الشميش».

(٢) رواية عجز البيت في طبعة دار صادر هي:

فإنما الناسكُ خلاَّها

(٣) تقدمت هذه الأبيات في هذا الجزء (ص ١٨٤) دون تغيير عمّا هنا.

(٤) هو أبو جعفر الكاتب القرطبي الربضي، كما سيأتي في هذا الجزء (ص ٢٣٧). وسترد هذه الأبيات هناك وجاء: «ما أريد» بدل «لا أريدُ».

(٥) في طبعة دار صادر: «ما أريد».

لم يبق من عَهْدِ الشباب وطيبه | شيء كعهدي لم يَحُلْ إلاّ هي
إن كنتُ أشربُها لغير وفائها | فتركتُها للناسِ لا للّه

وقال أبو محمد بن السِّيد البَطَلْيَوسي مما نسبه إليه في «المغرب»[(١)]: [الطويل]

أخو العلم حَيٌّ خالدٌ بعد موته | وأوصالُهُ تحت الترابِ رميمُ
وذو الجهل مَيتٌ وهو ماشٍ على الثرى | يُظَنُّ من الأحياء وهو عَديمُ

وقال أبو الفضل بن شرف[(٢)]: [الوافر]

لَعَمْرُكَ ما حَصَلْتُ على خطيرٍ | من الدنيا ولا أدركْتُ شَيَّا
وها أنا خارجٌ منها سَلِيبًا | أُقَلِّبُ نادمًا كلتا يَدَيَّا
وأبكي ثم أعلم أنَّ مبكا | يَ لا يُجْدِي فأمسحُ مقلتيَّا
ولم أجزعْ لهولِ الموتِ لكنْ | بكيتُ لقلّة الباكي عليَّا
وأنَّ الدهرَ لم يعلمْ مكاني | ولا عرفتْ بَنُوهُ ما لديَّا
زمانٌ سوف أُنْشَرُ فيه نشرًا | إذا أنا بالحِمام طُوِيتُ طَيَّا
أُسَرُّ بأنني سأعيشُ مَيتًا | به ويسوءني أنْ مُتُّ حَيًّا

وقال الزاهد العارف بالله سيدي أبو العباس بن العريف[(٣)] نفعنا اللّه تعالى به: [البسيط]

سَلُوا عن الشوق مَنْ أهوى فإنهمُ | أدنى إلى النفسِ من وَهْمي ومن نَفَسِي
فَمَنْ رسولي إلى قلبي ليسألهمْ | عن مشكلٍ من سؤالِ الصَّبِّ ملتبس
حلّوا فؤادي فما يَنْدَى، ولو وطئوا | صخرًا لجاد بماء منه منبجس
وفي الحشا نزلوا والوهمُ يَجْرَحُهمْ | فكيف قَرُّوا على أذكى من القَبَسِ

---

(١) البيتان ليسا في المغرب، وقد وردا في أزهار الرياض (جـ ٣ ص ١٠٣).
(٢) أبيات أبي الفضل بن شرف في التكملة (ص ٨٧٠).
(٣) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء اللّه الصنهاجي الأندلسي المريّ، المعروف بابن العريف. كان من كبار الصالحين والأولياء، واختار طريقة الزهد والتصوف. من مؤلفاته كتاب «محاسن المجالس» وهو مطبوع. توفي سنة ٥٣٦ هـ بمراكش. وفيات الأعيان (جـ ١ ص ١٦٨) وبغية الملتمس (ص ١٦٦) والمعجم في أصحاب القاضي الصدفي (ص ٢٧) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٧٣) والمغرب (جـ ٢ ص ٢١١) والمطرب (ص ٩٠) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٤٩) والصلة (ص ١٣٦). والأبيات في المعجم والمغرب والمطرب ببعض الاختلاف عمّا هنا.

لأنهضنَّ إلى حشري بحبّهمُ   لا بارك اللّه فيمن خانهمْ ونَسِي

قلت: وقد زرت قبره المعظم بمراكش سنة عشر وألف، وهو مِمَّنْ يُتَبَرَّكُ به في تلك الديار، ويُسْتَسْقى به الغيث، وهو من أهل ألمَرِية، وأحضره السلطان إلى مراكش فمات بها، وله كرامات شهيرة ومقامات كبيرة، نفعنا اللّه تعالى به!.

واعلمْ أنّ أهل الأندلس كانوا في القديم على مذهب الأوزاعي، وأهل الشام منذ أول الفتح، ففي دولة الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ـ وهو ثالث الولاةُ بالأندلس من الأمويين ـ انتقلت الفتوى إلى رأي مالك بن أنس وأهل المدينة، فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة والأندلس جميعًا، بل والمغرب، وذلك برأي الحكم واختياره، واختلفوا في السبب المقتضي لذلك، فذهب الجمهور إلى أنَّ سببه رحلة علماء الأندلس إلى المدينة، فلما رجعوا إلى الأندلس وصَفُوا فضل مالك وسعة علمه، وجلالة قدره، فأعظموه كما قدَّمْنا ذلك، وقيل: إن الإمام مالكًا سأل بعضَ الأندلسيين عن سيرة مَلك الأندلس، فوصف له سيرته، فأعجبت مالكًا لكون سيرة بني العباس في ذلك الوقت لم تكن بمرضية، وكابد لما صنع أبو جعفر المنصور بالعلوية بالمدينة من الحبس والإهانة وغيرهما على ما هو مشهور في كتب التاريخ، فقال الإمام مالك، رضي اللّه تعالى عنه، لذلك المخبر: نسأل اللّه تعالى أن يزين حَرَمَنا بملككم، أو كلامًا هذا معناه، فَنُمِيَتِ المسألةُ إلى ملك الأندلس، مع ما علم من جلالة مالك ودينه، فحمل الناسَ على مذهبه، وترك مذهب الأوزاعي، واللّه تعالى أعلم.

وحكي أنّ القاضي الزاهد أبا إسحٰق إبراهيم بن عبد اللّه بن أبي يغمور لَمَّا ندبه أهل الأمر لولاية القضاء بمدينة فاس استعفى، فلم يُقْبَلْ منه، وخرج إلى تلك الناحية، وخرج الناس لوداعه، فأنشد: [الطويل]

عليكُمْ سلامُ اللّه إنيَ راحلٌ   وعيناايَ مِنْ خوفِ التفرّق تدمعُ
فإن نحن عِشنا فَهْوَ يجمعُ بيننا   وإنْ نحنُ مُتْنا فالقيامة تجمعُ

وأنشد أصحابه رحمه اللّه تعالى، ولا أدري هل هي له أو لغيره: [البسيط]

كنّا نعظّم بالآمال قَدْرَكُمُ   حتى انقضتْ فتساوى عندنا الناسُ
لم تَفْضلونا بشيء غيرِ واحدةٍ   هي الرجاء فسوّى بيننا الياسُ

وأنشد أيضًا: [الطويل]

بَلَوتُهُمْ مذ كنتُ طفلاً فلم أجدْ   كما أشتهي منهمْ صديقًا وصاحبا
فصوَّبْتُ رأيي في فراريَ منهمُ   وشمَّرْتُ أذيالي وأمعنْتُ هاربا

وأنشد لغيره في الكتمان: [الكامل]

أَخْفَى الغرامَ فلا جوارحُه   شعرتْ بذاك ولا مفاصلُهُ
كالسيفِ يصحبُهُ الحِمَامُ ولم   يَعْلَمْ بما حَمَلَتْ حمائلُه

وأنشد: [الكامل]

قد كنت أمرضُ في الشبيبة دائمًا   والموتُ ليس يمرُّ لي في البالِ
والآن شِبْتُ وصِحَّتي موجودةٌ   وأرى كأنَّ الموتَ في أذيالي

ولَمَّا أنشده تاج الدين بن حمويه السَّرَخْسي الوافدُ على المغرب من المشرق قول بعضهم: [المتقارب]

فلا تَحْقِرَنَّ عدوًا رماكَ   وإن كان في ساعديه قِصَرْ
فإنَّ السيوفَ تحزُّ الرقابَ   وتعجزُ عمّا تنالُ الإبرْ

قال: حَسَنٌ جيِّدٌ، ولكن اسمع ما قال شاعرنا القَسْطَلّي[1]، وأنشد: [الطويل]

أثِرْني لكشفِ الخَطْبِ والخطبُ مشكلٌ[2]   وكِلْنِي لِلَيثِ الغابِ وَهوَ هَصُورُ
فقد تَخْفِضُ الأسماءُ وَهيَ سَواكِنٌ   ويَعْمَلُ في الفِعْلِ الصريحِ[3] ضمير
وتَنْبُو الرُّدَيْنِيّاتُ، والطولُ وافِرٌ   ويبعدُ[4] وَقْعُ السَّهْمِ وَهوَ قصيرُ

وكان الوزير الكريم أبو محمد عبد الرحمن بن مالك المعافري[5] أحد وزراء الأندلس كثير الصنائع جزل المواهب عظيم المكارم، على سنن عظماء الملوك وأخلاق السادة، لم

---

(١) هو ابن دراج القسطلي، وقد مرَّ التعريف به والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثاني وأبياته في ديوانه (ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤).

(٢) في الديوان: «فقدني لكشف الخطب والخطب مُعْضِلٌ..».

(٣) في الديوان: «الفعل الصحيح».

(٤) في الديوان: «ويَنْفُذُ وَقْعُ..».

(٥) ترجمة أبي محمد عبد الرحمن بن مالك في قلائد العقيان (ص ١٦٩).

يُرَ بعده مثله في رجال الأندلس، ذاكرًا للفقه والحديث، بارعًا في الآداب، شاعرًا مجيدًا، وكاتبًا بليغًا، كثير الخدم والأهل، ومن آثاره الحَمّام بجوفيّ الجامع الأعظم من غَرْنَاطة، وزاد في سقف الجامع من صحنه وعوّضَ أرجل قِسِيِّه أعمدة الرخام، وجلبَ الرؤوسَ والموائدَ من قرطبة، وفرش صحنه بكذان الصخر(١). ووجَّهه أميرُه علي بن يوسف بن تاشفين إلى طُرْطُوشة برسم بنائها، فلمّا حَلّها سأل قاضيها فكتب له جملة من أهلها مِمَّنْ ضعفت حاله وقلَّ تصرّفه من ذوي البيوتات، فاستعملهم أمناءَ، ووسَّع أرزاقهم، حتى كمل له ما أراد من عمله، ومن عجز أن يستعمله وصله من ماله، فصدر عنها وقد أنعش خلقًا، رضي اللّه تعالى عنه ورحمه!.

ومن شعره في مجلس أطربه سماعه، وبسطه احتشاد الأنس فيه واجتماعه، فقال(٢): [الخفيف]

لا تَلُمْني إذا طَرِبْتُ لِشَجْوٍ ... يَبْعَثُ الأُنسَ فالكريمُ طَرُوبُ
ليس شَقُّ الجُيُوبِ حَقًّا علينا ... إنّما الحق أنْ تُشَقَّ القلوبُ

وقطف غلام من غلمانه نوّارة ومَدَّ بها يده إلى أبي نصر الفتح بن عبيد اللّه، فقال أبو نصر(٣): [الطويل]

وبَدْرٍ بَدا والطَّرْفُ مَطْلَعُ حُسْنِهِ ... وفي كَفِّه مِنْ رائقِ النَّورِ كَوكَبُ
يَرُوحُ لتعذيبِ النفوسِ ويَغْتدي ... ويَطْلُعُ في أُفْقِ الجمال ويَغْرُبُ

فقال أبو محمد بن مالك(٤): [الطويل]

ويَحْسُدُ(٥) منه الغُصْنُ أيَّ مُهَفْهَفٍ ... يجيء على مِثْلِ الكَثِيبِ ويَذْهَبُ

وقد سبق(٦) هذا.

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «بكدان». والكَذَّان: حجارة رخوة. محيط المحيط (كذن).

(٢) البيتان في قلائد العقيان (ص ١٦٩) دون تغيير عمّا هنا وقد تقدّما في الجزء الثاني من نفح الطيب وفيه: «الشأن» بدل «الحقّ».

(٣) أبو نصر هو ابن خاقان. والبيت الأول في قلائد العقيان (ص ١٧٠) دون تغيير عما هنا. وتقدّم كذلك في الجزء الثاني من نفح الطيب. وورد البيت الثاني في القلائد والجزء الثاني من نفح الطيب منسوبًا إلى أبي محمد بن مالك.

(٤) البيت في قلائد العقيان (ص ١٧٠)، وقد تقدم في الجزء الثاني دون تغيير عمّا هنا.

(٥) في القلائد: «ويحسن منه الغصن».

(٦) أي سبق في الجزء الثاني من نفح الطيب كما أشرنا إلى ذلك.

وكتب إلى الفتح من غير تروّ: يا سيدي، جرت الأيام بفراقك، وكان اللّه جارك في انطلاقك[1]، فغيرك مَنْ[2] روّع بالظّعَن، وأوقد للوداع جاحم الشَّجَن، فإنك من أبناء هذا الزمن، خليفة الخضر لا يستقرّ على وطن، كأنك ـ واللّهُ يختار لك ما تأتيه وما تدعه ـ موكل بفضاء الأرض تذرعه[3]، فحسب من نوى بعشرتك الاستمتاع، أنْ يعدّك من العَوَاري السريعة الارتجاع، فلا يأسف على قلّة الثوا[4] وينشد: [الطويل]

وفارقْتُ حتى ما أُبالي من النَّوَى [5]

ومات رحمه اللّه تعالى بغرناطة سنة ٥١٨، وحضر جنازته الخاصّة والعامّة، وهو من محاسن الأندلس، رحمه اللّه تعالى!.

ومن نوادر الاتفاق أن جارية مَشَتْ بين يدي المعتمد[6]، وعليها قميص لا تكاد تفرق بينه وبين جسمها، وذوائبُها تخفي آثار مشيها، فسكب عليها ماء ورد كان بين يديه، وقال: [الكامل]

عُلِّقْتُ جائلة الوِشاح غريرة[7]   تختال بين أسنّةٍ وبواترِ

وقال لبعض الخدم: سِرْ إلى أبي الوليد البَطَلْيَوسي المشهور بالنحلي، وخذْه بإجازة هذا البيت، ولا تفارقه حتى يفرغ منه، فأجاب النحلي لأول وقوع الرقعة بين يديه: [الكامل]

راقتْ محاسنُها ورقَّ أديمُهَا   فتكادُ تبصرُ باطنًا من ظاهرِ
وتمايلتْ كالغصنِ في دِعْصِ النَّقَا   تَلْتَفُّ في وَرَقِ الشباب الناضر
يَنْدَى بماء الورد مُسْبَلُ شَعْرِها   كالطَّلِّ يسقطُ من جناح الطائر

---

(١) هذا من قول البحتري وهو بحلب، قاله لأبي جعفر بن سهل المروزي ولم يودعه [مخلع البسيط]:
اللّه جارُك في انطلاقكْ   تلقاء شامِكَ أو عراقِكْ
ديوان البحتري(جـ ٢ ص ١٢).

(٢) هكذا في قلائد العقيان، وفي طبعة دار صادر: «فغيرك روّع» بدون كلمة «من».

(٣) قوله: «موكل بفضاء الأرض تذرعه» عجز بيت لابن زريق البغدادي، وصدره هو: [البسيط]
كأنما هو في حلّ ومرتحلِ

(٤) الثوا: أصل القول: الثواء بالهمز، وقد حذف الهمزة للضرورة الشعرية. والثواء: الإقامة. لسان العرب (ثوا).

(٥) هكذا ورد هذا الشطر في قلائد العقيان (ص ١٧٠).

(٦) هو المعتمد بن عباد، ملك إشبيلية، ووردت هذه القصة في بدائع البدائه (جـ ١ ص ١٠٦).

(٧) في طبعة ليدن: «عزيزة».

تُزْهَى برونقها وعزّ جمالها زَهْوَ المؤيّد بالثناء العاطر
ملكٌ تضاءلتِ الملوكُ لقدره وعَنَا له صرفُ الزمانِ الجائرِ
وإذا لَمَحْتَ جبينَه ويمينَه أَبْصَرْتَ بَدْرًا فوق بحرٍ زاخر

فلما قرأها المعتمد استحضره، وقال له: أحسنت، أَوَمَعَنَا كنت؟ فقال له: يا قاتِلَ المَحْل، أَمَا تَلَوتَ ﴿وأوحى ربُّك إلى النَّحْلِ﴾[1]؟.

وأصبح المعتمد يومًا ثَمِلاً فدخل الحَمّام، وأمر أن يدخل النحليُّ معه، فجاء وقعد في مسيح[2] الحمام حتى يستأذن عليه، فجعل المعتمد يحبق في الحمام وهو خالٍ وقد بقيت في رأسه بقيّة من السكر، وجعل كلّما سمع دويَّ ذلك الصوت يقول: الجوز، اللوز، القسطل، ومرَّ على هذا ساعة، إلى أن تذكّر النحلي، فصادفه[3]، فلمّا دخل قال له: من أيِّ وقت أنت هنا؟ قال: من أول ما رتّب مولانا الفواكه في النصبة، فغشي عليه من الضحك، وأمر له بإحسان. والنصبة: مائدة يصبون فيها هذه الأصناف.

ولَمّا استحسن المعتمدُ قولَ المتنبي[4]: [الطويل]

إذا ظفرتْ منك المَطِيُّ بنظرةٍ أثابَ بها مُعْيِي المَطِيِّ ورَازِمُهْ

قال ابن وهبون بديهة[5]: [الطويل]

لَئِنْ جَادَ شِعْرُ ابنِ الحُسَين فإنما تُجِيدُ العَطَايا، واللُّهَا تَفْتَحُ اللَّهَا
تَنَبَّأَ عُجْبًا بالقريض ولو دَرَى بأنك تَرْوِي شِعْرَهُ لَتَأَلَّهَا

وقد تقدّم ذكرهما، فأمر له بمائتي دينار.

ولَمّا قال ابن وهبون المذكور: [البسيط]

---

(١) سورة النحل ١٦، الآية: ٦٨.
(٢) في طبعة عبد الحميد: «مسلخ».
(٣) في طبعة ليدن: «فصادمه».
(٤) البيت لم يرد في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، وقد تقدم في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ١٧٠).
(٥) في طبعة دار صادر: «قال ابن وهبون بديهة: وقالوا أجاد ابن الحسين.. الخ البيتين، وقد تقدّم ذكرهما..». وهذان البيتان تقدّما في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ١٧٠ـ ١٧١) دون تغيير عمّا هنا.

غاضَ الوفاءُ فما تلقاه في رَجُلٍ ولا يمرُّ لمخلوقٍ على بالِ
قد صار عِندَهُمُ عنقاءَ مُغْرِبَةً أو مثلَ ما حدّثوا عن ألفِ مثقالِ

فقال[1] له المعتمد: عنقاء مغربة وألف مثقال يا عبد الجليل عندك سواء؟ فقال: نعم، قال: قد أمرنا لك بألف دينار وبألف دينار أخرى تنفقها.

وذكر القرطبي صاحب «التذكرة» في كتابه «قمع الحرص بالزهد والقناعة» ما صورتُهُ: روينا أن الإمام أبا عمر بن عبد البر، رضي اللّٰه تعالى عنه، بلغه وهو بشاطبة أنَّ أقوامًا عابوه بأكل طعام السلطان وقبول جوائزه، فقال: [مجزوء الرمل]

قُلْ لمن ينكرُ أكلي لطعامِ الأُمَراءِ
أنت مِنْ جَهْلِكَ هذا في محلِّ السُّفهاءِ

لأنَّ الاقتداء بالصالحين، من الصحابة والتابعين، وأئمّة الفتوى من المسلمين، من السلف الماضين، هو مِلاَكُ الدين، فقد كان زيد بن ثابت ـ وكان من الراسخين في العلم ـ يقبل جوائز معاوية وابنه يزيد، وكان ابن عمر، رضي اللّٰه تعالى عنهما ـ مع ورعه وفضلِه ـ يقبل هدايا صهره المختار بن أبي عبيد، ويأكل طعامه، ويقبل جوائزه، وقال عبد اللّٰه بن مسعود ـ وكان قد مُلىء علمًا ـ لرجل سأله، فقال: إنَّ لي جارًا يعمل بالربا، ولا يجتنب في مكسبه الحرام، يدعوني إلى طعامه، أَفَأُجِيبُه؟ قال: نعم، لك المهنأ وعليه المأثم، ما لم تعلم الشيء بعينه حرامًا، وقال عثمان بن عفان رضي اللّٰه تعالى عنه ـ حين سُئل عن جوائز السلاطين ـ: لحم ظبي ذكي، وكان الشعبي ـ وهو من كبار التابعين وعلمائهم ـ يؤدّب بني عبد الملك بن مروان، ويقبل جوائزه ويأكل طعامه، وكان إبراهيم النخعي وسائر علماء الكوفة والحسن البصري ـ مع زهده وورعه ـ وسائر علماء البصرة وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبانُ بن عثمان والفقهاء السبعة بالمدينة ـ حاشا سعيد بن المسيّب ـ يقبلون جوائز السلطان، وكان ابن شهاب يقبلها، ويتقلّب في جوائزهم، وكانت أكثر كسبه، وكذلك أبو الزناد، وكان مالك وأبو يوسف والشافعي وغيرهم من فقهاء الحجاز والعراق يقبلون جوائز السلاطين والأمراء، وكان سفيان الثوري ـ مع ورعه وفضله ـ يقول: جوائز السلطان أحبُّ إليَّ من صلة الإخوان؛ لأنَّ الإخوان يَمُنّون والسلطان لا يمنُّ، ومثل هذا عن العلماء والفضلاء كثير، وقد جمع الناس فيه أبوابًا، ولأحمد بن خالد فقيه الأندلس وعالمها في

(١) في طبعة دار صادر: «قال».

ذلك كتاب حمله على وضعه وجمعه طَعْنُ أهل بلده عليه في قبوله جوائز عبد الرحمن الناصر، إذ نقله إلى المدينة بقُرْطبة، وأسكنه دارًا من دور الجامع قربه، وأجرى عليه الرزق من الطعام والإدام والناضّ[1]، وله ولمثله في بيت المال حظّ، والمسؤول عن التخليط فيه هو السلطان، كما قال عبد اللّه بن مسعود «لك المهنأ وعليه المأثم، ما لم تعلم الشيء بعينه حرامًا»، ومعنى قول ابن مسعود هذا قد أجمع العلماء عليه، فمن علم الشيء بعينه حرامًا مأخوذًا من غير حلّه كالجريمة[2] وغيرها وشبهها من الطعام أو الدابة وما كان مثل ذلك كلّه من الأشياء المتعيّنة غصبًا أو سرقة أو مأخوذة بظلم بَيِّن لا شبهة فيه فهذا الذي لم يختلف أحد في تحريمه، وسقوط عدالة آكله، وأخذِه وتملّكه، وما أعلم من علماء التابعين أحدًا تورَّعَ عن جوائز السلطان، إلاّ سعيد بن المسيّب بالمدينة، ومحمد بن سيرين بالبصرة، وهما قد ذهبا مثلاً في التورّع، وسلك سبيلهما في ذلك أحمد بن حنبل وأهل الزهد والورع والتقشّف، رحمة اللّه تعالى عليهم أجمعين! والزهد في الدنيا من أفضل الفضائل، ولا يحلُّ لمن وفّقه اللّه تعالى وزهدَ فيها أن يحرّم ما أباح اللّه تعالى منها، والعجب من أهل زماننا يعيبون الشبهات، وهم يستحلّون المحرّمات، ومثالهم عندي كالذين سألوا عبد اللّه بن عمر، رضي اللّه تعالى عنهما، عن المحرِم يقتل القُرَاد والحلمة، فقال للسائلين له: من أنتم؟ فقالوا: من أهل الكوفة، فقال: تسألونني عن هذا وأنتم قتلتم الحسين بن علي، رضي اللّه تعالى عنهما؟ وروى ابن عمر عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ما أتاك من غير مسألة فكلْه وتموّلْه»، وروي هذا الحديث أيضًا عن عبد اللّه بن عمر، رضي اللّه تعالى عنهما «ما أتاك من غير مسألة فكلْه وتموَّلْهُ»، وروى أبو سعيد الخدري وجابر بن عبد اللّه عن النبيّ ﷺ معناه، وفي حديث أحدهما «إنما هو رزق رزقَكَه اللّه تعالى»، وفي لفظ بعض الرواة «ولا تردَّ على اللّه رزقه» وهذا كله مركب[3] مبني على ما أجمعوا عليه، وهو الحقّ، فمن عرف الشيء المحرّم بعينه فإنه لا يحلُّ له، المسألة[4] من كلام ابن عبد البرّ، انتهى.

وحضر ابن مجبر مع عدوّ له جاحد لمعروفه، وأمامهما زجاجة سوداء فيها خمر،

---

(١) الإدام: هو ما يجعل مع الخبز فيطيّبه فيلتذُّ به الآكل. الناضُّ: الدرهم والدينار. محيط المحيط (أدم) و (نضض).

(٢) في طبعة ليدن: «كالحريمة» بالحاء المهملة.

(٣) كلمة «مركب» ساقطة من طبعة بولاق.

(٤) في طبعة دار صادر: «فهذه المسألة..».

فقال له الحسود: إن كنت شاعرًا فقلْ في هذه، فقال ارتجالاً:

سأشكو إلى الندمان - إلى آخر الحكاية

وقد تقدّمت في رسالة الشقندي[1] رحمه الله تعالى.

وابن مجبر[2] هو أبو بكر يحيىٰ بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر الفهري، كان في وقته شاعر المغرب، ويشهد له بقوّة عارضته وسلامة طبعه قصائدُه التي صارت مثالاً، وبعدت على قربها مَنَالاً، وشعره كثير يشتمل على أكثر من تسعة آلاف وأربعمائة بيت، واتّصل بالأمير أبي عبد الله بن سعد بن مردنيش، وله فيه أمداح، وأنشد يوسف بن عبد المؤمن يهنيه بفتح: [الخفيف]

إنَّ خيرَ الفتوحِ ما جاء عَفْوًا   مثل ما يخطبُ الخطيبُ ارتجالا

وكان أبو العباس الجراوي حاضرًا، فقطع عليه لحسادةٍ وجدها، وقال: يا سيدنا، اهتدم بيت وضاح: [الرجز]

خيرُ شرابٍ ما كان عفوًا   كأنه خطبةٌ ارتجالا[3]

فبدر المنصور، وهو حينئذ وزير أبيه وسنُّه قريب العشرين، وقال: إن كان اهتدمه فقد استحقّه لنقله إيّاه من معنى خسيس إلى معنى شريف، فَسُرَّ أبوه بجوابه، وعجب الحاضرون.

ومَرَّ المنصور أيام إمرته بأونبة من أرض شِلْبَ، فوقف على قبر الحافظ أبي محمد بن حَزْم، وقال: عجبًا لهذا الموضع، يخرج منه مثل هذا العالم، ثم قال: كلُّ العلماء عيال على ابن حزم، ثم رفع رأسه وقال: كما أنّ الشعراء عيال عليك يا أبا بكر، يخاطب ابن مجبر.

ومن شعر ابن مجبر يصف خيل المنصور من قصيدة في مدحه: [الطويل]

له حَلْبَةُ الخَيْلِ العِتاقِ كأنها   نَشَاوى تَهاوَتْ[4] تَطْلُبُ العَزْفَ والقَصْفَا

عرائسُ أَغْنَتْها الحجولُ عن الحِلَى   فلم تَبْغِ خلخالاً ولا التمستْ وقفا

---

(١) تقدم ذلك في هذا الجزء (ص ١٨٢).

(٢) مرّ التعريف بابن مجبر والإشارة إلى مصادر ترجمته في هذا الجزء (ص ١٨٢).

(٣) في طبعة دار صادر: «ارتجالِ»، وهكذا يكون البيت منكسر الوزن.

(٤) في طبعة بولاق: «تهادت».

فَمِنْ يَقَقٍ[1] كالطِّرْسِ تحسبُ أنه وإنْ جرّدوه في مُلاَءته الْتَفَّا
وأبلقَ أعطى الليلَ نِصْفَ إهابه وغارَ عليه الصبحُ فاحتبس النصفا
ووَرْدٍ تَغَشَّى جِلْدَهُ شَفَقُ الدُّجَى فإذ حازه دَلَّى له الذيلَ والعرفا
وأشقرَ مَجَّ الراحَ صِرْفًا أديمه وأصفرَ لم يمسحْ بها جلده صرفا
وأشهبَ فِضِّيِّ الأديم مُدَنَّرٍ عليه خطوطٌ غيرُ مفهمةٍ حرفا
كما خَطَّطَ[2] الزاهي بِمُهْرَقٍ كاتبٍ فجرَّ عليه ذيله وهو ما جَفَّا
تهبُّ على الأعداء منها عواصفٌ ستنسفُ أرضَ المشركين بها نسفا
ترى كلَّ طِرْفٍ[3] كالغزال فتمتري أظَبْيًا ترى تحت العجاجة أم طِرْفَا
وقد كان في البيداء يألفُ سِرْبَه فربَّتْه مهرًا وهي تحسبُهُ خِشْفَا
تناوله لفظُ الجوادِ لأنه على[4] ما أردْتَ الجريَ أعطاكه ضعفا

ولَـمَّا اتّخذ المنصورُ مقصورةَ الجامع بمراكش بدار ملكها، وكانت مدبرة على انتصابها إذا استقرّ المنصور ووزراؤه بمُصَلاّه، واختفائها إذا انفصلوا عنها، أنشد في ذلك الشعراءُ فقال ابنُ مجبر من قصيدة أولها: [الكامل]

أَعَلَمْتني أُلقِي عصا التسيارِ في بلدةٍ ليست بدارِ قرارِ

إلى أن قال: [5]

طَورًا تكون بمن حَوَتْه محيطَةً فكأنها سورٌ مِنَ الأسوارِ
وتكونُ حينًا عنهمُ محجوبَةً فكأنها سِرٌّ مِنَ الأسرارِ
وكأنها علمتْ مقاديرَ الوَرَى فتصرَّفَتْ لهمُ على مقدارِ
فإذا أحَسَّتْ بالإمام يزورُها في قَومِهِ قامتْ إلى الزُّوَّارِ
يبدو فتبدو ثم تخفى بَعْدَهُ كتكوُّنِ الهالاتِ للأقمار

ومِمَّنْ روى عنه أبو علي الشلوبين وطبقته، وتوفّي بمراكش سنة ٥٨٨، وعمره ٥٣ سنة، رحمه الله تعالى!

---

(١) اليقق: الشديد البياض. الطِّرْسُ: الصحيفة. لسان العرب (يقق) و (طرس).
(٢) في طبعة عبد الحميد: «خطر».
(٣) الطِّرْفُ: الكريم من الخيل. لسان العرب (طرف).
(٤) في طبعة دار صادر: «إذا ما أردت..».
(٥) هذه الأبيات الخمسة في الحلل الموشية (ص ١٠٩) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

وقد حكى الشريفُ الغَرْنَاطي شارحُ المقصورة هذه الحكاية بأتمّ مِمَّا ذكرناه، فقال عن الكاتب ابن عياش كاتب[1] المنصور الموحدي، قال[2]: كانت لأبي بكر بن مجبر وِفادةٌ على المنصور في كل سنة، فصادف في إحدى وفاداته فراغُه من إحداث المقصورة التي كان أحدثها بجامعه المتّصل بقصره في حضرة مراكش، وكانت قد وُضِعَتْ على حركات هندسية تُرْفَعُ بها لخروجه وتخفض لدخوله، وكان جميعُ من بباب المنصور يومئذ من الشعراء والأدباء قد نظموا أشعارًا أنشدوه إياها في ذلك، فلم يزيدوا على شكره، وتَجْزِيته الخيرَ فيما جَدَّد من معالم الدين وآثاره، ولم يكن فيهم مَنْ تَصَدَّى لوصف الحال، حتى قام أبو بكر بن مجبر فأنشد قصيدتَه التي أولها: «أعلمتني أُلْقي عصا التسيار» واستمرّ فيها حتى ألَمَّ بذكر المقصورة فقال يصفها «طورًا تكون ـ الخ» فطرب المنصور لسماعها، وارتاح لاختراعها، انتهى.

وقد بطلت حركات هذه المقصورة الآن، وبقيت آثارها حسبما شاهدْته سنة عشر وألف، والله تعالى وارثُ الأرض ومَنْ عليها.

ومن نظم ابن مجبر أيضًا ما كتب به إلى السلطان ملك المغرب ـ رحمه الله تعالى! ـ وقد ولد له ولد[3]، أعني لابن مجبْر: [الرمل]

وُلِـدَ الـعَـبْـدُ الـذي إنـعـامُـكُـمْ ... طِـيْـبَـةٌ أُنـشـيء مـنـهـا جَـسَـدُهْ
وَهْـوَ دون اسْـمٍ لـعـلـمـي أنـه ... لا يُـسَـمِّـي الـعَـبْـدَ إلاَّ سَـيِّـدُهْ

وقـولـه: [الرمل]

مَـلِـكٌ تُـرْويـك مـنـه شِـيـمَـةٌ ... أَنْـسَـتِ الـظـمـآنَ زُرْقَ الـنُّـطَـفِ
جمعتْ من كلِّ مَجْدٍ فحكتْ ... لفظةً قد جُمِّعَتْ من أحرفِ
يعجبُ السامعُ من وصفي لها ... ووراء الـعـجـزِ مـا لـم أصِـفِ
لـو أعـار الـسَّـهْـمَ مـا فـي رأيـه ... مِـنْ سَـدَادٍ وهُـدًى لـم يَـصِـفِ
حـلـمُـه الـراجـحُ مـيـزانُ الـهـدى ... يـزنُ الأشـيـاء وَزْنَ الـمـنـصـف

---

(١) في طبعة دار صادر: «كاتب يعقوب المنصور الموحدي». وجملة «كاتب المنصور الموحدي» ساقطة من طبعة ليدن.

(٢) النص في شرح مقصورة حازم (جـ ١ ص ٧١).

(٣) في طبعة دار صادر: «ابن».

وقال ابن خفاجة[1]: [السريع]

صَحَّ الهَوَى منكَ ولكنني   أَعْجَبُ مِنْ بَينٍ لنا يُقْدَرُ
كأننا في فَلَكٍ دائرٍ   فأنتَ تَخْفَى وأنا أَظْهَرُ

وهما الغاية في معناهما، كما قاله ابن ظافر - رحمه الله تعالى! -.

وقال الأعمى التَّطِيلي[2]: [البسيط]

أما اشتَفَتْ منيَ الأيامُ في وطني   حتى تُضَايِقَ فيما عَزَّ مِنْ وَطَري
فلا قَضَت من سَوَاد العين حاجتَها   حتى تَكُرَّ على ما طلَّ في الشَّعَر

وقال القاضي أبو حفص بن عمر القرطبي[3]: [الوافر]

هُمُ نظروا لواحظها فهاموا   وتشربُ لُبَّ[4] شاربها المُدَامُ
يخافُ الناسُ مُقْلَتَها سواها   أَيَذْعَرُ قَلْبَ حامِلِهِ الحُسَامُ
سَمَا طَرْفي إليها وَهْوَ بَاكٍ   وتحت الشمس ينسكبُ الغَمامُ
وأذكر قَدَّها فأنوحُ وَجْدًا   على الأغصان تنتدبُ الحَمامُ
فأعقب[5] بَيْنُهَا في الصدر غَمًّا   إذا غَرَبَتْ ذُكاءُ أتى الظلامُ

وقال الحاجب عبد الكريم بن مغيث[6]: [السريع]

طارتْ بنا الخيلُ ومن فوقها   شُهْبُ بُزاةٍ لِحَمامِ الْحَمَامْ
كأنما الأيدي قسيٌّ لها   والطيرُ أهدافٌ وهُنَّ السِّهامْ

وقال أخوه أحمد: [السريع]

---

(١) البيتان في ديوان ابن خفاجة (ص ١١٥) دون تغيير عمّا هنا.
(٢) البيتان في ديوان الأعمى التطيلي (ص ٤٩). وقد تقدّما في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ١٨٣) باختلاف يسير عمّا هنا.
(٣) الأبيات في الغصون اليانعة (ص ٩٣). وتقدمت في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ١٨٥) وجاء هناك: «وأعقب» بدل «فأعقب».
(٤) في الغصون اليانعة: «عقل شاربها».
(٥) في الغصون اليانعة: «وأعقب».
(٦) هو أبو حفص عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، استحجبه الحكم الربضي، وكان أبوه عبد الواحد حاجبًا لهشام الرضا والد الحكم. وكان أبو حفص شاعرًا كاتبًا بليغًا. وولي الكتابة للحكم. الحلة السيراء (جـ ١ ص ١٣٥ ـ ١٣٦).

اشْرَبْ على البستان مِنْ كَفِّ مَنْ ... يسقيكَ مِنْ فِيهِ وأحداقِهِ
وانظرْ إلى الأيكة في بُرْدِهِ ... ولاحِظِ البَدْرَ بأطواقِهِ
وقد بَدَا السَّرْوُ على نَهْرِهِ ... كحائضٍ شَمَّرَ عن ساقِهِ

وقال أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله بن أمية البَلَنْسِيُّ: [الطويل]

إذا كان ودِّي وَهْوَ أَنْفَسُ قربةٍ ... يُجَازَى ببغضٍ فالقطيعةُ أحزمُ
ومِنْ أضيعِ الأشياءِ ودٌّ صرفتَهُ ... إلى غير من تحظى لديه وتكرمُ

ومن حكايات أهل الأندلس في خلع العذار والطرب والظرف وغير ذلك كسرعة الارتجال ما حكاه صاحب «بدائع البداهة» قال[1]: أخبرني مَنْ أثق به بما هذا معناه، قال: خرج الوزير أبو بكر بن عمار والوزير أبو الوليد بن زَيْدُون ومعهما الوزير ابن خلدون من إشبيلية إلى منظرة لبني عباد بموضع يقال له الفَنْت[2] تحفُّ بها مُرُوجٌ مشرقة الأنوار، متنسّمة الأنجاد والأغوار، متبسّمة عن ثغور النُّوّار، في زمان ربيع سقتِ الأرضَ السُّحُبُ فيه بوسمِيِّها ووليِّها، وجَلَتْهَا في زاهر ملبسها وباهر حُلِيِّهَا وأردافُ الرُّبا قد تأزّرتْ بالأزُرِ الخضر من نَباتها، وأجيادُ الجداول قد نظم النُّوّار قلائدَه حولَ لبّاتها، ومجامر الزهر تعطر أردية النسائم عند هَبَّاتها، وهناك من البَهَار ما يُزْري على مَدَاهن[3] النُّضَار، ومن النرجس الريان ما يهزأ بنَوَاعس الأجفان، وقد نَوَوا الانفرادَ للهو والطرب، والتنزّه في روضَي النبات والأدب، وبعثوا صاحبًا لهم يسمى خليفة هو قِوَام لذّتهم، ونظامُ مسرّتهم، ليأتيهم بنبيذ يُذْهِبُون الهمَّ بذهبه في لُجَين زجاجه، ويرمونه منه بما يقضي بتحريكه للهَرَب عن القلوب وإزعاجه، وجلسوا لانتظاره، وترقُّب عَوده على آثاره، فلمَّا بصروا به مقبلاً من أوّل الفَجِّ بادروا إلى لقائه، وسارعوا إلى نحوه وتلقائه، واتّفق أنّ فارسًا من الجند ركض فرسَه فصدمه ووطىء عليه فهشم أعظُمَه وأجرى دمه، وكسر قُمْعُل[4] النبيذ الذي كان معه، وفرق من شملهم ما كان الدهر قد جَمعَهُ، ومضى على غُلَوائه راكضًا حتى خفيَ عن العين، خائفًا من متعلّق به يحين بتعلّقه الحَين، وحين وصل الوُزَراء إليه، تأسّفوا عليه، وأفاضوا في ذكر

---

(١) بدائع البداهة (جـ ١ ص ٢١٤ وما بعدها).
(٢) في طبعة عبد الحميد: «لَقَنْت»، وهو خطأ لأن «لقنت» في شرق الأندلس، وهذا في غرب الأندلس تابع لإشبيلية الكائنة في غرب الأندلس. وفي بدائع البداهة: «الغيث».
(٣) في بدائع البداهة: «بمداهن».
(٤) القُمْعُلُ، بوزن «قُنْفُذ»: القدح الضخم. محيط المحيط (قمعل).

الزمان وعدوانه[1]، والخطب وألوانه، ودخوله بطَوَامّ المضرّات، على تمام المسرّات، وتكديره لأوقات المنعمات، بالآفات المؤلمات، فقال ابن زيدون: [الوافر]

أتلهو والحتوفُ بنا مطيفَهْ ... ونأمَنْ والمنونُ لنا مُخِيفَهْ

فقال ابن خلدون: [الوافر]

وفي يومٍ وما أدراك يومٌ ... مضى قِمْعالُنا ومضى خَلِيفَهْ

فقال ابن عمار: [الوافر]

هما فَخّارَتَا راحٍ ورَوحٍ ... تكسَّرتا فأشقافٌ[2] وجِيفَهْ

وذكر ابن بسام ما معناه[3] أن أبا عامر بن شُهَيد حضر ليلة عند الحاجب أبي عامر بن المظفر بن المنصور بن أبي عامر بقرطبة، فقامت تسقيهم وصيفة عجيبة صغيرة الخَلْق[4]، ولم تزل تسهر في خدمتهم إلى أن هَمَّ جند الليل بالانهزام، وأخذ في تقويض خيام الظلام، وكانت تسمى أسيماء، فعجب الحاضرون من مكابدتها السهر طول ليلتها على صغر سنها، فسأله المظفر وصفها، فصنع ارتجالاً[5]: [مخلع البسيط]

أفدي أُسَيماءَ مِنْ نديمِ ... مُلازِمٍ للكؤوسِ راتِبْ
قد عَجِبُوا في السُّهادِ منها ... وَهْيَ لَعَمْري مِنَ العجائبْ
قالوا تَجافَى الرُّقادُ عنها ... فقلتُ لا ترقُدُ الكواكِبْ

وحكى ابن بسام ما معناه أن ابن شُهيد المذكور كان يومًا مع جماعة من الأدباء عند القاضي ابن ذكوان، فجيء بباكورة باقلا، فقال ابن ذكوان: لا ينفرد بها إلاَّ من وصفها، فقال ابن شُهيد: أنا لها، وارتجل[6]: [المنسرح]

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «وعدوائه».
(٢) في بدائع البدائه: «فشقفات».
(٣) الذخيرة (ق ١ ص ٣٠٣ - ٣٠٤) وبدائع البدائه (جـ ٢ ص ٣٢).
(٤) في بدائع البدائه: «وصيفة صغيرة ظريفة الخلق».
(٥) الأبيات في ديوان ابن شهيد الأندلسي (ص ٣٩) والذخيرة (ق ١ ص ٣٠٤) وبدائع البدائه (جـ ٢ ص ٣٢).
(٦) الأبيات في ديوان ابن شهيد (ص ٩٧ - ٩٨) والذخيرة (ق ٤ ص ٤٢) وبدائع البدائه (جـ ٢ ص ٣٣) ببعض الاختلاف عما هنا.

إنَّ لآلِيكَ أَحْدَثَتْ صَلَفَا فاتّخذتْ من زُمُرُّدٍ صَدَفا
تَسْكُنُ ضَرّاتُها البحورَ وذي تَسْكُنُ للحُسْنِ روضةً أنُفَا
هامتْ بِلُحْفِ الجبال فاتّخذتْ من سُنْدُسٍ في جِنانِها لُحُفَا
شَبَّهْتُها بالثغور مِنْ لُطُفِ حَسْبُكَ هذا من بِرٍّ[1] مَنْ لطفا
جاز ابنُ ذكوانَ في مكارمه حدودَ كَعْبٍ[2] وما به وُصِفَا
قَدَّمَ دُرَّ الرياضِ مُنْتَخِبًا منه لأفراسِ مَدْحِهِ عَلَفا
أكْلُ ظريفٍ وطُعْمُ ذي أَدَبٍ والفولُ يَهْواهُ كلُّ مَنْ ظَرُفا
رخَّصَ فيه شيخٌ له قَدَرٌ فكان حسبي من المُنى وكَفى

وقال ابن بسام[3]: إن جماعة من أصحاب ابن شُهيد المذكور قالوا له: يا أبا عامر، إنك لآتٍ بالعجائب، وجاذبٌ بذوائب الغرائب، ولكنك شديدُ الإعجاب بما يأتي منك، هازٌّ لعطفك عند النادر يُتَاح لك، ونحن نُريد منك أن تصف لنا مجلسنا هذا، وكان الذي طلبوه منه زبدة التعنيت؛ لأنَّ المعنى إذا كان جلفًا ثقيلاً على النفس، قبيح الصورة عند الحس، كَلَّت الفكرة عنه وإن كانت ماضية، وأساءت القريحة في وصفه وإن كانت محسنة، وكان في المجلس بابٌ مخلوع معترض على الأرض، ولبد أحمر مبسوط قد صففت[4] خفافهم عند حاشيته، فقال مسرعًا[5]: [مخلع البسيط]

وفِتْيَةٍ كالنجوم حُسْنًا كُلُّهُمُ شاعرٌ نبيلُ
مُتَّقِدُ الجانبينِ ماضٍ كأنه الصارمُ الصَّقيلُ
راموا انصرافي عن المعالي والغَرْبُ من دونها فليل[6]
فاشْتَدَّ في إثْرها مِسَحٌّ[7] كلُّ كثيرٍ له قليلُ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «من رمز». وفي طبعة بولاق: «وحسبك هذا من رفد من لطفا».
(٢) كعب بن مامة الإيادي، المشهور بالكرم والجود.
(٣) الذخيرة (ق ٤ ص ٤٠) وبدائع البداهة (جـ ٢ ص ٣٣) والنص فيهما مختلف بعض الاختلاف عمّا هنا.
(٤) في طبعة ليدن: «رصّت».
(٥) الأبيات في ديوان ابن شهيد (ص ١٢٣ ـ ١٢٤) والذخيرة (ق ٤ ص ٤٠ ـ ٤١) وبدائع البداهة (جـ ٢ ص ٣٣).
(٦) في طبعة عبد الحميد: «والحدّ» بدل «والغرب». وفي طبعة دار صادر وبدائع البداهة: «كليل» بدل «فليل».
(٧) في طبعة عبد الحميد وبدائع البداهة: «فالشدّ في أمرها فسيحٌ». وفي طبعة دار صادر: «فسيحٌ» بدل «مِسَحٌّ».

في مجلس زانه[1] التصابي — وطارَدَتْ وَصْفَه العقولُ
كأنما بابُه أسيرٌ — قد عَرَضَتْ دونه[2] نُصولُ
يُرادُ منه المقالُ قَسْرًا — وَهْوَ على ذاكَ لا يقولُ
ينظرُ من لِبْدِهِ لدينا — بَحْرُ دمٍ تحته يَسيلُ[3]
كأنَّ أخفافَنا عليه — مراكبٌ ما لها دليلُ
ضَلَّتْ فلم تَدْرِ أين تجري — فهي[4] على شطِّه تَقيلُ

فعجب القوم من أمره، ثم خرج من عندهم، فمرَّ على بعض معارفه من الطرائفيين وبين يديه زنبيل ملآن حَرَشَفًا[5]، فجعل يده في لجام بغلته، وقال: لا أتركك أو تصف الحَرْشَف[6] فقد وصفه صاعد فلم يقل شيئًا، فقال له ابن شهيد: ويحك! أعلى مثل هذه الحال؟ قال: نعم، فارتجل[7]: [الرجز]

هل أبصَرَتْ عيناكَ يا خليلي — قنافذًا تُباعُ في زَنْبيلِ
من حَرْشَفٍ[8] مُعْتَمَدٍ جليلِ — ذي إبَرٍ تَنْفُذُ جِلْدَ الفِيلِ
كأنها أنيابُ بِنْتِ[9] الغُولِ — لو نُخِسَتْ في أستِ امرِئٍ ثقيلِ
لَقَفَّزَتْهُ نحو أرضِ النِّيلِ — ليس تُرَى[10] طيَّ حَشا مِنْديلِ
نُقْلُ السخيفِ المائقِ الجَهُولِ — وأكْلُ قَوْمٍ نازِحي العقولِ[11]
أقسمْتُ لا أُطْعِمُها أكِيلي[12] — ولا طَعِمْتُها على شَمُولِ

---

(١) في الذخيرة: «شابه».
(٢) في المصدر نفسه: «وسطه».
(٣) في طبعتي دار صادر وعبد الحميد: «ننظر... تَحْتَه يسيلُ». والتصويب عن الديوان والذخيرة.
(٤) في الطبعتين نفسيهما: «فهل» بدل «فهي». والتصويب عن الديوان والذخيرة.
(٥) في طبعة عبد الحميد: «خرشفًا».
(٦) في الطبعة نفسها: «الخرشف».
(٧) الأبيات في ديوان ابن شهيد (ص ١٣٦ ـ ١٣٧) وفي الذخيرة (ق ٤ ص ٤١ ـ ٤٢) وبدائع البدائه (جـ ٢ ص ٣٤).
(٨) في طبعة عبد الحميد: «خرشف».
(٩) في طبعة ليدن: «نبت».
(١٠) في طبعة عبد الحميد: «يرى».
(١١) في طبعة عبد الحميد: «المائن» بدل «المائق». وفي الديوان: «بارِجي» بدل «نازحي».
(١٢) في الديوان والذخيرة: «أُقْسِمُ لا أطعمتُها..».

وقال في «بدائع البدائه»[(١)]: دخل الوزيرُ أبو العلاء زُهْر ابن الوزير أبي مروان عبد الملك بن زُهْر على الأمير عبد الملك بن رَزِين في مجلس أُنس، وبين يديه ساقٍ يسقي خمرين من كأسه ولحظه، ويبدي دُرَّين من حبابه ولفظه، وقد بدا خَطُّ عِذاره في صحيفة[(٢)] خدِّه، وكمل حسنه باجتماع الضدّ منه مع ضدّه، فكأنه بسحر لحظه أبدى ليلاً في شمس، وجعل يومه في الحسن أحسن من أمس، فسأله ابنُ رزين أن يصنع فيه، فقال بديها: [الطويل]

تضاعف وَجْدي إذ[(٣)] تبدَّى عِذارُهُ ... ونمَّ فخان القلبَ منّي اصطبارُهُ
وقد كان ظنّي أنْ سيمحقُ ليلُهُ ... بدائعَ حسنٍ هام فيها نهارُهُ
فأظهر ضدٌّ ضدَّه فيه إذ وَشَتْ ... بعنبرِهِ في صفحة الخدِّ نارُه

واستزاده، فقال بَديهًا[(٤)]: [الخفيف]

مُحِيَتْ آيةُ النهارِ فأضحى ... بَدْرَ تِمّ وكان شمسَ نهارِ
كان يُغْشِي العيونَ نورًا إلى أن ... شَغَلَ اللَّهُ خَدَّهُ بالعِذارِ

وصنع أيضًا[(٥)]: [المتقارب]

عِذارٌ أَلَمَّ فأبدَى لنا ... بدائعَ كُنّا لها في عَمَى
ولو لم يجنَّ النهارَ الظلا ... مُ لم يَسْتَبِنْ كوكبٌ في السَّمَا

وصنع أيضًا[(٦)]: [الكامل]

تَمَّتْ محاسنُ وجهه وتكاملتْ ... لَمّا استدار به عِذارٌ مُونِقُ
وكذلك البدرُ المنيرُ جمالُهُ ... في أن يكنّفَهُ سماء أزرق

انتهى.

---

(١) بدائع البدائه (جـ ٢ ص ٤٢).
(٢) في طبعة ليدن: «صفحة».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «أن تبدّى».
(٤) قالهما في غلام قائم على رأسه وقد عذر، كما سيأتي في هذا الجزء (ص ٣٨٨) مع بعض الاختلاف في البيت الثاني.
(٥) سيرد هذان البيتان في هذا الجزء (ص ٣٨٨) بدون تغيير عمّا هنا.
(٦) سيرد هذان البيتان في هذا الجزء (ص ٣٣٢) بتغيير يسير عمّا هنا.

وحكى الحميدي[١] وغيره أن عبد الله بن عاصم صاحبَ الشرطة بقرطبة كان أديبًا شاعرًا سريع البديهة، كثير النوادر، وهو من جلساء الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموي ملك الأندلس، وحكوا أنه دخل عليه في يوم ذي غَيم، وبين يديه غلام حسن المحاسن، جميل الزي، ليِّن الأخلاق، فقال الأمير: يا ابن عاصم، ما يصلح في يومنا هذا؟ فقال: عُقار ينقد الدنان[٢]، وتؤنس[٣] الغِزْلاَن، وحديث كقطع الروض قد سقطت فيه مؤونة التحفُّظ، وأُرْخِيَ له عِنانُ التبسُّط، يُديرها هذا الأغيد المليح، فاستضحك الأمير، ثم أمر بمراتب الغناء، وآلات الصهباء، فلمّا دارت الكأس، واستمطر الأمير نوادره، أشار إلى الغلام أن يُلحَّ في سَقْيه، ويؤكّد عليه، فلمّا أكثر رفع رأسه إليه وقال على البديهة: [المنسرح]

يا حَسَنَ الوَجْهِ لا تَكُنْ صَلِفًا ... ما لِحِسانِ الوُجُوه والصَّلَفِ
تُحْسِنُ أنْ تُحْسِنَ القَبيحَ ولا ... تَرثي لِصَبّ مُتَيَّم دَنِفِ

فاستبدع الأمير بديهته، وأمر له ببدرة، ويقال: إنه خيّره بينها وبين الوصيف، فاختارها نفيًا للظِّنّة عنه، انتهى.

قلت: أذكرتني هذه الحكاية ما حكاه علي بن ظافر عن نفسه إذ قال[٤]: كنت عند المولى الملك الأشرف بن العادل بن أيوب سنة ٦٠٣ بالرُّها، وقد وردْتُ إليه في رسالة، فجعلني بين سمعه وبصره، وأنزلني في بعض دوره بالقلعة بحيث يقرب عليه حضوري في وقت طلبتي أو إرادة الحديث معي، فلم أشعر في بعض الليالي وأنا نائم في فراشي إلاَّ به، وهو قائم على رأسي، والسكر قد غلب عليه، والشمع[٥] تزهر حَوَاليه، وقد حفَّ مماليكه به، وكأنهم الأقمار الزواهر، في ملابس كالرياض ذات الأزاهر، فقمت مُرَوَّعًا، فأمسكني وبادر بالجلوس إلى جانبي بحيث منعني عن القيام عن الوساد، وأبدى من الجميل ما أبدَلني بالنَّفاق بعد الكساد، ثم قال: غلبني الشوق إليك، ولم أُرِدْ إزعاجك والتثقيل عليك، ثم

---

(١) النص في جذوة المقتبس (ص ٢٦٤) وبغية الملتمس (ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩) وبدائع البدائه (جـ ٢ ص ٨٦).

(٢) في المصادر السابقة وفي طبعة دار صادر: «عُقار تُقَرُّ الذُّبّان».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «ويؤنس».

(٤) بدائع البدائه (جـ ٢ ص ٦١).

(٥) في بدائع البدائه: «والشموع تزهر بين يديه».

استدعى مَنْ كان في مجلسه من خواصّ القوالين، فحضروا وأخذوا من الغناء فيما يملأ المسامع التذاذًا، ويجعل القلوب من الوجد جُذَاذًا، وكان له في ذلك الوقت مملوكان هما نَيِّرا سماء ملكه، وواسطتا دُرّ سِلْكه، وقُطْبا فلك طربه ووَجْده[١]، ورُكْنا بيت سروره ولَهْوه، وكانا يتناوبان في خدمته، فحضر أحدهما في تلك الليلة وغاب الآخر، وكان كثيرًا ما يُدَاعبني في أمرهما، ويستجلب مني القول فيهما والكلام في التفضيل بينهما، فقلت للوقت: [الكامل]

يا مالكًا لم يحكِ سِيرَتَهُ ... ماضٍ ولا آتٍ من البشرِ
اجْمَعْ لنا تفديك أنفُسُنَا ... في الليلِ بين الشمس والقمرِ

فطرب، وأمر في الحال بإحضار[٢] الغائب منهما، فحضر والنومُ قد زاد أجفانه تفتيرًا، ومعاطفه تكسيرًا، فقلت بين يديه بديهة[٣] في وصف المجلس: [الوافر]

سقى الرحمنُ عَصْرًا قد مضى لي ... بأكنافِ الرُّهَا صَوْبَ الغمامِ
وليلاً باتتِ الأنوارُ فيه ... تَعاوَنُ في مدافعةِ الظلامِ
فنورٌ من شموعٍ أو ندامى ... ونورٌ من سُقاةٍ أو مُدامِ
يطوفُ بأنجمِ الكاساتِ فيه ... سُقَاةٌ مثلُ أقمارِ التمامِ
تريك به الكؤوسُ جمودَ ماء ... فتحسبُ راحها ذَوبَ الضِّرامِ
يُميلُ به غصونَنا من قدودٍ ... غناءٌ مثلُ أصواتِ الحَمامِ
فكم مِنْ مَوْصِلِيّ[٤] فيه يَشْدُو ... فَيُنْسي النفسَ عاديةَ الحِمامِ
وكم من زُلْزُلٍ للضرب فيه ... وكم للزَّمْرِ فيه من زُنَامِ
لدى موسى بن أيوبَ المرجَّى ... إذا ما ضَنَّ غَيثٌ بانسجامِ
ومَنْ كمظفَّر الدين المليكِ الْـ ... ـأَجَلِّ الأشرفِ النَّدْبِ[٥] الهمامِ
فما شمسٌ تُقاسُ إلى نجومٍ ... تُحاكي قَدْرَهُ بين الكرامِ

---

(١) في المصدر نفسه: «وزهوه».
(٢) في طبعة دار صادر: «باستدعاء الغائب..».
(٣) في الطبعة نفسها: «بديهًا في وصف المجلس».
(٤) يريد بالموصلي إسحٰق الموصلي وأباه إبراهيم الموصلي، وهما من أهم المغنِّيَن في عهد هارون الرشيد.
(٥) النَّدْبُ: السريع إلى الفضائل. لسان العرب (ندب).

فدامَ مُخَلَّدًا في الملك يبقى إذا ما ضنَّ دهرٌ بالدوام

فلما أنشدتها قام فوضع فرجية من خاصّ ملابسه كانت عليه على كَتِفَي، ووضع شربوشه بيده على رأس مملوك صغير كان لي، انتهى.

ولابن ظافر هذا بدائع: منها ما حكاه عن نفسه إذ قال[1]: ومن أعجب ما دُهيت به ورُميت، إلاَّ أنَّ اللَّه بفضله نصر، وأعطى الظَّفر، وأعان خاطري الكليل، حتى مضى مَضَاء السيف الصقيل، أنني كنت في خدمة مولانا السلطان الملك العادل بالإسكندرية سنة إحدى وستمائة مع من ضمّته حاشية العسكر المنصور من الكُتَّاب والحواشي والخدام، ودخلت سنة اثنتين وستمائة ونحن بالثغر مقيمون في الخدمة، مرتضعون لأفاويق النعمة، فحضرتُ في جملة مَنْ حضر الهناء، من الفقهاء بالثغر والعلماء، والمشايخ والكبراء، وجماعة الديوان والأمراء، واتّفقَ أن كان اليومُ من أيام الجلوس لإمضاء الأحكام والعرض لطوائف الأجناد، فلم يبق أحد من أهل البلد ولا من أهل المعسكر إلاَّ حضر مهنِّيًا، ومَثَل شاكرًا وداعيًا، فحين غَصَّ المجلس بأهله، وشرق بجمع السلطان وحَفْله، وخرج مولانا السلطان إلى مجلسه، واستقرَّ في دَسْته، أخرج من بركة قَبَائه كتابًا ناوله للصاحب الأجلِّ صفي الدين أبي محمد عبد اللَّه بن علي وزير دولته، وكبير جملته، وهو مفضوض الختام، مفكوك الفِدام، ففتحه فإذا فيه قطعة وردت من المولى الملك المعظَّم كتبها إليه يتشوّقه ويستعطفه لزيارته، ويرقّقه ويستحثّه على عود ركابه إلى بلاد الشام، للمثاغرة[2] بها، وقَمْع عدوِّها، ويعرض بذكر مصر وشدّة حرّها، ووَقْد جمرها، وذلك بعد أن كان وصل إلى خدمته بالثغر ثم رجع إليها، والأبيات: [الكامل]

أَروي رماحَكَ من نحور عِداكا وانهبْ بخيلك مَنْ أطاعَ سواكا
واركبْ خيولاً كالسعالي[3] شُزَّبًا واضرِبْ بسيفك من يشقُّ عَصاكا
واجلبْ مِنَ الأبطالِ كلَّ سَمَيدَعٍ يَفْرِي بعزمِكَ كلَّ من يشناكا[4]

---

(١) بدائع البدائه (جـ ٢ ص ٥٥).

(٢) المثاغرة: المرابطة في الثغور ضدّ العدو. لسان العرب (ثغر).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «كالثعالى».

(٤) السَّمَيْدَعُ: الشجاع. يشناك: أصلها يشنأك، أي يكرهك، وقد حذف الهمزة للضرورة الشعرية. لسان العرب (سمدع) و (شنأ).

واسترعِفِ السُّمْرَ الطوال وروِّها وأسْقِ المنيَّةَ سَيفَكَ السَّفّاكا
وسِرِ الغَداةَ إلى العُدَاة مبادرًا بالضرب في هام العدوّ دِرَاكا[1]
وانكِحْ رماحَكَ للثغور فإنها مُشتاقةٌ أن تبتني بِعُلاكا
فالعِزُّ في نَصْب الخيام على العِدا تُرْدِي الطُّغاة وتدفعُ الملاّكا
والنصرُ مقرونٌ بهمّتك التي قد أصبحتْ فوق السِّماك سماكا
فإذا عَزَمْتَ وَجَدْتَ مَنْ هو طائعٌ وإذا نهضْتَ وَجَدْتَ مَنْ يخشاكا
والنصرُ في الأعداء يومَ كريهةٍ أحلى من الكأس الذي رَوَّاكا
والعجزُ أن تُضحي بمصرٍ راهنًا وتحلَّ في تلك العِراصِ عُراكَا
فأرِحْ حُشَاشَتَكَ الكريمةَ مِنْ لظى مصرٍ لكي نَحْظَى الغداةَ بذاكا
فلقد غدا قلبي عليك بحرقةٍ شغفًا ولا حرّ البلاد هناكا
وانهضْ إلى راجي لقاك مسارعًا فَمُناه من كلّ الأمور لقاكا
وابردْ فؤادَ المستهامِ بنظرةٍ وأعِذ عليه العيشَ مِنْ رؤياكا
واشفِ الغداةَ غليلَ صَبّ هائمٍ أضحى مُناهُ مِنَ الحياة مُناكا
فسعادتي بالعادل الملكِ الذي ملك الملوكَ وقارنَ الأفلاكا
فبقيتَ لي يا مالكي في غبطةٍ وجُعِلْتُ من كلّ الأمورِ فِدَاكا

فلمّا تلا الصاحبُ على الحاضرين محكم آياتها، وجَلاَ منها العروس التي حازت من المحاسن أبعد غاياتها، أخذ الناسُ في الاستحسان لغريب نظامها، وتَنَاسُق التامها، والثناء على الخاطر الذي نظم بديع أبياتها، وأطلع من مشرق فكره آياتها، فقال السلطان: نريد مَنْ يجيبه عنّا بأبيات على قافيتها، فالتفت مسرعًا إليَّ وأنا عن يمينه، وقال: يا مولانا، مملوكك فلان هو فارس هذا الميدان، والمعتاد للتخلّص من مضايق هذا الشان، ثم قطع وصلاً من درج كان بين يديه، وألقاه إليَّ، وعمد إلى دواته فأدارها بين يديَّ، فقال له السلطان: أهكذا على مثل هذا الحال؟ وفي مثل هذا الوقت؟ فقال: نعم، أنا قد جرَّبْتُه فوجدْتُه مُتَّقد الخاطر، حاضر الذهن، سريع إجابة الفكر، فقال السلطان: وعلى كل حال قُمْ إلى هنا لتنكفَّ عنك أبصارُ الناظرين، وتنقطع عنك ضوضاء الحاضرين، وأشار إلى

(١) دِرَاكا: متلاحقًا. لسان العرب (درك).

مكان عن يمين البيت الخشب الذي هو بالجلوس فيه منفرد، فقمتُ وقد فقدتُ رجلي انخذالاً، وذهني اختلالاً، لهيبة المجلس في صَدْري، وكثرة من حضره من المترقّبين لي، المنتظرين حلول فاقرة[1] الشماتة بي، فما هو إلاَّ أن جلست حتى ثاب[2] إليَّ خاطري، وانثال الكلامُ على سرائري[3]، فكنت أتوهم أنَّ فكري كالبازي الصَّيود لا يرى كلمة إلاَّ أنشب فيها مَنْسِرَه، ولا معنى إلاَّ شكَّ فيه ظُفُرَهُ، فقلت في أسرع وقت: [الكامل]

وَصَلَتْ من الملك المعظَّم تحفةٌ ... مـلأتْ بـفـاخـرِ دُرِّهـا الأسـلاكـا
أبـيـاتُ شـعـرٍ كـالـنـجـومِ جـلالـةً ... فـلـذا حَـكَـتْ أوراقُـهـا الأفـلاكـا
عجبًا وقد جاءتْ كمثلِ الروض إذ ... لـم تُـذْوِهـا بـالـحـرِّ نـارُ ذَكَـاكَـا
جَلَتِ الهمومَ عن الفؤادِ كمثلِ ما ... تـجـلـو بـغُـرَّةِ وجـهـك الأحـلاكـا
كقميصِ يوسفَ إذ شَفَتْ يعقوبَ رَيْـ ... ـيَـاهُ شَـفَـتْـنـي مِـثْـلَـهُ ريّـاكـا
قد أعجزتْ شعراءَ هذا العصر كُلْـ ... ـلَـهُـمْ فَـلِـمْ لا تُـعـجـزُ الأمـلاكـا
ما كان هذا الفضلُ يمكن مثله ... أنْ يـحـتـويـه مـن الأنـام سـواكـا
لِمْ لا أغيبُ عن الشآمِ وهل له ... مـن حـاجـةٍ عـنـدي وأنـت هُـنـاكـا
أم كيف أخشى والبلادُ جميعُها ... مَـحْـمِـيَّـةٌ فـي جـاهِ طَـعْـنِ قَـنَـاكَـا
يكفي الأعادي حَرُّ بأسِكَ فيهمُ ... أضـعـاف مـا يـكـفـي الـولـيَّ نَـداكـا
ما زرتُ مصرَ لغير ضبطِ ثغورها ... فـلـذا صـبـرتُ فُـدِيـتَ عـن رؤيـاكـا
أمُّ الـبـلاد عَـلاَ عـلـيـهـا قـدرُهـا ... لا سـيـمـا مـذ شُـرِّفَـتْ بـخُـطَـاكـا
طابت وحُقَّ لها ولِمْ لا وهي قد ... حَـوَتِ الـمـعلَّى فـي القداحِ أخاكا
أنا كالسحاب أزورُ أرضًا ساقيًا ... حِـيـنًـا وأمـنـح غـيـرَهـا سُـقـيـاكـا
مَـكْـثـي جـهـادُ لـلـعـدُوِّ لأنـنـي ... أغـزوه بـالـرأي الـسـديـدِ دِرَاكَـا
لـولا الـربـاطُ وغـيـرُهُ لَـقَـصَـدْتُ بـالـ ... ـسَّـيْـر الـحـثيـثِ إلـيك نَـيْـلَ رِضـاكـا
ولـئـن أتـيـتُ إلـى الـشـآم فـإنـمـا ... يـحـتـثُّـنـي شـوقٌ إلـى لُـقـيـاكـا
إنـي لأمـنـحـك الـمـحـبـةَ جـاهـدًا ... وهـوايَ فـيـمـا تـشـتـهـيـهِ هـواكـا

---

(١) الفاقرة: الداهية التي تكسر فقار الظهر. لسان العرب (فقر).

(٢) ثابَ: رَجَع. لسان العرب (ثوب).

(٣) في البدائع: «وانثال الشعر على ضمائري».

فافخر فقد أصبحتَ بي وبأسك الـ ـحامي وكلُّ مُمَلَّكٍ يخشاكا
لا زِلْتَ تقهرُ مَنْ يعادي ملكنا أبدًا، ومَنْ عاداك كان فداكا
وأعيشُ أُبْصِرُ إينك[1] الباقي أبَا وتعيشُ تخدمُ في السعود أباكا

ثم عدت إلى مكاني وقد بيّضتها، وحليت بزهرها ساحة القرطاس وروّضتها، فلمّا رآني السلطانُ قد عدتُ قال لي: هل[2] عملت شيئًا؟ ظَنًّا منه أنّ العمل في تلك اللمحة القريبة معجز متعذّر، وبلوغ الغرض فيها غير متصوّر، فقلت: قد أجبت، فقال: أنشدنا[3]، فصمتَ الناسُ، وحدّقت الأبصار، وأصاخت الأسماع، وظنّ الناسُ بي الظنون، وترقّبوا مني ما يكون، فما هو إلاّ أن توالى الإنشاد لأبياتها حتى صفقت الأيدي إعجابًا، وتغامزت الأعين استغرابًا، وحين انتهيت إلى ذكر مولانا الملك الكامل، بأنه المُعَلَّى في البنين إذا ضربت قِدَاحهم[4]، وسُردت أمداحهم، اغرورقت عيناه دمعًا لذكره، وأبان صمته مخفي المحبّة حتى أعلن بسرّه، وحين انتهيت إلى آخرها فاض دمعه، ولم يمكنه دفعه، فمدّ يَدَه مستدعيًا للورقة، فناولتها إلى يد الصاحب، فناولها له، وعند حصولها في يده قام من غير إشعار لأحد بما دار من إرادة القيام في خَلَده، سترًا لما ظهر عليه من الرقة على الموالي الأولاد، وكتمًا لما عليه من الوجد بهم والمحبّة لهم، وانفضّ المجلس.

وإنما حمل الصاحب على هذا الفعل الذي غرّر بي فيه وخاطر بي بالتعريض له أشياء كان يقترحها عليّ فأنفذ فيها من بين يديه، ويخف الأمر منها عليّ لدالّتي عليه، منها أنني كنت في خدمته سنة ٥٩٩ بدمشق، فورد عليه كتاب من الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين صاحب حَمَاة، وقد بعث صحبته نسخة من ديوان شعره فتشاغل بتسويد جواب كتابه، فلمّا كتب بعضه التفت إليّ وقال: إِصْنَعْ أبياتًا أكتبها إليه في صَدْر الجواب، وأذكرْ فيها شعره، فقلت له: على مثل هذه الحال؟ فقال: نعم، فقلت بقدر ما أنجز بقية النسخة: [الطويل]

أيا ملكًا قد أوسَعَ الناسَ نائلاً وأغرقهمْ بَذْلاً وعَمَّهُمُ عَدْلاً

---

(١) أصل القول: «أبنك» بهمزة وصل لأنه من الأسماء العشرة، وقد قطع همزة الوصل لئلا ينكسر الوزن.
(٢) كلمة «هل» ساقطة من طبعة ليدن.
(٣) في طبعة ليدن: «أنشِدْ».
(٤) في الطبعة نفسها: «أقداحهم».

فديناك هَبْ للناس فضلاً يزينهمْ فقد حزتَ دون الناسِ كلَّهمُ الفضلا
ودونك فامنحهم من العلم والحِجَا كما مَنَحَتْهُمْ كَفُّكَ الجُودَ والبَذْلا
إذا حُزْتَ أوفى الفضلِ عفوًا فما الذي تركت لمن كان القريض له شغلا
وماذا عسى مَنْ ظلَّ بالشعرِ قاصدًا لِبَابِكَ أن يأتي به جَلَّ أو قَلاً
فلا زلتَ في عِزّ يدومُ ورفعةٍ تحوزُ ثناءً يملأُ الوعرَ والسَّهْلا

ووقع لابن ظافر أيضًا من هذا النمط[١] أنه دخل في أصحاب له يَعودون صاحبًا لهم، وبين يديه بركة قد راق ماؤها، وصَحَتْ سماؤها، وقد رُصَّ تحت دساتيرها نارنج فتن قلوب الحُضَّار، وملأ بالمحاسن عيون النُّظَّار، فكأنما رُفعت صوالج فِضّة على كُرات من النُّضار، فأشار الحاضرون إلى وصفها، فقال بديهاً: [الكامل]

أبدعْتَ يا ابن هلالَ في فِسْقيّةٍ[٢] جاءت محاسنُها بما لم يُعْهَدِ
عجبًا لأمواهِ[٣] الدساتير التي فاضَتْ على نارنجها المتوقّدِ
فكأنهنَّ صوالجٌ مِنْ فِضّةٍ رُفِعَتْ لضربِ كُرات خالص عسجد

ومن بديع الارتجال ما حكاه المذكور عن ابن قَلاَقس الإسكندري رحمه اللّه تعالى إذ قال[٤]: دخل الأعز أبو الفتوح بن قلاقس على بلال بن مدافع بن بلال الفزاري، فعرض عليه سيفًا قد نظم الفِرِنْدُ في صفحته جوهره، وأذكى الدهرُ نارَهُ وجمَّد نهره، وألبسه من سِلْخ الأفاعي رِداءً وجسَّمه رَدًى [أو داءً][٥]، لا يمنع من برقه بدر مجنّ ولا ثريّا مغفر، ولا يسلم من حدّه من ثبت ولا ينجو لطوله من فرّ، فهو يبكي للنفاق ويضحك، ويُرْعِدُ للغيظ ويفتك، وأمره بصفة شانه، فقال على لسانه: [الوافر]

أَرُوقُ كما أَرُوعُ فإنْ[٦] تَصِفْنِي فإني رائقُ الصفحات رائعْ
تدافعُ بي خطوبَ الدهرِ حتى نقلت إلى بلالٍ عن مدافعْ

وقال أيضًا فيه: [الخفيف]

---

(١) هذا النص في بدائع البداته (جـ ٢ ص ٥٤).
(٢) الفِسْقِيَّةُ: الحوض. محيط المحيط (فسق).
(٣) الأمواه: جمع ماء.
(٤) بدائع البداته (جـ ٢ ص ٤٧).
(٥) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد.
(٦) في طبعة ليدن: «وإن».

رُبَّ يومٍ له من النَّقْعِ سُحْبٌ ما لها[1] غيرَ سائلِ الدم وَدْقُ
قد جَلَتْهُ يمنى بِلالٍ بحدّي فكأني في راحةِ الشمسِ بَرْقُ

وقال أيضًا فيه: [الكامل]

أنا في الكريهة كالشّهاب الساطعِ مِنْ صفحةٍ تبدو وحَدّ قاطعِ
فكأنما استمليتُ تلك وهذه من وصفِ كفِّ بلالٍ ابن مدافعِ

وقال أيضًا فيه: [الكامل]

انظر لِمُطّرِدِ المياه بصفحتي ولنار حَدّي كم بها من صالي
قد عاد شدّي في المضايق شيمتي كبلالٍ ابن مدافعِ بن بلالِ

وسأله صاحبٌ له وَصْفَ مشط عاج قد أشبه الثريّا شكلاً ولونًا، وشقّ ليلاً من الشَّعر جَونًا، فقال: [الكامل]

ومُتَيَّمٍ بالآبنوسِ وجسْمُهُ عاجٌ ومن أدهانِهِ شُرُفاتُهُ
كتمتْ دَيَاجِي الشَّعر منه بدرها فَوَشَتْ به للعين عَيُّوقَاتُهُ

وقال فيه: [الطويل]

وأبيض ليل الآبنوسِ إذا سَرَى تمزّقَ عن صُبْحٍ من العاج باهرِ
وإنْ غاص في بحر الشعور رأيته تُبَشّرنا أطرافُهُ بالجواهرِ

وقال فيه: [السريع]

ومشرق يشبه ضوء[2] الضحى حُسْنًا ويسري في الدُّجى الفاحم
وكلّما قُلِّبَ في لِمَّةٍ أضحكها عن ثَغْرِه الباسم[3]

وجلس بمصر في دار الأنماط يومًا مع جماعة، فمرَّت بهم أمرأة تُعْرف بابنة أمين الملك، وهي شمس تحت سَحَاب النّقاب، وغصن في أوراق الشباب، فحدّقوا إليها تحديق الرقيب إلى الحبيب، والمريض إلى الطبيب، فجعلت تتلفّت تَلَفُّتَ الظبي المذعور، أفرَقَه[4]

---

(١) في طبعة ليدن: «ما له غير فائر الدم..».
(٢) في طبعة دار صادر: «لون الضحى».
(٣) في الطبعة نفسها: «عن ثَغْرٍ باسم».
(٤) أفرقه: أخافه. القانص: الصيّاد. لسان العرب (فرق) و (قنص).

القانصُ فهرب، وتتثنّى تَثَنِّيَ الغصن الممطور عانقه النسيم فاضطرب، فسألوه العمل في وصفها، فقال: هذا يصلح أن يعكس فيه قول العطار الأزدي القيرواني: [الكامل]

أَعْرَضْنَ لَمَّا أنْ عرضْنَ، فإن يكنْ حــذرًا فـأيــن تَـلَـفُّـتُ الـغِـزْلانِ

ثم صنع: [المتقارب]

لـهـا نـاظـرٌ فـي ذُرَا نـاضـرٍ كـمـا رُكِّـبَ الـسنُّ فـوق الـقـنـاةِ
لـوتْ حـيـنَ وَلَّـتْ لـنـا جـيـدَهـا فـأيّ حـيـاةٍ بَـدَتْ مـن وفـاةِ
كـمـا ذُعِـرَ الـظـبـيُ مـن قـانـصٍ فَـمَـرَّ وكـرَّرَ فـي الإلـتـفـات[1]

ثم صنع أيضًا: [الكامل]

ولـطـيـفـةِ الألـفـاظِ لـكـنْ قَـلْـبُـهـا لـم أشـكُ مـنـه لَـوعَـةً إلاَّ عَـتَـا
كملتْ محاسِنُها فودَّ البدرُ أن يحظى ببعضِ صفاتها أو ينعتَا
قد قلتُ لَمّا أعرضتْ وتعرضتْ يا مؤيسًا يا مُطمِعًا قُلْ لي متى
قـالـتْ أنـا الـظـبـي الـغـريـرُ وإنـمـا وَلّـى وأوجـسَ نَـبْـأَةً[2] فـتـلـفّـتـا

قال علي بن ظافر: وحضر يومًا عندي بني خليف بظاهر الإسكندرية في قصر رسا بناؤه وسما، وكاد يمزّق بمزاحمته أثواب السما، قد ارتدى جلابيبَ السحائب، ولاث عمائم الغمائم، وابتسمت ثنايا شرُفاته، واتسمت بالحسن حَنايا غرفاته، وأشرف على سائر نواحي الدنيا وأقطارها، وحَبَتْه الرياضُ بما ائتمنتها عليه السُّحُبُ من ودائع أمطارها، والرمل بِفِنائه قد نثر تِبْرَهُ[3] في زَبَرْجَد كرومه، والجوّ قد بعث بذخائر الطيب لَطِيمةَ نسيمه، والنخل قد أظهرت جواهرها، ونشرت غدائرها، والطَّلُّ ينثر لؤلؤه في مسارب النسيم ومساحبه، والبحر يرعد غيظًا من عبث الرياح به، فسأله بعضُ الحضور أن يصف ذلك الموضع الذي تَمَّتْ محاسنه، وغُبِط به ساكنُه، فجاشت لذلك لُجَجُ بحره، وألقت إليه جواهره لترصيع لَبَّةِ ذلك القصر ونَحْرِه، فقال: [الوافر]

قَصْرٌ بـمَـدْرَجَـةِ النسيم تَـحَـدَّثَـتْ فـيـه الـريـاضُ بـسرِّهـا الـمـسـتـورِ
خَفَضَ الخورَنَقُ والسَّديرُ سُمُوّه وثنى قصورَ الروم ذاتَ قُصُورِ[4]

---

(١) أصل القول: الالتفات، بهمزة الوصل، وقد قطع همزة الوصل لئلا ينكسر الوزن.

(٢) في طبعة عبد الحميد: «نبوة». والنَّبْأة: الصوت الخفيّ. محيط المحيط (نبأ).

(٣) في طبعة ليدن: «نَثَرَ تِبْرَهُ وزبرجد. .».

(٤) قصور الروم: جمع قصر، وذات قصور: أي ذات تقصير عنه.

لاث الغمامَ عمامةً مِسْكِيَّةً وأقام في أرض من الكافور
غَنَّى الربيعُ به محاسنَ وَصْفِهِ فافترَّ عن نَورٍ يروقُ ونُورِ
فالدَّوْحُ يسحبُ حُلَّةً مِنْ سندسٍ تُزْهَى بلؤلؤ طلِّها المنثور
والنخلُ كالغِيدِ الحِسانِ تَقَرَّطَتْ[1] بسبائكِ المنظومِ والمنثور
والرملُ في حُبُكِ النسيم كأنما أبدى غصونَ سوالفِ المذعور
والبحرُ يرعدُ متنه فكأنه دِرْعٌ تُشَنُّ بِمِعْطَفَيْ مقرور
وكأننا والقصرُ يجمعُ شملنا في الأفقِ بين كواكب وبدور
وكذاك دَهْرُ بني خليفٍ لم يزلْ يثني المعاطفَ في حَبِيرٍ حُبُورِ

ثم قال ابن ظاهر: وأخبرني الفقيه أبو الحسن علي بن الطوسي المعروف بابن السيوري الإسكندري النحوي بما هذا معناه، قال: كنت مع الأعز بن قَلاَقِس في جماعة، فمرَّ بنا أبو الفضائل ابن فتوح المعروف بالمصري، وهو راجع من المكتب، ومعه دواته، وهو في تلك الأيام قُرَّة العين ظرفًا وجمالاً، وراحة القلب قُرْبًا ووصالاً، كلُّ عَينٍ إلى وجهه مُحَدِّقةٌ، ولمشهد خَدَّيهِ بِخَلُوق الخجل مُخَلَّقة، فاقترحْنا عليه أن يتغزّل فيه، فصنع بديهًا: [مجزوء الكامل]

عُلِّقْتُهُ مُتَعَلِّقًا بالخطِّ مُعْتكفًا عليهِ
حملَ الدواةَ ولا دوا ءَ لعاشقٍ يُرْجَى لديهِ
فدماءُ حباتِ القلو بِ تلوحُ صِبْغًا في يديهِ
لم أَدْرِ ما أشكو إليـ ـهِ أَهَجْرَهُ أم مُقْلَتَيهِ
والحبُّ يُخْرِسُني على أنّي أُلَكِّعُ سيبويهِ
ما لي إذا أَبْصَرْتُهُ[2] شُغْلٌ سوى نظري إليهِ

وقد آن وقت الرجعة إلى كلام الأندلسيين، الذي حلا، وأبعدنا عنه بما مرّ النُّجعة فنقول:

ذكر الفتح في قلائد العقيان، كما قال ابن ظافر، ما معناه[3]: أخبرني الوزير أبو عامر

---

(١) تَقَرَّطَتْ: وضعت القرط. لسان العرب (قرط).

(٢) في بدائع البداثه: «قابَلْتُهُ».

(٣) بدائع البداثه (جـ ٢ ص ٨٧) وقلائد العقيان (ص ١٣٩ ـ ١٤٠). وفي النص بعض الاختلاف عمّا هنا.

ابن بَشْتغير أنه حضر مجلس القائد أبي عيسى بن لَبُّون في يوم سَفَرَتْ فيه أوْجُهُ المَسَرّات، ونامتْ عنه أعين المضرّات، وأظهرت سقاته غصونًا تحمل بدورًا، وتطوف من المُدام بنارٍ مازَجَتْ من الماء نورًا، وشموسُ الكاسات تطلع في أكُفِّها كالورد في السوسان، وتغرُبُ بين أقاحي نجوم الثغور[1] فَتُذْبِل نرجِسَ الأجفان، وعنده الوزيرُ أبو الحسن بن الحاج اللورقي، وهو يومئذ قد بذل الجهد، في التحلّي بالزهد، فأمر القائد بعضَ السقاة أن يعرض عليه ذهبَ كاسِهِ، ويحييه بزبرجدِ آسهِ، ويغازله بطَرْفه، ويميل عليه بعِطْفِهِ، ففعل ذلك عَجِلاً، فأنشد أبو الحسن مرتجلاً: [الكامل]

وَمُهَفْهَفٍ مَزَجَ الفتورَ بشدّةٍ ... وأقام بين تَبَذُّلٍ وتَمَنُّعِ
يَثْنِيهِ من فعل المُدامة والصِّبا ... سُكْرانِ سُكْرُ طبيعةٍ وتَطَبُّعِ
أومَا إليَّ بكأسِهِ فَكَفَفْتُها ... وَرَنَا[2] فَشَفَّعها بلحظٍ مُطْمِعِ
واللَّه لولا أنْ يقالَ هوى[3] الهوى ... منه بفضلِ عزيمةٍ وتورُّعِ
لأخذْتُ في تلك السبيل بمأخذي ... فيما مضى ونزعتُ فيها منزعي[4]

وحكى الحميدي أنَّ عبد الملك بن إدريس الجزيري كان ليلة بين يدي الحاجب بن أبي عامر والقمرُ يبدو تارة، ويخفيه السحاب تارة، فقال بديهاً[5]: [الوافر]

أرَى بَدْرَ السماءِ يلوحُ حِينًا ... فيبدو ثم يلتحفُ السَّحابا
وذاك لأنه لَمَّا تَبَدَّى ... وأبْصَرَ وَجْهَكَ اسْتَحْيَا فغابا[6]
مقالٌ لو نمى عنّي إليه ... لراجعني بتصديقي جوابا

وكان صاعد اللغوي[7] صاحب كتاب «الفصوص» ـ وقد تكرّر ذكره في هذا الكتاب ـ كثيرًا ما يمدح بلاد العراق[8] بمجلس المنصور بن أبي عامر، ويصفها، ويقرظها، فكتب

---

(١) في طبعة ليدن: «نجوم الثغر قنديل نرجس الأجفان».
(٢) في القلائد: «ودنا».
(٣) في المصدر نفسه: «هو الهوى».
(٤) رواية البيت في القلائد هي:
لَذَهَبْتُ من تلك السبيل بمذهبي ... فيما مضى ونزعت فيه منزعي
(٥) الأبيات في جذوة المقتبس (ص ٢٨١) وبغية الملتمس (ص ٣٧٥). وتقدّمت في الجزء الثاني من نفح الطيب وسترد في الجزء الخامس وفي روايتها هناك بعض اختلاف.
(٦) في الجذوة: «فعابا» بدل «فغابا». وفي البغية: «بأنه» بدل «لأنه».
(٧) النص النثري والأبيات في الذخيرة (ق ٤ ص ٢٦ ـ ٢٧) وبدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٠٣).
(٨) في الذخيرة: «بلاد المشرق».

الوزير أبو مروان عبدُ الملك بن شهَيد والدُ الوزير أبي عامر أحمد بن شُهَيد صاحب الغرائب، وقد تقدّم بعض كلامه قريبًا، إلى المنصور في يوم بَرْد[١]. وكان أَخَصَّ وزرائه به. بهذه الأبيات: [المنسرح]

أَمَا تـرى بَـرْدَ يـومـنـا هـذا ... صَـيَّـرَنـا لـلـكُـمُـونِ أفـذاذا
قـد فُطِرَتْ صِحَّةُ الكُبُودِ به ... حتـى لـكـادتْ تـعـودُ أفـلاذا
فـادْعُ بـنـا للشَّمُولِ مُصْطلِيًا ... نُـغِـذّ[٢] سيـرًا إلـيـك إغـذاذا
وادْعُ المسمّى[٣] بها وصاحِبَهُ ... تَـدْعُ نـبـيـلاً وتَـدْعُ أسـتـاذا
ولا تـبـالِ[٤] أبـا الـعـلاء زهـا ... بـخـمـر قُـطْـرُبُـلٍ وكَـلْـواذا
مـا دام مـن أَرْمِـلاَطَ مـشـربُـنـا ... دَعْ[٥] دَيْرَ عمَّى وطِيزَ ناباذا

وكان المنصور[٦] قد عزم ذلك اليومَ على الانفراد بالحرم، فأمر بإحضار مَنْ جرى رَسْمُه من الوزراء والندماء، وأحضر ابن شُهَيد في محفّة لِنِقْرِسٍ[٧] كان يعتاده، وأخذوا في شأنهم، فمرَّ لهم يوم لم يشهدوا مثله، ووقت لم يعهدوا نظيره، وطَمَا الطربُ وسما بهم، حتى تهايج القوم ورقصوا، وجعلوا يرقصون بالنوبة، حتى انتهى الدور إلى ابن شُهَيد، فأقامه الوزيرُ أبو عبد الله بن عباس، فجعل يرقص وهو متوكىء عليه، ويرتجل ويومىء إلى المنصور، وقد غلب عليه السكر: [الرمل]

هـاكَ شـيـخًـا[٨] قـادَهُ عُـذْرٌ لـكـا ... قـام فـي رقـصـتـه مُـسْـتَـهْـلِـكـا
لـم يُـطِـقْ يـرقُـصُـهـا مُـسْـتَـثْـبِـتًـا ... فـانـثـنـى يـرقُـصُـهـا مُـسْـتـمـسـكـا
عـاقـه عـن هـزِّهـا مـنـفـردًا ... نِقْرسٌ أخنى عليه فاتكا[٩]

---

(١) في المصدر نفسه: «في يوم قُرّ».
(٢) غَذَّ في سيره: أسرع. لسان العرب (غذذ).
(٣) الضمير في «بها» عائد إلى «الشمول» في البيت السابق، والمسمّى بها أي من سُمّي بهذا الاسم وهو مُغَنّ اسمه «شمول».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «ولا تبالي» وهو خطأ.
(٥) في الذخيرة: «مَنْ دَيْر..».
(٦) النص والأبيات في الذخيرة (ق ٤ ص ٢٧ ـ ٢٨) وفيه بعض اختلاف عمّا هنا.
(٧) النِّقْرِسُ: مرض مؤلم يصيب مفاصل قَدَمِ الرَّجُل وخصوصًا إبهامه. لسان العرب (نقرس).
(٨) في الذخيرة: «شيخٌ».
(٩) في المصدر نفسه: «من هزّها معتدلاً.. أنحى عليه فاتكي».

مِـنْ وزيـرٍ فـيـهـمُ رقَّـاصـةٍ قـام[1] لـلـشُّـكْـر يُـنـاغـي مَـلِـكـا
أنـا لـو كـنـتُ كـمـا تـعـرفـنـي قـمتُ إجلالاً عـلى رأسـي لـكـا
قَـهْـقَـه الإبـريـقُ مـنِّـي ضـاحـكًـا ورأى رِعْـشَـةَ رِجْـلـي فـبَـكَـى

قال ابن ظافر: وهذه قطعة مطبوعة، وطرفها الأخير واسطتها، وكان حاضرهم ذلك اليوم رجلٌ بغدادي يُعْرَفُ بالفكيك[2]، حسن النادرة سريعها، وكان ابن شُهَيد استحضره إلى المنصور فاستطبعه، فلما رأى ابنَ شُهيد يرقص قائمًا مع ألم المرض الذي كان يمنعه من الحركة قال: للّه دَرُّك يا وزير! ترقص بالقائمة، وتصلِّي بالقاعدة، فضحك المنصور، وأمر لابن شُهَيد بمال جزيل، ولسائر الجماعة، وللبغدادي.

وقال ابن بسام[3]: حدَّث أبو بكر محمد بن أحمد بن جعفر بن عثمان المصحفي قال: دخلت يومًا على أبي عامر بن شُهَيد، وقد ابتدأتْ علّتُه التي مات بها، فأنِسَ بي، وجرى الحديثُ إلى أن شكوت له تَجنّي بعض أصحابي عليّ، ونفاره عنّي، فقال لي: سأسعى في إصلاح ذات البين، فخرجت عنه، واتّفق لقائي لذلك المتجني عليَّ مع بعض أصحابي وأعزّهم عليّ، فلمّا رآني ذلك الصديق مُوَلِّيًا عنه أنكر عليه، وسأله عن السبب الموجب، فأخبره، وزادا في مشيهما حتى لحقا بي، وعزم عليّ في مكالمة صاحبي، وتعاتبنا عتابًا أرقّ من الهواء، وأشهى من الماء على الظَّماء، حتى جئْنا دار أبي عامر، فلما رآنا جميعًا ضحك وقال: مَنْ كان الذي تولّى إصلاح ما كُنّا سُرِرنا بفساده؟ قلْنا: قد كان ما كان، فأطرق قليلاً ثم أنشد[4]: [المنسرح]

مَـنْ لا أسَـمِّـي ولا أَبُـوحُ بـه أَصْـلَـحَ بـيـنـي وبـيـن مَـنْ أَهْـوَى
أرسلْتُ مَـنْ كـابَـدَ الـهـوى فَـدَرَى كـيـف يُـداري مـواقـعَ[5] الـبَـلْـوَى
ولـي حـقـوقٌ فـي الـحبِّ ثـابـتـةٌ[6] لـكـنَّ إلْـفِـي يَـعُـدُّهـا دَعْـوَى

وقد ذكرنا في هذا الكتاب من غرائب أبي عامر بن شُهَيد في مواضع متفرّقة الغرائب،

---

(١) في المصدر نفسه: «قام مِنْ طِيبِ. .».
(٢) مرَّ التعريف بالفُكَيْك والإشارة إلى مصادر ترجمته في هذا الجزء (ص ١٠٤). وفي الذخيرة: «يعرف بالكك».
(٣) الذخيرة (ق ١ ص ٣٢٦) وبدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٠٦) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٤) الأبيات في ديوان ابن شهيد (ص ١٨٣) وفي الذخيرة وبدائع البدائه.
(٥) في الديوان والذخيرة: «مواضع البَلْوَى».
(٦) في المصدرين السابقين: «في الحبِّ ظاهرة».

وقدّمنا في الباب الرابع حكايَته مع المرأة الداخلة في رمضان لجامع قرطبة وحكيناها هناك بلفظ «المطمح» فلتراجع.

وعَبَّر ابنُ ظافر عن معناها بقوله(١): إنَّ أبا عامر كان مع جماعة من أصحابه بجامع قرطبة في ليلة السابع والعشرين من رمضان، فمرّت امرأة به من بنات أجِلاَّء قرطبة، قد كملت حسنًا وظَرْفًا، ومعها طفل يتبعها كالظبية تستتبع خَشْفًا(٢)، وقد حَفَّتْ بها الجواري، كالبدر حُفّ بالدراري، فحين رأت تلك الجماعة، المعروفة بالخَلاَعة، وقد رمقوا ذلك الظبي بعيونِ أُسُودٍ رأت فريسة، ارتاعت وتخوّفت أن تخطف منها تلك الدُّرَّة النفيسة، فاستَدْنَتْ إليها خَشفَها، وألزمته عِطْفَها، فارتجل ابن شهيد قائلاً:

ونـاظـرة تـحـت طَـيِّ الـقـنـاع الـخ

ومرّت في الباب الرابع هذه الأبيات.

وقال الرئيس أبو الحسن عبد الرحمن بن راشد الراشدي(٣): لَمّا نعيت أبا عامر بن شُهَيد إلى أبي عبد الله الحناط(٤) الشاعر، وكان قد عرف ما بينهما من المنافسة، فبكى وأنشدني لنفسه بديهة: [السريع]

لَـمَّـا نَـعَـى الـنـاعـي أبـا عـامِـرٍ ... أيـقَـنْـتُ أنـي لـسـتُ بـالـصـابـرِ
أودَى فَتَى الظَّرْفِ وتِرْبُ الندى ... وسـيِّـدُ الأولِ والآخِـرِ

وقال ابن بَسَّام(٥): اصطبح المعتصم بن صُمَادح يومًا مع ندمائه، فأبرز لهم وصيفة مهدوية متصرفة في أنواع اللعب المطرب من الدك، وحضر أيضًا هناك لاعب مصري ساحر فكان لعبه حسنًا، فارتجل أبو عبد الله بن الحداد: [المتقارب]

كـذا فَـلْـتَـلُـحْ قـمـرًا زاهـرًا ... وتَـجْـنـي الْـهَـوَى نـاظـرًا نـاضـرا
وسَـيْـبُـكَ سَـيْـبُ نَـدًى مُـغْـدِقٍ ... أقـامَ لـنـا هـامـيًـا هـامـرا

---

(١) بدائع البداهة (جـ ٢ ص ١٠٧).
(٢) الخِشْفُ: ولد الغزالة. لسان العرب (خشف).
(٣) النص والشعر في بدائع البداهة (جـ ٢ ص ١٠٩).
(٤) في طبعة عبد الحميد: «عبد الله بن الخياط..».
(٥) النص والشعر في بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٢١) والذخيرة (ق ١ ص ٧٢٢) وديوان ابن الحداد الأندلسي (ص ٢١١ ـ ٢١٣). ورواية الشعر فيها مختلف بعض الاختلاف عمّا هنا.

وإنَّ لِـيَـومِـكَ ذا رَونَـقًـا مُنِيرًا كنور الضُّحى باهرا
صباحُ اصطباحٍ بإسفاره لحظْنا مُحَيًا العُلاَ سافرا[1]
وأطلعْتَ فيه نجومَ الكؤوس فما زال كوكبها زاهرا
وأسمعْتَنا لاجِنًا فاتِنا وأحْضَرْتَنا لاعبًا ساحرا
يرفرفُ فوق رؤوس القيان فننظرُ ما يُذْهِلُ الناظرا
ويحفظها ذَيلُ سِرْباله فننظرُ طالعها غائرا
فظاهرُها يَنْثني باطنًا وباطنُها ينثني ظاهرا
وثَنَّاه ثانٍ لألعابِهِ دقائق تثني الحِجَا حائرا
وفي سَورة الراحِ مِنْ سحره خواطرُ دَلَّهتِ الخاطرا
إذا وَرَدَ اللحظُ أثناءها فما الوهمُ عن وِرْدِها صادرا
ومِنْ حُسْنِ دَهْرِكَ إبداعُهُ فما أنفكُّ عارِضُها ماطرا
وسَعْدُكَ يجتلبُ المُغْرِباتِ فيجعلُ غائبها حاضرا

قال[2]: وحضر الأديب أحمد بن الشقاق عند القائد ابن درّي[3] بجيان، هو وأبو زيد ابن«مَقَانَا الأشبوني، فأحضر لهما[4] عنبًا أسودَ مُغَطًّى بورق أخضر، فارتجل ابنُ الشقاق: [الكامل]

عنبٌ تَطَلَّعَ من حَشَا ورقٍ لنا صُبِغَتْ غلائلُ جلده بالإثمدِ[5]
فكأنه من بينهنَّ كواكبٌ كُسِفَتْ فلاحتْ في سماء زَبَرْجَدِ

قال[6]: وحضر ابنُ مرزقان ليلةً عند ذي النون بن خلدون، ويحضرته وصيفة تحمل

---

(١) معنى العجز أخذه أبو الحجاج يوسف بن عبد الله بن أيوب الفهري الداني المتوفّى سنة ٥٩٢ هـ، فقال متأسّفًا على مغاني التداني: [الطويل]
أَبَى اللّهُ إلاّ أنْ أُفارِقَ منزلاً يُطالعني وَجْهُ المُنَى فيه سافِرا
وقد تقدم هذا البيت في الجزء الأول من نفح الطيب وسيرد في الجزء الخامس. وفي المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٣١) نسب ابن الأبار هذا البيت إلى أبي الربيع بن سالم.
(٢) النص والشعر في بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٢٢). وفي الذخيرة (ق ١ ص ٧٥٧) البيتان منسوبان إلى أبي أحمد عبد العزيز بن خيرة القرطبي، المعروف بالمنفتل.
(٣) في طبعة بولاق: «ابن دريد».
(٤) في طبعة ليدن: «فأحضرهما».
(٥) في الذخيرة: «ورقِ ندى.. خدّه بالإثمدِ».
(٦) بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٢٣).

شمعة، فاستحسنها ابن مرزقان، فقال بديها: [السريع]

يا شمعةً تَحمِلُها أخرى كأنها شمسٌ عَلَتْ بَدْرَا
امتحنتْ إحداكما مُهْجَتِي بمثل ما تمتحنُ الأخرى

قال: دخل[1] الأديب غانم[2] يومًا على باديس صاحب غَرْنَاطة، فوسّع له على ضيق كان في المجلس، فقال بديهًا[3]: [البسيط]

صَيِّرْ فؤادَكَ للمحبوبِ منزلةً سَمُّ الخِيَاطِ مجالٌ للمُحِبِّينِ
ولا تسامحْ بغيضًا في معاشرة فقلّما تَسَعُ الدنيا بَغِيْضَيْنِ

وأخذه من قول الخليل «ما تضايق سَمُّ الخياط بمتحابِّين، ولا اتَّسعت الدنيا لمتباغضَينِ»[4].

وكان الخليل على نُمْرُقَة صغيرة، والمجلسُ متضايق، فدخل عليه بعضُ أصحابه، فرحّب به وأجلسه معه على النمرقة، فقال له الرجل: إنها لا تسعنا، فقال ما ذكر.

وقال ابن بسام أيضًا[5]: أمر الحاجب المنذر بن يحيىٰ التُّجيبي، صاحبُ سَرَقُسْطَة، بعرض بعض الجند في بعض الأيام، ورئيسُهم مملوك له رومي يقال له خيار في نهاية الجمال، فجعل ينفخ في القَرْن ليجتمع أصحابه على عادة لهم في ذلك، فقال ابن هند

---

(١) في طبعة دار صادر: «ودخل».

(٢) هو أبو محمد غانم بن وليد بن محمد بن عبد الرحمن المخزومي المالقي، وهو أديب ماهر وفقيه مقدّم، ومحدّث جليل، وأستاذ في النحو واللغة، وعالم بالطب والكلام. توفي سنة ٤٧٠ هـ. جذوة المقتبس (ص ٣٢٥) وبغية الملتمس (ص ٤٤١) والذخيرة (ق ١ ص ٨٥٣) وفهرسة ابن خير (ص ٤٧٤، ٤٨٥) والصلة (ص ٦٦٩) والمطرب (ص ٨٤) والحلة السيراء (جـ ٢ ص ٢٧) والمغرب (جـ ١ ص ٣١٧) وبغية الوعاة (ص ٣٧١) وبدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٢٣).

(٣) البيتان في جذوة المقتبس (ص ٣٢٦) وبغية الملتمس (ص ٤٤١) والذخيرة (ق ١ ص ٨٥٣) والصلة (ص ٦٦٩) والمغرب (جـ ١ ص ٣١٧) وبغية الوعاة (ص ٣٧١) وبدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٢٣) وفي روايتهما بعض اختلاف عمّا هنا. وسيردان في هذا الجزء (ص ٣٥٦، ٤٠١) وفي الجزء الخامس.

(٤) في طبعة ليدن: «بمتباغضين».

(٥) الذخيرة (ق ٣ ص ٨٩٨). وقد ترجم ابن سعيد لابن هند الداني تحت اسم «ابن هَندو» وأورد له البيتين الأول والثاني.

الداني فيه ارتجالاً: [الطويل]

أعَنْ بابلٍ أجفانُ عينيكَ تَنْفُثُ ومن قومِ موسى أنتَ للعهد تنكثُ[1]
أفي الحقِّ أن تحكي سَرَافِيلَ نافخًا وأمكثُ في رَمْسِ الصُّدود وألبثُ
عساكَ، نَبِيَّ الحسن، تأتي بآيَةٍ فتنفخَ في مَيْتِ الصُّدودِ فَيُبْعَثُ[2]

قال: وكان بقرطبة غلام وَسِيم، فمرّ عليه ابن فرج الجَيَّاني، ومعه صاحب له، فقال صاحبه: إنه لصبيح لولا صفرة فيه، فقال ابن فرج ارتجالاً[3]: [البسيط]

قالوا: به صُفْرَةٌ عابتْ محاسِنَهُ فقلتُ: ما ذاك من عيبٍ به نَزَلاَ[4]
عيناهُ تُطْلَبُ في أوتار[5] مَنْ قَتَلَتْ فلستَ تَلْقاهُ إلاّ خائفًا وَجِلاَ

قال: وكان يومًا مع لُمَّة من أهل الأدب في مجلس أنس، فاحتاج رب المنزل إلى دينار، فوجَّه إلى السوق، فدخل به عليهم غلام من الصيارف في نهاية الجمال، فرمى بالدينار إليهم مِن فيه تَماجُنًا، فقال ابن فرج[6]: [الكامل]

أبصرتُ دينارًا بكفِّ مُهَفْهَفٍ يُزْهَى[7] به من كثرة الإعجابِ
أوَمَا به من فيه ثم رمى به فكأنه بَدْرٌ رَمَى بشهابِ[8]

قال[9]: وخرج الأديب أبو الحسن بن حصن الإشبيلي إلى وادي قُرْطُبة في نزهة، فتذكّر إشبيلية، فقال بديهًا: [المتقارب]

ذكرتُكِ يا حمْصُ[10] ذكْرَى هَوًى أماتَ الحسودَ وَتَغنِيتَهْ
كأنكِ والشمسُ عند الغروبِ عروسٌ من الحسن مَنْحُوتَهْ

---

(١) رواية عجز البيت في الذخيرة والمغرب هي: وعن قوم موسى قد جعلت تحدّثُ.
(٢) في الذخيرة: «عساكَ، خيار الحسن، . . مَيْتِ الغرام. .».
(٣) البيتان في الذخيرة (ق ٣ ص ٨٨٨) والمغرب (جـ ٢ ص ٥٩). وفي هذين المصدرين ترجمة لابن فرج الجياني.
(٤) في المغرب: «صفرةٌ عَلَتْ. . ما ذاكُمْ عابٌ. .».
(٥) في الذخيرة والمغرب: «في آثارِ».
(٦) البيتان في الذخيرة (ق ٣ ص ٨٨٨ - ٨٨٩).
(٧) في الذخيرة: «يزهو».
(٨) في المصدر نفسه: «أومى به. . . فكأنه قمرٌ. .».
(٩) بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٢٤).
(١٠) حمص: هي إشبيلية، وقد كان أهل الأندلس يشبهونها بحمص.

غدا النهرُ عِقْدَكِ والطورُ تاجَـ ـكِ والشمسُ أعلاه ياقوتَة

انتهى:

وعبّر بعضهم، وهو صاحب «بدائع البداءة» عن بعض حكايات صاحب القلائد بما يقاربها في المعنى، فقال[1]: إن المستعين بن هُودٍ ملكَ سَرَقُسْطة والثغور ركب نهر سَرَقُسْطة يومًا لتفقّد بعض معاقله، المنتظمة بجيد ساحله، وهو نهر رَقَّ ماؤه وراق، وأزرى على نِيل مصر ودجلة العراق، قد اكْتَنَفَتْه البساتين من جانبيه، وألقتْ ظلالها عليه، فما تكاد عين الشمس أن تنظر إليه، هذا على اتّساع عرضه، وبُعْد سطح مائه من أرضه، وقد توسَّط زورقه زوارق حاشيته توسُّطَ البدر للهَالَة، وأحاطت به إحاطة الطُّفاوة بالغزالة[2]، وقد أعدُّوا من مكايد الصيد ما استخرج ذخائر الماء، وأخاف حتى حُوتَ السماء، وأهِلَّة الهالات[3] طالعة من الموج في سحاب، وقانصة من بنات الماء[4] كُلَّ طائرة كالشهاب، فلا ترى إلاَّ صُيُودًا كقِصَدِ الصوارم، وقدود اللَّهَاذم[5]، ومعاصم الأبكار النواعم، فقال الوزير أبو الفضل بن حسداي والطربُ استهواه[6]، وبديع ذلك المرأى قد استرقَّ هَوَاه[7]: [البسيط]

لِلَّه يوم أنيقٌ واضحُ الغُرَرِ[8] ... مُفَضَّضٌ مُذْهَبُ الآصال والبُكَرِ
كأنما الدَّهْرُ لَمَّا ساء أَعْتَبَنَا ... فيه بعُتْبَى فأبدى صَفْحَ مُعْتَذِرِ
نَسِيرُ في زَوْرَقٍ حَفَّ السرور[9] به ... مِنْ جانبيه بمنظومٍ ومُنْتَثِرِ
مَدَّ الشراعُ به قَدًّا[10] على مَلِكٍ ... بَذَّ الأوائلَ في أيامه الأُخَرِ
هو الإمامُ الهمامُ المستعينُ حَوَى ... علياءَ مؤتمنٍ في هَدْيِ مُقْتَدِرِ
تحوي السفينةُ منه آيةً عجبًا ... بَحْرٌ تَجَمَّعَ حتى صار في نَهَرِ

(١) بدائع البداهة (جـ ٢ ص ١٢٤) وقلائد العقيان (ص ١٨٤ ـ ١٨٥).
(٢) الطُّفاوة، بضم الطاء: دارة الشمس. الغزالة: الشمس. القاموس المحيط (طفا) و (غزل).
(٣) في طبعة ليدن: «وأهله الأهلات».
(٤) في الطبعة نفسها: «نبات الماء».
(٥) اللهاذم: جمع لهذم وهو القاطع من السيوف. القاموس المحيط (لهذم).
(٦) في طبعة دار صادر: «قد استهواه».
(٧) الأبيات في بدائع البداهة وقلائد العقيان، وتقدّمت في الجزء الثاني من نفح الطيب ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٨) في القلائد: «يوم للّه أنيق..»، وهكذا ينكسر الوزن.
(٩) في المصدر نفسه: «السفين».
(١٠) في المصدر نفسه: «به نشر على ملك..».

تثار مِنْ قَعْرِهِ النِّينانُ[1] مُصْعدةً صيدا كما ظفر الغَوّاص بالدُّرَرِ
ولِلندامى به عَبٌّ ومُرتَشَفٌ كالرِّيْقِ يَعْذُبُ في وِرْدٍ وفي صَدَرِ
والشُّرْبُ في وُدِّ مولًى خُلْقُهُ زَهَرٌ يَذْكُو وبَهْجَتُهُ أَبْهَى مِنَ القَمَرِ

ثم قال ما معناه[2]: وقوله «نينان» غير معروف، فإنّ نونًا لم يجيء جمعها على نينان، وقد كان سيبويه لَحّنَ بشار بن برد في قوله في صفة السفينة[3]: [الطويل]

تلاعَبُ نينانُ البحورِ وربّما رأيتَ نفوسَ القومِ مِنْ جَرْيها تجري

فغيّره بشار بـ «تيار البحور» وقد قال أبو الطيب يصف خيلاً[4]: [طويل]

فهنَّ مع السِّيدان في البَرِّ عُسَّلٌ[5] وهُنَّ مع النِّينان في البحر عُوَّمُ

انتهى[6].

والمستعين بن هود هو أحمد بن المؤتمن على أمر الله يوسف بن المقتدر بالله أحمد ابن المستعين[7] بالله سليمان بن هود، الجُذَامي، رحم الله تعالى الجميع!.

وعبر المذكور عن قضيّة ابن وهْبُون في هلال شوال بما نصُّه[8]: خرج ابن وهبون يومًا لنظر هلال شوال، وأبو بكر ابن القَبْطُرْنة الوزير يسايره، وهو يومئذ غلام يُخْجل البدر، ويذوي[9] الغُصْنَ النَّضر، وصفحته لم يسطرها العِذَارُ بأنقاسه[10]؛ ووردة خدّه لم يسترها الشَّعر بآسه، فارتجل عبد الجليل: [الخفيف]

يا هلالُ اسْتَتِرْ بوجهك عنّي[11] إنَّ مولاكَ قابضٌ بشمالي

---

(١) النينان: جمع نون وهو الحوت. محيط المحيط (نون).
(٢) بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٢٧).
(٣) البيت في ديوان شعر بشار بن برد (ص ١٣٤) وفيه: «تيارُ البحور».
(٤) البيت في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٣١٠).
(٥) السِّيْدان: جمع سِيْد وهو الذئب، العُسَّلُ: جمع عاسل وهو الذي يضطرب في عَدْوه. لسان العرب (سيد) و (عسل).
(٦) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٧) في أصول النفح: «المستضيء بالله»، وهو خطأ؛ لأنّ لقب سليمان هو «المستعين بالله».
(٨) بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٢٨) وقلائد العقيان (ص ٢٤٢).
(٩) في بدائع البدائه: «ويزري».
(١٠) الأنقاس: جمع نِقْس وهو ما يُكْتَبُ به أي الحِبْر. مختار الصحاح (نقس).
(١١) في قلائد العقيان: «عنّا».

هَبْكَ تحكي سناه خَدًا بخدّ قُمْ فجئني لقدِّهِ بمثالِ

وقد ذكرنا هذه الحكاية في غير هذا الموضع بلفظ الفتح في «القلائد» ولكنّا أعدناها هنا لتعبير صاحب «البدائع» عنها محاكيًا لطريقته.

وذكر ابن بَسّام [1] أن الوزير أبا عبد اللّه بن أبي الخصال وقف بباب بعض القضاة، واستأذن عليه، فَحُجِبَ عنه، فكتب إليه بَديهًا: [البسيط]

جئناك للحاجةِ الممطولِ صاحبُهَا وأنت تَنْعَمُ والإخوانُ في بُوسِ
وقد وقفْنا طويلاً عند بابكُمُ ثم انصرفْنا على رأيِ ابن عَبْدوسِ

أشار به إلى قول الوزير أبي عامر بن عبدوس: [مجزوء الوافر]

لنا قاضٍ له خُلُقٌ أقلُّ ذميمِهِ النَّزَقُ
إذا جئناهُ يحجبنا فَنَلْعَنُه ونفترِقُ

وهو تمليح مليح، سامح اللّه تعالى الجميع!.

وقال أبو جعفر الكاتب القرطبي الربضي[2]: [الكامل]

وأبي[3] المدامة ما أُريدُ بشربها صَلَفَ الرقيعِ ولا انهماكَ اللاهي
لم يَبْقَ من عَصْرِ الشباب وطيبه شيءٌ كعهدي لم يَحُلْ إلاّ هي
إن كنتُ أشربُها لغير وفائها فتركْتُها للناس لا للّه

وبعضهم ينسبها لأبي القاسم عامر بن هشام، والصواب كما قال ابن الأبار ـ الأوّل.

وقال أبو جعفر المذكور في فوارة رخام كَلَّفه وصْفَها وَالي قرطبة[4]: [المنسرح]

ما شَغَلَ الطَّرْفَ مثلُ فائرة تمجُّ صِرْفَ الحياة مِنْ فيها

---

(١) بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٤٧). وترجمة ابن أبي الخصال في قلائد العقيان (ص ١٧٤) والذخيرة (ق ٣ ص ٧٨٤)، والبيتان لم يردا في المصدرين الأخيرين.

(٢) هو أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن اللخمي، من أهل قرطبة، ويعرف بالربضي لِسُكْناه بالربض الشرقي من قرطبة، توفي سنة ٦١٦ هـ. المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٧٨). والأبيات في المصدر المذكور، وقد تقدمت في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ٢٠٠ـ٢٠١) وجاء هناك: «لا أريد» بدل «ما أريد».

(٣) في المقتضب: «واثْنِ المدامةَ».

(٤) الأبيات في الوافي بالوفيات (جـ ٧ ص ٥١ ـ ٥٢) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

اشْرَبْ بها والحَبَابُ في جَذَلٍ   يُظْهِرُهُ حُسْنُها ويُخْفِيها
تكادُ مِنْ رِقَّةٍ تَضَمَّنها   تخطبها العينُ إذ توافيها
كأنها دُرَّةٌ مُنَعَّمَةٌ   زهراءُ قد ذابَ نِصْفُهَا فيها

ومن شعره أيضًا[1]: [مجزوء الكامل]

ضحك المشيبُ برأسه   فبكى بأعينِ كاسِهِ
رجُلٌ تَخَوَّنَهُ الزّمـا   نُ ببؤسه وبباسِهِ
فَجَرَى على غُلَوَائِهِ   طَلْقَ الجموحِ بناسِهِ
أخذًا بأوفر حَظِّهِ   لرجائه من ياسِهِ

وقال أحد بني القَبْطُرْنة الوزراء[2]: [المتقارب]

ذكرتُ سليمى ونارُ الوغى   بقلبي كساعةِ فارقْتُها[3]
وأبصرتُ قَدَّ القنا شبهها   وقد مِلْنَ نحوي فعانقْتُها[4]

وهذا معنى بديع ما أراه سُبق به.

وقال أبو الحسن بن الغليظ المالقي[5]: قلت يومًا للأديب أبي عبد الله بن السراج المالقي، ونحن على جرية[6] ماء: أجزْ: [الطويل]

شربْنا على ماءٍ كأنَّ خريره

فقال مبادرًا:

بُكَاءُ مُحِبّ بان عنه حَبيبُ

---

(١) الأبيات في الوافي بالوفيات (جـ ٧ ص ٥٢) بدون تغيير عمّا هنا.
(٢) البيتان في قلائد العقيان (ص ١٥٤) والمغرب (جـ ١ ص ٣٦٨) وقائلهما هو أبو الحسن محمد بن القبطورنة، أخو أبي بكر عبد العزيز وأبي محمد طلحة ابني القبطورنة.
(٣) رواية البيت في القلائد والمغرب هي:
ذكرتُ سُلَيْمَى، وحَرُّ الوغى   كجِسْمِيَ ساعةَ فارَقْتُها
(٤) رواية صدر البيت في المصدرين المذكورين هي:
وأبصرتُ بين القَنَا قدَّها
(٥) سيرد اسمه في هذا الجزء (ص٣٥٧): أبو علي الحسن بن الغليظ. وشعره وشعر ابن السراج في بدائع البدائه (جـ ١ ص ٧٣)، وسيرد في الجزء الخامس.
(٦) في طبعة عبد الحميد: «خرير ماء».

فمن كان مشغوفًا كئيبًا بإلفه فإنيَ مشغوفٌ به وكئيبُ

وكتب أبو بكر البَلَنْسِي إلى الأديب أبي بَحْر صَفْوان بن إدريس هذين البيتين يستجيزه القسيم الأخير منهما[1]: [الطويل]

خليلي أبا بحرٍ وما قَرْقَفٌ[2] اللَّمَى بأعْذَبَ من قولي خليلي أبا بحرِ
أَجِزْ غير مأمورٍ قسيمًا نظمْتُهُ تأمَّلْ على نَحْرٍ[3] المياه حِلَى الزَّهْر

فأجازه: [الطويل]

تأمَّلْ على نَحْرٍ[3] المياه حِلَى الزَّهرِ كعهدك بالخضراء والأنجمِ الزُّهْرِ
وقد ضحكتْ للياسمين مباسمٌ سرورًا بآداب الوزير أبي بكر
وأصغتْ من الآس النضيرِ مسامعٌ لتسمعَ ما يتلوه من سُوَرِ الشعر

وقال ابن خفاجة[4]: [الطويل]

وما[5] الأنسُ إلاَّ في مُجَاجِ زُجاجةٍ ولا العيشُ إلاَّ في صرير سريرِ
وإني وإنْ جئتُ المشيبَ لَمُولَعٌ بِطُرَّةِ ظِلّ فوق وَجْهِ غديرِ

وقال ابن خفاجة أيضًا[6]: [السريع]

وأسْودٍ يسبحُ في لُجَّةٍ لا تَكْتِمُ الحَصْباءَ غُدْرَانُها[7]
كأنها في شكلها مُقْلَةٌ وذلك الأسودُ إنسانُها[8]

وكتب الوزير الشهير أبو الوليد بن زيدون إلى الوزير أبي عبد اللّه بن عبد العزيز أثر صدوره عن بَلَنْسِية[9]: [مجزوء الكامل]

---

(١) البيتان في بدائع البدائه (جـ ١ ص ٧٩).
(٢) القرقف: الخمر. لسان العرب (قرقف).
(٣) في طبعة عبد الحميد: «مجرى المياه..».
(٤) البيتان في ديوان ابن خفاجة (ص ١٤٢).
(٥) في الديوان: «فما الأُنْسُ».
(٦) البيتان في ديوان ابن خفاجة (ص ٢٦٤). وسيردان في الجزء الخامس ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٧) يريد أن يقول: إنها صافية تظهر حصاها من تحت الماء.
(٨) إنسان العين: المثال يرى في سواد العين. محيط المحيط (أنس).
(٩) القصيدة في ديوان ابن زيدون (ص ١١٠ ـ ١١٢) وقلائد العقيان (ص ٧٤ ـ ٧٥) والذخيرة (ق ١ ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠)، وروايتها في هذه المصادر مختلفة ببعض الاختلاف عمّا هنا.

راحت فَضَحَّ بها السقيمْ ريحٌ مُعَطَّرةُ النسيمْ
مقبولةٌ هَبَّتْ قُبُوْ لا فَهْيَ تَعْبَقُ في الشَّمِيم
أَفَضِيضُ مِسْكٍ أم بَلَنْـ سيةٌ لرِيَّاهَا نَمِيمْ
بلدٌ، حبيبٌ أُفْقُهُ، لفتًى يَحُلُّ به كَرِيمْ
إيه أبا عبد الإلـ ه نداءَ مغلوبِ العَزِيم
إنْ عِيلَ صَبْرِي مِنْ فِرا قِكَ فالعَذابُ به أليم
أو أَتْبَعَتْكَ حَنِينَها نَفْسِي فأنتَ لها قَسِيمْ
ذِكْري لعهدكَ كالعَرَا رِ سَرَى فبَرَّحَ بالسّليم
مهما ذَمَمْتُ فما زما ني في ذِمامِكَ بالذميم
زمنٌ كمألوفِ الرضا ع يشوقُ ذكراه الفطيم
أيامَ أعقدُ ناظري في ذلك المرأى الوسيم
وأرى الفتوَّةَ غضَّةً في ثوبِ أَوّاهٍ حليم
اللّهُ يعلمُ أنَّ حُبْـ بَكَ من فؤادي في الصميم
ولئنْ تَحَمَّلَ عنكَ لي جسمٌ فَعَنْ قلبٍ مقيم
قل لي بأيِّ خلالِ سر كَ فيك أُفْتَنُ أو أهيمْ
أَلِمَجْدِكَ العَمَمُ الذي نَسَقَ الحديثَ مع القديمْ
أم ظَرْفِكَ الغَضُّ الجَنَى أم عِرْضك الصافي الأديمْ
أم بِرِّكَ العذبِ الجِمَا مِ وبِشْرِكَ[1] الغَضِّ الجميمْ
إنْ أشمستْ تلك الطلا قةُ فالندى منها مغيم
أم بالبدائعِ كاللآ لي من نَثِيرٍ أو نظيم
لبلاغةٍ إن عُدَّ أهـ لوها فأنت بها زعيم
فِقَرٌ تسوغُ بها المُدا م إذا يُكَرِّرُهَا النديم
إنَّ الذي قسم الحظو ظَ حَبَاكَ بالخلقِ العظيم
لا أستزيدُ اللّه نُعْـ مَى فيك لا بل أستديم
فلقد أقرَّ العينَ أنك غُرَّةُ الزمن البهيم
حسبي الثناء بحسن برّكَ ما بدا برقٌ وشِيم[2]

(١) في طبعة ليدن: «ونشرك».

(٢) شِيمَ: مبني للمجهول من شام؛ يقال: شام البرق إذا نظر إليه. لسان العرب (شيم).

ثم الدعاء بأن تهنا طول عيشك في نعيم
ثم السلامُ تُبَلَّغُنْـ ـه فغيب مُهْدِيه سليم

ولما ورد إشْبِيلِيَةَ نزل بدار الوزير الكاتب ذي الوزارتين أبي عامر بن مسلمة وهو يبني مجلسًا، فصنع أبياتًا كتبت فيه[1]: [السريع]

عُمِّرَ، مَنْ يَعْمُرُ ذا المَجْلِسَا أطْوَلَ عُمْرٍ، يُبْهِجُ الأَنْفُسَا
وبَعْدَ ذا عُوِّضَ مِنْ[2] دارِهِ عَدْنًا ومِنْ دِيباجِه السُّنْدُسا
ولُقِّيَ النورَ[3] بها والرضا ووُقِّيَ الأسواءَ والأَبْؤُسا
ودام عَبَّادٌ لعضد[4] الهدى يَحْرُسُ حتى يُفْنِيَ الأَحْرُسا
معتضدٌ بالله إحسانُهُ جَمٌّ إذا ما الدهرُ يومًا أَسَا[5]
المَلِكُ الغَمْرُ الندى المُقْتَني مِنْ كلِّ حمدٍ عِلْقَه الأَنْفَسَا
إنْ رامَ يومًا وَصْفَ عليائه مفوَّهٌ مقتدِرٌ أُخْرِسَا
لا زالَ بَدْرًا طالِعًا نَيِّرًا يَكْشِفُ عن[6] آمالنا الحِنْدِسَا

وقال فيه أيضًا[7]: [المتقارب]

أَدِرْها فقد حَسُنَ المجلسُ وقد آن أن تُتْرَعَ الأكؤسُ
ولا تَنْسَ أنَّ أوانَ الربيعِ[8] إذا لم تجدْ فَقْدَهُ الأنفُسُ
فإنَّ خلالَ أبي عامرٍ بها يُحْقَرُ[9] الوَرْدُ والنرجسُ

وكتب إلى الوزير أبي المعالي المهلب بن عامر يستدعيه[10]: [السريع]

---

(١) الأبيات في ديوان ابن زيدون (ص ١٥٨).
(٢) في الديوان: «عن داره».
(٣) في الديوان: «ووُفِّيَ الفَوْزَ بها...».
(٤) في المصدر نفسه: «لِعَهْدِ الهدى».
(٥) أسا: أصلها أساء، وقد حذف الهمزة لضرورة القافية.
(٦) في الديوان: «من آمالنا».
(٧) ديوان ابن زيدون (ص ١٣٨).
(٨) رواية صدر البيت في الديوان هي:
ولا بأسَ إنْ كان ولَّى الربيعُ
(٩) في الديوان: «بها يحضر».
(١٠) ديوان ابن زيدون (ص ٢٥٤).

طابتْ لنا ليلتُنا الخاليهْ فَلْنُتبِعَنْها هذه الثانيهْ[1]
أبا المعالي، نحن في راحةٍ فانقلْ إلينا القَدَمَ العاليهْ
لأنها[2] عاطلةٌ إنْ تَغِبْ عنّا فَزُرْنا كي تُرَى حاليهْ
أنت الذي لو تُشْتَرَى ساعةٌ منه بدهرٍ لم تكنْ غاليهْ

كتب إليه ذو الوزارتين أبو عامر المذكور معاتبًا[3]: [الوافر]

تباعَدْنَا على قُرْبِ الجِوارِ كأنّا صَدَّنا شَطُّ[4] المزارِ
تَطَلَّعَ لي هِلالُ الهَجْرِ بَدْرًا وصارَ هِلالُ وَصْلِكَ في سِرارِ
وشاعَ شنيعُ قطعك لي بوصلي[5] فهلاً كان ذلك في استتار
أَيَجْمُلُ أنْ تُرَى عنّي صَبُورًا فأُصْبِحَ[6] مُولَعًا دون اصْطِبار
وكنت أَزِيدُ سَمْعَكَ مِنْ عِتابي ولكنْ عاقَني فَرْطُ الخُمَار[7]
فَرَاعِ مودّتي واحْفَظْ جِواري فإنَّ اللّه أوصَى بالجِوار
وزُرْني مُنْعِمًا مِنْ غيرِ أمرٍ وآنِسْ مُوحِشًا من عُقْرِ داري

فكتب إليه ابنُ زيدون[8]: [الوافر]

هوايَ وإنْ تناءتْ عنك داري كمثلِ هوايَ في حالِ الجِوارِ
مُقِيمٌ لا تُغَيِّرُهُ عَوَادٍ تُباعِدُ بين أحيانِ[9] المَزار
رأيتُكَ قُلْتَ إنَّ الهَجْرَ بَدْرٌ متى خَلَتِ البدورُ من السِّرار[10]؟
ورابَكَ أنني جَلْدٌ صَبُورٌ وكم صبرٍ يكونُ عن اصْطِبار

---

(١) رواية عجز البيت في الديوان هي:

فَلْتُتْبِعْناها هذه التاليَهْ

(٢) في الديوان: «ليلتُنا عاطلةٌ..».

(٣) هذه الأبيات مثبتة في ديوان ابن زيدون (ص ٢٥٢).

(٤) في الديوان: «شَحْطُ المزار». وشَحْطُ المزار هو بُعْد الدار وموضع الزيارة.

(٥) في الديوان: «شنيع وَصْلِك لي وهَجْري..».

(٦) في الديوان: «وأُصْبِحَ».

(٧) في الديوان: «قُرْبُ الخُمار».

(٨) ديوان ابن زيدون (ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣).

(٩) أحيان المزار: التباعدُ بين أوقات الزيارات.

(١٠) السِّرار، بكسر السين: محاق القمر في آخر الشهر. لسان العرب (سرر).

ولم أهجرْ لعتْبٍ، غير أني أَضَرَّتْ بي معاقرةُ العُقار
وإنَّ الخمرَ ليس لها خُمارٌ يُبَرِّحُ[1] بي فكيف مع الخُمار
وهل أنْسَى لَدَيكَ نَعِيمَ عَيشٍ كوَشْيِ الخَدِّ طُرِّزَ بالعِذار
وساعاتٍ يَجُولُ اللَّهْوُ فيها مَجالَ الظل في حَدَقِ النهار[2]
وإنْ يَكُ قَرَّ عنك اليوم جسمي فُدِيتَ فما لِقَلْبي من قرار[3]
وكنتَ على البِعاد أجلَّ شيء[4] لديَّ فكيف إذ أصبحْتَ جاري

وكان أبو العَطَّاف إذ ورد إشبيلية رسولاً قد سأله أن يُرِيَهُ شيئًا من شعره، فمطله به، حتى كتب إليه شعرًا يستبطئه، فأجابه ابن زيدون في العروض والقافية[5]: [المنسرح]

أَفَدْتَنِي من نفائسِ الدُّرَرِ ما أَبرَزَتْهُ غَوائِصُ الفِكَرِ
مِنْ لفظةٍ قارَنَتْ نظائرها[6] قِرانَ سُقْمِ الجُفُونِ للحَوَرِ

وهي أكثر مِمَّا ذكر.

وكتب رحمه اللّه تعالى ـ أعني ذا الوزارتين ابن زيدون ـ إلى ولاّدة[7]: [البسيط]

أضْحَى التَّنائي بديلاً من تَدَانينا ونابَ عن طِيْبِ دُنْيَانا تَجَافِينا
ألاَ وقد حَانَ صُبْحُ الليلِ صَبَّحَنا حَيْنٌ فقامَ بِنَا للحَين ناعِينا
مَنْ مُبْلغُ الْمُلْبِسِينَا بانتزاحِهِم حُزْنًا مع الدهر لا يَبْلَى ويُبْلِينا
أنَّ الزمانَ الذي ما زال يُضحِكُنا أُنْسًا بِقُرْبِهِمُ قد عادَ يُبْكِينا
غِيظَ العِدَا من تساقينا الهوى فَدَعَوْا بأن نَغَصَّ فقال الدهرُ آمينا
فانحلَّ ما كان معقودًا بأنفسنا وأنبتَّ ما كان موصولاً بأيدينا
بالأمسِ كُنّا وما يُخْشَى تَفَرُّقُنا واليومَ نحن وما يُرْجَى تلاقينا[8]

---

(١) في الديوان: «تُبَرِّحُ بي. . .».
(٢) رواية عجز البيت في الديوان هي:

مَجالَ الطلِّ في حَدَقِ البَهارِ

(٣) في الديوان: «وإن يَك قَرَّ. . . من قرارِ».
(٤) في الديوان: «أجلَّ عِلْقٍ».
(٥) البيتان في ديوان ابن زيدون (ص ٢٧٨)، وهما مطلع قصيدة من عشرين بيتًا.
(٦) في الديوان: «نظيرتها».
(٧) ديوان ابن زيدون (ص ٩ ـ ١٣) وفيه ٥١ بيتًا، وهنا ٤٩ بيتًا.
(٨) في الديوان: «وقد نكون. . . فاليومَ نحن. . .».

يا ليت شعري ولم نُعْتِبْ أعاديَكُمْ   هل نال حَظًّا من العُتْبَى أعادينا
لم نعتقدْ بعدكُمْ إلاَّ الوفاء لكمْ   رأيًا ولم نتقلَّدْ غَيرَهُ دِينَا
كنَّا نرى اليأس تُسْلِينا عوارِضُهُ   وقد يَئِسْنا فما لليأس يُغْرِينا
بِنْتُمْ وبِنَّا فما ابتلَّتْ جوانحُنا   شوقًا إليكُمْ ولا جَفَّتْ مآقينا[1]
نَكادُ حين تُناجيكُمْ ضمائرُنا   يقضي علينا الأسَى لولا تأسِّينَا
حالتْ لفقدكُمُ أيامُنَا فغدتْ   سُودًا وكانت بكمْ بِيضًا ليالينا[2]
إذ جانبُ العيشِ طَلْقٌ من تألُّفنا   ومَوردُ اللهو صافٍ من تصافينا
وإذ هَصَرْنا فنونَ الوصل دانيةً   قُطُوفُها فجنينا منه ما شِينا[3]
لِيُسْقَ عهدُكُم عهدُ السرور فما   كنتمْ لأرواحنا إلاَّ رياحينا
لا تحسبوا نأيَكُمْ عنَّا يغيِّرنا   إنْ طال ما غَيَّرَ النأيُ المُحِبِّينَا
واللَّه ما طلبتْ أهواؤنا بَدَلاً   منكمْ ولا انصرفتْ عنكمْ أمانينا
يا ساريَ البرق غادِ القصرَ فاسْقِ[4] به   مَنْ كان صِرْفَ الهوى والوُدِّ يَسْقينا
واسألْ هنالك هل عَنَّى تذكُّرَنَا   إلْفًا تَذَكُّرُهُ أمسى يُعَنِّينا
ويا نسيمَ الصَّبا بَلِّغ تحيَّتَنا   مَنْ لو على البُعْدِ حَيًّا كان يحيينا
من لا يرى الدهر يقضينا مساعفةً   فيه وإن لم يكن عنَّا يقاضينا[5]
من بيتِ مُلْكٍ كأنَّ اللَّه أنشأه   مِسْكًا وقد أنشأ اللَّه الورى طِينا[6]
أو صاغه وَرِقًا مَحْضًا وتوَّجَهُ   مِنْ ناصعِ التِّبْرِ إبداعًا وتحسينا
إذا تأوَّدَ آدَتْهُ رفاهيةً   تُومُ العقودِ وأَدْمَتْهُ البُرَى لِينَا
كانت له الشمسُ ظِئْرًا في تكلُّله   بل ما تجلَّى لها إلاَّ أحايينا
كأنما أُثبتتْ في صحن وَجْنته   زُهْرُ الكواكب تعويذًا وتزيينا

(١) تقدم هذا البيت في هذا الجزء (ص ١٦٨).
(٢) كذلك تقدم هذا البيت (ص ١٦٨).
(٣) ما شِينا: أي ما شئنا.
(٤) في الديوان: «واسْقِ به».
(٥) رواية البيت في الديوان هي:
فهل أرى الدهر يَقْضينا مُساعَفَةً   منه، وإنْ لم يكنْ غِبًّا تَقاضِينا
(٦) في الديوان: «ربيبُ مُلْكٍ.. مسكًا، وقَدَّر إنشاء..».

ما ضَرَّ أن لم نكن أكفاءه شرفًا ... وفي المودّة كافٍ من تكافينا
يا روضةً طالما أجنتْ لواحِظَنَا ... وردًا جَلاَه الصِّبا غضًّا ونَسْرِينا
ويا حياةً تَمَلَّينَا بزهرتها ... مُنَى ضُرُوبًا ولذّاتٍ أفانينا
ويا نعيمًا خَطَرْنا من غَضَارتِهِ ... في وَشْي نُعْمَى سَحَبْنا ذيله حينا
لسنا نُسَمِّيك إجلالاً وتَكْرِمَةً ... وقدركِ المعتلي عن ذاك يُغْنينا
إذا انفردْتِ وما شُورِكْتِ في صفةٍ ... فحسبنا الوصفُ إيضاحًا وتبيينا
يا جَنَّةَ الخُلْد أبدِلْنَا بسلسلها ... والكوثرِ العذبِ زَقُّومًا وغِسْلينا
كأننا لم نبتْ والوصلُ ثالثنا ... والسعدُ قد غضَّ من أجفان واشينا
سرّان في خاطرِ الظَّلْماء تكتمنا[1] ... حتى يكاد لسانُ الصبح يُفْشينا
لا غرو في أن ذكرْنا الحُزْنَ حين نهتْ ... عنه النُّهى وتركْنا الصبرَ ناسِينا
إنَّا قرأنا الأسى يومَ النوى سُوَرًا ... مكتوبةً وأخذْنا الصبر تَلْقِينَا
أمّا هواكِ فلم نَعْدِلْ بمشربه[2] ... شُرْبًا وإن كان يُرْوينا فَيُظْمِينا
لم نَجْفُ أُفْقَ جمالٍ أنتِ كوكبه ... سالين عنه ولم نَهْجُرْه قالِينا
ولا اختيارًا تجنَّبْناك[3] عن كَثَبٍ ... لكنْ عَدَتْنا على كُرْهٍ عوادينا
نأسى عليك إذا حُثَّتْ مشعشعةً ... فينا الشَّمُولُ وغَنَّانَا مغنينا
لا أكؤسُ الراحِ تُبْدِي من شمائلنا ... سِيما ارتياحٍ ولا الأوتارُ تُلْهينا
دومي على العهد ما دُمْنا محافِظَةً ... فالحرُّ مَنْ دان إنصافًا كما دِينَا
فما اسْتَعَضْنا خليلاً عنكِ يَحْبِسُنا ... ولا استفدْنا حبيبًا عَنك يُغْنينا[4]
ولَوْ صَبَا نحونا مِنْ أُفْقِ مطلعه ... بدرُ الدجى لم يكن حاشاك يُصْبِينا
أبْلي[5] وفاء وإن لم تبذلي صِلَةً ... فالطيفُ يُقْنِعُنا والذكرُ يَكْفينا
وفي الجواب مَتَاعٌ لَوْ[6] شَفَعْتِ به ... بِيضَ الأيادي التي ما زِلْتِ تُولينا
عليكِ مني سلامُ اللّه ما بقيتْ ... صبابةٌ بك تُخْفِيها وتخفينا[7]

(١) في الديوان: «يَكْتُمُنا».
(٢) في الديوان: «بمنهله».
(٣) في المصدر نفسه: «تَجَنَّبْناهُ».
(٤) في طبعة بولاق: «حبيًا منك يغنينا». وفي الديوان: «يَثْنينا» بدل «يغنينا».
(٥) في الديوان: «أبكي وفاءً..».
(٦) في المصدر نفسه: «إنْ شَفَعْتِ».
(٧) في المصدر نفسه: «فتخفينا».

وإنما ذكرت هذه القصيدة - مع طولها - لبراعتها؛ ولأن كثيرًا من الناس لا يذكر جملتها، ويظنّ أنّ ما في القلائد وغيرها منها هو جميعها، وليس كذلك، فهي وإن اشتهرت بالمشرق والمغرب لم يذكر جملتها إلاّ القليل، وقد كنت وقفت بالمغرب على تسديس لها لبعض علماء المغرب، ولم يحضرني منه الآن إلاّ قوله في المطلع: [البسيط]

ما للعيونِ بسهمِ الغَنْجِ تُصْمينا[1] وعن قِطَافِ جَنَى الأعطافِ تحمينا
تألُّفٌ كان يحيينا ويُضْنينا تَفَرُّقٌ عاثَ في شملِ المحبينا
أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ونابَ عن طِيبِ دنيانا تجافينا

ما أحسن قوله في هذا التسديس: [البسيط]

ما للأحبّة دانوا بالنوى ورأوا تعريضَ عهد اللقا بالبعد حين نأوا
رَعَاهُمُ اللّه كانوا للعهودِ رَعَوا فغيّرتهم وشاةٌ بالفسادِ سَعَوا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فَدَعَوا بأنْ نَغَصَّ فقال الدهرُ آمينا

وقد ذكرنا في الباب الرابع موشحة ابن الوكيل التي وطّأ فيها لنونية ابن زيدون هذه فلتراجع[2].

رجع - وقال ذو الوزارتين ابن زيدون يتغزّل[3]: [مجزوء الرمل]

وَضَحَ الصبحُ المبينُ وجلا الشكَّ اليقينُ[4]
ورأى الأعداءُ ما غرَّ تْهُمُ منك الظنونُ
أمّلُوا ما ليس يُمْنَى ورجَوْا ما لا يكون
وتَمَنَّوا أن يخون الـ ـعبدَ[5] مولًى لا يخون
فإذا الغَيْبُ سليمٌ وإذا العهدُ[6] مَصُون
قُلْ لِمَنْ دان بِهَجْري وهواني إذ يدين[7]

---

(١) تُصْمينا: تصطادنا.
(٢) موشحة ابن الوكيل كاملة في الجزء الثاني.
(٣) ديوان ابن زيدون (ص ١٩ - ٢٠).
(٤) في الديوان: «وضح الحقُّ.. ونفى الشّكَّ..».
(٥) في الديوان «العَهْدَ» بدل «العَبْدَ».
(٦) في الديوان: «وإذا الوُدُّ».
(٧) رواية عجز البيت في الديوان هي:
وهَــــواهُ لـــيَ دِيــــنُ

أَرْخَصَ الحبُّ فؤادي ... لكَ والعِلْقُ ثمين
يا هلالاً تتراءا ... هُ نفوسٌ لا عُيون
عجبًا للقلب يقسو ... منكَ والعطفُ[1] يلين
ما الذي ضَرَّكَ لو سُرْ ... رَ بمرآكَ الحزينُ
وتَلَطَّفْتَ بصبٍّ[2] ... حَينُهُ فيكَ يحين
فوجوه اللطف[3] شتَّى ... والمعاذيرُ فُنون

وقال أيضًا[4]: [الوافر]

إليكِ من الأَنامِ غدا ارتياحي ... وأنتِ من الزمانِ[5] مدى اقتراحي
وما اعترضَتْ همومُ النَّفس إلاَّ ... ومِنْ ذكراكِ رَيْحاني وراحي
فديتُكِ، إنَّ صَبْري عنكِ صَبْري، ... لدى عَطَشي عن[6] الماء القَراحِ
ولي أملٌ لَوِ الواشونَ كَفُّوا ... لأَطْلَعَ غَرْسُهُ ثَمَرَ النَّجاح
وأَعْجَبُ كيف يَغْلِبُني عَدُوّ ... رِضاكِ عليه مِنْ أمضى سِلاح
ولَمّا أنْ جَلَتْكِ ليَ اختلاسًا ... أَكُفُّ الدهرِ للحَينِ المُتَاح[7]
رأيت الشمسَ تَطْلُعُ في[8] نِقابٍ ... وغُصْنَ البانِ يَرْفُلُ في وِشاحِ
فلو أَسْطيعُ طِرْتُ إليكِ شوقًا ... وكيف يطيرُ مَقْصُوصُ الجَناح
على حالَيْ وصالٍ واجتنابٍ ... وفي يومَيْ دُنُوّ وانْتِزاح
وحسبيَ أنْ تُطالِعَكِ الأماني ... بأُفْقِكِ في مساءٍ أو صباح
فؤادي من أَسًى بكِ غيرُ خالٍ ... وقلبي من[9] هَوًى لكِ غيرُ صاح
وأنْ تُهْدي السلامَ إليَّ[10] شوقًا ... ولو في بعض أنفاسِ الرياح

---

(١) في الديوان: «والقَدُّ يَلِيْنُ».
(٢) في الديوان: «لِصَبٍّ».
(٣) في المصدر نفسه: «اللفظ شتَّى».
(٤) ديوان ابن زيدون (ص ٤٨ ـ ٤٩).
(٥) في الديوان: «على الزمان».
(٦) في الديوان: «على الماء».
(٧) الحَيْنُ المُتاح: الهلاك المقدّر.
(٨) في الديوان: «من نِقابٍ».
(٩) في الديوان: «عن هوًى».
(١٠) في المصدر نفسه: «إليّ غِبًّا».

وقال[1]: [مجزوء الكامل]

كـــــم ذا أُريـــــدُ ولا أُرادُ؟ ... لـلّـهِ[2] مـا لـقـيَ الـفـؤادُ
أُصـفِـي الـوِدادَ إلـى الـذي[3] ... لـم يَـصْـفُ لـي مـنـه الـوِدادُ
كـيـفَ الـسُّـلُـوُّ عـن الـذي ... مـثـواه مـن قـلـبـي الـسـواد[4]
يَـقْـضـي عـلـيَّ دَلالُـهُ ... فـي كـلِّ حـيـنٍ أو يـكـاد
مَـلَـكَ الـقـلـوبَ بـحُـسْـنِـهِ ... فـلـهـا إذا أَمَـرَ انـقـيـاد
يـا هـاجـري كـم أسـتـفـيـ ... ـدُ الـصـبـرَ عـنـكَ فـلا أُفـاد
أفـلا[5] رَثَـيـتَ لـمـن يَـبِـيْـ ... ـتُ وحَـشْـوُ مُـقْـلَـتِـهِ الـسّـهـاد
إنْ أجْـنِ ذنـبًـا فـي الـهـوى ... خـطـأً فـقـد يـكـبـو الـجَـواد
كـان الـرضـا وأُعِـيـذُهُ ... أنْ يَـعْـقُـبَ الـكـونَ الـفَـسـادُ

وقال[6]: [المجتث]

مـتـى أُنَـبِّـيـكَ[7] مـا بـي ... يـا راحـتـي وعـذابـي
مـتـى يـنـوبُ لـسـانـي ... فـي شـرحـه عـن كـتـابـي
الـلّـهُ يـعـلـمُ أنـي ... أصـبـحـتُ فـيـك لِـمَـا بِـي
فـمـا يـلـذُّ مـنـامـي[8] ... ولا يـسـوغُ شـرابـي
يـا فـتـنـةَ الـمُـتَـعَـزِّي[9] ... وحُـجَّـةَ الـمُـتـصـابـي
الـشـمـسُ أنـتِ تـوارَتْ ... عـن نـاظـري بـالـحِـجـابِ
مـا الـنـورُ[10] شَـفَّ سَـنـاهُ ... عـلـى رقـيـقِ الـسَّـحـاب

---

(١) ديوان ابن زيدون (ص ٥١).
(٢) في الديوان: «يا سُوْء ما لقي. . .».
(٣) في الديوان: «مُدَلَّلاً» بدل «إلى الذي».
(٤) سواد القلب: مهجته. القاموس المحيط (سود).
(٥) في الديوان: «ألاَ. . .».
(٦) ديوان ابن زيدون (ص ٥٠).
(٧) في الديوان: «متى أَبُثُّكَ».
(٨) رواية صدر البيت في الديوان هي:

فـلا يـطـيـب طـعـامـي

(٩) في الديوان: «المُتَقَرِّي»، والمتقري: الناسك.
(١٠) في الديوان: «ما البدرُ. . .».

إلاَّ كَـوَجْـهِـكِ لَـمّـا أضـاء تـحـت الـنِّـقـاب[1]

وقال[2]: [مجزوء الرمل]

هـل لِـداعِـيـكَ مُـجِـيـبُ؟ أم لِـشـاكـيـكَ طـبـيـبُ
يـا قـريـبًـا حـيـن يَـنْـأى حـاضـرًا حـيـن يَـغِـيـبُ
كـيـف يَـسْـلُـوكَ مُـحِـبٌّ زانَـهُ مِـنْـكَ حـبـيـبُ
إنّـمـا أنـتَ نَـسِـيـمٌ تَـتَـلَـقّـاه الـقـلـوبُ
قـد عَـلِـمْـنـا عِـلْـمَ ظَـنٍّ هُـوَ لا شـكَّ مُـصـيـبُ
أنَّ سِـرَّ الـحُـسْـنِ مِـمّـا أَضْـمَـرَتْ تـلـك الـقـلـوبُ[3]

وقال[4]:

أَنَّـى تُـضَـيِّـعُ عَـهْـدَكْ؟ أم كـيـف تـخـلـفُ وَعْـدَكْ[5]
وقـد رأتـك الأمـانـي رِضًـا فـلـم[6] تَـتَـعَـدَّكْ
يـا لـيـت شـعـري وعـنـدي ما ليس في الحب عندكْ[7]
هل[8] طال لـيـلُـكَ بـعـدي كَـطُـوْلِ لـيـلـيَ بـعـدكْ
سَـلْـنـي حـيـاتـي أَهَـبْـهـا فـلـسـتُ أمـلـك رَدَّكْ
الـدهـرُ عَـبْـدِيَ لَـمّـا أصبحْتُ في الحبِّ عَبْدَكْ

وقال رحمه الله تعالى، وقد أمره السلطان أن يعارض قطعًا كان يُغَنَّى بها واستحسن ألحانها[9]: [المتقارب]

يُقَصِّرُ قُرْبُكَ ليلي الطويلاَ ويَشْفِي وِصالُكَ قلبي العَلِيلا

---

(١) النِّقاب: اللثام.
(٢) ديوان ابن زيدون (ص ٦٥).
(٣) في الديوان: «الجيوبُ».
(٤) ديوان ابن زيدون (ص ٥٥).
(٥) في الديوان: «أنّى أُضَيِّعُ . . أُخْلِفُ وَعْدَكْ».
(٦) في طبعة عبد الحميد: «فعلم»، وهكذا يتكسر الوزن.
(٧) رواية البيت في الديوان هي:
يـا لَـيْـتَ مـا لـكَ عـنـدي مِـنَ الـهَـوَى لـيَ عِـنْـدَكْ
(٨) في الديوان: «فطال ليلُكَ . .».
(٩) ديوان ابن زيدون (ص ٢٤٧).

وإنْ عَصَفَتْ منكَ رِيحُ الصُّدود فَقَدْتُ نسيمَ الحياةِ البَلِيلا
كما أنني إنْ أَطَلْتُ العِثارَ ولم يُبْدِ عُذْرِيَ وَجْهًا جَمِيلا
وَجَدْتُ أبا القاسم الظَّافِرَ المـ ـؤَيّدَ بالله مولًى مُقيلا[1]
لأقلامِهِ فِعْلُ أسيافِهِ يظلُّ الصَّريرُ يباري الصَّليلا[2]

وقال يُهَنِّيه بالقدوم من السفر[3]: [الرمل]

أيها الظافرُ أَبْشِرْ بالظَّفَرْ واجْتَلِ التأييدَ في أبهى الصُّوَرْ
وتَفَيَّأْ ظِلَّ سَعْدٍ يُجْتَنَى[4] فيه من غرس المنى أحلى الثمرْ
وردِ النُّجْحَ فكم مُسْتَوحَشٍ شائقٍ منك إلى أُنْسِ الصَّدَرْ[5]
كان مِنْ قُرْبِكَ في عيش نَدٍ عاطرِ الآصالِ وَضَّاحِ البُكَرْ
فَثَوَى دونك مَثْوَى قَلِقٍ يشتكي من ليله مَطْلَ السَّحَرْ
قُلْ لساقينا يجدْ أَكْؤُسَهُ ولشادِينا يُطِلْ قَطْعَ الوَتَرْ[6]

ومنها:

لِيَ فيه المَثَلُ السائرُ في جالبِ التَّمْرِ إلى أرضِ هَجَرْ
ثم قد وُفِّقَ عَبْدٌ عَظُمَتْ نِعْمَةُ المولى عليه فَشَكَرْ
لا عَدَا حَظَّكَ إقبالٌ يُرَى[7] قاضِيًا أبناءَه كلَّ وَطَرْ
واصْطَبِحْ كأسَ الرِّضا مِنْ مَلِكٍ سِرْتَ في إرضائه أزكى السِّيَرْ
حين صَمَّمْتَ إلى أعدائه فانْتَحَتْهُمْ مِنْكَ صَمَّاءُ الغِيَرْ[8]

---

(١) مُقِيلٌ: اسم فاعل من أقال؛ يقال: أقال عثرته إذا أنهضه من سقوطه.

(٢) رواية صدر البيت في الديوان هي:

وأقلامُهُ وَفْقُ أسيافِهِ

والصرير: صوت القلم. والصليل: صوت السيف.

(٣) ديوان ابن زيدون (ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦).

(٤) في الديوان: «تجتني».

(٥) في الديوان: «وردِ الصُّبْحَ... غَرِضٍ منك..». والغَرِضُ: المشتاق.

(٦) في المصدر نفسه: «يَحُز أكؤسه.. يَصِلْ قَطْعَ..».

(٧) في الديوان: «تُرَى».

(٨) هكذا في الديوان، وفي طبعة دار صادر: «الغُيَرْ».

فاض غَمْرٌ للندى مِنْ فوقِهِمْ كان يُرْوي شُرْبَهُمْ منه الغُمَرْ[1]
سَبَقَ الناسَ فصلّى سابقٌ إذ رأى آثاره مثلَ الزَّهَرْ[2]

وهي طويلة[3].

وقال رحمه اللّه تعالى[4]: [الرمل]

لم يكن هَجْرُ حبيبي عن قِلاً لا ولا ذاك التَّجَنِّي مَلَلاَ
سَرَّه دعوى ادعائي ثم لم[5] يَدْرِ ما غايةُ صبري فابتلى
أنا راضٍ بالذي يَرْضَى به ليَ من لو قال مُتْ ما قُلْتُ لا
مَثَلٌ في كلِّ حُسْنٍ مثلَ ما صار حالي[6] في هَواهُ مَثَلا
يا فَتِيتَ المِسْكِ يا شمسَ الضحى يا قضيبَ البانِ يا ظَبْيَ[7] الْفَلاَ
إنْ يكنْ لي أَمَلٌ غيرُ الرِّضا منكَ لا بُلِّغْتُ ذاك الأملا

وقال رحمه اللّه تعالى[8]: [البسيط]

أَذْكَرْتَنِي سالِفَ العَيش الذي طابا يا ليت غائبَ ذاكَ الوقتِ[9] قد آبا
إذ نحن في روضةٍ للوَصْلِ أَنْعَمِها[10] من السرور غَمامٌ فوقها صابا
إني لأعجبُ مِنْ شَوقٍ يُطالبني[11] فكلّما قِيلَ فيه قد قَضَى ثابا
كم نظرةٍ لكَ عندي قد عَلِمْتُ بها[12] يومَ الزيارةِ أنَّ القلبَ قد ذابا

---

(١) الغُمَرُ: قدح صغير.
(٢) في الديوان: «فصلّى منك مَنْ إنْ رأى آثارَهُ الزُّهَرَ اقْتَفَرْ».
(٣) القصيدة من ٢٦ بيتًا.
(٤) ديوان ابن زيدون (ص ٧٢).
(٥) رواية صدر البيت في الديوان هي:
سَرَّهُ شُكْرِيَ إذ عافى ولم
(٦) في الديوان: «صار ذُلِّي».
(٧) في الديوان: «يا رِيْمَ الفلا».
(٨) ديوان ابن زيدون (ص ٧٦ ـ ٧٧).
(٩) في الديوان: «ذاك العَهْدِ».
(١٠) في المصدر نفسه: «نَعَّمَها».
(١١) في الديوان: «يطاولني».
(١٢) رواية صدر البيت في الديوان هي:
كم نظرةٍ لكَ في عيني عَلِمْتَ بها

قلبٌ يُطِيلُ مُعَاصاتي لطاعتِكُمْ فإنْ أُكَلِّفْهُ يومًا سَلْوَةً يابى [1]

وقال رحمه الله تعالى [2]: [البسيط]

عاودتْ ذِكْرَ الهَوَى مِنْ بَعْدِ نسياني واستحْدَثَ القلبُ [3] بعد العشقِ سُلْواني
مِنْ حُبِّ جاريةٍ يَبْدو بها صَنَمٌ من اللُّجَينِ عليها [4] تاجُ عِقْيانِ
غَريرَةٌ لم تُفَارِقْها تمائِمُها تَسبي القلوبَ بساجي الطَّرْف وَسْنَان
لأَسْتَجِدَّنَّ في عِشْقي لها زَمَنًا يُحْيِي [5] سَوَالِفَ أيامي وأزماني
حَتَّى يَكُونَ [6] لِمَنْ أَحْبَبْتُ خاتِمَةً نَسَخْتُ في حُبِّها كُفْرًا بإيمانِ

وقال رحمه الله تعالى [7]: [الخفيف]

أنتَ معنى الهوى [8] وسِرُّ الدموعِ وسبيلُ الهوى وقَصْدُ الوَلُوعِ
أنتَ والشمسُ ضَرَّتَانِ ولكنْ لكِ عند الغروبِ فَضْلُ الطُّلوع
ليس يا مُؤْنِسِي نكلّفك العَتْـ ـبَ دلالاً من الرِّضا الممنوع [9]
إنما أنتِ والحسودُ مُعَنًّى كوكبٌ يستقيمُ بعد الرجوع

وقال رحمه الله تعالى [10]: [مجزوء السريع]

يا ليلُ، طُلْ لا أشتهي إلا كَعهدي [11] قِصَرَكْ
لو باتَ عندي قَمري ما بِتُّ أرعى قمرَكْ
يا ليلُ، خَبِّرْ أنني أَلْتَذُّ عَنْهُ خَبَرَكْ

---

(١) في الديوان: «مقاماتي» بدل «مُعاصاتي». وقوله «يابى» أي «يأبى»، وقد حذف الهمزة للضرورة الشعرية.
(٢) ديوان ابن زيدون (ص ٥٦).
(٣) في الديوان: «القلبُ شَوْقًا بعد سُلْوانِ».
(٤) في المصدر نفسه: «عليه».
(٥) في المصدر نفسه: «يُنْسي».
(٦) في الديوان: «حتى تكون..».
(٧) ديوان ابن زيدون (ص ٦٠).
(٨) في الديوان: «معنى الضَّنَى».
(٩) في الديوان: «ليس بالمُؤْيِسي تَكَلُّفُكِ... المطبوعِ».
(١٠) ديوان ابن زيدون (ص ٦٣).
(١١) في الديوان: «إلاَّ بِوَصْلٍ..».

بـالـلّـه قُـلْ لـي هـل وَفَـى؟ فـــقـــال لا بـــل غَـــدَرَكْ

وقال رحمه اللّه تعالى[1]: [المتقارب]

لئن فاتني منكِ حظُّ النَّظَرْ لأكْـتَـفِـيـنْ بِـسَـمـاعِ الـخَـبَـرْ
وإنْ عَـرَضَـتْ غَـفْـلَـةٌ لـلـرقـيـبِ فَحَسْبِيَ بتسليمةٍ[2] تُـخْـتَـصَـرْ
أُحـاذِرُ أنْ يَـتَـجَـنَّـى[3] الـوشـاةُ وقـد يُـسْـتَـدامُ الـهـوى بـالـحَـذَرْ
فـأصـبـرُ[4] مُـسْـتَـيـقِـنًـا أنـه سَيَحظى بِلَيلِ المُنَى مَنْ صَبَرْ

وقال أيضًا رحمه اللّه تعالى[5]: [مجزوء الرمل]

أيـهـا الـبَـدْرُ الـذي يَـمْـ ـلأ عَـيْـنَـيْ مَـنْ تـأمَّـلْ
حُـمِّـلَ الـقـلـبُ تـبـاريـ ـحَ الـتَّـجَـنِّـي فَـتَـحَـمَّـلْ
ثـم لا تـيـأسْ[6] فـكـم قـد نِـيـلَ أمـرٌ لـم يـؤمَّـلْ

وقال أيضًا رحمه اللّه تعالى[7]: [الطويل]

أَجِدُّ ومَنْ أهواهُ في الحُبِّ عابثُ وأُوفي له بالعَهْدِ إذ هو ناكِثُ
حبيبٌ نأى عنّي مع القُرْبِ والأسى مُقِيمٌ له في مُضْمَرِ القَلْبِ ماكثُ
جَـفـانـي بـألـطـافِ الـعِـدَا وأزالـه عن الوَصْلِ رأيٌ في القطيعة حادث
تَغَيَّرْتَ عن عَهْدي وما زلتُ واثقًا بـعـهـدك لـكـن غَـيَّـرَتْـكَ الـحـوادث
وما كُنْتُ إذ مَلَّكْتُكَ القَلْبَ عالمًا بـأنـيَ عـن حَـتْـفـي بِـكَـفِّـيَ بـاحـث
سَـتَـبْـلَـى الـلـيـالـي والـوِدادُ بـحـالـه مقيمٌ وغَضٌّ وهو للأرض وارث[8]
فـلـو أنـنـي أَقْـسَـمْـتُ أنـك قـاتـلـي وأنـيَ مـقـتـولٌ لَـمَـا قِـيـلَ حـانِـث[9]

---

(1) ديوان ابن زيدون (ص ٦٤).
(2) في طبعة بولاق وفي الديوان: «تسليمةٌ».
(3) في الديوان: «أن تَتَظَنَّى».
(4) في الديوان: «وأَصْبِرُ».
(5) ديوان ابن زيدون (ص ٥٨).
(6) في الديوان: «ثم لا يَأْسَ..».
(7) ديوان ابن زيدون (ص ٧٣).
(8) في الديوان: «جديدٌ وتَفْنَى وهْوَ..».
(9) الحانث: الذي لا يفي بعهده.

وقال رحمه اللَّه تعالى[1]: [مجزوء الخفيف]

يــا غــزالاً أصــارنــي مُـوثَـقًـا فـي يَـدِ الـمِـحَـنْ
إنـنـي مـذ هَـجَـرْتَـنـي لــم أَذُقْ لــذَّةَ الــوَسَــنْ
لــيــت حــظِّــي إشــارةٌ مـنـكَ أو لـحـظـةٌ تـعـنّ[2]
شـافـعـي يـا مُـعَـذِّبـي في الهوى وَجْهُكَ الحَسَنْ
كـنـتُ خِـلْـوًا مـن الـهـوى وأنـا[3] الـيـومَ مُـرْتَـهَـنْ
كــان سِـرِّي مُـكَـتَّـمًـا وهُــوَ الآنَ قــد عَــلَــنْ
لـيـس لـي عـنـكَ مَـذْهَـبٌ فـكـمـا شِـئْـتَ لـي فَـكُـنْ

وقال رحمه اللَّه تعالى[4]: [الوافر]

أيوحش لي[5] الزمانُ وأنتَ أنسي ويُظْلِمُ لي النهارُ وأنتَ شمسي
وأَغْرِسُ في محبّتِكَ الأماني وأجني[6] الموتَ من ثمرات غرسي
لقد جازَيْتَ غَدْرًا عن وفائي وبِعْتَ مودّتي ظُلْمًا بِبَخْسِ
ولو أنَّ الزمانَ أطاعَ حُكْمي فَدَيْتُكَ مِنْ مكارِهِهِ نَفْسِي

ومحاسن ابن زيدون كثيرة، وقد ذكرنا منها في غير هذا المحلّ جملة.

وسألتْ جارية من جواري الأندلس ذا الوزارتين أبا الوليد بن زيدون أن يزيد على بيت أنشدته إيّاه، وهو[7]: [البسيط]

يا مُغطِشي من[8] وصالٍ كنتُ وارِدَهُ هل منك لي غُلَّةٌ إنْ صحتُ: واعَطَشي

قال: وكانت الجارية المذكورة تتعشّق فتًى قرشيًا، والوزير يعلم ذلك، وهي لا تعلم أنه يعلم، فقال: [البسيط]

---

(1) ديوان ابن زيدون (ص ٢٠).
(2) في الديوان: «عَنَنْ».
(3) في الديوان: «فأنا».
(4) ديوان ابن زيدون (ص ٢٥).
(5) في الديوان: «أيوحشني الزمانُ».
(6) في الديوان: «فأجني».
(7) هذا البيت والأبيات التي تليه في ديوان ابن زيدون (ص ٧٥).
(8) في طبعة ليدن: «عن وصالٍ».

كَسَوتَنِي من ثيابِ السُّقم أسبَغَهَا ظُلْمًا وصيَّرتَ مِنْ لحفِ الضَّنَى فُرُشي
أنّى[1] بصرفِ الهوى عن مُقْلَةٍ كُحِلَتْ بالسِّحر منك وخدّ بالجمال وُشِي
لَمَّا بَدَا الصُّدْغُ مُسْوَدًّا بِأَحْمَرِهِ أَرَى التشاكلَ[2] بين الروم والحَبَش
أوفَى إلى الخَدِّ ثم انصاعَ مُنْعَطِفًا كالعُقْرُبَان[3] انثنى من خَوفِ محترِشِ
لو شِئْتَ زُرْتَ وسلكُ الليل[4] منتظمٌ والأفقُ يختالُ في ثوبٍ من الغَبَشِ
جَفَا إذا التذَّتِ الأجفانُ طيب كرًى جفني المنامَ وصاح الليلَ: يا قُرَشي[5]
هذا وإنْ تَلِفَتْ نفسي فلا عَجَبٌ قد كان قتليَ في تلك الجفونِ حُشي[6]

وكان لابن الحاج صاحب قرطبة ثلاثة أولاد من أجمل الناس صورة: رحمون، وعزّون، وحسون، فأولع بهم الحافظ الشهير أبو محمد ابن السيد البَطَلْيَوسي صاحب «شرح أدب الكاتب» وغيره وقال فيهم[7]: [البسيط]

أَخْفَيتُ سُقْمِيَ حتى كاد يُخْفيني وهِمْتُ في حبِّ عَزُّونَ فَعَزُّوني
ثم ارْحَمُونِي بِرَحْمُونَ وإنْ ظَمِئَتْ نفسي إلى ريقِ حَسُّونَ فَحَسُّوني

قال: ثم خاف على نفسه، فخرج عن قرطبة، وهو القائل: [الكامل]

نفسي الفداء لجؤذرٍ حُلْوِ اللَّمَى مُسْتَحْسَنٍ بصدودِهِ أفناني[8]
في فيه سِمْطًا[9] جوهرٍ يروي الظما لو عَلَّنِي بِبَرُودِهِ أحياني

وهذان البيتان تخرج منهما عدة مقطعات كما لا يخفى.

---

(١) في الديوان: «إني بَصَرْتُ الهَوَى...».
(٢) في الديوان: «أرى التسالُمَ».
(٣) العُقْربان: ذكر العقرب. المحترش: المصطاد.
(٤) في الديوان: «وسلكُ النَّجم».
(٥) رواية البيت في الديوان هي:
صَبًا، إذا التَذَّتِ الأجفانُ طعمَ كَرًى جَفَا المنامَ وصاحَ الليلَ: يا قُرَشي
(٦) رواية صدر البيت في الديوان هي:
قد كان موتيَ من تلك الجفونِ خُشِي
(٧) هذان البيتان والبيتان التاليان في أزهار الرياض (جـ ٣ ص ١٠٢، ١٣٤). وسيردان في الجزء الخامس.
(٨) الجؤذر: ولد البقرة الوحشية. اللَّمَى: سمرة مستحسنة في باطن الشفة.
(٩) السِّمْطُ: الخيط ما دام فيه الخرز، وإلاّ فهو سِلْك. مختار الصحاح (سمط).

وقال أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري الإشبيلي المعروف بالأبيض، في تهنئة بمولود، قال ابن دَحية: وهذا أبدع ما قيل في هذا المعنى[1]: [البسيط]

أصاخَتِ الخيلُ آذانًا لِصَرخَتِهِ ... واهتزَّ كلُّ هِزَبْرٍ عندما عَطَسَا

تَعَشَّقَ الدِّرْعَ مذ شُدَّتْ لفائِفُهُ ... وأَبْغَضَ المهدَ لَمَّا أَبْصَرَ الفَرَسَا

تَعَلَّمَ الركضَ أيامَ المخاضِ به ... فما امتطى الخيلَ إلاّ وهو قد فَرُسَا[2]

وقال الوزير الكاتب أبو عامر السالمي في غلام يرشّ الماء على خدَّيه فتزداد حمرتهما[3]: [البسيط]

لقد نَعِمْتُ بحِمّام تَطَلَّعَ في ... أرجائه قمرٌ والحُسْنُ يُكْمِلُهُ

أبْصَرْتُهُ كلّما راقتْ محاسِنُهُ ... ونعمةُ الجسم والأردافِ تُخْجِلُه

يرشُّ بالماء خدَّيْه فقلْتُ له ... صِفْ لي[4] لما أحمرُ الياقوتِ تَصْقُله

فقال طَرْفِيَ سَفَّاكٌ بصارمه ... دماءَ قومٍ على خَدِّي فأغسله

وقال أيضًا[5]: [مجزوء الرمل]

أَوْقَدَ النارَ بقلبي ... ثم هَبَّتْ ريحُ صدِّهْ

فشرارُ النارِ طارتْ ... فانطفتْ في ماء خَدِّهْ

وهو تخييل عجيب.

وقال ابن الحنّاط المكفوف الأندلسي في المعنى المشهور[6]: [الكامل]

لم يَخْلُ من نُوَبِ الزمان أديبُ ... كلاّ فشأنُ النائباتِ عجيبُ[7]

وغَضَارةُ الأيام تأبى أنْ يُرَى ... فيها لأبناء الذكاء نصيبُ

---

(١) الأبيات في المطرب (ص ٧٦) دون تغيير عمّا هنا.

(٢) فَرُس فلان فروسة وفراسة: حذق أمر الخيل.

(٣) الأبيات في المطرب (ص ٧٧) وهي لأبي الحسن بن المظفر من أهل مدينة دانية، وليست لأبي عامر السلمي، والسلمي هو الذي أنشدها، كما جاء في المطرب.

(٤) في المطرب: «صِف لي كذا أحمرَ..».

(٥) البيتان في المطرب (ص ٧٨) وهما فيه لأبي عامر السالمي.

(٦) الأبيات في الذخيرة (ق ١ ص ٤٤٨) والذيل والتكملة (جـ ٦ ص ٢٢٢).

(٧) في المصدرين السابقين: «ينوب».

وكذاك[1] مَنْ صَحِبَ الليالي طالبًا جَدًّا وفهمًا فاتَهُ المطلوبُ

وكان ابن الزَّقاق الأندلسي الشاعر المشهور - وقد تكرّر ذكره في هذا الكتاب[2] مرات كثيرة - يسهر في الليل، ويشتغل بالأدب، وكان أبوه فقيرًا جدًا، فلامه، وقال له: نحن فقراء، ولا طاقة لنا بالزيت الذي تسهر عليه، فاتّفق أن برع في الأدب والعلم ونَظْم الشعر، فقال في أبي بكر بن عبد العزيز صاحب بَلَنْسِية قصيدة أوّلها[3]: [السريع]

يا شمسَ خِدْرٍ ما لَهَا مَغْرِبُ أرامةٌ خِدْرُكِ أم يَثْرِبُ[4]
ذَهَبْتِ فاستَعْبَرَ طَرْفِي دَمًا مُفَضَّضُ الدَّمعِ به مُذْهَبُ

ومنها:

ناشَدْتُكَ اللَّهَ نسيمَ الصَّبا أنّى[5] اسْتَقَرَّتْ بَعْدَنا زينبُ
لم نَسْرِ[6] إلاَّ بشَذَا عَرْفِها أو لا فماذا النَّفَسُ الطَّيِّبُ
إيهِ وإنْ عَذَّبَني حُبُّها[7] فمن عذابِ النَّفْسِ ما يَعْذُبُ

فأطلق له ثلثمائة دينار، فجاء بها إلى أبيه وهو جالس في حانوته مُكبٌّ على صنعته، فوضعها في حجره، وقال: خُذْها فاشْتَرِ بها زيتًا.

وقال رحمه اللَّه تعالى في غلام رمى[8] حجرًا فشَدَخَ وجهه[9]: [المتقارب]

وأحوى رمى عن قِسِيِّ الحَوَرْ سِهامًا يُفَوِّقُهُنَّ[10] النظَرْ
يقولون وَجْنَتُهُ قُسِّمَتْ ورَسْمُ[11] محاسِنِهِ قد دَثَرْ

---

(١) في المصدرين: «ولذاك».

(٢) في طبعة دار صادر: «هذا التأليف».

(٣) ديوان ابن الزقاق البلنسي (ص ٨٠ - ٨١) والمغرب (جـ ٢ ص ٣٢٥).

(٤) في طبعة عبد الحميد: «أرامةٌ خِدْرُك». وفي الديوان والمغرب: «أرامةٌ دارُك أم غُرَّبُ».

(٥) في الديوان: «أين استقرّتْ». وفي المغرب: «أين استقلّتْ».

(٦) في الديوان والمغرب: «لم تَسْرِ».

(٧) في المصدرين السابقين: «ذكرها» بدل «حُبّها».

(٨) في طبعة عبد الحميد: «رامى يرمي حجرًا».

(٩) ديوان ابن الزقاق (ص ١٧٩) والمطرب (ص ١٠١). والبيتان الثالث والرابع في المغرب (جـ ٢ ص ٣٣٢).

(١٠) فَوَّقَ السَّهْمَ: صوَّبه وجعل له فُوْقًا. لسان العرب (فوق).

(١١) في الديوان: «فرسمُ».

وما شَقَّ وَجْنَتَهُ عابثًا[1] ... ولكنها آيةٌ للبَشَرْ
جلاها لنا اللّه كيما نرى ... بها كيف كان انشقاقُ القَمَرْ

وقال أيضًا[2] : [الكامل]

بأبي وغيرُ أبي أغَنُّ مُهَفْهَفٌ ... مَهْضُومُ ما خَلْفَ الوشاحِ خَمِيصُهُ
لَبِسَ السوادَ[3] وَمَزَّقَتْهُ جُفُونُهُ ... فأتى كيوسُفَ حين قُدَّ قَمِيصُهُ

وقال أيضًا[4]: [الطويل]

سَقَتْني بِيُمْناها وفِيها فلم أزَلْ ... يُجاذبني من ذا ومن هذِهِ سُكْرُ
تَرَشَّفْتُ فاها إذ تَرَشَّفْتُ كأسَها ... فلا والهَوَى لم أَدْرِ أيُّهما الخَمْرُ

وقال[5]: [البسيط]

رَقَّ النسيمُ وراقَ الروضُ بالزَّهَرِ ... فَنَبِّهِ الكأسَ والإبريقَ بالوترِ
ما العيشُ إلاَّ اصطباحُ الراحِ أو شَنَبٌ ... يُغْني عن الراحِ من سَلْسالِ ذي أُشُرِ
قُلْ للكواعب غُضِّي للكرى مُقَلاً ... فأعيُنُ الزَّهْرِ أولى مِنْكِ بالسَّهَرِ
وللصباحِ ألاَ فانشرْ رداءَ سَنًا ... هذا الدُّجى قد طَوَتْه راحةُ السَّحَرِ
وقامَ بالقهوةِ الصهباءِ ذو هَيَفٍ ... يكادُ مِعْطَفُهُ يَنْقَدُّ بالنَّظَرِ
يَطْفو عليها إذا ما شَجَّها دُرَرٌ ... تخالُها اخْتُلِسَتْ من ثغره الخَصِرِ
والكأسُ من كَفِّه بالراحِ محدقةٌ[6] ... كهالَةٍ أَحْدَقَتْ في الأُفْقِ بالقمرِ

وقال[7]: [الطويل]

تَضَوَّعْنَ أنفاسًا وأَشْرَقْنَ أَوْجُهًا ... فهنَّ منيراتُ الصباحِ بَواسِمُ

---

(١) في الديوان والمطرب والمغرب: «عابثٌ».
(٢) ديوان ابن الزقاق (ص ١٩٦). وسيردان في الجزء الخامس ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٣) في الديوان: «لبس الفؤادَ..».
(٤) ديوان ابن الزقاق (ص ١٧٨ ـ ١٧٩).
(٥) المصدر نفسه (ص ١٧٣ ـ ١٧٤).
(٦) رواية صدر البيت في الديوان هي:

فالكأسُ في كَفِّه بالراحِ مُتْرَعَةٌ

(٧) ديوان ابن الزقاق (ص ٢٩٧).

لئن كُنَّ زُهْرًا فالجوانحُ أبرجٌ وإنْ كُنَّ زَهْرًا فالقلوبُ كمائم

وهو من بديع التقسيم.

وقال السميسر[1]: [الوافر]

تَحَفَّظْ مِنْ ثيابكَ ثم صُنْها وإلاَّ سوف تَلْبَسُها حِدادا
وَمَيِّزْ في زمانك كلَّ[2] حبرٍ وناظِرْ أهلَه تَسُدِ العِبادا
وظُنَّ بسائر الأجناسِ خيرًا وأَمّا جنسُ آدمَ فالبِعادا
أرادوني بجمعهمُ فَرُدُّوا على الأعقابِ قد نَكَصُوا فُرَادى
وعادوا بَعْدَ ذا إخوانَ صِدْقٍ كبعضِ عقاربٍ رَجَعَتْ[3] جَرادا

وقال ابن رَزِين، وهو من رجال الذخيرة[4]: [مجزوء الكامل]

لأسَرِّحَنَّ نواظري في ذلك الروض النضيرِ[5]
ولآكُلَنَّكَ بالمُنَى ولأَشْرَبَنَّكَ بالضميرِ

وقال سلطان بَلَنْسِيَةَ أبو عبد الملك مروان بن عبد الله بن عبد العزيز[6]:

[الطويل]

---

(١) الأبيات في الذخيرة (ق ١ ص ١ ص ٨٩٥). وفي المغرب (جـ ٢ ص ١٠٠-١٠١) عدا البيت الثاني.
(٢) في الذخيرة: «كلّ جِبْنٍ وتافِرٍ».
(٣) في الذخيرة والمغرب: «عادت جرادا».
(٤) هو أبو مروان عبد الملك بن رزين، الملقب بحسام الدولة، أحد ملوك الطوائف بالأندلس، توفي سنة ٤٩٦ هـ. ترجمته في الذخيرة (ق ٣ ص ١٠٩) وقلائد العقيان (ص ٥١) والمغرب (جـ ٢ ص ٤٢٨) والمطرب (ص ٣٩) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٠٥) والحلة السيراء (جـ ٢ ص ١٠٨). والبيتان في الذخيرة (ص ١١٩).
(٥) رواية البيت في الذخيرة هي:
لأسرحنَّ لواحظي في ذلك الورد النضيرِ
(٦) في أصول النفح: «عبد الملك..» بدون «أبو»، وقد صوّبناه عند المطرب (ص ٨٠، ٨٣) حيث ورد شعره. وسيرد اسمه كما صححناه في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ٣٥٦) وهو أبو عبد الملك مروان بن عبد الله بن مروان بن محمد بن مروان بن عبد العزيز، من أهل بلنسية، وكان قاضيها ورئيسها، ثم خُلع وانفصل عنها واعْتُقِل ببعض معاقل ميورقة ١٢ سنة. ثم تخلّص وسار إلى مراكش، وبها توفي سنة ٥٧٨ هـ. والبيتان في المطرب (ص ٨٣) دون تغيير عمّا هنا، وسيردان في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ٣٨٠).

ولا غَرْوَ بعدي أن يُسَوَّدَ مَعْشَرٌ فَيُضحي لهم يومٌ وليس لهم أَمْسُ
كذاك نجومُ الجَوِّ تبدو زواهرًا إذا ما تَوارَتْ في مغاربها الشمسُ

وتحاكم إلى أبي أيوب سليمان بن محمد بن بطال البَطَلْيَوسي المعروف بالمتلمس[1] غلامان جميلان لأحدهما وَفْرَة شقراء، وللآخر سوداء: أيهما أحسن؟ والمتلمس المذكور هو صاحب كتاب «الأحكام، فيما لا يستغني عنه الحكام» فقال: [البسيط]

وشادِنَيْنِ ألَمَّا بي على مِقَةٍ تَنازعا الحُسْنَ في غاياتِ مُسْتَبِقِ
كأنَّ لِمَّةَ ذا مِنْ نَرْجِسٍ خُلِقَتْ على بَهَارٍ وذا مِسْكٌ على وَرِقِ
وحَكّما الصَّبَّ في التفضيل بينهما ولم يَخافا عليه رَشْوَةَ الحَدَقِ
فقام يُدْلِي إليه الرِّيمُ حُجَّتَهُ مُبَيِّنًا بلسانٍ منه مُنطَلِقِ
فقال: وجهيَ بَدْرٌ يُسْتضاء به ولونُ شعريَ مصبوغٌ[2] مِنَ الغَسَقِ
وكُحْلُ عينيَ سحرٌ للنُّهى وكذا[3] والسحرُ أحسَنُ ما يُعْزَى إلى الحدق
فقال[4] صاحبه: أحسنتَ وصفك لـ كنْ فاستمعْ لمقالٍ فيَّ مُتَّفقِ
أنا على أُفْقي شمسُ النهارِ، ولم تَغْرُبْ وشُقْرةُ شعري حمرةُ[5] الشفق
وفَضْلُ ما عِيبَ في عينيَّ من زَرَقٍ أنَّ الأَسِنَّةَ قد تُعزَى إلى الزَّرَقِ
قضيتُ لِلِّمَةِ الشقراء حيث حَكَتْ نُورًا[6] كذا حُبُّها يقضي على رَمَقِي
فقام ذو اللِّمّةِ السوداءِ يَرْشُقُني[7] سهامَ أجفانه من شدّة الحَنَقِ
وقال جُرْتَ فقلتُ الجورُ منك على قلبي ولي شاهدٌ من دمعيَ الغَدِقِ
فقلْتُ عَفْوَكَ إذ أَصْبَحْتُ مُتَّهمًا فقال دونك هذا الحبلَ فاخْتَنِقِ

وقال أبو محمد عبد الله بن غالب: [الكامل]

(١) ترجمة سليمان بن محمد بن بطال في جذوة المقتبس (ص ٢٢٢) وبغية الملتمس (ص ٢٩٧)، وقصيدته هذه في المطرب (ص ٨٥ ـ ٨٦) وكتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس (ص ١٢٦ ـ ١٢٧).
(٢) في المطرب والتشبيهات: «مقطوع من الغَسَقِ».
(٣) في المطرب: «وكذاك السِّحْرُ».
(٤) في المطرب: «وقال».
(٥) في المطرب والتشبيهات: «شقرة الشفق».
(٦) في المطرب: «لوني كذا حَبُّها. .». وفي التشبيهات: «لوني كذا حُبُّهُ. .».
(٧) في المطرب والتشبيهات: «تَرْشُقُني سهامُ. .».

وَمُهَفْهَفٍ خَنِثِ الجفون كأنما مِنْ أَرْجُلِ النملِ استفاد عِذارا
فتخاله ليلاً إذا استقبلتَهُ وتخالُ ما يجري عليه نهارا

وقال أبو القاسم خلف بن فرج السميسر المتقدّم[1]: [المجتث]

النَّاسُ مِثْلُ حَبابٍ والدَّهْرُ لُجَّةُ ماءِ[2]
فَعَالَمٌ في طُفُوِّ وعالَمٌ في انطِفاءِ[3]

وقال أحمد بن بُرْد الأندلسي في النرجس، وهو البَهار عند الأندلسيين، ويسمَّى العَبْهَر[4]: [الطويل]

تَنَبَّهْ فقد شَقَّ البهارُ مُغَلِّسًا كمائمه عن نَورِهِ الخَضِلِ النَّدِي[5]
مَدَاهِنُ تِبْرٍ في أنامِلِ فِضَّةٍ على أَذْرُعٍ مخروطةٍ من زبرجدِ

وقال الوزير عبد المجيد بن عبدون في دار أنزله بها المتوكل بن الأفطس وسقفُها قديم، فهطل عليه المطر منه[6]: [الطويل]

أيا ساميًا من جانِبَيهِ إلى العُلاَ (سموَّ حَبَابِ الماءِ حالاً إلى حالِ)
لِعَبْدِكَ دارٌ حَلَّ فيها كأنها (ديارٌ لسلمى عافياتٌ بذي الخالِ)
يقولُ لها لَمَّا رأى مِنْ دثورِها (ألا عِمْ صباحًا أيها الطلل البالي)

---

(١) البيتان لابن الحداد الأندلسي، وليسا للسميسر، وقد وردا في ديوانه (ص ١٥٣) وفي الذيل والتكملة (جـ ٦ ص ١١) ومختارات من الشعر الأندلسي (ص ١٣٥).

(٢) الحَباب: فقاقيع الماء، وهنا يشبّه الدهرَ بلجّة الماء والناس بفقاقيعه.

(٣) الطُّفُوّ: من طفا الشيءُ فوق الماء إذا علا ولم يرسب. الانطفاء: ذهاب اللهب. يريد أن يقول في هذا البيت والذي قبله: إن الناس فريقان، فريق له حظ من الدنيا فوصل إلى مناصب هامة في الدولة، وفريق ـ وهو منه ـ لم يغنم بشيء فاكتنفته سعايات وأُبعِد عن هذه المناصب.

(٤) البيتان في الذخيرة (ق ١ ص ٥١٩) وجذوة المقتبس (ص ١١٦) وبغية الملتمس (ص ١٦٥) وسيردان في الجزء الخامس من نفح الطيب والبيت الأول هناك مختلف ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٥) في الذخيرة: «زهره» بدل «نوره». وفي الجذوة: «كِمامِيه عن نوّاره المخضّل». وفي البغية: «كماميه» بدل «كمائمه».

(٦) ما بين قوسين من قصيدة امرىء القيس ومطلعها:

ألاَ عِمْ صباحًا أيها الطَّلَلُ البالي وهل يَعِمَنْ من كان في العُصُرِ الخالي؟

ديوان امرىء القيس (ص ٢٧، ٣١، ٣٤). وأبيات ابن عبدون اليابري في المطرب (ص ١٨٢) ببعض الاختلاف عمّا هنا. وسترد أبيات ابن عبدون في الجزء الخامس ببعض الاختلاف عمّا هنا.

فـقـالـتْ ولَـمْ تـعـبأ بـردُ جـوابـه[1] (وهل يَعِمَنْ من كان في العُصُر الخالي)
فَمُرْ صاحبَ الإنـزال فيـها بـفـاصـلٍ (فإنَّ الـفـتـى يَـهْـذِي ولـيـس بِـفَـعَّـالِ)

قيل: وهو أبو عُذْرَة تضمين لامية امرىء القيس، وقد أُولع الناس بعده بتضمينها.

وقال أبو الفضل بن حسداي[2]، وكان يهوديًا فأسلم، ويقال: إنه من ولد موسى على نبيّنا وعليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام[3]: [البسيط]

تـوريـدُ خَـدِّكَ لـلأحـداق لَـذّاتُ عـلـيـه مـن عَـنْـبَـرِ الأصـداغ لامـاتُ
نِيرانُ هَجْرِكَ للعُشّاق نارُ لَظًى لكنَّ وصالَكَ[4] إنْ واصَلْتَ جَنّاتُ
كـأنـمـا الـراحُ والـراحـاتُ تَـحْـمِـلُـهـا بُدُوْرُ تِمّ وأيـدي الـشَّـرْبِ هـالاتُ
حـشـاشـةٌ مـا تَـرَكْـنـا الـمـاءَ يَـقْـتُـلُـهـا إلاَّ لِـتَـحْـيَـا بـهـا مِـنّـا حُـشـاشـاتُ
قد كان مِنْ قَبْلِها في كأسها ثِقَلٌ[5] فَخَفَّ إذ مُلِئَتْ منها الزجاجاتُ

وقد تبارى المشارقة والمغاربة من المتقدّمين والمتأخّرين في هذا الوزن والقافية، ولولا خوف السآمة لذكرت من ذلك الجملة الشافية الكافية.

ومن سرعة جواب أهل الأندلس أنّ ابن عبد ربه[6] كان صديقًا لأبي محمد يحيىٰ القلفاط الشاعر، ففسد ما بينهما بسبب أنّ ابن عبد ربه صاحب العقد مَرَّ به يومًا وكان في مشيه اضطراب، فقال: أبا عمر ما عَلمْتُ أنك آدَرُ[7] إلاَّ اليومَ لَمّا رأيتُ مشيك، فقال له ابن عبد ربه: كَذَبَتْكَ عِرْسُك[8] أبا محمد، فَعَزَّ على القلفاط كلامُهُ، وقال له: أَتَتَعَرَّضُ

---

(١) رواية صدر البيت في طبعة دار صادر هي:

فـقـالـت ومـا عَـيَّـتْ جـوابًـا بـردُهـا

(٢) مَرَّ التعريف بأبي الفضل ابن حسداي والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثاني.
(٣) الأبيات في قلائد العقيان (ص ١٨٣) والمطرب (ص ١٩٦)، وقد تقدمت ضمن ١١ بيتًا في الجزء الثاني من نفح الطيب باختلاف يسير عمّا هنا.
(٤) في قلائد العقيان: «وصلك».
(٥) رواية صدر البيت في القلائد والمطرب هي:

قـد كـان فـي كـأسـهـا مـن قـبـلـهـا ثِـقَـلٌ

(٦) هذه الحكاية والشعر في بدائع البدائه (جـ ١ ص ٥١).
(٧) الآدَرُ: هو من أصابه فِتْقٌ في إحدى خِصْيتيه. لسان العرب (أدر).
(٨) العِرْس، بكسر العين: الزوجة. لسان العرب (عرس).

للحُرَمِ؟ والله لأَرَيَنَّكَ كيف الهجاء، ثم صَنَعَ فيه قصيدةً أوّلها: [البسيط]

يا عِرْسَ أحمدَ، إني مُزْمِعٌ سَفَرًا   فودِّعيني سِرًّا من أبي عُمَرا

ثم تهاجيا بعد ذلك. وكان القلفاط يلقبه بِطِلاسٍ لأنه كان أطلس اللحية، ويسمّي كتاب «العِقْد» حبل الثوم، فاتّفق اجتماعهما يومًا عند بعض الوزراء، فقال الوزير للقلفاط: كيف حالك اليوم مع أبي عمر؟ فقال مرتجلاً: [السريع]

حَالَ طِلاسٌ لي عن رائِهِ   وكنتُ في قُعْدُدِ أبنائِهِ[1]

فبدر ابن عبد ربه وقال[2]: [السريع]

إن كُنْتَ في قُعْدُدِ أبنائِهِ   فقد سَقَى أمَّكَ من مائِهِ[3]

فانقطع القلفاط خجلاً. وعاش ابن عبد ربه ٨٢ سنة، رحمه الله تعالى!

ومن الحكايات في مروءة أهل الأندلس ما ذكره صاحب «الملتمس» في ترجمة الكاتب الأديب الشهير أبي الحسين بن جبير صاحب الرحلة، وقد قدَّمْنا ترجمته في الباب الخامس من هذا الكتاب، وذكرْنا هنالك أنه كان من أهل المروءات عاشقًا في قضاء الحوائج والسعي في حقوق الإخوان، وأنشدنا هنالك قوله:

يحسب الناسُ بأني مُتْعَبٌ

إلى آخره.

وقد ذكر ذلك كلّه صاحب «الملتمس» ثم قال - أعني صاحب الملتمس -:

ومن أغربِ ما يحكي أني كنت أحرَصَ الناس على أن أُصاهر قاضي غرناطة أبا محمد عبد المنعم بن الفرس[4]، فجعلته - يعني ابن جبير - الواسطة حتى تيسّر ذلك، فلم يوفّق الله ما بيني وبين الزوجة، فجئته وشكوت له ذلك، فقال: أنا ما كان القصد لي في اجتماعكما،

---

(١) طِلاسٌ: كلمة لم ترد في معاجم اللغة العربية، والطَّلْسُ: المَحْوُ؛ يقال: طَلَسَ الكتابَ وطَلَّسه إذا محاه. قوله: عن رائه: أي عن رؤيته. القُعْدُدُ: القريب الآباء من الجَدِّ الأعلى. ويريد القلفاط أن يقول: إن صديقه ابن عبد ربه ابتعد عنه ومنعه من رؤيته.

(٢) ديوان ابن عبد ربه (ص ١٩).

(٣) في البيت شتيمة كبيرة وجّهها ابن عبد ربه للقلفاط، حيث جعله ابنَ زانية، وقد زَنَتْ به.

(٤) في طبعة عبد الحميد: «الفرس».

ولكن سعيت جَهْدِي في غرضك، وها أنا أسعى أيضًا في افتراقكا، إذ هو من غرضك، وخرج في الحين ففصل القضية، ولم أرَ في وجهه أولاً ولا آخرًا عنوانًا لامتنانٍ ولا تصعيب، ثم إنه طرق بابي، ففتحت له، ودخل وفي يده محفظة فيها مائة دينار مؤمنية، ثم قال: يا ابن أخي، اعلمْ أني كنت السبب في هذه القضية، ولم أشكَّ أنك خسرت فيها ما يقارب هذا القدر الذي وجدته الآن عند عمِّك، فباللّه إلاّ ما سَرَرْتني بقبوله، فقلت له: أنا ما أستحيي منك في هذا الأمر، واللّه إنْ أخذت هذا المال لأتلفتُه فيما أتلفتُ فيه مال والدي من أمور الشباب، ولا يحلّ لك أن تمكنني منه[1] بعد أن شرحت لك أمري، فتبسّم وقال: لقد احتلْتَ في الخروج عن المنّة بحيلة، وانصرف بماله، انتهى.

ثم قال صاحب «الملتمس»: وتذاكرْنا يومًا معه حالة الزاهد أبي عمران المارتلي[2]، فقال: صحبْتُه مدّة فما رأيْتُ مثله، وأنشدني شعرين ما نسيتهما، ولا أنساهما ما استطعت، فالأول قوله[3]: [المتقارب]

إلى كَمْ أقولُ فلا[4] أَفْعَلُ ... وكَمْ ذا أَحُومُ ولا أَنْزِلُ
وأزجُرُ عيني فلا تَرْعَوِي ... وأَنْصحُ نَفْسي فلا تَقْبَلُ
وكَمْ ذا تُعَلِّلُ لي وَيْحَها ... بِعَلَّ وسوف وكم تَمْطُلُ
وكم ذا أؤمِّلُ طُولَ البقا ... وأَغْفُلُ والموتُ لا يَغْفُلُ
وفي كلِّ يوم يُنادي بنا ... مُنادي الرحيلِ ألاَ فارحلوا[5]
أَمِنْ بَعْدِ سبعين أرجو البقا ... وسَبْعٍ أتتْ بعدها تَعْجِلُ
كأنْ بي وشيكًا إلى مصرعي ... يُسَاقُ بنعشي ولا أُمْهَلُ
فيا ليت شعريَ بعد السؤال ... وطولِ المُقامِ لما أُنْقَلُ

والثاني قوله[6]: [مجزوء الكامل]

اسْمَعْ أُخَيَّ نَصِيحَتي ... والنُّصْحُ مِنْ مَحْضِ الديانهْ

---

(١) في طبعة ليدن: «به».
(٢) هو أبو عمران موسى بن عمران المارتلي، وقد مرَّ التعريف به والإشارة إلى مصادر ترجمته في هذا الجزء (ص ١٩٨).
(٣) الأبيات في الغصون اليانعة (ص ١٣٦ ـ ١٣٧) والمغرب (جـ ١ ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧).
(٤) في المصدرين السابقين: «ولا».
(٥) في المغرب: «ألا فانزلوا».
(٦) الأبيات في الغصون اليانعة (ص ١٣٦) والمغرب (جـ ١ ص ٤٠٧) دون تغيير عمّا هنا.

لا تَـقْـرَبَـنَّ إلـى الـشـهـا دَةِ والـوَسـاطـةِ والأَمـانـةْ
تَسْلَمْ مِنَ أن تُعْزى لِزُوْ رِ أو فُضُـولٍ أو خـيـانـةْ

قال: فقلت له: أراك لم تعمل بوصيّته في الوَسَاطة، فقال: ما ساعدتني رقة وجهي على ذلك، انتهى.

رجع إلى نظم الأندلسيين:

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز[1]: [المنسرح]

أفضلُ ما اسْتَصْحَبَ النبيلُ فلا تَعْدِلْ به في المُقام والسَّفَرِ
جِرْمٌ إذا ما التَمَسْتَ قيمتَهُ جَلَّ عن[2] التِّبْرِ وهو من صُفُرِ
مُخْتَصَرٌ وهو إذ تُفَتِّشُه عن مُلَحِ العلمِ غير مختصرِ
ذو مُقْلَةٍ تَسْتَبِينُ ما رَمَقَتْ عن صائبِ اللحظِ صادقِ الخبرِ
تَحْمِلُهُ وهو حاملٌ فَلَكًا لو لم يُدَرْ بالبَنان لم يَدُرِ
مسكنُهُ الأرضُ وهو يُنْبِئُنا[3] عن كلِّ ما في السماءِ مِنْ خبرِ
أبدعه ربُّ فكرةٍ بَعُدَتْ في[4] اللطفِ عن أن تقاسَ بالفِكَرِ
فاستوجَبَ الشكرَ والثناءَ به[5] من كلِّ ذي فطنةٍ مِنَ البشرِ
فهو لِذِي اللُّبِّ شاهِدٌ عَجَبٌ على اختلافِ العقولِ والصُّوَرِ[6]

قلت: وهي من أحسن ما سمعت في الاصطرلاب.

وأمر رحمه الله تعالى أن يُكْتَبَ على قبره[7]: [الطويل]

---

(١) في طبعة بولاق: «وقال ابن أبي الصلت أمية». والأبيات في خريدة القصر ـ قسم شعراء المغرب (جـ ١ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٥١١ ـ ٥١٢).
(٢) في عيون الأنباء: «على التِّبرِ».
(٣) في عيون الأنباء: «عن جُلّ». وفي الخريدة: «وهو مُنْبئنا عن جُلّ».
(٤) في الخريدة: «غايتها أن تُقاسَ..».
(٥) في عيون الأنباء والخريدة: «له» بدل «به».
(٦) في المصدرين السابقين: «والفطر»..
(٧) الأبيات في خريدة القصر ـ قسم شعراء المغرب (جـ ١ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠) ووفيات الأعيان (جـ ١ ص ٢٤٦) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٥٠٣ ـ ٥٠٤)، وتقدمت في الجزء الثاني من نفح الطيب وفيه: «ثمّ عنّي ورحمة» بدل «من غنيّ ومفضل» في البيت الأخير.

سَكَنْتُكِ يا دَار الفناءِ مُصَدِّقًا بأني إلى دارِ البقاءِ أَصِيرُ
وأَعْظَمُ ما في الأمر أنيَ صائِرٌ إلى عادلٍ في الحُكْم ليس يَجُوْرُ
فيا لَيْتَ شعري كيف ألقاه عِنْدَها[1] وزادي قليلٌ والذنوبُ كثيرُ
فإنْ أكُ مَجْزِيًا بذنبي فإنني بِشَرِّ عِقاب[2] المذنبين جديرُ
وإنْ يَكُ عَفْوٌ من غَنِيّ ومُفْضِلٍ[3] فَثَمَّ نَعِيمٌ دائمٌ وسرورُ

وقال ابن خفاجة، وهو مما أورده له صاحب الذخيرة[4]: [الطويل]

لقد زارَ مَنْ أَهْوَى على غَيرِ مَوعِدٍ فعايَنْتُ بَدْرَ التِّمِّ ذاكَ التلاقيا
وعاتَبْتُه والعَتْبُ يحلو حديثُهُ وقد بَلَغَتْ روحي لديه التراقيا[5]
فلمَّا اجتمعْنا قلتُ مِنْ فَرَحِي به مِنَ الشُّعْرِ بيتًا والدموعُ سواقيا
(وقد يجمعُ اللَّه الشتيتَينِ بَعْدَما يَظُنَّانِ كلَّ الظنِّ أنْ لا تلاقيا)[6]

ومن مُجُون الأندلسيين هذه القصيدة المنسوبة لسيدي أبي عبد اللَّه بن الأزرق، وهي: [مجزوء الرمل]

عِمْ باتّصال الزمنِ ولا تُبالي بِمَنِ
وهو يواسي بالرضا مِنْ سَمِجٍ أو حَسَنِ
أو مِنْ عجوزٍ تحتظي[7] والظهرُ منها منحني
أو من مليحٍ مُسْعِدٍ موافقٍ في الزمنِ
مهما تَبَدَّى خَدُّهُ يبدو لك الوردُ الجني
والغصنُ في أثوابه إذا تَمَشَّى يَنْثني
لا أُمَّ لي لا أُمَّ لي إنْ لم أُبَرِّدْ شَجَني
وأَخْلَعَنَّ في المجونِ والتصابي رَسَني

(١) في الخريدة: «بعدها».
(٢) في الخريدة: «بحرّ عذاب المذنبين. .».
(٣) في وفيات الأعيان: «عفوٌ منه عنّي ورحمة». وفي الخريدة: «عفوٌ ثم عني ورحمة».
(٤) ديوان ابن خفاجة (ص ٢٧١)، ولم ترد في الذخيرة.
(٥) التراقي: جمع ترقوة وهي أعلى الصدر.
(٦) هذا البيت للمجنون، وقد ضمَّنه ابن خفاجة أبياته هذه.
(٧) في طبعة ليدن: «تختطي».

وأجعلَ الصبرَ على هَجْرِ الملاحِ دَيدَني

يا عاذلي في مَذهبي أرداكَ شُربُ اللَّبَنِ

أُعطِيتَ في البطنِ سِنَا نَا إنْ تخالفْ سَنَنِي

أيُّ فتًى خالفني يومًا ولَمَّا يَلْقَني

فإنني لناصِحٌ وإنني وإنني

فلا تكنْ لي لاحِيًا وفي الأمور اسْتَفْتِنِي

فلم أزلْ أُغربُ عن نصحي لمن لم يَلْحَني

وإنْ تُسَفِّهْ نظري ومَذْهبي وتَنْهني

فالصفع تستوجبه نعم ونَتْف الذَّقَنِ

والزبلُ في وجهك يعـ ـلو باتّصال الزمن

وبعد هذا أشتفي منك ويَبْرا شجني

وأضرب الكَفَّ أما م ذلك الوجه الدني

طقطق طَقٍ طقطق طَقٍ أصخ بسمع الأذنِ

قحقح قح قحقح قح الضحكُ يغلبنِّني[1]

قد كان أولى بك عَنْ هذي المخازي تنثني

النفي تَستوجِبُهُ لواسِطٍ أو عَدَنِ

عرضتَ بالنفس كذا إلى ارتكابِ المحن

أفدي صديقًا كان لي بِنَفْسِهِ يُسْعِدُني

فتارةً أَنصَحُهُ وتارةً يَنْصَحُني

وتارةً أَلْعَنُهُ وتارةً يَلْعَنُني

وربما أَصْفَعُهُ وربما يَصْفَعُني

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فهـ ـذا القولُ لا يعجبني

يا ليت هذا كلُّه فيما مضى لم يَكُنِ

أضحكْتُ واللَّه بذا الـ ـحديثِ من يسمعني

دَهْرٌ تولّى وانْقَضَى عنّي كَطَيفِ الوَسَنِ

يا ليتني لم أره وليته لم يرني

(١) في طبعة دار صادر: «يغلبلبني».

دَنِّسْتُ فيه جانبي ومَلْبسي بالدَّرَنِ
وبِعْتُ فيه عيشتي لكن ببخسِ الثمنِ
كأنني ولست أد ري الآن ما كأنني
واللّه ما التشبيه عند شاعرٍ بِهَيِّنِ
لكنه أنطقني بالقول ضِيقُ العَطَنِ
وا حسرتي وا أسفي زلتُ وضاعت فِطَني
لو أنصفَ الدهرُ لَمَا أخرجني من وطني
وليس لي مِنْ جَنّةٍ وليس لي مِنْ مسكن
أُسَرِّحُ الطَّرْفَ وما لي دمنةٌ[1] في الدمن
وليس لي مِنْ فرسٍ وليس لي مِنْ سَكَنِ
يا ليت شعري وعسى يا ليت أن تنفعني
هل أمتطي يومًا إلى الـ شرقِ ظهورَ السُّفُن
وأجتلي ما شئته في المنزل المؤتمنِ[2]
حينئذ أخلعُ في هذي القوافي رَسَنِي
وتحسنُ الفكرة بالـ عُدوس[3] والسمنسني
واللحم مع شحمٍ[4] وَمَعْ طوابقِ الكبشِ الثني
والبَيضِ في المقلاة بالز يت اللذيذ الدهنِ
وجلدةِ الفروجِ مشـ ويًا كثير السمن
مَنْ منقذي أفديه من ذا الجوعِ والتمسكن
وعلة[5] قد استوى فيها الفقير والغني
هل للشريدِ عودةٌ إليَّ قد شوقني
تغوصُ فيه أنملي غوص الأكول المحسن

---

(١) الدمنة: آثار الدار، جمعها دِمَن. لسان العرب (دمن).
(٢) في طبعة ليدن: «المؤمن».
(٣) في طبعة بولاق: «بالغدوش».
(٤) في الطبعة نفسها: «شحم كذا..».
(٥) في طبعة ليدن: «وقلة».

ولـي إلـى الإسـفـنـج شَـوْ ... قٌ دائـمٌ يُـطْـربـنـي
ولـلأرُزّ الـمـفـضَّـلُ إذ ... تَـطْـبُـخُـهُ بـالـلـبـنِ
ولـلـشـواءِ والـرقـا ... قِ مِـنْ هُـيـامٍ أنـثـنـي
وأسـكـتْ عـن الـجـبـنِ فـإنَّ ... بـنـتـتَـهُ تـذهـلـنـي[1]
ظـاهـرُهـا كـالـورد أو ... بـاطـنـهـا كـالـسـوسـن
أيُّ امـرئٍ أبـصـرهـا ... يـومًـا ولـم يـفـتـتـنِ
تـهـيـمُ فـيـهـا فِـكَـر الأسـ ... ـتـاذِ والـمـؤذنِ
لـو كـان عـنـدي مـعـدنٌ ... لَـبِـعْـتُ فـيـهـا مـعـدنـي
لـكـنـنـي عـزمـتُ أن ... أبـيـعَ كُـمَّ الـبَـدَنِ
والـكـمّ قـد أكْـسـبـه ... بَـعْـدُ ولا يَـكْـسـبـنـي
لا تـنـسـبـوا لـي سَـفَـهًـا ... فـالـجـوعُ قـد أرشـدنـي
وهـات ذكـر الـكـسـكـسـو[2] ... فـهـو شـريـفٌ وَسَـنِـي
لا سـيـمـا إن كـان مـصـ ... ـنـوعًـا بِـفَـتْـلٍ[3] حَـسَـن
أرفـعُ مـنـه كُـوَرًا ... بِـهِـنَّ تـدوي أذنـي
وإنْ ذكـرتَ غـيـر ذا ... أَطْـعِـمَـةً فـي الـوطـن
فـابْـدَأْ مـن الـمـشـوّمـا ... تِ بـالـجـبـنّ الـمـمـكـن
مـن فـوقـهـا الـفـرّوج قـد ... أُتْـهـي فـي الـتـسـمّـن
وثـنِّ بـالـعـصـيـدة[4] الـ ... ـتـي بـهـا تـطـربـنـي
لا سـيـمـا إن صُـنِـعَـتْ ... عـلـى يَـدَيْ مُـمَـرْكَـنِ
كـذلـك الـبـلـيـاطُ بـالـز ... يـت الـذي يـقـنـعـنـي
تـطـبـخُـهُ حـتـى يُـرى ... يَـخْـمَـرُ فـي الـتَّـلَـوُّنِ
والـزبـزبـنُ فـي الـصـحـا ... فِ حَـسْـبُ أهـلِ الـبـطـنِ
فـاسـمـعْ قـضـاء[5] نـاصـح ... يـأتـي بـنـصـحٍ بَـيِّـنِ

(١) في طبعة عبد الحميد: «فإنَّ نَتْنَهُ يذهلني».
(٢) الكسكسو: طعام مشهور في بلاد المغرب العربي، وقد ذقناه أثناء زيارتنا للمغرب فوجدناه شهيًا
(٣) في طبعة بولاق: «بفعل». والمقصود بالفتل هنا اللحم.
(٤) العصيدة: دقيق يُعْقد بالطبيخ، وهو طعام. محيط المحيط (عصد).
(٥) في طبعة عبد الحميد: «قضايا».

من اقتنى النقى مني فهو نعم المقتني[1]
وإنّ في شاشية الـ فقير أنسًا للغني
تبعدني عن وصلها عن وصلها تبعدني
تؤنسني عن اللقا عن اللقا تؤنسني[2]
فأضلعي إن ذُكِرَتْ تهفو كمثلِ الغُصُنِ
كم رُمْتُ تقريبًا لها لكنه لم يَهُنِ
وصدّني عن ذاك قلـ لَةُ الوفا بالثمن
إيهِ خليلي هذه مطاعمٌ لكنني
أعجبُ من ريقك إذْ يسيلُ فوقَ الذقَنِ
هل نِلْتَ منها شبعًا؟ فذكرها أشبعني
وإن تكنْ جوعانَ يا صاحِ فَكُلْ بالأذنِ
فليس عند شاعرٍ غيرُ[3] كلامِ الألسن
يُصَوِّرُ الأشياءَ وهـ ي أبدًا لم تَكُنِ
فقولُه يُريكَ ما ليس يرى بالممكنِ
فاسمحْ وسامحْ واقتنعْ واطْوِ حَشَاكَ واسْكُنِ
ولننصرف فقصدُنا إطرافُ هذا الموطنِ

انتهى[4].

وقال ابن خفاجة رحمه اللّه تعالى[5]: [الكامل]

درسوا العلومَ ليملكوا بجِدَالهمْ فيها صدورَ مراتبٍ ومجالسِ
وتزهّدوا حتى أصابوا فرصةً في أخذ مالِ مساجدٍ وكنائسِ

وهذا المعنى استعمله الشعراء كثيرًا.

---

(١) رواية البيت في طبعة دار صادر هي:
من اقتنى التفين فهـ و الآنَ نِعْمَ المقتني
(٢) في طبعة ليدن: «تؤيسني... تؤيسني».
(٣) في الطبعة نفسها: «سوى كلامِ..».
(٤) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٥) ديوان ابن خفاجة (ص ١٥٥).

وقال - فيما أظن - الفقيهُ الكاتب المحدّث الأديب الشهير أبو عبد الله محمد بن الأبار القُضَاعي، وقد تكرّر ذكره في هذا الكتاب في مواضع: [الطويل]

لقد غضبتْ حتى على السِّمْط نَخْوَةً | فلم تتقلّدْ غير مبسمها سِمْطا
وأَنْكَرَتِ الشَّيبَ المُلِمَّ بِلِمّتي | ومَنْ عَرَفَ الأيامَ لم ينكرِ الوَخْطا[1]

وقال ابن سعيد في القدح المعلى في حقّه[2]: كاتب مشهور، وشاعر مذكور، كتب عن ولاة بَلَنْسِية، وورد رسولاً حين أخذ النصارى بمُخَنَّق تلك الجهات، وأنشد قصيدته السينية: [البسيط]

أَدْرِكْ بِخَيلِكَ خيلِ اللَّهِ أندلسَا | إنَّ السبيلَ إلى مَنْجاتها دَرَسَا

وعارضه[3] جمع من الشعراء ما بين مخطىء ومحروم، وأغري الناس بحفظها إغراء بني تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم، إلاَّ أنَّ أخلاقه لم تُعِنْه على الوفاء بأسباب الخدمة، فقلصت عنه تلك النعمة، وأخر عن تلك العناية، وارتحل إلى بجاية، وهو الآن بها عاطل من الرُّتب، خالٍ من حِلَى الأدب، مشتغلٌ بالتصنيف في فنونه، متقّل منه بواجبه ومسنونه، ولي معه مجالسات آنَقُ من الشباب، وأبهج من الروض عند نزول السحاب، ومما أنشدنيه من شعره[4]: [الكامل]

يا حَبّذا بحديقةٍ دولابُ | سكنتْ إلى حركاتِهِ[5] الألبابُ
غَنَّى ولم يَطربْ وسَقَّى وَهْوَ لم | يَشْرب ومنه العُودُ والأكواب
لو يَدَّعي لُطْفَ الهواء أو الهوى | ما كنتُ في تصديقه أرتابُ
وكأنه مِمّا شَدَا مُسْتَهْزِىءٌ[6] | وكأنه مِمّا بكى نَدّاب
وكأنه بنشاره ومَدارِهِ | فَلَكٌ كواكبُهُ لها أذناب

(١) اللِّمَّة: الشعر الذي يتجاوز شحمة الأذن. الوَخْطُ: مصدر وخط؛ يقال: وخط الشيب إذا خالط البياضُ السوادَ.
(٢) النص والبيت في اختصار القدح (ص ١٩١). وقد تقدم هذا البيت في الجزء الثالث وسيرد في الجزء السادس ضمن ٦٧ بيتًا.
(٣) لا يزال النقل عن اختصار القدح مستمرًا، ولكن ببعض الاختلاف.
(٤) الأبيات في اختصار القدح (ص ١٩٢).
(٥) في طبعة ليدن: «إلى حركاتها».
(٦) في اختصار القدح: «مُسْتَهْتِرٌ».

وقال أبو المعالي القيجاطي[1]: [السريع]

فقلت يا رَبْعَهُمُ أين مَنْ[2] أَحْبَبْتُهُ فيك وأين النديمْ
فقال عهدٌ[3] قد غَدَا شَمْلُهُ كمثلِ ما يُنْثَرُ دُرٌّ نظيمْ

وقال أبو عمرو بن الحكم القبطلي[4]، وقبطلة: من أعمال وادي إشبيلية: [مخلع البسيط]

كم أقطعُ الدهرَ بالمِطَالِ؟ ساءت وحقِّ الإله حالي
رحلتُ أبغي بكمْ نجاحًا فلم تُفيدوا سوى ارتحالي
وعَدْتُمُ ألفَ ألفِ وَعْدِ لكنني عُذتُ بالمُحالِ

وقال أبو عمران القلعي[5]: [الوافر]

طلعتَ عليَّ والأحوالُ سُودٌ كما طلع الصباحُ على الظلامِ
فقلْ لي كيف لا أُوليكَ شعري[6] وإخلاصَ التحيّةِ والسلامِ

وقال أبو إسحٰق إبراهيم بن أيوب المرسي[7]: [مجزوء الرمل]

أنا سكرانُ ولكنْ من هوى ذاك الفلاني
كلّما رُمْتُ سُلُوًّا لم يزلْ بين[8] عياني

وقال[9]: [الوافر]

---

(١) هو أبو المعالي أحمد بن أبي البركات القيجاطي؛ نسبه إلى قيجاطة من عمل جيان بالأندلس. ترجمته وشعره في اختصار القدح (ص ٢١١).

(٢) رواية صدر البيت في اختصار القدح هي:

وقلتُ يا مربع أين الذي

(٣) في المصدر نفسه: «فقال عِقْدٌ..».

(٤) ترجمة القبطلي وشعره في اختصار القدح (ص ٢٠٠).

(٥) هو أبو عمران موسى بن سالم القلعي، أخرج عن بلده لمّا كانت فتنة ابن هود، فتوفي بالجزيرة الخضراء سنة ٦٢٩ هـ. ترجمته وشعره في اختصار القدح (ص ٢٠١).

(٦) في اختصار القدح: «شكري» بدل «شعري».

(٧) البيتان في اختصار القدح (ص ٢١٤) منسوبين إلى أبي إسحٰق بن لبون المرسي، ولعله هو نفسه المذكور هنا.

(٨) في اختصار القدح: «يثني عناني».

(٩) البيتان في اختصار القدح (ص ٢١٤) منسوبين أيضًا إلى أبي إسحٰق بن لبون المرسي، ولعله هو نفسه المذكور هنا.

حبيبي ما لصبك من مراد سوى أن[1] لا تدوم على البعاد
وإن كان[2] ابتعادك بعد هذا مقيما فالسلام على فؤادي

قال ابن سعيد[3]: وكان المذكور إذا غنى هذه الأشعار اللطيفة على الأوتار، لم يبق لسامعه عند الهموم من ثار، مع أخلاق كريمة، وآداب كانسكاب الدِّيمة، انتهى.

وقال ابن سعيد: في أبي بكر محمد بن عمار البرجي[4]، كاتب ابن هود، القائل: [مجزوء الرمل]

قُلْ لمن يشهدُ حربا تحت رايات ابن هود[5]

الخ... [مجزوء الرمل]

يا ابنَ عمارٍ لقد أحـ ـييتَ لي ذاك السَّمِيَّا
في حِلَى نَظْمٍ ونَثْرٍ عُلُقًا في[6] مِسْمَعَيَّا
ولقد حُزتَ مكانًا من ذُرَى المُلْكِ عَلِيًّا
مثل ما قد حاز لكنْ عِشْ بِنُعْماك هَنِيًّا

وقال أبو بكر عبد اللّه بن عبد العزيز الإشبيلي المعروف بابن صاحب الرد[7]: [السريع]

يا أبدعَ الخلقِ بلا مِرْيةٍ وَجْهُكَ فيه فتنةُ الناظرينْ
لا سيما إذ نلتقي خطرةً فيغلبُ الوردُ على الياسمينْ
طُوبَى لمن قد زُرْتَهُ خاليًا فمتَّعَ النفسَ ولو بعد حين
من ذلك الثغر الذي وِرْدُهُ ما زال فيه لذةُ الشاربين
وما حَوَى ذاك الإزارُ الذي لم يَعْدُ عنه أَمَلُ الزائرينْ

(١) في اختصار القدح: «سوى ألاَّ تدوم..».
(٢) في طبعة ليدن: «فإن يَدُم ابتعادُك..». وفي اختصار القدح: «فإن كان..».
(٣) النص في اختصار القدح (ص ٢١٤) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٤) ترجمة محمد بن عمار البرجي وشعره في اختصار القدح (ص ٢١٧ ـ ٢١٨).
(٥) كلمة «قلْ» ساقطة من طبعة عبد الحميد، وهذا البيت ورد في اختصار القدح (ص ٢١٨) ضمن ثلاثة أبيات. والأبيات الأربعة التالية في اختصار القدح (ص ٢١٧).
(٦) في طبعة ليدن واختصار القدح: «من مِسْمَعَيّا».
(٧) ترجمة ابن صاحب الردّ وشعره في اختصار القدح (ص ١١٢ ـ ١١٣).

وهذه الأبيات يقولها في غلام كان أدباء إشبيلية قد فُتنوا به، وكان مروره على داره.

وحكى[1] عنه أنه أعطاه في زيارة خمسين دينارًا، ومرَّتْ أيامٌ ثم صادفه عند داره، فقال له: أتريد أن أزورك ثانية؟ فقال له: لا يُلدغ المؤمنُ من جحرٍ مرتين، وهذا الجواب - على ما فيه من قلة الأدب، وهتك حجاب الشريعة - من أشدّ الأجوبة إصابةً للغرض، والله تعالى يسمح له، فقد قال ابن سعيد في حقّه: إن بيته بإشبيلية من أجلِّ البيوت، ولم يزل له مع تقلُّب الزمان ظهور وخُفُوت، وكان أديبًا شاعرًا ذَوَّاقًا لأطراف العلوم، انتهى.

ومن المشهورين بالمجون والخلاعة بالأندلس - مع البلاغة والبراعة - أبو جعفر أحمد ابن طلحة الوزير الكاتب[2]، وهو من بيت مشهور من جزيرة شقر، من عمل بَلَنْسِيَةَ، وكتب عن ولاة من بني عبد المؤمن، ثم استكتبه السلطان ابن هود حين تغلّب على الأندلس، وربما استوزره في بعض الأحيان. وقال[3] ابن سعيد: وهو مِمَّنْ كان والدي يكثر مجالسته، ولم أستفدْ منه إلاَّ ما كنت أحفظه[4] في مجالسته، وكان شديد التهوّر، كثير الطيش، ذاهبًا بنفسه كلَّ مذهب، سمعْتُه مرّة وهو في محفل يقول: تقيمون القيامة لحبيب[5] والبحتري والمتنبي، وفي عصركم من يهتدي إلى ما لم يهتدوا إليه؟ فأهوى له شخص له قِحَةٌ وإقدام، فقال: يا أبا جعفر، فأرِنا برهان ذلك، ما أظنك تَغْني إلاَّ نفسك، فقال: نعم، ولم لا؟ وأنا الذي أقول ما لم يتنبّه[6] إليه متقدّم، ولا يهتدي لمثله متأخّر[7]:

[السريع]

يا هل ترى أظْرَفَ[8] من يومنا   قَلَّدَ جِيدَ الأُفْقِ طَوقَ العقيقْ

وأَنْطَقَ الوُرْقَ بِعِيدانِها   مُرْقِصَةً[9] كلَّ قضيبٍ وَرِيقْ

---

(١) لا يزال النقل عن اختصار القدح مستمرًا.

(٢) ترجمة أبي جعفر أحمد بن طلحة في اختصار القدح (ص ١١٤) والمغرب (جـ ٢ ص ٣٦٤) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٢٠٩) والنقل هنا عن اختصار القدح.

(٣) في طبعة دار صادر: «قال».

(٤) في طبعة ليدن: «أحفظ».

(٥) حبيب: هو أبو تمام حبيب بن أوس، الشاعر المشهور.

(٦) في طبعة ليدن: «ما لم يَتنبّه». وفي اختصار القدح: «ما لم يَهْتَدِ..».

(٧) الأبيات في اختصار القدح (ص ١١٤) والمغرب (جـ ٢ ص ٣٦٥)، وسترد في الجزء الخامس من نفح الطيب باختلاف يسير عمّا هنا.

(٨) في طبعة عبد الحميد: «أطرف».

(٩) في اختصار القدح: «من فِضّة» بدل «مُرْقِصَةً».

والشمسُ لا تشربُ خمر الندى في الأرضِ إلاّ بكؤوس الشقيقْ

فلم ينصفوه في الاستحسان، وردّوه في الغيظ إلى أضيق مكان، فقلت له: يا سيدي، هذا هو السحر الحلال، فبالله إلاّ ما زدتني[1] من هذا النمط، فقال[2]: [الوافر]

أَدِرْها فالسماءُ بَدَتْ عروسًا مُضَمَّخَةَ الملابسِ بالغوالي
وخَدُّ الروض حَمَّرَهُ أصيلٌ وجَفْنُ النهر كُحِّلَ بالظِّلال[3]
وجِيدُ الغُصْنِ يُشْرِفُ في لآلٍ[4] تضيء بهنَّ أكنافُ الليالي

فقلت: زد وعُدْ، فعاد والارتياح قد مَلَكَ عِطْفه، والتِّيهُ قد رفع أنفه، فقال[5]: [السريع]

لـلّـه نـهـرٌ عـنـدمـا زرتُـه عايَنَ طَرْفي منه سِحْرًا حَلالْ
إذ أصبـحَ الـطَّـلُّ بـه لـيـلـةً وجال فيه الغصنُ شِبْهَ الخيال[6]

فقلت: زد، فأنشد: [الوافر]

ولَـمّـا ماجَ بحرُ الليلِ بيني وبـيـنـكـمُ وقـد جَـدَّدْتُ ذِكْـرا
أراد لـقـاءكـمْ إنـسـانُ عـيـنـي فـمـدَّ لـه الـمـنـامُ عـلـيـه جِسْرًا

فقلت: إيه، فقال: [الوافر]

ولَـمّـا أنْ رأى إنـسـانُ عـيـنـي بصحنِ الخَدِّ منه غريقَ ماءِ
أقـامَ لـه الـعِـذارُ عـلـيـه جِسْرًا كـمـا مُدَّ الظلامُ على الضياءِ

فقلت: أعد، فأعاد، وقال: حَسْبُكَ لئلاّ تكثر عليك المعاني، فلا تقوم بحقّ قيمتها، وأنشد[7]: [الكامل]

---

(١) في طبعة ليدن: «زدتنا».
(٢) الأبيات في اختصار القدح (ص ١١٤) والمغرب (جـ ٢ ص ٣٦٥).
(٣) في اختصار القدح: «خَفَّره أصيلٌ وجِفْو النهر..». وفي المغرب: «خفَّره أصيلٌ..».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «يشرق من لآلٍ». وفي طبعة دار صادر: «يشرقَ..».
(٥) هذا الشعر والذي يليه في اختصار القدح (ص ١١٥ ـ ١١٧) وبعضه في المغرب (جـ ٢ ص ٣٦٥).
(٦) في طبعة ليدن: «أصبح الظلُّ..». وفي اختصار القدح: «وجال منها». وفي المغرب: «وحال فيها الغصنُ..».
(٧) هذان البيتان والأبيات التي تليهما غير واردة في المغرب.

هاتِ المُدامَ إذا رأيت شبيهها في الأُفْق يا فَرْدًا بغير شَبِيهِ
فالصبحُ قد ذبحَ الظلامَ بنَصْله فغدتْ تُخاصِمُهُ الحمائمُ فيه

ثم قال: وكان قد تهتّك في غلام لابن هود، ولكثرة انهزام ابن هود ربما انهزم مع العلج، وفيه يقول: [الوافر]

أَلِفْتُ الحربَ حتى علَّمَتْنِي مُقارعةَ الحوادثِ والخُطُوبِ
ولم أكُ عالـمًا وأَبِيكَ حربًا بغيرِ لواحظِ الرشإِ الرَّبِيبِ
فها أنا بين تلك وبين هذي مُصابٌ من عدوّ أو حبيبِ

ولَمّا هرب العلج[1] إلى سبتة أحسن إليه القائم بها أبو العباس الينشتي[2] فلم يقنع بذلك الإحسان، وكان يأتي بما يوغر صدره، فقال يومًا في مجلسه: رميت مرة بقوس، فبلغ السهم إلى كذا، فقال ابن طلحة لشخص بجانبه: لو كان قوس قزح ما بلغ إلى كذا، فشعر بقوله، فأسرَّها في نفسه، ثم بلغه أنه هجاه بقوله: [الوافر]

سمعْنا بالموفَّق فارتحلْنا وشافِعُنَا له حَسَبٌ وعِلْمُ
ورُمْتُ يَدًا أقبِّلُها وأخرى أعيشُ بفضلها أبدًا وأسمو
فأنشدنا لسانُ الحالِ فيه يَدٌ شَلاّ وأمرٌ لا يتمُّ

فزاد في حنقه، وبقي مترصدًا له الغوائل، فَحُفِظَتْ عنه أبيات قالها وهو في حالة استهتار في شهر رمضان، وهي: [الوافر]

يقول أخو الفُضُول وقد رآنا على الإيمان يَغْلبنا المجونُ
أَتَنْتَهِكُون شهرَ الصوم هَلاً حماهُ منكمُ عَقْلٌ ودِينُ
فقلت اصْحَبْ سوانا، نحن قوم زنادقةٌ مذاهبُنا فُنُون
نَدينُ بكل دينٍ غيرِ دين الرْ رَعاعِ فما به أبدًا ندينُ
بحيَّ على الصَّبوح الدَّهْرَ ندعو[3] وإبليسٌ يقول لنا أمينُ
فيا شهرَ الصيامِ إليك عَنّا إليك فغيك أكفُر ما نكونُ

فأرسل إليه مَنْ هجم عليه وهو على هذه الحال، وأظهر أنه يُرْضي العامة بقتله،

(١) في طبعة دار صادر: «بالعلج».
(٢) في طبعة ليدن: «أبو العباس السبتي».
(٣) في طبعة بولاق: «الزهر» بدل «الدهر». وفي اختصار القدح: «فَحَيَّ» بدل «بحيَّ».

فقتله، وذلك سنة ٦٣١، انتهى. وحاكي الكفر ليس بكافر، والله سبحانه وتعالى للزلات غير الكفر غافر.

وقال محمد بن أحمد الإشبيلي بن البناء(١): [الطويل]

كأنكَ من جِنْس الكواكب كُنْتَ لم يَفُتْكَ(٢) طلوعًا حالُهَا وتَوَارِيَا
تَجَلَّيتَ من شرقٍ تروقُ تلألؤًا(٣) فلما انتحيتَ الغربَ أصبحْتَ هاويا

ولَمّا أمر المستنصر(٤) الموحِّدي بضرب ابن غالب الداني ألف سوط وصلبه، وضرب بإشبيلية خمسمائة، فمات، وضرب بقية الألف حتى تناثر لحمه، ثم صُلب، قال ابنه أبو(٥) الربيع يرثيه(٦): [البسيط]

جهلاً لمثلك أن يبكي لما قُدِرَا وأن يقول أسًى يا ليته قُبِرا
فاضتْ دموعُك أن قاموا بأعْظُمِهِ وقد تطاير عنه اللحمُ وانْتَثَرَا(٧)

ومنها:

ضاقت به الأرضُ مِمّا كان حَمَّلَها من الأيادي فملّت(٨) شِلْوَهُ ضَجَرا
وعَزَّ(٩) جسمك أن يحظى به كَفَنٌ فما تَسَرْبَلَ إلاَّ الشمسَ والقمرا

وقال أبو العلاء عبد الحق المرسي رحمه الله تعالى(١٠): [الرمل]

---

(١) هو أبو بكر محمد بن أحمد الإشبيلي، كان والده بنّاء بإشبيلية، وهو من شعراء فترة الموحدين. ترجمته وشعره في اختصار القدح (ص ١١٨ ـ ١١٩) والمغرب (جـ ١ ص ٢٥٤). وهذان البيتان سيأتيان في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ٣٨٧).
(٢) في اختصار القدح والمغرب: «لم تفارق».
(٣) في المغرب: «تحلَّيْتَ من شرقٍ..». وفي اختصار القدح: «شرق تروم تلاليا».
(٤) هو يوسف بن الناصر بن المنصور الموحدي، وترجمته في الحلل الموشية (ص ١٢٢).
(٥) في طبعة ليدن: «قال ابنه الربيع..».
(٦) هو أبو الربيع سليمان بن أحمد بن علي بن أبي غالب، من أهل دانية، كان أبوه قاضيًا بمالقة. توفي بمراكش سنة ٦٤١ هـ. اختصار القدح (ص ١٢٣ ـ ١٢٧) وهنا ينقل المقري عنه. وترجمته أيضًا في المغرب (جـ ٢ ص ٤٠٦) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٨٣). ورثاؤه لأبيه في اختصار القدح.
(٧) في اختصار القدح: «فانتثرا».
(٨) في طبعة دار صادر وفي اختصار القدح: «فَمَجَّتْ شِلْوَه».
(٩) في اختصار القدح: «وعَزَّ إذ ذاك أن يحظى..».
(١٠) ترجم له ابن سعيد في اختصار القدح (ص ١٢٦) باسم «أبو العلاء بن عبد الحق بن أبي علي بن =

يا أبا عمرانَ دَعْني والذي لم يَجِلْ بي خاطري[1] إلاّ إليهْ
ما نديمي غيرُ مَنْ يخدمني لا الذي يُجْلسني بين يديهْ
يرفعُ الكُلْفةَ عنّي ويرى أنها واجبةٌ منّي عليهْ

وقال ابن غالب الكاتب بمالَقَةَ[2]: [الكامل]

لا تَخْشَ قولاً قد عَقَدْتَ الألْسُنا وابْعَثْ خيالَكَ قد سَحَرْتَ الأعينا
واعطفْ عليَّ فإنَّ روحي زاهقٌ وانظرْ إليَّ بنظرةٍ إنْ أمكنا
لا يخدعَنَّكَ أن تراني لابسًا ثوبي فقد أصبحتُ فيه مُكَفَّنا
ما زال سحركَ يستميلُ خواطري بأرقَّ من ماءِ الصفاء[3] وألْيَنا
حتى غدوت ببحر حُبّ زاخرٍ فرمتْ بيَ الأمواجُ في شطِّ الضَّنا[4]

وقال: [الكامل]

ما للنسيم لدى الأصيلِ عليلاَ أتُراه يشكو زَفْرَةً وغَليلاَ
جَرَّ الذُيولَ على ديار أحبّتي فأتى يَجُرُّ من السَّقام ذيولا

وقال أبو عبد اللّه ابن عسكر[5] الغساني قاضي مالَقَةَ[6]: [السريع]

أهواكَ يا بَدْرُ وأهوى الذي يَعْذِلُني فيكَ وأَهْوَى الرقيبْ
والجارَ والدارَ ومَنْ حَلَّها[7] وكلَّ مَنْ مَرَّ بها مِنْ قريبْ
ما إنْ تَنَصَّرْتُ ولكنني أقول بالتثليثِ قولاً غريبْ

حسان المرسي» فقال: هو من بيت شهير بالحسب، موصوف بالكتابة والأدب، توفي بمراكش سنة ٦٤١ هـ. وشعره في المصدر المذكور.

(١) في اختصار القدح: «خاطرٌ».

(٢) هو أبو عبد اللّه محمد بن غالب الإستجي، رحل من إستجة وسكن مالقة. وتوفي بغرناطة سنة ٦٤٢ هـ. ترجمته وشعره المذكور هنا في اختصار القدح (ص ١٢٨).

(٣) في اختصار القدح: «الصفاة».

(٤) في المصدر نفسه: «في وشط الفتا».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «عساكر».

(٦) هو أبو عبد اللّه محمد بن علي بن عسكر الغساني، قاضي مالقة، توفي بمالقة سنة ٦٣٨ هـ. ترجمته وشعره في اختصار القدح (ص ١٣٠ ـ ١٣١). وقد مرّ البيتان الأول والثاني في الجزء الثالث من نفح الطيب دون تغيير عمّا هنا.

(٧) في اختصار القدح: «ومن حولها».

تُطابِقُ[1] الألحانَ والكاسَ إذ تَبْسِمُ عُجْبًا والغزالَ الربيبْ

وكان أبو أمية بن عفير[2] قاضي إشبيلية - مع براعته، وتقدّمه في العلوم الشرعية - أقوى الناس بالعلوم الأدبية المرعية، وقد اشتهر بسرعة الخاطر في الارتجال، وعدم المناظر له في ذلك المَجَال، قال ابن سعيد: رأيته كثيرًا ما يصنع القصائد والمقطّعات، وهو يتحدّث أو يفصل بين الغرماء في أكثر الأوقات، ومن شعره: [مخلع البسيط]

ديارهُمْ[3] صاحِ نُصْبُ عيني وليس لي وُصلةٌ إليها
إلاَّ سلامي لدى[4] ابتعادِ مِنْ بُعْدِ سُكانها عليها

وقوله رحمه الله تعالى: [الوافر]

ووجهٍ تَغْرَقُ الأبصارُ فيه ولكنْ يتركُ الأرواحَ هِيَما
أتاني ثم حَيَّاني حبيبٌ به وأباحني الخدَّ الرَّقِيما
فَمَرَّ لنا مُجون في فنون سلكْتُ به الصراطَ المُسْتقيما

قلت: أما مجرّد الارتجال فأمر عن الكثير صادر، وأما كونه مع التحدّث أو فصل الخصومات فهو نادر، وقد حكينا منها في هذا الكتاب من القسم الأول موارد ومصادر.

ويعجبني من الواقع لأهل المشرق من ذلك قضية علي بن ظافر، إذ قال[5]: بِتّ ليلة والشهابُ يعقوب ابن أخت نجم الدين في منزل اعترفت له مُشَيَّدات القصور، بالانخفاض والقُصُور، وشهدت له ساميات البروج، بالاعتلاء، والعُرُوج، قد ابيضّتْ حيطانه، وطاب استيطانه، وابتهج به سُكانه وقُطّانه، والبدرُ قد محا خِضابَ الظَّلْماء، مُحَياه[6] في زرقة قناع السماء، وكسا الجدرانَ ثيابًا من فِضّة، ونَثَرَ كافورَه على مِسْك الثرى بعد أن سحقه ورَضّه، والروض قد ابتسم مُحَيَّاه، وَوَشَتْ بأسرار محاسنه رَيَّاه، والنسيمُ قد عانق قامات الأغصان فميَّلَهَا، وغَصَبَها مباسمَ نَورِها فقبّلها، وعندنا مُغَنّ قد وقع على تفضيله الإجماع، وتغايرت

(١) في طبعة عبد الحميد: «يطابق».
(٢) في طبعة بولاق: «ابن غفير» بالغين المعجمة. وترجمة ابن عفير وشعره المذكور هنا في اختصار القدح (ص ١٣٢).
(٣) في طبعة ليدن: «ديارهم هي نُصْبُ..». وفي اختصار القدح: «ديارهم تلك نُصْب..».
(٤) في اختصار القدح: «الذي ابتعادِ».
(٥) بدائع البدائه (جـ ٢ ص ٢٠٦).
(٦) في طبعة دار صادر: «الظلماء، وجلا محياه..».

على محاسنه الأبصار والأسماع، إنْ بَدَا فالشَّمسُ طالعة، وإنْ شَدَا فالوُرْق[1] ساجعة، تُغازله مُقْلة سراج قد قصر على وجهه تحديقه، وقابله فقلْنا البدر قابل عَيُّوقَه، وهو يغار عليه من النسيم كلّما خفق وهَبَّ، ويستجيش عليه بتلويح بارقه الموشّى بالذهب، ويُدِيم حرقته وسُهْدَه، ويبذل في إلطافِه طاقته وجَهْدَه، فتارة يُضَمِّخُه بخَلُوقه، وتارة يُحلّيه بعَقِيقه، وآونةً يكسوه أثواب شقيقه، فلم نزل[2] كذلك حتى نَعِسَ طَرْفُ المصباح، واستيقظ نائم الصباح، فصنعت بديهًا في المجلس، وكتبتُ بها إلى الأعز بن المؤيد رحمه اللّه تعالى أَصِفُ تلك الليلة التي ارتفعت على أيام الأعياد، كارتفاع الرؤوس على الأجياد[3]، بل فَضَلَتْ ليلاتِ الدهر، كفضل البدر على النجوم الزُّهْر: [الخفيف]

غِبْتَ عني يا ابن المؤيد في وقـ ـتٍ شهيّ يُلْهي المحبَّ المشوقا
ليلة ظَلَّ بَدْرُها يُلْبِس الجدْ رانَ ثوبًا مفضَّضًا مرموقا
وغدا الطَّلُّ فيه ينثر كافو رًا فيعلو مِسْكَ التراب السَّحيقا
وتَبَدَّى النسيمُ يعتنقُ الأغـ ـصانَ لَمّا سرى عِنَاقًا رفيقا
بِتُّ فيها مُنادمًا لصديقٍ ظلَّ بين الأنام خِلاً صدوقا
هو مثلُ الهلالِ وجهًا صبيحًا ومثالُ النسيمِ ذهنًا رقيقا
وغزال كالبدرِ وجهًا وغصن الـ بان قَدًّا والخمرةِ الصِّرْفِ ريقا
مظهرٌ للعيون رِدْفًا مَهيلاً وحَشًا ناحلاً وقَدًّا رشيقا
إنْ تغنَّى سمعتَ داود، أو لا ح تأمَّلْتَ يوسفَ الصدِّيقا
وإذا قابل السراجَ رأينا منه بَدْرًا يقابلُ العَيُّوقَا
وأظنُّ الصباحَ هام بمرآ ه فأبدى قلبًا حريقًا خفوقا
هو نجمٌ ما لاح في الجُذْرِ كافو رُ بياضٍ إلاَّ كساه خَلُوقا
ما بدا نرجسُ الكواكب إلاَّ قام من نومه يُرينا الشقيقا
وإذا ما بدتْ جواهرها في الـ ـجوِّ أبدى في الأرض منهمْ عقيقا
فغدوْنا تحت الدجى نتعاطى من رقيق الآداب خمرًا رحيقا
وجعلْنا رَيْحَاننا طِيبَ ذكرا كَ فخلْناه عنبرًا مفتوقا

---

(١) الوُرْق: جمع وَرْقاء وهي الحمامة. لسان العرب (ورق).

(٢) في طبعة بولاق: «فلم يزل».

(٣) الأجياد: جمع جِيْد وهو العنق. لسان العرب (جيد).

ذاك وقتٌ لولا مَغِيبُكَ عنه كان بالمدح والثناء خَلِيقًا

قال: فأجاب عنها من الوزن دون الروي: [الخفيف]

قد أتتني من الجمال قصيدٌ يا لها من قصيدةٍ غَرّاءِ
جمعتْ رقّةَ الهواءِ وطيب الـ ـمِسْكِ في سبكها وصَفْوَ الماءِ
فأَرَتْنا طباعَهُ وشَذاهُ والذي حاز ذهنُهُ مِنْ ذكاء
سيدي هل جمعتَ فيها اللآلي يا أخا المجدِ أم نجومَ السماء
أفحمتني حُسْنًا وحَقّ أياديـ ـكَ التي لا تُعَدُّ بالإحصاء
فتركتُ الجوابَ والله عجزًا فابْسُطِ العذرَ فيه يا مولائي
هل يسامي الثرى الثريا وأنّى يَدَّعِي النجمُ فَرْطَ نورِ ذُكاء

رجع إلى أهل الأندلس:

وقال ابن السماك[1]: [البسيط]

إياك أنْ تُكْثِرَ الإخوانَ مُغْتنمًا في كلّ يوم إلى أن يَكْثُرَ العددُ
في واحدٍ منهمُ تُصْفي الودادَ له من التكاليفِ ما يَفْنَى به الجَلَدُ

وله: [الطويل]

تحنُّ ركابي نحو أرضٍ وما لها وما لِيَ من ذاك الحنين سوى الهَمّ
وكم[2] راغبٍ في موضع لا ينالُهُ وأمسيتُ منه مثل يونسَ في اليَمّ
بهذا قضى الرحمنُ في كلّ ساخطٍ يموتُ على كُرْهٍ ويَحْيَا على رَغْمِ

ولَمّا قام الباجي بإشبيلية وخلع طاعة ابن هُودٍ، وأبدل شعاره الأسود العباسيّ في البنود، قال أبو محمد عبد الحق الزهري القرطبي في ذلك[3]: [البسيط]

كأنما الرايةُ السوداءُ قد نَعَبَتْ[4] لهمْ غُرابًا ببينِ الأهلِ والولدِ

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الجياني، المعروف بابن السماك. مات سنة ٦٤٠ هـ. ترجمته وشعره المذكور هنا في اختصار القدح (ص ١٣٤). وجاء في طبعة ليدن: «ابن السماذ» بدل «ابن السماك».

(٢) في اختصار القدح: «فكم».

(٣) ترجمة أبي محمد عبد الحق الزهري القرطبي وبيتاه في اختصار القدح (ص ١٣٥).

(٤) في طبعة بولاق: «قد نصبت». ونَعَبَتْ: صاحت وأنذرت بالفراق. لسان العرب (نعب).

مات الهوى[1] تحتها من فرطِ رَوعتِهِ   فأظهر الدهرُ منها لِبْسةَ الكمدِ

وأنشدهما القائم الباجي في جملة قصيدة.

وقال الوزير أبو الوليد إسماعيل بن حجاج الأعلم الإشبيلي[2]: [الكامل]

أَمْسَى الفَرَاشُ يطوفُ حول كؤوسنا   إذ خالها تحت الدُّجى قِنْديلا
ما زال يَخفُقُ حولها بجناحه   حتى رَمَتْه على الفِراش قتيلا

وله[3]: [الكامل]

لاموا على حُبِّ الصِّبا والكاسِ   لَمَّا بَدَا وَضَحُ المَشِيب براسي
والغُصْنُ أحوجُ ما يكون لِسَقْيِه   أيام[4] يبدو بالأزاهرِ كاسي

وله، وقد رأى على نهر قرطبة ثلاثين نفسًا مصلوبين من قطّاع الطريق[5]: [المتقارب]

ثلاثون قد[6] صففوا كلّهم   وقد فَتَحوا أذْرُعًا للوداعِ
وما وَدَّعُوا غيرَ أرواحهمْ   فكان وداعًا لغيرِ اجتماعِ

وله في فَتًى وسيم عَضَّ كلبٌ وَجْنَتَهُ[7]: [الطويل]

وأغيدَ وضّاحِ المحاسِنِ باسمٍ   إذا قَامَرَ الأرواح ناظِرُهُ قَمَرْ[8]
تَعَمَّدَ كَلْبٌ عَضَّ وَجْنَتَهُ التي   هي الوردُ إيناعًا وأبقى بها أثرْ
فقلتُ لِشُهْبِ الأُفْقِ كيف صُمَاتكم[9]   وقد أثّرَ العوّاءُ في صفحةِ القمر

---

(١) في اختصار القدح: «مات الهدى».
(٢) ترجمة أبي الوليد إسماعيل بن حجاج في اختصار القدح (ص ١٤٠) ولقبه فيه «الأفلح اللخمي». والشعر التالي ليس له، فهو لأبي يحيىٰ بن هشام القرطبي، ومثبتة في اختصار القدح (ص ٨٩).
(٣) البيتان لأبي يحيىٰ بن هشام القرطبي، وهما في اختصار القدح (ص ٩٠).
(٤) في اختصار القدح: «أيّان».
(٥) البيتان لابن هشام أيضًا وهما في اختصار القدح (ص ٩٠).
(٦) في اختصار القدح: «قد ركبوا خيلهم».
(٧) الأبيات لابن هشام وهي في اختصار القدح (ص ٩٢) وستأتي في الجزء الخامس وفيه: «الأسياف» بدل «الأرواح» في البيت الأول.
(٨) في طبعة بولاق: «المباسم» بدل «المحاسن». وفي اختصار القدح: «الأسياف» بدل «الأرواح».
(٩) في اختصار القدح: «الأفْق أين حُماتكم». والصُّمات: الصمت والسكوت.

وقال الفقيه أبو الحجاج يوسف بن محمد البياسي[1] المؤرخ الأديب، المصنّف الشهير، وكان حافظًا لنُكَت الأندلسيين حديثًا وقديمًا، ذاكرًا لفُكاهاتهم التي صيرته للملوك خليلاً ونديمًا[2]، في صبيّ من أعيان الجزيرة الخضراء، تهافت في حبّه جماعة من الأدباء والشعراء. وكان من القوم الذين هاموا بالمذكور، وقاموا فيه المقام المشهور، أديبٌ يقال له الفار، فتسلّط على البياسي حتى سافر من الجزيرة وكان يلقّب بالقط[3]: [الطويل]

عذرتُ أبا الحجاج من ربّ شَيبةٍ ... غدا لابسًا في الحب ثوبًا مِنَ القارِ[4]
وألجأه الفأرُ المشاركُ للنوى ... ولم أرَ قِطًّا قبله فَرَّ من فارِ

وله: [الخفيف]

قد سَلَونا عن الذي تَنْزِيهِ ... وجفوناهُ إذ جفا بالتِّيهِ
وتركْناه صاغِرًا لأُناسٍ ... خدعوه بالزُّورِ والتَّمْويهِ
لِمُضلّ يسوقه لمضلّ[5] ... وسفيهٍ يقوده لسفيهِ

وله، وقد كتب إلى بعض أصحابه يذكِّرُه بالأيام السوالف[6]: [الوافر]

أبا حَسَنٍ لَعَمْرُكَ إنَّ ذكري ... لأيام النعيم من الصوابِ
أمثلي ليس يَذْكرُ عَهْدَ حمصٍ ... وقد جمحتْ بنا خَيلُ التصابي
ونحن نَجُرُ أثوابَ الأماني ... مُطَرّزَةً هنالك بالشبابِ
وعهدٌ بالجزيرة ليس يُنْسى ... وإنْ أغفلَتْه عند الخطاب
هو الأحلى لديَّ وإنْ حماني ... عن العَسَل اجتماعٌ للذُباب

---

(١) ترجمة أبي الحجاج يوسف بن محمد البياسي في اختصار القدح (ص ٩٤)، وهنا ينقل المقري عن اختصار القدح.

(٢) في طبعة ليدن: «خديما ونديمًا». وفي اختصار القدح: «جليسًا ونديمًا».

(٣) في طبعة دار صادر جاء هذان البيتان بالترتيب بعد الأبيات التالية، وفيها أيضًا اختلاف في ترتيب الفقرات.

(٤) في اختصار القدح: «من العارِ».

(٥) رواية صدر البيت في اختصار القدح هي:

لِمُضِلّ يهديه نحو مُضِلّ

(٦) الأبيات في اختصار القدح (ص ٩٥) دون تغيير عمّا هنا.

شار[1] إلى المحبوب، وكان كثير الاجتماع به في جنّة لوالده على وادي العسل، فقال[2]: [مجزوء الرجز]

جَـنَّـةُ وادي الـعَـسَـلِ   كـم لـي بـهـا مـن أمـلِ
لـو لـم يـكـنْ ذُبَـابُـهـا   يَـمْـنَـعُ ذَوْقَ الـعَـسَـلِ

قال ابن سعيد: ولَمّا التقينا بتونس بعد إيابي من المَشْرِق، وقد ولج[3] ظلام الشَّعر على صبح[4] وجهه المُشرق، قلت لأبي الحجاج مشيرًا إلى محبوبه، وقد غطى هواه عنده على عُيُوبه: [السريع]

خَـلِّ[5] أبا الـحـجـاج هـذا الذي   قـد كـنـتَ فـيـه دائـمَ الـوَجْـدِ
وانـظرْ[6] إلى لـحيـتـه واعـتبرْ   مِـمّا جنى الشَّعْرُ على الـخَـدِّ

واللّه سبحانه يسمح للجميع، في هذا الهزل الشنيع، ويصفح عنّا في ذكره، إنه مجيبٌ سميع.

وقال صاحب «البدائع»[7]: ركب الأستاذ أبو محمد بن صارة مع أصحاب له في نهر إشبيلية في عشية سال أصيلها على لجين الماء عِقْيانا، وطارت زَوَاريقها في سماء النهر عقبانا، وأبدى نسيمها من الأمواج والدارات سُرَرًا وأعكانا، في زَوْرَق يجول جولانَ الطِّرْف، ويسودُ اسوداد الطَّرْف، فقال بديهًا: [الوافر]

تـأمَّـلْ حـالـنـا والـجَـوُّ طَـلْـقٌ   مُـحَـيّـاه وقـد طَـفَـلَ الـمَـسَـاءُ
وقد جـالـتْ بـنا عذراء حُبْلَى   تـجـاذبُ مِـرْطَـهـا ريـحٌ رُخَـاءُ
بـنهـرٍ كـالـسَّـجَـنْـجَـلِ[8] كـوثـريّ   تُـعـبّـسُ وجـهـهـا فـيـه الـسـمـاء

واتفق أن وقف أبو إسحٰق بن خفاجة على القطعة واستظرفها واستلطفها، فقال

---

(١) في أصول النفح: «وسار إلى المحبوب» والتصويب عن اختصار القدح.
(٢) في طبعة دار صادر: «وقال». والبيتان في اختصار القدح (ص ٩٥) دون تغيير عمّا هنا.
(٣) في طبعة ليدن: «ورد كلام الشعر»، وفي القدح المعلى: «دلج ظلام الشعر».
(٤) كلمة «صبح» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٥) في اختصار القدح: «خِلّي».
(٦) في المصدر نفسه: «فانظرْ».
(٧) بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٤٢).
(٨) السجنجل: المرآة. محيط المحيط (سجنجل).

يعارضها على وزنها ورويها وطريقتها[1]: [الوافر]

أَلاَ يا حَبّذا ضَحِكُ الحُمَيَّا ... بِحانَتِها وقد عَبَسَ المَسَاءُ
وأَدْهَمَ مِنْ جِيادِ الماءِ مُهْرِ ... تَنازَعُ جُلَّهُ رِيحٌ رُخاءُ[2]
إذا بَدَتِ الكواكبُ فيه غَرْقَى ... رأيتَ الأرضَ تَحْسُدُها السماءُ

وقال الأديب ابن خفاجة في ديوانه[3]: صاحبْتُ في صَدَرِي من المغرب سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة أبا محمد عبد الجليل بن وهبون شاعر المعتمد، وكان أبو جعفر بن رشيق يومئذ قد تمنّع ببعض حصون مُرْسِية، وشرع في النفاق، فقطع السبيل، وأخاف الطريق، ولَمّا حاذَيْنا قلعته وقد احتدمت جَمْرَةُ الهجير، وملَّ الركبُ رَسيمه وذَميله، وأخذ كلٌّ منّا يرتادُ مَقِيله[4]، اتفقنا على أن لا نطعم طعامًا، ولا نذوق منامًا، حتى نقول في صورة تلك الحال، وذلك الترحال، ما حضر، وشاء اللّه أن أَجْبَلَ ابن وهبون واعتذر[5]، وأخذت عفو خاطري، فقلت أتربّص به[6]، وأُعَرِّض بعظم لحيته[7]: [الوافر]

أَلاَ قُلْ للمريض القَلْبِ مَهْلاً ... فإنَّ السيف قد ضَمِنَ الشفاءَ
ولم أَرَ كالنفاقِ شَكَاةَ حَرّ[8] ... ولا كَدَمِ الوريدِ له دواءَ
وقد دُحِيَ النجيعُ هناك أرضًا ... وقد سُمِكَ العَجَاجُ به سماءَ[9]
ودِيسَ به انحطاطًا بَطْنُ وادٍ ... مُذَ اَعْشَبَ شعرُ لِحْيَتِهِ ضَراءَ[10]

وقال ابن خفاجة أيضًا: حضرت يومًا مع أصحاب لي، ومعهم صبي منهم في نفسه، واتّفق أنهم تحاوروا في تفضيل الرمان على العنب، فانبرى ذلك الصبي فأفرط في تفضيل

---

(١) ديوان ابن خفاجة (ص ١٢).
(٢) في طبعة عبد الحميد: «تنازح» بدل «تنازع». وفي طبعة ليدن: «نهد» بدل «مُهْرٍ». والريح الرُّخاء: اللّيّنة.
(٣) ما حكاه المقري هنا في بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٤٣، ١٤٥).
(٤) الرسيم والذميل: ضربان من السَّيْر. المقيل: النوم عند الظهر.
(٥) في طبعة ليدن: «وشاء اللّه إجبال ابن وهبون فاعتذر».
(٦) في بدائع البدائه: «أريض نار نزوته».
(٧) ديوان ابن خفاجة (ص ١٢).
(٨) في طبعة عبد الحميد: «شكاه حُرٌّ..». وفي الديوان: «شكاة غِرّ».
(٩) في الديوان: «وقد دَمَّى التجيعُ.. وقد شَمَل العَجاجُ..».
(١٠) الضراء: الشجر الملتفّ، ومعنى البيت غامض.

العنب، فقلت بَدِيهًا أعبث به[1]: [السريع]

صِلْنِي لك الخيرُ بِرِمَّانَةٍ لم تَنْتَقِلْ عن كَرَمِ العَهْدِ
لا عِنَبًا أَمْتَصُّ عُنْقُودَهُ ثَدْيًا كأني بَعْدُ في المَهْدِ
وهل يَرَى بَيْنَهما نِسْبَةً مَنْ عَدَلَ الخِصْيَةَ بالنَّهْدِ

فخجل خجلاً شديدًا وانصرف.

قال: وخرجت يومًا بشاطبة إلى باب السَّمَّارين، ابتغاء الفرجة على خرير ذلك الماء بتلك الساقية، وذلك سنة ٤٨٠، وإذ بالفقيه أبي عمران بن أبي تليد رحمه الله تعالى قد سبقني إلى ذلك، فألفيتُه جالسًا على دكان كانت هناك مبنية لهذا الشأن، فسلّمت عليه، وجلسْتُ إليه، مستأنسًا به، فجرى أثناء ما تناشدْناه ذكر قول ابن رشيق[2]: [مجزوء الكامل]

يا مَن يَمُرُّ ولا تَمرُّ به القُلُوبُ مِنَ الفَرَقْ
بِعِمَامَةٍ مِنْ خَدِّه أَوْ خَدُّهُ منها اسْتَرَقْ
فكأنه وكأنها قَمَرٌ تَعَمَّمَ بالشَّفَقْ
فإذا بَدَا وإذا انْثَنَى وإذا شَدَا وإذا نَطَقْ
شَغَلَ الخواطرَ والجوا نحَ والمسامعَ والحَدَقْ

فقلت، وقد أُعجِبَ بها جدًا، وأثنى عليها كثيرًا: أحسن ما في القطعة سياقة الأعداد، وإلاَّ فأنت تراه قد استرسل فلم يقابل بين ألفاظ البيت الأخير والبيت الذي قبله فينزل بإزاء كل واحدة منها ما يلائمها، وهل ينزل بإزاء قوله «وإذا نطق» قوله «شغل الحدق» وكأنه نازعني القول في هذا غاية الجهد، فقلت بديهًا[3]: [مجزوء الكامل]

ومُهَفْهَفٍ طَاوِي الحشا خَنِثٍ[4] المعاطفِ والنظرْ
مَلأَ العيونَ بصورةٍ تُلِيَتْ محاسِنُهَا سُوَرْ
فإذا رَنَا وإذا مَشَى وإذا شَدَا وإذا سَفَرْ[5]

---

(١) ديوان ابن خفاجة (ص ٨٣).
(٢) ديوان ابن رشيق القيرواني (ص ١٢٨ - ١٢٩).
(٣) ديوان ابن خفاجة (ص ١٠٤).
(٤) خنث المعاطف: متكسّرها.
(٥) سَفَرَ: كشف عن وجهه.

فَضَحَ الغزالةَ والغما مَةَ والحمامةَ والقمرْ

فَجُنَّ بها استحسانًا، انتهى.

قال ابن ظافر: والقطعة القافيّة ليست لابن رشيق، بل هي لأبي الحسين[١] علي بن بشر الكاتب أحد شعراء اليتيمة.

وكان بين السميسر الشاعر[٢] وبين بعض رؤساء ألْمَرِيَّةِ واقع لمدح مدحه فلم يجزه عليه، فصنع ذلك الرجل دعوة للمعتصم بن صمادح صاحب ألمرية، واحتفل فيها بما يحتفل مثله في دعوة سلطان مثل المعتصم، فصبر السميسر إلى أن ركب السلطان متوجّهًا إلى الدعوة، فوقف له في الطريق، فلمّا حاذاه رفع صوته بقوله: [البسيط]

يا أيها المَلِكُ الميمونُ طائرُهُ وَمَنْ لذي مأتمٍ في وجهه عُرُسُ
لا تُقْرَبَنَّ[٣] طعامًا عند غيركُمُ إنَّ الأُسُودَ على المأكولِ تفترسُ

فقال المعتصم: صدق والله، ورجع من الطريق، وفسد على الرجل ما كان عمله.

ونظير هذه الحكاية[٤] أن عَبّاد بن الحريش كان قد مدح رجلاً من كبار أصبهان أرباب الضيع والأملاك والتبع الكثير، فمطله بالجائزة، ثم أجازه بما لم يرضه، فردّه عليه، وبعد ذلك بحين عمل الرجل دعوة غرم عليها ألوف دنانير كثيرة لأبي دُلَف القاسم بن عيسى العِجْلي على أن يجيء إليه من الكرج، ووصل أبو دُلَف، فلمّا وقعت عين عبّاد عليه وهو يساير بعض خواصّه أومأ إلى ذلك السائر وأنشد بأعلى صوته: [مجزوء الخفيف]

قُلْ له يا فَدَيْتُهُ قولَ عبّادٍ: ذا سَمِجْ
جِئْتَ في ألفِ فارسٍ لِغَداءٍ مِنَ الكَرَجْ
ما على النَّفْسِ بَعْدَ ذا في الدناءات من حَرَجْ

---

(١) في طبعة ليدن: «لأبي الحسين بن علي بن بشر». وقد وهم ابن ظافر الأزدي في جعل القطعة القافية لأبي الحسين علي بن بشر، وهي لابن رشيق وقد وردت، كما أشرنا، في ديوانه. ولأبي الحسن (لا أبا الحسين) علي بن أبي بشر الكاتب ترجمة في الخريدة لا في يتيمة الدهر. كذلك له ترجمة في الوافي بالوفيات (الجزء الثالث).

(٢) لا يزال النقل مستمرًا عن بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٤٨).

(٣) في بدائع البدائه: «لا تقربن».

(٤) بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٤٩).

فقال أبو دلف، وكان أخوفَ الناس من شاعر: صدق واللّه، أجيءُ من الكرج إلى أصبهان حتى أتغدّى بها؟ واللّه ما بعد هذا في دناءة النفس من شيء. ثم رجع من طريقه، وفسد على الرجل كل ما غرمه، وعَرَف من أين أُتي. وتخوف أن يعود عبّاد عليه بشرّ منها، فسيّر إليه جائزة سنيّة مع جماعة من أصحابه، فاجتمعوا به، وسألوه فيه، وفي قبول الجائزة، فلم يقبل الجائزة، ثم أنشد بديهًا: [السريع]

وهَـبْـتُ يـا قـومُ لـكـمْ عِـرْضَـهُ

فقالوا: جزاكَ اللّه تعالى خيرًا! فقال:

كـرامـةً لـلـشِّـعْـرِ لا لـلـفـتـى

لأنـــه أبـــخـــلُ مِـــنْ ذَرَّةٍ على الذي تجمعه في الشِّتَا

انتهى.

وذكر أبو الصَّلْت أمية بن عبد العزيز الأندلسي ما معناه[1]: أنه عُزم بمصر هو ورفقة له على الاصطباح، فقصدوا بركة الحَبَش، في وقت ولاية الغَبَش، وحَلُّوا منها روضًا بَسَمَ زهرُهُ، ونسم عِطْرُه، فأداروا كؤوسًا، تُطْلِع من المُدام شُموسًا، وعاينوها نجومًا، تكون لشياطين الهموم رُجُومًا، فطرب حتى أظهر الطرب نشاطه، وأبرز ابتهاجه وانبساطه، فقال: [المنسرح]

لـلّـه يـومـي بِـبِـرْكَـةِ الـحَـبَـشِ والجوُّ[2] بين الضياءِ والغَبَشِ
والنِّيـلُ تحت الرياح مضطربٌ كصارمٍ في يَمينِ مُرْتَعِشِ[3]
ونـحـن فـي روضَـةٍ مُـفَـوَّفَـةٍ دُبِّجَ بـالـنُّـورِ عِـطْـفُـهـا ووُشِـي
قد نَسَجَتْها يَدُ الغمام لنا فنحن من نَورها على فُرُشِ[4]
فـعـاطِـنِـي الـراحَ إنَّ تـارِكَـهـا مِنْ سَوْرة الهَمِّ غيرُ منتعش

---

(١) بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٥١). والأبيات كذلك في الخريدة. قسم شعراء المغرب (جـ ١ ص ٢٢٩- ٢٣٠) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٥٠٨).
(٢) في الخريدة وعيون الأنباء: «والأفق».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «النّيلُ». ورواية عجز البيت في عيون الأنباء هي:

كـالـسـيـف سـلّـتـه كـفُّ مُـرْتَـعِـشِ

(٤) في الخريدة وعيون الأنباء: «يد الربيع... من نسجها على فُرُشي».

وأسقني بالكبارِ مُتْرَعَةً فهنَّ أروى لشدّةِ العَطَشِ[1]
فأثقلُ[2] الناسِ كلُّهمْ رجلٌ دعاهُ داعي الصِّبا فلم يَطِشِ

وهذا أبو الصَّلت أمية من كبراء أدباء الأندلس العلماء الحكماء، وقد ترجمْناه في الباب الخامس في المرتحلين من الأندلس إلى المشرق.

وقال رحمه اللّٰه تعالى[3]: كنت مع الحسن بن علي بن تميم بن المعز بن باديس بالمهدية في الميدان، وقد وقف يَرْمي بالنشاب، فصنعت فيه بَدِيهًا: [السريع]

يا ملكًا مذ خُلِقَتْ كَفُّهُ لم تَدْرِ إلاَّ الجُودَ والباسا
إنَّ النجومَ الزُّهْرَ مع بُعْدها قد حَسَدَتْ في قربك الناسا
ووَدَّتِ الأملاكُ لو أنها تَحَوَّلَتْ تحتك أفراسا
كما تَمَنَّى البدرُ لو أنه عاد لنشّابكَ بُرْجاسا[4]

وصنع[5] الوزير أبو جعفر أحمد الوقشي وزير الرئيس أبي إسحٰق بن همشك صهر الأمير أبي عبد اللّٰه محمد بن مَرْدَنيش في غلام أسود في يده قضيب نَور بديهًا: [الوافر]

وزنجيّ أتى بقضيبِ نَوْرٍ وقد زُفَّتْ لنا بنتُ الكرومِ
فقال فتًى مِنْ الفتيان صِفْهَا[6] فقلت الليلُ أقبل بالنجومِ

ولَمَّا أفرط أبو بكر يحيىٰ اليكي[7] في هجاء أهل فاس تَعَسَّفوا عليه[8]، وساعدهم

(١) في الخريدة: «وسقّني بالكبار. . . فتلك أشفى لشدة العطش». وفي عيون الأنباء: «واسقني. . فتلك أروى. . .».
(٢) في الخريدة وعيون الأنباء: «وأثقل».
(٣) بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٥٢).
(٤) البُرْجاس: هدف يوضع على شيء مرتفع ليرمى به، أو هو غرض في الهواء على رأس رمح أو نحوه، وحجر يُرْمَى به في البئر. لسان العرب ومحيط المحيط (برجس).
(٥) لا يزال النقل مستمرًا عن بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٥٣). وترجم ابن الأبار لأبي جعفر الوقشي وأورد له هذين البيتين. الحلة السيراء (جـ ٢ ص ٢٦٦). وهما للرصافي ووردا في ديوانه (ص ١٣٥). وهما في المغرب (جـ ٢ ص ٢٥٧) منسوبين إلى أبي علي الحسين بن أم الحور. وفي روايتهما في هذه المصادر بعض الاختلاف عمّا هنا.
(٦) في طبعة ليدن: «صِفْهُ».
(٧) لا يزال النقل عن بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٥٧).
(٨) بعض أهاجيه في زاد المسافر، فانظرها.

واليهم مظفر الخصي من قبل أمير المسلمين علي بن يوسف، والقائدُ عبد اللّه بن خيار الجياني(١)، وكان يتولّى أمورًا سلطانية بها، فقدّموا رجلاً ادّعى عليه بِدَيْن، وشهد عليه به رجل فقيه يعرف بالزناتي، ورجل آخر يكنى بأبي الحسين من مشايخ البلد، فأثبت الحقّ عليه، وأمر به إلى السجن، فَرُفع إليه، وسِيقَ سَوْقًا عنيفًا، فلمّا وصل إلى بابه طلب ورقة من كاتبه، وكتب فيها، وأنفذها إلى مظفر مع العون الذي أوصله إلى السجن، فكان ما كتب: [الكامل]

ارشوا الزناتيَّ الفقيهَ بِبَيْضَةٍ   يشهدْ بأنَّ مظفرًا ذو بيضتينِ
واهدوا إليه دجاجةً يَحْلِفْ لكمْ   ما ناك عبدُ اللّه عِرْسَ أبي الحسينِ

وقال أبو الحسن علي بن عتيق بن مؤمن القرطبي الأنصاري: عمل والدي محملاً للكتب من قضبان تشبه سلّمًا، فدخل عليه أبو محمد عبد اللّه بن مفيد، فرآه، فقال ارتجالاً: [الخفيف]

أيها السَّيِّدُ الذكيُّ الجنانِ   لا تقسني بسلَّم البنيانِ
فضلُ شكلي على السلالم أني   محملٌ للعلوم والقرآنِ
حُزتُ من حلية المحبين ضَعْفي   واصفراري ورقّةَ الأبدان
فادعُ للصانع المجيدِ بفوزٍ   ثم والِ الدعاءَ للإخوان

ثم عمل أيضًا: [الخفيف]

أيها السَّيِّدُ الكريمُ المساعِي   التفتْ صنعتي وحُسْنَ ابتداعي
أنا للنَّسْخِ محملٌ خفَّ حملي   أنا في الشكل سُلَّم الإطلاعِ

وقال أحمد بن رضى المالقي: [البسيط]

ليس المُدامة مِمّا أستريحُ له   ولا مجاوبةُ الأوتارِ والنَّغَمِ
وإنّما لَذَّتي كُتْبٌ أُطالِعُها   وخادمي أبدًا في نصرتي قلمي

وقال أبو القاسم البَلَوي الإشبيلي: [الوافر]

لمن أشكو مُصَابي في البرايا   ولا ألقى سوى رجلٍ مصابِ
أُمُورٌ لو تَدَبَّرَها حَكِيمٌ   لَعاش مدى الزمان أخا اكتئابِ

---

(١) ترجمة أبي محمد عبد اللّه بن خيار الجياني في الحلة السيراء (جـ ٢ ص ٢٣٥ ـ ٢٤١).

أما في الدهر مَنْ أُفْشي إليه بأسراري فيؤنسُ بالجواب
يئستُ من الأنام فما جليسٌ يعزُّ على نُهاي سوى كتابي

وقال أبو زكريا يحيىٰ بن صَفْوان بن إدريس، صاحبُ كتاب «العجالة» و «زاد المسافر» وغيرهما: [مجزوء الرمل]

ليتَ شِعْري كيف أنتمْ وأنا الصَّبُّ المُعَنَّى
كلُّ شيءٍ لم تكونوا فيه لفظٌ دون مَعْنَى

وله في نصراني وَسِيم لقيه يوم عيد: [المتقارب]

تَوحَّد[1] في الحسن من لم يزلْ يثلِّث والقلبُ في صَدِّهِ
يشفُّ لك الماءُ مِنْ كَفِّهِ ويقتدحُ النارَ مِنْ خَدِّهِ

وهذان البيتان نَسَبهما له بعضُ معاشريه، وأبوه صفوان سابق الميدان.

وقال ابن بسام[2]: ساير ابن عمار في بعض أسفاره غلامان من بني جَهْور أحدهما أشقر العِذار والآخر أخضره، فجعل يميل بحديثه[3] لمخضرّ العِذار، ثم قال ارتجالاً: [المتقارب]

تَعَلَّقْتُه جَهْوَرِيَّ النِّجَار حَلِيَّ[4] اللَّمَى جوهريَّ الثنايا
مِنَ النَّفَرِ البِيْض أُسْدِ[5] الزمانِ رقاق الحواشي كرام السجايا
ولا غَرْوَ أن تغربَ الشارقاتُ وتبقى محاسِنُها بالعَشَايا
ولا وَصْلَ إلاَّ جُمانُ الحديثِ تُساقِطُهُ مِنْ ظُهور المطايا
شَنِئتُ المثلَّثَ للزعفرانِ ومِلْتُ إلى خُضْرَةٍ في المقايا[6]

ومعناه أنَّ ابن عمار أبغض المثلث لدخول الزعفران فيه لشبهه بعذار الأشقر منهما،

---

(١) في طبعة ليدن: «يُوَحِّدُ».
(٢) لا يزال المقري ينقل عن بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٣٠). وورد النص والشعر في الذخيرة (ق ٢ ص ٣٨٩) و (ق ٤ ص ٤٣ ـ ٤٤).
(٣) في طبعة ليدن: «يميل في حديثه».
(٤) في الذخيرة (ق ٢): «حُلْو اللمى». وفي الذخيرة (ق ٤): «حُلْو اللَّثَى».
(٥) في الذخيرة: «جَرُّوا الزمانَ».
(٦) المثلث: نوع من الأطعمة عند أهل الأندلس، ومنه المجبنة المثلثة. كتاب الطبيخ (ص ٢٠١). والتفايا: من بسائط الأطعمة، تحضر من لحم الضأن الفتي. كتاب الطبيخ (ص ٨٥).

وأحبَّ خضرة التفايا، وهو لون طعام يُعْمل بالكزبرة، لشبهها بعذار الأخضر منهما.

وقال أبو العرب ابن معيشة الكناني السبتي[1]: أخبرني شيخ من أهل إشبيلية كان قد أدرك دولة آل عباد، وكان عليه من أثر كبر السنّ ودلائل التعمير ما يشهد له بالصدق، وينطق بأنّ قوله الحقّ، قال: كنت في صِبَايَ حسنَ الصورة، بديع الخلقة، لا تلمحني عينُ أحد إلاّ ملكْتُ قلبه، وخلبْتُ خِلْبه، وسلبْتُ لُبّه، وأطلْتُ كربه، فبينا أنا واقف على باب دارنا إذا بالوزير أبي بكر بن عمار قد أقبل في موكب زَجِل[2]، على فرس كالصخرة الصَمّاء قُدَّتْ من قُنّةِ[3] الجبل، فحين حاذاني ورآني اشرَأَبَّ إليَّ ينظرني وبُهِت يتأمّلني، ثم دفع بمخصرة كانت بيده في صدري، وأنشد: [مجزوء الرمل]

كُـفَّ هـذا الـنَّـهْـدَ عـنِّـي فـبـقـلـبـي مـنـه جُـرْحُ
هُـوَ فـي صَـدْرك نَـهْـدٌ وهـو فـي صـدريَ رُمْـحُ

وعبر في «البدائع» على طريقة القلائد بما صورته[4]: ذكر الفتح بن خاقان ما هذا معناه: أخبرني ذو الوزارتين أبو المطرف بن عبد العزيز أنه حضر عند المؤتمن بن هود في يوم أجْرَى الجوُّ فيه أشقَرَ بَرْقِهِ، وَرَمى بنبل[5] وَدْقِهِ، وحملت الرياح فيه أوتار السحاب على أعناقها، وتمايلت قاماتُ الأغصان في الحُلَل الخضر من أوراقها، والأزهار قد تفتّحت عيونُها، والكمائم قد ظهر مَكْنُونها، والأشجار قد انصقلت بالقَطْر، ونشرت ما يفوق ألوان البز وبَثّتْ ما يعلو العطر، والراح قد أشرقت نجومها في بروج الراح[6]، وحاكت شمسها شمس الأفق فتلفّعت بغيوم الأقداح، ومُدِيرها قد ذاب ظَرْفًا فكاد يسيل من إهابه[7]، وأخجل خدَّها حسنًا فتكلّل بعرق حَبَابه، إذا بفتًى رومي من أصبح فِتْيَان المؤتمن قد أقبل متدرّعًا كالبدر اجتاب سحابًا، والخمر اكتست حَبَابًا، والطاووس انقلب حُبابًا، فهو مَلَكٌ حُسْنًا إلاّ أنه جسد، وغزالٌ لِينًا إلاّ أنه في هيئة الأسد، وقد جاء يريد استشارة المؤتمن في

---

(١) بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٣٢) وفيه: «ابن معوشة».
(٢) الموكب الزَّجِلُ: الذي يرفع صوته بالتطريب، أي الموكب ذا الصوت المرتفع.
(٣) قُنّة الجبل: قمّته وأعلى مكان فيه.
(٤) بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٣٣). وقد تقدم هذا النص في الجزء الثاني من نفح الطيب ببعض الاختلاف عمّا هنا، وهو في قلائد العقيان (ص ٨٥ـ ٨٦).
(٥) في بدائع البدائه: «ببندق وَدْقه».
(٦) الراح الأولى الخمر، والراح الثانية: اليد.
(٧) الإهاب: الجلد.

الخروج إلى موضع كان عوّل فيه عليه، وأمره أن يتوجّه إليه، فحين وصل إلى حضرته لمحهُ ابنُ عمار والسكرُ قد استحوذ على لُبّه، وانبثّت سراياه في نواحي[1] قَلْبِه، فأشار إليه وقرَّبه، واستبدع ذلك اللباسَ واستغربه، وجَدَّ في أن يستخرج تلك الدّرَّة من ماء ذلك الدِّلاَص، وأن يجلي عنه سَهَكَه[2] كما يُجْلَى الخبثُ عن الخلاص، وأن يوفّر على ذلك الوفر نعمة جسمِهِ، ويكون هو الساقي على عادته القديمة ورَسْمِه، فأمره المؤتمن بقبول أمره وامتثاله، واحتذاء أمثاله، فحين ظهرت تلك الشمس من حُجبها، ورمتْ شياطينَ النفوس من كُمْتِ المُدام بشُهْبها، ارتجل ابن عمار[3]: [الكامل]

وهَـوِيـتُـهُ يَـسْـقـي الـمُـدامَ كـأنـه ... قَمَرٌ يدورُ بكوكبٍ في مَجْلسِ
مُتَنَاوح الحركاتِ يَنْدَى عِطْفُه[4] ... كـالـغُـصْـن هَزَّتْه الصَّـبـا بتنفُّس
يَسْقي بكأس في أنامل سَوْسَنٍ ... ويُدِيرُ أخرى مِنْ مَحاجِرِ نَرْجِس
يا حاملَ السَّيْفِ الطويلِ نِجادُهُ ... ومُصَرِّفَ الفرس القصيرِ المحبس
إيـاك بـادِرَةَ الـوَغَـى مِـنْ فـارس ... خَشِنِ القِناعِ على عِذَارٍ أمْلَس
جَهْمٍ وإنْ حَسَرَ القناعَ[5] فإنما ... كشف الظلامَ عن النهار المشمِس
يَطْغَى ويلعبُ في دَلاَلِ عذارِهِ ... كالمُهْرِ يلعبُ في اللجام المُجْرِس[6]
سَلْمْ فقد قَصَفَ القَنَا غُصْنُ النَّقَا ... وسَطَا بليث الغابِ ظبيُ المَكْنِسِ
عَنَّا بكأسِك قد كَفَتْنا مُقْلَةٌ ... حَوراءُ قائمةٌ بِسُكْر المجلسِ

وصنع فيه أيضًا: [الوافر]

وأحورَ مِنْ ظباءِ الرومِ عاطٍ ... بسالفتيه من دمعي فريدُ
قَسَا قَلْبًا وشَنَّ عليه دِرْعًا ... فباطنُه وظاهرُه حديدُ

---

(١) في أصول النفح: «ضواحي قلبه»، والتصويب عن بدائع البداائه.

(٢) كلمة «سهكه» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

(٣) الأبيات في بدائع البدائه وقلائد العقيان. وتقدمت في الجزء الثاني ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٤) رواية صدر البيت في القلائد هي:

مـتـأرّج الـحـركـات تـنـدَى ريحـه

(٥) في القلائد: «حَسَرَ اللثام».

(٦) في القلائد: «كالمهر يمرح». والمُجْرِسُ: الذي له صوت كصوت الجرس.

بـكـيـتُ وقـد دنـا ونـأى رضـاهُ [وقد يبكي من الطرب الجليد]
وإنَّ فَـتًـى تـمـلّـكـه بِـرِقٍ وأحرز حُسْنَهُ لَفَتًى سعيدُ

وقال[1] في «البدائع» مؤلّفه ما نَصُّه[2]: خرج المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية يومًا إلى بعض متنزهاته، فحلَّ بروضة قد سَفَرَت عن وجهها البهيج، وتنفّست عن مِسْكها الأريج، وماستْ معاطِفُ أغصانها، وتكلّلت بلؤلؤ الطلِّ أجيادُ قُضْبانها، فتشوّق[3] إلى الوزير أبي طالب بن غانم أَحَدِ كبراء دولته، وسيوف صَولته، فكتب إليه بديهًا بورقة كُرُنْبٍ بعود من شجرة[4]: [مخلع البسيط]

أَقْـبِـلْ أبـا طـالـبٍ إلـيـنـا واسْقُطْ سُقُوطَ النَّدَى علينا

وجلس المعتصم بن صمادح المذكور يومًا وبين يديه ساقية قد أخمدت ببردها حَرَّ الأُوَار[5]، والتوى ماؤها فيها التواء فِضّة السوار، فقال ارتجالًا[6]: [البسيط]

انْظُرْ إلى الماء كيف انحطَّ مِنْ صَبَبِهْ كـأنـه أرْقَـمٌ قـد جَـدَّ فـي هَـرَبِـهِ

وقال السميسر[7]: [المتقارب]

بَعُوضٌ شَرِبْنَ دمي قهوةً وَغَنَّيْنَنِي بضروب الأغانْ
كـأنَّ عـروقـيَ أوتـارهـنَّ وجسمي الربابُ وهُنَّ القِيانْ[8]

[وقيل[9]: [الطويل]

بعوض وبرغوث وبقٌّ لزمْنني حسبْنَ دمي خمرًا فلذّ لها الخمرُ

(١) في طبعة دار صادر: «وذكر» بدل «وقال».
(٢) النص في بدائع البداته (جـ ٢ ص ١٣٩). وقد تقدمت هذه الحكاية في الجزء الثاني.
(٣) في طبعة عبد الحميد: «وتشوّف».
(٤) البيت في قلائد العقيان (ص ٤٦) والحلة السيراء (جـ ٢ ص ١٠٧)، وتقدَّم في الجزء الثاني من نفح الطيب ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٥) الأُوار: حَرُّ العطش، محيط المحيط (أور).
(٦) البيت في الحلة السيراء (جـ ٢ ص ٨٥) والمطرب (ص ٣٦) ببعض الاختلاف عمّا هنا. وتقدم في الجزء الثاني من نفح الطيب باختلاف كبير في الصدر.
(٧) البيتان في بدائع البداته (جـ ٢ ص ١٧٦).
(٨) في طبعة عبد الحميد: «وهُنَّ القناني».
(٩) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر.

فيرقص برغوثٌ لزَمْرِ بعوضةٍ — وبَقُّهُمُ سكتٌ ليستمعَ الزمرُ

ومنـه: [مجزوء الكامل]

بَـقٌّ وبـرغـوثٌ أتـوا — نـحـوي وقـد شَـدُّوا عـذابـي
وأتـى الـبـعـوضُ بـزَمْـره — يا قـوم أخـرجْ من ثـيابـي]

وأحسن منه قول ابن شرف القيرواني [1] : [الكامل]

لكَ مجلسٌ كملتْ بشارةُ لَهْوِنا — فيه [2]، ولكنْ تحت ذاك حديثُ
غَنَّى الذبابُ فظلَّ يَزْمُرُ حوله — فيه البعوضُ ويرقصُ البرغوثُ

والسابق إلى هذا المعنى أبو الحسن أحمد بن أيوب من شعراء اليتيمة إذ قال [3]: [المنسرح]

لا أعـذل [4] الـلـيـلَ فـي تـطـاولـه — لو كان يَدْرِي ما نحن فيه نَقَصْ
لـي والـبـراغـيـثَ والـبـعـوضَ إذا — أجَنَّنا [5] حِنْدِسُ الظلام قِصَصْ
إذا تـغـنَّـى بَـعُـوضَـةٌ طَـرَبًـا — أطربَ [6] برغوثَه الغِنا فرقصْ

ونحو هذا قول الحُصْري فيما نسبه إليه ابن دحية [7]: [المجتث]

ضـاقَـتْ بَـلَـنْـسِـيَـةُ بـي — وذادَ عَـنِّـي غُـمُـوضـي
رَقْـصُ الـبـراغـيـثِ فـيـهـا [8] — عـلـى غِـنـاءِ الـبَـعُـوضِ

رجع إلى أهل الأندلس، فنقول:

كان ابن سعد الخير البَلَنْسِي الشاعر كثير الذهول، مفرط النسيان، ظاهر التغفّل، على

(١) البيتان في بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٧٦) والمطرب (ص ٧٠) ومعجم الأدباء (جـ ١٩ ص ٣٨).
(٢) في المطرب: «كملت بشارتنا به للهو لكن..».
(٣) الشعر في بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٧٦) ويتيمة الدهر (جـ ٤ ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤).
(٤) في يتيمة الدهر: «لا أعذر».
(٥) في المصدر نفسه: «ألحفنا».
(٦) في المصدر نفسه: «ساعد».
(٧) المطرب (ص ٩٤) وبدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٧٦). وقد تقدما في الجزء الأول من نفح الطيب.
(٨) في المطرب: «حولي».

جودة نظمه، ورطوبة طبعه، وكان كثيرًا ما يسلك سكةَ الإسكافيين الذين يعملون الخِفَافَ على بغلة له، فاتّخذت البغلة النفور من أطراف الأدم وفضلات الجلود الملقاة في السكة عادةً لها، واتّفق أنْ عبر في السكة راجلاً، ومعه جماعة من أصحابه، فلمّا رأى الجلود الملقاة قفز ووثب راجعًا على عقبيه، فقال له أصحابه: ما هذا أيها الأستاذ؟ فقال: البغلة نفرت، فعجبوا من تغفّله[1] كيف ظنّ مع ما يقاسيه من ألم المشي ونَصَب التعب أنه راكب؟ وأنّ حركته الاختيارية منه حركة الدابة الضرورية له، فكان تغفّله ربما أوقعه في تهمة عند من لم يعرفه، فاقترح عليه بعض الأمراء أن يصنع بيتين أول أحدهما كتاب وآخره ذئب، وأول الآخر جوارح وآخره أنابيب، فصنع بديهًا: [الطويل]

كتابُ نجيبٍ لاحَ في حَومة الوغى ... وقَارَنَهُ نَسْرٌ هنالك أو ذِيبُ
جوارحُ أهليه حروفٌ وربّما ... تَوَلَّتْهُ من نقطِ الطعانِ أنابيبُ

وقال الحميدي: ذكر لي أبو بكر المرواني أنه شاهد محبوبًا الشاعر النحوي[2] قال بديهة في صفة ناعورة: [الطويل]

وذاتِ حنينٍ ما تغيضُ جفونُها ... مِنَ اللُّجَجِ الخضر الصوافي على شَطِّ
وتبكي فَتُحْيِي من دموعِ جفونِها ... رياضًا تبدَّتْ بالأزاهر في بسط[3]
فمن أحمرٍ قانٍ وأصفرَ فاقعٍ ... وأزهرَ مُبيَضّ وأدكنَ مُشْمَطِّ
كأنَّ ظروفَ[4] الماءِ من فوق مَتْنِها ... لآلي جُمَانٍ قد نُظِمْنَ على قُرْطِ

وقال أبو الخطاب بن دَحْية[5]: دخلت على الوزير الفقيه الأجلّ أبي بكر عبد الرحمن ابن محمد بن مغاور السلمي، فوقع الكلام في علوم لم تكن من جنس فنونه، فقال بديهًا: [الخفيف]

أيها العالم ادّركني سماحًا ... فلمثلي يحقُّ منك السماحُ
إنْ تخلني إذا نطقتُ عَيِيًّا ... فبناني إذا كتبتُ وقاحُ

(١) في طبعة دار صادر: «من تخلّفه وتغفّله».
(٢) ترجمة محبوب وأبياته في جذوة المقتبس (ص ٣٥٠) وبغية الملتمس (ص ٤٦٨).
(٣) في الجذوة: «تبكّى... رياضًا تَبَدّى..». وفي البغية: «تبكى فتحيا.. رياضٌ تبدّى من أزاهير في بسط».
(٤) في البغية: «كأنّ طروق».
(٥) النص والشعر في بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٧١)، ولم يردا في المطرب.

أُحْرِزُ الشأوَ في نظامٍ ونَثْرٍ ... ثم أثني وفي العنان جِمَاحُ
فبهزلٍ كما تأوَّدَ غُصْنٌ ... وبجدٍ كما تُهَزُّ الصفاحُ

وقال[1]: دخلت عليه منزله[2] بشاطبة في اليوم الذي توفي فيه وهو يجود بنفسه، فأنشد بديهًا[3]: [الخفيف]

أيها الواقفُ اعتبارًا بقبري ... استمعْ فيه قولَ عظمي الرميمِ
أوْدَعُوني بَطْنَ الضريحِ وخافوا ... مِنْ ذنوبٍ كلومُها بأديمي
ودعوني بما اكتسبتُ رهينًا ... غَلِقَ الرهنُ عند مولًى كريمِ

وقال ابن طوفان[4]: دعا أبي أبا الوليد النَّحْلي، فلمّا قضوا وطرهم من الطعام سقيتهم، وجعلت أُتْرِعُ الكاسات، فلمّا مشتْ في النَّحْلي سَورة الحُمَيَّا ارتجل: [مجزوء الرمل]

لابنِ طوفانٍ أيادٍ ... قَلَّ فيها مُشْبِهُوهْ
مَلأَ الكاساتِ حتى ... قيلَ في البيتِ أبوهْ

ونظيره قول المنفتل[5] من شعراء الذخيرة في الشاعر ابن الفراء: [مجزوء الرمل]

فإذا ما قال شعرًا[6] ... نَفِقَتْ سوقُ أبيهِ

وذكر في «بدائع البدائه»[7] أن جماعة من الشعراء في أيام الأفضل خرجوا متنزهين إلى الأهرام ليَرَوْا عجائبَ مبانيها، ويتأمّلوا ما سطّره الدهر من العبر فيها، فاقترح بعض من كان معهم العمل فيها، فصنع أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي[8]: [الطويل]

بِعَيْشِكَ هل أَبْصَرْتَ أعجبَ مَنْظَرًا ... على ما رأتْ عيناكَ مِنْ هَرَمَيْ مصرِ

---

(١) بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٧٢).
(٢) في طبعة ليدن: «بمنزله».
(٣) سترد هذه الأبيات، ضمن ٤ أبيات، في الجزء السادس.
(٤) النقل مستمرٌ عن بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٩١).
(٥) في طبعة عبد الحميد: «المتفتل». والمنفتل هو أبو أحمد عبد العزيز بن خيرة القرطبي، وترجمته وبيته في الذخيرة (ق ١ ص ٧٥٤، ٧٦٠) وبدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٩٢) وسيرد هذا البيت في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ٣٤٦).
(٦) في الذخيرة: «فإذا بَيَّتَ بيتًا».
(٧) بدائع البدائه (جـ ١ ص ٢٤٣).
(٨) تقدمت هذه الأبيات في الجزء الثاني ببعض الاختلاف عمّا هنا، وأشرنا هناك إلى المصادر التي وردت فيها.

أنافا بأعنانِ[1] السماءِ فأشرفا	على الجَوّ إشرافَ السِّماكِ أو النَّسْر
وقد وافَيَا نَشْزًا مِنَ الأرض عاليًا	كأنهما نَهْدَانِ قاما على صَدْر

وصنع أبو منصور ظافر الحداد: [الوافر]

تأمَّلْ هيئةَ الهَرَمَينِ وانظرْ	وبينهما أبو الهولِ العجيبُ
كعماريتين[2] على رحيلٍ	بمحبوبين بينهما رقيبُ
وفيضُ البحر عندهما دموعٌ	وصوتُ الريحِ بينهما نحيبُ
وظاهر سجن يوسف مثل صبّ	تخلّف فهو محزونٌ كئيبُ

وقال ابن بسام[3]: كان للمتوكل ابن الأفطس فرسٌ أدهمُ أغرُّ محجّلٌ على كفله ست نقط بيض، فندب المتوكل الشعراء لصفته، فصنع النَّحْلي أبو الوليد فيه بديهًا: [الرمل]

رَكِبَ البَدْرُ جوادًا سابحًا[4]	تقفُ الريحُ لأدنى مَهَلِهْ
لَبِسَ الليل قميصًا سابغًا	والثريّا[5] نُقَطٌ في كَفَلِهْ
وغديرُ الصبحِ قد خِيضَ به[6]	فبدا تحجيلُهُ مِنْ بللهْ
كلُّ مطلوبٍ وإن طالتْ به	رِجْلُهُ مِنْ أَجْلِهِ في أَجَلِهْ

ثم انتدب الشعراء بعد ذلك للعمل فيه، فصنع ابن اللَّبَّانة[7]: [الكامل]

للَّه طِرْفٌ جالَ يا ابنَ محمدٍ	فحبتْ به حوباؤه التأميلا[8]
لَمَّا رأى أنَّ الظلامَ أديمُهُ	أهدى لأرْبَعِهِ[9] الهدى تحجيلا
وكأنما في الردفِ منه مَبَاسم	تبغي هناك لِرِجْلِهِ[10] تقبيلا

---

(١) في بدائع البدائه: «بأكناف».
(٢) العمارية: الهودج.
(٣) الذخيرة (ق ٢ ص ٤٦٥) وبدائع البدائه (جـ ١ ص ٢٦٠).
(٤) في الذخيرة: «حمل البدرَ جوادٌ سابحٌ».
(٥) في المصدر نفسه: «فالثريّا».
(٦) رواية صدر البيت في الذخيرة هي:

وكأنَّ الصبح قد خاضَ به

(٧) الأبيات في الذخيرة (ق ٢ ص ٤٦٦) وبدائع البدائه (جـ ١ ص ٢٦١).
(٨) في الذخيرة: «جال بابن محمد فَحَوَتْ به..». وفي بدائع البدائه: «فجنت» بدل «فَحَبَتْ».
(٩) في الذخيرة: «لأربعة».
(١٠) في المصدر نفسه: «لوجهه تقبيلا».

وقال فيه أبو عبد الله بن عبد البر الشنتريني من قطعة[1]: [الكامل]

وكأنما عُمَرٌ على صَهَوَاتِهِ قمرٌ تسيرُ به الرياحُ الأربعُ

ويعني بعمر المتوكل المذكور لأنّ اسمه عمر.

وقال أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الخزرجي قاضي إشبيلية: [الكامل]

للّه إخوانٌ تناءتْ دارهُمْ حفظوا الوداد على النوى أو خانوا

يهدي لنا طيبَ الثناء ودادهمْ كالندِّ يهدي الطيبَ وهو دخانُ

وحُكي أن أيوب بن سليمان السهيلي المرواني حضر يومًا عند ابن باجة[2]، والشاعر أبو الحسن بن جودي هناك، فتكلّم المرواني بكلام ظهر فيه نُبْلٌ وأدب، فتشوّف أبو الحسن ابن جودي لمعرفته، وكان إذ ذاك فتيَّ السّنّ، فقال له: من أنت أكرمك اللّه تعالى؟ فقال: هلا سألت غيري عني فيكون ذلك أحسن لك أدبًا ولي توقيرًا، فقال ابن جودي: قد سألت من المعرف عنك فلم يعرفك، فقال: يا هذا، طالما[3] مَرَّ علينا زمان يعرفنا من يجهل، ولا يحتاج مَنْ يرانا فيه إلى أن يسأل، وأطرق ساعة، ثم رفع رأسه وأنشد: [الطويل]

أنا ابنُ الألى قد عَوَّضَ الدهر عزّهم بذلّ وقلوا واستحبّوا التنكّرا

ملوكٌ على مَرِّ الزمانِ بمشرقٍ وغَربٍ دهاهمْ دهرهمْ وتغيّرا

فلا تُذْكِرَنْهُمْ بالسؤال مُصابَهُمْ فإنَّ حياةَ الرُزْء أنْ يُتَذَكَّرا

ففطن ابن جودي أنه من بني مروان، فقام وقبّل رأسه، واعتذر إليه، ثم انصرف المرواني، فقال ابن باجة لابن جودي: أساء أدبك[4] بعدما عهدت منك؟ كيف تعمد إلى رجل في مجلسي تجدني[5] قد قربْتُه وأكرمْتُه وخَصَصْتُه بالإصغاء إلى كلامه فتقدّم عليه بالسؤال عن نفسه؟ فاحذر أن تكون لك عادة، فإنها من أسوإ الأدب، فقال ابن جودي: لم نزل[6] من الشيخ على ما قاله أبو تمام[7]: [المنسرح]

نأخذ من ماله ومن أدبهْ

(١) البيت في الذخيرة (ق ٢ ص ٤٦٦) وبدائع البداته (جـ ١ ص ٢٦١).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «ابن باجة الشاعر وأبو الحسن...».

(٣) في طبعة دار صادر: «لطالما».

(٤) في طبعة ليدن: «ساءني أدبك».

(٥) في طبعة دار صادر: «تراني».

(٦) في الطبعة نفسها: «لم أزل».

(٧) البيت في ديوان أبي تمام (ص ٥٠) هو:

ترمي بأشباحنا إلى مَلِكٍ نأخذُ من مالِهِ ومن أَدَبِهْ

وحُكي أن بكارًا المرواني لَمّا ترك وَطَنه وخرج في الجهاد وقُتل، قال صاحب السقط: إنه اجتمع به في أشبونة فقال: قصدت منزله بها، وتقرت الباب، فنادى: من هذا؟ فقلت: رجل مِمَّنْ يتوسّل لرؤياك بقرابة، فقال: لا قرابة إلاّ بالتقي، فإن كنت من أهله فادخل، وإلاّ فتنحَّ عنّي، فقلت: أرجو في الاجتماع بك والاقتباس منك أن أكون من أهل التقى، فقال: ادخل، فدخلت عليه فإذا به في مُصَلاّه وسبحة أمامه، وهو يعدّ حبوبها ويسبح فيها، فقال لي: ارفق عليَّ حتى أتمّم وظيفتي من هذا التسبيح، وأقضي حقّك، فقعدت إلى أن فرغ، فلمّا قضى شغله عطف عليَّ وقال: ما القرابة التي بيني وبينك؟ فانتسبت له، فعرف أبي، وترحَّم عليه، وقال لي: لقد كان نِعْمَ الرجل، وكان لديه أدب ومعرفة، فهل لديك أنت مِمّا كان لديه شيءٌ؟ فقلت له: إنه كان يأخذني بالقراءة وتعلُّم الأدب، وقد تعلّقت من ذلك بما أتميّز به، فقال لي: هل تنظم شيئًا؟ قلت: نعم، وقد ألجأني الدهر إلى أن أرتزق به، فقال: يا ولدي إنه بئسما يُرتزق به، ونعم ما يُتَحَلَّى به إذا كان على غير هذا الوجه، وقد قال رسول اللّه ﷺ: «إنَّ مِنَ الشّعْر لَحِكْمَة» ولكن[1] تحلّ الميتة عند الضرورة، فأنشدني أصلحك اللّه تعالى مِمّا على ذُكْرك من شعرك، قال: فطلبت بخاطري شيئًا أقابله به مِمّا يوافق حاله فما وقع لي إلاّ فيما لا يوافقه من مُجُون ووصف خمر وما أشبه ذلك، فأطرقت قليلاً، فقال: لعلّك تنظم، فقلت: لا ولكن أفكر فيما أقابلك به، فقولي أكثره فيما حملني عليه الصِّبا والسخف، وهو[2] غير لائق بمجلسك، فقال: يا بني، ولا هذا كلّه، إنّا لا نبلغ من تقوى اللّه إلى حدّ نخرج به عن السلف الصالح، وإذا صحّ عندنا أنَّ عبد اللّه بن عباس ابن عم رسول اللّه ﷺ، ومفسّر كتاب اللّه تعالى ينشد مثل قول القائل: [الرجز]

إنْ يَصْدُقِ الطيرُ نَنِكْ لَمِيسَا

فمن نحن حتى نأبى أن نسمع مثل هذا؟ واللّه لا نشذّ[3] عن السلف الصالح، أنشدني ما وقع لك غير متكلّف، فلم يمدّني خاطري إلى غير قولي من شعر أمْجُنُ فيه[4]: [المجتث]

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «ولكل».

(٢) في طبعة دار صادر: «وهو لائق بغير مجلسك..».

(٣) في طبعة ليدن: «ألا واللّه لأنشد عن..».

(٤) الأبيات في المغرب (جـ ١ ص ٤١٥) دون تغيير عمّا هنا.

أبطأتَ عنّي، وإنّي لفي اشتياقٍ شديدِ
وفي يدي لك شيءٌ قد قام مثلَ العمودِ
لو ذُقْتَهُ مرّةً لم تعد لهذا الصدودِ

فتبسّم الشيخ وقال: أما كان في نظمك أطهر من هذا؟ فقلت له: ما وُفِّقْتُ لغيره، فقال: لا بأس عليك، فأنشدني غيره، ففكّرْتُ إلى أن أنشدته قولي[1]: [المتقارب]

ولَمَّا وقفتُ على رَبْعِهِمْ تجرَّعْتُ[2] وجديَ بالأجْرَعِ
وأرسل دمعي شرارَ الدموعِ[3] لنارٍ تأجَّجُ في الأضلُعِ
فقال عذولِيَ، لَمَّا رأى بكائيَ: رِفْقًا على الأدْمُعِ
فقلتُ له: هذه سُنَّةٌ لمن حفظ العَهْدَ في الأرْبُعِ

قال: فرأيت الشيخ قد اختلط، وجعل يجيء ويذهب، ثم أفاق وقال: أعد بحقّ آبائك الكرام، فأعدْتُ، فأعاد ما كان فيه وجعل يردّدهُ، فقلت له: لو علمت أنّ هذا يحرّكك ما أنشدتك إيّاه، فقال: وهل حرّك منّي إلاَّ خيرًا وعظة؟ يا بنيّ، إنَّ هذه القلوب المخلاة للّه كالوَرَق التي جفت، وهي مستعدّة لهبوب الرياح، فإن هبَّ عليها أقلُّ ريحٍ لعب بها كيف شاء، وصادف منها طَوْعه، فأعجبني منزعه، وتأنّست به، ولم أر عنده ما يعتاد من هؤلاء المتدينين من الانجماع والانكماش، بل ما زال يبسطني ويحدّثني بأخبار فيها هزل، ويذكر لي من تاريخ بني أمية وملوكها ما أرتاح له، ولا أعلم أكثره، فلمّا كثر تأنسي به أهويتُ إلى يده كي أُقبِّلَها، فضمّها بسرعة، وقال: ما شأنك؟ فقلت: راغبًا لك في أن تنشدني شيئًا من نظمك، فقال: أما نظمي في زمان الصبا فكان له وقت ذهب، ويجب للنظم أن يذهب معه، وأمّا نظمي في هذا الوقت فهو فيما أنا بسبيله، وهو يثقل عليك، فقلت له: إنْ أنصف سيدي الشيخ نفعنا اللّه تعالى به أنشدني من نظم صباه، ومن نظم شيخوخته[4]، فيأخذ كلانا بحظّه، فضحك وقال: ما أعصيك وأنت ضيف وقريب ولك حرمة أدب[5] ووسيلة قصد، ثم أنشدني وقد بَدَا عليه الخشوعُ وخَنَقَتْه العَبْرة[6]: [مجزوء الكامل]

---

(١) المغرب (جـ ١ ص ٤١٦).
(٢) في المغرب: «فَجَرَّعْتُ وَخدِيَ بالأَجْرَعِ».
(٣) في طبعة ليدن: «شداد الدموع». وفي المغرب: «وأرسل جفني سرارَ الدموعِ».
(٤) في طبعة ليدن: «ومن نظم شيخه».
(٥) في الطبعة نفسها: «حرمة وأدب».
(٦) الأبيات في المغرب (جـ ١ ص ٤١٦) دون تغيير عمّا هنا.

ثِـقْ بـالـذي سَـوَّاكَ مـن عَـدَمٍ فـإنـكَ مِـنْ عَـدَمْ
وانـظـرْ لـنـفـسـك قـبـل قَـرْ عِ الـسِّـنِّ مِـنْ فـرط الـنـدمْ
واحـذرْ وُقِـيـتَ مِـنَ الـوَرَى واصْـحَـبْـهُـمُ أعـمـى أَصَـمّ
قـد كـنـتُ فـي تِـيـهٍ إلـى أنْ لاحَ لـي أَهْـدَى عَـلَـمْ
فـاقْـتَـدَتْ نـحـو ضـيـائـه حتى خرجتُ من الظُّلَمْ
لـكـنْ قـنـاديـلُ الـهـوى في نور رُشْدي كالحُمَمْ

قال: فواللَّه لقد أدركني فوق ما أدركه، وغُلِبَ على خاطري بما سمعت من هذه الأبيات، وفعلت بي من الموعظة غاية لم أجدْ منها التخلّص إلاّ بعد حين، فقال لي الشيخ: إنَّ هذه يقظة يرجى معها خيرك، واللَّه مرشدك ومنقذك، ثم قال لي: يا بني، هذا ما نحن بسبيله الآن، فاسمعْ فيما مضى واللَّه وليُّ المغفرة، وإنَّا لنرجو منه غفران الفعل، فكيف القول، وأنشد: [المتقارب]

أطـلَّ عِـذارٌ عـلـى خَـدِّه فظَنُّوا سُلُوِّيَ عن مذهبي
وقالوا غُرَابٌ لو شك النَّوى فقلت اكْتَسَى البَدْرُ بالغَيْهَبِ
ونـاديـتُ قـلـبـيَ أيـنَ الـمـسـيـرُ وبَدْرُ الدُّجَى حَلَّ بالعقربِ[١]
فـقـال ولـو رُمْـتَ عـن حُـبِّـه رحيلاً عَصَيتُ ولم أذهبِ

قال: فسمعت منه[٢] ما يقصر عنه صدور الشعراء، وشهدت له بالتقدّم، وقلت له: لم أرَ أحسن من نظمك في جدّ ولا هَزْل، ثم قلت له: أأرويه عنك؟ فقال: نعم، ما أرى به بأسًا بعد اّطلاع مَنْ يعلم السرائر، على ما في الضمائر، فما قدر هذه الفكاهة في إغضاء[٣] من يغفر الكبائر؟ ويغضي عن العظائم؟ قال: فقلت له: فإن أسبغت عليّ النعمة بزيادة شيء من هذا الفن فعلتَ ما تملك به قلبي آخِرَ الدهر، فقال: يا بني، لا مَلَكَ قلبك غير حبّ اللَّه تعالى! ثم قال: ولا أجمع عليك ردَّ قول ومنعًا[٤]، وأنشد[٥]: [مجزوء الخفيف]

---

(١) في طبعة دار صادر: «في العقرب». والعقرب: برج في السماء.
(٢) كلمة «منه» ساقطة من طبعة دار صادر.
(٣) في طبعة ليدن: «في إحصاء».
(٤) في الطبعة نفسها: «ومعنى».
(٥) الأبيات في المغرب (جـ ١ ص ٤١٦).

أيــهــا الــشــادنُ الــذي حُـسْـنُـهُ فـي الـوَرَى غـريـبُ
لَـحْـظُ ذاك الـجـمـال يـطـ ـفيء ما بي من اللهيبْ
وعـلـيـه أحُـومُ[1] دَهْـ ـري ولـكـنـنـي أخـيـب
كـلَّـمـا رُمْـتُ زورةً قَـيَّضَ الـلَّـهُ لـي رقـيـب

قال: فمازج قلبي من الرقّة واللطافة لهذا الشعر ما أعجز عن التعبير عنه، فقلت له: زِدْني زادك اللّه تعالى خيرًا، فأنشدني: [البسيط]

ما كان قلبيَ يدري قَدْرَ حُبِّكُمُ حتى بعدتمْ فلم يَقْدِرْ على الجَلَدِ
وكنتُ أحسبُ أني لا أضيقُ به ذَرْعًا فما حان حتى فَتَّ في عَضُدي
ثم استمرَّتْ على كُرْهٍ مَرِيرَتُهُ فكاد يفرقُ بين الروحِ والجسد
عساكُمُ أن تلاقوا باللقا رَمَقي فليس لي مهجةٌ تَقْوَى على الكمدِ

ثم قال: حسبك، وإن كلفتني زيادة فاللّه حَسْبُك، فقلت له: قد وكلتني إلى كريم غفور رحيم، فباللّه إلاّ ما زِدْتني، وأكبَبْتُ لأُقبِّلَ رجليه، فضمّهما وأنشد: [المجتث]

لـلَّـه مـن قـال لَـمَّـا شـكـوْتُ فـيـه نُـحـولـي
أَمَّـا الـسـبـيـلُ لـوصـلٍ فـمـا لـه مـن وصـولِ
فقلتُ حسبي التماحٌ بـحـسـنِ وجْـهٍ جـمـيـلِ
وجـهٌ تـلـوحُ عـلـيـه عـلامـةٌ لـلـقـبـولِ
فـقـال دَعْـنـي فـهـذا تَـعَـرُّضٌ لـلـفُـضُـول
فـقـلـتُ عـاتـبْ وخـاطـبْ بـالأمـنِ أهـلَ الـعـقـولِ

فملأ سمعي عجائب، وبسط أُنسي، وكتبتُ كلَّ ما أنشدني، ثم قلت له: لولا خوفي من التثقيل عليك لم أزل أستدعي منك الإنشاد حتى لا تجد ما تنشد، فقال: إن عدت إن شاء اللّه تعالى إلى هنا تذكرت، وأنشدتك، فما عندي مِمَّا أُضيفك غير ما سمعته[2]، وما تراه، ثم قام وجاء من بيت آخر في داره بصَحْفة فيها حسًا من دقيق وكسور باردة، فجعل يفتّ فيها، ثم أشار إليَّ أن أشْرَبَ، فشربت، ثم شرب إلى أن أتينا على آخرها، ثم قال لي: هذا غذاء[3] عمّك نهاره، وإنه لنعمة من اللّه تعالى أستديم بشكرها اتّصالها، قال:

---

(١) في المغرب: «أقوم».
(٢) في طبعة دار صادر: «سمعت».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «غداء».

فقلت له: يا عمّ، ومن أين عيشك؟ فقال: يا بني، عيشتي بتلك الشبكة أصطاد بها في سَوَاحل البحر ما أقتات به، ولي زوجة وبنت يعود من غَزْلهما مع ذلك ما نجد به[1] معونة، وهذا مع العافية والاستغناء عن الناس خيرٌ كثير، جعلنا اللّه تعالى مِمَّنْ يلقاه على حالة يرضاها، وختم لنا بخاتمة لا يخاف معها فضيحة! قال: فتركته وقمت وفي نيّتي أن أعود إلى زيارته، ونويت أن يكون ذلك بعد أيام خَوْفَ التثقيل، فعدْتُ إليه بعد ثلاثة أيام، فنقرت الباب، فكلمتني المرأة بلسان عليه أثر الحزن، وقالت: إنَّ الشيخ خرج إلى الغَزْوِ، وذلك بعد انفصالك عنه بيوم، ناله كالجنون، فقلت له: ما شأنك؟ فقال: إني أريد أن أموت شهيدًا في الغزو، وهؤلاء جيران لي قد عزموا على الغزو، وأنا إن شاء اللّه تعالى ماضٍ معهم، ثم احتال في سيفٍ ورمح وتوجّه معهم، وقال: نفسي هي التي قتلتني بهواها، أفلا أقتصُّ منها فأقتلها؟ قال: فقلت لها: منْ خَلَّفَ للنظر في شأنكم؟ فقالت: ليس ذلك لك، فالذي خلفنا له لا نحتاج[2] معه إلى غيره، فأدركني من جوابها روعة، وعلمت أنها مثله زهدًا وصلاحًا، فقلت: إني قريبه، ويجب عليّ أن أنظر في حالكم بعده، فقالت: يا هذا، إنك لست بذي مَحْرَم، ولنا من العجائز من ينظر منّا ويبيع غَزْلَنا ويتفقّد أحوالنا، فجزاك اللّه تعالى عنّا خيرًا، انصرفْ عنّا مشكورًا، فقلت لها: هذه دراهم خذوها لتستعينوا بها[3]، فقالت: ما اعتَدْنا أن نأخذ شيئًا من غير اللّه تعالى، وما كان لنا أن نُخِلَّ بالعادة، فانصرفت نادمًا على ما فاتني من الاستكثار من شعر الشيخ والتبرّك بزيادة دعائه، ثم عدت بعد ذلك لداره سائلاً عنه، فقالت لي المرأة: إنه قد قبّله اللّه تعالى، فعلمت أنه قد قُتِلَ، فقلت لها: أَقُتِلَ؟ فقرأت ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُوا في سبيلِ اللّهِ﴾ ـ الآية[4] فانصرفت معتبرًا من حاله، رحمه اللّه تعالى ورضي عنه ونفعنا به!.

وكانت للمروانيين بالأندلس يد عُلْيا، في الدين والدنيا. انتهى[5].

وقال محمد بن أيوب المرواني، لَمّا كلّف قومًا حاجة له سلطانية فما نهضوا بها فكلّفها رأس بني مروان القائد سعيد بن المنذر، فنهض بها: [الوافر]

---

(١) في طبعة دار صادر: «نجد فيه».

(٢) في طبعة ليدن: «ولا يحتاج..».

(٣) في طبعة دار صادر: «تستعينوا بها».

(٤) سورة آل عمران ٣، الآية: ١٦٩.

(٥) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

نَهَضْتَ بِمَا سألْتُكَ غَيْرَ وَانٍ   وقد صَعُبَتْ لسالِكِها الطريقُ
وليس يَبِينُ فَضْلُ المَرْءِ إلاّ   إذا كَلَّفْتَهُ ما لا يُطِيقُ

وعتبه يومًا سعيد بن المنذر في كونه يتعرّض لمدح خدام بني مروان، فقال له: أعزَّ اللَّهُ تعالى القائدَ الوزير! إنكم جعلتموني ذَنَبًا وجعلوني رأسًا، والنفس تتوق إلى مَنْ يكرمها وإن كان دونها أكثر منها إلى من يهينها وإن كان فوقها، وإني من هذا وهذا في أمر لا يعلمه إلاّ اللَّه الذي بلاني به(١)، ويا ويح الشجيّ من الخليّ، وأنا الذي أقول فيما يتخلّل هذا المنزع: [الطويل]

نُسِبْتُ لقومٍ ليتني نَجْلُ غيرهمْ   فلي نَسَبٌ يعلو وحظِّيَ يسفلُ
أُقَطِّعُ عمري بالتعلُّلِ والمُنَى   وكم يخدعُ المرءَ اللبيبَ التَّعَلُّلُ
فما لي مكانٌ أرتضيه لِهِمّةٍ   ولا مال منه أستعفُّ وأُفْضِلُ
ولكنني أقضي الحياةَ تَجَمُّلاً   وهل يُهْلِكُ الإنسانَ إلاّ التَّجَمُّلُ

فقال له سعيد: قصدنا لومك فعطفت اللائمة علينا، ونحن أحقُّ بها، وسننظر، إن شاء اللَّه تعالى، فيما يرفع اللوم عن الجانبين، ثم تكلّم مع الناصر في شأنه، فأجرى له رزقًا أغناه عن التكفّف، فكانت هذه من حسنات سعيد وأياديه.

وقال المطرف بن عمر المرواني يمدح المظفر بن المنصور بن أبي عامر: [الكامل]

إنَّ المُظَفَّر لا يزالُ مظفرًا   حكمًا من الرحمن غيرَ مُبَدَّلِ
وهو الأحقُّ بكلِّ ما قد حازه   من رفعةٍ ورياسةٍ وتَفَضُّلِ
تَلْقاهُ صَدْرًا كلّما قَلَّبْتَهُ   مثل السنانِ بمحفلٍ وبجحفلِ

وحضر يومًا مع شاعر الأندلس في زمانه ابن دراج القَسْطَلّي، فقال له القسطلي: أنشدني أبياتك التي تقول فيها: [الطويل]

على قَدْرِ ما يصفو الخليلُ يُكَدِّرُ

فأنشده: [الطويل]

تَخَيَّرْتُ مِنْ بينِ الأنامِ مُهَذَّبًا   ولم أَدْرِ أني خائبٌ حين أخبرُ
فمازجني كالراح للماء، واغتدى   على كلِّ ما جَشَّمْتُهُ يتصبرُ

---

(١) في طبعتي ليدن ودار صادر: «لا يعلمه إلاّ الذي أبلاني به..».

إلى أنْ دهاني إذ أمنتُ غُروره سفاهًا، وأدّاني لما ليس يُذكرُ
وكَدَّرَ عيشي بعد صفوٍ، وإنما على قدر ما يصفو الخليلُ يكدّرُ

فاهتزَّ القَسْطَلّي وقال: واللّه إنك في هذه الأبيات لشاعر، وأنا أُنشدك فيما يقابلها لبلال بن جرير: [الكامل]

لو كنتُ أعلمُ أنَّ آخرَ عهدهمْ يومَ الفراقِ فعلْتُ ما لم أفعلِ

ولكن جعل نفسه فاعلاً وعرّضت نفسك لأنْ يقال: إنك مفعول، فقال: ومن أين يلوح ذلك؟ فقال القسطلي: من قولك «وأدّاني لما ليس يُذْكَرُ» فما يُظَنُّ في ذلك إلاّ أنه[1] أداك إلى موضع فعل بك فيه، فاغتاظ الأموي وقال: يا أبا عمر، ومن أين جرت العادة بأن تمزح معي في هذا الشأن؟ فقال له: حلم بني مروان يحملنا على أن نخرق العادة في الحمل على مكارمهم، فسكن غيظه.

وكتب المرواني المذكور إلى صاحب له يستعير منه دابّة يخرج عليها للفرجة والخلاعة: أنهَضَ اللّه تعالى سيدي بأعباء المكارم، إنَّ هذا اليوم قد تبسّم أُفُقُه، بعد ما بكى وَدْقُه[2]، وصقلت أصداء أوراقه، وفتّحت أحداق حدائقه[3]، وقام نَوره خطيبًا على ساقه، وفضّضت غُدْرَانه، وتوّجت أغصانه، وبرزت شمسه من حجابها، بعد ما تلفّعت بسحابها، وتنبّه في أرجاء الروض أرجُ النسيم، وعُرف في وجهه[4] نَضْرَةَ النعيم، وقد دعا كلُّ هذا ناظِرَ أخيك إلى أن يُجيله في هذه المحاسن، ويجدّد نظره في المنظر الذي هو غير مبتذل والماء الذي هو غير آسن[5]، والفحص اليوم أحسن ما ملح، وأبدع ما حرن فيه وجمح، فجُدْ لي بإعارة ما أنهض عليه لمشاهدته ويرفع عني خجل الابتذال، بمناكبِ[6] الأنذال، لا زلتَ نَهَاضًا بالآمال، مُسْعِفًا بمراد كلّ خليل غير مقصّر ولا آل[7].

وكتب الأمير هشام بن عبد الرحمن إلى أخيه عبد اللّه المعروف بالبَلَنسي حين فَرَّ كتابًا

---

(١) في طبعة ليدن: «إلاّ أنك..».
(٢) الوَدْقُ: المطر. لسان العرب (ودق).
(٣) في طبعة عبد الحميد: «حدائق أحداقه».
(٤) في طبعة ليدن: «في وجوهه».
(٥) الماء الآسنُ: المتغيّر من ركوده أو ممّا خالطه.
(٦) في طبعة دار صادر: «بمناكفة».
(٧) آل: مقصّر، وهو اسم فاعل من ألا فلان جهدًا يألو فهو آلٍ.

يقول في بعض فصوله: والعجب من فرارك دون أن ترى شيئًا.

فخاطبه بجواب يقول فيه: ولا تتعجّب من فراري دون أن أرى شيئًا؛ لأنني خفت أن أرى ما لا أقدر على الفرار بعده، ولكن تعجب مني أن حصلت في يدك بعد ما أفلتُّ منك.

وقال له وزيره أحمد بن شعيب البَلَنسي: أليس من العار أن يبلغ بك الخَوَر من هذا الصبي أن تجعل بينك وبينه البحر، وتترك بلاد ملكك وملك أبيك؟ فقال: ما أعرف ما تقول، وكل ما وُقي به إتلاف النفس ليس بعار، بل هو محض العقل، وأوّل ما ينظر الأديب في حفظ رأسه، فإذا نظر في ذلك نظر فيما بعده.

وقال عبد الله بن عبد العزيز الأموي ويُعْرف بالحجر(١): [البسيط]

اجْعَلْ لنا منك حَظًّا أيها القَمَرُ ... فإنما حَظُّنا من وجهك النظرُ
رآكَ ناسٌ فقالوا إنَّ ذا قَمَرٌ ... فقلْتُ كُفُّوا فعندي منهما(٢) الخبرُ
البدرُ ليس بغيرِ النِّصْفِ بَهْجَتَهُ ... حتى الصباحِ وهذا كلُّه قمرُ(٣)

وقال أبو عبد الله محمد بن محمد بن الناصر يرثي أبا مروان بن سراج(٤): [الطويل]

وكم مِنْ حديثٍ للنبيِّ أبانَهُ ... وألْبَسَهُ مِنْ حُسْنِ مَنْطِقِهِ وَشْيَا
وكم مُصْعَبٍ للنحو قد راض صَعْبَهُ(٥) ... فعادَ ذَلُولاً بعد ما كان قد أعيا

وحُكي أنه دخل بعض شعراء الأندلس على الفقيه سعيد بن أضحى، وكان من أعيان غَرْنَاطة، فمدحه بقصيدة، ثم بموشّحة، ثم بزجل، فلم يُعْطِهِ شيئًا، بل شكا إليه فَقْرًا، حتى إنه بكى، فأخذ الدواة والقرطاس وكتب ووضع بين يديه: [البسيط]

شكا مثالَ الذي أشكوه من عدمٍ ... وساءه مثل ما قد ساءني فبكى

---

(١) ترجمة عبد الله بن عبد العزيز وشعره في جذوة المقتبس (ص ٢٦٣) وبغية الملتمس (ص ٣٤٧).
(٢) في المصدرين السابقين: «فيهما».
(٣) رواية البيت في الجذوة والبغية هي:
البدر ليلةَ نصف الشهر بَهْجَتُهُ ... حتى الصباح وهذا دَهْرَهُ قَمَرُ
وفي البغية: «إلى الصباح» بدل «حتى الصباح».
(٤) البيتان في الذخيرة (ق ١ ص ٨٢٠) وسيردان في الجزء الخامس.
(٥) في الذخيرة: «في النحو راضَ جماحَهُ».

إنَّ المُقِلَّ الذي أعطاك دَمْعَتَهُ نعمَ الجوادُ فتًى أعطاك ما مَلَكا

وقال ابن خفاجة[1]:

نَهرٌ كما سالَ اللَّمْى سَلْسَالُ وصَبًا بَلِيلٌ ذَيلُها مكسالُ[2]
ومَهَبُّ نفحةِ رَوْضَةٍ مَطْلُولَةٍ فيها لأفْراسِ النسيمِ مَجَالُ[3]
غازلْتُهُ والأقحوانةُ مَبْسِمٌ والآسُ صُدْغٌ والبَنَفْسَجُ خَالُ

وقال[4]:

وساقٍ كَحيلِ الطَّرْفِ في شَأْوِ حُسْنِهِ جِماحٌ، وبالصبر الجميلِ حِرَانُ[5]
تَرَى للصِّبَا نارًا بِخَدَّيهِ لم يَثُرْ لها مِنْ سَوَادَيْ عارِضَيهِ دُخَانُ
سقاها وقد لاحَ الهِلالُ عشيّةً كما اعْوَجَّ في دِرْعِ الكَمِيِّ سِنَانُ
عُقارًا نَماها الكَرْمُ فَهْيَ كريمةٌ ولم تَزْنِ بابن المُزْنِ فَهْيَ حَصَانُ[6]
وقد حان من جَوْنِ الغَمامةِ أَدْهَمُ له البرق سَوْطٌ والعنانُ عنانُ[7]
وضَمَّخ درعُ الشمس نحرَ حديقة عليك وفي الطَّلِّ السقيط جُمَانُ[8]
ونَمَّتْ بأسرارِ الرياضِ خَميلَةٌ لها النَّورُ ثَغْرٌ والنسيمُ لِسانُ

وقال في وصف فرس أصفر، ولم يخرج عن طريقته[9]: [السريع]

وأَشْقَرٍ تُضْرَمُ منه الوغى بشعلةٍ مِنْ شُعَلِ الباسِ
مِنْ جُلَّنارٍ ناضرٍ لونُهُ[10] وأذْنُهُ مِنْ وَرَقِ الآسِ

---

(١) ديوان ابن خفاجة (ص ١٩٨). وتقدمت في هذا الجزء (ص ١٧٨).
(٢) ذَيْلُها مِكسال: أي لطيفة المرور.
(٣) رواية عجز البيت في الديوان هي:
فـي جَـلْـهَـتَـيْـهـا لـلـنـسـيـمِ مَـجَـالُ
(٤) ديوان ابن خفاجة (ص ٢٦٣) وقد تقدمت في هذا الجزء (ص ١٧٨) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٥) في الديوان: «وساقٍ لخيل اللحظ... وللصبر...».
(٦) حَصَان، بالفتح: العفيفة. لسان العرب (حصن).
(٧) في طبعة دار صادر: «وقد جال من جَوْنٍ...». وفي الديوان: «وقد جال من جَوْنٍ... والشمال عنانُ».
(٨) في طبعة دار صادر وفي الديوان: «وضَمَّخ ردع الشمس ـ عليه من الطَّلِّ...».
(٩) ديوان ابن خفاجة (ص ١٤٩) وتقدمت في هذا الجزء (ص ١٧٨).
(١٠) في الديوان: «ناضرٍ خَدُّه».

يطلعُ للغُرَّةِ في شقرةٍ حَبَابةً تَضحَكُ في الكاس[1]

وقال أبو بكر يحيىٰ[2] بن سهل اليكي يهجو: [الكامل]

أعِدِ الوضوءَ إذا نَطَقْتَ به مستعجلاً[3] من قبل أن تَنسَى
واحفظْ ثيابك إنْ مَرَرْتَ به فالظِّلُّ منه يُنَجِّسُ الشَّمْسَا

وقال ابن اللَّبَّانة[4] : [السريع]

أبصَرْتُهُ قَصَّرَ في المِشْيَةْ لَمَّا بَدَتْ في خدِّه لِحْيَةْ
قد كَتَبَ الشَّعْرُ على خَدِّهِ ﴿أو كالذي مَرَّ على قَرْيَةٍ﴾[5]

وقال الوزير الكاتب أبو محمد[6] ابن عبد الغفور الإشبيلي في الأمير الكبير[7] أبي بكر سير من أمراء المرابطين، وكتب بها إليه في غَزَاة غَزَاها[8]: [الكامل]

سِرْ حيثُ سِرْتَ يَحُلُّهُ النوّارُ وأراكَ فيه مرادكَ المقدار[9]
وإذا ارتحلْتَ فَشَيَّعتكَ سلامةٌ وغمامةٌ لا دِيمةٌ مِدْرَارُ
تنفي الهجيرَ بظلِّها وتنيم بالـ ـرشِّ القَتامَ وكيف شئت تُدَارُ
وقضى الإله بأنْ تعودَ مظفّرًا وقضتْ بسيفك نَحْبَها الكُفّار

هذا غير ما تمنّاه الجعفي حيث قال[10]: حيث ارتحلت وديمة[11]، وما تكاد تنفذ

---

(١) في الديوان: «تطلع للغُرّة في وجهه... في كاس».
(٢) في أصول النفح: «محمد» وهو خطأ وقد صوّبناه، وترجمة أبي بكر يحيىٰ بن سهل اليكي مرّت في هذا الجزء (ص ١٨١) وأشرنا هناك إلى مصادر ترجمته، والبيتان هنا في المغرب (جـ ٢ ص ٢٦٧).
(٣) في المغرب: «متذكّرًا من قبل..».
(٤) قلائد العقيان (ص ٢٥١).
(٥) عجز البيت الآية ٢٥٩ من سورة البقرة ٢.
(٦) كلمة «ابن» ساقطة من طبعة عبد الحميد. وفي المغرب (جـ ١ ص ٢٤١): أبو محمد عبد الغفور.
(٧) كلمة «الكبير» ساقطة من طبعة دار صادر.
(٨) قلائد العقيان (ص ١٦٢) والمغرب (جـ ١ ص ٢٤٢).
(٩) في القلائد: «حلّه النوار وأراد فيك..». وفي المغرب: «حيث شئت تحلّه النوار وأراد فيك..».
(١٠) في القلائد: «هذا ما تمناه الولي، لا ما تمنّاه الجعفي فإنه قال..».
(١١) هنا من قول المتنبي: [الكامل]

وإذا ارتحلْتَ فَشَيَّعَتْكَ سلامةٌ حيثُ اتَّجَهْتَ وديمةٌ مِدْرارُ

العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٢٨٤).

معها عزيمة، وإذا سَفَحَتْ على ذي سفر، فما أحراها بأن تعوق عن الظفر، ونعتها بمدرار، فكان ذلك أبلغ في الإضرار، وما أحسن قول القائل[1]: [الوافر]

فَسِرْ ذا رايةٍ خَفَقَتْ بنصرٍ ... وعُدْ في جَحْفَلٍ بَهِجِ الجمالِ
إلى حِمْصٍ فأنتَ بها حُليٌّ ... تَغايرُ فيه ربّاتُ الحِجالِ

وقال الحجاري في «المسهب»: كتبتُ إلى القاضي أبي عبد الله محمد اللوشي أستدعي منه شِعْره لأكتبه في كتابي، فتوقّفَ عن ذلك وانقبض عني، فكتبتُ إليه: [البسيط]

يا مانعًا شِعْرَه عن سَمْعِ ذي أدبٍ ... نائي المحلِّ بعيدِ الشخصِ مغتربِ
يسيرُ عنك به في كلِّ متَّجَهٍ ... كما يمرُّ نسيمُ الريحِ بالعذبِ
إنّي وحَقِّكَ أهلٌ أنْ أفوزَ به ... وأسأل فديتك عن ذاتي وعن أدبي

فكان جوابه: [البسيط]

يا طالبًا شعر مَنْ لم يَسْمُ في الأدب ... ماذا تريد بنظم غير مُنْتَخَبِ
إني وحقِّكَ لم أبخلْ به صَلَفًا ... ومن يضنّ على جِيدٍ بمخشَلَبِ
لكنني صُنْتُ قدري عن روايته ... فمثله قَلَّ عن سامٍ إلى الرُّتَبِ
خُذْهُ إليك كما أكرهت مضطربًا ... محلّلاً ذَمَّ مولاهُ مَدَى الحقبِ

قال: ثم كتب لي مِمّا أتحفني به من نظمه محاسن أبهى من الأقمار، وأرقّ من نسيم الأسحار.

وقال صالح بن شريف في البحر وهو من[2] أحسن ما قيل فيه: [البسيط]

البحرُ أعظمُ مِمّا أنتَ تحسبُهُ ... من لم يَرَ البحرَ يومًا ما رأى العجبا
طامٍ له حَبَبٌ طافٍ على زَرَقٍ ... مثل السماء إذا ما مُلِئَتْ شُهُبا

وقال أيضًا: [السريع]

ما أَحْسَنَ العقلَ وآثارَه ... لو لازم الإنسانُ إيثارَهْ
يصونُ بالعقلِ الفتى نفسه ... كما يصون الحُرُّ أسرارَهْ
لا سيّما إن كان في غُرْبَةٍ ... يحتاجُ أن يعرفَ مِقْدارَهْ

---

(١) البيتان في قلائد العقيان (ص ١٦٢).
(٢) كلمة «من» ساقطة من طبعة دار صادر.

وقال ابن برطلة: [الطويل]

خطوبُ زماني ناسبتْني غرابةً ... لذلك يرميني بهنَّ مصيبُ
غريبٌ أصابته خطوبٌ غريبةٌ ... (وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ)(١)

وهذا من أحسن التضمين، الذي يُزرِي بالدُّرِّ الثمين.

ودخل ابن بقي الحمّامَ وفيه الأعمى التُّطيلي فقال له: أجز(٢): [البسيط]

حَمّامُنا كزمانِ القَيظِ مُحْتَدِمٌ ... وفيه للبرد صِرٌّ(٣) غيرُ ذي ضَرَرِ

فقال الأعمى(٤): [البسيط]

ضدّانِ يَنْعَمُ جسمُ المرءِ بينهما ... كالغُصْنِ ينعمُ بين الشَّمْسِ والمطرِ

ولا يخفى حُسْنُ ما قال الأعمى.

وقد ذكر في «بدائع البدائه»(٥) البيتين معًا منسوبين إلى ابن بقي، ولنذكر كلامه برمّته لما اشتمل عليه من الفوائد، ونصُّه: ذكر ابن بسام قال(٦): دخل الأديبان أبو جعفر بن هريرة التُّطيلي المعروف بالأعمى وأبو بكر بن بقي الحمّام، فتعاطيا العمل فيه، فقال الأعمى(٧): [المنسرح]

يا حُسْنَ حَمّامِنا وبَهْجَتَهُ ... مرأىً من السِّحْرِ كلُّهُ حَسَنُ
ماءٌ ونارٌ حواهما(٨) كَنَفٌ ... كالقلبِ فيه السرورُ والحَزَنُ

ثم أعجبه المعنى فقال(٩): [مخلع البسيط]

---

(١) عجز هذا البيت هو عجز بيت لامرىء القيس، والبيت هو:
أجارَتَنا إنّا غريبانِ ها هنا ... وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ
ديوان امرىء القيس (ص ٣٥٧).

(٢) مطالع البدور في منازل السرور (جـ ٢ ص ١٠).

(٣) في طبعة بولاق: «بردٌ» بدل «صِرٌّ». والصِّرُّ: شدة البرد.

(٤) لم يرد البيت في ديوان الأعمى التطيلي، وجاء فيه (ص ٢٣) من مرثية بعض النساء: [البسيط]
لا بل عناها فأنْساها مطالِعَها ... مَعْنًى تَرَدَّدَ بين الشمسِ والقَمَرِ

(٥) بدائع البدائه (جـ ١ ص ٢٤٢).

(٦) الذخيرة (ق ١ ص ٣٠٢).

(٧) البيتان أيضًا في ديوان الأعمى التطيلي (ص ٢٤٥).

(٨) في الديوان: «حماهما».

(٩) الأبيات أيضًا في الذخيرة (ق ١ ص ٣٠٣) وديوان الأعمى التطيلي (٢٤٦).

لَيس على لَهْوِنا مزيدُ ولا لِحَمَّامِنَا ضريبُ[1]
ماء وفيه لهيبُ نارٍ كالشمس في دِيمَةٍ تَصُوبُ
وأَبيضٌ من تحته رُخامٌ كالثَّلْجِ حين ابتدا يذوبُ

وقال ابن بقي:

حمامّنا فيه فصل القيظ - البيتين

فقال الأعمى، وقد نظر فيه إلى فتى صبيح[2]: [البسيط]

هل استمالَكَ جسمُ ابنِ الأميرِ[3] وقد سَالَتْ عليه من الحَمّام أنداءُ
كالغُصْنِ باشَرَ حَرَّ النارِ مِنْ كَثَبٍ فظلَّ يَقْطُرُ[4] مِنْ أعطافِهِ الماءُ

قلت: تذكّرْتُ هنا عند ذكر الحمّام ما حكاه بدر الدين الحسن بن زفير الإربلي المتطبب إذ قال[5]: رأيت ببغداد في دار الملك شرف الدين هارون ابن الوزير الصاحب شمس الدين محمد الجويني حمّامًا متقن الصنعة، حسن البناء، كثير الأضواء، قد احتفَّت به الأزهار والأشجار، فأدخلني إليه سائسه، وذلك بشفاعة الصاحب بهاء الدين بن الفخر عيسى المنشىء الإربلي وكان سائس هذا الحمّام خادمًا حبشيًّا كبير السّنّ والقَدْر، فطاف بي عليه، وأبصرت مياهه وشبابيكه وأنابيبه المتّخذ بعضُها من فِضّة مطليّة بالذهب وغير مطليّة وبعضها على هيئة طائر إذا خرج منها الماء صوّت بأصوات طيبة، ومنها أحواض رخام بديعة الصنعة والمياه تخرج من سائر الأنابيب إلى الأحواض ومن الأحواض إلى بركة حسنة الإتقان، ثم منها إلى البستان، ثم أراني نحو عشر خلوات، كلُّ خلوة منها[6] صنعتها أحسن من صنعة أختها، ثم انتهى بي إلى خلوة عليها باب مُقْفَل بقفل حديد، ففتحه، ودخل بي إلى دهليز طويل كلّه مرخم[7] بالرخام الأبيض الساذج، وفي صدر الدهليز خلوة مربعة تَسَع بالتقريب نحو أربعة أنفس إذا كانوا قعودًا وتَسَع اثنين إذا كانوا نيامًا، ورأيت من العجائب

---

(١) الضريب: الشبيه.
(٢) الذخيرة (ق ١ ص ٣٠٣) وديوان الأعمى التطيلي (ص ٢٤٦).
(٣) في طبعة ليدن وفي الديوان: «ابن الأمين».
(٤) في الديوان: «فظلّ ينطفُ».
(٥) مطالع البدور (جـ ٢ ص ٨).
(٦) كلمة «منها» ساقطة من طبعة دار صادر.
(٧) في طبعة ليدن: «رخَم».

في هذه الخلوة أنّ حيطانها الأربعة مصقولةٌ صقالاً لا فرق بينه وبين صقال المرآة، يرى الإنسان سائر بشرته في أي حائط شاء منها، ورأيت أرضها مُصَوّرة بفصوص حمر وصفر وخضر ومذهّبة وكلّها متّخذة من بلّور مصبوغ بعضه أصفر وبعضه أحمر، فأما الأخضر فيقال إنه حجارة تأتي من الروم، وأما المذهّب فزجاج ملبّس بالذهب، وتلك الصورة في غاية الحسن والجمال، على هيئات مختلفة في اللون وغيره، وهي ما بين فاعل ومفعول به، إذا نظر المرء إليها تحرّكت شهوته، وقال لي الخادم السائس: هذا صُنِع على هذه الصفة لمخدومي، حتى إنه إذا نظر ما يفعل[1] هؤلاء بعضهم مع بعض من المـُجَامَعَة والتقبيل ووضع أيدي بعضهم على أعجاز بعض تتحرّك شهوته سريعًا، فيبادر إلى مجامعة مَنْ يحبّه.

قال الحاكي: وهذه الخلوة دون سائر الخلوات التي دخلت إليها هي مخصوصة بهذا الفعل، إذا أراد الملك شرف الدين هارون الاجتماع في الحمّام بمن يهواه من الجواري الحسان والصور الجميلة والنساء الفائقات الحسن لم يجتمع به إلاّ في هذه الخلوة، من أجل أنه يرى كل محاسن الصور الجميلة مصوّرة في الحائط ومجسّمة بين يديه، ويرى كلّ منهما صاحبه على هذه الصفة، ورأيت في صدر الخلوة حوض رخام مضلّع وعليه أنبوب مركب في صدره، وأنبوب آخر برسم الماء البارد، والأنبوب الأول برَسْم الماء الفاتر، وعن يمنة[2] الحوض ويساره عمدان صغار منحوتة من البلور يوضع عليها مباخر الندّ والعود، وأبصرت منها خلوة شديدة الضياء مفرحة بديعة قد أُنفق عليها أموال كثيرة، وسألت الخادم عن تلك الحيطان المشرقة المضيئة: من أي شيء صُنعت؟ فقال لي: ما أعلم.

قال الحاكي: فما رأيت في عمري ولا سمعت بمثل تلك الخلوة، ولا بأحسن من ذلك الحمّام، مع أني ما أُحسن أنْ أصفهما كما رأيتهما، فإنه لم تتكرّر رؤيتي لهما، ولا اتّفق لي الظفر بصناعتهما ومباشرتهما، وفي الذي ذكرت كفاية، انتهى.

ولَـمَّا اتّصل أبو القاسم علي بن أفلح البغدادي الكاتب بأمير المؤمنين المسترشد بالله العباسي، ولقبه جمال الملك، وأعطاه أربع ديار في درب الشاكرية اشترى دورًا أخرى إلى جانبها، وهدم الكلّ، وأنشأ داره الكبيرة، وأعانه الخليفة في بنائها، وأطلق له أموالاً وآلات البناء، وكان في جملة ما أطلق له مائتا ألف آجرّة وأجريت الدار بالذهب، وصنع فيها

---

(١) في طبعة دار صادر: «نظر إلى ما يفعله..».

(٢) في طبعة دار صادر: «وعن يمين..».

الحمّام العجيب الذي فيه بيت مستراح فيه أنبوب إنْ فركه الإنسان يمينًا خرج ماء حار وإنْ فركه شمالاً خرج ماء بارد، وكان على إيوان الدار مكتوبًا[1]: [السريع]

إنْ عَجِبَ الراءون مِنْ ظاهري ... فباطني لو علموا أعجبُ
شَيَّدني مَنْ كَفُّه مُزْنَةٌ ... يهملُ منها العارضُ الصَّيِّبُ
ودبّجتْ روضةُ أخلاقِهِ ... فِيَّ رياضًا نَورُهَا مُذْهَبُ
صَدْرٌ كَسَا صدريَ مِنْ نوره ... شمسًا على الأيام لا تغربُ

وكتب على الطرز: [مجزوء الكامل]

ومِنَ المروءةِ للفَتَى ... ما عاشَ دارٌ فاخِرَةْ
فاقْنَعْ من الدنيا بها ... واعملْ لدارِ الآخِرَةْ
هاتِيكَ وافيةٌ بما ... وَعَدَتْ، وهذي ساخِرَةْ

وكتب على النادي: [المتقارب]

ونادٍ كأنَّ جنان الخلودِ ... أَعَارَتْهُ مِنْ حُسْنِها رَونَقَا
وأَعطَتْهُ مِنْ حادثاتِ الزما ... نِ أنْ لا تُلِمَّ به موثَقَا
فأضحى يتيهُ على كلِّ ما ... بنى مغربًا كان أو مشرقا
تظلُّ الوفودُ به عُكَّفًا ... وتُمْسِي الضُّيُوفُ بِهِ طُرَّقَا
بقيتَ له يا جمالَ الملو ... كِ والفضل مهما أردتَ البقا
وسالمه فيكَ رَيبُ الزمان ... ووُقِّيتَ فيه الذي يُتَّقَى

وعلى ذكر الحمّام فما أحكم قول ابن الوردي فيما أظنّ[2]: [الطويل]

وما أشبه الحمّامَ بالموتِ لامرئٍ ... تذكرا! لكن أين مَنْ يتذكّرُ
يُجَرَّدُ عن أهلٍ ومالٍ وملبسٍ ... ويصحبُه مِنْ كلِّ ذلك مئزرُ

وقال الشهاب بن فضل الله[3]: [المتقارب]

وحمّامكمْ كعبةٌ للوفودِ ... تحجُّ إليه حُفاةٌ عُراهْ
يكرّرُ صوتُ أنابيبِهِ ... كتابَ الطهارةِ بابَ المياهْ

---

(١) في طبعة ليدن: «مكتوبٌ».
(٢) مطالع البدور (جـ ٢ ص ١٣).
(٣) المصدر نفسه (ص ١١، ١٧).

وقد تمثّل بهذين البيتين البرهان القيراطي في جواب كتاب استدعاه فيه بعض أهل عصره إلى الحمّام، وافتتح الجواب بقوله[1]: [الخفيف]

قد أجبْنا وأنت أيضًا فصبَّحْـ ـتَ بصُبْحَيْ سوالفٍ وسُلافِ
وبساقٍ يَسْبِي العقولَ بساقٍ وقَوَامٍ وفوقَ العناقِ خلافي

ووصله بنثر تمثّل فيه بالبيتين كما مرَّ.

ولبعضهم[2]: [الخفيف]

إنَّ حَمّامَنا الذي نحن فيه أيُّ ماءٍ به وأيّةُ نارِ
قد نَزَلْنا به على ابن مَعِينٍ ورَوينا عنه صحيحَ البخاري

وألْغَزَ بعضهم في الحمّام بقوله[3]: [الطويل]

ومنزلِ أقوامٍ إذا ما تقابلوا تشابه فيه وَغْدُهُ ورئيسُهُ
يُنَفِّسُ كربي إذ ينفّس كربه ويعظمُ أنسي إذ يقلُّ أنيسُهُ
إذا ما أعرت الجوَّ طَرْفًا تكاثرتْ على مَنْ به أقمارُهُ وشموسُهُ

رجع إلى ما كُنّا فيه من كلام أهل الأندلس، فنقول:

وكان محمد بن خلف بن موسى البيري متكلّمًا متحقّقًا برأي الأشعرية، وذاكرًا لكتب الأصول في الاعتقاد[4]، مشاركًا في الأدب، مقدّمًا في الطب، ومن نظمه يمدح إمام الحرمين رحمه اللّه تعالى: [الخفيف]

حُبُّ حَبْرٍ[5] يُكْنى أبًا للمعالي هو ديني ففيه لا تعذلوني
أنا واللّه مغرمٌ بهواهُ عَلّلوني بذكرِهِ علّلوني

وكتب أبو الوليد بن الجنان الشاطبي[6] يستدعي بعض إخوانه إلى مجلس أُنس بما

---

(١) مطالع البدور (جـ ٢ ص ١٦).
(٢) المصدر نفسه (ص ١٠).
(٣) المصدر نفسه (ص ٩).
(٤) في طبعة ليدن: «الأصول والاعتقادات».
(٥) الحَبْرُ: العالِمُ، جمعه أحبار.
(٦) مرّت ترجمة ابن الجنان الشاطبي رقم ٦٨ في الجزء الثاني وأشرنا هناك إلى مصادر ترجمته.

صورته: نحن في مجلسٍ أغْصَانُه النَّدَامى، وغمامُه الصهباء، فباللّه إلاّ ما كنت لروض مجلسنا نسيمًا، ولزهر حديثنا شميمًا، وللجسم روحًا، وللطيب ريحًا، وبيننا عذراء[1] زُجَاجتها خدرها، وحبابها ثغرها، بل شقيقة حوتها كمامة، أو شمس حجبتها غمامة، إذا طاف بها معصم الساقي فوردة على غصنها، أو شربها مقهقهةً فحمامة على فَنَنها، طافت علينا طَوَفَانَ القمر على منازل الحلول، فأنت وحياتك إكليلنا وقد آن حلولها في الإكليل، انتهى.

وقال أبو الوليد المذكور: [مجزوء الرمل]

فـوق خَـدِّ الـوردِ دَمْـعٌ ... مِنْ عيونِ السّحْبِ يُذْرَفْ
بـرداءِ الـشـمـسِ أضْحَـى ... بـعـدمـا سـالَ يُـجَـفَّـفْ

وتذكّرت هنا بذكر الورد ما حكاه الشيخ أبو البركات هبة اللّه بن محمد النصيبي المعروف بالوكيل، وكان شيخًا ظريفًا فيه آداب كثيرة، إذ قال: كنت في زمن الربيع والوردِ في داري بنصيبين، وقد أُحضر من بستاني من الورد والياسمين شيء كثير، وعملت على سبيل الولع دائرة من الورد تقابلها دائرة من الياسمين، فاتّفق أنْ دخل عليَّ شاعران كانا بنصيبين أحدهما يُعْرف بالمهذب والآخر يُعْرف بالحسن بن البَرْقَعِيدي، فقلت لهما: اعْمَلاَ في هاتين الدائرتين، ففكّرا ساعةً ثم قال المهذب: [مجزوء السريع]

يـا حُـسْـنَـهـا دائـرةً ... من ياسمينٍ مُشْرِقِ
والـوردُ قـد قَـابَـلَـهـا ... فـي حُـلـةٍ مِنْ شَفَقِ
كـعـاشـقٍ وحِـبِّـهِ[2] ... تـغـامـزا بـالـحَـدَقِ
فـاحْـمَرَّ ذا من خَجَلٍ ... واصْـفَرَّ ذا مـن فَرَقِ[3]

قال: فقلت للحسن: هاتِ، فقال: سبقني المهذب إلى ما لمحته في هذا المعنى، وهو قولي: [مجزوء الرمل]

يـا حُـسْـنَـهـا دائـرةً ... من ياسمينٍ كالحلي
والـوردُ قـد قـابـلـهـا ... في حُلّةٍ مِنْ خَجَلِ

---

(١) العذراء هنا: الخمر.
(٢) الحِبُّ، بكسر الحاء: المحبوب. لسان العرب (حبب).
(٣) الفَرَقُ، بالفتح: الخوف. لسان العرب (فرق).

كـعــاشــقٍ وحِـبُّـهِ تـغـامـزا بـالـمُـقَـلِ
فـاحْـمَـرَّ ذا مِنْ خـجـلٍ واصْـفَـرَّ ذا مـن وَجَـلِ

قال: فعجبت من اتفاقهما في سرعة الاتحاد، والمبادرة إلى حكاية الحال، انتهى.

وما ألطف قول بعضهم: [الطويل]

أرى الوردَ عند الصبح قد مَدَّ لي فَمًا يشيرُ إلى التقبيل في حالةِ اللَّمْسِ[1]
وبَـعْـدَ زوالِ الـشـمـسِ أَلْـقـاهُ وَجْـنَـةً وقد أَثَّرَتْ في وسطها قبلةُ الشمسِ

وقال ابن ظافر في «بدائع البدائه»[2]: اجتمع الوزير أبو بكر بن القَبْطُرْنة والأديب أبو العباس ابن صارة الأندلسيان في يوم جلا ذهب برقه، وأذاب ورق وَدْقه، والأرض قد ضحكت لتعبيس السماء، واهتزَّتْ وربَتْ عند نزول الماء، فقال ابن القبطرنة: [الكامل]

هذي البسيطة كاعِبٌ أبرادُها حُلَلُ الربيعِ وحَلْيُهَا النُّوّارُ

فقال ابن صارة: [الكامل]

وكأنَّ هذا الجوَّ فيها عاشقٌ قد شَفَّهُ التعذيبُ والإضرارُ

ثم قال ابن صارة أيضًا: [الكامل]

وإذا شكا فالبرقُ قَلْبٌ خافِقٌ وإذا بـكـى فـدمـوعُـهُ الأمـطـارُ

فقال ابن القبطرنة: [الكامل]

مِـنْ أجـلِ ذِلَّـةِ ذا وعـزّةِ هـذه يبكي الغمامُ وتضحكُ الأزهارُ

وتذكَّرْتُ هنا ما حكاه ابن ظافر[3] في الكتاب المذكور أنه اجتمع مع القاضي الأعز يومًا فقال له ابن ظافر: أَجِزْ: [الرجز]

طار نسيمُ الروضِ مِنْ وكر الزَّهَرْ

فقال الأعز:

وجاء مبلولَ الجناحِ بالمطرْ

انتهى.

---

(١) في طبعة ليدن: «في ساعة اللمسِ».
(٢) بدائع البدائه (جـ ١ ص ١٨٦) ومطالع البدور (جـ ١ ص ١٢٣).
(٣) بدائع البدائه (جـ ١ ص ٧٠).

ويعجبني قول ابن قرناص[1]: [الطويل]

أَظُنُّ نسيمَ الروضِ والزهرِ قد رَوَى ... حديثًا ففاحتْ مِنْ شَذَاهُ المسالِكُ
وقالَ دَنا فصلُ الربيعِ فكلُّه ... ثُغورٌ لما قال النسيمُ ضواحكُ

رجع إلى الأندلسيين - وما أرقّ قول ابن الزقاق[2]: [الخفيف]

ورياضٍ من الشقائقِ أَضْحَتْ ... يَتَهادى بها نسيمُ الرياحِ
زُرْتُها والغمامُ يَجْلِدُ منها ... زَهَراتٍ تفوقُ لونَ الراحِ
قلتُ ما ذَنْبُها؟ فقال مُجِيبًا ... سَرَقَتْ حُمْرَةَ الخدودِ الملاحِ

وقال أبو إسحٰق بن خفاجة[3]: [الطويل]

تَعَلَّقْتُهُ نَشْوانَ مِنْ خَمْرِ رِيقِهِ ... له رَشْفُهَا دوني ولي دونه السُّكْرُ
تُرَقْرِقُ ماءَ مُقْلتايَ ووجهُهُ ... ويُذْكِي على قلبي ووَجْنَتِهِ الجَمْرُ
أرقَّ نسيبي فيه رِقَّةُ حُسْنِهِ ... فلم أَدْرِ أيُّ قبلها منهما السِّحْرُ[4]
وطِبْنا معًا شِعرًا وثغرًا كأنما ... له منطقي ثغرٌ ولي ثَغْرُهُ شِعْرُ

وقال أبو الصَّلت أمية بن عبد العزيز[5]: [الطويل]

وقائلةٍ: ما بالُ مِثْلِكَ خاملاً ... أأنت ضعيفُ الرأي أم أنت عاجزُ
فقلت لها: ذنبي إلى القوم أنني ... لِمَا لم يَحُوزُوه من المَجْدِ حائزُ
وما فاتني شيء سوى الحظِّ وَحْدَهُ ... وأمَّا المعالي فَهْيَ عندي غرائزُ[6]

وقال[7]: [مجزوء الرمل]

---

(١) مطالع البدور (جـ ١ ص ١٢٥).
(٢) ديوان ابن الزقاق (ص ١٢٥)، وقد تقدم ذكرها في هذا الجزء (ص١٧٦) وسترد في الجزء الخامس.
(٣) ديوان ابن خفاجة (ص ١١٩).
(٤) في الديوان: «أيّ منهما، قبلها، السِّحْرُ». وفي طبعة ليدن: «نفسه» بدل «حسنه».
(٥) خريدة القصر - قسم شعراء المغرب (جـ ١ ص ٢٢٦) ووفيات الأعيان (جـ ١ ص ٢٤٤). وسيأتي البيتان الأول والثاني في الجزء الخامس دون تغيير عمّا هنا.
(٦) في طبعة ليدن: «عزائز». وفي الخريدة: «فهي فيَّ غرائز».
(٧) الخريدة (ص ٢٠٤) ووفيات الأعيان (ص ٢٤٤).

جَـدَّ بـقـلـبـي وعَـبِـثْ   ثـم مـضـى ومـا اكـتـرثْ

وَاحَــرَبَــا[1] مِــنْ شـادِنٍ   فـي عُـقَـدِ الـصَّـبْـرِ نَـفَـثْ

يَـقْـتُـلُ مـن شـاء بـ. . .   ـنـيـه ومـن شـاء بـعـثْ

وقال الفاضل البليغ[2] يحيىٰ بن هذيل[3] أحد أعيان شعراء الأندلس: [الرمل]

نام طفلُ النبتِ في حِجْرِ النُّعَامَى   لاهتزازِ الطَّلِّ[4] في مَهْدِ الخُزَامَى

وسَقَى الوَسْمِيُّ أغصانَ النَّقَا   فـهـوتْ تـلـثُـم أفـواه الـنـدامـى

كَحَّلَ الفجرُ لهمْ جَفْنَ الدُّجَى   وغَدَا في وجنة الصبح لِثاما

تـحـسـب الـبـدرَ مُـحَـيًّـا ثَـمِـلٍ   قد سَقَتْهُ راحَةُ الصبح مُدَامَا

حوله الزهر[5] كؤوس قد غَدَتْ   مـسـكـةُ الـلـيـل عـلـيـهـنّ خِـتـامـا

وتذكرت هنا قول الآخر، وأظنه مشرقيًّا[6]: [الرمل]

بكر العارضُ تحدوه النُّعامى[7]   فـسـقـاكِ الـريَّ يـا دارَ أُمَـامـا

وتَـمَـشَّـتْ فـيـكِ أرواحُ الـصَّـبـا   يـتـأرَّجْـنَ بـأنـفـاس الـخُـزَامَـى[8]

قد قضى حفظُ الهوى أن تصبحي   لـلـمُـحِـبِّـيـن مُـنَـاخًـا ومُـقَـامَـا

وبجرعاء الحمى قلبي، فَعُجْ   بالحِمَى واقرأْ على قلبي السلاما

وتــرحَّــلْ فــتــحــدَّثْ عــجــبًــا   أنَّ قلبًا سار عن جسمٍ أقاما

قل لجيران الغضى آهًا على   طِيبِ عيشٍ بالغضى لو كان داما

حَمِّلُوا ريحَ الصَّبا من نَشْركمْ   قبل أن تحملَ شِيحًا وثُمَامَا[9]

---

(١) في الخريدة: «واحَزَني».

(٢) في طبعة دار صادر: «وقال البليغ الفاضل. .».

(٣) هو الفقيه يحيىٰ بن أحمد بن هذيل التجيبي الغرناطي. وترجمته وأبياته هذه في نثير فرائد الجمان (ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢). والأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ٧٤) منسوبة إلى الفقيه أبي عبد الله محمد بن أحمد ابن شقر آل اللخمي الطرسوني، وسترد هذه الأبيات في الجزء الثامن.

(٤) في الكتيبة ونثير فرائد الجمان: «الظِّلِّ».

(٥) في المصدرين السابقين: «حوله الشهبُ».

(٦) الأبيات لمهيار الديلمي وهي في ديوانه (جـ ٣ ص ٣٢٧).

(٧) النعامى: ريح الجنوب.

(٨) الخُزامى: زهر متعدّد الألوان طيب الرائحة.

(٩) الشِّيحُ والثُّمام: ضربان من العشب طيبا الرائحة. والبيتان لأبي المطرف بن المثنى، كاتب ابن ذي النون، كما سيأتي في الجزء الخامس وجاء هناك: «البِلّسان» بدون الياء.

وابعثوا أشباحَكُمْ لي في الكرى   إنْ أذنتـم لـجفوني أنْ تـنـامـا

وخرج بعض علماء الأندلس من قُرْطُبَة إلى طُلَيطُلَة، فاجتاز بحريز بن عكاشة، الشجاع المشهور الذي ذكرنا في هذا الباب ما يدلُّ على شجاعته وقوّته وأيدِهِ، بقلعة رباح، فنزل بخارجها في بعض جنباتها، وكتب إليه: [مجزوء الرمل]

يـا فـريـدًا دون ثـانِ   وهِـلالاً فـي الـعِـيـانِ
عُـدِمَ الـراحُ فـصـارت   مـثـلَ دُهْـنِ الـبـيـلسـان[1]

فبعث إليه بها، وكتب معها: [مجزوء الرمل]

جـاء مـن شـعـرك روضٌ   جـاده صَـوْبُ الـلـسـانِ
فـبـعـثـنـاهـمـا سُـلافًـا   كـسـجـايـاك الـحِـسـانِ

وقال الوزير أبو عامر بن شُهَيد يتغزّل[2]: [الرمل]

أصـبـاحٌ شِـيـمَ أم بَـرْقٌ بَـدَا   أم سَنَا المحبوب أَوْرَى أَزْنُدَا[3]
هَـبَّ مـن مـرْقَـدِهِ مُـنْـكَـسِـرًا   مُـسْـبِـلاً لـلـكُـمِّ مُـرْخٍ لـلـرُّدَا[4]
يَـمْـسَـحُ الـنَّـعْـسَـةَ مِـنْ عَـيـنَـيْ رَشًـا   صـائـدٍ فـي كـلِّ يـوم أسـدا
أَوْرَدتـهُ لُـطْـفُـه آيـاتـه   صَـفْـوَةَ الـعـيـش وأَرْعَـتْـه ددا[5]
فَـهْـوَ مِـنْ دلّ عَـراه زُبْـدَةٌ   مـن مـريـج[6] لـم تُـخـالِـطْ زَبَـدا
قلتُ هَبْ لي يا حبيبي قُبْلَةً   تَشْفِ مِنْ عَمِّكَ تبريحَ الصَّدَى
فـانـثـنـى يـهـتـزُّ مِـنْ مَـنْـكِـبـه   مـائـلاً لـطـفًـا وأعـطـانـي الـيـدا[7]
كـلّـمـا كـلّـمـنـي قَـبَّـلْـتُـهُ   فَـهْـوَ إمّـا قـال قـولاً رُدِّدَا
كـاد أنْ يَـرْجِـعَ مِـنْ لَـثْـمِـي لـه   وارتـشـافِ الـثـغـر مـنـه أَدْرَدا[8]

---

(١) البَيْلسان والبِلَّسان: شجر أبيض الزهر يزرع للزينة.
(٢) ديوان ابن شهيد الأندلسي (ص ٤٩ ـ ٥١). وسيأتي معظم هذه الأبيات في هذا الجزء (ص ٣٩٧) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٣) في طبعة ليدن: «وسنا.. زندا». وفي الديوان: «أصفيح» بدل «أصباح».
(٤) الردا: أصل القول: الرداء، وقد حذفت الهمزة لضرورة القافية.
(٥) في طبعة بولاق: «للعيش أرعته ددا». والدَّدُ: اللهو واللعب.
(٦) في الديوان: «من صَرِيْح».
(٧) في الديوان: «قائلاً لا ثم أعطاني اليَدَا».
(٨) في طبعة ليدن: «إذا ردا».

وإذا استـنـجـزتُ يـومًـا وَعْـدَهُ أمطلَ الوعدَ وقال اصْبِرْ غَدَا[1]
شَرِبَتْ أعطافُهُ ماءَ الصِّبا[2] وسقاه الحُسْنُ حتى عَرْبَدَا
فـإذا بِـتُّ بـه فـي روضـةٍ أَغْيَدَ يغذو نَبَاتًا أغيدا[3]
قـام فـي الـلـيـل بِجِيدٍ أَتْلَعٍ يَنْفُضُ اللِّمَّةَ مِنْ دَمْعِ الندى
ومـكـانٍ عـازبٍ عـن جِيرة أصدقاءٍ وَهُمُ عَيْنُ العِدَا
ذي نـبـاتٍ طـيِّـبٍ أعـراقُـهُ[4] كعِذارِ الشَّعْرِ في خَدّ بَدَا
تـحسبُ الـهَضْبَةَ منه جبلاً وحُدُورَ[5] الماء منه أَبْرَدا

وقال يرثي القاضي ابن ذكوان، نجيبَ ذلك الأوان، وقد افتنَّ في الآداب، وسنَّ فيها سنّة ابن داب، وما فارق ربع الشباب شرخه، ولا اسْتَمْجَدَ في الكهولة عَفَاره ولا مَرْخه[6]، وكان لأبي عامر هذا قسيمَ نفسِه، ونسيمَ أُنْسِهِ[7]: [الطويل]

ظَنَنَّا الذي نادَى مُحِقًّا بموتِهِ لِعُظْم الذي أنحى[8] مِنَ الرُّزْء كاذبا
وخِلْنا الصباحَ الطَّلْقَ ليلاً وأننا هبطْنا[9] خُداريًا مِنَ الحُزْن كارِبا
ثَكِلْنا الدُّنا لَمَّا استقلَّ وإنما[10] فَقَدْناكَ يا خيرَ البريّة ناعِبا
وما ذهبتْ، إذ حَلَّ في القبر، نفسُه[11] ولـكـنـمـا الإسلامُ أدبرَ ذاهـبـا
ولَـمَّا أبَى إلاَّ التحمُّلَ رائحًا مَنَحْناه أعناقَ الكِرام رَكائِبا
يسيرُ به النَّعْشُ الأعزُّ وحوله أباعِدُ كانوا للمُصاب أقاربا[12]

---

(١) رواية عجز البيت في الديوان هي:

قال لي يمطُلُ ذَكِّرْني غَدَا

(٢) في الديوان: «خمر الصِّبا».
(٣) في الديوان: «وإذا بِتُّ.. أغيدًا يعرو..».
(٤) في الديوان: «ذي نباتٍ بُلْبِلَتْ أعراقُهُ..».
(٥) في الديوان: «وحدود».
(٦) العَفار والمَرْخ: ضربان من الشجر سريعا الوَرْي.
(٧) ديوان ابن شهيد الأندلسي (ص ٢٣ ـ ٢٥).
(٨) في الديوان: «أنجى».
(٩) في الديوان: «خبطنا».
(١٠) في طبعة ليدن: «ثكلت الدجى..». وفي الديوان: «ثكلْتُ الدُّجى.. وإننا».
(١١) في الديوان: «وما ذهبتْ، إن حَصَّلَ المرءُ، نَفْسُهُ».
(١٢) في الديوان: «النعش الأَغَرُّ... راحوا للمُصاب..».

عليه حَفِيفٌ للملائِكِ أَقْبَلَتْ تُصافحُ شَيخًا ذاكرَ اللّه تائبا
تخال لفيفَ الناس حول ضريحه خليطًا تخطّى في الشريعة هاربا[1]
إذا ما امْتَرَوْا سُحبَ الدموع تَفَرَّعَتْ فروعُ البُكا عن بارقِ الحُزْنِ لاهِبا
فَمَنْ ذا لِفَصْلِ القولِ يَسْطَعُ نورُهُ إذا نحن ناوَينا[2] الألَدَّ المناوِبا
ومَنْ ذا ربيعُ المسلمين يَقُوتُهُمْ إذا الناسُ شامُوها بُرُوقًا كَوَاذِبا
فيا لَهْفَ قلبي آهِ ذابتْ حُشاشتي مَضَى شيخُنا الدَّفَّاعُ عَنّا النوائبا
ومات الذي غابَ السرورُ لموته فليس وإنْ طال السُّرَى منه آيِبا
وكان عظيمًا يُطْرِقُ الجمعُ عنده ويَعْنُو له ربُّ الكتيبة هائِبا
وذا مِقْوَلٍ عَضْب الغِرَارَينِ[3] صارمٍ يروحُ به عن حَوْمَةِ الدين ضاربا
أبا حاتمٍ صَبْرَ الأديبِ[4] فإنني رأيتُ جميلَ الصَّبْرِ أحلى عَواقِبا
وما زلتَ فينا تُرْهِبُ الدهرَ سطوةً وصعْبًا به نُعْيي الخطوبَ المَصاعِبا[5]
سأَسْتَعْتِبُ الأيامَ فيك لَعَلّها لِصِحّة ذاك الجسم تَطْلُبُ طالِبا
لئن أَفَلَتْ شمسُ المكارم عنكُمُ لقد أَسْأَرَتْ[6] بَدْرًا لها وكواكِبا

قال في «المطمح»[7]: ودَبَّتْ إلى أبي عامر بن شُهَيد أيامَ العلويين عقارب، برئت به منه أباعد وأقارب، واجهه بها صَرْفُ قطوب، وانبرتْ إليه منها[8] خطوب، نَبَا لها جَنْبُه[9] عن المضجع، وبقي بها ليالي يأرق ولا يهجع، إلى أن أعلقت في الاعتقال آماله، وعقلته في عقال أذهب ماله، فأقام مرتهنًا، ولقي وَهَنًا، وقال: [الطويل]

قَرِيبٌ بِمُحْتَلِّ الهَوانِ مَجيدُ يَجُودُ ويشكو حُزْنَهُ فَيُجِيدُ
نَعَى صَبْرَهُ عند الإمام فيا له عدوٌّ لأبناء الكرامِ حَسُودُ[10]

---

(١) في طبعة دار صادر وفي الديوان: «خليط قَطًا وافى الشريعة هاربًا».
(٢) في طبعة ليدن وفي الديوان: «ناولْنا».
(٣) في الديوان: «عَضْب العرانين».
(٤) في طبعة بولاق وفي الديوان: «الأديم».
(٥) في الديوان: «وما زلت قُدْمًا يرهبُ الدهرُ سَطْوَهُ.. يُعيي..».
(٦) أسأرت: أبقت بقيّة.
(٧) مطمح الأنفس (ص ٢٠). والأبيات أيضًا في ديوان ابن شهيد الأندلسي (ص ٤١ ـ ٤٤).
(٨) في طبعة ليدن: «منه خطوب».
(٩) في الطبعة نفسها: «جفنة».
(١٠ في الديوان: «نعى صَبْرَه.. عدوًّا..».

وما ضَـرَّه إلاَّ مِـزاحٌ ورِقَّـةٌ ... ثَنَتْهُ سَفِيهَ الذِّكْرِ وَهْوَ رشيدُ
جنى ما جنى في قُبَّةِ المَلْكِ غيرُه ... وطُوِّقَ منه بالعظيمةِ جِيدُ
وما فيَّ إلاَّ الشِّعْرُ أَثْبَتَهُ الهَوَى ... فسارَ به في العالمين فريدُ[1]
أَقُوه بما لم آتِهِ مُتَعَرِّضًا ... لِحُسْنِ المعاني تارةً فأَزِيدُ
فإنْ طال ذكري بالمُجُون فإنها ... عظائمُ لم يصبر لهنَّ جَلِيدُ[2]
وهل كنتُ في العُشّاق أولَ عاقلٍ ... هَوَتْ بِحِجاهُ أعينٌ وخدود
فـراقٌ وشَجْوٌ واشتياقٌ وذِلَّةٌ ... وجَبّارُ حُفّاظٍ عليَّ عَتِيدُ
فمن يبلغُ[3] الفتيان أنّيَ بعدهمْ ... مقيمٌ بدارِ الظالمينَ وَحِيدُ
مقيمٌ بدارٍ ساكنُوها من الأذى ... قيامٌ على جَمْرِ الحِمام قُعُودُ
ويُسْمَعُ للجنّان[4] في جنباتها ... بسيطٌ كترجيعِ الصَّدَى ونَشِيد
ولست بذي قَيدٍ يَرِنُّ، وإنما ... على اللَّحْظ مِنْ سُخْطِ الإمام قيودُ
وقلتُ لصَدّاحِ الحَمام وقد بكى ... على القَصْرِ إلْفًا والدموعُ تَجُود
ألاَ أيها الباكي على مَنْ تُحِبُّه ... كلانا مُعَنًّى بالخَلاءِ فريدُ
وهل أنتَ دانٍ مِنْ مُحِبٍّ نأى به ... عنِ الإلفِ سُلْطانٌ عليه شَدِيدُ
فَصَفَّق مِنْ رِيْشِ الجَناحَين واقِعًا[5] ... على القُرْبِ حتى ما عليه مَزِيد
وما زال يُبْكيني وأَبْكيه جاهدًا ... وللشوقِ من دون الضُّلوع وَقُودُ
إلى أنْ بكى الْجُدْرَانُ[6] مِنْ طولِ شَجْونا ... وأَجْهَشَ بابٌ جانباهُ حَديدُ
أطاعَتْ أميرَ المؤمنين كتائبٌ ... تَصَرَّفُ في الأموال كيف تُريدُ[7]
فللشمسِ عنها بالنهارِ تَأَخُّرٌ ... وللبَدْرِ شحنا[8] بالظلام صدودُ
ألاَ إنها[9] الأيامُ تلعبُ بالفتى ... نُحُوسٌ تَهادَى تارةً وسُعُودُ

(١) في طبعة عبد الحميد: «مريد».
(٢) في الديوان: «فإنني شَقِيٌّ بمنظومِ الكلامِ سعيدُ».
(٣) في الديوان: «فمن مُبْلَغٌ».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «للحيّات».
(٥) في طبعة ليدن وفي الديوان: «واقفًا».
(٦) في طبعة بولاق: «بكى الجذلان».
(٧) في الديوان: «يريدُ».
(٨) في الديوان: «وللبدر عنها بالظلام..».
(٩) في الديوان: «ألا إنما..».

وما كنتُ ذا أَيْدٍ فأَذْعِنَ ذا قِوًى مِنَ الدهرِ مُبْدٍ صَرْفَهُ ومُعيد
وراضَتْ صِعابي سَطْوَةٌ عَلَوِيَّةٌ لها بارقٌ نحو الندى ورُعودُ
تقولُ التي مِنْ بَيْتِها كُفُّ مَرْكبي أَقُرْبُكَ دانٍ أم مَدَاكَ بعيدُ[1]
فقلتُ لها أَمْري إلى مَنْ سمتْ به إلى المَجْدِ آباءٌ له وَجُدُودُ

ثم قال[2]: ولَزِمَتْه آخرَ عمره علّة دامت به سنين، ولم تفارقْه حتى تركَتْه يد جنين، وأحسب أن اللّه أراد بها تمحيصه، وإطلاقه من ذهب كان قَنيصَهُ، فطهره تطهيرًا، وجعل ذلك على العفو له ظهيرًا، فإنها أقعدته حتى حُمل في المِحَفّة، وعاودته[3] حتى غدت لرونقه مُشْتَفَّة، وعلى ذلك فلم يعطل لسانه، ولم يبطل إحسانه، ولم يزل يستريح إلى القول، ويزيح ما كان يجده من الغَول، وآخر شعر قاله قوله[4]: [الطويل]

ولَمَّا رأيتُ العَيْشَ لَوَى[5] برأسِهِ وأيقنْتُ أنَّ الموتَ لا شكَّ لاحقي
تَمَنَّيتُ أني ساكِنٌ في عباءةٍ[6] بأعلى مَهَبِّ الرِّيح في رأس شاهقِ
أَرُدُّ سقيطَ الطَّلِّ في فضل عِيشتي وحيداً وأحسو الماء ثَنْيَ المعالقِ[7]
خليليَّ، مَنْ ذاق المَنِيَّةَ مرّةً فقد ذُقْتُها خمسين، قَولَةَ صادقِ[8]
كأني، وقد حان ارتحاليَ، لم أَفُزْ قديمًا من الدنيا بلَمْحَةِ بارقِ
فمن مُبْلِغٌ عنّي ابنَ حزمٍ وكان لي يَدًا في مُلِمّاتي وعند مَضايقي:
عليكَ سلامُ اللّه إنّي مُفارِقٌ وحَسْبُكَ زادًا من حبيبٍ مُفارق
فلا تَنْسَ تأبيني إذا ما ذكرتَني[9] وتَذْكارَ أيامي وفضلَ خلائقي
وحَرِّكْ له باللّه مِنْ أهلِ فَنِّنا إذا غَيَّبوني كُلَّ شَهْمٍ غُرَانِقِ[10]

---

(١) في طبعة ليدن: «أم نواك مديدُ». وفي الديوان: «نواك بعيدُ».
(٢) مطمح الأنفس (ص ٢١).
(٣) في طبعة ليدن: «وعادته».
(٤) الأبيات أيضًا في ديوان ابن شهيد (ص ١١٠ ـ ١١١).
(٥) في الديوان: «وَلّى برأسه».
(٦) في الديوان: «في غَيابةٍ».
(٧) في الديوان: «أَذِرُّ سقيط الحَبِّ.. عيشةٍ.. المفالِقِ».
(٨) في طبعة بولاق والديوان: «من رام المنيّة.. فقد رُمْتُها..».
(٩) في طبعة بولاق والديوان: «إذا ما فقدتني».
(١٠) في الديوان: «باللّه مهما ذَكَرْتَني..». والغُرانِقُ: الأبيض الناعم الجميل.

عسى هامَتي في القَبْرِ تَسْمَعُ بَعْضَهُ   بترجيعِ شادٍ أو بتطريبِ طارِقِ
فلي في ادِّكَاري بعد موتيَ راحةٌ   فلا تمنعوها[1] لي عُلالَةَ زاهِق
وإني لأرجو اللَّهَ فيما تَقَدَّمَتْ   ذنوبي به مِمَّا دَرَى من حقائق[2]

وكان أبو مروان عبد الملك بن غصن[3] مستوليًا على وزارة ابن عبيدة[4] ولسانه ينشد: [الطويل]

وشَيَّدْتُ مجدي بين أهلي ولم أَقُلْ   ألاَ ليت قومي يعلمون صنيعي

وهجا ابن ذي النون بقوله: [الطويل]

تَلَقَّبْت بالمأمون ظلمًا، وإنني   لآمنُ كلبًا حيث لستُ مُؤَمِّنَهْ
حرامٌ عليه أنْ يجودَ ببشره   وأمّا النَّدَى فانْدُبْ هنالك مَدْفَنَهْ
سطور المخازي دون أبوابِ قَصْرِهِ   بحُجَّابِهِ للقاصدينَ مُعَنْوَنَهْ

فلمّا تمكّن منه المأمون سجنه، فكتب إلى ابن هُودٍ من أبيات: [الطويل]

أيا راكبَ الوَجْنَاء بَلِّغْ تحيّةً   أميرَ جُذامٍ من أسيرٍ مُقَيَّدِ
ولَمَّا دَهَتْني الحادثاتُ ولم أَجِدْ   لها وَزَرًا أَقْبَلْتُ نحوكَ أعتدي[5]
ومثلك من يُعْدِي[6] على كلِّ حادثٍ   رَمَى بسهامٍ للردى لم ترصدِ
فعلّك أن تخلو بفكركَ ساعةً   لتنقذني من طولِ همّ مجدَّدِ
وها أنا في بطنِ الثرى وهو حاملٌ   فَيَسِّرْ على رُقْبَى الشفاعة مولدي
حنانيك ألفًا بعد ألفٍ فإنني   جعلتك بعد اللّه أعظمَ مقصدي
وأنت الذي يدري إذا رام حاجةً   تضلُّ بها الآراء من حيثُ يهتدي

فرقَّ له ابن هود، وتحيّل حتى خلّصه بشفاعته، فلمّا قدم عليه أنشده: [المتقارب]

حياتي موهوبةٌ مِنْ عُلاكا   وكيف أُرَى عادلاً[7] عن ذَرَاكا

---

(١) في الديوان: «فلا تمنعونيها».
(٢) في طبعة ليدن وفي الديوان: «حقائقي».
(٣) في طبعة بولاق: «ابن حصن».
(٤) في الطبعة نفسها: «ابن عبدة».
(٥) في طبعة ليدن: «أغتدي». الوَزَرُ، بالفتح: الملجأ. أعتدي: أطلب النصرة.
(٦) يُعْدي: ينصر.
(٧) عادلاً: مائلاً.

ولو لم يكنْ لكَ مِنْ نعمةٍ عليَّ وأصبحتُ أبغي سواكا
لَناديْتُ في الأرض هل مُسْعِفٌ مُجِيبٌ فلم يُصْغِ إلاَّ نَدَاكا

فطرب ابن هود، وخلع عليه ثوبَ وزارته، وجعله من أعلام سلطته وإمارته.

وقال المنصور بن أبي عامر للشاعر المشهور أبي عمر يوسف الرمادي: كيف ترى حالك معي؟ فقال: فوق قَدْري ودون قَدْرك! فأطرق المنصور كالغضبان، فانسلَّ الرمادي وخرج وقد ندم على ما بدر منه، وجعل يقول: أخطأت، لا واللّه ما يفلح مع الملوك مَنْ يعاملهم بالحقّ، ما كان ضرّني لو قلت له: إني بلغت السماء، وتمنطقتُ بالجوزاء، وأنشد[1]: [الطويل]

مَتَى يأتِ هذا الموتُ لا يُلْفِ حاجةً لنفسِيَ إلاَّ قد قَضَيتُ قضاءَها

لا حول ولا قوة إلاّ باللّه. ولَمَّا خرج كان في المجلس مَنْ يَحْسُده على مكانه من المنصور، فوجد فرصة فقال: وصل اللّه لمولانا الظفر والسعد! إنَّ هذا الصنف صنف زور وهذيان لا يشكرون نعمة، ولا يَرْعَون إلاًّ ولا ذِمّة، كلابُ مَنْ غَلَب، وأصحابُ من أخْصَب، وأعداء من أجدب، وحسبك منهم أنَّ اللّه جَلَّ جلاله يقول فيهم ﴿والشُّعراءُ يَتَّبِعُهُمُ الغاوونَ ـ إلى ـ ما لا يَفْعَلُون﴾[2] والابتعاد منهم أولى من الاقتراب، وقد قيل فيهم: ما ظنّك بقومٍ الصدقُ يُسْتَحْسَنُ إلاَّ منهم؟ فرفع المنصور رأسه، وكان مُحبًا في أهل الأدب والشعر، وقد اسودَّ وجهه، وظهر فيه الغضب المفرط، ثم قال: ما بالُ أقوامٍ يشيرون في شيء لم يُسْتَشَاروا فيه، ويسيئون الأدب بالحكم فيما لا يدرون، أَيُرْضي أم يُسْخط؟ وأنت أيها المنبعث للشَرِّ دون أن يُبْعَث، قد علمنا غرضك في أهل الأدب والشعر عامة، وحسدك لهم؛ لأنَّ الناس كما قال القائل: [مجزوء الرمل]

مَنْ رأى النـاسُ له فَضْـ ـلاً عـلـيـهـمْ حـسـدوهُ

وعرفنا غرضك في هذا الرجل خاصّة، ولسْنا إن شاء اللّه تعالى نُبَلِّغ أحدًا غرضه في أحد، ولو بَلَّغناكم بلغتنا في جانبكم، وإنك ضربت في حديد بارد، وأخطأت وجه الصواب، فزدت بذلك احتقارًا وصَغَارًا، وأني ما أطرقت من كلام[3] الرمادي إنكارًا عليه،

---

(١) في طبعة دار صادر: «وأنشدْتُه». والبيت لقيس بن الخطيم وهو في ديوانه (ص ١٠).
(٢) سورة الشعراء ٢٦، الآيتان ٢٢٤، ٢٢٦.
(٣) في طبعة دار صادر: «من خطاب».

بل رأيتُ كلامًا يجلُّ عن الأقدار الجليلة، وتعجَّبْتُ مِنْ تَهَدِّيه له بسرعة، واستنباطه له على قِلة[١] من الإحسان الغامر ما لا يستنبطه غيره بالكثير، واللّه لو حكّمته في بيوت الأموال لرأيت أنها لا ترجح ما تكلّم به قلبه ذرة، وإياكم أن يعود أحد منكم إلى الكلام في شخص قبل أن يؤخذ معه فيه، ولا تحكموا علينا في أوليائنا ولو أبصرتم منا التغيّر عليهم، فإنّنا لا نتغيّر عليهم بُغْضًا لهم وانحرافًا عنهم، بل تأديبًا وإنكارًا، فإنَّا مَنْ نريد إبعاده لم نُظْهر له التغيّر، بل ننبذه مرّة واحدة، فإن التغيّر إنما يكون لمن يراد استبقاؤه، ولو كنتُ مائلَ السمع لكلّ أحد منكم في صاحبه لتفرّقتم أيدي سَبَا، وجونبتُ أنا مجانبة الأجرب، وإني قد أطلعْتُكم على ما في ضميري فلا تعدلوا عن مرضاتي، فتجنّبوا سخطي بما جنيتموه على أنفسكم، ثم أمر أن يُرَدَّ الرمادي وقال له: أَعِدْ عليَّ كلامك، فارتاع، فقال: الأمر على خلاف ما قدرت، الثواب أولى بكلامك من العقاب، فسكن لتأنيسه، وأعاد ما تكلّم به، فقال المنصور: بَلَغَنَا أنّ النعمان بن المنذر حشا فَمَ النابغة بالدُّرّ لكلام استملحه[٢] منه، وقد أمرنا لك بما لا يقصر عن ذلك ما هو أنوه وأحسن عائدة، وكتب له بمال وخِلَعٍ وموضع يتعيّش[٣] منه، ثم رَدَّ رأسه إلى المتكلّم في شأن الرمادي، وقد كاد يغوص في الأرض لو وجد لشدّة ما حَلّ به مِمّا رأى وسمع[٤] وقال: والعجب من قوم يقولون الابتعادُ من الشعراء أولى من الاقتراب، نعم ذلك لمن ليس له مَفَاخر يريد تخليدها، ولا أيادٍ يرغب في نشرها، فأين الذين قيل فيهم[٥]: [الطويل]

على مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يعتريهمُ ... وعند المُقِلّينَ السماحةُ والبَذْلُ

وأين الذي قيل فيه[٦]: [المديد]

إنـمـا الـدنـيـا أبـو دُلَـفٍ ... بَـيـنَ مَـبْـدَاه ومُـحْـتَـضَـرِهْ

فـإذا وَلَّـى أبـو دُلَـفٍ ... وَلَّـتِ الـدنـيـا عـلـى أثَـرِهْ

أما كان في الجاهلية والإسلام أكرم مِمَّنْ قيل فيه هذا القول؟ بلى، ولكن صحبة

---

(١) في الطبعة نفسها: «على قلّته».
(٢) في طبعة دار صادر: «استحسنه».
(٣) في طبعة ليدن: «ينتعش منه».
(٤) في الطبعة نفسها: «عمّا سمع ورأى».
(٥) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه (ص ٦٢).
(٦) البيتان لعلي بن جبلة، وهما في طبقات الشعراء لابن المعتز (ص ١٧٢).

الشعراء والإحسان إليهم أحيَتْ غابر ذكرهم، وخصَّتْهم بمفاخر عصرهم، وغيرهم لم تخلّد الأمداحُ مآثرهم فَدَثَر ذكرهم، ودرس فخرهم، انتهى.

ومن حكاياتهم في العدل أنه لَـمَّا بنى المعتصمُ بن صُمَادح ملك ألْمرِية قصوره المعروفة بالصمادحية غَصَبُوا أحَد الصالحين في جنّة وألحقوها بالصمادحية، وزعم ذلك الصالح أنها لأيتام من أقاربه، فبينا المعتصم يومًا يشرب على الساقية الداخلة إلى الصمادحية إذ وقعت عينه على أنبوب قصبة مشمع، فأمر من يأتيه به، فلمّا أزال عنه الشمع وجد فيه ورقة فيها «إذا وقفت أيها الغاصبُ على هذه الورقة فاذْكُرْ قول اللّه تعالى ﴿إنَّ هذا أخي له تِسْعٌ وتسعون نَعْجَةً وليَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فقال أكْفِلْنِيها وعَزَّنِي في الخِطَابِ ﴾[1] لا إله إلاّ اللّه، أنت ملك قد وَسَّعَ اللّه تعالى عليك، ومكَّن لك في الأرض، ويحملك الحرصُ على ما يفنى أن تضمّ إلى جنّتك الواسعة العظيمة قطعةَ أرضٍ لأيتام حَرَّمْتَ بها حلالها، وخبثْتَ طِيبَها، ولئن تحجَّبْتَ عني بسلطانك، واقتدرتَ عليَّ بعظم شأنك، فنجتمع غدًا بين يدي من لا يحجب عن حقّ، ولا تضيع عنده شكوى». فلمَّا استوعب قراءتها دمعت عيناه، وأخذته خشية خيف عليه منها، وكانت عادته رحمه اللّه تعالى، وقال: عليَّ بالمشتغلين ببناء الصمادحية، فأُحْضِرُوا، فاستفسرهم عَمّا زَعَم الرجلُ، فلم يسعهم إلاّ صدقه، واعتذروا بأنَّ نَقْصَها من الصمادحية يَعيبُها في عين الناظر، فاستشاط غضبًا وقال: واللّه إنَّ عيبها في عين الخالق أقبحُ من عيبها في عين المخلوق، ثم أمر بأنْ تُصرف إليه[2]، واحتمل تعويرها لصمادحيته. ولقد مَرَّ بعض أعيان ألمرية وأخيارها مع جماعة على هذا المكان الذي أُخرجت منه جنّة الأيتام فقال أحدهم: واللّه لقد عورت هذه القطعة هذا المنظر العجيب، فقال له: اسكت، فواللّه إنّ هذه القطعة طراز هذا المنظر وفخره، وكان المعتصم إذا نظر إليها قال: أشعرتم أن هذا المكان المعوجّ في عيني أحسن من سائر ما استقام من الصمادحية؟ ثم إنّ وزيره ابن أرقم لم يزل يلاطف الشيخ والأيتام حتى باعوها عن رضًا بما اشتهوا من الثمن، وذلك بعد مدة طويلة، فاستقام بها بناء الصمادحية، وحصل للمعتصم حسن السمعة في الناس، والجزاء عند اللّه تعالى.

ولَـمَّا مات المعتصم بن صمادح ركب البحرَ ابنُه وليُّ عهده الواثق عزّ الدولة أبو

---

(١) سورة ص ٣٨، الآية ٢٣.

(٢) في طبعة دار صادر: «عليه».

محمد عبد الله[1]، وفارق الملك كما أوصاه المعتصم والده وفي ذلك يقول[2]: [الطويل]

لك الحمدُ بعدَ المُلْكِ أصبَحْتُ[3] خامِلاً ... بأرض اغترابٍ لا أُمِرُّ ولا أُحْلِي
وقد أَصْدَأَتْ فيها الجذاذةُ أَنْمُلي[4] ... كما نَسِيَتْ ركضَ الجياد بها رِجْلِي
فلا[5] مِسْمَعي يُصْغي لِنَغْمةِ شاعرٍ ... وكَفِّيَ لا تمتدُّ يومًا إلى بَذْلِ

قال ابن اللبانة الشاعر: ما علمت حقيقة جَور الدهر حتى اجتمعْتُ ببجاية مع عزّ الدولة بن المعتصم بن صمادح فإني رأيت منه خير من يجتمع به، كأنه لم يخلقْه اللَّهُ تعالى إلاً للملك والرياسة وإحياء الفضائل، ونظرْتُ إلى همّته تنمُّ من تحت خموله كما ينمّ فِرِنْدُ السيف وكرمه من تحت الصدأ، مع حفظه لفنون الأدب والتواريخ وحسن استماعه وإسماعه، ورقّة طباعه ولطافة ذهنه، ولقد ذكرْتُه لأحد من صحبته من الأدباء في ذلك المكان ووصفْتُه بهذه الصفات، فتشوّق إلى الاجتماع به، ورغب إليَّ في أن أستأذنه في ذلك، فلما أعلمت عزّ الدولة قال: يا أبا بكر، لتعلم أنّا اليوم في خمول وضيق لا يتّسع لنا معهما، ولا يجمل بنا الاجتماع مع أحد، لا سيما مع ذي أدب ونَبَاهة يلقانا بعين الرحمة، ويزورنا بمنّة التفضّل في زيارتنا، ونكابد من ألفاظ توجُّعه وألحاظ تفجّعه ما يجدّد لنا هَمًّا قد بلي، ويحيي كَمَدًا قد فني، وما لنا قدرة على أن نجود عليه بما يرضى به عن همّتنا، فَدَعْنا كأننا في قبر، نتدرع لسهام الدهر بدِرْعِ الصبر، وأما أنت فقد اختلطت بنا اختلاطَ اللحم بالدم، وامتزجت امتزاج الماء بالخمر، فكأنّا لم نكشف حالنا لسوانا، ولا أظهرنا ما بنا لغيرنا، فلا تحمل غيرك محملك، قال ابن اللبانة: فملأ والله سمعي بلاغة لا تصدر إلاّ عن سَدَاد ونفس أبيّةٍ متمكّنةٍ مِنْ أعِنّة البيان، وانصرفْتُ متمثلاً[6]: [الطويل]

لسانُ الفَتَى نِصْفٌ ونِصْفٌ فؤادُهُ ... ولم[7] يَبْقَ إلاً صورةُ اللحمِ والدمِ
وكَائِنْ تَرَى مِنْ صامتٍ لكَ مُعْجِبٍ ... زيادَتُهُ أو نَقْصُه في التكلّمِ

---

(١) سماه في الحلة السيراء (جـ ٢ ص ٨٩): «معز الدولة أحمد»، وفي (ص ٩٠) سماه «أبو مروان عبيد الله». وترجمة عز الدولة أبي محمد عبد الله بن المعتصم في المغرب (جـ ٢ ص ٢٠١).
(٢) الأبيات في المغرب (جـ ٢ ص ٢٠١).
(٣) في طبعة ليدن وفي المغرب: «أُضْحِ خاملاً».
(٤) في المغرب: «فيها الهوادةُ مُنْصُلي».
(٥) في المصدر نفسه: «ولا».
(٦) البيتان لزهير بن أبي سلمى وهما في ديوانه (ص ٨٨ ـ ٨٩).
(٧) في الديوان: «فلم يَبْقَ».

وكتب إليه ابنُ اللبانة[1]: [البسيط]

يا ذا الذي هَزَّ أمداحي بِحِلْيته[2] وعَزَّهُ أنْ يهزَّ المجدَ والكَرَما
وادِيكَ لا زَرْعَ فيه اليومَ تَبْذُلُهُ فَخُذْ عليه لأيامِ المُنَى سَلَمَا[3]

فتحيّل في قليل بِرّ ووجّهه إليه وكتب معه[4]: [البسيط]

المجدُ يُخجِلُ مَنْ يفديك من زمنٍ ثناك عن واجب البِرّ الذي علما[5]
فدونَكَ النَّزْرَ مِنْ مُصْفِ مَوَدَّتَهُ حَتَّى يُوفّيك أيامَ المُنَى السَّلَما

ومن شعر عز الدولة المذكور[6]: [الطويل]

أُفَدِّي أبا عمرو وإن كان عاتبًا فلا خيرَ في وُدّ يكون لا عَتْبِ
وما كانَ ذاك الوُدُّ إلاَّ كبارقٍ أضاء لعيني ثم أظلم في قلبي

وقال الشقندي في الطرف: إنّ عزّ الدولة أشعر من أبيه. وأمّا أخوه رفيع الدولة الحاجب أبو زكريا يحيىٰ بن المعتصم فله أيضًا نظم رائق، ومنه ما كتب به إلى يحيىٰ بن مطروح يستدعيه لأنس[7]: [الرمل]

يا أخي بل سَيِّدي بل سَنَدي في مُهِمّاتِ الزمانِ الأَنْكَدِ
لُحْ بأُفُقٍ غابَ عنه بَدْرُهُ في اختفاءٍ مِنْ عُيُونِ الحُسَّدِ
وتَعَجَّلْ فحبيبي حاضرٌ وفمي يشتاقُ كأسي في يدي[8]

---

(١) البيتان في الحلة السيراء (جـ ٢ ص ٩١). وسيأتيان في الجزء التاسع

(٢) في طبعة ليدن: «بحيلته».

(٣) في الحلة السيراء: «فيه كنت تبذله». والسَّلَم، بالفتح: السلف، وهو أن تعطي غيرك مالاً على أن يسلّمك بعد مدّة صلعة محدّدة الأوصاف منعًا للمنازعة.

(٤) البيتان في الحلة السيراء (جـ ٢ ص ٩٢) وسيردان في الجزء التاسع ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٥) في الحلة السيراء: «في زمنٍ ثناهُ. . .».

(٦) البيتان في الحلة السيراء (جـ ٢ ص ٩٦) والمغرب (جـ ٢ ص ٢٠٠) منسوبين إلى رفيع الدولة أبي يحيىٰ بن المعتصم بن صمادح، وفي روايتهما اختلاف عمّا هنا.

(٧) الأبيات في المغرب (جـ ٢ ص ٢٠٠) وترجمة رفيع الدولة في المصدر المذكور (ص ١٩٩ ـ ٢٠٠) وفي الحلة السيراء (جـ ٢ ص ٩٢).

(٨) في المغرب: «وفمي ساقٍ وكأسي. . .».

فأجابه ابنُ مطروح، وهو من أهل باغة، بقوله: [الرمل]

أنا عَبْدٌ مِنْ أَقَلِّ الأَعْبُدِ قِبْلتي وَجْهٌ بأُفْقِ الأسْعَدِ
كلما أظمأني وِرْدٌ فما منهلي إلاّ بذاك المورد
ها أنا بالبابِ أبغي إذنكمْ والظَّمَا قد مَدَّ للكأس يدي

وكان قد سُلِّط عليه إنسان مختلّ إذا رآه يقول: هذا ألف لا شيء عليه، يعني أنّ مُلْكَهُ ذهب عنه وبقي فارغًا منه، فشكا رفيع الدولة ذلك إلى بعض أصحابه، فقال: أنا أكفيك مؤونته، واجتمع مع الأحمق، واشترى له حلواء، وقال له: إذا رأيت رفيع الدولة بن المعتصم فسلِّمْ عليه وقَبِّلْ يده ولا تقلْ هذا ألف لا شيء عليه، فقال: نعم، واشترط الوفاء بذلك، إلى أنْ لقيه فجرى نحوه وقَبَّلَ يده وقال: هذا هو باء بنقطة من أسفل، فقامت قيامة رفيع الدولة، وكان ذلك أشدّ عليه، وكان به علّة الحصا فظنّ أنّ الأحمق علم ذلك وقصده، وصار كلّما أحسّ به في موضع تجنّبه.

واستأذن يومًا على أحد وجوه دولة المرابطين فقال أحد جلسائه ﴿تلك أُمَّةٌ قد خَلَتْ﴾[1] استحقارًا له واستثقالاً للإذن له، فبلغ ذلك رفيع الدولة فكتب إليه: [الطويل]

خَلَتْ أُمّتي لكنَّ ذاتيَ لم تَخْلُ وفي الفرع ما يُغْني إذا ذَهَبَ الأصلُ
وما ضَرّكُمْ لو قلتُمُ قولَ ماجدٍ يكونُ له فيما يجيء به الفَضْلُ
وكلُّ إناء بالذي فيه راشحٌ وهل يمنحُ الزنبورُ ما مَجَّه النّحْلُ
سأصرفُ وجهي عن جنابٍ تحلّه ولو لم تكنْ إلاّ إلى وجهك السُّبْلُ
فما موضعٌ تحتلّه بِمُرَفَّعٍ ولا يُرْتَضَى فيه مقالٌ ولا فعلُ
وقد كنتُ ذا عذلٍ لعلّك ترعوي ولكنْ بأرباب العُلاَ يَجْمُلُ العذلُ

وأما أخوهما أبو جعفر بن المعتصم فله ترجمة في المُسْهب والمطرب والمغرب[2]، ومن شعره: [الطويل]

كتبتُ وقلبي ذو اشتياقٍ ووحشةٍ ولو أنه يسطيع[3] مَرَّ يُسَلِّمُ

---

(1) سورة البقرة ٢، الآيتان ١٣٤، ١٤١.

(2) هو أبو جعفر أحمد بن المعتصم بن صمادح، وترجمته في المغرب (جـ ٢ ص ٢٠٠) والمطرب (ص ٣٧). والأبيات في المطرب.

(3) في المطرب: «يستطيع»، وهكذا ينكسر الوزن.

جَعَلْتُ سوادَ العينِ فيه سَوادَهُ[1] وأَبْيَضَهُ طِرْسًا وأقبلْتُ ألثمُ
فخُيِّلَ لي أني أُقَبِّلُ موضعًا يُصافِحُهُ ذاك البَنانُ المُسَلِّمُ[2]

وأما أختهم أم الكرم فذكرناها مع النساء فلتراجع.

وقال أبو العلاء بن زُهر[3]: [الكامل]

تَمَّتْ محاسنُ وَجْهِ وتكامَلَتْ لَمَّا بدا وعليه صُدْغٌ مُونِقُ
وكذلك البَدْرُ المنيرُ جمالُهُ في أنْ تكنَّفَهُ سماءٌ أزرقُ

وقال أبو الفضل بن شرف: [السريع]

يا من حكى البيدقَ في شكله أصبح يحكيكَ وتحكيهْ
أسفله أوسعُ أجزائِهِ ورأسُهُ أصغرُ ما فيه

وقال ابن خفاجة[4]: [السريع]

يا أيها الصَّبُّ المُعَنَّى به ها هُوَ لا خَلٌّ ولا خَمْرُ
سُوِّدَ ما وُرِّدَ مِنْ خَدِّه فصار[5] فحمًا ذلك الجَمْرُ

وقال أبو عبد الله البياسي: [الرمل]

صِغَرُ الرأسِ وطولُ العُنُقِ شاهِدًا عَدْلٍ بفرط الحُمُقِ

ولَمَّا سمعه أبو الحسن بن حريق قال: [الرمل]

صِغَرُ الرأسِ وطولُ العُنُقِ خلقةٌ منكرةٌ في الخِلَقِ
فإذا أبْصَرْتَها مِنْ رجلٍ فاقْضِ في الحِينِ له بالحُمُقِ

وقال أبو الحسن بن الفضل[6] يذكر مقامًا قامه سهل بن مالك وابن عيّاش: [الطويل]

---

(١) في المطرب: «مداده».

(٢) في المطرب: «المكرّم».

(٣) تقدم البيتان في هذا الجزء (ص ٢١٧) بتغيير يسير عمّا هنا.

(٤) ديوان ابن خفاجة (ص ١٠٥).

(٥) في الديوان: «فعاد».

(٦) هو الفقيه أبو الحسن بن الفضل، وأصله من أُوريوله، لزم سُكنى إشبيلية، وله الموشحات السائرة في أقطار المشرق والمغرب. اختصار القدح (ص ١٠٨).

لعمري لقد سَرَّ الخلافةَ قائمًا بخطبته الغرّاء سهلُ بنُ مالكِ
وأما ابنُ عياشٍ وقد كان مثله فضلّوا جميعًا بين تلك المسالكِ
ومات وماتوا حَسْرةً وحسادةً وغيظًا فقلْنا هالك في الهوالكِ

وسهل بن مالك له ترجمة مطوّلة، رحمه اللّه تعالى!

ومن حكاياتهم في الوفاء[1] وحسن الاعتذار والقيام بحقّ الإخاء أنَّ الوزير الوليد بن عبد الرحمن بن غانم كان صديقًا للوزير هاشم بن عبد العزيز، ثابتًا على مودّته، ولَمّا قضى اللّهُ تعالى على هاشم بالأَسْر أجرى السلطان محمد بن عبد الرحمن الأموي ذكره في جماعة من خُدَّامه، والوليدُ حاضر، فاستقصره، ونسبه للطيش والعجلة والاستبداد برأيه، فلم يكن فيهم مَنِ اعتذر عنه غير الوليد، فقال: أصلح اللّه تعالى الأمير! إنه لم يكن على هاشم التخير[2] في الأمور، ولا الخروج عن المقدور، بل قد استعمل جهده، واستفرغ نصحه، وقضى حقّ الإقدام، ولم يكن ملاكُ النصر بيده، فخذله مَنْ وثق به، ونكل عنه من كان معه، فلم يزحزح قدمه عن موطن حِفَاظِهِ، حتى مُلِكَ مقبلاً غير مدبر، مُبْلِيًا غير فَشِل، فجوزي خيرًا عن نفسه وسلطانه، فإنه لا طريق للمَلاَم عليه، وليس عليه ما جَنَتْهُ الحرب الغَشُوم، وأيضًا فإنه ما قصد أن يجود بنفسه إلاّ رضًا للأمير، واجتنابًا لسخطه، فإذا كان ما اعتمد فيه الرضا جالبَ التقصيرِ فذلك معدود في سوء الحظ، فأعجب الأمير كلامه، وشكر له وفاءه، وأقصر فيما بَعْدُ عن تفنيد هاشم، وسعى في تخليصه، واتّصل الخبرُ بهاشم، فكتب إليه: الصديقُ مَنْ صَدَقَكَ في الشدّة لا في الرخاء، والأخ مَنْ ذَبَّ عنك في الغيب لا في المَشْهد، والوفيُّ مَنْ وفى لك إذا خانك زمان، وقد أتاني من كلامك بين يدي سيدنا ـ جعل اللّه تعالى نعمته سرمدًا! ـ ما زادني بمودّتك اغتباطًا، وبصداقتك ارتباطًا، ولذلك ما كنتُ أشدُّ يدي على وصلك، وأخصّك[3] بإخائي، وأنا الآن بموضع لا أقدر فيه على جزاء غير الثناء، وأنت أقدر مني على أن تزيد ما بدأت به بأن تتمّ ما شرعت فيه، حتى تتكمّل لك المنّة، ويستوثق عقد الصداقة، إن شاء اللّه تعالى، وكتب إليه بشعر منه: [الطويل]

أيا ذاكري بالغيبِ في محفلٍ به تَصَامَتَ جمعٌ عن جوابٍ به نصري
أتتنيَ والبَيداءُ بيني وبينها رُقى كلماتٍ خَلَّصَتْني مِنَ الأَسْرِ

(۱) هذا النص في المقتبس بتحقيق د. مكي (ص ۳۸۷ ـ ۳۸۸).
(۲) في طبعة ليدن: «التحيّر» بالحاء المهملة.
(۳) في الطبعة نفسها: «وأخصّه».

لئن[1] قَرَّبَ اللَّهُ اللقاءَ فإنني سأجزيك ما لا يتقضي غابرَ الدَّهرِ

فأجابه الوليد: خلصك اللَّه أيها البَدْرُ مِنْ سِرَارك! وعجّل بطلوعك في أكمل تمامك وإبدارك[2]! وَصَلَني شكرك على أنْ قلتُ ما علمتُ، ولم أخرج عن النصح للسلطان بما زكتته من ذلك، واللَّهُ تعالى شاهد، على أنّ ذلك في مجالس غير المجلس المنقول لسيدي إن خفيت عن المخلوق فما تخفى عن الخالق، ما أردت بها إلاّ أداء بعض ما أعتقده لك، وكم سهرتَ وأنا نائم، وقمتَ في حقي وأنا قاعد، واللَّه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ثم ذكر أبياتًا لم تحضرني الآن.

ومن حكاياتهم في علوّ الهمّة في العلم والدنيا أنه دخل أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة جامعَ غرناطة، وبه نحويٌّ حوله شباب يقرأون، فنظروا إليه، وقالوا له مستهزئين به: ما يحمل الفقيه؟ وما يُحْسِنُ من العلوم؟ وما يقول؟ فقال لهم: أحمل اثني عشر ألف دينار، وها هي تحت إبطي، وأخرج لهم اثنتي عشرة ياقوتة، كلّ واحدة منها بألف دينار، وأمّا الذي أُحْسنه فاثنا عشر علمًا أَدونها[3] علم العربية الذي تبحثون فيه، وأمّا الذي أقول فأنتم كذا، وجعل يسبهم، هكذا نقلت هذه الحكاية من خطّ الشيخ أبي حيان النحوي، رحمه اللَّه تعالى!

ومن حكاياتهم في الذكاء واستخراج العلوم واستنباطها أنَّ أبا القاسم عباس بن فرناس[4]، حكيم الأندلس، أوّل مَنِ استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأوّل مَنْ فكَّ بها كتاب العَرُوض للخليل، وأوّل مَنْ فَكَّ الموسيقى، وصنع الآلة المعروفة بالمنقانة[5]، ليعرف الأوقات على غير رسم ومثال، واحتال في تطيير جثمانه، وكسا نفسه الريش، ومدّ له جناحين، وطار في الجوّ مسافة بعيدة، ولكنه لم يُحْسِنِ الاحتيالَ في وقوعه، فتأذّى في مؤخره، ولم يَدْرِ أنَّ الطائر إنما يقع على زِمِكّه[6]، ولم يعمل له ذَنَبًا، وفيه قال مؤمن بن سعيد الشاعر من أبيات: [الطويل]

(١) في طبعة ليدن: «فإنْ».

(٢) إبدارُ البدر: طلوعه وتمامه.

(٣) أدونها: أقلّها قيمة.

(٤) عن عباس بن فرناس ومحاولة طيرانه انظر المغرب (جـ ١ ص ٣٣٣) والمقتبس بتحقيق مكي (ص ٢٧٩، ٢٨٢).

(٥) في أصول النفح: «المنقالة»، والتصويب عن المقتبس (ص ٢٨٢)؛ يقول ابن حيان: «وعمل عباس بن فرناس الآلة المسماة المنقانة لمعرفة الأوقات...».

(٦) في طبعة ليدن: «زمكته»، والزِّمِكُّ، بكسر الزاي والميم وتشديد الكاف: ذنب الطائر.

يطمُّ على العنقاءِ في طيرانها　　إذا ما كَسَا جثمانَهُ رِيش[1] قشعمِ

وصنع في بيته هيئة السماء، وخَيَّل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود، وفيه يقول مؤمن بن سعيد أيضًا: [المنسرح]

سماءُ عباسٍ الأديبِ أبي الـ　　قاسم ناهيكَ حسنُ رائِقِها
أمّا ضُراطُ اسْتِهِ فراعِدُها　　فليت شعري ما لَمْعُ بارِقِها
لقد تَمَنَّيْتُ حين دوَّنها　　فكريَ في البصق في است خالقها[2]

وأنشد ابن فرناس الأميرَ محمدًا من أبيات: [الطويل]

رأيتُ أميرَ المؤمنين محمدًا　　وفي وجهه بَذْرُ المحبّة يُثْمِرُ

فقال له مؤمن بن سعيد: قبحًا لما ارتكبته! جعلت وجه الخليفة مَحْرَثًا يثمر فيه البذر، فخجل وسبّه.

وأول[3] من اشتهر في الأندلس بعلم الأوائل والحساب والنجوم أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بصاحب القِبْلة؛ لأنه كان يشرِّق في صلاته، وكان عالمًا بحركات الكواكب وأحكامها، وكان صاحب فقه وحديث، دخل المشرق، وسمع بمكّة مِنْ علي بن عبد العزيز، وبمصر من المزني وغيره.

ومنهم يحيىٰ بن يحيىٰ المعروف بابن السمينة، من أهل قرطبة، وكان بصيرًا بالحساب والنجوم والنحو واللغة والعَرُوض ومعاني الشعر والفقه والحديث والأخبار والجَدَل، ودخل إلى المشرق، وقيل: إنه كان معتزلي المذهب.

وأبو القاسم أصبغ بن السمح، وكان بارعًا في علم النجوم[4] والهندسة والطب[5]، وله تآليف منها كتاب «المدخل إلى الهندسة في تفسير إقليدس»، وكتاب كبير في الهندسة، وكتابان في الأسطرلاب، وزيج على مذاهب الهند المعروف بالسند هند.

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «ريح».
(٢) في طبعة دار صادر: «حين دَوَّمَها فكريَ بالبصق. . .».
(٣) في هذا الفصل ينقل المقري عن طبقات الأمم لصاعد (ص ٦٤ ـ ٧٢) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٤٨٢ وما بعدها).
(٤) في طبعة ليدن: «في علم النحو والهندسة. . .».
(٥) كلمة «والطب» ساقطة من طبعة دار صادر.

وأبو القاسم بن الصفار، وكان عالمًا بالهندسة والعدد والنجوم، وله زيج مختصر على مذاهب السند هند، وله كتاب في عمل الأسطرلاب.

ومنهم أبو الحسن الزهراوي، وكان عالمًا بالعدد وبالطب[1] والهندسة، وله كتاب شريف في المعاملات على طريق البرهان.

ومنهم أبو الحكم عمر الكرماني، من أهل قرطبة، من الراسخين في علم العدد والهندسة، ودخل المشرق، واشتغل بحرّان، وهو أوّل من دخل برسائل إخوان الصفا إلى الأندلس.

ومنهم أبو مسلم ابن خلدون من أشراف إشبيلية، وكان متصرّفًا في علوم الفلسفة والهندسة والنجوم والطب، وتلميذه ابن برغوث، وكان عالمًا بالعلوم الرياضية، وتلميذه أبو الحسن مختار الرعيني، وكان بصيرًا بالهندسة والنجوم، وعبد اللّه بن أحمد السرقسطي، كان نافذًا[2] في علم الهندسة والعدد والنجوم، ومحمد بن الليث، كان بارعًا في العدد والهندسة وحركات الكواكب، وابن حيّ، قرطبي بصير بالهندسة والنجوم، وخرج عن الأندلس سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة، ولحق بمصر، ودخل اليمن، واتّصل بأميرها الصُلَيحي القائم بدعوة[3] المستنصر العبيدي، فحظي عنده، وبعثه رسولاً إلى بغداد إلى القائم بأمر اللّه، وتوفي باليمن بعد انصرافه من بغداد، وابن الوقشي[4] الطليطلي، عارف بالهندسة والمنطق والزيوج، وغيرهم مِمَّنْ يطول تعدادهم.

وكان الحافظ أبو الوليد هشام الوقشي من أعلم الناس بالهندسة وآراء الحكماء والنحو واللغة ومعاني الأشعار والعَرُوض وصناعة الكتابة والفقه والشروط والفرائض وغيرها، وهو كما قال الشاعر: [الوافر]

وكان مِنَ العلومِ بحيث يُقْضَى ... له في كلِّ فنّ بالجميعِ

ومن شعره قوله: [الكامل]

قد بَيَّنَتْ فيه الطبيعةُ أنها ... بدقيقِ أعمالِ المهندسِ ماهِرَهْ

---

(١) في طبعة دار صادر: «والطب».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «ناقدًا».
(٣) في طبعة ليدن: «بدعوة معن المستنصر..».
(٤) في طبعة بولاق: «وأبو الوقشي».

عُنِيَتْ بمبسِمِهِ فخطَّتْ فوقه بالمِسْكِ خَطًّا مِنْ محيطِ الدائرهْ

وعزم على ركوب البحر إلى الحجاز فهاله ذلك، فقال: [السريع]

لا أركبُ البحرَ ولو أنني ضربْتُ فيه بالْعَصَا فانْفَلَقْ[1]
ما إنْ رأتْ عينيَ أمواجَهُ في فِرَقٍ إلاَّ تَنَاهَى الفَرَقْ

وكان الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن مهند[2] مصنّف الأدوية المفردة آية اللّه تعالى في الطب وغيره، حتى إنه عانى جميع ما في كتابه من الأدوية المفردة، وعرف ترتيب قواها ودرجاتها، وكان لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن بالأغذية أو ما يقرب منها، وإذا اضطرّ إلى الأدوية فلا يرى التداوي بالمركَّبة ما وجد سبيلاً إلى المفردة، وإذا اضطرّ إلى المركّب لم يكثر التركيب، بل يقتصر على أقل ما يمكنه، وله غرائب مشهورة في الإبراء من الأمراض الصعبة والعلل المخوفة بأيسر علاج وأقربه.

ومنهم ابن البيطار[3]، وهو عبد اللّه بن أحمد المالقي الملقّب بضياء الدين، وله عدّة مصنّفات في الحشائش لم يسبق إليها، وتوفي بدمشق سنة ست وأربعين وستمائة، أكل عقارًا قاتلاً فمات من ساعته، رحمه اللّه تعالى!.

ومن حكاياتهم في الحفظ أن الأديب الأوحَد حافظ إشبيلية، بل الأندلس في عصره، أبا المتوكل الهيثم بن أحمد بن أبي غالب، كان أعجوبة دهره في الرواية للأشعار والأخبار، قال ابن سعيد[4]: أخبرني مَنْ أثق به أنه حضر معه ليلة عند أحد رؤساء إشبيلية فجرى ذكر حفظه، وكان ذلك في أول الليل، فقال لهم: إنْ شئتم تختبروني أجبتكم، فقالوا له: بسم اللّه، إنّا نريد أن نحدّث عن تحقيق، فقال: اختاروا أيَّ قافية شئتم لا أخرج عنها، حتى تعجبوا[5]، فاختاروا القاف، فابتدأ من أوّل الليل إلى أنْ طلع الفجر، وهو ينشد وزن: [الكامل]

---

(١) يشير بذلك إلى قصة موسى عليه السلام، التي وردت في القرآن الكريم في غير ما موضع، وإلى معجزاته ومنها ضربه بعصا البحر وانفلاقه كما جاء في سورة الشعراء ٢٦، الآية ٦٣ ﴿فأَوْحَيْنا إلى موسى أنِ اضْرِبْ بِعصاكَ البحرَ فانْفَلَقَ فكان كلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العظيم ﴾.

(٢) في أصول النفح: «ابن شهيد»، والتصويب عن عيون الأنباء (ص ٤٩٦).

(٣) مرّت ترجمة ابن البيطار رقم ٣٠٤ في الجزء الثالث وأشرنا هناك إلى مصادر ترجمته.

(٤) ما يقوله ابن سعيد عن ابن الهيثم الإشبيلي في اختصار القدح (ص ١٥٨). وترجمته في المغرب (جـ ١ ص ٢٦٣) والتكملة (رقم ٢٠٢٥).

(٥) في طبعة ليدن: «تعجوا»، وعَجَّ: رفع صوته.

أَرَقٌ عـلـى أَرَقٍ ومِـثْـلِـيَ يَـأْرَقُ[١]

وسُمَّاره قد نام بعضٌ وضجّ بعضٌ، وهو ما فارق قافية القاف.

وقال أبو عمران بن سعيد: دخلت عليه يومًا بدار الأشراف بإشبيلية، وحوله أدباء ينظرون في كتب منها ديوان ذي الرُّمّة، فمدّ الهيثم يده إلى الديوان المذكور، فمنعه منه أحد الأدباء، فقال: يا أبا عمران، أواجب أن يمنعه مني وما يحفظ منه بيتًا، وأنا أحفظه؟ فأكذبته الجماعة، فقال: اسمعوني وأمسكوه، فابتدأ من أوّله حتى قارب نصفه، فأقسمْنا عليه أن يكفّ، وشهدنا له بالحفظ.

وكان آية في سرعة البديهة، مشهورًا بذلك، قال أبو الحسن بن سعيد: عهدي به في إشبيلية يُمْلي على أحد الطلبة شعرًا، وعلى ثانٍ موشحة، وعلى ثالث زجلاً، كلُّ ذلك ارتجالاً.

ولَـمّا أخذ الحصار بمُخَنَّق إشبيلية في مدة الباجي خرج خروج القارِظَيْن[٢]، ولا يدري حَيثُ ولا أين.

ومن شعره وقد نزل بداره عَبِيدُ السلطان، وكتب به إلى صاحب الأنزال: [الكامل]

كم مِنْ يَدٍ لَكَ لا أقومُ بِشُكْرِها ... وبها أُشِيرُ إليك إنْ خرست فمي
وقد استشرتك في الحديث فهل ترى ... أن يدخلَ الغِرْبَانُ وَكْرَ الهيثمِ[٣]

ولـه[٤]: [البسيط]

يُجْفَى الفقيرُ ويَغْشى الناسُ قاطبةً ... بابَ الغنيِّ، كذا حُكْمُ المقاديرِ
وإنما الناسُ أمثالُ الفَرَاشِ فَهُمْ ... بحيثُ تبدو مصابيحُ الدنانير[٥]

---

(١) هو صدر بيت للمتنبي، والبيت هو:
أَرَقٌ عـلـى أَرَقٍ ومِـثْـلِـيَ يَـأْرَقُ ... وجَـوًى يَـزِيـدُ وعَـبْـرَةٌ تَـتَـرَقْـرَقُ
العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٢٢).

(٢) القارظان: رجلان من عَنَزَة ذَكَرَتْهما الشعراء قديمًا، وهما عامرُ بنُ رُهْم، ويَذْكُرُ بنُ عَنَزَة؛ خَرَجَا في طلب القَرَظ (شجر يُدْبَغُ به) فلم يَرْجِعا فَضُرِب بهما المثل «حتى يؤوبَ القارظان». مجمع الأمثال (ج ١ ص ٢١١) والذخيرة (ق ١ ص ٧١٦ ـ ٧١٧) ولسان العرب والقاموس المحيط (قرظ).

(٣) الهيثم: الصقر، مشبّهًا نفسه به.

(٤) البيتان في اختصار القدح (ص ١٥٩) والمغرب (ج ١ ص ٢٦٣).

(٥) في اختصار القدح: «يَرَوْنَ حيث مصابيحُ الدنانيرِ».

ولـه: [البسيط]

عـنـدي لفقدك أوجالٌ أَبِيْتُ بها كـأنـنـي واضـعٌ كفّي على قَبَسِ
ولا مـلامـة إنْ لـم أهـد نَـيِّـره حتى تمدَّ إليها كَفَّ مُقْتَبِسِ
قد كنت أُودع سِرَّ الشوق في طُرُسٍ لكنني خفتُ أنْ يعدو على الطُّرُسِ

وأنشد له أبو سَهْل شيخ دار الحديث بالقاهرة في إملائه: [الكامل]

قِفْ بالكثيب لغيرك التأنيبُ إنَّ الكثيبَ هَوًى لنا محبوبُ
يا راحلينَ لنا عليكمْ وقفةٌ ولكمْ علينا دَمْعُنا المسكوبُ
تُخْلَى الديارُ مِنَ المحبّة والهوى أبدًا وتعمرُ أضْلُعٌ وقلوب

وقال ارتجالاً في وصف فرس أصفر: [الوافر]

أطِرْفٌ فاتَ طَرْفِي أم شِهَابُ هفا كالبرقِ ضَرَّمه التهابُ
أعارَ الصبحُ صَفْحَتَهُ نقابًا ففرَّ به وصَحَّ له النقاب
فمهما حُثَّ خالَ الصبحَ وافى ليطلبَ ما استعارَ فما يُصَابُ
إذا ما انقضَّ كَلَّ النجمُ عنه وضَلَّتْ عن مسالكه السحابُ
فيا عجبًا له فضلُ الدراري فكيف أذال أربَعَه التراب
سَلِ الأرواحَ عن أقصى مَدَاه فعند الريح قد يُلْقَى الجوابُ

وقال أبو عمر الطلمنكي: دخلت مُرْسِية، فتشبّثَ بي أهلُها يسمعون[1] عليّ الغريب المصنّف، فقلت: انظروا مَنْ يقرأ لكم، وأمسكت أنا كتابي، فأتَوْني برجل أعمى يُعْرف بابن سيده، فقرأه عليَّ من أوّله إلى آخره، فعجبت من حفظه، وكان أعمى ابن أعمى.

وابنُ سيده المذكورُ هو أبو الحسن علي بن أحمد بن سيده، وهو صاحب كتاب «المحكم».

ومن نظمه مِمّا كتب به إلى ابن الموفّق[2]: [الطويل]

أَلاَ هل إلى تقبيلِ راحتك اليُمْنى سبيلٌ فإنَّ الأمنَ في ذاك واليُمْنا

ومنـها[3]:

(١) في طبعة دار صادر: «يسمعوا».
(٢) هذا البيت مطلع قصيدة ورد منها عشرة أبيات في الجزء الخامس.
(٣) لم يرد هذا البيت ضمن الأبيات العشرة المشار إليها في الحاشية السابقة.

ضَحَيتُ فهل في بَرْدِ ظِلِّكَ نومةٌ   لذي كَبِدٍ حَرَّى وذي مُقْلَةٍ وَسْنَى

وتوفي ابن سيده المذكور سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وعمره نحو الستين، رحمه الله تعالى!

ومن حكاياتهم في حبِّ العلم أنَّ المظفر بن الأفطس صاحبَ بَطَلْيَوْس كان كما قال ابن الأبَّار كثير الأدب، جمّ المعرفة، محبًا لأهل العلم، جمَّاعةً للكتب، ذا خزانة عظيمة، لم يكن في ملوك الأندلس من يفوقه في أدب ومعرفة، قاله ابن حيان.

وقال ابن بسام[(١)]: كان المظفر أديب ملوك عصره غيرَ مدافَع ولا منازع، وله التصنيف الرائق، والتأليف الفائق، المترجم بـ «التذكرة» والمشتهر أيضًا اسمه بالكتاب المُظَفَّري[(٢)]، في خمسين مجلدًا، يشتمل على فنون[(٣)] وعلوم من مغازٍ وسِيَر ومَثَلٍ وخَبَرٍ وجميع ما يختصّ به علم الأدب، أبقاه للناس[(٤)] خالدًا، وتوفي المظفر سنة ستين وأربعمائة.

وكان يحضر العلماء للمذاكرة، فيفيد ويستفيد، رحمه الله تعالى!

ومن التآليف الكبار لأهل الأندلس كتاب «السماء والعالم»[(٥)] الذي ألّفه أحمد بن أبان صاحب شرطة قرطبة، وهو مائة مجلّد، رأيت بعضه بفاس، وتوفي ابن أبان سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة، رحمه الله تعالى!.

ولأهل الأندلس دُعَابة وحلاوة في محاوراتهم[(٦)]، وأجوبة بديهية مسكتة، والظَّرْفُ فيهم والأدب كالغريزة، حتى في صبيانهم ويهودهم، فضلاً عن علمائهم وأكابرهم.

ولنذكر جملة من ذكر الجلّة فنقول:

حكي عن عالم ألمَرِيّة القاضي أبي الحسن مختار الرعيني، وكان فيه حلاوة ولَوْذَعية

---

(١) الذخيرة (ق ٢ ص ٦٤٠ ـ ٦٤١).
(٢) في الذخيرة: «والمشتهر اسمه أيضًا بـ «كتاب المظفر».
(٣) في الذخيرة: «على علوم وفنون».
(٤) في المصدر نفسه: «أبقاه في الناس».
(٥) قال في جذوة المقتبس (ص ٤٠٥) في ترجمة أحمد بن أبان بن سيد: لابن سيد كتاب معروف بـ «كتاب العالم» نحو مائة مجلد. وانظر أيضًا بغية الملتمس (ص ٥٣٨).
(٦) في طبعة ليدن: «مجاوراتهم» بالجيم المعجمة، وهو تحريف.

ووقار وسكون، أنه استدعاه يومًا زُهَير ملك ألمَرِيّة من مجلس حكمه، فجاءه يمشي مشية قاضٍ قليلاً قليلاً، فاستعجله رسول زهير، فلم يعجل، فلمّا دخل عليه قال له: يا فقيه، ما هذا البطء؟ فتأخّر إلى باب المجلس، وطلب عصا، وشمّر ثيابه، فقال له زهير: ما هذا؟ قال: هذا يليق باستعجال الحاجب لي، فوقع في خاطري أنه عزلني عن القضاء وولاّني الشرطة، فضحكَ زهير واستحلاه ولم يعد إلى استعجاله.

وهذا القاضي هو القائل ـ وقد دخل حَمَّامًا فجلس بإزائه عاميٌّ أساء الأدب عليه ـ: [الطويل]

أَلاَ لُـعِـنَ الـحـمّـامُ دارًا فـإنـه ... سَوَاءٌ به ذو العلم والجهلِ في القَدْرِ
تـضـيـعُ بـه الآدابُ حـتـى كـأنـهـا ... مصابيحُ لم تنفق على طلعةِ الفجرِ

ورُوي أنَّ المقرىء أبا عبد اللَّه محمد بن الفراء إمام النحو واللغة في زمانه ـ وكانت فيه فطنة لوذعيّة ـ أبطأ خروجُه يومًا إلى تلامذته، فطال بهم الكلام في المذاكرة فقال أحدهم نصف بيت، وكان فيهم وَسيم من أبناء الأعيان، وكان ابن الفراء كثير المَيل إليه، فلمّا خرج قال له: يا أستاذ، عملتُ نصف بيت، وأريد أن تتمّه، فقال: ما هو؟ فقال: [المتقارب]

أَلاَ بـأبـي شـادنٌ أوطَـفُ

فقال الأستاذ ابنُ الفراء بديهًا: [المتقارب]

إذا كـان وَرْدُكَ لا يُـقْـطَـفُ ... وثَـغْـرُ ثَـنَـايـاك لا يُـرْشَـفُ
فأيُّ اضطرارٍ بنا أن نقولَ: ... أَلا بـأبـي شـادِنٌ أوطَـف

وهذا ابن الفراء هو القائل(١): [مجزوء الخفيف]

قِـيـل لـي: قـد تـبـدَّلاَ ... فـاسْـلُ عنه كـمـا سَـلاَ
لـك سـمـعٌ ونـاظـرٌ ... وفـؤادٌ فـقـلـت: لا
قـيـل: غـالٍ وصـالُـه ... قلت: لَـمّـا غلا حلا
أيُّـهـا الـعـاذلُ الـذي ... بـعـذابـي تـوكّـلا
عُـذْ صـحـيحًا مسلّمًا ... لا تـعـيّـرْ فـتُـبْـتَـلَـى

(١) الأبيات في زاد المسافر (ص ١٠٠).

وتذكَّرْتُ بهذا ما أنشده لسانُ الدين في كتابه، «روضة التعريف، بالحب الشريف»: [مجزوء الخفيف]

قلتُ للساخرِ الذي رَفَعَ الأنفَ واعتلى[1]
أنتَ لم تأمن الهوى لا تعيِّر فتُبْتَلى

ومن بديع نظم ابن الفراء المذكور قوله[2]: [المتقارب]

شكوتُ إليه بفرطِ الدَّنَفْ فأَنْكَرَ مِنْ قِصّتي ما عَرَفْ
وقال الشهودُ على المُدَّعي وأمّا أنا فعليَّ الحلفْ
فجئنا إلى الحاكم الألمعيِّ قاضي المجون وشيخِ الظُّرَفْ
وكان بصيرًا بشَرْعِ الهوى ويعلم من أين أُكْلُ الكَتِفْ
فقلتُ له اقْضِ ما بيننا فقال الشهودُ على ما تَصِفْ
فقلت له شهِدَتْ أدمُعِي فقال إذا شهدتْ تنتصفْ
ففاضتْ دموعيَ من حينها كفيضِ السحابِ إذا ما يَكِفْ
فحرّك رأسًا إلينا وقال دعوا يا مَهَاتيكُ هذا الصلفْ
كذا تقتلون مَشاهيرنا إذا مات هذا فأين الخَلَفْ
وأوما إلى الوَرْدِ أن يُجْتَنَى وأوما إلى الرِّيقِ أن يُرْتَشَفْ
فلمّا رآه حبيبي معي ولم يختلف بيننا مختلفْ
أزالَ العِنادَ فعانَقْتُهُ كأنيَ لامٌ وحِبِّي أَلِفْ
فظَلْتُ أُعاتِبُهُ في الجفا فقال عَفا اللّهُ عَمّا سَلَفْ

وحُكي عن الزهري خطيب إشبيلية ـ وكان أعرج ـ أنه خرج مع ولده إلى وادي إشبيلية، فصادف[3] جماعة في مركب، وكان ذلك بقرب الأضحى، فقال بعضهم له: بكم هذا الخروف؟ وأشار إلى ولده، فقال له الزهري: ما هو للبيع، فقال: بكم[4] هذا التيس؟ وأشار إلى الشيخ الزهري، فرفع رجله العرجاء وقال: هو مَعِيب لا يُجْزِىء في الضحيّة، فضحك كل مَنْ حضر، وعجبوا من لطف خُلُقه.

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «فاعتلى».
(٢) القصيدة في زاد المسافر (ص ٩٩).
(٣) في طبعة ليدن: «فصادفه».
(٤) في الطبعة نفسها: «فبكم».

وركب مرّة هذا النهر مع الباجي يوم خميس، فلمّا أصبحا وصعد الزهري يخطب يوم الجمعة، والباجي حاضر قدّامَهُ، فنظر إليه الباجي وأومأ إلى محلّ الحَدَث، وأخرج لسانه، فجعل الزهري يلمس عصا الخطبة، يشير بالعصا إلى جوابه على ما قصد، رحمه اللّه تعالى!

ومَر العالم أبو القاسم بن وَرْد صاحب التآليف في علم القرآن والحديث بجَنَّة لأحد الأعيان فيها ورد، فوقف بالباب وكتب إليه: [الخفيف]

شاعرٌ قد أتاك[1] يبغي أبَاهُ   عندما اشتاقَ حُسْنه وشَذَاهُ
وهو بالباب مُصْغِيًا لجوابٍ   يرتضيه[2] النَّدَى فماذا تراهُ

فعندما وقف على البيتين علم أنه ابن وَرْد، فبادر من جنّته إليه، وأقسم في النزول عليه، ونَثَرَ من الورد ما استطاع بين يديه.

وحُكي أن أبا الحسين سليمان بن الطراوة نحويّ ألْمَرِية حضر مع ندماء، وإلى جانبه مَنْ أخذ بمجامع قلبه، فلمّا بلغت النوبة إليه استعفى من الشرب، وأبدى القطوب، فأخذ ابنُ الطراوة الجامَ من يده وشربها عنه، ويا بَرْدَهَا على كل كبده، ثم قال بديهًا: [السريع]

يشربُها الشيخُ وأمثالُهُ   وكلُّ مَنْ تُحْمَدُ أَفْعالُهُ
والبَكْرُ[3] إن لم يستطعْ صَولَةً   تُلْقَى على البازل أثقالُهُ

ودخل عليه وهو مع ندمائه غلام والكأس[4] في يده فقال: [الوافر]

أَلاَ بأبي وغيرِ أبي غزالٌ   أتى وبراحِهِ للشرب راحْ
فقال مُنَادمي في الحسن صِفْهُ   فقلتُ الشمسُ جاء بها الصباحُ

وقال فيمن جاء بالراح: [الطويل]

ولَمّا رأيتُ الصبحَ لاحَ بخدِّه   دعوتُهُمْ رفقًا تَلُحْ لكم الشمسُ
وأطلعها مثلَ الغزالةِ وهو كالـ   ـغزال فَتَمَّ الطيبُ واكتملَ الأُنْسُ

---

(١) في طبعة دار صادر: «قد عراك».
(٢) في طبعة بولاق: «يرتضي بالندى».
(٣) البَكْرُ، بفتح الباء: الفتيُّ من الجمال.
(٤) في طبعة دار صادر: «غلام بكأس في..».

وقال، وقد شرب ليلة في القمر: [الطويل]

شربْنا بمصباح السماءِ مُدَامةً بشاطي غديرٍ والأزاهرُ تَنفَحُ
وظلَّ جَهُولٌ يرقبُ الصبحَ ضلَّةً ومن أكؤس[1] لم يبرحِ الليلُ يُصْبحُ

وكان[2] أبو عبد الله ابن الحاج المعروف بِمَدْغَلِّيس صاحب الموشّحات يشرب مع ندماء ظراف في جنّة بهجة، فجاءتهم ورقة من ثقيل يرغب في الإذن، وكان له ابن مليح فكتب إليه مدغليس: [مجزوء الرمل]

سيدي هذا مكانٌ لا يُرى فيه بِلِحْيَهْ
غيرَ تَيسٍ مصفعانيّ له بالصَّفْعِ كِدْيَهْ
أولُه ابنٌ شافعٌ فيه فَيُلْقَى بالتَّحِيَّهْ
أيها القابل أقبل[3] سائقًا تلك المَطِيَّهْ

وكان مَدْغَلِّيس هذا مشهورًا بالانطباع والصنعة في الأزجال، خليفة ابن قزمان في زمانه، وكان أهل الأندلس يقولون: ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء، ومَدْغَلِّيس بمنزلة أبي تمام، بالنظر إلى الانطباع والصناعة، فابن قزمان ملتفتٌ إلى المعنى، ومَدْغَلِّيس ملتفت للفظ، وكان أديبًا مُعْربًا لكلامه مثل ابن قزمان، ولكنه لَمّا رأى نفسه في الزجل أنجب اقتصر عليه.

ومن شعره قوله[4]: [المجتث]

ما ضَرّكُمْ لو كتبتُمْ حَرْفًا ولو باليَسارِ
إذ أنتُمُ نورُ عيني ومطلبي واختياري

وقال الخطيب الأديب النحوي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الفراء ـ المذكور قبل هذا بقريب ـ الضرير، في صبيّ كان يقرأ عليه النحو، اسمه حسن، وهو في[5] غاية

---

(١) في الطبعة نفسها: «أكؤسي».

(٢) كلمة «أبو» ساقطة من طبعة عبد الحميد. وهو أحمد بن الحاج، وترجمته في المغرب (جـ ٢ ص ٢١٤، ٢٢٠).

(٣) في طبعة دار صادر: «بادر».

(٤) البيتان في المغرب (جـ ٢ ص ٢١٤) دون تغيير عمّا هنا.

(٥) كلمة «في» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

الجمال ـ بعد أن سأله: كيف تقول إذا تَعَجَّبْتَ من حسنك؟ فقال أقول: ما أحسني ـ [السريع]

يا حَسَنًا ما لَكَ لم تُحْسِنِ   إلى نفوسٍ بالهوى مُتْعَبَهْ
رقمت بالورد وبالسوسن   صفحة خدّ بالسنا مُذْهَبَهْ
وقد أبى صدغك أن أجتني   منه وقد ألدغني عقربَهْ
يا حُسْنَهُ إذ قال ما أَحْسني   ويا لذاكَ اللفظِ ما أَعْذَبَهْ
ففوّق السهمَ ولم يُخْطِنِي   وإذ رآني مَيِّتًا أَعْجَبَهْ
وقال كم عاش وكم حَبَّنِي   وحُبُّهُ إيايَ قد عَذَّبَهْ
يرحمه اللَّه على أنني   قَتْلِي له لم أَدْرِ ما أَوجَبَهْ

وقد كان[١] ابن الفراء من فضلاء المائة السادسة، ذكره ابنُ غالب في «فرحة الأنفس في فضلاء العصر من الأندلس» وكان شاعرًا مجيداً، يُعَلِّمُ بألْمَرِية القرآن والنحو واللغة، وكانت فيه فطنة ولَوْذَعِية، وذكاء وألمعيّة، خرق بها العوائد.

وحُكي أنَّ قاضي ألْمَرِية قبل شهادته في سَطْل ميزه في حمام باللمس، واختبره في ذلك بحكاية طويلة.

وذكره صفوان في «زاد المسافر» ووصَفه بالخطيب.

وجَدُّه القاضي أبو عبد الله بن الفراء مشهور بالصلاح والفضل والزهد، ومن العجائب أنه ليس له ترجمة في «المغرب»، ولَمَّا كتب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى أهل ألمرية يطلب منهم المعونة جاوبه بكتابه المشهور الذي يقول فيه [ما صورته:][٢] فما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخّري عن ذلك، وأنّ الباجي، وجميع القضاة والفقهاء بالعُدْوَة والأندلس أفتَوا بأنّ عمر بن الخطاب، رضي اللَّه تعالى عنه، اقتضاها، وكان صاحب رسول اللَّه ﷺ، وضجيعه في قبره، ولا يُشَكُّ في عدله، فليس أمير المسلمين بصاحب رسول اللَّه ﷺ، ولا بضجيعه في قبره، ولا من لا يُشَكُّ في عدله، فإن كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمنزلته في العدل، فاللَّه تعالى سائلهم عن تقلّدهم فيك، وما اقتضاها عمر، رضي اللَّه تعالى عنه، حتى دخل مسجد رسول اللَّه ﷺ وحَلَف أنْ ليس

(١) في طبعة دار صادر: «وهذا ابن الفراء..».
(٢) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر.

عنده درهم واحد في بيت مال المسلمين يُنفقه عليهم، فلتدخل[1] المسجد الجامع هنالك بحضرةٍ منْ أهل العلم وتَحْلِف أنْ ليس عندكَ درهم واحد ولا في بيت مال المسلمين، وحينئذ تستوجب ذلك، والسلام، انتهى.

وأمّا ابن الفراء الأخفش بن ميمون[2] الذي ذكره الحِجَاري في «المسهب» فليس هو من هؤلاء، بل هو من حصن القبذاق[3] من أعمال قلعة بني سعيد، وتأدّب في قرْطُبة، ثم عاد إلى حضرة غَرْنَاطة، واعتكف بها على مدح وزيرها اليهودي، وهو القائل[4]: [البسيط]

صابحْ مُحَيّاه تَلْقَ النُّجْحَ في الأَمَلِ ... وانظرْ بنادِيْهِ حُسْنَ الشمسِ في الحملِ[5]

ما إنْ يُلاقي خليلٌ فيه مِنْ خَلَلٍ ... وكلّما حال صرفُ الدهرِ لم يَحُلِ

وكان يهاجي المنفتل شاعر إلبيرة، ومن هجاء[6] المنفتل له قوله[7]: [مجزوء الرمل]

لابن ميمونَ قريضٌ ... زمهريرُ البَرْدِ فيهِ

فإذا ما قالَ شِعْرًا[8] ... نَفِقَتْ سوقُ أبيهِ

ولَمّا وفد على ألْمَرية مدح رفيع الدولة بن المعتصم بن صمادح بشعر، فقال له بعض مَنْ أراد ضرّه: يا سيدي، لا تقرب هذا اللعين، فإنه قال في اليهودي: [الطويل]

ولكنَّ عندي للوفاءِ شريعةً ... تركتُ بها الإسلامَ يبكي على الكُفْرِ

فقال رفيع الدولة: هذا واللّه هو الحرّ الذي ينبغي أن يُصْطَنع، فلولا وفاؤه ما بكى

---

(١) في طبعة دار صادر: «فتدخلْ».

(٢) هو الأخفش بن ميمون القبذاقي؛ أصله من القبذاق، وتأدّب في قرطبة، وله أمداح في ابن نغرالة اليهودي، وزير بني زيري بغرناطة. المغرب (جـ ٢ ص ١٨٢).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «الغيذاق».

(٤) البيتان في المغرب (جـ ٢ ص ٢٢٣) منسوبين إلى أبي إسحٰق إبراهيم بن حكم، كاتب باديس بن حبوس بن زيري، صاحب غرناطة.

(٥) في المغرب: «والحَمَلِ».

(٦) في طبعة ليدن: «ومن هجائه».

(٧) البيتان في الذخيرة (ق ١ ص ٧٦٠) وتقدم البيت الأول في هذا الجزء (ص ٢٩٧). وهكذا ورد البيت الثاني في المغرب (جـ ٢ ص ١٨٤).

(٨) رواية صدر البيت في الذخيرة هي:

فإذا بَيَّتَ بَيْتًا

كافرًا بعد موته، وقد وجدْنا في أصحابنا من لا يَرْعَى مسلمًا في حياته. وقال [1] فيه المنفتل[2]: [المجتث]

إن كنتَ أخْفَشَ عَينٍ   فإنَّ قَلْبَكَ أعمى
فكيف تنثرُ نَثْرًا   وكيف تَنْظِمُ نَظْمَا

ومن شعر الأخفش المذكور قولُه: [الطويل]

إذا زرتكمْ غبًّا فلم أُلْقَ بالبرِّ   وإنْ غبتُ لم أُطْلَبْ ولم أجْرِ في الذِّكْرِ
فإني إذنْ أولى الورى بفراقِكُمْ   ولا سيّما بعد التجلُّدِ والصَّبْرِ

ولَمّا وفد على المنصور بن أبي عامر الشاعرُ المشهور أبو عبد اللّه محمد بن مسعود الغَسّاني البجاني[3] اتُّهم برهق في دينه، فسجنه في المُطْبِق مع الطليق القرشي، والطليق غلامٌ وَسِيم، وكان ابن مسعود كَلِفًا به يومئذ وفيه يقول[4]: [البسيط]

غدوتُ في السجن خِدْنًا لابن يعقوبِ   وكنتُ أحسبُ هذا في التكاذيبِ
رامت عُدَاتِيَ تَعْذيبي وما شَعَرَتْ   أنَّ الذي فعلوه ضِدُّ تعذيبي[5]
راموا بِعادي عن الدنيا وزُخْرُفها   فكان ذلك إدنائي وتقريبي
لم يَعْلَموا أنَّ سجني لا أبا لَهُمُ   قد كان غايةَ مأمولي[6] ومرغوبي

وسجن ابن مسعود[7] والطليق قبله، ووقع بينه وبين الطليق، وعاد المدح هجاء، فقال فيه[8]: [السريع]

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «فقال».
(٢) البيتان في المغرب (جـ ٢ ص ١٨٤) دون تغيير عمّا هنا.
(٣) في أصول النفح: «البجالي»، والتصويب عن جذوة المقتبس (ص ٩٢) وبغية الملتمس (ص ١٣١) والذخيرة (ق ١ ص ٥٦٢). وفي هذه المصادر أنه من بجانة، وكان شاعرًا مشهورًا، كان في حدود الأربعمائة.
(٤) الأبيات، عدا البيت الأول، في الذخيرة (ص ٥٦٣).
(٥) في الذخيرة: «رأت عداتيَ... أنّ الذي فَعَلَته..».
(٦) في الذخيرة: «آمالي».
(٧) في طبعة دار صادر: «وانطلق ابن مسعود والطليق قبله..». وفي الذخيرة (ص ٥٦٤): «وابن مسعود هو القائل في سجنه، وقد انطلق الطليق عنه..».
(٨) الأبيات في الذخيرة (ص ٥٦٥).

ولـي جـلـيـسٌ قُـرْبُـهُ مـنِّـي بُـعْـدُ الأمـانـي كـذِبًـا عـنِّـي[1]
قد قَذِيَتْ مِنْ لحظِهِ مُقْلتي وقُـرِّحَـتْ مـن لـفـظـه أذنـي
هوّن[2] لي في السجن مَنْ قُرْبُهُ أشدُّ في السجن مِنَ السجن
لـو أنَّ خَـلْـقًـا كـان ضِـدًّا لـه زاد علـى يُوسُفَ في الـحُسْنِ
إذا ارتمى فكريَ في وجهه[3] سـلَّـط إبْـطَـيـهِ عـلـى ذهـنـي
كـأنـمـا يَـجْـلِـسُ مـن ذا وذا بـيـن كـنـيـفـيـن مـن الـنَّـتْـنِ

وقال يخاطب المنصور من السجن: [السريع]

دَعَوتُ لَمَّا عِيلَ صَبْري فهلْ يسمعُ دَعْوايَ المليكُ الحليمْ
مـولايَ مـولاي، ألاَ عَـطْـفَـةٌ تَذْهَبُ عني بالعذابِ الأليمْ
إن كنتُ أضمرتُ الذي زَخْرَفُوا عنّي فَدَعْني للقديرِ الرحيمْ
فـعـنـده نَـزَّاعَـةٌ لـلـشَّـوَى وعنده الفردوسُ ذاتُ النعيمْ

وركب بعض أهل ألْمَرِيَّة في وادي إشبيلية، فمرَّ على طاقة من طاقات شنتبوس، وهو يُغَنِّي: [مخلع البسيط]

خـلِّـيـنِ[4] من واذ ومـن قـوارب ومـن نـزاهـا فـي شـنـتـبـوسْ
غَـرْس الـحـبـقِ الـذي فـي داري أحـبّ عـنـدي مـن الـعـروسْ[5]

فأخرجت رأسها جارية وقالت له: من أي بلد[6] أنت يا من غَنَّى؟ فقال: من ألمرية، فقالت: وما أعجبك في بلدك حتى تفضّله على وادي إشبيلية وهو بوجه مالح وقَفًا أحرش؟ وهذا من أحسن تعييب، وذلك أنها أتته بالنقيض من إشبيلية، فإنّ وجهها النهر العذب، وقفاها بجبال الرحمة أشجار التين والعنب، لا تقع العين إلاّ على خضرة في أيام الفرج، وأين إشبيلية من ألمرية. وفي ألمرية يقول السميسر شاعرها: [الخفيف]

---

(١) في الذخيرة: «كلّها عنّي».
(٢) في طبعة دار صادر: «راهنني في..». وفي الذخيرة: «نادمني من..».
(٣) رواية صدر البيت في الذخيرة هي:

إذا اشـتـهـى قـطـعـيَ فـي حُـجَّـة

(٤) في طبعة عبد الحميد: «خلني».
(٥) العروس: من متنزهات إشبيلية.
(٦) في طبعة دار صادر: «من أيّ البلاد..».

بِئْسَ دارُ المريةِ اليومَ دارًا ... ليس فيها لساكنٍ ما يُحَبُّ
بَلْدَةٌ لا تُمَارُ إلاَّ بريحٍ ... ربّما قد تَهُبُّ أو لا تَهُبُّ

يشير إلى أنَّ مَرَافقها مجلوبة، وأن الميرة تأتيها في البحر من بَرِّ العُدْوَة، وفيها يقول أيضًا: [المجتث]

قالوا المريةُ فيها ... نظافةٌ قلتُ إيْهِ
كأنها طَسْتُ تِبْرٍ ... ويُبْصَقُ الدمُ فيهِ

وحكى مؤرخ الأندلس أبو الحجاج[1] البياسي، أنه دخل عليه في مجلس أُنس شيخٌ ضَخْم الجثّة مستثقل، فقال البياسي[2]: [مجزوء الخفيف]

اسْقِني الكأسَ صاحِيَهْ[3] ... ودَعِ الشيخَ ناحيَةْ

فقال الكاتب أبو جعفر أحمد بن رضي: [مجزوء الخفيف]

إنْ تكنْ ساقيًا له ... ليس تَرْوِيه ساقِيَةْ

وحكي أنَّ العالي إدريس الحمودي لَمّا عاد إلى ملكه بمالَقَةَ وبّخ قاضيها الفقيه أبا علي بن حَسُّون[4]، وقال له: كيف بايعت عدويّ مِنْ بعدي وصحبته؟ فقال: وكيف تركت أنت ملكك لعدوّك؟ فقال: ضرورة القدرة حملتني على ذلك، فقال: وأنا أيضًا حصلت في يد مَنْ لا يسعني[5] إلاَّ طاعته.

ومن نظم القاضي المذكور: [السريع]

رفعتُ مِنْ دهري إلى جائر ... ويبتغي العَدْلَ بأحكامي
أضحتْ به أملاكه مثل أشـ ... ـكال خيالٍ طَوْعَ أيامي
هذا لِمَا أبرمَ ذا ناقضٌ ... كأنهمْ في حكم أحلامِ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «أبو العباس».
(٢) هذا البيت والذي يليه في المغرب (جـ ١ ص ٤٢٧) في ترجمة أبي جعفر أحمد بن رضيّ.
(٣) هكذا في المغرب، وفي طبعة دار صادر: «ضاحية».
(٤) أبو علي الحسن بن حسون عين مالقة وواسطة عِقْدها، كان من أئمة العلماء، ولي قضاء مالقة في مدة العالي بن يحيىٰ بن حمود الفاطمي. المغرب (جـ ١ ص ٤٣٠).
(٥) في طبعة ليدن: «لا تسعني».

وكان الفقيه العالم أبو محمد عبد الله الوحيدي[1] قاضي مالَقَةَ جرى - كما قال الحِجَاري - في صباه طَلَقَ الجموح ولم يزل يُعَاقب بين غَبُوق وصَبُوح، إلى أن دعاه النذير، فاهتدى منه بسراج منير، وأحلَّته تلك الرجعة، فيما شاء من الرفعة.

وقال بعض مُعَاشريه: كنت أُماشيه زمن الشباب، فكلَّما مررْنا على امرأة يدعو حسنها وشكلها إلى أن تحير فيه[2] الألباب، أمال إليها طَرْفَه، ولم ينح عنها صرفه، ثم سايرْتُه بَعْدُ لَمَّا رَجَعَ عن ذلك واقتصر، فرأيته يَغُضُّ البَصَر، ويخلي الطريق معرضًا إلى ناحية، متى زاحمته امرأة ولو حكت الشمس ضاحية، فقلت له في ذلك، فقال: [الخفيف]

ذاك وَقْتٌ قضيتُ فيه غرامي ... من شبابي في سترة الإظلامِ
ثم لَمَّا بَدَا الصباحُ لعيني ... مِنْ مشيبي وَدَّعْتُه بسلامِ

ومن شعره في صباه: [البسيط]

لا ترتجوا رَجْعتي باللوم عن غَرَضي[3] ... ولتتركوني وصَيدي فرصةَ الخلَسِ
طَلَبْتُمُ رَدَّ قلبي عن صبابته ... ومن يردُّ عنانَ الجامح الشرسِ

ولَمَّا أقصر باطله، وعُرِّيَتْ أفراسُ الصبا ورواحله[4]، قال[5]: [الطويل]

ولَمَّا بَدَا شَيبي عَفَفْتُ عن الهوى[6] ... كما يهتدي حِلْفُ السُّرَى بنجومِ
وفارقْتُ أشياعَ الصبابةِ والطِّلا ... ومِلْتُ إلى أهلَيْ عُلاً وعلومِ

ولَمَّا تألَّبَ بنو حَسُّون على القاضي الوحيدي المذكور صادر عنه العالم الأصولي أبو عبد الله بن الفخار، وطلع في حقِّه إلى حضرة الإمامة مراكش، وقام في مجلس أمير

---

(١) ترجمة القاضي أبي محمد عبد الله بن عمر بن أحمد الوحيدي في الصلة (ص ٤٤٨) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٠٤) والمغرب (جـ ١ ص ٤٣١) وبغية الملتمس (٣٣٩) وفيه أنه عبد الله بن أحمد بن عمر القيسي، المعروف بابن الوحيد، وأن وفاته في سنة ٥٤٣ هـ.

(٢) كلمة «فيه» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٣) في طبعة عبد الحميد: «من غرضٍ».

(٤) هذا من قول زهير بن أبي سلمى في مطلع قصيدة في مدح حصن بن حذيفة بن بدر: [الطويل]

صَحَا القلبُ عن سلمى وأقصرَ باطِلُهْ ... وعُرِّيَ أفراسُ الصِّبا ورواحِلُهْ

ديوان زهير بن أبي سلمى (ص ٦٤).

(٥) البيتان في المغرب (جـ ١ ص ٤٣١).

(٦) في طبعة دار صادر وفي المغرب: «شيبي عطفتُ على الهدى».

المسلمين ابن تاشفين، وهو قد غصّ بأربابه، وقال: إنه لمقام كريم، نبدأ فيه بحمد الله على الدنوّ منه، ونصلّي على خيرة أنبيائه محمد الهادي إلى الصراط المستقيم، وعلى آله وصحابته نجوم الليل البَهِيم، أمَّا بَعْدُ، فإنا نحمد الله الذي اصطفاك للمؤمنين[1] أميرًا، وجعلك للدين الحنيفي نَصيرًا وظهيرًا، ونفزع إليك مِمّا دَهَمَنا في حِمَاك، ونبثُّ إليك ما لحقنا من الضيم ونحن تحت ظلِّ عُلاَك، ويأبى الله أن يُدهم من احتمى بأمير المسلمين، ويصاب بضيم من ادّرَعَ بحصنه الحصين، شكوى قمت بها بين يديك في حقّ أمرك الذي عضده مؤيّده، لتسمع منها ما تختبره برأيك وتنقده، وإنّ قاضيك ابن الوحيدي الذي قَدَّمْتَهُ في مالَقَةَ للأحكام، ورضيتَ بعَدْله فيمن بها من الخاصة والعوام، لم يزل يدلُّ على حسن اختيارك بحسن سيرته، ويُرْضِي الله تعالى ويرضي الناس بظاهره وسريرته، ما علمْنا عليه من سوء، ولا دَرَينا له موقفَ خِزْيٍ، ولم يزل جاريًا على ما يرضي الله تعالى ويرضيك ويرضينا إلى أن تعرّضت بنو حَسُّون إلى الطعن في أحكامه، والهدّ من أعلامه، ولم يعلموا أنّ اهتضام المقدَّم، راجعٌ على المقدِّم، بل جَمَحوا في لَجَاجهم فعموا وصمّوا، وفعلوا وأَمضوا ما به هَمُّوا: [الخفيف]

وإلى السُّحْبِ يرفع الكَفُّ من قد جَفَّ عنه مسيلُ عَينٍ ونهر

فملأ سمعه بلاغة أعقبت نصره ونصر صاحبه.

ومن شعر ابن الفخار المذكور، ويُعْرف بابن نصف الربض، قوله: [الطويل]

أمستنكَرٌ شيبُ المفارقِ في الصِّبا وهل يُنْكَرُ النورُ المفتح في الغصنِ
أَظُنُّ طِلاَبَ المجد شَيَّبَ مَفْرِقي وإن كنت في إحدى وعشرين من سنّي

وقوله: [المتقارب]

أَقِلَّ عتابك إنَّ الكريمَ يُجَازِي على حُبِّه بالقِلَى
وخَلِّ اجتنابك إنَّ الزمانَ يُمِرُّ بتكديره ما حَلاَ
وواصِلْ أخاك بعلاَّتِهِ فقد يُلْبَسُ الثوبُ بعد البِلَى
وقلْ كالذي قاله شاعرٌ نبيلٌ وحقّك أنْ تنبلا
إذا ما خليلٌ أسَا مَرَّةً وقد كان فيما مضى مجملا
ذكرتُ المقدَّمَ مِنْ فِعْلِهِ فَلَمْ يُفْسِدِ الآخِرُ الأوَّلاَ

(١) في طبعة دار صادر: «للمسلمين».

ولَمَّا وفد أبو الفضل ابن شرف[1] من بَرْجَة في زي تظهر عليه البداوة بالنسبة إلى أهل حضرة المملكة العظمى أنشده قصيدته القافية[2]: [الرمل]

مَطَلَ الليلُ بِوَعْدِ الفَلَقِ ... وتشكَّى النجمُ طُولَ الأَرَقِ
ضربتْ[3] ريحُ الصَّبا مِسْكَ الدُّجى ... فاستفادَ الروضُ طيبَ العَبَقِ
وألاحَ الفجرُ خَدًّا خَجِلاً ... جالَ مِنْ رَشْحِ النَّدَى في عَرَقِ
جاوزَ الليلَ إلى أَنْجُمِهِ ... فتساقَطْنَ سقوطَ[4] الورقِ
واستفاضَ الصبحُ فيه فَيْضَةً ... أَيْقَنَ النجمُ لها بالغَرَقِ
فانجلى ذاك السنا عن حَلَكٍ ... وانمحى ذاك الدجى عن شَفَقِ
بأبي بعد الكرى طَيفٌ سَرَى ... طارقًا عن سكنٍ لم يطرقِ
زارني والليلُ ناعٍ سدْفَهُ ... وَهْوَ مطلوبٌ بباقي الرَّمَقِ
ودموعُ الطَّلِّ تَمْرِيها[5] الصَّبا ... وجفونُ الروض غَرْقَى الحدقِ
فتأتَى في إزارٍ ثابتٍ ... وتثنَّى في وشاحٍ قَلِقِ
وتجلَّى وَجْهُهُ عن شعره ... فتجلَّى فَلَقٌ عن غَسَقِ
نَهَبَ الصبحُ دُجَى ليلتِهِ ... فحبا الخدَّ ببعضِ الشفقِ
سلبتْ عيناه حَدَّيْ سَيفِهِ ... وتحلَّى خدُّهُ بالرونقِ
وامتطى من طرفه ذا خَبَبٍ ... يلثم الغبراء إن لم يُعْنِقِ[6]
أشْوَس الطرف علته نخوةٌ ... يَتَهادى كالغزالِ الخَرِقِ
لو تمطَّى بين أسرابِ المَها ... نازعته في الحشا والعُنقِ
حسرت دهمته عن غرّةٍ ... كشفت ظلماؤها عن يَقَقِ[7]

---

(١) في طبعة بولاق: «شرف بن برجة». وقد مرّ التعريف بأبي الفضل ابن شرف والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.
(٢) في طبعة دار صادر: «قصيدته الفائقة وهي». وبعض هذه الأبيات في الذخيرة (ق ٣ ص ٨٦٩) والمغرب (جـ ٢ ص ٢٣٠).
(٣) في الذخيرة: «ومَرَتْ ريحُ..».
(٤) في الذخيرة: «سِقاط الورق».
(٥) تمريها: تسيل ماءها.
(٦) الخبب والعنق: ضربان من السير.
(٧) اليقق: البياض.

لبستْ أعطافُهُ ثوبَ الدجى وتحلّى خدُّه باليَقَقِ
وانبَرَى تحسبه أجْفَلَ عن لَسْعَةٍ أو جِنَّةٍ أو أوْلَقِ
مدركًا بالمهلِ ما لا ينتهي لاحقًا بالرفق ما لم يلحقِ
ذُو رضا مستترٍ في غضبِ ذو وقارٍ مُنْطَوٍ في خرق
وعلى خَدّ كعضبِ أبيضٍ أُذُنٌ مثلُ سنانٍ أزرق
كلّما نَصَّبَها مستمعًا بَدَتِ الشُّهبُ إلى مسترقِ
حاذرتْ منه شَبَا خَطِّيَّة لا يجيدُ الخَطَّ ما لم يمشق
كلّما شامتْ عِذارَيْ خَدِّهِ خفقتْ خَفْقَ فؤادٍ فَرِقِ[1]
في ذرا ظمآنَ فيه هَيَفٌ لم يَدَعْهُ للقضيبِ المورق
يتلقّاني بكفّ مصقعٍ يَقْتَفِي شَأْوَ عِذارٍ مفلقِ
إن يَدُرْ دورةَ طَرْفٍ يلتمِحْ أو يَجُلْ جولَ لسانٍ ينطقِ
عصفتْ ريحٌ على أنبوبِهِ وجرتْ أكْعُبُهُ في زئبق
كلّما قَلَّبَهُ باعَدَ عن مَتْنِ مَلْساء كمثلِ البَرَقِ
جمع السَّرْدُ قُوَى أزرارِها فتآخذْنَ بِعَهْدٍ مُوثق
أوجبت في الحرب من وَخْزِ القنا فتوارتْ حلقًا في حلق
كلّما دارتْ بها أبصارها صَوَّرَتْ منها مثالَ الحدق
زَلَّ عنه متنُ مصقولِ القوى يرتمي في مائها بالحرق
لو نضا وهو عليه ثَوبَهُ لَتَعَرَّى عن شُوَاظٍ[2] محرق
أكهبٌ[3] من هَبَوَاتٍ أخضرٌ مِنْ فِرِنْدٍ أحمرٌ مِنْ عَلَقِ
وارتوتْ صفحاهُ حتى خِلْته بِحَيَا مَن لِكَفَّيْكَ سُقِي
يا بني مَعْنٍ لقد ظَلَّتْ بكم شَجَرٌ لولاكُمُ لم تورقِ
لو سُقِي حسانُ إحسانَكُمُ ما بكى ندمانَهُ في جِلَّقِ[4]

---

(١) في طبعة دار صادر: «فؤادِ الفَرِقِ».
(٢) الشُّواظ: اللهب الذي لا دخان له.
(٣) الأكهب: الأغبر المائل للسواد.
(٤) حسان: هو حسان بن ثابت، شاعر الرسول، وقد كان قبل الإسلام شاعر الغساسنة في الشام. جلق: دمشق.

أو دنا الطائيُ مِنْ حَيِّكُمْ   ما حدا البرقَ لربعِ الأبرقِ
أبدعوا في الفضل حتى كلّفوا   كاهِلَ الأيامِ ما لم يُطِقِ

فلما سمعها المعتصم لعبت بارتياحه، وحَسَدَه بعضُ مَنْ حضر، وكان من جملة من حسده ابن أخت غانم، فقال له: من أي [البوادي][1] أنت؟ قال: أنا من الشرف في الدرجة العالية، وإن كانت البادية عليّ بادية، ولا أُنكر حالي، ولا أُعْرَفُ بخالي، فمات ابن أخت غانم خَجَلاً، وشَمِتَ به كلُّ مَنْ حضر.

وابن شرف المذكور هو الحكيم الفيلسوف أبو الفضل جعفر ابن أديب إفريقية أبي عبد اللّه محمد بن شرف الجُذَامي؛ وُلِدَ بِبَرْجَة، وقيل: إنه دخل الأندلس مع أبيه وهو ابن سبع سنين، ومن نظمه قوله: [الطويل]

رأى الحُسْنُ ما في خَدِّه من بدائعٍ   فأَعْجَبَهُ ما ضَمَّ منه وحَرَّفَا
وقال لقد أَلْفَيْتُ فيه نوادرًا   فقلْتُ له لا بل غريبًا مُصَنَّفا[2]

وقوله: [مخلع البسيط]

وقد وَقَفَ الشكرُ بي لديكُمْ   فلستُ أَقْوَى على الوفادَهْ
ونِلْتُ أقصى المُرادِ منكُمْ   فصِرْتُ أخشى من الزيادَهْ

وقوله: [المتقارب]

إذا ما عدوُّكَ يومًا سَمَا   إلى رتبةٍ لم تُطِقْ نَقْضَها
فقَبِّلْ ولا تأنَفَنْ كَفَّهُ   إذا أنتَ لم تستطعْ عَضَّها

وقوله، وقد تقدّم به على كل شاعر: [البسيط]

لم يبقَ للجَوْرِ في أيامهِمْ أثرٌ   غير[3] الذي في عيون الغِيدِ مِنْ حَوَرِ

وأوّل هذه القصيدة قوله:

قامتْ تجرُّ ذيول العَصْبِ والحِبَرِ[4]   ضعيفةُ الخَصْرِ والميثاقِ والنظرِ

---

(١) كلمة «البوادي» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٢) هنا تورية بكتابَيْ «النوادر» وكتاب «الغريب المصنّف».
(٣) في طبعة دار صادر: «إلاّ الذي..».
(٤) العَصْبُ: ضرب من الثياب المخططة. الحِبَرُ: ضرب من الثياب القطنية أو الكتانية المخططة، اشتهرت باليمن. لسان العرب (عصب) و (حبر).

وكان قد قَصَرَ أمداحَه على المعتصم، وكان يفد عليه في الأعياد وأوقات الفرج والفتوحات، فوفد عليه مرّة يشكو عاملاً ناقشه في قرية يحرث فيها، وأنشده الرائية التي مَرَّ مطلَعها إلى أن بلغ قوله:

لـم يـبـق لـلـجَـورِ ـ الـبـيـت

فقال له: كم في القرية التي تحرث فيها؟ فقال: فيها نحو خمسين بيتًا، فقال له: أنا أسوّغُك جميعها لهذا البيت الواحد، ثم وقّع له بها، وعزل عنها نظر كلِّ والٍ.

وله ابن فيلسوف شاعر مثله، وهو أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل[1] المذكور، وهو القائل: [الخفيف]

وكـريـمٍ أجـارنـي مـن زمـانٍ لم يكنْ مِنْ خطوبه ليَ بُدُّ
مـنـشـدٍ كـلّـمـا أقـولُ تـنـاهـى ما لمن يبتغي المكارمَ حَدُّ

وابن أخت غانم هو العالم اللغوي أبو عبد الله محمد بن معمر[2]؛ من أعيان مالَقة، متفنّن في علوم شتّى، إلاّ أنَّ الغالب عليه علم اللغة، وكان قد رَحَل من مالَقَةَ إلى ألْمَرِية، فحلَّ عند ملكها المعتصم بن صُمادح بالمكانة العلية، وهو القائل في ابن شرف المذكور[3]: [الكامل]

قُولُوا لِشَاعِرِ بَرْجَةٍ هل جاء مِنْ أرضِ العراقِ فحاز طَبْعَ البُحْتري
وافـى بـأشـعـارٍ تَـضِـجُّ بِـكَـفِّـهِ وتقولُ: هل أُعْزَى لمن لم يَشْعُرِ
يـا جـعـفـرًا، رُدَّ الـقـريـضُ لأهْـلِهِ واتـرُكْ مـبـاراةً لـتـلـك الأبْـحُـرِ
لا تَـزْعَـمَـنْ مـا لـم تـكـنْ أهـلاً له هـذا الـرُضـابُ لـغـيـر فـيـك الأبْـخَـرِ

وذكره ابن الْيَسَع في معربه[4] وقال: إنه حدثه بداره في مالقة وهو ابن مائة سنة، وأخذ عنه عام أربعة وعشرين وخمسمائة، وله تآليف منها «شرح كتاب النبات» لأبي حنيفة الدِّينَوَرِي، في ستين مجلّدًا، وغير ذلك.

---

(١) ترجمة أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل في المغرب (جـ ٢ ص ٢٣٢) والمطرب (ص ٧١).

(٢) ترجمة ابن أخت غانم في المغرب (جـ ١ ص ٤٣٣) وبغية الوعاة (ص ١٠٦) والحركة اللغوية في الأندلس (ص ٢٦٢).

(٣) الأبيات في المغرب دون تغيير عمّا هنا.

(٤) في طبعة عبد الحميد: «مغربه» بالغين المعجمة.

وغانم خاله الذي يُعْرف به هو الإمام العالم غانم المخزومي، نُسب إليه لشهرة ذكره، وعُلُوّ قدره.

ولَمَّا قرأ العالم الشهير أبو محمد بن عبدون في أول شبابه على أبي الوليد بن ضابط النحوي المالقي، جرى بين يديه ذكر الشعر، وكان قد ضجر منه، فقال: [المجتث]

الشعرُ خُطَّةُ خَسْفِ[1]

فقال ابن عبدون معرِّضًا حين كان مُسْتَجْديًا بالشعر، وكان إذ ذاك شيخًا: [المجتث]

لكلِّ طالبِ عُرْفِ[2]

للشيخِ عَيبَةُ عَيبِ ... وللفتى ظَرْفُ ظَرْفِ

وابن ضابط هو القائل في المظفر بن الأفطس: [الطويل]

نَظَمْنا لكَ الشعرَ البديعَ لأننا ... عَلِمْنا بأنَّ الشعر عندكَ ينفقُ
فإن كنتَ منّي بامتداحٍ مظفَّرًا ... فإنيَ في قصدي إليك مُوَفَّقُ

ودخل غانم المخزومي السابق ذكره، وهو من رجال الذخيرة، على الملك ابن حَبُوس[3] صاحب غَرْنَاطة، فوسّع له على ضِيق كان في المجلس، فقال[4]: [البسيط]

صَيِّرْ فؤادَكَ للمحبوب منزلةً ... سَمُّ الخِيَاط مجالٌ للمُحِبِّينِ
ولا تسامحْ بغيضًا في معاشرة ... فقلّما تَسَعُ الدنيا بَغِيضَينِ

وهو القائل: [الطويل]

وقد كنت أغدو نحو قطرك فارحًا ... فها أنا أغدو نحو قبرك ثاكلا
وقد كنت في مَدْحِيكَ سحبانَ وائلٍ ... فها أنا من فرط التأسّف باقلا[5]

وله أيضًا[6]: [السريع]

---

(١) سيأتي هذا الشطر في الجزء الخامس منسوبًا إلى المتوكل بن الأفطس.
(٢) سيأتي هذا الشطر في الجزء الخامس.
(٣) ابن حبوس: هو باديس بن حبوس، وقد حكم غرناطة من عام ٤٢٩ هـ إل عام ٤٦٧ هـ.
(٤) تقدم هذان البيتان في هذا الجزء (ص ٢٣٣) وسيردان في هذا الجزء أيضًا (ص ٤٠١) وفي الجزء الخامس.
(٥) سحبان وائل: مضرب المثل في الفصاحة، وباقل: مضرب المثل في العيّ والفهاهة.
(٦) سيرد هذان البيتان في الجزء الخامس والجزء الثامن باختلاف يسير عمّا هنا.

الصبرُ أولى بوَقارِ الفَتَى — من ملك يَهتك سِتْرَ الوَقارْ
مَنْ لزم الصبرَ على حالةٍ — كان على أيامه بالخيارْ

وكتب أبو علي الحسن[1] بن الغليظ إلى صاحبه أبي عبد الله بن السراج، وقد قدم من سفر[2]: [البسيط]

يا من أُقَلِّبُ طَرْفي في محاسنه — فلا أرى مِثْلَه في الناس إنسانا
لو كنتَ تعلمُ ما لُقِّيتُ بَعْدَكَ ما — شربْتَ كأسًا ولا استحسنْتَ رَيحانا[3]

فورد عليه من حينه وقال: أردت مجاوبتك، فخفْتُ أن أُبطىء، وصنعت الجواب في الطريق: [البسيط]

يا من إذا ما سَقَتْني الراحَ راحتُهُ — أهدتْ إليَّ بها رَوْحًا وريحانا
من لم يكن في صباحِ السبتِ بأخذها — فليس عندي بحكم الظرفِ إنسانا
فكن على حُسْنِ هذا اليوم مصطبحًا — مذاكرًا حَسَنًا فيه وإحسانا
وفي البساتين إنْ ضاق المحلُّ بنا — مَنْدُوحةٌ لا عدمنا الدهرَ بستانا

ووفد أبو علي الحسن بن كسرين المالقي[4] الشاعر المشهور على ملك إشبيلية السيد أبي إسحٰق إبراهيم ابن أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي، فأنشده قصيدة طار مطلعها في الأقطار، كلَّ مَطَار، وهو: [الكامل]

قَسَمًا بحمصٍ إنه لَعَظِيمُ — فَهْيَ المقامُ وأنتَ إبراهيمُ

ووصف الشاعر عطاء المالقي غادةً جعلت على رأسها تاجًا فقال: [السريع]

وذات تاجٍ رَصَّعوا دَورَه — فزاد في لألائها بالـلآلْ
كأنها شمسٌ وقد تُوِّجتْ — بأنجم الجوزاءِ فوق الهلالْ
قد اشتكى الخلخالُ منها إلى — سوارها[5] فاشتبها في المقالْ

---

(١) تقدم في هذا الجزء (ص ٢٣٨): «أبوالحسن بن الغليظ». وترجم له ابن سعيد في المغرب (جـ ١ ص ٤٣٥) باسم «أبو علي الحسن بن الغليظ».

(٢) البيتان في المغرب (جـ ١ ص ٤٣٦).

(٣) في المغرب: «تعلمُ ما لاقيْتُ.. بستانا».

(٤) ترجمة أبي علي الحسن بن كسرين المَلقي في المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٤٤) والتكملة (ص ٢٦٤) وجاء فيهما: «أبو علي حسن بن علي الأنصاري، من أهل مالقة، ويعرف بابن كسرى».

(٥) في طبعة ليدن: «سرارها».

وأجْـرَيَـا ذِكْـرَ الـوِشَـاحِ الـذي لَمَّا يَزَلْ مِنْ خَصْرِها في مجالْ
فـقـال: لـم أَرْضَ بـمـا نـلْـتـه ولـيـتـنـي مـثـلـكـمـا لا أزالْ
أَغَـصُّ بـالـخَـصْـرِ وأغْـيَـابـه كَـغَـصِّ ظـمـآنٍ بـمـاءِ زلال
وإنـمـا الـدهـرُ بـغـيـرِ الـرِّضـا يقضي فكلٌّ غيرُ راضٍ بحال

وهو القائل: [مجزوء الخفيف]

سَـلْ بـحـمّـامـنـا الـذي كَـلَّ عـن شـكـره فَـمِـي[1]
كـم أرانـي بـقـربـه جـنَّـة فـي جـهـنَّـم

وكان يحضر حَلقة الإمام السُّهَيلي[2] وضيءُ الوجه من تلامذته، فانقطع لعارض، فخرج السهيلي مارًا في الطريق الذي جرت عادته بالمشي فيه، فوجد قَناة تصلح، فمنعته من المرور، فرجع وسلك طريقًا آخر، فمرَّ على دار تلميذه الوضيء، فقال له بعض أصحابه ممازحًا بعبوره على منزله، فقال: نعم، وأنشد ارتجالاً: [المتقارب]

جَـعَـلْـتُ طـريـقـي عـلـى بـابـه ومـالـي عـلـى بـابـه مـن طـريـقْ
وعـاديـتُ مـن أجـلـه جـيـرتـي وآخيتُ من لم يكنْ لي صديقْ
فـإن كـان قـتـلـي حـلالاً لـكـمْ فـسـيـروا بـروحـيَ سَـيـرًا رفـيـقْ

وأبو القاسم السُّهَيلي مشهور، عَرَّفَ به ابن خلكان وغيره، ويكنى أيضًا بأبي زيد، وهو صاحب كتاب «الروض الأُنُف» وغيره.

واجتاز على سهيل وقد خربه العدوّ لَمّا أغار عليا وقتلوا أهله وأقاربه، وكان غائبًا عنهم، فاستأجر من أركبه دابّة، وأتى به إليه، فوقف بإزائه، وأنشد[3]: [الكامل]

يـا دارُ، أيـن الـبِـيـضُ والآرامُ؟ أم أيـن جِـيـرانٌ عـلـيَّ كِـرامُ
رابَ[4] المُحِبَّ من المنازل أنه حَـيًّـا نـلـم يَـرْجِـعْ إلـيـه سـلامُ

---

(1) يقول إن الحمام فوق قدرة الواصفين على وصفه.

(2) هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي الأعمى، العالم المتفنن، مشهور في علم النحو وفنون الأدب. المغرب (جـ ١ ص ٤٤٨) وبغية الوعاة (ص ٢٩٨) والمطرب (ص ٢٣٠) ووفيات الأعيان (جـ ٣ ص ١٤٣) وفي المصادر الثلاثة الأخيرة أنه توفي سنة ٥٨١ هـ.

(3) الأبيات في المغرب (جـ ١ ص ٤٤٨) دون تغيير عمّا هنا.

(4) رابه: أوقعه في الشك.

لَمّا أجابنيَ الصَّدَى عنهمْ ولم ... يَلِجِ المسامعَ للحَبيبِ كلامُ
طارحْتُ وُرْقَ حمامِها مُتَرَنِّمَا ... بمقالِ صَبّ والدموعُ سِجَامُ
(يا دارُ ما فعلتْ بكِ الأيامُ ... ضامَتْكِ والأيامُ ليس تُضام)

وجرى بين السهيلي والرصافي الشاعر المشهور ما اقتضى قول الرصافي: [المتقارب]

عَفَا اللَّهُ عنّي فإنّي امرؤٌ ... أتيتُ السلامةَ مِنْ بابِها
على أنَّ عندي لمن هاجني ... كنائِنَ[1] غَصَّتْ بنشّابِها
ولو كنتُ أرمي بها مسلمًا ... لكان السهيليُّ أولىٰ بها

وتوفي السهيلي بمراكش سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وزرت قبره بها مرارًا سنة عشر وألف، وسكن رحمه اللَّه تعالى إشبيلية مدّة، ولازم القاضي أبا بكر بن العربي وابن الطراوة، وعنه أخذ لسان العرب، وكان ضريرًا.

ومن شعره أيضًا لما قال: «كيف أمسيت» مكان[2] «كيف أصبحت»: [الطويل]

لئن قلتُ صبحًا كيف أمسيتَ مخطِئًا ... فما أنا في ذاك الْخَطَا[3] بملومِ
طَلَعْتَ وأُفقي مُظْلمٌ لفراقكم ... فَخِلْتُكَ بَدْرًا والمساء هُمومي

وحُكي أنَّ الوزير الكاتب أبا الفضل بن حسداي[4] الإسلامي السرقسطي، وهو من رجال الذخيرة، عشق جارية ذهبت بلُبِّه، وغلبت على قَلْبه، فجنّ بها جُنُونه، وخلع عليها دينه، وعلم بذلك صاحبها[5] فزفّها إليه، وجعل زمامها في يديه، فتحامى[6] عن موضعه من وصلها أنفة من أن يظنّ الناس أنَّ إسلامه كان من أجلها، فحسن ذكره، وخفي على كثير من الناس أمره، ومن شعره قوله[7]: [الطويل]

وأَطْرَبَنا غَيمٌ يمازجُ[8] شَمْسَهُ ... فَيُسْتَرُ طورًا بالسحاب ويُكْشَفُ

---

(١) الكنائن: جمع كنانة وهي جعبة السهام.
(٢) في طبعة دار صادر: «موضع» بدل «مكان».
(٣) الخطا: أصل القول «الخطأ»، وقد حذفت الهمزة للضرورة الشعرية.
(٤) مرّ التعريف بأبي الفضل ابن حسداي والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثاني.
(٥) في طبعة دار صادر: «صاحبه».
(٦) في الطبعة نفسها: «فتجافى».
(٧) البيتان في الذخيرة (ق ٣ ص ٤٩٠) والمغرب (ج ٢ ص ٤٤١).
(٨) في الذخيرة: «يمازح» بالحاء المهملة.

ترى قُزَحًا في الجوِّ يفتحُ قَوْسَهُ   مُكِبًّا على قُطْنٍ مِنَ الثَّلْجِ يُنْدَفُ

وكان في مجلس المقتدر بن هُودٍ ينظر في مجلّد، فدخل الوزيرُ الكاتب أبو الفضل ابن الدباغ وأراد أن يندّر به، فقال له، وكان ذلك بعد إسلامه: يا أبا الفضل، ما الذي تنظر فيه من الكتب، لعلّه التوراة؟ فقال: نعم، وجلْدها[1] من جلدٍ دَبَغه مَنْ تعلم، فمات خجلاً، وضحك المقتدر.

وأراد الشاعر أبو الربيع سليمان السرقسطي حضور نديم له، فكتب إليه: [السريع]

بالراحِ والريحانِ والياسمينْ   وبكرةِ الندمانِ قبلَ الأذينْ
وبهجةِ الروضِ بأندائِهِ   مُقلّدًا منه بِعِقْدٍ ثمينْ
ألاَ أجِبْ سَبْقًا نِدائي إلى الـ   كأس تَبَدَّتْ لذّةَ الشاربينْ
هامتْ بها الأعينُ من قبل أن   يَخْبُرَها الذوقُ بحقِّ اليقينْ
لاحتْ لدينا شَفَقًا مُعْلنًا   فكنْ لها باللّه صُبْحًا مبينْ

وكتب علي بن خير التطيلي[2] إلى ابن عبد الصمد السرقسطي[3] يستدعيه إلى مجلس أُنس: أنا ـ أطال اللّه تعالى بقاء الكاتب سراج العلم وشهاب الفهم! ـ في مجلس قد عَبَقَتْ تفاحُه، وضحكت راحُه، وخفقت حولنا للطرب ألوية، وسالت بيننا للهو أودية، وحضرتنا مُقْلَة تسأل منك إنسانها، وصحيفة فكنْ عُنْوَانَها، فإنْ رأيت أن تجعلَ إلينا القصد، لنحصل بك في جنّة الخُلْد، صَقَلْت نفوسًا أصْدَأها بُعْدُك، وأبرزت شمسًا[4] أدجاها فقدُك.

فأجابه ابن[5] عبد الصمد: فَضَضْتُ ـ أيها الكاتب العليم، والمِصْقَع الحبر الصميم ـ طابَعَ كتابك، فمنحني منه جوهر منتخب، لا يشوبه مَخْشَلب، هو السحر إلاّ أنه حَلال، دلَّ على وُدّ حنيتَ ضلوعك عليه، ووثيق عهد انتدب كريم سجيّتك إليه، فسألت فالقَ الْحَبّ، وعامر القلب بالحُبّ، أن يصون لي حظي منك، ويَدْرأ لي النوائب عنك، ولم يمنعني أن أصرف وجه الإجابة إلى مرغوبك، وأمتطي جواد الانحدار إلى محبوبك، إلاّ عارضُ ألمٍ

---

(١) في طبعة دار صادر: «وتجليدها».
(٢) النص في الذخيرة (ق ٣ ص ٨١٨) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٣) هو أبو بحر يوسف بن عبد الصمد، وترجمته في الذخيرة (ق ٣ ص ٨٠٩) والمغرب (جـ ٢ ص ٢٠٣).
(٤) في طبعة دار صادر: «شموسًا».
(٥) في الطبعة نفسها: «أبو عبد الصمد».

ألمّ بي فقيّد بقيده نشاطي، ورَوّى براحته بساطي، وتركني أتململ على فراشي كالسليم، وأستمطر الإصباح من الليل البَهيم، وأنا منتظر لإدباره.

ومن لطف أهل الأندلس ورقّة طباعهم ما حكاه أبو عمرو بن سالم المالقي قال: كنت جالسًا بمنزلي بمالَقَةَ، فهاجت نفسي أن أخرج إلى الجبّانة، وكان يومًا شديدَ الحَرّ، فراودتها على القعود، فلم تمكني من القعود، فمشيت حتى انتهيت إلى مسجد يُعرف برابطة الغبار، وعنده الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بن علي المالقي، فقال لي: إني كنت أدعو الله تعالى أن يأتيني بك، وقد فعل، فالحمد لله، فأخبرته بما كان مني، ثم جلست عنده، فقال: أنشدني، فأنشدته لبعض الأندلسيين[1]: [الكامل]

غَصَبُوا الصباحَ فقسّموه خدودا ... واستوعبوا قُضُبَ الأَرَاكِ قدودا
ورأَوا حَصا الياقوتِ دون نحورهم ... فتقلّدوا شُهُبَ النجومِ عقودا
لم يَكْفِهِمْ حَدُّ الأَسِنّة والظُّبَا ... حتى استعاروا أَعْيُنًا وخدودا

فصاح الشيخ، وأُغْمي عليه، وتصبَّبَ عَرَقًا، ثم أفاق بعد ساعة، وقال: يا بني، اعذرني فشيئان يقهراني، ولا أملك نفسي عندهما: النظر إلى الوجه الحسن، وسماع الشعر المطبوع، وانتهى.

وستأتي هذه الأبيات في هذا الباب بأتمّ من هذا.

وعلى كل حال فهي لأهل الأندلس، لا لابن دريد كما ذكره بعضهم، وسيأتي تسمية صاحبها الأندلسي، كما في كتاب «المغرب» لابن سعيد العَنْسي المشهور، رحمه الله تعالى:

وقال بعض الأدباء ليحيىٰ الجزار، وهو يبيع لحم ضأن[2]: [المنسرح]

لَحْمُ إناثِ الكِبَاشِ مهزولُ

فقال يحيىٰ:

يقولُ للمشترين مَهْ زُولُوا

---

(١) هذه الأبيات لأبي عبد الله محمد بن البين البطليوسي كما سيأتي في الجزء الخامس وهي في الذخيرة (ق ٢ ص ٨٠٢) والمغرب (جـ ١ ص ٣٧٠) ببعض الاختلاف.

(٢) انظر زاد المسافر (ص ٩٨)، وسيرد هذا البيت في الجزء الخامس منسوبًا إلى ابن عمار ويحيىٰ القصاب السرقسطي ببعض التغيير عمّا هنا.

وقال التطيلي الأعمى في وصف أسد رخام يرمي بالماء على بحيرة[1]: [مجزوء الكامل]

أَسَـــدٌ ولـــو أنـــي أُنَـــا　　قِشُهُ الحسابَ لقُلْتُ صَخْرَهْ
وكـأنـه أَسَـدُ الـسـمـا　　ءِ يمجُّ مِنْ فيه المَجَرَّهْ

وحضر جماعة من أعيان الأدباء مثل الأبيض وابن بقي وغيرهما من الوشّاحين، واتّفقوا على أن يصنع كلّ واحدٍ منهم موَشَّحة، فلمّا أنشد الأعمى موشّحته التي مطلعها[2]:

ضـاحـكٌ عـن جـمـانْ　　سـافـرٌ عـن بَـدْرِ
ضـاق عـنـه الـزمـانْ　　وحـواهُ صَـدْري

خَرَّقَ كلٌّ منهم موشّحته.

وتحاكمت امرأة إلى القاضي أبي محمد عبد الله اللاَّرِدِيِّ الأصبحي، وكانت ذات جمال ونادرة، فحكم لزوجها عليها، فقالت له: من يُضيع قلبَه كلُّ طرف فاتر جدير أن يحكم بهذا، تشير إلى قوله: [الخفيف]

أين قلبي؟ أضاعه كلُّ طَرْفٍ　　فاترٍ يُصْرَعُ الحليمُ لديهِ
كلّما ازدادَ ضعفُه ازدادَ فتكًا　　أيّ صبرٍ تُرى يكونُ عليه

وحضر أبو إسحٰق بن خَفَاجة مجلسًا بمُرْسِية مع أبي محمد جعفر بن عنق الفِضّة الفقيه السالمي، وتذاكرا، فاستطال ابن عنق الفِضّة، ولعب بأطراف الكلام، ولم يكن ابن خفاجة يعرفه، فقال له: يا هذا، لم تترك لأحد حظًّا في هذا المجلس! فليت شعري من تكون؟ فقال: أنا القائل: [الرمل]

الهَوَى عَلَّمني سُهْدَ الليالْ　　ونظامُ الشعرِ في هذي اللآلْ
كلّما هَبَّتْ شمالٌ منهمُ　　لعبتْ بي عن يمينٍ وشمالْ
وأَرَقَّتْ فكرتي أرواحُها　　فأتتْ منهنَّ بالسحرِ الحلالْ
كان كالملح أُجاجًا خاطِرِي　　وسحابُ الحبّ أبدته زلالْ

---

(١) البيتان في ديوان الأعمى التطيلي (ص ٢٤٩) دون تغيير عمّا هنا.

(٢) موشحة الأعمى التطيلي هذه في ديوان الأعمى التطيلي (ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤) ودار الطراز (ص ٥٧ ـ ٥٨) وجيش التوشيح (ص ١٦ ـ ١٨) والمغرب (جـ ٢ ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤). وسيرد هذا المطلع في الجزء السادس من نفح الطيب وفي الجزء التاسع.

فاهتزّ ابنُ خفاجة، وقال: من يكون هذا قوله لا ينبغي أن يُجهل، ولك المعذرة في جهلك، فإنك لم تُعَرِّفنا بنفسك، فباللّه من تكون؟ فقال: أنا فلان، فعرفه وقضى حقَّه.

وحكى ابنُ غالب في «فرحة الأنفس» أنّ الوزير أبا عثمان بن شنتقير وأبا عمر بن غندشلب[1] وفدًا رسولين على المعتمد بن عباد، عن إقبال الدولة بن مجاهد والمعتصم بن صمادح والمقتدر بن هود، لإصلاح ما كان بين المعتمد وبين ابن ذي النون، فَسُرَّ المعتمدُ بهم وأكرمهم، ودعاهم إلى طعام صنعه لهم، وكان لا يُظْهر شرب الراح منذ ولي الملك، فلمّا رأوا انقباضه عن ذلك تحاموا الشراب، فلمّا أمر بكتب أجوبتهم كتب له[2] أبو عامر: [الخفيف]

بقيت حاجة لعبد رغيب ... لم يدع غيرُها له من نصيبِ
هي[3] خيرية المساء حديثًا ... وأنا في الصباح أخشى رقيبي
فإذا أمسِ كان عندي نهارًا ... لم تخفني عليه بعد الغروب
وإذا الليلُ جَنَّ حدّثتُ جُلاّ ... سِي بما كان من حديثٍ غريب[4]
قِيلَ إنَّ الدُّجى لديك نهارٌ ... وكَذَاكَ الدُّجى نهارُ الأريبِ
فَتَمَنَّيتُ ليلةً ليس فيها ... لذَكَا ذلِكَ السَّنَا مِنْ مَغِيبِ
حيث أُعطيك في الخلاء وتُعْطيـ ... ـني مُدامًا كمثل رِيقِ الحبيبِ
ثم أغدو كأنني كنتُ في النو ... م، وأُخْفي المنامَ خوف هزيبِ

والهزيب: الرقيب العتيد في كلام أهل الأندلس، فَسُرَّ المعتمد وانبسط بانبساطه، وضحك من مجونه، وكتب إليه: [الخفيف]

يا مجابًا دعا إلى مستجيبِ ... فسمعنا دعاءه مِنْ قريبِ
إنْ فعلتَ الذي دَعَوْتَ إليه ... كنتَ فيما رغبْتَ عَينَ رغيبِ

واستحضره فنادمه خاليًا، وكساه ووصله، وانقلب مسرورًا، وظنَّ المعتمد أنَّ ذلك يخفى من فعله عن ابن شنتفير، فأعلم[5] بالأمر القائد ابن مرتين، فكاد يتفطّر حسدًا وكتب

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «عبد شلب».

(٢) في طبعة دار صادر: «كتب إليه».

(٣) في الطبعة نفسها: «أنا خيرية».

(٤) في الطبعة نفسها: «عجيب».

(٥) في طبعة بولاق: «فأعلمه بالأمر».

إلى المعتمد: [الخفيف]

أنـا عـبـدٌ أولـيـتـه كـلَّ بِـرّ لـم تـدع مـن فـنـون بـرّك فَـنّـا
غير رفع الحجاب في شُرْبك الرا حَ فـمـاذا جـنـاه أن يـتـجـنّـى
وتَمَنّى شرابَ سؤرِكَ[1] في الكأ سِ فـبـالـلّـه أَعْـطِـهِ مـا تَـمَـنّـى

فسرته أبياته، وأجابه: [الخفيف]

يا كريـمَ المحلِّ في كلّ مَعْنَى والكريـمُ المحلِّ ليس يُعَنَّى
هـذه الـخـمرُ تبتغيك فَخُذْها أو فَدَعْها أو كيفما شِئْتَ كُنّا

وكان يقرأ في مجلس ملك السهلة أبي مروان ابن رَزِين ذي الرياستين ديوان شعر محمد بن هانىء، وكان القارىء فيه بَلَه، فلمّا وصل إلى قوله: [المتقارب]

حـرامٌ حـرامٌ زمـان الـفـقـيـرِ

اتّفق أنْ عَرَضَ للملك ما اشتغل به، فقال للقارىء: أين وقفت؟ فقال: في حر أمّ، فقام الملك وقال: هذا موضع لا أقف معك فيه، ادْخُلْ أنت وحدك، ثم دخل إلى قصره، وانقلب المجلس ضحكًا.

وكان للملك المذكور وزير من أعاجيب الدهر، وهو الكاتب أبو بكر بن سدراي[2]، وذكره الحجاري في «المسهب» وقال: إنّ له شعرًا أرقّ من نسيم السَّحَر، وأندى من الطَّلّ على الزهر، ومنه قوله[3]: [المجتث]

مـا ضَـرَّكُـمْ لـو بَـعَـثْـتُـمْ ولـو بـأدنـى تَـحِـيَّـهْ
تَـهـزُّنـي مِـنْ شَـذَاهـا إلـيـكُـمُ الأَرْيَـحِـيَّـهْ
خُـذوا سـلامـي إلـيـكـمْ مـع الـريـاح الـنَّـدِيّـهْ
فـي كـلّ سـحـرةِ[4] يـومٍ تَـتْـرَى وكـلُّ عَـشِـيّـهْ
يـا ربِّ طـال اصـطـبـاري مـا الـوجـدُ إلاّ بَـلِـيَّـهْ

---

(١) السُّؤْرُ: بقية الشيء.
(٢) في المغرب (جـ ٢ ص ٤٣٠): «الوزير الكاتب أبو بكر بن سرّ راي».
(٣) الأبيات الأربعة الأوائل في المغرب (جـ ٢ ص ٤٣٠).
(٤) في المغرب: «غرّة يومٍ».

غَيلانَ بالشرق أضحى وحلَّتِ الغربَ مَيَّهْ[1]

وقوله: [الوافر]

سأبغي المجدَ في شرقٍ وغربٍ فما سادَ الفَتَى دون اغترابِ
فإنْ بُلِّغْتُ مأمولاً فإنّي جَهَدْتُ ولم أقصِّرْ في الطلابِ
وإنْ أنا لم أفُزْ بمراد سعيي فكم من حسرةٍ تحت الترابِ

وقال ملك بلنسية مَرْوَان بن عبد العزيز لَمَّا ولي مكانه من لا يساويه[2]: [الطويل]

ولا غَرْوَ بعدي أن يُسَوَّدَ مَعْشَرٌ فَيُضْحي لهمْ يومٌ وليس لهم أمْسُ
كذاك نجومُ الجوِّ تبدو زواهرًا إذا ما توارَتْ في مغاربها الشمسُ

وقال ابن دَحية: دخلت عليه وهو يتوضّأ، فنظر إلى لحيته وقد اشتعلت بالشيب اشتعالاً، فأنشد لنفسه ارتجالاً[3]: [الطويل]

ولَمَّا رأيتُ الشَّيبَ أيقنْتُ أنه نَذِيرٌ لجسمي بانهدام بنائِهِ
إذا ابْيَضَّ مُخْضَرُّ النبات فإنه دليلٌ على استحصادِهِ وفَنائِهِ

واعتلّ ابن ذي الوزارتين أبي عامر بن الفرج[4]، وزير المأمون بن ذي النون، وهو من رجال الذخيرة والقلائد[5]، فوصف له أن يتداوى بالخمر العتيق، وبلغه أنّ عند بعض الغلمان منها شيئًا، فكتب إليه يستهديه[6]: [المجتث]

ابْعَثْ[7] بها مِثْلَ وُدِّكْ أَرَقَّ مِنْ ماء خَدِّكْ
شقيقةَ النَّفْسِ، فانْضَحْ بها جَوَى ابني وعَبْدِكْ

(١) في طبعة عبد الحميد: «الشرق» بدل «بالشرق». وغيلان: هو الشاعر ذو الرمّة. وميّة: محبوبته.
(٢) تقدّم هذان البيتان في هذا الجزء (ص ٢٦٠) وجاء هناك أنهما لأبي عبد الملك بن مروان بن عبد الله ابن عبد العزيز. وأشرنا هناك إلى أنهما في المطرب (ص ٨٣).
(٣) البيتان في المطرب (ص ٨٠) دون تغيير عمّا هنا.
(٤) ترجمة أبي عامر بن الفرج في الذخيرة (ق ٣ ص ١٠٣) والحلة السيراء (جـ ٢ ص ١٧١) والمغرب (جـ ٢ ص ٣٠٣) ومطمح الأنفس (ص ١٥).
(٥) لم ترد ترجمة لابن فرج في قلائد العقيان المطبوع، والترجمة، كما قلنا، في مطمح الأنفس.
(٦) البيتان في الذخيرة (ص ١٠٤) والحلة السيراء (ص ١٧٢). وسيردان في الجزء الخامس ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٧) في الذخيرة والحلة: «أَرْسِلْ بها».

وهو القائل معتذرًا عن تخلّفه عَمَّنْ جاءه منذرًا[1]: [الخفيف]

ما تَخَلَّفْتُ عنك إلاّ لِعُذْرِ ودليلي في ذاك خوفي[2] عليكا
هَبْكَ أنَّ الفرارَ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ أتراهُ يكونُ إلاّ إليكا

وله من رسالة هَنَاء: [المتقارب]

أُهنىء بالعيد مَنْ وَجْهُهُ هو العيدُ لو لاح لي طالعا
وأدعو ليَ[3] اللّه سبحانه بشملٍ يكونُ لنا جامعا

وكتب إلى الوزير المصري[4] يستدعيه أن يكون من ندمائه، فكتب إليه الوزيرُ المصري يستعمله اليوم، فلمّا أراده كتب إليه[5]: [الكامل]

ها[6] قد أهبتُ بكمْ وكُلُّكُمْ هَوَى وأحقُّكُمْ بالشكرِ منّي السابقُ
كالشمسِ[7] أنتَ وقد أظلَّ طلوعها فاطلعْ وبين يديكَ فجرٌ صادقُ

وله في رئيس مُرْسية أبي عبد الرحمن بن طاهر، وكان ممتع المجالسة كثير النادرة: [الخفيف]

قد رأينا منك الذي قد سمعْنا فغدا الخُبْرُ عاضدَ الأخبارِ
قد[8] وردنا لديك بحرًا نميرًا وارتقينا حيث النجومُ الدراري
ولَكَمْ مجلسٍ لديك انصرفنا عنه مثلَ الصَّبا عن الأزهارِ

وشرب الأديب الفاضل أبو الحسن علي بن حريق[9] عشيةً مع من يَهْواه، ورام الانفصال عنه لداره، فمنعه سَيلٌ حال بينه وبين داره، فبات عنده على غير اختياره، فقال

---

(١) البيتان في الذخيرة والحلة السيراء.
(٢) في طبعة ليدن وفي الذخيرة والحلة: «حرصي عليكا».
(٣) في طبعة دار صادر: «وأدعو إلى اللّه..».
(٤) هو أبو محمد عبد اللّه بن خليفة القرطبي، عرف بالمصري لطول إقامته بمصر. وقد مرَّ التعريف به والإشارة إلى مصادر ترجمته في هذا الجزء (ص ١٠٣).
(٥) البيتان في مطمح الأنفس والحلة السيراء. والبيت الثاني في الذخيرة.
(٦) في الحلة السيراء: «أنا قد».
(٧) في الحلة السيراء: «والشمس أنت وقد أطلّ». وفي الذخيرة: «الشمسُ أنت..».
(٨) في طبعة دار صادر: «إذ وَرَدْنا».
(٩) مرَّ التعريف بابن حريق في الجزء الأول وأشرنا هناك إلى مصادر ترجمته.

ابن حريق[1]: [مخلع البسيط]

يا ليلةً جادتِ الليالي بها على رَغْمِ أَنْفِ دهري
للسَّيل فيها عليَّ نُعْمَى يقصرُ عنها لسانُ شكري
أَبَاتَ في منزلي حبيبي وقام في أهله بِعُذْرِ
فبتُّ لا حالةٌ كحالي ضجيعَ بَدْرٍ صريعَ سُكْرِ
يا ليلَةَ القَدْرِ في الليالي لأَنْتِ خيرٌ مِنْ ألفِ شَهْرِ

ومن حسنات ابن حريق المذكور قوله[2]: [الكامل]

يا وَيْحَ من بالمغرب الأَقْصَى ثَوَى حِلْفَ النَّوَى وَحبِيبُهُ بالمشرقِ
لولا الحذارُ على الورى لملأتُ ما بيني وبينك مِنْ زَفيرٍ مُحْرقِ
وسكبْتُ دمعي ثم قلت لِسَكْبه مَنْ لم يَذُبْ مِنْ زفرةٍ فَلْيَغْرَقِ
لكن خَشِيتُ عقابَ ربِّي إن أنا أحرقتُ[3] أو أغرقتُ من لم أَخْلُقِ

ولـه[4]: [السريع]

لم يبقَ عندي للصِّبا لَذّةٌ إلاّ الأحاديثَ على الخَمْرِ

ولـه: [المتقارب]

قَقَبَّلْتُ إثْرَكَ فوق الثَّرَى وعانقتُ ذكرَكَ في مضجعي

ولـه[5]: [الرمل]

إنَّ ماءً كان في وَجْنَتِها وردَتْهُ[6] السِّنُّ حتى نَشِفا
وذوى العُنَّابُ مِنْ أَنْمُلِها فأعادَتْه الليالي حَشَفَا

وأورد له أبو بحر في «زاد المسافر» قوله[7]: [الكامل]

(١) الأبيات في المغرب (جـ ٢ ص ٣١٩) وسترد في الجزء الخامس من نفح الطيب ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٢) الأبيات في المغرب (جـ ٢ ص ٣١٨).
(٣) في المغرب: «أغرقتُ أو أحرقتُ من..».
(٤) البيت في المغرب (جـ ٢ ص ٣١٩).
(٥) البيتان في زاد المسافر (ص ٢٢) والمغرب (جـ ٢ ص ٣٢٠).
(٦) في المغرب: «شَرِبَتْهُ السِّنُّ».
(٧) الأبيات في المغرب (جـ ٢ ص ٣١٩) وزاد المسافر (ص ٢٣).

كَلَّمْتُهُ فاحْمَرَّ مِنْ خَجَلٍ   حتى اكتسى بالعَسْجَدِ الوَرِقُ
وسألْتُه تقبيلَ راحتِهِ   فأبى وقال أخافُ أحترقُ
حتى زفيري عاقَ عن أملي   إنَّ الشَّقِيَّ بِرِيقِهِ شَرِقُ[1]

وقوله في السواقي[2]: [الكامل]

وكأنما سكن الأراقمُ جَوفَهَا   من عهد نوحٍ مدّةَ الطوفانِ
فإذا رأينا الماءَ يطفحُ نَضْنَضَتْ   مِنْ كلِّ خرقٍ حيّةٌ بلسانِ[3]

وقال الفيلسوف أبو جعفر ابن الذهبي فيمن جمع بينه وبين أحد الفضلاء[4]: [الخفيف]

أيها الفاضلُ الذي قد هداني   نحو مَنْ قد حَمِدْتُهُ باختبارِ
شَكَرَ اللّهُ ما أتيتَ وجازا   ك ولا زلتَ نجمَ هَدْيٍ لساري
أيُّ بَرْقٍ أفاد أيَّ غمامِ   وصباحٍ أدّى لضوءِ نهارِ
وإذا ما النسيمُ كان دليلي   لم يُحِلْنِي إلاّ على الأزهارِ

وأنشد أبو عبد اللّه محمد بن عبادة الوشاح المعتصمَ بن صمادح شعرًا يقول فيه: [الطويل]

ولو لم أكنْ عبدًا لآلِ صمادحٍ   وفي أرضهمْ أصْلي وعَيشي ومَولدي
لَمَا كان لي إلاّ إليهمْ ترحُّلٌ   وفي ظِلِّهمْ أُمْسي وأُضْحي وأَغْتدي

فارتاح، وقال: يا ابن عبادة، ما أنصفْناك بل أنت الحرّ لا العبد، فاشرحْ لنا في أملك، فقال: أنا عبدكم كما قال ابن نُبَاتة: [البسيط]

لم يُبْقِ جُودُكَ لي شيئًا أؤمِّلُهُ   تَرَكْتَني أصحبُ الدنيا بلا أملِ

---

(١) في طبعة بولاق: «إنَّ الشقاء بريعة شرقُ».
(٢) البيتان في المغرب (ص ٣٢٠) وزاد المسافر (ص ٢٤)، وسيردان في الجزء الخامس ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٣) في المغرب: «فإذا رأيْنَ الماء... من كل خُرْتٍ حيّةٌ..» ونضنضت الحيةُ: حركت لسانها.
(٤) مرّ التعريف بابن الذهبي والإشارة إلى مصادر ترجمته ومرت هذه الأبيات في هذا الجزء (ص ١٨٢) باختلاف يسير عمّا هنا.

فالتفت إلى ابنه الواثق يحيى[1] وليّ عهده وقال: إذا اصطنعت الرجال فمثل هذا فاصطنع، ضُمَّه إليك وافعلْ معه ما تقتضيه وصيّتي به، ونبّهني إليه كل وقت، فأقام نديمًا لوليّ العهد المذكور.

وله فيهما الموشحات المشهورة، كقوله[2]:

كـم فـي قـدود الـبـانْ تــحــت الــلــمــمْ
مِــــنْ أقــــمــــرِ عَــــــوَاطِـــــــي
بــأنــمــلِ وبــنــانْ مــثــلِ الــعَــنَــمْ
لــم تــنــبــري لــلــعــاطــي[3]

ولَمَّا بلغ المعتصم أنَّ خلف بن فرج السميسر هجاه احتال في طلبه حتى حصل في قبضته، ثم قال له: أنشدني ما قلت فيَّ، فقال له: وحَقِّ مَنْ حَصَّلني في يدك ما قلت شرًّا فيك، وإنما قلت: [البسيط]

رأيتُ آدمَ في نومي فقلتُ له: أبا البريّة، إنَّ الناسَ قد حكموا
أنَّ البرابرَ نَسْلٌ منك، قال: إذن حَوّاءُ طالقةٌ إنْ كان ما زعموا

فأباح[4] ابن بلقين صاحب غَرْنَاطة دمي، فخرجتُ[5] إلى بلادك هاربًا فوضع عليَّ مَنْ أشاع ما بلغك عني لتقتلني أنت فيدرك ثأره بك، ويكون الإثم عليك، فقال: وما قلت فيه خاصّة مضافًا إلى ما قلته في عامة قومه؟ فقال: لَمَّا رأيته مشغوفًا بتشييد قلعته التي يتحصّن فيها بغَرْنَاطة قلت[6]: [مخلع البسيط]

يبني على نفسه سَفَاهًا كــأنــه دودةُ الــحــريــرِ

فقال له المعتصم: لقد أحسنت في الإساءة إليه، فاختَرْ: هل أُحسن إليك وأُخلي سبيلك أم أُجيرك منه؟ فارتجل: [مجزوء الرجز]

---

(١) من المعروف أنّ وليّ عهد المعتصم بن صمادح هو ابنه معز الدولة أحمد. انظر الحلة السيراء (جـ ١ ص ٨٩).
(٢) هو مطلع موشحة وردت في دار الطراز (ص ٨١ ـ ٨٤).
(٣) في دار الطراز: «لِعاطِ».
(٤) في طبعة دار صادر: «فنذر ابن...».
(٥) في الطبعة نفسها: «فخرجتُ هاربًا إلى بلادك».
(٦) البيت في الذخيرة (ق ١ ص ٨٨٧).

خَيّرني المعتصمُ وهو بقَصْدِي أعلَمُ
وَهُوَ إِذَا[1] يجمع لي أمنًا ومَنًّا أكرمُ

فقال: خاطرك خاطر شيطان، ولك المَنُّ[2] والأمان، فأقام في إحسانه بأوطانه، حتى خُلع عن ملكه وسلطانه.

ولَمَّا أنشده[3] عمرُ بن الشهيد قصيدته التي يقول فيها[4]: [الكامل]

سَبْطُ البَنَانِ[5] كأنَّ كلَّ غَمامةٍ قد رُكِّبَتْ في راحتيهِ أناملا
لا عَيشَ إلاَّ حيثُ كنتَ[6]، وإنما تمضي ليالي العُمْرِ بعدكَ باطلا

التفت إلى من حضر من الشعراء وقال: هل فيكم من يحسن أن يجلب القلوب بمثل هذا؟ فقال أبو جعفر ابن الخراز البطرني[7]: نعم، ولكن للسعادة هَبَّات، وقد أنشدت مولانا قبل هذا أبياتًا أقول فيها[8]: [الطويل]

وما زلتُ أَجْني منك والدهرُ مُمْحِلٌ ولا ثمرٌ يُجْتَى ولا الزرعُ[9] يُحْصَدُ
ثمارَ أيادٍ دانياتٍ قُطُوفُها لأغصانها ظِلٌّ عليَّ مُمَدَّدُ
يُرَى جاريًا ماءُ المكارمِ تحتها وأطيارُ شكري فوقهنَّ تغرِّدُ

فارتاح المعتصم، وقال: أأنتَ أنشدتني هذا؟ قال: نعم، قال: واللَّه كأنها ما مرَّتْ بسمعي إلى الآن، صدقت للسعد هَبَّات، ونحن نجيزك عليها بجائزتين: الأولى لها، والثانية لِمَطْل راجيها وغمط إحسانها، انتهى.

وقال بعض ذرّيّة ملوك إشبيلية[10]: [الخفيف]

---

(١) في طبعة ليدن: «وهو أن يجمع..». وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) في الطبعة نفسها: «ولك الأمن..».
(٣) أي لمّا أنشد ابنُ الشهيد المعتصَم.
(٤) البيتان في الذخيرة (ق ١ ص ٦٨٦).
(٥) في الذخيرة: «سَبْطُ اليدين». وسبط اليدين أو البنان: الكريم الجواد.
(٦) في الذخيرة: «حيث أنت..».
(٧) في طبعة عبد الحميد: «البطراني». وهو أبو جعفر أحمد بن الخراز البطرني، نسبة إلى بَطَرْنة من قرى بلنسية، وهو الذي أثار ابن غرسية إلى كتابة رسالته في الشعوبية، وعارضه أبو جعفر برسالة تناظرها. المغرب (جـ ٢ ص ٣٥٥) والحاشية، وفيه: أبو جعفر أحمد بن الجزار.
(٨) الأبيات في المغرب (جـ ٢ ص ٣٥٦) وسترد في الجزء الخامس باختلاف يسير عمّا هنا.
(٩) في المغرب: «ولا زَرْعَ».
(١٠) البيتان لابن الزقاق البلنسي، وهما في ديوانه (ص ١٣١).

نُشِرَ الوردُ بالخليجِ وقد درج أمواهه هبوب الرياحِ[1]
مثل درع الكميّ مزّقها الطعـ ـنُ فسالتْ بها دماءُ الجراحِ

وقال ابن صارة في النارنج[2]: [الطويل]

كُرَاتُ عقيقٍ في غصونِ زبرجدٍ بكفِّ نسيمِ الريحِ منها صوالجُ
نُقَبِّلُها طورًا وطورًا نشمُّها فهنَّ خدودٌ بيننا ونوافجُ

وقال أبو الحسن بن الزقاق ابن أخت ابن خفاجة[3]: [المتقارب]

وما شَقَّ وَجْنَتَهُ عابثًا[4] ولكنَّها آيةٌ للبَشَرْ
جلاها لنا اللّه كيما نرى بها كيف كان انشقاقُ القمرْ

وقال[5]: [الكامل]

ضربوا ببطن الوادِيَينِ قِبَابَهُمْ بين الصوارمِ والقَنَا الميَّادِ[6]
والوُرْقُ تهتفُ حولهمْ طربًا بهمْ فبكلِّ مُخْنِيَّةٍ ترنُّمُ شادي
يا بانَةَ الوادي كَفَى حُزْنًا بنا أن[7] لا نطارحَ غيرَ بانةِ وادي

وقال[8]: [الخفيف]

نحن في مجلسٍ به كمل الأنـ ـسُ ولو زُرْتَنا لزاد كمالا
طَلَعت فيه من كؤوس الْحُمَيَّا ومن الزهرِ أنجمٌ تتلالاَ
غير أَنَّ النجومَ دون هلالٍ فلتكنْ منعمًا لهنَّ الهلالا[9]

وقال[10]: [الكامل]

---

(١) في طبعة ليدن: «وقد درَّجه بالهبوب مَرُّ الرياحِ». وفي الديوان: «نُشِرَ الوردُ في الغدير وقد دَرَّجه بالهبوب نَشْرٌ. . .».
(٢) البيتان في الذخيرة (ق ٢ ص ٨٤٠) دون تغيير عمّا هنا.
(٣) البيتان في ديوان ابن الزقاق (ص ١٧٩).
(٤) في الديوان: «عابثٌ».
(٥) ديوان ابن الزقاق (ص ١٤٤ ـ ١٤٥).
(٦) في الديوان: «المنآدِ».
(٧) في الديوان: «ألاَّ».
(٨) الأبيات لم ترد في الديوان.
(٩) في طبعة ليدن: «لهنَّ هلالا».
(١٠) الأبيات غير واردة في الديوان.

وهويتها سمراءَ غَنَّتْ وانْثَنَتْ فنظرتُ مِنْ ورقاءَ في أُمْلودِها[1]
تشدو ووَسْوَاسُ الحليّ يجيبها مهما انثنتْ في وَشْيها وعقودها
أَوَ ليس مِنْ بِدْعِ الزمان حمامة غَنَّتْ فغنَّى طَوقُهَا في جِيدها

وقال[2]: [البسيط]

لئن بكيتُ دمًا والعَزْمُ مِنْ شيمي على الخليط فقد يبكي الحسام دَمَا

وقال أبو تمام غالب بن رباح الحجام[3] في دولاب طار منه لوح فوقف[4]: [المنسرح]

وذاتِ شَدْوٍ وما لها حُلُمٌ[5] كلُّ فتًى بالضمير حَيّاها
وطار لوحٌ بها فأَوْقَفَها كلمحةِ العَينِ حين[6] جراها

وكان المذكور رُبِّيَ في قلعة رباح غربي طُلَيطُلة، ولا يُعْلَمُ له أب، وتعلَّم الحجامة فأتقنها، ثم تعلّق بالأدب[7] حتى صار آية، وهو القائل في ثُرَيًّا الجامع[8]: [البسيط]

تحكي الثريّا الثريّا في تألّقها وقد عَرَاها[9] نسيمٌ فهي تَتَّقِدُ
كأنها لذوي الإيمان أفئدةٌ مِنَ التخشّعِ جوفَ الليل ترتعدُ

وقال[10]: [البسيط]

زرتُ الحبيبَ ولا[11] شيءٌ أحاذرُهُ في ليلةٍ قد لوث بالغمضِ أشفارا
في ليلةٍ خِلْتُ مِنْ حُسْنِ كواكِبَها دراهمًا وحسبْتُ البَدْرَ دِينارا

---

(١) الأملود: الغصن الناعم الليّن.
(٢) لم يرد هذا البيت في الديوان.
(٣) هو أبو تمام غالب بن رباح، المعروف بالحجّام؛ شاعر قلعة بني رباح الواقعة غربي طليطلة، وترجمته في الذخيرة (ق ٣ ص ٨٢١) والمغرب (جـ ٢ ص ٤٠).
(٤) البيتان في الذخيرة (ص ٨٣٣).
(٥) في الذخيرة: «وما لها كَلِمٌ».
(٦) في طبعة دار صادر وفي الذخيرة: «ثم أجراها».
(٧) في طبعة ليدن: «بالآداب».
(٨) البيتان في الذخيرة (ص ٨٣٠).
(٩) في الذخيرة: «وقد لواها نسيم وهي..».
(١٠) البيتان في الذخيرة (ص ٨٢٦).
(١١) في الذخيرة:
«ولا واشٍ أحاذرُهُ والصبحُ عَينٌ لوث بالغمضِ..»

وقال في الثريا أيضًا[1]: [البسيط]

انْظُرْ إلى سُرُجٍ في الليل مشرقةٍ ... مِنَ الزجاجِ تراها وهي تلتهبُ
كأنها ألْسُنُ الحيّاتِ قد برزتْ ... عند الهجير فما تنفكُّ تضطربُ

وقال[2]: [الطويل]

ترى النَّسْرَ والقتلى على عَدَدِ الحَصَا ... وقد مزَّقَتْ أحشاءها والترائبا
مُضَرَّجةً مِمَّا أكلْنَ كأنها ... عجائزُ بالحِنَّا خَضَبْنَ ذَوَائِبَا

وقال، وقد أبدع غاية الإبداع، وأتى بما يحيّر الألباب، وإن كان أبو نواس فاتح هذا الباب: [الطويل]

وكأسٍ ترى كسرى بها في قَرَارةٍ ... غريقًا ولكن في خليجٍ مِنَ الخمرِ
وما صَوَّرَتْهُ فارسٌ عَبَثًا به ... ولكنّهم جاءوا بأخفى من السِّحْرِ
أشاروا بما كانوا له في حياتِهِ ... فتُومي إليه بالسجودِ وما ندري

وما أحلى قوله[3]: [الكامل]

الأقحوانُ رمى[4] عليكَ ظُلامَةً ... لمّا عَنُفْتَ عليه بالمِسْواكِ
لا يحمل النَّوْرُ الأنيقُ تَمَسُّهُ ... كَفٌّ بعُودِ بَشَامةٍ وأراكِ
وجلاؤه المخلوقُ فيه قد كفى ... مِنْ أنْ يُرَاع عَرَارُهُ بسواكِ

وقوله[5]: [الوافر]

صغارُ الناسِ أكثرهُمْ فسادًا ... وليس لهمْ لِصَالحةٍ نُهُوضُ
ألم تَرَ في سباع الطير سِرًّا ... تُسالِمُنا، ويأكلُنا البعوضُ[6]

وقد بلغ غاية الإحسان في قوله[7]: [الوافر]

---

(١) الذخيرة (ص ٨٣٠).
(٢) الذخيرة (ص ٨٣٢).
(٣) الذخيرة (ص ٨٣٥).
(٤) في طبعة ليدن: «أرى عليك». وفي الذخيرة: «للأقحوان أرى..».
(٥) الذخيرة (ص ٨٣٨) والمغرب (جـ ٢ ص ٤٠). وسيرد البيتان في الجزء الخامس باختلاف عمّا هنا.
(٦) في الذخيرة: «ويؤذينا البعوض». وفي المغرب: «في طباع الطير..».
(٧) الذخيرة (ص ٨٣٩) والمغرب (ص ٤١).

فما[1] لِلْمَلْكِ ليس يرى مكاني وقد كُحِلَتْ لواحظُه بنوري
كذا المسواكُ مُطَّرِحًا مُهانًا[2] وقد أبقى جِلاءً في الثغورِ

ومن حسناته قوله[3]: [السريع]

لي صاحبٌ لا كان من صاحبٍ فإنه[4] في كبدي جَرْحَهْ
يحكي إذا أَبْصَرَ لي زَلَّةً ذُبابةً تَضْرِبُ في قُرْحَهْ

ولقيه أبو حاتم الحِجَاري على فرس في غاية الضعف والرذالة قد أهلكها الوَجَى، وكانا في جماعتين، فقال له: يا أبا تمام، أنشدني قولك: [الطويل]

وتحتيَ ريحٌ تسبقُ الريحَ إنْ جَرَتْ وما خِلْتُ أنَّ الريحَ ذاتُ قوائمِ
لها في المدى سَبْقٌ إلى كلِّ غايةٍ كأنَّ لها سبقًا يفوقُ عزائمي
وهمَّةُ نفسي نَزَّهَتْها عن الوجى فيا عجبًا حتى العُلا في البهائمِ

فلمّا أنشده إيّاها ردَّ رأسه أبو حاتم إلى الجماعتين وقال: ناشدتكم اللّه أيجوز لحجّام على فرس مثل هذه الرمكة[5] الهزيلة العرجاء، أن يقول مثل هذا؟ فضحك جميعُ مَنْ حَضَر، وأقبل أبو تمام من[6] غيظه يسبّه.

ومن شعر الحجام المذكور قوله[7]: [البسيط]

لا يفخر السيفُ والأقلامُ في يده قد صار قطع سيوفِ الهندِ للقصبِ[8]
فإن يكنْ أصلُها لم يَقْوَ قُوّتها (فإنَّ في الخمرِ معنًى ليس في العنبِ)[9]

---

(١) في المغرب: «فيا للمَلْكِ».
(٢) في الذخيرة: «هوانا».
(٣) الذخيرة (ص ٨٣٩) والمغرب (ص ٤١).
(٤) في المغرب: «كأنه».
(٥) الرمكة: الفرس التي تتخذ للنسل.
(٦) في طبعة دار صادر: «في غيظه».
(٧) الذخيرة (ص ٨٣٤).
(٨) في الذخيرة: «والقُضُبِ».
(٩) عجز بيت للمتنبي، وصدره هو:
فإن تكن تغلب الغلباء عنصرها
والبيت لم يرد في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب.

وقـال[1]: [الكامل]

ثَقُلَتْ على الأعداءِ إلاّ أنها ... خَفَّتْ على السَّبّاب والإبهامِ
أخذتْ من الليلِ البهيمِ سوادَهُ ... وبَـدَتْ تُـنَـمِّـقُ أوْجُـهَ الأيـامِ

وقـال[2]: [الكامل]

نظر الحسودُ فازدرى ليَ هيئةً[3] ... والـفـضـلُ مـنِّـي لا يـزال مُـبـيـنـا
قَبُحَتْ صفاتي من تغيّرِ وُدّه ... صَدَأُ الـمِـرَاةِ[4] يُقَبِّحُ التحسينا

وقـال[5] : [الطويل]

تَصَبَّرْ وإنْ أبدى العدوُّ مَذَمَّةً ... فمهما رَمَى ترجعْ إليه سهامُهُ
كما يفعلُ النحلُ المُلِمُّ بلسعهِ[6] ... يـريـدُ بـه ضـرًا وفـيـه حِـمـامُـهُ

وقـال[7] : [البسيط]

وباردِ الشِّعْر لم يؤلم[8] به ولقد ... أَضَـرَّ مـنـه جـمـيـعَ الـنـاس واعـتـزلا
كـأنـه الـصِّـلُّ لا تـؤذيـه رِيـقَـتُـهُ ... حتى إذا مَـجَّـهَـا فـي غـيـره قـتـلا

وقال ابن الزقاق[9]: [الطويل]

دعـاكَ خـلـيـلٌ والأصـيـلُ كـأنـه ... عـلـيـلٌ يُقَضِّي مدةَ الـرَّمَـقِ الـبـاقـي
إلـى شَـطِّ مـنـسـابٍ كـأنـك مـاؤه ... صَـفَـاءَ ضـمـيـرٍ أو عُـذُوبَـةَ أخـلاقِ
ومهوى جناحٍ للصَّبا يمسحُ الرُّبا ... خـفـيِّ الـخـوافـي والـقـوادمِ خَـفَّـاقِ
على حين راحَ البرقُ في الجوّ مغمدًا ... ظُبَاه ودمعُ الـمُـزْن مِنْ جفنه رَاقِ
وقـد حـان مـنِّـي لـلـريـاضِ الـتـفـاتـةٌ ... حبستُ بها كأسي قليلاً عن الساقي

---

(١) الذخيرة (ص ٨٣٤).
(٢) الذخيرة (ص ٨٣٧).
(٣) في الذخيرة: «نظر الحسود فإذ رأى لي صالحًا».
(٤) المراة: أصلها المرآة، وقد حذف الهمزة للضرورة الشعرية.
(٥) الذخيرة (ص ٨٣٨).
(٦) في الذخيرة: «بلسعةٍ».
(٧) الذخيرة (ص ٨٣٨).
(٨) في الذخيرة: «لم يألم بما حملا».
(٩) ديوان ابن الزقاق (ص ٢٩٦) دون تغيير عمّا هنا.

على سطح خِيرِيّ ذكرتُكَ فانثنى يميلُ بأعناقٍ ويَرْنُو بأحداق
فَصِلْ زهراتٍ منه هذا كأنها وقد خَضِلَتْ قطرًا محاجرُ عُشّاقِ

ولَمَّا مدح الحسيب أبو محمد القاسم[1] بن مسعدة الأوسي أمير المؤمنين عبد المؤمن بقوله[2]: [الطويل]

حَنانَيكَ مَدْعُوًّا ولَبَّيكَ داعيًا فكلٌّ بما ترضاه أصبحَ راضيا
طلعتَ على أرجائنا بعد فَتْرَةٍ وقد بَلَغَتْ مِنّا النفوسُ التَّراقِيا
وقد كثرتْ مِنّا سيوفٌ لدى العُلا ومِنْ سَيفِكَ المنصورِ نبغي التقاضيا[3]
وغيرك نادينا زمانًا فلم يجبْ وعزمك لم يحتجْ علاه مناديا

كتب اسمه وزير عبد المؤمن في جملة الشعراء، فلمّا وقف على ذلك عبد المؤمن ضرب على اسمه وقال: إنما يُكْتَبُ اسم هذا في جملة الحساب[4]، لا تدنّسوه بهذه النسبة، فلسنا مِمَّن يتغاضى على غمط حسبه، ثم أجزل صِلَته، وأمر له بضَيعة يحرثُ له بها، يعني بذلك أنه من ذريّة ملوك؛ لأنَّ جدّه كان ملك وادي الحِجارة.

وقال أبو بكر محمد بن أزرق[5]: [السريع]

هل عَلِمَ الطائرُ في أَيْكِهِ بأنَّ قلبي للحِمَى طائرُ
ذَكَّرني عهدَ الصِّبا شَجْوُه[6] وكلُّ صَبّ للصِّبا ذاكرُ
سقى الْحَيَا عَهْدًا لهمُ بالحِمَى دمعٌ له ذكرهُمُ ناثرُ[7]

---

(١) في أصول النفح: «أبو القاسم» والتصويب عن المصادر التي ترجمت له. وهو أبو محمد القاسم بن عبد الرحمن بن قاسم بن مسعدة الأوسي، من أهل مدينة مالقة، وأصله من وادي الحجارة. كان سُكناه بغرناطة، وكان متفنّنًا في العلوم. المغرب (جـ ٢ ص ٢٦) والمطرب (ص ٢١٦) وبغية الوعاة (ص ٣٧٧).

(٢) الأبيات في المغرب (ص ٢٧) عدا البيت الأخير.

(٣) في المغرب: «وقد مُطِلَتْ منّا ديونٌ لدى العِدا.. سيفك السفاح..».

(٤) في طبعة دار صادر: «الحسباء».

(٥) ترجم له ابن سعيد في المغرب (جـ ٢ ص ٢٨) باسم «أبو بكر محمد بن أزراق» وقال: كان مستوطنَ مدينة وادي آش من عمل غرناطة، وله شعر حسن. وأبياته هذه في المصدر نفسه (ص ٢٩).

(٦) في المغرب: «شَدْوُهُ».

(٧) في طبعة دار صادر: «سقى عهودًا..». وفي المغرب: «سقى عهودًا.. دَمْعًا له..».

وقال أبو جعفر بن أزرق[1]: [الطويل]

أراكَ مَلَكْتَ الخافقينِ مهابةً   بها ما تلحُ الشُّهب بالخَفَقانِ[2]
وتُغْضِي العيونُ عن سَنَاك كأنها[3]   تقابلُ منك الشمسَ في اللَّمَعان
وتصفرُّ ألوانُ العُداةِ كأنما   رُمُوا منك طولَ الدهرِ باليَرَقانِ

وقال أبو القاسم بن أزرق: [مخلع البسيط]

ذاك الزمان الذي تَقَضَّى   يا لَيْتَهُ عادَ منه حِينُ
بكلِّ عمري الذي تبقَّى   وما أنا في الشُّرا[4] غَبِينُ

وقال راشد بن عريف الكاتب[5]: [مخلع البسيط]

جُمِّعَ في مجلسٍ[6] نَدَامَى   تَحْسُدُني فيهمُ النجومُ
فقال لي منهمُ نديمٌ[7]   ما لك إذ قمتَ لا تقومُ
فقلتُ إنْ قمتُ كلَّ حينٍ   فإنَّ حظِّي[8] بكمْ عظيمُ
وليس عندي إذن ندامى   بل عنديَ المُقْعِدُ المقيمُ

وقال الحسيب أبو جعفر بن عائش[9]: [السريع]

ولي أخ أُورِدُهُ سلسلاً   لكنه يوردني مالحا
ألقاه كي أبسطه ضاحكًا   ويلتقيني أبدًا كالحا
وليس ينفكُّ عنائي به   ما رُمْتُ من فاسده صالحا

قال الحجاري: وكتب إلى جدي إبراهيم في يوم صحو بعد مطر: [السريع]

---

(١) ترجمته وشعره في المغرب (جـ ٢ ص ٢٩).
(٢) في طبعة ليدن: «في الخفقانِ». وفي المغرب: «لها ما تلجُ.. في الخفقانِ».
(٣) في طبعة ليدن: «كأنما».
(٤) الشرا: أصل القول «الشراء» وقد حذفت الهمزة للضرورة الشعرية.
(٥) ترجمته وشعره في المغرب (جـ ٢ ص ٣٢).
(٦) في المغرب: «في مجلسي».
(٧) في المغرب: «منهمُ خليلٌ».
(٨) في المغرب: «فإنَّ خَطْبي».
(٩) هو أحمد بن عائش، من أعيان وادي الحجارة، وكان في زمان المأمون بن ذي النون، صاحب طليطلة، أي أنه كان في المائة الخامسة. المغرب (جـ ٢ ص ٢٧).

إذا رأيتَ الجوَّ يَصْحُو فلا ... تَصْحُ، سقاك اللَّه من سُكْرِ
تعالَ فانْظُرْ لدموعِ الندى ... ما فعلتْ في مبسمِ الزهرِ
ولا تَقُلْ إنك في شاغلٍ ... فليس هذا آخرَ الدهرِ
يُخْلَفُ ما فاتَ سوى ساعةٍ ... تقنصُ فيها لذةَ الخمرِ[1]

فأجابه: [السريع]

لَبَّيكَ لَبَّيكَ ولو أنني ... أسعى على الرأس إلى مصرِ
فكيف والدار جواري وما ... عنديَ من شغلٍ ولا عذرِ
ولو غدا لي ألفُ شُغْلٍ بلا ... عذرٍ تركتُ الكلَّ للحشرِ
وكلّما أبصرني ناظرٌ ... ببابكمْ عَظَّمَ مِنْ قدري
أَنَا الذي يشربُها دائمًا ... ما حضرتْ في الصَّحْوِ والقطرِ
وليس نَقْلي أبدًا بعدها ... إلاَّ الذي تَعهد مِنْ شكري

[قال الحجاري: ولم يقصِّر جدي في جوابه، ولكن ابن عائش أشعر منه في ابتدائه، ولو لم يكن له إلاَّ قوله «تعال فانظر ـ إلخ» لكفاه][2]، قال: وفيه يقول جدي إبراهيم[3] يمدحه: [الطويل]

ولو كان ثانٍ في الندى لابن عائشٍ ... لما كان في شرقٍ وغربٍ أخو فَقْرِ
يَهَشُّ إلى الأمداح كالغصنِ للصَّبا ... ويشرُ محيّاه ينوبُ عن الزهرِ
فيا ربِّ زِدْ في عمره إنَّ عمره ... حياةُ أناسٍ قد كفوا كلفة الدهرِ

وقتله ابن مسعدة ملك وادي الحجارة الثائر بها، ولَـمّا قدّمه ليقتله قال: ارفق عليَّ حتى أُخاصم عن نفسي، فقال: على لسانك قتلْناك، فقال له: لا رَفَقَ اللَّه عليك يوم تحتاج إلى رِفْقه! فقال بجبروته[4]: ما رهبنا السيوف الحداد، نرهب[5] دعاء الحسّاد.

وقال أبو علي الحسن بن علي بن شعيب[6]: [الخفيف]

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «تخلف... تقتض».
(٢) ما بين قوسين ساقط من طبعة بولاق.
(٣) كلمة «إبراهيم» ساقطة من طبعة بولاق.
(٤) في طبعة عبد الحميد: «بجبروتيته».
(٥) في الطبعة نفسها: «وترهب».
(٦) في طبعة عبد الحميد: «وقال أبو الحسن علي بن شعيب». وترجمة أبي علي الحسن بن علي بن شعيب في المغرب (جـ ٢ ص ٢٧). وورد في المصدر المذكور (ص ٢٨) البيتان الثاني والثالث.

انْزَعي الوَشْيَ فَهْوَ يستر حُسْنًا لم تحزه برقمهنَّ الثيابُ
ودَعيني عسى أُقَبِّلُ ثَغْرًا[1] لَذَّ فيه اللَّمَى وطابَ الرُّضابُ
وعجيبٌ أنْ تهجريني ظُلْمًا وشفيعي إلى صِباك الشبابُ

وقال أخوه أبو حامد الحسين حين كبا به فرسه فحصل في أسر العدوّ[2]: [الوافر]

وكنتُ أُعِدّ طِرْفي للرزايا يخلِّصني إذا جَعَلَتْ تَحُومُ
فأَصْبَحَ للعِدا عَونًا لأني أَطَلْتُ عَناءه فأنا الظَّلُومُ
وكم دامتْ مَسَرَّاتي عليه وهل شيء على الدنيا يدومُ

وقال أبو الحسن علي بن رجاء[3]، صاحب دار السكة والأحباس بقرطبة: [السريع]

يا سائلي عن حالتي إنّني لا أشتكي حالي لِمَنْ يضعفُ
مَعْ أنني أحذرُ مِنْ نقده لا سيما إنْ كان لا يُنْصِفُ

وأنشد له الحميدي في «الجذوة»[4]: [الخفيف]

قُلْ لمنْ نال عِرْضَ مَنْ لم ينلْه حَسْبُنا ذو الجلالِ والإكرامِ
لم يزدني[5] شيئًا سوى حسناتٍ لا ولا نَفْسَهُ سوى آثامِ
كان ذا مَنْعةٍ فثقَّلَ ميزا ني بهذا فصار مِنْ خُدّامي

وقال أبو محمد القاسم بن الفتح: [مجزوء الكامل]

أيامُ عمرِكَ تذهبُ وجميعُ سَعْيِكِ يُكْتَبُ
ثم الشهيدُ عليك منـ ـك فأين أين المهربُ

وقال أبو مروان عبد الملك بن غصن[6]: [الوافر]

---

(١) في المغرب: «أَتْرُكيني حتى أُقَبِّلَ..».
(٢) ترجمة أبي حامد الحسين بن علي بن شعيب في المغرب (جـ ٢ ص ٢٨) وورد في هذا المصدر البيتان الأول والثاني دون تغيير عمّا هنا.
(٣) هو علي بن رجاء بن مُرَجّى، فقيه شاعر أديب، له في العلم والأدب حظ موفور. توفي سنة ٤٤٦ هـ أو ٤٤٧ هـ. جذوة المقتبس (ص ٣١٣) وبغية الملتمس (ص ٤٢٢).
(٤) جذوة المقتبس وبغية الملتمس.
(٥) في المصدرين السابقين: «بذا سوى..».
(٦) البيتان في المغرب (جـ ٢ ص ٣٣) والذخيرة (ق ٣ ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦، ٣٣٩).

فَدَيتُكَ لا تَخَفْ مني سُلُوًا ... إذا ما غَيَّرَ الشَّعَرُ الصِّغارا
أَهِيمُ بدَنٍّ خمرٍ صار خَلاً[1] ... وأهوى لِحْيَةً كانت عِذارا

وقال[2]: [مخلع البسيط]

قد ألحف الغَيمُ بانسكابهْ ... والتحفَ الجَوُّ في سَحَابِهْ
وقام داعي السرورِ يدعو ... حَيَّ على الدَّنِّ وانتهابِهْ
وتاه فيه النديمُ مِمّا ... يزدحمُ الناسُ عند بابِهْ

وكان أحد الأعلام في الآداب والتاريخ والتأليف.

ونقم عليه المأمون بن ذي النون بسبب صحبته لرئيس[3] بلده ابن عبيدة[4]، وبلغه أنه يقع فيه، فنكبه أشرَّ نكبة، وحبسه، فكتب إليه من السجن: [الطويل]

فَدَيْتُكَ هل لي منك رُحْمَى لعلَّني ... أُفارق قبرًا في الحياة فأُنْشَرُ
وليس عقابُ المذنبين بِمُنْكَرٍ ... ولكنْ دَوَامُ السخطِ والعتبِ منكرُ[5]
ومِنْ عَجَبٍ قولُ العُداةِ مُثَقَّلٌ ... ومثليَ في إلحاحه الدَّهرَ يُعْذَرُ

وألَّف للمأمون رسالة «السجن والمسجون، والحزن والمحزون» ورسالة أخرى سمّاها «بالعشر كلمات»، وقال[6]: [مخلع البسيط]

يا فتيةً خِيرَةً[7] فَدَتْهُمْ ... مِنْ حادثاتِ الزمانِ نفسي
شربهُمُ الخمرَ في بُكُورٍ[8] ... ونطقهمْ عندها بِهَمْسِ
أَمَا ترون الشتاءَ يُلْقي ... في الأرض بُسْطًا من الدِّمَقْسِ
مقطّبٌ عابسٌ يُنادي ... يومُ سرورٍ ويومُ أُنْسِ

---

(١) في المغرب: «بدنّ خلّ كان خمرا». وفي الذخيرة (ص ٣٣٩): «أدينُ بدنِّ خَلّ كان خمرا».
(٢) الذخيرة (ق ٣ ص ٣٣٤).
(٣) في طبعة ليدن: «الرائس».
(٤) في طبعة بولاق: «أبي عبيدة».
(٥) في طبعة دار صادر: «يُنْكَرُ».
(٦) الأبيات في الذخيرة (ق ٣ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥).
(٧) في الذخيرة: «يا فتيةً حُرَّةً».
(٨) في الذخيرة: «في سكون».

وأخبر عنه[1] الحُمَيدي في الجذوة[2] أنه شاعر أديب، دخلَ المشرق، وتأدّب، وحجَّ، ورَجَعَ، وشعره كثير. وله أبيات كتبها في طريق الحجّ إلى أحد القضاة: [الكامل]

يا قاضيا عَدْلاً كأنَّ إمامه[3] ... مَلَكٌ يُريه واضحَ المنهاجِ
طافتْ بعبدك في بلادك عِلَّةٌ ... قَعَدَتْ به عن مَقْصِدِ الحجاجِ
واعتلَّ في البحر الأجاجِ فكُنْ له ... بحرًا من المعروف غيرَ أُجاجِ

وقال الزاهد الورع المحدّث أبو محمد إسماعيل ابن الديواني: [المتقارب]

أَلاَ أيها العائبُ المعتدي ... ومن لم يزل مؤذيًا ازددِ[4]
مساعيك يكتبها الكاتبون ... فبيّضْ كتابَكَ أو سَوِّدِ

وقال ابنه أبو بكر محمد[5]: [مجزوء الكامل]

خاصمْ عدوّك باللسا ... نِ وإنْ قَدِرْتَ فبالسنانِ
إنَّ العداوةَ ليس يُضـ ... ـلِحُهَا الخضوعُ مدى الزمانِ

وقال إبراهيم الحِجَاري جَدُّ صاحب «المسهب»[6]: [الطويل]

لئن كرهوا يومَ الوَداعِ فإنني ... أهيمُ به وَجْدًا مِنَ أجل[8] عناقِهِ
أُصافحُ مَنْ أهواه غيرَ مساترٍ[7] ... وسِرُّ التلاقي مُودَعٌ في فراقِهِ

وقال: [الخفيف]

كُنْ كما شئت إنني لا أَحُولُ[9] ... غير مصغٍ لما يقولُ العذولُ
لك واللّه في الفؤاد محلٌّ ... ما إليه مَدَى الزمان وُصولُ

---

(١) في طبعة دار صادر: «وقال عنه الحميدي. . .».
(٢) ترجم الحميدي لأبي مروان بن غصن الحجاري في جذوة المقتبس (ص ٤٠٢) ولكن معظم ما قيل هنا غير وارد في الجذوة. وكذلك الأمر في بغية الملتمس (ص ٥٢٩).
(٣) في طبعة عبد الحميد وفي الجذوة والبغية: «أمامه».
(٤) ازْدَد: أي لا تترك ما أنت عليه.
(٥) كلمة «محمد» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٦) البيتان في المغرب (جـ ٢ ص ٣٤).
(٧) في المغرب: «لأجل عناقِهِ».
(٨) في طبعة عبد الحميد: «مساير».
(٩) لا أحول: لا أتحول ولا أتبدّل.

ومُـرَادي بـأنْ تـزورَ خَـفـيًّـا ليت شعري متى يكونُ السبيلُ

وقـال: [الخفيف]

قد توالتْ في حالتينا الظنونُ فَلْنُصَدِّقْ ما كَذَّبَتْهُ العيـونُ
ومـرادي بـأن تـلـوحَ بـأفـقـي بَـدْرَ تِـمّ وذاك مـا لا يـكـونُ
أنا قـد قـلـتُ مـا دعـانـي إلـيـه كثرة اليأس، والحديثُ شجونُ
وإذا شـئـتَ أنْ تُـسَـفِّـه رأيـي فـمحلِّي من الرقيب مَصُونُ
وبـه مـا تـشـاءُ من كلِّ معنى كلُّ مَنْ لم يجبْ له مجنونُ
وإلـى كـم تـضـلّ لـيـلَ الأمـاني ومـن الـيـأس لاح صبحٌ مبينُ

وقـال: [المجتث]

سـألـتُـهُ عـن أبـيـه فـقـالَ خـالـي فـلانُ
فانظرْ عَجَائِبَ ما قد أتـتْ بـه الأزمـانُ
دهـرٌ عـجـيـبٌ لـديـه عـن الـمـعـالـي جِرَانُ
فـمـا لـه غـيـرُ ذمّ كـمـا تـديـنُ تُـدانُ

وقال الكاتب العالم أبو محمد بن خيرة الإشبيلي[1] صاحب كتاب «الريحان والريعان» يمدح السيد أبا حفص ملك إشبيلية ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن من قصيدة: [البسيط]

كأنما الأُفْقُ صَرْحٌ والنجومُ به كواعبٌ وظلامُ الليلِ حاجِبُهُ
وللهلالِ اعتراضٌ في مطالِعِهِ كأنه أسْوَدٌ قد شابَ حاجِبُهُ
وأقبل الصبحُ فاستحيتْ مشارقُهُ وأَدْبَرَ الليلُ فاستخفتْ كواكبُهُ
كالسيد الماجِدِ الأعلى الهمام أبي حفصٍ لرحلته ضُمَّتْ مضارِبُهُ

وأنشد له ابن الإمام في «سمط الجمان»: [الكامل]

رَعْيًا لمنزلِهِ الخصيبِ وظلِّهِ وسقى الثرى النجديَّ سحُّ رَبَابِهِ
واهًا على ساداته لا أدَّعي كـلـفًـا بـزيـنـبـه ولا بـرَبَـابِـه

ويُعْرف رحمه اللّه تعالى بابن المواعيني.

وقال ابنه أبو جعفر أحمد: [الخفيف]

(١) ترجمة أبي محمد بن خيرة الإشبيلي في التكملة (ص ٥١٥).

يا أخي، هاتِها وحَجِّبْ سَناها عن مُشيرٍ بها جنونًا وسخْفَا
هذه الشمسُ إنْ بدت لضعيف الـ ـعين زادت في ذلك الضعف ضُعْفَا
إنّما يشربُ المدامةَ مَنْ إنْ خَشُنَتْ كَفُّهُ جَفَاها وكَفَّا

وكتب الوزير أبو الوليد إسماعيل بن حبيب الملقب بحبيب[1] إلى أبيه: لَمَّا خُلق الربيع من أخلاقك الغرّ، وسَرَق زَهْرَه من شيمك الزُّهْر، حَسُنَ في كلّ عين منظره، وطاب في كل سمع خَبَره، وتاقت النفوسُ إلى الراحة فيه، ومالت إلى الإشراف على بعض ما يَحْتَويه، من النور الذي بُسِط على الأرض حُلَلاَ، لا ترى[2] في أثنائها خَلَلاَ، سُلُوكٌ نُثِرَتْ على الثرى، وقد ملئت مِسْكًا وعَنْبَرا، إن تنسَّمْتها فأَرِجَة، أو توسَّمْتَها فبَهِجَة[3]: [البسيط]

فالأرضُ في بزّةٍ[4] مِنْ يانعِ الزَّهَرِ تُزْرِي إذا قِسْتَها بالوشي والحبَرِ
قد أَحْكَمَتْها أكفُّ المُزْنِ واكفَةً وطَرَّزَتْها بما تهمي مِنَ الدُّرَرِ
تَبَرَّجَتْ فسَبَتْ منّا العيونَ هَوًى وفِتْنَة بعد طول السَّتْر والخَفَرِ

فأوجِدْ لي سبيلاً إلى إعمال بصري فيها، لأَجْلُو بصيرتي بمحاسن نواحيها، والفصل على أن يكمل أوانه، ويتصرَّم وقْتُه وزمانه فلا تُخْلِنِي من بعض التشفي منه، لأصدر نفسي متيقِّظة عنه، فالنفوسُ تصدأ كما يصدأ الحديد، ومَنْ سعى في جلائها فهو الرشيد السديد.

ومن شعره يصف وَرْدًا بعث به إلى أبيه[5]: [الكامل]

يا من تَأَزَّرَ بالمكارم وارْتَدَى بالمجدِ والفضلِ الرفيعِ الفائقِ
انظُرْ إلى خَدِّ الربيعِ مركّبًا في وجهِ هذا المِهْرَجانِ الرائقِ
وَرْدٌ تقدَّم إذ تأخَّر واغتدى في الحُسْن والإحسان أولَ سابق
وافاك مشتملاً بثوبِ حيائِهِ خجلاً لأنْ حَيّاك آخرَ لاحقِ

---

(١) هو إسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب، توفي نحو ٤٤٠ هـ. جذوة المقتبس (ص ١٦٢) وبغية الملتمس (ص ٢٢٨) والذخيرة (ق ٢ ص ١٢٤) والمغرب (جـ ١ ص ٢٥٠) والنص النثري في الذخيرة (ص ١٢٥ ـ ١٢٦) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٢) في طبعة ليدن: «لا يرى الناظر في أثنائها...».
(٣) الأبيات في الذخيرة (ق ٢ ص ١٢٦).
(٤) في الذخيرة: «في بردة».
(٥) الأبيات في الذخيرة (ص ١٣٢) دون تغيير عمّا هنا.

ولـه[1]: [الطويل]

أتى الباقلاءُ الباقلُ اللونِ لابسًا بُرُودَ[2] سَمَاءٍ من سحائبها غُذي
ترى نَورَهُ يَلْتاحُ في وَرَقَاتِهِ كبُلْقِ جِيادٍ في جِلالِ زمرّذِ[3]

وقال[4]: [المتقارب]

إذا ما أدرت كؤوسَ الهوى ففي شربها لستُ بالمؤتلي[5]
مُدَامٌ تُعَتَّقُ بالناظرين وتلك تُعَتَّقُ بالأَرْجُلِ

وكان وهو ابن سبع عشرة سنة يَنْظم النظم الفائق، وينثر النثر الرائق، وأبو جعفر بن الأبّار هو الذي صَقَل مِرْآته، وأقام قَنَاته، وأطلعه شهابًا ثاقبًا، وسلك به إلى فُنون الآداب طريقًا لاحِبا[6]، وله كتاب سماه بـ «البديع، في فصل الربيع» جمع فيه أشعار أهل الأندلس خاصّة، أعرب فيه عن أدب غزير، وحظّ من الحفظِ مَوفور، وتوفي وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، واستوزره داهيةُ الفتنة، ورَحَى المحنة، قاضي إشبيلية عَبَّاد[7] جَدُّ المعتمد، ولم يزل يُصْغي إلى مقاله، ويرضى بفعاله، وهو ما جاوز العشرين إذ ذاك، وأكثر نظمه ونثره في الأزاهر، وذلك يدلّ على رقّة نفسه، رحمه اللّه تعالى!

وقال الوزير الكاتب أبو الحسن علي بن حصن، وزير المعتضد بن عباد[8]: [المجتث]

عليّ أنْ أتذلّلْ له وأنْ يتدلّلْ
خَدٌّ كأنَّ الثُّرَيَّا عليه قُرْطٌ مسلسلْ

وقال[9]: [مخلع البسيط]

---

(١) البيتان في الذخيرة (ص ١٣٣).
(٢) في الذخيرة: «البرد سماء..».
(٣) الزمرذ: الزمرد وهو حجر كريم شديد الخضرة.
(٤) البيتان في الذخيرة (ص ١٣٤) دون تغيير عمّا هنا.
(٥) في طبعة عبد الحميد: «بالمُرْقِلِ».
(٦) الطريق اللاحب: الواضح.
(٧) في طبعة ليدن: «ابن عباد».
(٨) البيتان في الذخيرة (ق ٢ ص ١٥٩) دون تغيير عمّا هنا.
(٩) البيتان في الذخيرة (ص ١٦٥) دون تغيير عمّا هنا.

طَلَّ على خَدِّه العِذارُ فافْتُضِحَ الآسُ والبَهارُ
وابْيَضَّ هذا[1] واسودّ هذا فاجتمعَ الليلُ والنهارُ

وقال الوزير أبو الوليد بن طريف في المعتمد بعد خلعه: [السريع]

يا آلَ عبادٍ ألاَ عَطْفَةٌ فالدهرُ من بعدكمُ مظلمُ
من الذي يُرْجَى لِنَيلِ العُلا ومن إليه يَفِدُ المعدمُ
ما أنكرَ الدهر سوى أنه بجودكمْ في فعله يزْغمُ[2]

وله: [السريع]

مَنْ حُلِقَتْ لحيةُ جارٍ له فليسكبِ الماءَ على لحيتِهْ

وقد أجرينا في هذا الكتاب ذكر جملة من أخبار المعتمد بن عباد ونظمه في أماكن متعدّدة فلتراجع.

ومن نظمه[3]: [البسيط]

ثلاثةٌ مَنَعَتْها عن زيارتها خَوفَ الرقيب وخوفَ الحاسِدِ الْحَنِقِ
ضَوْءُ الجبين، ووَسْوَاسُ الْحُلِيِّ، وما تحوي مَعَاطِفُها مِنْ عَنْبَرٍ عَبِقِ
هَبِ الجبينَ بفضلِ الكمِّ تستره والحليَ تنزعه، ما حيلةُ العرَقِ

وقال[4]: [المنسرح]

يوم يقولُ الرسولُ قد أذنتْ فأتِ على غيرِ رقْبة ولِجِ
أقبلتُ أهوي إلى رحالهمُ أُهْدَى إليها بريحِها الأرِجِ

وقال: ويُستدلّ على الملوكية بالطيب في المواطن التي يكون الناس فيها غير معروفين كالحمام ومعارك الحرب ومواسم الحجّ.

رجع إلى ما كُنّا فيه:

وقال أبو العباس أحمد الخزرجي القرطبي: [الوافر]

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «وابيضّ ذا» وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) في الطبعة نفسها: «يزعم». وفي طبعة ليدن: «بجوركم في..».
(٣) في طبعة ليدن: «ومن نظم المعتمد رحمه الله قوله». والأبيات في ديوان المعتمد بن عباد (ص ٢٢).
(٤) ديوان المعتمد بن عباد (ص ١١٩).

وفي الوَجَناتِ ما في الروض لكنْ لرونق زهرها مَغْنًى عجيبُ
وأعجبُ ما التعجُّبُ منه أنّي أرى البستانَ يحمله قضيبُ

وقال الوزير أبو أيوب[1] سليمان بنُ أبي أمية يخاطب رئيسًا قد بلغه عن بعض أصحابه كلام فيه غَضّ منه: [مجزوء الكامل]

هوِّن عليكَ كلامَهُ واسمحْ له فيمن سَمَحْ
ماذا يسوءك إنْ هجا ماذا يسرّك إنْ مَدَحْ
أوَ ما علمْتَ بلى جهلـ ـتَ بأنه غِلٌّ طفح
وخفيّ حقدٍ كامنٍ دأبوا له حتى اتَّضح
هذا بمُسْتَنِّ الوقا ر فكيف لو دار القدحْ
فاشْكُرْ عوارفَ ذي الجلا ل بما وقى وبما منح

وقال أبو علي عمر بن أبي خالد يخاطب أبا الحسن علي بن الفضل: [الوافر]

أبا حسن وما قَدُمَتْ عهودٌ لنا بَينَ المنارة والجزيرهْ
أتذكرُ أُنسنا والليلُ داجٍ بخمرٍ في زجاجتها منيرهْ
إذا الملاحُ ضَلَّ رنا إليها فأبصرَ في مناحيه مسيرهْ

وقال الكاتب عبد الله المهيريس[2]، وكان حلو النادرة، لما شرب عند الوزير أبي العلاء ابن جامع وقد نظر إلى فاختة فأعجبه حسنها ولحنها[3]: [الوافر]

ألاَ خُذْها إليكَ أبا العلاء حِلَى الأمداح تَرْفُلُ في الثناءِ
وَهَبْهَا قَينَةً تُجلَى[4] عروسًا خضِيبَ الكفِّ قانِيَةَ الرِّداءِ
لأَجْعَلَها محلَّ جليسِ أُنسي وأَغْنَى بالهديلِ عن الغِناءِ

---

(١) كلمة «أيوب» ساقطة من طبعة عبد الحميد. وترجمة أبي أيوب سليمان بن أبي أمية في المغرب (جـ ١ ص ٢٤٨) ومطمح الأنفس (ص ٢٨).
(٢) ترجم له ابن سعيد في المغرب (جـ ١ ص ٢٥٣) وسماه: «الكاتب أبو محمد عبد الله بن عمر الإشبيلي الملقب بالمهيرس». وترجم له في اختصار القدح (ص ١٩٨) وسماه «أبو عبد الله محمد بن عمر الإشبيلي، المعروف بالمهيدر».
(٣) الأبيات في المغرب واختصار القدح.
(٤) في المصدرين السابقين: «تُهْدى عروسًا».

وحُكي أنه ناوله ليمونة وأمره بالقول فيها فقال: [الكامل]

أهدى إليَّ بروضةٍ ليمونةً   وأشار بالتشبيه فعلَ السيدِ
فَصَمَتُّ حيناً ثم قلت: كجلجلٍ   مِنْ فِضَّةٍ تعلوه صفرةُ عسجدِ

وقال الكاتب أبو بكر بن البناء يرثي أحد بني عبد المؤمن، وقد عُزل من بَلَنسِية وولي إشبيلية فمات بها[1]: [الطويل]

كأنك مِنْ جنسِ الكواكبِ كُنْتَ لم   تفارِقْ طلوعًا حالُها وتَوَارِيَا
تَجَلَّيتَ مِنْ شَرْقٍ تَروقُ تلألؤًا   فلما انتحيتَ الغربَ أصبحْتَ هاوِيا

وكان محمد بن مروان بن زُهْر[2] - كما في المغرب والمسهب والمطرب، وقد قدَّمْنا بعض أخباره - منشأ الدولة العَبَّادية وأوّل من تُثْنَى عليه الخَنَاصر، وتستحسنه البواصر، فضاقت الدولة العبادية عن مكانه، وأُخرج عن بلده، فاسْتُصْفِيَتْ أمواله، فلحق بشرق الأندلس، وأقام فيه بقيّة عمره، ونشأ ابنُه الوزير أبو مروان عبد الملك بن محمد، فما بلغ أَشُدَّهُ، حتى سَدَّ مَسَدَّه، ومال إلى التفنّن في أنواع التعليم[3] من الطبّ وغيره، ورحل إلى المشرق لأداء الفرض، فملأ البلاد جلالة، ونشأ ابنه أبو العلاء زُهْر بن عبد الملك، فاخترع فضلاً لم يكن في الحساب، وشرع نُبلاً قصرت عنه نتائج أُولي الألباب، ونشأ بشرق الأندلس والآفاق تَتَهادى عجائبَه، والشامُ والعراق تتدارس بدائعَه وغرائبه، ومال إلى علم الأبدان فلولا جلالة قدره، لقلْنا جاذَبَ هاروتَ طَرَفًا من سِحْرِه، ولولا أنَّ الغلوّ آفة المديح[4]، لما اكتفى فيه بالكناية عن التصريح، ولم يزل مقيمًا بشرق الأندلس إلى أن كان من غزاة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ومَنْ انضمَّ إليه من ملوك الطوائف ما عُلم، وشَخَص أبو العلاء معهم، فلقيه المعتمد بن عباد، واستماله واستهواه، وكاد يغلب على هواه، وصرف[5] عليه أملاكه فحنَّ إلى وطنه، حنين النِّيبِ[6] إلى عَطَنه، والكريم إلى

---

(١) البيتان في المغرب (جـ ١ ص ٢٥٤) واختصار القدح (ص ١١٩) وتقدما في هذا الجزء (ص ٢٧٧) وأشرنا هناك إلى المصادر التي وردا فيها.

(٢) ترجمة محمد بن مروان بن زهر وولده وحفيده في الذخيرة (ق ٢ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠).

(٣) في طبعة دار صادر: «التعاليم».

(٤) في الطبعة نفسها: «المديح، لَتَجاوَزْتُ طلق الجموح، ولكنني اكتفيْتُ بالكناية..».

(٥) في طبعة بولاق: «وتصرّف».

(٦) النِّيبُ: جمع ناب وهي الناقة المسنّة. العطن: مبرك الإبل.

سَكَنه، ونزع إلى مقرّ سَلَفه، نزوع الكوكب إلى بيت شرفه، إلاً أنه لم يستقرّ بإشبيلية إلاً بعد خلع المعتمد، وحلّ عند يوسف بن تاشفين محلاً لم يحلّه الماء من العطشان، ولا الروح من جسد الجبان، ولما كتب إليه حسام الدولة بن رَزِين مالك السهلة بقوله[1]: [الكامل]

عَادِ اللئيمَ فأنتَ مِنْ أعدائِهِ ... ودَعِ الحسودَ بِغِلِّهِ وبَذَائِهِ[2]
لا كان إلاَّ مَنْ غَدَتْ أعداؤه ... مشغولةً أفواهُهُمْ بجفائِهِ
أَبا العلاء لَئِنْ حُسِدْتَ لطالما ... حُسِدَ الكريمُ بجوده ووفائه
فَخَرَ العلاءُ فكنتَ من آبائه ... وزها[3] السناءُ فكنت من أبنائه
كُنْ كيف شئتَ مُشاهِدًا أو غائبًا ... لا كان قلبٌ لستَ في سَودَائه

أجابه بقوله[4]: [الكامل]

يا صارمًا حَسَمَ العِدَا بمضائِهِ ... وَتَعَبَّدَ الأحرارَ حُسْنُ وفائِهِ[5]
ما أثّر العضبُ الحسامُ بذاته ... إلاَّ بأنْ سُمِّيتَ مِنْ أسمائِهِ

وكَلَّفه الحسامُ المذكور القولَ في غلام قائم على رأسه، وقد عذّر، فقال[6]: [الخفيف]

مُحِيَتْ آيةُ النهارِ فأضحى ... بَدْرَ تِمّ وكان شمسَ نهارِ
كان يُعْشِي العيونَ نارًا إلى أن ... أشغلَ اللّهُ خدَّه بالعِذارِ

وقال[7]: [المتقارب]

عِذارٌ أَلَمَّ فأبدَى لنا ... بدائعَ كُنَّا لها في عَمَى
ولو لم يجنَّ النهارَ الظلا ... مُ لم يَسْتَبِنْ كوكبٌ في السَّمَا

وقال: [البسيط]

---

(١) الأبيات في الذخيرة (ق ٢ ص ٢٢١).
(٢) في الذخيرة: «وبدائِهِ».
(٣) في الذخيرة: «ونأى».
(٤) البيتان في الذخيرة (ص ٢٢١).
(٥) في الذخيرة: «حُرُّ وفائِهِ». وتَعَبَّدَ الأحرار: جعلهم عبيدًا.
(٦) تقدم هذان البيتان في هذا الجزء (ص ٢١٧) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٧) تقدم هذان البيتان أيضًا في هذا الجزء (ص ٢١٧).

يا راشقي بسهامٍ ما لها غرضٌ   إلاَّ الفؤاد وما منه له عوضُ
ومُمْرِضي بجفون لَحْظِها غَنِجٌ   صَحَّتْ وفي طبعها التمريضُ والمرضُ
امننْ ولو بخيالٍ منك يؤنسني   فقد يسدُّ مسدَّ الجوهرِ العَرَضُ

وهذا معنى في غاية الحسن.

وكان بينه وبين الإمام أبي بكر بن بَاجَة ـ بسبب المشاركة ـ ما يكون بين النار والماء، والأرض والسماء، ولما قال فيه ابن باجة: [مخلع البسيط]

يا مَلَكَ الموتِ وابنَ زهرٍ   جاوزْتُما الحَدَّ والنهايَهْ
تَرَفَّقَا بالوَرَى قليلاً   في واحدٍ منكما الكفايَهْ

قال أبو العَلاَء: [السريع]

لا بد للزنديق أنْ يُصْلَبَا   شاءَ الذي يَعْضُدُهُ أو أَبَى
قد مَهَّدَ الجذعُ له نَفْسَهُ   وسَدَّدَ الرمحُ إليه الشَّبَا

والذي يعضده مالك بن وهيب جليس أمير المسلمين وعالمه.

وأمَّا حفيده أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر فهو وزير إشبيلية وعظيمها وطبيبها وكريمها، ومن شعره: [الطويل]

رَمَتْ كبدي أختُ السماءِ فأَقْصَدَتْ[1]   أَلاَ بأبي رامٍ يصيبُ ولا يخطي
قريبةُ ما بين الخلاخيلِ إنْ مَشَتْ   بعيدةُ ما بين القلادة والقُرْطِ
نعمْتُ بها حتى أُتِيحَت لنا النوى   كذا شِيَمُ الأيامِ تأخذُ ما تعطي

وتوفي سنة خمس وتسعين وخمسمائة، وأمر أن يكتب على قبره: [المتقارب]

تَأَمَّلْ بفضلك يا واقفًا   ولاحظْ مكانًا دُفِعْنا إليهْ
ترابُ الضريحِ على صفحتي   كأَنيَ لم أمشِ يومًا عليهْ
أُداوي الأنامَ حِذارَ المنونِ   فها أنا قد صِرْتُ رَهْنًا لديهْ

رحمه اللّه تعالى، وعفا عنه!

وفي هذه الأبيات إشارة إلى طبّه ومعالجته للناس، رحمه اللّه تعالى! وقد ذكرت[2]

---

(١) أقصد السهمُ: أصاب.

(٢) في طبعة دار صادر: «وقد ذكرنا».

بعض أخباره في غير هذا الموضع.

وقال أبو الوليد بن حَزم[1]: [البسيط]

مـرآكَ مـرآكَ لا شـمـسٌ ولا قَـمَـرُ ... ووردُ خَـدَّيـكَ لا وَردٌ ولا زَهَـرُ
في ذمة اللّه قَلْبٌ أنتَ ساكنه ... إنْ بِنْتَ بان فلا عَينٌ ولا أَثَرُ

وقـال[2]: [الكامل]

لـلّـه أيـامٌ عـلـى وادي الـقـرى ... سَلَفَتْ لنا والدهرُ ذو ألوانِ
إذ نَجْتَنِي في ظِلّه ثَمَرَ المُنَى ... والطيرُ ساجعةٌ على الأغصانِ
والشمسُ تنظرُ[3] مِنْ مَحَاجرِ أرْمَدٍ ... والطَّلُّ يركضُ في النسيمِ الْوَانِي
فَلَثِمْتُ فاهُ والتزمْتُ عناقَهُ ... ويَدُ الوصالِ على قَفَا الهجرانِ

وقال ابن عبد ربه[4]: [البسيط]

يا قابضَ الكَفِّ لا زالتْ مُقَبَّضَةً ... فـمـا أنـامـلُـهـا لـلـنـاسِ أرزاقُ
وغِبْ إذا شئتَ حتى لا تُرَى أبدًا ... فـمـا لِفَقْدِكَ في الأحشاءِ إقلاقُ

وقال في المدح[5]: [الطويل]

وما[6] خُلقت كَفَاكَ إلاّ لأربعٍ ... عَقَائِلَ لم تُخْلَقْ لَهُنَّ يَدَانِ
لِتَقْبيلِ أَفْوَاهٍ، وإعطاءِ نائلٍ ... وتقليبِ هنديّ، وحبسِ عِنانِ

وقال الكاتب أبو عبد اللّه بن مصادق[7] الرُّنْدِي الأصل: [الرمل]

صارَمَتْهُ إذ رأتْ عارضَهُ ... عادَ مِنْ بعد الشبابِ أشيبا
قلتُ ما ضَرَّكِ شَيبٌ فلقد ... بقِيَتْ فيه فُكَاهات الصِّبا
هو كالعنبرِ غالٍ نَفْحُه ... وشذاه أخضرًا أو أَشْهبا

---

(1) ترجمة أبي الوليد بن حزم في الذخيرة (ق ٢ ص ٥٨٨) والمغرب (جـ ١ ص ٢٤٤).
(2) الأبيات في الذخيرة (ق ٢ ص ٦٠١ - ٦٠٢).
(3) في الذخيرة: «والشمس ترمق.. والظلُّ يركض..».
(4) ديوان ابن عبد ربه (ص ١١٧) والعقد الفريد (جـ ٢ ص ٣٥١).
(5) ديوان ابن عبد ربه (ص ١٦٦) ويتيمة الدهر (جـ ٢ ص ١٠).
(6) في يتيمة الدهر: «لما خلقت... لم يخلق لهنّ..».
(7) في طبعة ليدن: «مصادف» بالفاء.

وقـال: [البسيط]

وَوردة وردتْ فـي غـيـر مـوقـتـهـا والسُّحْبُ قد هملتْ أجفانها هطلا
وإنما الروضُ لمّا لم يُفِدْ ثمرًا يَقْرِيكَهُ انفتحتْ في خَدِّه خجلا

ولـه: [البسيط]

لـم أحـتـفـل لـقـدوم الـعِـيـدِ مِنْ زمنٍ قد كان يُبْهجني إذ كنتُ في وَطَنِي
لـم أَلْقَ أهـلـي ولا إلْفِي ولا وَلَدِي فـلـيـت شـعـري سُرُوري واقـعٌ بِـمَـنِ

وقـال: [السريع]

يقولُ لي العاذلُ تُبْ عن هوى مَنْ لـيـس يُدْنيك إلى مطلبِ
وكـيـف لي والـديـنُ ديـن الهوى فـلا أرى أرجـح مـن مـذهـبـي
ألـيـس بـابُ الـتَّـوْب قـد سـدَّه طـلـوعُـه شـمـسًـا مـن الـمـغـرب

ولـه: [الكامل]

امْـنَـعْ كـرائـمـك الـخـروجَ ولا تُـظْـهِـرْ لـذلـك وَجْـهَ مـنـبـسـطِ
لا تـعـتـبـرْ مـنـهـنَّ مـسـخـطـةً نيلُ الرضا[1] في ذلك السخط
أَوَلَـسْـنَ مـثـل الـدُّرِّ فـي شَـبَـهٍ والدُّرُّ من صَدَفٍ إلى سَفَطِ[2]

وقال المعتمد بن عباد[3]: [مخلع البسيط]

تَـمَّ لـه الـحُـسْـنُ بـالـعِـذارِ واخـتـلـطَ الـلـيـلُ بـالـنـهـارِ
أخـضـرٌ فـي أبـيـضٍ تَـبَـدَّى فَـذَاك آسِـي وذا بَـهَـاري
فـقـد حَـوَى مـجـلـسـي تـمـامًـا إنْ يَـكُ مِـنْ رِيـقِـه عُـقَـاري

وقال ابن فرج الجَيَّاني رحمه الله تعالى[4]: [الوافر]

وطائعةِ الوصالِ صَدَدْتُ[5] عنها ومـا الـشـيـطـانُ فـيـهـا بـالـمـطـاعِ

---

(١) في طبعة ليدن: «نَيْلُ المنى في. .».
(٢) السَّفَطُ، بالفتح: وعاء الطِّيب وأدوات النساء. لسان العرب (سفط).
(٣) ديوان المعتمد بن عباد (ص ١٧).
(٤) تقدمت هذه الأبيات في هذا الجزء (ص ١٧٢) ببعض الاختلاف عمّا هنا. وأشرنا هناك إلى المصادر التي وردت فيها وإلى بعض الاختلاف في الرواية.
(٥) في طبعة عبد الحميد: «صدرتُ».

بَدَتْ في الليل سافرةً فباتَتْ ... دياجي الليلِ سافرةَ القناعِ
وما مِنْ لَحْظةٍ إلاّ وفيها ... إلى فِتَنِ القلوبِ لها دَوَاعي
فملَّكْتُ الهوى جَمَحاتِ قلبي[1] ... لأجريَ في العفاف على طباعي
كذاك الروضُ ما فيه لمثلي ... سوى نظرٍ وشَمّ مِنْ متاع
ولستُ مِنَ السوائم مهملاتٍ ... فأتخذَ الرياضَ مِنَ المراعي

وقال[2]: [الوافر]

بأيِّهما أنا في الشُّكْرِ بادي ... بِشُكْرِ الطَّيفِ أم شكرِ الرقادِ
سَرَى فَازْدَادَ لِي أملي ولكنْ ... عَفِفْتُ فلم أنَلْ منه مُرادي
وما في النوم مِنْ حَرَجٍ ولكنْ ... جَرَيْتُ مع العفافِ على اعتيادي

وقال الرصافي[3]: [الكامل]

وعَشِيِّ أُنسٍ للسرور وقد بَدَا[4] ... من دون قُرْصِ الشمس ما يَتَوَقَّعُ
سَقَطَتْ فلم يملكْ نديمُكَ رَدَّهَا[5] ... فَوَدِدْتُ يا موسى لَوَ انَّكَ يُوشَعُ

وقال ابن عبد ربه[6]: [البسيط]

يَرَاعَةٌ غرّني منها وميضُ سَنًا ... حتّى مَدَدْتُ إليها الكَفَّ مُقْتَبِسَا
فصادَفَتْ حَجَرًا لو كنتَ تَضرِبُهُ ... مِنْ لؤمه بعصا موسى لَمَا انْبَجَسَا
كأنما صِيغ من لؤم[7] ومن كَذِبٍ ... فكان ذاك له رُوحًا وذا نَفَسا

وقال ابنُ صَارَةَ في فروة[8]: [الكامل]

أَوْدَتْ بذاتِ يدي فُرَيَّةُ أرنبٍ ... كفؤادِ عُرْوَةَ في الضّنى والرِّقَّةِ

---

(١) في طبعة دار صادر: «جمحات أمري».
(٢) ستردُ هذه الأبيات في الجزء الخامس ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٣) ديوان الرصافي (ص ١٠٥).
(٤) رواية صدر البيت في الديوان هي:

فابْلُ بِهَا رَمَقَ الغَبُوقِ فقد أتى

(٥) في الديوان: «ولم تَملِكْ يمينُكَ رَدَّها».
(٦) ديوان ابن عبد ربه (ص ٩٢) والعقد الفريد (جـ ١ ص ٢٥٢) و (جـ ٦ ص ١٩٥).
(٧) في الديوان: «من بخل ومن كَذِبٍ..».
(٨) الأبيات في أخبار وتراجم أندلسية (ص ١٥) وقلائد العقيان (ص ٢٥٩).

يتجشَّمُ الفَرّاءُ مِنْ ترقيعها[1] بُعْدَ المشقّةِ في قريبِ الشقَّةِ
لو أنَّ ما أنفقتُ في ترقيعها[2] يُحْصَى لزاد على رمال الرَّقَّةِ
إنْ قلتُ بسمِ اللَّه عند لباسها قرأتْ عليَّ (إذا السماء انْشَقَّتِ)[3]

وقال الغزال: [الكامل]

والمرءُ يعجبُ من صغيرةِ غيره أيُّ امرىءٍ إلاَّ وفيه مقالُ
لسنا نرى من ليس فيه غَمِيزةٌ[4] أيُّ الرجال القائلُ الفَعّالُ

وقال أبو حَيّان: [البسيط]

لا تَرْجُوَنَّ دوامَ الخير مِنْ أحدٍ فالشرُّ طبعٌ وفيه الخيرُ بالعَرَضِ
ولا تظنَّ امْرأً إليك نَدًى[5] من أجل ذاتك بل أسداهُ للغرضِ

وقال ابن شُهَيد[6]: [الطويل]

ولَمَّا فَشَا بالدمعِ ما بين[7] وجدنا إلى كاشِحِينا ما القلوبُ كواتمُ
أمَرْنَا بإمساكِ الدموعِ جُفُونَنا لِيَشْجَى بما نطوي[8] عَذُولٌ ولائمُ
أبى دَمْعُنا يجري مَخافةَ شامِتٍ فنظَّمَهُ بين المَحَاجرِ ناظِمُ
ورَاقَ الهَوَى مِنّا عيونٌ[9] كريمة تَبَسَّمْنَ حتى ما تروقُ المباسم

وقال في الانتحال[10]: [الطويل]

وبُلِّغْتُ أقوامًا تجيشُ صُدُورُهُمْ عليَّ وإني فيهمُ[11] فارغُ الصدر

---

(١) في قلائد العقيان: «في ترقيعها». ورواية صدر البيت في أخبار وتراجم أندلسية هي:

فترى مُرَقِّعها يقاسي دَهْرَهُ

(٢) في قلائد العقيان: «في إصلاحها يُحْصى.. الدجلةِ».
(٣) في أخبار وتراجم أندلسية: «بسم اللّه بين رقاعها..». وما بين قوسين الآية ١ من سورة الانشقاق ٨٤.
(٤) الغميزة: العيب. لسان العرب (غمز).
(٥) في طبعة بولاق: «إليك يَدًا».
(٦) ديوان ابن شهيد الأندلسي (ص ١٣٩ - ١٤٠).
(٧) في الديوان: «من سِرِّ وَجْدنا».
(٨) في الديوان: «بما يطوي».
(٩) هكذا في الديوان، وفي طبعة دار صادر: «عيونًا».
(١٠) ديوان ابن شهيد (ص ٦٨).
(١١) في الديوان: «وإني منهمُ».

أصاخوا إلى قولي فأسمعتُ مُعجزًا وغاصوا على سِرّي فأعجزهم[1] أمري
فقال فريقٌ ليس ذا الشِّعْرُ شِعْرَهُ وقال فريقٌ أيْمُنُ اللّه ما ندري
فَمَنْ شاءَ فلْيَخْبُرْ فإنيَ حاضِرٌ ولا شيءَ أجْلَى للشكوك مِنَ الخُبْرِ

وينظر إلى مثل هذا قصةُ أبي بكر بن بَقي حين استهدى من بعض إخوانه أقلامًا فبعث إليه بثلاث من القصب، وكتب معها[2]: [البسيط]

خُذْها إليكَ أبا بكر العُلاَ قَصَبًا كأنما صاغَها الصَّوّاغُ مِنْ وَرِقِهْ
يُزْهَى بها الطِّرْسُ حسنًا ما نثرتَ بها مِسْكَ المدادِ على الكافورِ مِنْ ورقِهْ

فأجابه أبو بكر: [البسيط]

أرسلتَ نحوي ثلاثًا مِنْ قَنًا سُلُبٍ مَيَّادة تطعنُ القرطاسَ في دَرَقِهْ
فالخطُّ يُنْكِرُها والحظُّ يعرفُها والرِّقُّ يخدمُها بالرِّق في عُنُقِهْ

فحسده عليه بعض من سمعه، ونسبه إلى الانتحال، فقال أبو بكر يخاطب صاحبه الأول: [البسيط]

وجاهلٍ نسب الدعوى إلى كلمي لَمّا رمَاهُ بمثلِ النَّبلِ في حَدَقِهْ
فقلتُ مِنْ حَنَقٍ لما تَعَرَّضَ لي مَنْ ذا الذي أخرج اليربوعَ[3] من نفقهْ
ما ذمَّ شعري وأيمُ اللّه لي قَسَمٌ إلاّ امرؤ ليست الأشعارُ من طُرُقِهْ
والشعرُ يشهد أني من كواكبه بل الصباحُ الذي يستنُّ من أُفقهْ

وقال ابن شُهَيد أيضًا في ضيف[4]: [الطويل]

وما انفكَّ معشوقُ الثناءِ يَمُدُّهُ ببشرٍ وترحيبٍ وبَسْطِ بَنَانِ[5]
إلى أنْ تشهَّى البَيْنَ من ذاتِ نفسه وحَنَّ إلى الأَهْلِينَ حَنَّةَ حاني
فأَتْبَعْتُه ما سدَّ خَلَّةَ حالِهِ وأَتْبَعَني ذِكْرًا بكلِّ مكانِ

---

(١) في الديوان: «فأعياهُمُ أمري».
(٢) هذان البيتان والأبيات التالية في شرح مقامات الحريري (جـ ١ ص ٤٧).
(٣) اليربوع: حيوان قاضم يشبه الفأر.
(٤) ديوان ابن شهيد الأندلسي (ص ١٦٨).
(٥) في الديوان: «وبَسْطِ لسانِ».

وقـال[1]: [الطويل]

وبِتْنا نراعي الليلَ لم يَطْوِ بُرْدَهُ ... ولم يجلُ شَيبُ الصُبْحِ في فَوْدِهِ وَخْطَا[2]
تـراه كمـلـك الزنـج مـن فـرطِ كبره ... إذا رام مـشـيًـا فـي تَـبَـخْـتـره أَبْـطـا
مُـطِـلاً عـلـى الآفـاقِ والـبـدرُ تـاجُـهُ ... وقد جعل[3] الجوزاءَ في أذنِهِ قُرْطَا

وقال بعضهم في لباس أهل الأندلس البياضَ في الحزن، مع أنّ أهل المشرق يلبسون فيه السواد[4]: [الوافر]

ألاَ يـا أهـلَ أنـدلسٍ فطنتُمْ ... بـلُـطْفـكُـم إلى أمرٍ عـجـيـبِ
لبستُـمْ في مـآتـمكـمْ بياضًـا ... فجئتـمْ منه في زيّ غريـبِ
صدقتـمْ فالبياضُ لباسُ حزنٍ ... ولا حُزْنٌ أشدُّ مِنَ المَشِيبِ

وقال أبو جعفر بن خاتمة[5]: [الخفيف]

هل جُسُومٌ يَومَ[6] النوى وَدَّعُوها ... بـاقِـيـاتٌ لِـسُـوءِ مـا أَوْدَعُـوهـا
يا حُدَاةَ القلوبِ ما العَذْلُ هذا ... أَتْبِعُوها أجسامَها[7] أو دَعُوها

وقـال القَسْطَلّي يصف هول البحر[8]: [الطويل]

إليـك ركبْنـا[9] الفُلْـكَ تهـوي كأنهـا ... وقد ذُعِرَتْ عن مَغْرِبِ الشمسِ غِرْبَانُ
عـلـى لُـجَـجٍ خُـضْـرٍ إذا هَـبَّـتِ الـصَّـبـا ... تَـرامـى بـهـا فـيـنـا ثَـبـيـرٌ وثَـهْـلانُ
مـوائـل[10]تَـرعـى فـي ذَرَاهـا مـوائـلاً ... كـمـا عُـبِـدَتْ فـي الـجـاهـلـيـةِ أوثـانُ

---

(1) ديوان ابن شهيد (ص ٨٨).
(2) رواية عجز البيت في الديوان هي:
ولـم يَـجْـرِ شـيـبُ الـصُّـبْـحِ فـي فَـرْعِـهِ وَخْـطَـا
(3) في الديوان: «وقد عَلّق الجوزاءَ..».
(4) شرح مقامات الحريري (جـ ١ ص ٤٩).
(5) ديوان ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي (ص ١١٨).
(6) في طبعة ليدن: «من النوى».
(7) في الديوان: «أجسادها».
(8) ديوان ابن دراج القسطلي (ص ٨٧ ـ ٨٨).
(9) في الديوان: «شَحَنّا الفُلْكَ».
(10) في الديوان: «موائل».

يَقُلْنَ وموجُ البَحْرِ والهَمِّ والدُّجا　　يموجُ بها فيها عيونٌ وآذانُ[1]
ألاَ هل إلى الدنيا مَعادٌ وهل لنا　　سوى البحرِ قَبْرٌ أو سوى الماء أكفانُ

وقال الرمادي يهنىء ابنَ العطار الفقيه بمولود: [البسيط]

يهنيكَ ما زادتِ الأيامُ في عَدَدِكْ　　مِنْ فِلْذَةٍ برزتْ للسعد من كَبِدِكْ
كأنما الدهرُ دهرٌ كان مُكْتَئِبًا　　مِنِ انفرادِكَ حتى زادَ في عَدَدِكْ
لا خَلَّفَتْكَ الليالي تحت ظلِّ رَدًى　　حتى ترى ولدًا قد شَبَّ من ولدك

وقال ابن صَارَة في النار: [الكامل]

هات التي للأيك أصلُ ولادها　　ولها جبينُ الشمسِ في الأشماسِ
يَتَقَشَّعُ الياقوتُ في لَبَّاتها　　بوسَاوِسٍ تشفي مِنَ الوسواسِ
أُنسُ الوحيدِ وصبحُ عينِ المجتلي　　ولباسُ مَنْ أمسى بغيرِ لباس
حمراء ترفلُ في السواد كأنما　　ضَرَبَتْ بِعرقٍ في بني العباس[2]

وقال فيها أيضًا[3]: [الخفيف]

لابنة الزَّنْدِ في الكوانين جَمْرٌ　　كالدراري في الليلة[4] الظلماءِ
خبروني عنها ولا تكذبوني　　ألديها صناعة الكيمياء
سَبَكَتْ فَحْمَها سبائكَ تِبْرٍ　　رصَّعَتْه بالفِضَّةِ البيضاء[5]
كُلَّما وَلْوَلَ[6] النسيمُ عليها　　رقَصَتْ في غلالةٍ حمراء
سَفَرَتْ عن جبينِها فأَرَتْنا　　حاجبَ الليل طالعًا بالعشاء[7]
لو ترانا مِنْ حولها قلتَ قومٌ[8]　　يتعاطَونَ أكؤس الصَّهْباءِ

---

(١) في أصول النفح: «مقاتل موج البحر..»، والتصويب عن الديوان. وفي الديوان: «تموج بنا فيها عيونٌ..».
(٢) يشير هنا إلى راية العباسيين السوداء.
(٣) الأبيات في قلائد العقيان (ص ٢٦٥).
(٤) في القلائد: «في دجى الظلماء».
(٥) في طبعة ليدن: «رصَّعَتْها» بدل «رَصَّعَتْهُ». وفي القلائد: «صفائح تِبْرٍ رَصَّعَتْها..».
(٦) في القلائد: «كلّما رفرف النسيمُ..».
(٧) في طبعة ليدن: «سفرت في عشائنا فأرتْنا». وفي القلائد: «سفرت في عشائها فأرتنا حاجب الشمس..».
(٨) في القلائد: «قلت شَرْبٌ».

وقال فيها الفقيه الأديب ابن لبال[1]: [مخلع البسيط]

فَحْمٌ ذَكَا في حشاهُ جَمْرٌ　　فقلتُ مِسْكٌ وجُلَّنارُ
أو خَدُّ مَنْ قد هويتُ لَمّا　　أطلَّ من فوقه العِذارُ

وكان أبو المطرف الزهري جالسًا في باب داره مع زائر له، فخرجتْ عليهما من زُقاقِ ثانٍ[2] جاريةٌ سافرةُ الوجهِ كالشمس الطالعة فحين نظرتهما على حين[3] غفلة منها نفرت خَجِلة، فرأى الزائر ما أبهَتَهُ فكلَّفه وصفها، فقال مرتجلاً: [البسيط]

يا ظبيةً نَفَرَتْ والقلبُ مسكنُها　　خوفًا لخَتْلِيَ[4] بل عمدًا لتعذيبي
لا تختشي فابنُ عبدِ الحقِّ أنْحَلَنا　　عدلاً يؤلف بين الظبي والذيب

وقال ابن شُهَيد[5]: [الرمل]

أصَباحٌ لاحَ أم بَدْرٌ بَدَا　　أم سَنا المحبوبِ أوْرَى زنَدا
هَبَّ مِنْ نَعْستِهِ منكسِرا　　مسبلٌ للكُمّ مُرْخٍ للرِّدَا
يمسح النعسة من عينيْ رشا　　صائد في كلِّ يومٍ أسدا
قلتُ هَبْ لي يا حبيبي قُبْلَة　　تَشْفِ من حبِّك[6] تبريحَ الصَّدَى
فانثنى يهتزّ من منكِبِهِ　　قائلاً لا ثم أعطاني اليدا
كلّما كلّمني قَبَّلْتُه　　فهو ما قال كلامًا رَدَّدَا
قال لي يلعبُ صِدْ لي طائرًا　　فتراني الدهر أجري بالكدى
وإذا استنجزتُ يومًا وعدَهُ　　قال لي يمطلُ ذَكِّرني غدا
شربتْ أعضاؤه[7] خمرَ الصِّبا　　وسقاه الحُسْنُ حتى عَرْبَدَا
رشأ بل غادةٌ مَمْكُورةٌ　　عَمَّمَتْ صبحًا بليل أسودا

---

(١) في طبعة بولاق: «ابن اللبان». وقد يكون أبا الحسن علي بن أحمد بن لبّال الشريشي، المتوفى سنة ٥٨٣ هـ. المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٢٧) والذيل والتكملة (جـ ٥ ص ١٦٩).

(٢) كلمة «ثانٍ» ساقطة من طبعة بولاق.

(٣) كلمة «حين» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٤) الخَتْلُ: الخداع.

(٥) تقدّم بعض هذه الأبيات في هذا الجزء (ص ٣٢٠ ـ ٣٢١) وأشرنا هناك إلى أنها في ديوان ابن شهيد (ص ٤٩ ـ ٥١) وفي روايتها بعض اختلاف عمّا هنا.

(٦) في طبعة دار صادر: «من هَمِّك». وفي الديوان: «من غَمِّك».

(٧) في طبعة دار صادر: «أغصانُه». وفي الديوان: «أعطافُهُ».

أخجلتُ[1] من عضّه في نهدها ثم عَضت خُرٌّ وجهي عمَدا
فأنا المجروحُ من عضّتها لا شفاني اللّه منها أَبَدَا

وقال محمد بن هانىء في الشيب[2]: [الكامل]

بِنتُمْ فلولا أنْ أُغبِّر[3] لِمّتي عَبَثًا وأَلْقَاكُمْ عليّ غِضابا
لَخَضَبْتُ شَيبًا في مفارق لِمّتي ومَحَوْتُ مَحْوَ النِّقْسِ عنه شبابا[4]
وخَضَبْتُ مُبْيَضّ[5] الحِداد عليكمُ لو أنني أَجِدُ البياضَ خِضابا
وإذا أردتَ على المشيب وِفادَةً فاجعلْ مَطِيَّكَ دونه الأحقابا
فلتأخذَنَّ من الزمانِ حَمامَةً ولتدفعنَّ إلى الزمان غُرابا

وكتب ابن عمار إلى ابن رَزين وقد عتب عليه أن اجتاز ببلده ولم يَلْقَه[6]: [البسيط]

لم تَثْنِ عنك عِناني سَلْوَةٌ خَطَرَتْ ولا فؤادي ولا سمعي ولا بصري
لكنْ عَدَتْنِيَ عنكمْ خَجْلَةٌ خَطَرَتْ[7] كفانيَ العُذْرَ منها بيتُ معتذرِ
[لو اختصرتمْ من الإحسان زُرْتُكُمُ والعَذْبُ يُهْجَرُ للإفراط في الْخَصَرِ)[8]

وقال ابن الجدّ[9]: [الطويل]

وإني لَصَبٌّ للتلاقي وإنما يصدُّ ركابي عن معاهدك العسرُ
أذوبُ حياء من زيارةِ صاحبٍ إذا لم يساعدْني على بِرِّهِ الوفرُ

وقال ابن عبد ربه[10]: [البسيط]

يا من عليه حِجابٌ مِنْ جَلالَتِهِ وإنْ بَدَا لكَ يومًا غَيرَ محجوبِ

---

(١) في طبعة دار صادر: «أَحْحَتْ من عَضّةٍ..». وفي الديوان: «أَحْحَتْ من عَضّتي..».
(٢) ديوان ابن هانىء الأندلسي (ص ٤٩ ـ ٥٠).
(٣) في الديوان: «أُغَيِّرَ» بالياء.
(٤) في الديوان: «شيبًا في عذاري كاذبًا..». والنِّقْسُ: المِدادُ، الحِبْرُ.
(٥) في الديوان: «مُسْوَدَّ الحِدادِ..».
(٦) الأبيات في الذخيرة (ق ٢ ص ٤٠٠ ـ ٤٠١).
(٧) في الذخيرة: «خَجْلَةٌ عَرَضَتْ..».
(٨) هذا البيت للمعري وقد ورد في وفيات الأعيان (جـ ٣ ص ١٩١).
(٩) البيتان في شرح مقامات الحريري (جـ ١ ص ٢٤٣).
(١٠) ديوان ابن عبد ربه (ص ٢٣) والعقد الفريد (جـ ٢ ص ٤٥٤).

ما أنتَ وَحْدَكَ مَكْسُوًّا ثيابَ[1] ضَنًى بل كلُّنا بكَ من مُضْنًى ومشحوبِ
ألقى عليكَ يَدًا للضُّرِّ كاشفةً كَشّافُ ضُرِّ نَبِيِّ اللَّه أيوبِ

وقال التُّخلي في مغنّية: [الوافر]

ولاعبةِ الوشاحِ كغصنِ بانٍ لها أَثَرٌ بتقطيعِ القلوبِ
إذا سَوَّتْ طريقَ العُودِ نقرًا وغَنَّتْ في محبٍّ أو حبيبِ
فيُمْناها تقدُّ[2] بها فؤادي ويُسْراها تعدُّ بها ذنوبي

وقال ابن شُهَيد[3]: [البسيط]

كلفتُ[4] بالحبِّ حتى لو دنا أَجَلي لَمَا وَجَدْتُ لِطَعْمِ الموتِ مِنْ أَلَمِ
وعاقني[5] كَرَمي عَمَّنْ وَلِهْتُ به وَيلي مِنَ الحُبِّ ووَيلي من الكَرَمِ

وكان[6] صوفيٌّ بشَرِيشَ حافظٌ للشعر، فلا يعرض في مجلسه معنى إلاّ وهو ينشد عليه، فاتّفق أن عطس رجلٌ بمجلسه، فشَمَّته[7] الحاضرون، فدعا لهم، فرأى الصوفي أنه إنْ شمّته قطع إنشاده بما لا يشاكله من النظم، وإن لم يشمته كان تقصيرًا في البرّ، فرغب حين أصبح من الطلبة نظم هذا المعنى، فقال الوزير الحسيب أبو عمرو بن أبي محمد[8]: [السريع]

يا عاطسًا يَرْحَمُكَ اللَّه إذ أعلنت بالحمد على عَطْسَتِكْ
ادْعُ لنا رَبَّكَ يغفرْ لنا وأخلصِ النِّيَّةَ في دعوتِكْ
وقلْ له يا سيدي رغبتي حضورُ هذا الجمع في حضرتكْ
وأنت يا ربُّ الندى والنوى بارك ربُّ الناسِ في ليلتكْ
فإن يكنْ منكمْ لنا عودةٌ فأنتَ محمودٌ على عودتكْ

---

(١) في الديوان والعقد: «شحوب ضنى».
(٢) تقدُّ فؤادي: تقطعه.
(٣) ديوان ابن شهيد (ص ١٤٨).
(٤) في الديوان: «أَلِمْتُ بالحُبِّ. .».
(٥) في الديوان: «وذادني كرمي».
(٦) في طبعة دار صادر: «وكان بشريش صوفي حافظ. .».
(٧) شَمَّتَ العاطِسَ: دَعَا له بقوله: يرحمك اللَّه. محيط المحيط (شمت).
(٨) شرح مقامات الحريري (ج ١ ص ٣٤١).

وهذا الوزير المذكور كان يُصَرِّفُ شعره في أوصاف الغزلان، ومخاطبات الإخوان، وكتب إلى الشريشي[1] شارح المقامات يستدعي منه كتاب العقد: [الطويل]

أيا مَنْ غَدَا سِلْكًا لجيد معارِفِهْ ... ومَنْ لَفْظُهُ زهرٌ أنيقٌ لقاطِفِهْ
مُحِبُّكَ أَضْحَى عاطِلَ الجِيدِ فَلْتَجُدْ ... بِعِقْدٍ على لَبَّاتِهِ وسَوَالِفِهْ

ووُعِكَ في بعض الأعياد، فعاده من أعيان الطلبة جملة، فلمّا هَمُّوا بالانصراف أنشدهم ارتجالاً[2]: [الكامل]

لله دَرُّ أفاضلٍ[3] أمجادِ ... شَرُفَ النَّدِيُّ بقصدهمْ والنادي
لَمّا أشاروا بالسلام وأزمعوا ... أنشدتهمْ وصدقتُ في الإنشاد
في العيد عُدْتُمْ وَهْوَ يوم عَرُوبَةٍ[4] ... يا فرحتي بثلاثةِ الأعياد

قال الشريشي في شرح المقامات: ولقد زُرْتُه في مرضه الذي توفي فيه رحمه اللّه تعالى أنا وثلاثةُ فتيانٍ من الطلبة، فسألني عنهم وعن آبائهم، فلمّا أرادوا الانصراف ناول أحدَهم محبرة، وقال له: اكتب، وأَمْلَى عليه ارتجالاً: [الطويل]

ثلاثةُ فتيانٍ يؤلّفُ بينهمْ ... نديٌّ كريمٌ لا أرى اللّه بينهمْ
تشابه خَلْقٌ منهمُ وخليقةٌ ... فإن قلت أين الحُسْنُ فانظره أين هُمْ
وزَيَّنَهُمْ أستاذهُمْ إذ غدا لهمْ ... معلّمَ آياتٍ فتمم زَينهمْ
فإنْ خِفْتَ من عين ففي الكلّ فلتقل ... وقى اللّه ربُّ الناسِ للكلّ عينهمْ

وقال الشريشي[5]: حدّثنا شيخنا أبو الحسين بن زرقون، عن أبيه أبي عبد اللّه، أنه[6] قعد مع صهره أبي الحسن عبد الملك بن عيّاش الكاتب على بحر المجاز، وهو مضطرب الأمواج، فقال له أبو الحسن: أَجِزْ: [الوافر]

ومُلْتَطِم الغوارِبِ مَوَّجَتْهُ ... بوارحُ في مناكبها غيومُ

---

(١) الشريشي هو صاحب كتاب «شرح مقامات الحريري».
(٢) شرح مقامات الحريري.
(٣) في طبعة ليدن: «أفاضل أنجاد». وفي شرح مقامات الحريري: «دَرُّ عصابةٍ..».
(٤) يوم عروبة: هو يوم الجمعة في الجاهلية.
(٥) شرح مقامات الحريري (جـ ١ ص ٣٦٥).
(٦) كلمة «أنه» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

فقال أبو عبد الله: [الوافر]

تَمَنَّعَ لا يَعُومُ به سَفينٌ ... ولو جَذَبَتْ به الزُّهْرُ النجومُ

وكان لابن عبد ربه فتى يهواه، فأعلمه أنه يسافر غدًا، فلمّا أصبح عاقه المطر عن السفر، فانجلى عن ابن عبد ربه هَمُّه، وكتب إليه[1]: [البسيط]

هَلاَّ ابتكرْتَ لِبَينٍ أنتَ مُبْتَكِرُ ... هيهاتِ يأبى عليك اللَّهُ والقَدَرُ
ما زلتُ أبكي حِذارَ البَينِ مُلْتَهِبًا[2] ... حتى رثى ليَ فيكَ الريحُ والمطرُ
يا بَرْدَهُ مِنْ حَيَا مُزْنٍ على كَبِدٍ ... نيرانُها بغليلِ الشوق تستعرُ
آليتُ أن لا أرى شمسًا ولا قمرًا ... حتى أراك فأنتَ الشمسُ والقمر

وقال ابن عبد ربه[3]: [البسيط]

صِلْ مَنْ هويتَ وإنْ أبْدَى مُعاتَبَةً ... فأطيبُ العَيشِ وَصْلٌ بين إلْفَينِ
واقطعْ حبائلَ خِدْنٍ لا تلائمه ... فقلّما تَسَعُ الدنيا بَغِيضَينِ[4]

وقال أبو محمد غانم بن الوليد المالقي[5]: [البسيط]

صَيِّر فؤادَكَ للمحبوبِ منزلةً ... سَمُّ الخِيَاطِ مجالٌ للمُحِبَّينِ
ولا تسامحْ بغيضًا في معاشرة ... فقلّما تَسَعُ الدنيا بَغِيضَينِ

وكان المتوكل صاحبُ بَطَلْيَوس ينتظر وفود أخيه عليه من شَنْتَرِين يوم الجمعة، فأتاه يوم السبت، فلمّا لقيه عانقه وأنشده: [الوافر]

تَخَيَّرَتِ اليهودُ السبتَ عيدًا ... وقلْنا في العروبة يَومُ عيدِ
فلمّا أنْ طلعتَ السبتَ فينا ... أطَلْتَ لسانَ مُحْتَجِّ اليهودِ

وقال أبو بكر بن بقي[6]: [البسيط]

---

(١) ديوان ابن عبد ربه (ص ٧٠).
(٢) في الديوان: «مُلْتَهِفًا».
(٣) ديوان ابن عبد ربه (ص ١٦٨) والعقد الفريد (جـ ٣ ص ٤٤، ١٣٨).
(٤) رواية عجز البيت في الديوان هي:

فربّما ضاقتِ الدنيا على اثنينِ

(٥) تقدم هذان البيتان في هذا الجزء (ص ٢٣٣، ٣٥٦) وسيردان في الجزء الخامس.
(٦) الأبيات في قلائد العقيان (ص ٢٨٠) في هجاء أهل المغرب.

أقمتُ فيكمْ على الإقتار والعَدَمِ | لو كنتُ حُرًّا أبيَّ النَّفْسِ لم أُقِمِ
فلا حديقتُكُمْ يُجْنَى لها[1] ثَمَرٌ | ولا سماؤكُمْ تَنْهَلُّ بالدِّيَمِ
أنا امرؤٌ إنْ نَبَتْ بي أرضُ أندلسٍ | جِئْتُ العراقَ فقامت لي[2] على قَدَمِ
ما العيشُ بالعلم إلاّ حيلةٌ ضعفتْ | وحرفةٌ وُكِلَتْ بالقُعْدُدِ البَرِمِ[3]

وقال الأبيض في الفقهاء المرائين[4]: [الكامل]

أهلَ الرِّياءِ لَبِسْتُمُ ناموسَكُمْ | كالذئب يُدْلِجُ[5] في الظلام العاتمِ
فَمَلَكْتُمُ الدنيا بمذهبِ مالكٍ | وقَسَمْتُمُ الأموالَ بابن القاسمِ[6]
ورَكِبْتُمُ شُهْبَ البغالِ بأشْهَبٍ | وبأصبغٍ صبغتْ لكمْ في العالمِ

وقال[7]: [الكامل]

قُلْ للإمام سَنَا الأئمةِ مالكٍ | نورِ العيونِ ونُزْهَةِ الأسماعِ
لِلَّهِ دَرُّكَ مِنْ هُمامٍ ماجدٍ | قد كنتَ راعينا فَنِعْمَ الراعي
فمضيتَ محمودَ النقيبةِ طاهرًا | وتركْتَنا قَنَصًا لِشَرِّ سِبَاعِ
أكلوا بك الدنيا وأنتَ بمعزلٍ | طاوي الحَشَا متكفِّت الأضلاعِ
تشكوك دنيا لم تزل بكَ برَّةً | ماذا رفعتَ بها من الأوضاعِ

وقال ابن صَارَةَ: [البسيط]

يا مَنْ يُعَذِّبُني لَمَّا تَمَلَّكَني | ماذا تريدُ بتعذيبي وإضراري
تَرُوقُ حُسْنًا وفيك الموتُ أجمعه | كالصقلِ في السيف أو كالنورِ في النارِ

وقال عبدون البَلَنْسي[8]: [البسيط]

---

(١) في القلائد: «بها».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «بي».
(٣) هذا البيت غير وارد في القلائد.
(٤) الأبيات في زاد المسافر (ص ٧١)، وهي في المعجب (ص ٢٣٥) منسوبة إلى ابن البني.
(٥) في طبعة بولاق: «يذبح». وفي زاد المسافر: «يختل».
(٦) مالك: هو الفقيه الإمام مالك بن أنس، وابن القاسم هو عبد الرحمن بن القاسم، تلميذ مالك بن أنس.
(٧) زاد المسافر (ص ٧١).
(٨) هو أبو محمد عبد الله بن يحيى الحضرمي، ابن صاحب الصلاة، ويعرف بعبدون؛ من أهل دانية،

يا مَنْ مُحَيّاهُ جَنّاتٌ مُفَتَّحَةٌ وهَجْرُه لِيَ ذَنْبٌ غيرُ مغفورِ
لقد تناقضْتَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ تناقُضَ النارِ بالتدخين والنُّورِ

وقال الوزير ابن الحكيم: [الكامل]

رَسَخَتْ أصولُ عُلاكُمُ تحت الثرى ولَكُمْ على خَطِّ المَجَرَّةِ دارُ
إنَّ المكارمَ صورةٌ معلومةٌ أنتمْ لها الأسماعُ والأبصارُ
تبدو شموسُ الدِّجنِ مِنْ أطواقكمْ وتفيضُ مِنْ بين البنانِ بحارُ
ذلَّتْ لكمْ نَسَمُ الخلائقِ مثل ما ذلَّتْ لشعري فيكمُ الأشعارُ
فمتى مدحتُ ولا مدحتُ سواكُمُ فمديحُكُمْ في مَدْحِهِ إضمار

وقال القاضي أبو جعفر بن برطال[1]: [الكامل]

أستودعُ الرحمَن مَنْ لِوَدَاعِهِمْ قلبي وروحي[2] آذَنَا بوداعِ
بانوا وطرفي[3] والفؤاد ومِقْوَلِي باكٍ ومسلوبُ العَزَاءِ وداعِ
فَتَولَّ يا مولاي حفظهمُ ولا تجعلْ تفرُّقَنا فراقَ وَدَاعِ

وقال ابن خفاجة[4]: [الطويل]

وما هاجني إلاّ تألُّقُ بارقٍ لَبِسْتُ به بُرْدَ الدُّجُنَّة مُعْلَمَا

وهي طويلة[5].

وقال من أخرى[6]: [الكامل]

جَمَعَتْ ذوائبُهُ[7] ونُورُ جبينِهِ بين الدُّجُنَّةِ والصباحِ المُشْرِقِ

= سكن شاطبة، وتوفي ببلنسية سنة ٥٧٨ هـ. المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٢١) والتكملة (رقم ١٤٠٢).

(١) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن علي بن برطال، من أهل الخير، كان قاضي غرناطة، توفي سنة ٧٥٠ هـ. ترجمته وبيتاه الأول والثاني في الكتيبة الكامنة (ص ١٢٥ ـ ١٢٦).

(٢) في الكتيبة الكامنة: «وصبري».

(٣) في المصدر نفسه: «فطرفي».

(٤) ديوان ابن خفاجة (ص ٢٣١).

(٥) هي في الديوان من ٣٥ بيتًا، ورقم البيت هنا هو ٢٢.

(٦) ديوان ابن خفاجة (ص ١٧٧).

(٧) في الديوان: «ذؤابته».

وقال ذو الوزارتين أبو الوليد بن الحضرمي البَطَلْيَوْسي[1] في غلام للمتوكل بن الأفطس يرثيه: [المجتث]

غالَتْه أيدي المَنَايا ... وكُنَّ في مُقْلَتَيهِ
وكان يسقي الندامى ... بطرفه ويَدَيهِ
غصنٌ ذَوَى وهلالٌ ... جارَ الكسوفُ عليه

وقال الفقيه العالم أبو أيوب سليمان بن محمد بن بطال البطليوسي عالمها في المذهب المالكي، وقد تحاكم إليه وسيمان أشقر وأكحل فيمن يفضل بينهما[2]: [البسيط]

وشادِنَينِ ألمَّا بي على مِقَةٍ ... تَنَازَعَا الحُسْنَ في غايات مُسْتَبِقِ
كأنَّ لِمَّةَ ذا مِنْ نَرْجِسٍ خُلِقَتْ ... على بَهَارٍ وذا مِسْكٌ على وَرِقِ
وحَكَّمَا الصَّبَّ في التفضيل بينهما ... ولم يَخافا عليه رَشْوَةَ الحَدَقِ
فقام يُبْدِي هلالُ الدُّجْنِ حُجَّتَهُ ... مُبَيِّنًا بلسانٍ منه مُنْطَلِقِ
فقال وَجْهِيَ بَدْرٌ يُسْتَضاء به ... ولونُ شعريَ مقطوعٌ مِنَ الغَسَقِ
وكُحْلُ عينيَّ سِحْرٌ للنُّهَى وكذا ... كَ الحُسْنُ أَحْسَنُ ما يُعْزَى إلى الحَدَقِ
وقال صاحبه أحسنْتَ وَصْفَك لـ ... كِنْ فاستمعْ لمقالٍ فيَّ مُتَّفَقِ
أنا على أُفقي شَمْسُ النهار ولم ... تَغْرُبْ وشقرةُ شعري شقرةُ الشَّفَقِ
وفَضْلُ ما عِيبَ في العينين مِنْ زَرَقٍ ... أنَّ الأَسِنَّةَ قد تُعْزَى إلى الزَّرَقِ
قَضَيتُ لِلِمَّةِ الشقراء حيث حَكَتْ ... نُورًا كذا حُبُّها يقضي على رَمَقِي
فقام ذو اللِّمَّةِ السوداء يَرْشُقُني ... سهامَ أجفانه مِنْ شدّة الحَنَقِ
وقال جُرْتَ فقلتُ الجورُ منك على ... قلبي ولي شاهد مِنْ دَمْعِيَ الغَدِقِ
وقلت عَفْوَكَ إذ أصبحْتُ بينهما ... فقال دونك هذا الحبلَ فاختنق

وكان فيه ظَرْف وأدب، وعنوان طبقته هذه الأبيات.

وقال: [الطويل]

وغابَ مِنَ الأكواس فيها ضَرَاغم ... مِنَ الراحِ ألبابُ الرجالِ فريسُها

---

(١) ترجمة أبي الوليد ابن الحضرمي في المغرب (جـ ١ ص ٣٦٥).
(٢) تقدمت هذه القصيدة في هذا الجزء (ص ٢٦٠) ببعض الاختلاف المصادر التي وردت فيها.

قَرَعْتُ بها سنَّ الحلوم فأقطعتْ وقد كاد يسطو بالفؤادِ رسيسُها

وله رحمه اللّه تعالى «شرح البخاري» وأكْثَرَ ابن حجر من النقل عنه في «فتح الباري» وله كتاب «الأحكام» وغير ذلك، وترجمته شهيرة.

تم بعونه تعالى الجزء الرابع من نفح الطيب ويليه الجزء الخامس وأوله: وقال الأديب النحوي المؤرّخ أبو إسحٰق إبراهيم بن الأعلم البطليوسي.

ثبت بأسماء المصادر والمراجع

١ ـ الإحاطة في أخبار غرناطة (١ ـ ٤). تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان. مكتبة الخانجي بالقاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٧.

٢ ـ إحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور الكلاعي. تحقيق الأستاذ محمد رضوان الداية. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦.

٣ ـ أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها لمجهول. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١.

٤ ـ أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي، تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.

٥ ـ اختصار القدح المعلّى في التاريخ المحلّى لابن سعيد. دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٠.

٦ ـ أزهار الرياض في أخبار عياض للمقري (١ ـ ٣). تحقيق الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠.

٧ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبي عمر بن عبد البر (١ ـ ٤). تحقيق الأستاذ علي محمد البجاوي. مطبعة نهضة مصر.

٨ ـ الأعلام للزِّركلي (١ ـ ٨). دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠.

٩ ـ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية لابن الخطيب (القسم الثاني). تحقيق الأستاذ إ. ليڤي بروڤنسال. دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦.

١٠ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. شرحه وكتب هوامشه الدكتور يوسف طويل والأستاذان عبد علي مهنا وسمير جابر. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.

١١ ـ بدائع البدائه لعلي بن ظافر الأزدي (على هامش معاهد التنصيص ١ ـ ٢). طبعة القاهرة، ١٣١٦.

١٢ ـ البداية والنهاية في التاريخ لابن كثير (١ ـ ١٤). مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠.

١٣ ـ برنامج شيوخ الرعيني. تحقيق الأستاذ إبراهيم شبوح، طبعة دمشق، ١٩٦٢.

١٤ ـ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضَّبِّي. دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.

١٥ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي. دار المعرفة، بيروت.

١٦ ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي (١ ـ ٤). تحقيق ج. س. كولان وإ. ليڤي ـ بروڤنسال والدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت.

١٧ ـ تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٢.

١٨ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١ ـ ١٤). دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩ ـ تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤.

٢٠ ـ تأريخ قضاة الأندلس أو المَرْقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا للنباهي. تحقيق الأستاذ إ. ليڤي بروڤنسال. دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٨.

٢١ ـ التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتاني. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦.

٢٢ ـ التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (١ ـ ٢). طبعة مصر، ويشار إليها بأرقام الصفحات، وإذا أشير إلى رقم الترجمة كان الاعتماد على طبعة مجريط من المكتبة الأندلسية.

٢٣ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر للشيخ عبد القادر بدران (١ ـ ٧). طبعة دمشق، ١٣٢٩ ـ ١٣٤٩ هـ.

٢٤ ـ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (١ ـ ١٢). حيدر أباد الدكن، ١٣٢٥ ـ ١٣٢٧ هـ.

٢٥ ـ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي. الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦.

٢٦ ـ جمهرة أنساب العرب لابن حزم. تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون. دار المعارف بمصر، ١٩٦٢.

٢٧ ـ جيش التوشيح لابن الخطيب. تحقيق الأستاذ هلال ناجي. مطبعة المنار بتونس.

٢٨ ـ الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف. المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ١٩٦٧.

٢٩ ـ الحلل المَوْشِيَّة في ذكر الأخبار المراكشية لابن الخطيب. مطبعة التقدم الإسلامية بتونس، سنة ١٣٢٩ هـ. وهناك طبعة الرباط (١٩٣٦) بتحقيق الأستاذ علوش، مصدَّرة بعبارة «مجهول المؤلف» وهي عبارة صحيحة لأنه لا يصحُّ أن يُنْسب هذا الكتاب إلى ابن الخطيب لأسباب عدة منها الصياغة والمضمون. ونحن اعتمدنا طبعة تونس لعدم توفّر الطبعة الثانية.

٣٠ ـ الحلة السِّيَراء لابن الأبار (١ ـ ٢). تحقيق الدكتور حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣.

٣١ ـ خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني الكاتب ـ قسم شعراء المغرب (الجزء الأول). تحقيق الأساتذة محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيىٰ. الدار التونسية للنشر، ١٩٦٦.

٣٢ ـ دار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك. تحقيق الدكتور جودت الركابي. دار الفكر بدمشق، ١٩٨٠.

٣٣ ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون المالكي. الطبعة الأولى، مصر، ١٣٥١ هـ.

٣٤ ـ ديوان ابن الحداد الأندلسي. جمعه وحققه وقدم له الدكتور يوسف علي طويل. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠.

٣٥ ـ ديوان ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي. تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية. دمشق، ١٩٧٢.

٣٦ ـ ديوان ابن خفاجة. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠.

٣٧ ـ ديوان ابن دراج القسطلي. تحقيق الدكتور محمود علي مكي، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ١٩٦١.

٣٨ ـ ديوان ابن رشيق القيرواني. جمعه ورتبه الدكتور عبد الرحمن ياغي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩.

٣٩ ـ ديوان ابن الزقاق البلنسي. تحقيق عفيفة ديراني، دار الثقافة، بيروت.

٤٠ ـ ديوان ابن زيدون. شرح وتحقيق الأستاذ كرم البستاني، دار بيروت، بيروت، ١٩٧٩.

٤١ ـ ديوان ابن شهيد الأندلسي. عُنِيَ بجمعه Charles Pellat. دار المكشوف، بيروت، ١٩٦٣.

٤٢ ـ ديوان ابن عبد ربه. حققه وجمعه وشرحه الدكتور محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩.

٤٣ ـ ديوان ابن عنين. تحقيق الأستاذ خليل مردم بك. من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، دمشق، ١٩٤٦.

٤٤ ـ ديوان ابن النبيه. تحقيق الأستاذ عمر الأسعد. بيروت، ١٩٦٩.

٤٥ ـ ديوان ابن هانىء الأندلسي. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠.

٤٦ ـ ديوان أبي تمام. شرح الدكتور شاهين عطية. دار صعب، بيروت.

٤٧ ـ ديوان أبي الربيع الموحدي. تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي ورفاقه. من منشورات كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط.

٤٨ ـ ديوان الأعمى التطيلي. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.

٤٩ ـ ديوان امرىء القيس. تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف بمصر، ١٩٦٩.

٥٠ ـ ديوان البحتري (١ ـ ٢). دار صعب، بيروت.

٥١ ـ ديوان البحتري (١ ـ ٤). تحقيق الأستاذ حسن كامل الصيرفي. دار المعارف بمصر، ١٩٦٣ ـ ١٩٦٥.

٥٢ ـ ديوان ذي الرمة. تحقيق كارليل مكارتني. ط. كمبردج، ١٩١٩.

٥٣ ـ ديوان الرصافي البلنسي. جمعه وقدم له الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩.

٥٤ ـ ديوان زهير بن أبي سلمى. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦.

٥٥ ـ ديوان عمر بن أبي ربيعة. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤.

٥٦ ـ ديوان قيس بن الخطيم. تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد. الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٢.

٥٧ ـ ديوان المتنبي (العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب) للشيخ ناصيف اليازجي. دار القلم، بيروت.

٥٨ ـ ديوان المعتمد بن عباد. تحقيق الأستاذين أحمد بدوي وحامد عبد المجيد. القاهرة، ١٩٥١.

٥٩ ـ ديوان مهيار الديلمي (١ ـ ٤). ط. دار الكتب المصرية.

٦٠ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني (٤ أقسام في ٨ مجلدات). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩.

٦١ ـ ذكر بلاد الأندلس لمؤلف مجهول. (مخطوطة الرباط رقم ٨٥ ج).

٦٢ ـ الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي (١ ـ ٦). تحقيق الأستاذين محمد بن شريفة وإحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣.

٦٣ ـ رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة للشريف الغرناطي (١ ـ ٢). ط. مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٤٤ هـ.

٦٤ ـ الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي) للحميري. تحقيق الدكتور إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠.

٦٥ ـ رياض النفوس لأبي بكر عبد الله المالكي (الجزء الأول). نشر الدكتور حسين مؤنس. الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥١.

٦٦ ـ زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر لأبي بحر صفوان بن إدريس المرسي. تحقيق الأستاذ عبد القادر محداد. ط. بيروت، ١٩٣٩.

٦٧ ـ سرور النفس بمدارك الحواس الخمس للتيفاشي. تحقيق الدكتور إحسان عباس. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠.

٦٨ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب للعماد الحنبلي (١ ـ ٨). دار الكتب العلمية. بيروت.

٦٩ ـ شرح مقامات الحريري للشريشي (١ ـ ٢). ط. القاهرة، ١٣٠٠ هـ.

٧٠ ـ صحيح مسلم (١ ـ ٢). ط. القاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧١ ـ الصلة لابن بشكوال (١ ـ ٣). تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب المصري بالقاهرة، دار الكتاب اللبناني ببيروت، ١٩٨٩.

٧٢ ـ صلة الصلة لأبي جعفر ابن الزبير. تحقيق الأستاذ ليڤي بروڤنسال. ط. الرباط، ١٩٣٧.

٧٣ ـ طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل (ومعه تاريخ الأطباء والفلاسفة لإسحٰق بن حنين). تحقيق الأستاذ فؤاد سيد. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥.

٧٤ ـ طبقات الشعراء لابن المعتز. تحقيق الأستاذ عبد الستار أحمد فراج. دار المعارف بمصر، ١٩٥٦.

٧٥ ـ طبقات النحويين واللغويين للزبيدي النحوي. تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٤.

٧٦ ـ العبر وديوان المبتدإ والخبر (المعروف بتاريخ ابن خلدون) لابن خلدون. سبعة مجلدات في أربعة عشر جزءًا. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١.

٧٧ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه (١ ـ ٧). شرح الأساتذة أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة، ١٩٤٩ ـ ١٩٦٥.

٧٨ ـ علماء إفريقية لمحمد بن الحارث الخشني. ط. القاهرة، مع كتاب قضاة قرطبة للمؤلف نفسه، ١٣٧٣ هـ.

٧٩ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة (١ ـ ٢). شرح وضبط الدكتور يوسف طويل؛ (٣ ـ ٤) شرح وضبط الدكتور مفيد قميحة. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.

٨٠ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة. تحقيق الدكتور نزار رضا. دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥.

٨١ ـ غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري (١ ـ ٣). تحقيق برجشتراستر. طبعة بيروت، دار الكتب العلمية.

٨٢ ـ الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة لابن سعيد. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار المعارف بمصر، ١٩٧٧.

٨٣ ـ فهرسة ابن خير لابن خير الأموي الإشبيلي. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب المصري بالقاهرة، دار الكتاب اللبناني ببيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩.

٨٤ ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (١ ـ ٥). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤.

٨٥ ـ قاموس عربي إسباني للمستشرق الإسباني الدكتور ف. كورينطي. المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٧٧.

٨٦ ـ قاموس إسباني عربي للمستشرق الإسباني الدكتور ف. كورينطي. المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٧٠

٨٧ ـ القاموس المحيط للفيروز آبادي. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦.

٨٨ ـ قرآن كريم. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ.

٨٩ ـ قلائد العقيان في محاسن الأعيان لابن خاقان. القاهرة، ١٢٨٤ هـ.

٩٠ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير (١ ـ ١٣). دار صادر، بيروت، ١٩٨٢.

٩١ ـ كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين لمؤلف مجهول (ضمن صحيفة معهد الدارسات الإسلامية في مدريد، المجلدان التاسع والعاشر. مدريد، ١٩٦١ ـ ١٩٦٢، ص ١٥ ـ ٢٥٦).

٩٢ ـ الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة لابن الخطيب. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.

٩٣ ـ لسان العرب لابن منظور (١ ـ ١٥). دار صادر، بيروت.

٩٤ ـ مجمع الأمثال للميداني (١ ـ ٢). تحقيق الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد. مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٥.

٩٥ ـ محيط المحيط للمعلم بطرس البستاني. مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧.

٩٦ ـ مختار الصحاح للرازي. مؤسسة الرسالة، دار البصائر، بيروت، ١٩٨٥.

٩٧ ـ مختارات من الشعر الأندلسي. جمعها وحققها الدكتور أ.ر. نيكل. دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٤٩.

٩٨ ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط ابن جوزي (المجلد الثامن، ١ ـ ٢). الطبعة الأولى، حيدر أباد الدكن، ١٩٥١ ـ ١٩٥٢.

٩٩ ـ المرقصات والمطربات لابن سعيد. دار حمد ومحيو، بيروت، ١٩٧٣.

١٠٠ ـ مطالع البدور في منازل السرور لعلاء الدين الغزولي (١ ـ ٢). الطبعة الأولى، طبعة مطبعة إدارة الوطن، القاهرة، ١٢٩٩ هـ.

١٠١ ـ المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد أحمد بدوي، دار العلم للجميع، بيروت، ١٩٥٥.

١٠٢ ـ مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس لابن خاقان. الطبعة الأولى، مطبعة الجوائب بالقسطنطينية، ١٣٠٢ هـ.

١٠٣ ـ معالم الإيمان للدباغ (١ ـ ٤). ط. تونس، ١٣٢٠ هـ.

١٠٤ ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي. تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان. ط. القاهرة، ١٩٦٣.

١٠٥ ـ معجم الأدباء لياقوت الحموي (١ ـ ٢٠). طبعة مصر، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨.

١٠٦ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي (١ ـ ٥). دار صادر، دار بيروت، ١٩٨٤.

١٠٧ ـ المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي لابن الأبار. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧.

١٠٨ ـ المغرب في حلى المغرب لابن سعيد (١ ـ ٢). تحقيق الدكتور شوقي ضيف. دار المعارف بمصر، ١٩٦٤.

١٠٩ ـ المقتبس من أبناء أهل الأندلس لابن حيان القرطبي (تتمة السفر الثاني ويؤرخ من سنة ٢٣٢ حتى سنة ٢٦٧هـ). تحقيق الدكتور محمود علي مكّي. دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٩٧٣.

١١٠ ـ المقتضب من كتاب تحفة القادم لابن الأبار. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣.

١١١ ـ ملحق المعاجم العربية للمستشرق رينهارت دوزي (١ ـ ٢). طبعة، ١٩٢٧.

١١٢ ـ نبذ تاريخية في أخبار البربر، منتخبة من مجموع سمي «مفاخر البربر» لمؤرخ مجهول، ألّفه سنة ٧١٢هـ. طبع في الرباط، ١٩٣٤.

١١٣ ـ نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان لابن الأحمر. تحقيق الأستاذ محمد رضوان الداية. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧.

١١٤ ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي (١ ـ ٢). دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩.

١١٥ ـ نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك لأحمد بن عمر العذري المعروف بابن

الدلائي. تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني. مطبعة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، ١٩٦٥.

١١٦ ـ الوافي بالوفيات للصفدي (١ ـ ١٧). ڤيسبادن، ١٩٦٢ ـ ١٩٨١.

١١٧ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان (١ ـ ٨). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر، بيروت، ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨.

١١٨ ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي (١ ـ ٥). دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩.

فهرس الجزء الرابع

مـــن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

فهرس الجزء الرابع من كتاب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري

تمّ فهرس الجزء الرابع من كتاب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب



مؤسسة جواد للطباعة والتصوير

هاتف: ٨٣٧٧-٢-٨٣٨١٥٧ - بيروت - لبنان


